نقولا زيادة

عالم العرب

جغرافيته، تاريخه ومصادر ثروته

الأعمال الكاملة

نقولا زيادة
عالم العرب

عـالـم العــرب

جغرافيته، تاريخه، ومصادر ثروته

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

عالم العرب

جغرافيته، تاريخه، ومصادر ثروته

الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
© رائد وباسم زيادة
إصدار: **الأهلية للنشر والتوزيع**
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٣٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

المحتويات

بين يدي هذا الكتاب ٩
١ ـ المغرب ١١
٢ ـ الجزائر ٣٧
٣ ـ تونس ٥٦
٤ ـ ليبيا ٧٤
٥ ـ موريتانيا ٩١
٦ ـ مصر ١٠٥
٧ ـ السودان ١٢١
٨ ـ جيبوتي ١٣٥
٩ ـ الصومال ١٤٤
١٠ ـ المملكة العربية السعودية ١٥٣
١١ ـ الإمارات العربية المتحدة ١٧٢
١٢ ـ الكويت ١٨٩
١٣ ـ البحرين ١٩٩
١٤ ـ قطر ٢١٥
١٥ ـ عُمان ٢٢٤
١٦ ـ الجمهورية العربية اليمنية ٢٣٤
١٧ ـ جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ٢٥٠
١٨ ـ الأردن ٢٦٢
١٩ ـ فلسطين ٢٨٧
٢٠ ـ العراق ٣٠٥
٢١ ـ سورية ٣٢٠
٢٢ ـ لبنان ٣٣٢

بين يدي هذا الكتاب

لما قررت «جامعة الدول العربية» إنشاء مجلة «شؤون عربية» وعهدت إلى الصديق الدكتور أنيس صايغ برئاسة تحريرها، طلب مني هذا الرجل الفاضل أن أزود المجلة بمقال شهري عن دولة من الدول التي تشملها عضوية الجامعة، وهي، بما في ذلك فلسطين، اثنان وعشرون قطراً.

لَبَّيت الطلب لأن الأمر يعنيني، ولأن هكذا طلب لا يُرَدّ، ولأن مجلة للجامعة العربية يجب أن تلقى العون والتأييد من الكتّاب (والقراء).

كانت المقالات الاثنتان والعشرون قد نشرت بدءاً من العدد الأول الصادر في آذار (مارس) ١٩٨١، أما ترتيب نشر المقالات فقد التزم فيه التنظيم المتبع في إدارة الجامعة العربية وهو الترتيب الهجائي. ومن هنا كان المقال الأول عن الأردن والأخير عن جمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية.

رغب رئيس التحرير أن يكون كل مقال متوازناً، من حيث عناصره، بحيث توزع أجزاؤه وصفحاته على الأرض والشعب والتاريخ والاقتصاد وما إلى ذلك. وقد حاولت ذلك، لكنني لم أستطع أن أتخلص، إلا قليلاً، من أثر المهنة والحب، فأنا من المشتغلين بالتاريخ أصلاً، وأنا أحب هذه المهنة. ولذلك كلما حاولت أن «ألجم» الهوى، كان يشتط عليَّ فألبي نِداءه. ومن هنا كان العنصر التاريخي، في الكثير من هذه المقالات هو الغالب. لكنه لم «يسرق» حق العناصر الأخرى، بل كنت «أزيد» حصته من الخارج.

وقد رغب إليَّ عدد من الاخوان الذين استمتعوا بقراءة هذه المقالات أن أجمعها في كتاب. ولست أستطيع إلاّ أن أقبل بما يراه الأصدقاء. والمقالات كتبت على مدى يقارب السنتين، ولذلك فقد يلاحظ القراء تفاوتاً في الأسلوب، وهذا أمر طبيعي. وثمة أمر آخر أود أن ألفت النظر إليه، وهو أن ترتيب المقالات الآن يختلف عن ترتيب نشرها. فهي الآن منتظمة على أساس المناطق الجغرافية الكبرى في دنيا العرب. ومن هنا قد يكون في بعضها إشارة تبدو أنها إلى مقال لاحق، وكانت أصلاً إشارة إلى مكان سابق.

وقد يتنبه القارىء إلى أن الإحصاءات ليست آنية. وهذا أمر صحيح. لكن لم يقع لدي، مع أنني جربت ذلك، إحصاءات جديدة تتعلق، مثلاً، بالتعليم الجامعي، أو النواحي الثقافية. أما الأرقام المتعلقة بالنفط فيمكن، إذا أراد القارىء الدقة، أن ينقص أو يزيد

منتوج النفط نحو الربع، وأن يجعل دخله أقل بثلث المبالغ المذكورة. ذلك أن تخفيض الإنتاج والأسعار يتقلب بحسب العرض والطلب والظروف السياسية والاقتصادية.

وأما الأحداث الرئيسية التي مرت على البلاد العربية منذ أن كتبت بعض هذه المقالات، فهي لا تزال بأكثرها على حالها. وكل ما يرتبط بأمرها، من قريب أو بعيد، هو جزء مما يجري في العالم الأكبر. ألم يقل النظّام من قبل:

وتدَّعي أنّك جـــرمٌ صـــغـــيـــرٌ
وفـــيك انطوى العـــالم الأكـــبـــرُ

وهذان قطران عربيان هما جرم صغير من هذه الكرة الأرضية الواسعة، ومع ذلك انطوى فيهما العالم الأكبر، تقوية لنفوذه، وتجربة لسلاحه، وعضاً على الأصابع، وهما اللذان يذوقان الألم، ويصابان بالموت والدمار، والتفجير والانفجار.

هذا الكتاب أقدمه إلى القارىء العربي، آملاً أن يكون فيه فائدة أولاً ومتعة ثانياً. والفائدة التي أتوخاها ليست في أن يقتصر القارىء على الفصل الخاص ببلده. بل إن ما يدور في خلدي هو أن يتعرف القارىء على هذه الأقطار جميعها. فنحن بأشد الحاجة إلى ذلك كي نتمكن من التغلب على جهلنا بعضنا بالبعض الآخر، وكي نتعرف بعضنا على البعض الآخر عن طريق يختلف عن الأساليب المتبعة عادة، والتي قد تسيء من حيث تدري أو لا تدري.

وأنا أرجو ممن له أية ملاحظة على المادة والحقائق، أن يزودني بها، لعليّ ـ وهل ما يمنع التمني ـ أتجنبها في طبعة لاحقة.

بيروت ١٩٨٤

١ـ المغرب

تتاخم المملكة المغربية الجزائر شرقاً في جنوب شرقي، وتحتضنها موريتانيا جنوباً في جنوب غربي. أما في الشمال والغرب فلها اطلالة على البحر المتوسط طولها نحو ثلاثمئة كيلو متر، وإطلالة طويلة على المحيط الأطلسي تمتد من طنجة، في اتجاه جنوبي غربي، إلى حدود موريتانيا. ومساحة البلاد، بما في ذلك الصحراء المغربية أو الغربية (وكانت إلى سنة ١٩٧٦ تسمى الصحراء الاسبانية) تبلغ نحو ٧٢٥,٠٠٠ كيلو متر مربع.

والصفة الجغرافية الطبيعية البارزة في المغرب (دون الصحراء المغربية) هي سلاسل الأطلس التي تبلغ في تلك البلاد أعلى الارتفاعات وتكون الأشد وعورة بالنسبة إلى امتدادها شرقاً في الجزائر. وجبال الأطلس جبال التوائية، يعود ظهورها إلى الحقبة الجيولوجية الثالثة. وهي جبال مُضطربة، من الوجهة الجيولوجية، ولذلك فإنها تتعرض لزلازل عنيفة، كانت أحدثها الزلزلة المخربة المدمرة التي ضربت أغادير سنة ١٩٦٠.

وسلاسل الأطلس في المغرب تتجمع حول أربعة محاور، يفصل بين الواحدة والأخرى منها، في بعض الحالات، سهول منخفضة أو هضاب. ففي شمال البلاد تمتد جبال الريف (تلفظ الرِّف)، التي تكوّن قوساً جبلياً وعر المسالك، وترتفع ارتفاعاً فجائياً من سواحل البحر المتوسط، إلى ما يزيد عن ٢٢٠٠ متر. وهذه الجبال يصعب اجتيازها، ومن ثم فقد كانت حاجزاً يمنع التنقل من الشرق إلى الغرب. ويغلب على سكانها أنهم من البربر، وأنهم يعملون في الزراعة، حيث يمكن ذلك. والمدينتان الأقرب موقعاً وصلة بجبال الريف هما تطوان (أو تطاوين) وطنجة.

يفصل ممر تازة بين جبال الريف في الشمال والأطلس الأوسط الى الجنوب. وهذا الممر هو الطريق الوحيد الذي يصل بين غرب الجزائر والمغرب. أما الأطلس الأوسط نفسه فإنه يرتفع الى نحو ٣,٠٠٠ متر، ويتسع بحيث يصبح حاجزاً بين البلدين. هذا إلى أنه يكوّن خط تقسيم المياه للنهرين الرئيسيين في المغرب وهما ـ واد أم الربيع الذي يتجه غرباً ويصب في المحيط الأطلسي، ونهر مولويّة الذي يتجه شمالاً في شرق ويصب في البحر المتوسط. والأطلس الأوسط تغلب عليه الطبقات الصخرية الكلسية التي تخترقها أودية عميقة كونتها الأنهار على مر العصور، وقممه

تنتهي بفوهات بركانية. وسكانه، وأكثرهم من البربر، أصلاً، يقضون الشتاء في القرى القائمة في لحف الجبال، وينتقلون مع قطعانهم صيفاً إلى السفوح العليا حيث تجد قطعانهم المرعى الجيد.

يتصل الأطلس الأوسط في جزئه الجنوبي بالأطلس المرتفع الذي يتكون من الجبال الوعرة التي يصل ارتفاع القمم فيها نحو ٤,٠٠٠ متر، والتي تغطيها الثلوج الكثيفة في الشتاء. وهذه الجبال تمتد في سلسلة عظيمة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وترتفع ارتفاعاً فجائياً في جهتيها ـ في الشمال من السهول الأطلسية، وفي الجنوب من الأرض الصحراوية. ولأن السفوح الشمالية تقابل المحيط الأطلسي، ومن ثم تحمل اليها الرطوبة فإنها مغطاة بالغابات. أما السفوح الجنوبية، التي تلفحها رياح الصحراء الحارة، فهي سفوح جرداء بالمرة. وليس ثمة ممرات منخفضة يمكن استعمالها طرقاً عبر هذه الجبال، ولكن التاجر لم يعدم وسيلة تمكنه من نقل متاجره، عبر هذه السلسلة الوعرة، من السهل الأطلسي الى المناطق الصحراوية. والقرى التي تقوم في هذه المنطقة تمتاز بتماسك أجزائها ووجود أسوار وتحصينات تدور بها.

وفي الأجزاء الجنوبية من المناطق الجبلية في المغرب تقل سلسلة جبال الأطلسي الجنوبي (أو انتيأطلس). وهذه السلسلة تفصل بين نهري السوس والدرع، إذ يتجه الأول نحو المحيط الأطلسي ويصب فيه عند أغادير، وأما الثاني فيتجه جنوباً في شرق حيث تبتلعه الصحراء.

وثمة رقعة واسعة منخفضة تمتد من الساحل الأطلسي الى الداخل وتدور بها في الشمال والشرق والجنوب جبال الريف والأطلس الأوسط والأطلس المرتفع. وهي تقسم إلى قسمين: «سهل الغرب» ووادي نهر سِبو المتسع في الشمال، والهضبة والسهول التي تحيط بتادلا وجبيلات في الجنوب.

وبلاد مثل المغرب، حتى بدون الصحراء المغربية، متسع في رقعته مختلف في تكوينه الجيولوجي والجغرافي ومشرف على بحرين وصحراء وجبال، لا بد أن يكون في مناخه تباين بين أجزائه، وفي نباته تنوع بين سهله وجبله. ويمكن القول اجمالاً بأن الأجزاء الشمالية والوسطى من المغرب تتمتع بمناخ متوسطي (نسبة إلى البحر المتوسط) إذ إن الشتاء هنا دافىء رطب، والصيف حار جاف. ولكن ما نكاد نصل الاجزاء الجنوبية من البلاد حتى نقترب من الأحوال شبه الصحراوية، التي تنتهي بأن تصبح صحراوية تماماً.

في جبال الريف والسفوح الشمالية للأطلس الأوسط يتجاوز معدل سقوط المطر السنوي ٧٥٠ ملم، والجفاف الصيفي لا يدوم أكثر من ثلاثة أشهر. أما في ما تبقى من الأطلس الاوسط وفي الأطلس المرتفع وفي النصف الشمالي للسهول الأطلسية (نسبة إلى المحيط) فالمطر السنوي يتراوح بين ٤٠٠ و٧٥٠ ملم، وتمتد فترة الجفاف

الصيفي الى أربعة أشهر وقد تزيد. وتهب أحياناً، خلال فصل الصيف، رياح صحراوية شديدة الحرارة، تسمى الشرقية، فتجتاز الجبال وتنحدر إلى السهول فتحرق الزرع والضرع. وتهب على السواحل الأطلسية نسائم من البحر، فتخفف الحرارة كثيراً. وهذه النسائم تكون قد خفت حرارتها بتأثير التيار البحري البارد الذي يمر بجزر كناري.

وتسود الأحوال الشبيهة بالجافة في النصف الجنوبي من السهول الأطلسية (نسبة إلى المحيط) وفي الأطلس الجنوبي (أنتيأطلاس)؛ فالمطر ينقص معدله الى ما بين ٢٠٠ و٤٠٠ ملم. وعلى هذا فهو غير ثابت، ومن ثم لا يمكن الاعتماد عليه في زراعة الحبوب دون الالتجاء إلى الري.

والمناطق الواقعة إلى الشرق والجنوب من سلاسل جبال الأطلس تحرمها هذه الجبال من الرياح المحملة بالأمطار الوصول إليها. وبذلك ينخفض معدل المطر السنوي دون ما ذكر. وعندها لا بد من الاعتماد الكلي على الري في سبيل الاستغلال الزراعي.

يمكن القول إجمالاً بأن التجمعات الجبلية في المغرب تكسوها الغابات الكثيفة والمفتوحة. أما المنخفضات المحيطة بها فتنمو فيها النُجيّمات والنباتات الشوكية التي تحتمل الجفاف، حيث لا تُستَغَل. لكن اجتثاث الغابات ـ قطعاً وحرقاً ورعاية ـ بدّل هذا التكوين الطبيعي للحياة النباتية هناك، خاصة في المنخفضات وفي السفوح الدنيا. والباحثون متفقون على أن غابات شجر الفلين كانت تغطي القسم الأكبر من المنخفضات الأطلسية (نسبة إلى المحيط). أما الآن فلا توجد سوى غابة واحدة هي «المعمورة» التي تشير إلى الماضي. وتغطي أشجار السنديان مساحات كبيرة من السفوح الوسطى والعليا من الجبال.

أما السهول المنخفضة الواقعة إلى الجنوب والشرق من سلاسل جبال الأطلس فهي سهوب أو صحار. والنبات الملائم لذلك هو الموجود هناك، وبين هذه الأنواع توجد الاسبارتو (الحلف) وشجرة الارغن (وهي شجرة صغيرة لا تنمو الا في جنوب غرب المغرب).

والصحراء المغربية (مساحتها نحو ٢٦٦,٠٠٠ كم٢) تمتد بين جنوب المغرب وموريتانيا، وتحاذي شواطىء المحيط الأطلسي. وهي مستوية السطح في غالبها. فالساحل تحيط به الى الداخل (إلى مسافة ٢٥٠ كم) سهول تمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وهذا السهل الغِرْيني الواسع تكثر فيه الكثبان الرملية. وترتفع الأرض فيما وراء هذا السهل تدريجاً بحيث تكّون هضبة تقطعها سلاسل من الصخور الرملية قد تصل الى ارتفاع ٣٠٠ متر. وعلى مقربة من الحدود الموريتانية، في الجهة الشمالية الشرقية من الصحراء المغربية، ترتفع سلاسل جبال متفرقة الى نحو ٦٠٠ متر. وليس في المنطقة سيل ماء دائم الجريان، والوادي الوحيد الحري بالعناية هو

وادي الساقية الحمراء الذي يجتاز الجزء الشمالي من المنطقة-ويصب في المحيط الاطلسي قرب «العيون». والمنطقة بأسرها ذات مناخ صحراوي قاس. فليس ثمة مكان يزيد فيه سقوط المطر عن ١٠٠ ملم، وفي أكثر المنطقة لا يسقط أكثر من ٥٠ ملم. ومن ثم فإن الحياة النباتية فيها تشمل النبات الصحراوي بنجيماته وأشواكه. والحر في المنطقة شديد، ولكن المناطق الساحلية تخفف من حرها الرياح التي تهب عليها بعد أن تكون قد مرت فوق التيار الكناري البارد.

يقدر عدد سكان المغرب بنحو واحد وعشرين مليوناً. وسنتحدث عن توزيعهم الجغرافي والاقتصادي فيما بعد، لكن الذي نريد ان نعنى به الآن هو العناصر التي دخلت في التركيب السكاني في المغرب عبر تاريخه الطويل. فالبلاد، مثل الجزائر وتونس، كانت مسرحاً لتكوّن جنس البحر المتوسط قبل فترة من الزمان لا تقل عن ١٥,٠٠٠ سنة. والمهم انه في بدء العصور السابقة للتاريخ كانت الشعوب البربرية تقطن المغرب في مجمل أجزائه. لكن بلاداً لها موقع المغرب واتصالاته وجذبه لسكان الأماكن الواقعة الى الجنوب والشمال منه، لا بد أن تدخله عناصر بشرية أخرى تهبط انحاءه وتقيم في ارجائه. فجاءته عناصر من الشمال ـ من اوروبة. ولعلَّ الموجة الأولى كانت في آخر عصر جليدي، اذ انتقل الالبيون الى مناطق مختلفة من حوض البحر المتوسط. وقد ظل أثر هؤلاء بشكل خاص في الريف وما إليه. لكن الاوروبيين جاءوا البلاد مع الرومان والفندال (بعد ان تأوْربوا) وجماعات صغيرة من الأسبان في العصور الحديثة. أما أثر الفرنسيين في الحياة العنصرية المغربية فضئيل جداً.

وجاءت المغرب، في فترات متفاوتة، عناصر من السودان الغربي رقيقاً أصلاً، ومرتزقة في جيوش سلاطين المغرب (كان للمولى اسماعيل (١٦٧٢ ـ ١٧٢٧) نحو ١٥,٠٠٠ منهم) وتجاراً استقروا في البلاد. ويبدو ان لهذا العنصر أثراً يزداد وضوحاً في الجنوب المغربي.

على أن الموجات التي أثرت فعلاً في التكوين البشري في المغرب، مثل بقية شمال افريقية، هي التي جاءت من الشرق. وأول هذه، المعروفة تاريخياً، هي الموجة الفينيقية (البونية)، والتي كان من نتيجتها قيام امبراطورية قرطاجة في شمال افريقية (في غرب ليبيا وتونس والجزائر والمغرب). لكن هذا كله جزء صغير بالنسبة الى الهجرات العربية التي دخلت المغرب (بطريق الاقطار الواقعة الى الشرق منه) بدءاً بجنود الفتح الأولين، واستتباعاً بالإمدادات الراشدية والأموية. ثم في القرن الحادي عشر هاجرت إلى المغرب قبائل بني هلال وبني سليم اليمنية عن طريق مصر. ثم توالى وصول جماعات عربية بعد ذلك.

وبسبب من ارتباط هذا التطور السكاني بتاريخ المغرب، فإن القضية كلها ستتضح عندما نتناول تاريخ البلاد في الجزء التالي.

البعد التاريخي للمغرب

أقام الفينيقيون، ثم القرطاجيون بعدهم، محطات وبيوتاً تجارية على السواحل المغربية. ولما احتل الرومان الشمال الافريقي في القرن الأول قبل الميلاد، أنشأوا ولاية موريتانيا تنجيتانا في الشمال المغربي، وقد كانت حدودها تمتد الى الجنوب قليلاً من الرباط ومكناس وفاس. وفي القرن الخامس للميلاد دخل الفندال المغرب قادمين من اسبانية لما أخرجهم القوط الغربيون من تلك الديار. وقد احتل البزنطيون منطقة الشمال الافريقي في القرن السادس، لكن أمرهم هناك لم يطل إذ انتزعها العرب في اوائل القرن السابع.

والدور العربي الأول، بالنسبة لتاريخ المغرب وجواره، هو دور الفتوح الذي يمتد ثلاثين سنة بدءاً من الحملات الأولى (سنة ٦٣٩). ولكن الفتوح لم تستمر بسبب ما تعرضت له الدولة العربية الاسلامية الناشئة من حروب أهلية. ولما استقر الأمر للأمويين (٦٦١) استؤنفت عملية الفتوح بنشاط كبير. الا ان العملية لم تكن يسيرة. وذلك، بالإضافة إلى أسباب أخرى، بسبب بعد الشقة بين دمشق العاصمة وميادين القتال، ومن ثم صعوبة ارسال المدد من الرجال والعدة للقتال والمؤن والزاد. ومما لا شك فيه ان بناء القيروان، واتخاذها مركزاً لإراحة الجند وللتموين والميرة كان له أثر كبير في تنشيط الفتوح. ويمكن القول بأن الفتح العسكري قد تم، بشكل عام، قبل ارسال حملة طارق بن زياد الى شبه جزيرة ايبريا (٧١١).

ويلي عصر الفتوح في تاريخ المغرب العربي عصرُ الولاة، الذي يمتد من زمن الدولة الاموية والقرن الأول من الدولة العباسية. في هذه الفترة اشتعلت العصبية القبلية العربية ـ القيسية اليمنية ـ في المغرب، وكانت عصبيات بربرية قائمة بين هذه القبائل أيضاً، وقد تداخلت العصبيتان ـ العربية والبربرية ـ مع أطماع الولاة وإساءة التصرف، فكان من ذلك قيام فتن وثورات. وأهم من ذلك كله، في رأينا، هو ان البلاد أصبحت أرضاً صالحة لانتشار نزعات اسلامية كانت قد بدأت في المشرق وانتقلت إلى المغرب. وهكذا نجد أنه مع ان الاسلام انتشر بين جماعات متفرقة من البربر، ومع ان اللغة العربية قد بدأت تنتشر في مناطق واسعة، فإن مذهب الخوارج، وخاصة بنحلتيه الصفرية والأباضية، لقي تجاوباً كبيراً مع سكان البلاد. ويمكن القول إجمالاً بأن الخوارج كانت قد قويت شوكتهم منذ القرن الثامن للميلاد في المغرب الأقصى (المملكة المغربية اليوم) وبعض المغرب الأوسط (الجزائر الحالية)، فكانت منهم دولة بني مدرار الصفرية، كما كان للأباضية دولة في افريقية (تونس) وبعض الجزائر المجاور لها.

وزعماء الخوارج، سواء في ذلك القادمون من المشرق، مثل عكرمة الصفري وأبو سلمة بن سعيد الأباضي، والذين ظهروا في المغرب، قاموا بثورات ضد الحكم الأموي والحكم العباسي.

والدول التي قامت في المغرب في أوائل العهد العربي الاسلامي هي:

١ ـ بنو مدرار في سجلماسة (تافيلالت فيما بعد) في جنوب المغرب الأقصى، صفّريّة (٧٥٧ ـ ٩٠٩)، وكانت تسيطر على الطرق التجارية الموصلة من الشمال إلى السودان الغربي. وكانت علاقتها مع الادارسة والأمويين في الأندلس طيبة، ومن ثم فقد نجحت في مساعيها التجارية. (وقد عاصرتها الدولة الرستمية الاباضية في تاهَرْت في الجزائر ٧٧٧ـ ٩٠٩، وكانت تعتمد على التجارة أيضاً).

٢ ـ دولة الادارسة ـ مؤسسها ادريس الأول الذي بنى فاس واتخذها عاصمة له. وادريس من أحفاد الحسن بن علي. كان الادارسة علويين، ومع ان اقامتهم الدولة كانت احتجاجاً على تصرف العباسيين مع آل البَيْت، فإنهم لم يكونوا شيعة، ودامت دولة الادارسة من ٧٨٩ ـ ٩٢٦.

٣ ـ الدولة الفاطمية ـ قامت في المهدية (تونس) سنة ٩٠٩، وانتشرت سلطتها في غرب الشمال الافريقي. قضت على الدول المدرارية والرستمية وأضعفت الادارسة. ولكن لما انتقلت الخلافة الى مصر (٩٦٩) ضعف شأنها في بلاد المغرب.

جدير بنا، قبل أن نتابع الدول العربية الاسلامية التي نشأت في المغرب، ان نلقي بعض الضوء على ما كان يجري في المناطق الواقعة إلى جنوبه، لارتباطها به.

كانت الصحراء ملاذاً لقبائل صَنْهاجة البربرية، كما كانت منطقة يعز على الآخرين دخولها. وإلى جانب صَنْهاجة كان ثمة تجمعان بربريان لهما في الصحراء مكان ومكانة وهما لَواتَه وزناته. وكان لكل من هذه تفرعات متعددة. وتفرعات (قبائل) صنهاجة هي: لَمتونة ومَسوفة وغُدالة. ولأن هذه كانت لها على طرق التجارة سيطرة فقد كانت ذات نفوذ. الا ان قبيلة زناتة، التي كانت ديارها تقع شمالي ديار لمتونة الصنهاجية، حالفت أمويي الاندلس فتقوى بذلك نفوذها. وكانت الى الجنوب من ديار لمتونة تقع دولة غانة السودانية. ومن ثم فقد حشرت لمتونة بين جماعة تجارية الى الشمال ودولة تجارية الى الجنوب، فقلت تجارتها. عندها هاجمت لمتونة مدينة أوداغُشت واستولت عليها في القرن التاسع. وبذلك فتحت لمتونة طريقاً جديداً للتجارة، وأصبحت أُوداغُشت مدينة كبرى في القرن التالي.

أما دولة غانة التي كانت تقوم في منطقة أكوار، والتي أصبحت كومبي صالح عاصمتها، فقد اتسعت أملاكها من موطنها في «الساحل» (وهي المنطقة التي تلي الصحراء، والتي فيها مجال للرعاية والزراعة، وإنما سميت الساحل لأنها اعتبرت ساحلاً للصحراء) إلى تيشت شمالاً. وقد هاجم الغانيون أُوداغُشت واستولوا عليها (٩٩٠)، وفرضوا سلطانهم على التجار الذين كانوا ينقلون المتاجر من الشمال الى الجنوب. ففيها كانت توجد المتاجر الرئيسية مثل الذهب والرقيق والعاج وخشب الابنوس المحمولة من بلاد السودان، والأقمشة والأدوات والسلاح والخرز والحجارة

الكريمة والآنية النحاسية والملح المنقولة من الشمال. وهنا كان تجار الشمال وتجار الجنوب يتبادلون سلعهم.

ومن الباحثين من يرى بأن غانة كان يسكنها منذ القرن الثامن جماعة من العرب. ذلك بأن الرواية التاريخية تقول بأنه في النصف الأول من ذلك القرن قامت حملة الى غانة، أو بعض أجزائها، وعادت بالكثير من الذهب وما إليه. ويبدو أن جماعة من أفراد هذه الحملة ظلوا في غانة. ولَعلَّ اليهم يرجع الفضل في تعريف السكان بالإسلام. والذين قبلوا الاسلام كانوا بعض التجار الذين كانت تربطهم بالتجار المسلمين القادمين من الشمال مصالح وصداقات.

ويبدو أنه في القرن العاشر أيضاً اعتنق بعض زعماء صنهاجة الاسلام، إذ رأوا فيه ما يقوي صلاتهم بالدول الاسلامية الواقعة في الشمال. لكن هذا لا يعني ان الاسلام لم يعرفه الصنهاجيون إلا يومها.

وما دمنا بسبيل ذكر انتشار الاسلام هناك فلنشر إلى أن التكرور (في جهات نهر السنغال) اعتنقوا الإسلام في مطلع القرن الحادي عشر، ومثل ذلك ينجر على سلّي. وهذه الحقيقة التاريخية هامة بالنسبة الى بحثنا، لأن هذه المنطقة هي التي ظهر فيها المرابطون.

في أوائل القرن الحادي عشر كان تارسينا يتزعم دُغالة الصنهاجية. وهذا، فيما تقول الرواية، كان أول من نطق بالشهادتين من زعماء الصنهاجيين، وتسمى عبد الله ابن محمد. وقد أقبل أكثر الدغاليين على دين الله فدخلوه معه أفواجاً.

وكان الصنهاجيون يدركون مدى الخطر المحيق بهم بسبب وجود غانة إلى الجنوب الشرقي (الذي هو جزء كبير من موريتانيا الحديثة) ووجود مملكة التكرور إلى الجنوب (وهو جزء آخر من موريتانيا الحديثة). وكان الاحتكاك بين لمتونة في أُوداغُشت وغانة قوياً ومستمراً، وذلك بسبب التزاحم على طرق التجارة وأسواقها. وكان أحد زعماء لمتونة قد أغار على غانة فيما مضى من الزمان، فظل الغانيون يتحينون الفرص لإخراجهم من ديارهم، وللانتقام لهذا العمل. وقد تم لجنود غانة ذلك في سنة ٩٩٠ على ما مر بنا، وأصبحت أُوداغُشت وما إليها جزءاً من دولة غانة.

الا ان اسلام دُغالة الصنهاجية، في مطلع القرن الحادي عشر، كان له أثر بالغ في المنطقة بأسرها. ذلك أن يحيى بن ابرهيم، خليفة تارسينا (عبد الله أبو محمد)، أدى فريضة الحج (حوالى سنة ١٠٣٥)، والتقى في طريق عودته بعالم مغربي (أبو عمران الفاسي) في القيروان. واتضح ليحيى مدى جهله بالإسلام من حديثه مع العالم المغربي. لذلك اصطحب معه عبد الله بن ياسين ليفقه دغالة في الدين. فلم تتقبل القبيلة العالم الجديد، فانسحب هذا إلى رباط في منطقة نهر السنغال (لعل الرباط كان في جزيرة قائمة في النهر نفسه). وقد أثار عمله وعمل الفئة التي لازمته، اهتمام

بعض السكان هناك، فانضموا اليه، وعاهدوه على العمل في سبيل نشر الإسلام.

خرج ابن ياسين من الرباط ومعه جماعة من الأعوان، وهاجموا سجلماسة (١٠٥٤) واحتلوها. وفي السنة نفسها احتل يحيى بن عمر الزعيم اللمتوني (الصنهاجي) أُوداغُشت. وهكذا ظهرت دولة المرابطين إلى الوجود (في منتصف القرن الحادي عشر)، وكان لها السيطرة على المنطقة الممتدة من سجلماسة في الشمال إلى أُوداغُشت؛ ثم ان المرابطين وسعوا نفوذهم إذ احتلوا غانة، وأرغموا ملكها ونبلاءها على اعتناق الاسلام. ولعلّ الأثر الأكبر لقيام المرابطين في تلك الرقعة من التراب الافريقي، بالإضافة إلى نشرهم الإسلام السني المالكي، هو أنهم أوجدوا هناك ما يصح أن يسمى حكومة مركزية.

على أن دولة المرابطين كان لها اتجاه آخر لعلّه كان الأهم حضارياً. ذلك ان يوسف بن تاشفين، ابن عم أبي بكر، قاد الجيوش شمالاً واحتل المغرب الأقصى بدءاً بسجلماسة وأنشأ مراكش واتخذها عاصمة له. ووسع ملك الدولة المرابطية (٤٤٨ ـ ١١٤٧) بحيث شملت، بالإضافة الى المغرب، الجزائر وأجزاء من اسبانية العربية (الاندلس)، وأوقف، ولو إلى حين، الزحف الاسباني عليها، إذ انتصر يوسف على الاسبان في معركة الزلاقة (١٠٨٦).

وكانت دولة الموحدين (١١٣٠ ـ ١٢٩٦) هي التي خلفت المرابطين في المغرب. والدولة بدأت بحركة اصلاحية قام بها ابن تومَرْت، كان أساسها احتجاجاً على تخاذل المرابطين دينياً في أواخر عهدهم. ودولة الموحدين اتسع ملكها بحيث شمل المغرب والجزائر وتونس ومنطقة طرابلس وأجزاء من اسبانية. بل ان الذي حدث أنه قد قامت دولة موحدية في الاندلس وكانت عاصمتها إشبيلية.

كان الموحدون حماة العلم ورعاة الأدب. فبلاطهم في مراكش كان يزهو بأمثال ابن طفيل وابن رشد الفيلسوفين اللذين كانا أيضاً من أطباء سلاطين الموحدين. لكن سلاطين الموحدين، وخاصة الأوائل منهم، كانوا مدفوعين بفكرة الجهاد.

وهذه الحماسة نحو الجهاد هي التي ورثها المرينيون عن الموحدين لما أقاموا دولتهم في المغرب (١١٩٦ ـ ١٤٦٥). ومن هنا كان اندفاعهم لاسترداد الاندلس. لكن محاولتهم لم تؤد إلى نتيجة عملية في النهاية. وكانت حملة ١٣٤٠ آخر محاولة افريقية لاسترداد أي جزء من الاندلس.

الاّ أن بني مرين كانوا يكرمون العلم والعلماء وأهل الفن. ولم يكن ذلك في أنهم فتحوا بلاطهم في العاصمة فاس لهؤلاء الناس، بل انهم أفادوا منهم. فسلاطين بني مرين كانوا من كبار البنائين في تاريخ المغرب، وهذه مدارسهم في فاس (مثل البوعنانية والصفارين والعطارين) وغير فاس، التي تبلغ الغاية في اتقان المعمار والحفر والنقش؛ وهذه المساجد التي تركوها، وهذا توسيعهم لجامع القرويين ـ كل

اولئك شاهد على هذه النزعة. وكان للعلماء حرمة في عهدهم، ونحسب ان التقليد الذي كان السلطان المغربي لا تقبل طاعته الا متى بايعه علماء جامع القرويين يعود إلى أيامهم ـ ان لم يكونوا هم الذين وضعوه، فهم الذين ثبتوه.

دب الضعف في دولة بني مرين في أوائل القرن الخامس عشر، وخلفهم في حكم المغرب دويلات، كان منها الوطاسيون (١٤٢٨ ـ ١٥٤٩) في جنوب المغرب الأقصى. كان البرتغاليون عندها حريصين على الاستيلاء على الموانىء الأطلسية، بسبب اهتمامهم بسواحل غرب افريقية. فاستولوا على أصيلا (١٤٧١) وأغادير (١٥٠٤) وآسفي (١٥٠٨) وآزمّور (١٥١٣) وكانوا قد تمكنوا من طنجة والقصر الصغير من قبل. (وكانت لهم سبتة ١٤١٥، كما كان للاسبان مليلة ١٤٩٧ على ساحل المتوسط).

وجاءت الدولة السعدية (١٥١١) على يد محمد القائم (١٥١١ ـ ١٥١٧) يؤيده زعيم الطريقة الصوفية الجزولية. وتلاه ابنه أحمد الأعرج (١٥١٧ ـ ١٥٤١) ثم ابنه الثاني محمد الشيخ (١٥٤١ ـ ١٥٥٧). ومحمد الشيخ هو الذي استرد أغادير وآزمّور من البرتغاليين، ثم حل في آسفي وأصيلا لما تخلى عنهما البرتغاليون. وفي أيامه حاول الأتراك العثمانيون، الذين كانوا قد استقروا في الجزائر في أوائل القرن السادس عشر، أن يحتلوا المغرب، تعينهم في ذلك مؤسسات الطريقة القادرية. وقد استمرت محاولات العثمانيين هذه ردحاً من الزمن، وانتهت بفشلهم.

وفي الفترة الممتدة من ١٥٥٧ الى ١٥٧٨ ولي شؤون المغرب ثلاثة من السعديين، كان آخرهم أبا مروان عبد الملك (١٥٧٦ ـ ١٥٧٨)، وكانوا يعنون بتقوية التجارة المغربية مع اوروبة، ومع انكلترا بشكل خاص. ولكن أهم حادثة تمت في أيام عبد الملك هي محاولة سبستيان، ملك البرتغال، ان يستعيد بعض الموانىء التي كانت لأسلافه على الساحل الأطلسي (١٥٧٨). فوقعت في وادي المخازن معركة فاصلة (١٥٧٨) في التاريخ المغربي، إذ كان النصر للمغاربة. (وقتل في هذه المعركة السلطان أبو مروان وابن عبد الله الثائر عليه وسبستيان البرتغالي ـ ومن ثم فهذه المعركة تسمى معركة الملوك الثلاثة). وتولى أمور المغرب بعد المعركة أبو العباس أحمد المنصور المعروف بالذهبي (١٥٧٨ ـ ١٦٠٣). وهو أبعد السعديين همة. قام بأعمال عمرانية وإدارية كثيرة، وحصّن أطراف البلاد.

أما من الناحية العسكرية والاقتصادية فقد كانت الحملة التي أرسلها ضد مملكة سنغاي (١٤٦٤ ـ ١٥٩١) في حوض النيجر، وهي منطقة غنية بالحبوب والقطن والارز والمواشي. وفيها تمبكتو وغاو وجني، مراكز التجارة بين السودان الغربي جنوباً والمغرب الى الشمال. وفيها من التجارات الملح والذهب والعاج والرقيق والمنسوجات والتوابل والعطور. وقد قضت الحملة على دولة سنغاي.

حري بنا أن نتوقف لحظة هنا لنشير إلى الانجازات الحضارية التي تمت في

المـغـرب نتـيـجـة لوصـول العـرب واسـتـقـرارهم هنـاك وقـيـام الدول المـذكـورة. وهذه الانجازات تتلخص:

١ ـ في تنشيط التجارة بين المغرب شمالاً والسودان المغربي جنوباً. ويعود ذلك الى شيوع استعمال الجمل في الصحراء. كان الجمل قد وصل هناك قبل العرب بقليل، لكن صحبة العرب الطويلة للجمل في الجزيرة العربية مكنتهم من اشاعة استعماله. ولم يتوان سكان الصحراء من الافادة من ذلك.

٢ ـ أنشأت الدول المختلفة مدناً كانت عواصم لها، كما كانت مراكز للعلم بما بني فيها من معاهد مساجد كانت أم مدارس. فمنها، في المغرب، فاس وجامع القرويين، ومراكش وجامع الكتبية، وتطوان الاندلسية وطنجة والرباط.

٣ ـ ان البلاطات المختلفة التي قامت في العواصم المغربية كانت موائل للعلم والأدب والطب، على نحو ما نعرف عن مراكش الموحدين وفاس الادارسة والمرينيين.

٤ ـ فضلاً عن الابنية التي ذكرت فهناك الربط والقصور التي لا تزال آثارها تشهد بما كان لهؤلاء القوم من مهارة فنية عالية.

كانت الروابط والصلات بين الاندلس والمغرب قوية دائماً، ومن هنا جاء هذا التحاك الحضاري الذي خلّف الآثار المعمارية المتقنة في المنطقتين. ولما بدأ الاسبان باحتلال المدن الاندلسية (اعتباراً من طليطلة سنة ١٠٨٥) أخذت جموع من عرب الاندلس تهاجر الى أقطار المغرب بكامله. وقد ازدادت هذه الهجرة بتوسع رقعة الفتح الاسباني. ويمكن للمرء ان يلاحظ المدن والقرى التي تأثرت بهجرة الاندلسيين والمنتشرة من درنة (في شرق ليبيا) الى طنجة في المغرب. وكان هؤلاء المهاجرون ينتظمون في صفوفهم العلماء والمعماريين والفنانين وأصحاب المعرفة في الزراعة والخبرة في الري والعقاقير والأدوية، والتجار. وترتب على ذلك نقل هذه الخبرات الفنية إلى المغرب.

الدّولة العلوية

اضطراب أمر المغرب بعد وفاة المنصور (١٦٠٣). لكن قيام الدولة العلوية الشريفة، على يد أول ملوكها محمد بن الشريف (١٦٣٨ ـ ١٦٦٣) انقذ الموقف. وفي عهد أخيه الرشيد (١٦٦٣ ـ ١٦٧٢) وحد جزء من المغرب.

وأكبر ملوك العلويين في الدور الأول هو المولى اسماعيل (١٦٧٢ ـ ١٧٢٧). وقد وضع المغرب بأسره تحت سلطانه، وعقد معاهدة مع الأتراك (في الجزائر) لوقف القتال، واستولى على مناطق في السودان الغربي. واستعاد المعمورة (المهديّة ـ ١٦٨١) وأصيلا وطنجة (١٦٨٤) والعرائش (١٦٨٩) من الأجانب. وكان للمولى اسماعيل جيش ضخم يتكون من الودايا (عرب من قبائل متفرقة) والعبيد (بين ١٢,٠٠٠ و١٥,٠٠٠) وبعض المرتزقة أو الأسرى من الاوروبيين. وهؤلاء كانوا يستخدمون في الأمور الفنية والعسكرية، مثل تدريب الجنود.

قد اتسعت تجارة المغرب في أيام المولى اسماعيل وخاصة مع انكلترا وهولاندا وفرنسة واسبانية وايطالية. وكانت السلع التجارية تشمل الأقمشة (من انكلترا بشكل خاص) والودع والبهارات والافاويه والمرايا والأدوات النحاسية والأسلحة والذخائر (وأكثر هذه الأخيرة كانت تأتي من هولاندا). وكانت ايطالية تزود المغرب بالبارود والرخام والترابة (للدباغة). وكانت قادس (اسبانية) مركز التجارة المغربية مع انكلترا وهولاندا. أما الموانىء المغربية الكبرى فكانت سلا وتطوان وآسفي وأغادير. كما كانت تفيلالت (سجلماسة القديمة) وتارودنت من منافذ التجارة مع افريقية. فالتمور والعاج والنيلة والذهب والملح وريش النعام والرقيق كانت تنقل عبرهما وغيرهما.

ويعود الى المولى اسماعيل تجديد الحصون القديمة المهملة، كما بنى العديد من الحصون (بلغ عدد الحصون التي عني بها ٧٦ حصناً). واتخذ هذا السلطان مكناس (مكناسة الزيتون) عاصمة له بعد أن بنى فيها القصور والمساجد والأسواق. وكان أسارى الافرنج يعملون مع العمال المغاربة، في اقامة الأبنية واصلاحها.

وتلت أيام المولى اسماعيل فترة اضطراب وخلاف وضع حداً لها محمد بن عبد الله (١٧٥٧ ـ ١٧٩٠) الذي أنشأ ميناء مُغادور (الصُوَيْرة) سنة ١٧٦٥ وأخرج البرتغاليين (١٧٦٩) من مزاغان (الجديدة)، وأقام علاقات تجارة وصداقة مع اسبانية (اتفاقية سنة ١٧٦٧) وتجددت الاتفاقية سنة ١٧٨٠ (بعد فترة خلاف ومناوشات).

وقد جرب خليفتا محمد بن عبد الله، المولى سليمان (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) والمولى عبد الرحمن (١٨٢٢ ـ ١٨٥٩) ان يحافظا على الوحدة الداخلية للمغرب وان يجنباه التدخل الاجنبي الذي أخذ يتزايد بسبب الاطماع الاوروبية. لكن احتلال فرنسة للجزائر سنة ١٨٣٠ كان لا بد ان تكون له مضاعفات بالنسبة للمغرب. وقد أعان عبد الرحمن الأمير عبد القادر الجزائري في مقاومته للفرنسيين في بلاده (١٨٣٢ ـ ١٨٤٧). وقد تدخلت فرنسة في الأمر، وفي معركة اسلي (١٨٤٤) كسرت الجيوش المغربية (على يد الفرنسيين) ومن ثم أوقف المغرب العون للأمير الجزائري.

المغرب أمام الأطماع الاستعمارية

كانت سبتة تابعة لاسبانية، وقد نشأ خلاف بين اسبانية والمغرب حول حدود المنطقة، فوقعت حرب قصيرة بين البلدين (١٨٦٠) احتلت اثناءها اسبانية تطوان (١٨٦٠)، وتلا ذلك اتفاق لوضع الأمور في نصابها، وبموجبه حصلت اسبانية على افني على الساحل الاطلسي للصحراء الغربية. وسعت اسبانية للحصول على رقعة أخرى هناك وتم لها ذلك إذ حصلت (١٨٨٤) على ساقية الذهب (في الصحراء الغربية).

وفي أواخر القرن التاسع عشر كانت أربع دول اوروبية تهتم بالمغرب وهي: فرنسا وبريطانيا والمانيا وإسبانيا. أما الأولى فقد كان سياسيوها ورجال المال والأعمال ودعاة التوسع والاستعمار فيها (كثيرون كانوا اعضاء في «لجنة المغرب») يعتبرون

المغرب منطقة توسع لبلادهم، بعد أن توطدت أقدام فرنسا في الجزائر وتونس، وخاصة بعد انتشار قواتها ونفوذها في الجنوب الجزائري وفي المنطقة الافريقية الممتدة جنوبي الجزائر والمغرب. أما بريطانيا فقد كانت لها صلات تجارية قديمة العهد مع المغرب، فلم تكن ترغب في التخلي عن هذه السوق الكبيرة. وكانت المانيا، الخارجة من الوحدة حديثاً، قد ضمنت تنفيذ مشاريع اقتصادية حول اغادير، فكانت ترنو بنظرها الى المغرب. (وقد ازداد اهتمام المانيا بالاستعمار والتوسع بعد سنة ١٨٩٠ اذ تخلى القيصر عن بسمارك وتعهد السياسة الخارجية بنفسه). أما اسبانية فاهتمامها بالمغرب يعود الى التاريخ والجوار ووجودها في سبتة ومليلة.

أما ايطالية، فمع أنها لم تكن لها مطامع مباشرة في المغرب، فإنها كانت مصرة على الوقوف في سبيل فرنسا (لأن هذه انتزعت منها تونس سنة ١٨٨١). وروسيا كانت تمانع في تدخل فرنسا في المغرب قبل أن تحصل هي على شيء في مقابل ذلك.

والدبلوماسية الاوروبية (والاستعمارية بشكل خاص) أصبحت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (منذ مؤتمر باريس ١٨٥٦) تقوم بأعمالها مشتركة ومجتمعة في مؤتمرات، وكانت لذلك تدوّل القضايا قبل المفاوضة. فقد طلبت حكومة السلطان المغربي (الحسن الأول ١٨٧٣ ـ ١٨٩٥) أن يعقد مؤتمر دولي لبحث قضية المغرب من ناحية واحدة أصلاً ـ وهي تزايد عدد الأفراد «من المغاربة والأجانب» الذين كانت الدول المختلفة تضعهم تحت حمايتها، وفي مقدمة هذه الدول فرنسا. وكان هذا يعني امتيازات خاصة لم يكن يتمتع بها ابناء البلاد. فعقد مؤتمر مدريد (١٨٨٠) وحضرته بريطانيا وفرنسا واسبانيا والمانيا والنمسا وهولاندا والبرتغال وايطاليا وروسيا والولايات المتحدة وبلجيكا والدنيمرك والسويد والمغرب بطبيعة الحال. وقد انتهى المؤتمر الى (١) وجوب احتفاظ المغرب باستقلاله، (٢) ان يكون لجميع الدول مجال للعمل الاقتصادي دون تمييز، (٣) احتفظت كل دولة بحق الحصول على الحماية الاقتصادية.

وجاء الآن دور المفاوضات والمناورات وممارسة الضغوط. وبين مؤتمر مدريد ومؤتمر الجزيرة (١٩٠٥ ـ ١٩٠٦) تمت الاتفاقات السياسية التالية.

١ ـ الاتفاق الايطالي الفرنسي (١٩٠٠ ـ ١٩٠٢) سويت بموجبه حالة الرعايا الايطاليين في تونس وتم الاتفاق على أن تطلق يد فرنسا في المغرب لقاء اطلاق يد ايطاليا في ليبيا.

٢ ـ «الوفاق الودّي» بين فرنسا وبريطانيا (١٩٠٤)، وبموجبه اعترفت فرنسا بالوجود البريطاني في مصر (احتلت سنة ١٨٨٢) مقابل اطلاق يد فرنسا في العمل في المغرب.

٣ ـ الاتفاق الفرنسي الاسباني (١٩٠٤) الذي اعترفت فيه الدولتان باستقلال المغرب وسيادة السلطان فيه. الا ان المواد السرية في الاتفاق كانت تهدم أساس الاستقلال والسيادة وتقسّم المغرب بين الدولتين.

٤ ـ جاء مؤتمر الجزيرة (١٩٠٥ ـ ١٩٠٦) الذي حضرته الدول ذاتها التي حضرت مؤتمر مدريد (١٨٨٠)، وانضمت إليها الولايات المتحدة. وقد اتفقت الدول (نيسان/ ابريل ١٩٠٦) على أمور ثلاثة: استقلال المغرب ووحدته وسيادة السلطان والمساواة الاقتصادية بين رعايا الدول جمعاء. هذه الأمور كانت أساسية. لكن التفاصيل كان فيها لف ودوران. فقد تقرر انشاء بنك مغربي مركزي، له صلاحية اصدار الأوراق المالية، ويقوم بدور خزينة للدولة، على أن يخضع للأنظمة المالية الفرنسية ويكون مركز ادارته في طنجة. وأقر المؤتمر وجوب انشاء شرطة مغربية تتمركز في المرافىء التجارية. أما الضباط فيجب أن يكونوا فرنسيين وأسباناً، ومفتشو الشرطة يكونون اسبانيين في تطوان والعريش، وفرنسيين في الرباط وآسفي وأغادير ومُغادور، ومختلطين في طنجة والدار البيضاء. أما المفتش العام للشرطة فيكون مواطناً سويسرياً.

واتفق على منع السلاح من الدخول الى المغرب، وحتى الدولة المغربية نفسها كان يجب أن تحصل على موافقة الدول قبل شرائه.

ونشأ خلاف بين المانيا وفرنسا الى أن تم الاتفاق بين الدولتين (١٩١١) تنازلت فيه فرنسا لالمانيا عن منطقة في غرب افريقية، لقاء اطلاق حرية فرنسا للعمل في المغرب.

بدأت فرنسا، بالإضافة الى هذا الذي منحته في المغرب، باحتلال أجزاء من البلاد متذرعة بحجج واهية. فاحتلت وجُدة (١٩٠٧) بعد مقتل شومان في مراكش، وذلك لضمانة اجراء العدالة في القضية. وأنزلت قوات فرنسية واسبانية (١٩٠٧) في الدار البيضاء بسبب قيام خلاف بين العمال المغاربة والعمال الاوروبيين (من فرنسيين وأسبان وطليان) الذين كانوا يعملون في بناء الميناء. واحتل الفرنسيون فاس (١٩١١) بدعوى رغبتهم في تخليص الاوروبيين المحاصرين في المدينة. وأنزلت قوى اسبانية في العرائش (١٩١١) أيضاً.

وأرغم السلطان عبد الحفيظ (١٩٠٧ ـ ١٩١٢) على توقيع معاهدة الحماية، ٣٠ آذار (مارس) ١٩١٢.

وقد نص في المعاهدة على انشاء نظام جديد يسمح بالقيام بالإصلاحات في الحقول المختلفة اللازمة، على ان تتمتع المؤسسات الاسلامية ومكانة السلطان ومقامه بالاحترام والحفاظ اللازمين. والحكومة الفرنسية تشرع فيما تراه ضرورياً للمحافظة على الأمن والمعاملات التجارية. ونصت المعاهدة على أن المقيم العام (الفرنسي) يمثل الحكومة الفرنسية، ويقوم بإدارة البلاد، ويكون صلة الوصل بين الحكومة المغربية والدبلوماسيين الأجانب. والرعايا المغاربة في الخارج يشرف على شؤونهم القناصل الفرنسيون. الى هذا كله جعلت الشؤون المالية المغربية كافة داخل صلاحيات المقيم العام.

وكانت ثورة مغربية عارمة ضد المعاهدة. وقتل مئات من الجنود الفرنسيين في فاس وحدها. وأخذت فرنسا تفرض الحماية بالقوة في سياسة سمتها «التهدئة» وهي قمع وإخضاع. وقد احتاجت فرنسا نحو عشرين سنة قبل ان «هَدَّأت» المغرب. وفرض الفرنسيون على مولاي عبد الحفيظ التنازل عن العرش، واختيار مولاي يوسف مكانه (١٩١٢).

ويمكن تلخيص المراحل التي مرت بالمغرب في سبيل اتمام فرنسا احتلالها للبلاد على الوجه التالي:

١٩٠٧ ـ ١٩١٢ احتلال وُجدة والدار البيضاء والشاوية وفاس ومراكش (وكان الهبة ابن ماء العينين الشنقيطي قد دخلها بعد ان أعلن نفسه سلطاناً في الجنوب المغربي).

١٩١٣ ـ اقتصر عمل فرنسا في هذه السنة على «تهدئة» المناطق التي كانت قد احتلت من قبل وتنظيمها والمحافظة على النظام فيها وتحييد المناطق الثائرة.

١٩١٤ ـ فتح ممر تازة، وبذلك أمكن وصل وُجدة (في الشرق) بالرباط والدار البيضاء (في الغرب). واحتلت فرنسا منطقة زيان.

١٩١٤ ـ ١٩١٨ لم تحاول فرنسا احتلال أي جزء من المغرب بسبب انشغالها في الحرب العالمية الأولى. لكن ليوتي، المقيم العام، أصبح أكثر حرية في التصرف بسبب توقف عمل الالمان والنمساويين لدخول بلديهما الحرب ضد فرنسا.

١٩٢٠ ـ ١٩٢٦ امتدت عمليات «الحماية والتهدئة»، كما كان الفرنسيون يسمون عمليات الفتح العسكرية، الى الاطلس الاوسط.

١٩٢١ ـ ١٩٢٦ قامت ثورة الريف على يد الامير الخطابي. وهذه الثورة كانت ضد اسبانية، التي كانت قد أعطيت منطقة شمال المغرب. وقد منح السلطان المغربي عبد الكريم الخطابي لقب «أمير». وكانت الاسلحة والذخائر تنقل اليه علناً (من الجهات الفرنسية). وقد سرّت فرنسا لقيام الثورة هناك أولاً؛ لكن بعد سنة ١٩٢٤ أعانت القوات الفرنسية القوات الاسبانية. وانتهى الأمر بالزعيم الخطابي الى الاستسلام (١٩٢٦).

١٩٢٦ ـ ١٩٣٤ اشتدت فرنسا في عملية التهدئة (الاحتلال) بحيث تم لها، في النهاية، احتلال المغرب بكامله.

سياسة فرنسا في المغرب

لم تختلف سياسة فرنسا في المغرب عنها في تونس والجزائر. فالبلاد كان المقصود منها ان تفتح أبوابها للمستعمرين الفرنسيين، وان تصبح جزءاً متمماً للاقتصاد الفرنسي. وقد بلغ عدد الافرنسيين (وبعضهم اوروبيو الاصل لكنهم تجنسوا بالجنسية الفرنسية) في أواسط الخمسينات نحو ٤٠٠,٠٠٠ نسمة. ويمكن تفهم السياسة الفرنسية في المغرب من النظر في الأمور التالية:

١ ـ كان في المغرب، بعيد الحرب العالمية الثانية ٥,٠٠٠ اوروبي (منهم ٤,٢٠٠

فـرنسي) من الذين تملكوا الارضين. وكانوا يملكون مليون هكتار. والمغاربة ـ وعددهم نحو عشرة ملايين، كانوا يملكون أربعة ملايين هكتار!

٢ ـ أما فيما يتعلق بالثروة المعدنية فقد كانت القاعدة المتبعة، في حالة تأسيس شركة للتعدين، هي أن تساهم الحكومة الفرنسية بحصة تتراوح بين ٢٠٪ و٢٣٪ من الاسهم. ويسمح للحكومة المغربية (وهي طبعاً الادارة الفرنسية هناك) بحصة مماثلة. وما تبقى يمنح لشركات فرنسية. فإذا لم يتيسر هذا تصبح حصة الحكومة الفرنسية أكبر. ومثلنا على ذلك أنه لما أنشئت الشركة الشريفية للنفط (١٩٤٧) كانت حصة الحكومة الفرنسية ٥٩٪ من الاسهم.

٣ ـ في سنة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ كـان توزيع الوظائف الحكومـيـة بين المـغـاربة والفرنسيين يعطي الفئة الثانية حصة أكبر بكثير في الوظائف العليا (٩١٪ فرنسي و٩٪ مغاربة) والوظائف الأساسية (٨٤٪ للفرنسيين مقابل ١٦٪ للمغاربة) والوظائف الثانوية (٧٢٪ فرنسيا مقابل ٢٨٪ مغربياً). أما في الأعمال اليدوية فكانت الغالبية للمغاربة (٩٦٪ مغاربة و٤٪ فرنسيين).

٤ ـ وفي سنة ١٩٥١ (مثلاً) كانت موازنة المغرب موزعة على النحو التالي: ٧٩٪ للادارة و١٩٪ موضوعة تحت تصرف المقيم العام و٢٪ مخصصة للادارة الوطنية، ويدخل في ذلك نفقات المحاكم الشرعية والتعليم الاسلامي.

٥ ـ سمح للعمال الفرنسيين أن ينشئوا نقابات عمالية سنة ١٩٣٦. أما العمال المغاربة فلم يسمح لهم بذلك الا سنة ١٩٤٦. وعندها اشترط عليهم ان ينضموا الى النقابات (الأوروبية) الموجودة في البلاد، لا أن يكون للنقابات كيان مستقل.

وكان سائقو السيارات الفرنسيون العاملون مع شركة الرباط يمنحون مرتبات أعلى من الوطنيين، كما كانت علاواتهم العائلية أكبر.

٦ ـ في سنة ١٩٣٦ منحت الحكومة المغربية (!) هبة مالية للمستشفيات الفرنسية والمغربية لتتمكن من القيام بواجباتها. كانت حصة المستشفيات الفرنسية ثلاثين مليوناً من الفرنكات، أما المستشفيات المغربية فقد نالها مليون وثمانمئة الف فرنك فقط.

وبهذه المناسبة فإنه في سنة ١٩٥٠ كان في المغرب طبيب واحد لكل ٤٥,٠٠٠ مغربي في المدن والقصبات، أما في الريف فقد كان هناك طبيب لكل ١٢٠,٠٠٠ نسمة. وكانت حصة الخدمات الصحية ٦٪ من الموازنة.

٧ ـ ولعلَّ أكثر ما يدل على سياسة فرنسا في المغرب هو السياسة التعليمية التي اتبعتها هناك. فحكومة الحماية شنت حرباً شعواء على المؤسسات التعليمية القومية، بحيث إن أولئك الذين كانوا يفتحون مدرسة خاصة يلقون الصعوبات الكثيرة أصلاً، ثم تنالهم العقوبات لأقل الاخطاء، وقد يكون أهون العقوبات اقفال المدرسة. ولم تشجع الحكومة على فتح المدارس في القرى. وكان يتوجب على المدارس الحرة (أي المغربية الخاصة) أن تقتصر في التعليم على القرآن واللغة العربية والواجبات

الاخلاقية. وقد جعلت الفرنسية لغة التعليم الرسمي في جميع المستويات. ولم تعلّم العربية قط في المدارس التي فتحت في المناطق البربرية(!!). وكانت بعض المدارس الرسمية تعلم العربية على نحو بسيط.

في سنة ١٩٥١ كان في المدارس الحرة ٢٥٠,٠٠٠ تلميذ، وقد تلقت هذه المدارس مساعدة من الحكومة المغربية(!) ما يعادل ٢٠,٠٠٠ دولار، فيما تلقت المدارس اليهودية ما يعادل ٥٠,٠٠٠ دولار، وكان فيها ٣٠,٠٠٠ تلميذ فقط.

قدر عدد الأولاد والبنات في سن الدراسة الابتدائية والثانوية في المغرب (١٩٥٠) بنحو مليون ونصف مليون طالب (سن ٦ ـ ١٦)، ولكن لم يجد منهم سوى ١١٤,٠٠٠ أماكن في المدارس (أي ٦٪ فقط). وفي السنة ذاتها كان في المغرب سبع مدارس ثانوية ـ خمس للبنين واثنتان للبنات!.

والتعليم المهني في المغرب كان على مستويين: العالي لتدريب العمال والصناع المهرة، والعادي لتدريب العمال والصناع. في سنة ١٩٤٨ كان ثمة ٣,٠٠٠ طالب في النوع الأول (منهم ٢٨٠ مغربياً فقط). وكان في النوع الثاني ١,٧٠٠ تلميذ منهم ٢١٥ فقط من الاوروبيين!

وقد أنفق على التعليم للأوروبيين (١٩٣٤) ٥٧ مليون فرنك وللتعليم للمغاربة ١٩ مليون فرنك. وفي سنة ١٩٣٨ كانت حصة التعليم للأوروبيين ٥٦ مليون فرنك، وحصة التعليم للمغاربة ٢١ مليون فرنك. هذه المبالغ كانت تنفق من موازنة الدولة ـ الحكومة المغربية(!!!).

الاستقلال

كانت المقاومة المغربية لفرنسة بين معاهدة فاس (١٩١٢) وانتهاء عملية «التهدئة» (١٩٣٤) ثورية عسكرية. وهذه انتهى أمرها في السنة المذكورة. لكن السنة نفسها شهدت بدء حركة المقاومة السياسية التي طالبت بإعادة النظر في أسس الحماية على يد «كتلة العمل الوطني». وفي السنة نفسها اعتبر «عيد العرش» عيداً رسمياً بعد ان كان من قبل شيئاً شعبياً. وكانت الغاية منه، أصلاً، تكتيل الشعب المغربي بأسره حول صاحب العرش، كرمز للوحدة الوطنية.

كان محمد بن يوسف قد ولي العرش سنة ١٩٢٧ وعمره سبع عشرة سنة. وكان الفرنسيون يحسبون أنه حدث، ومن ثم يمكنهم تطويعه لإرادتهم. وقد أخذ المقيم العام الذي خلف ليوتي (١٩٢٦) بسياسة التفرقة بين الغالبية من سكان البلاد الذين أطلق عليهم اسم العرب، وبين الأقلية الذين أسماهم المسؤولون «البربر». أما أساس التفرقة فقد قامت، في نظر الساسة الفرنسيين، على أساس أن البربر كانت لهم تنظيماتهم الخاصة. لذلك أصدر «الظهير البربري» سنة ١٩٣٠ الذي قصد من ورائه فصل هؤلاء عن جسم الشعب المغربي على أساس عدم تطبيق الشريعة الإسلامية عليهم. وقد

نسي هؤلاء أن البربر هم مسلمون. فكان ان قامت قيامة الشعب المغربي بأسره ضد هذا الظهير الغاشم، كما لقي الظهير نفسه مقاومة عنيفة في العالم العربي وفي البلاد الاسلامية.

ومع ان السلطان محمد (الخامس) بن يوسف وقّع الظهير، فقد فعل ذلك مضطراً، لكنه لم يكن يؤمن بذلك قط. ولعلَّ صدور الظهير البربري كان نقطة انطلاق سياسية وطنية هامة في تاريخ المغرب الحديث.

وحري بالذكر ان المغرب، حسب ترتيب الحماية المبنية على قرارات مؤتمر الجزيرة (١٩٠٦)، قد قسم إلى ثلاثة أقسام: المنطقة الشمالية تحت الحماية الاسبانية والمنطقة الأوسع إلى الجنوب منها تحت الحماية الفرنسية ومنطقة طنجة التي اعتبرت منطقة دولية. وهذا جعل من البلاد الواحدة ثلاث ادارات مختلفة. لكن يجب أن نذكر أيضاً ان الادارتين الفرنسية والاسبانية كانتا تتنافسان وتختلفان كثيراً. فضلاً عن أن ذهاب الكثيرين للعمل في منطقة طنجة فتح أمام القادرين والراغبين منهم الاتصال بالخارج اتصالاً لم تعرفه المنطقة الواقعة تحت النفوذ الفرنسي. ولأن مغاربة الشمال انضم كثيرون منهم إلى جيش فرنكو في الحرب الأهلية الاسبانية، فقد كانت سياسة فرنكو هناك أقل تعنتاً من سياسة فرنسا في المنطقة التي كانت تحت حمايتها. وقد ذهب كثيرون من مغاربة الشمال للدراسة في الخارج ـ في فلسطين ودمشق والجامعة الامريكية في بيروت وجامعة القاهرة، فضلاً عن اولئك الذين ذهبوا الى الأزهر. وهذا الاتصال المباشر مع المشرق العربي وحركاته السياسية والاستقلالية كان ذا فائدة كبيرة لما عمل هؤلاء في الحركات الاستقلالية.

في سنة ١٩٣٧ قامت اضطرابات في فاس نفي على أثرها علال الفاسي زعيم الحركة الوطنية الاسقلالية، الى الغابون حيث قضى تسع سنوات (عاد سنة ١٩٤٦).

ولما قامت الحرب العالمية الثانية طلب السلطان محمد الخامس من المغاربة ان يتطوعوا الى جانب فرنسا، فذهبت فرقة منهم، وقاتلت قتالاً مشرفاً إلى جانب دولة الحماية.

وثمة أحداث كان لها أثر كبير في تطور الحركة الوطنية في المغرب. فانهيار فرنسا (١٩٤٠) والدعاوة التي كانت تبثها الاذاعات المختلفة عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، ونزول القوات الاميركية في المغرب، واجتماع السلطان بروزفلت، رئيس الولايات المتحدة، وتأسيس «حزب الاستقلال» (١٩٤٣) ـ كل هذه قوت من عزيمة الشعب المغربي في المطالبة باستقلاله، الأمر الذي أعاد الى المغاربة الشعور بالقوة بعد فترة الحماية «والتهدئة» التي أتعبت هذا الشعب. ولعلّ هذه الفترة هي التي تم فيها لمحمد الخامس أن يصبح نقطة الدائرة في الحركة الوطنية الاستقلالية. وقد ظهر هذا بشكل واضح لما زار طنجة (١٩٤٧) وألقى هناك خطاباً أظهر فيه ارتباط

المغرب بالعالم العربي والدول الاسلامية وشدد على رغبة الشعب المغربي في أن ينال حريته.

كان من ترتيبات الحماية أن أي ظهير (أي مرسوم سلطاني اداري) لا يمكن أن يوضع موضع التنفيذ ما لم يقترن بتوقيع سلطان المغرب. فلما حاول المقيم العام (الجنرال جوان) ان يقيم في البلاد حكومة مزدوجة مغربية/ فرنسية (وبطبيعة الحال يكون النفوذ الفرنسي فيها الأقوى والأنفذ) رفض محمد الخامس أن يوقع أي «ظهير» مهما كان نوعه. فدعي السلطان لزيارة فرنسا حيث أجرى محادثات لم تكن ذات فائدة مباشرة، لكن لدى عودته استقبل في البلاد بحفاوة بالغة.

كانت الحكومة الفرنسية تقوّي نفوذ القلاوي باشا (حاكم) مراكش، ليكون عوناً لها ضد السلطان. وقد استخدمته في سنة ١٩٥١ إذ أخذ أتباعه من القبائل الجبلية بالوصول إلى الرباط (تساندها فرقة من الجيش الفرنسي) وذلك بعد ان منع السلطان القلاوي من الدخول الى القصر. وعندها اضطر السلطان الى تكليف الوزير الأكبر أن ينفي ان للسلطان علاقة «بحزب سياسي معين» (لأنه قد اتهم بأنه مرتبط بحزب الاستقلال).

ولم تتحسن الامور في السنة التالية، بل انه بعد اجتماع وطني كبير عقد في الدار البيضاء للاحتجاج على تصرفات المقيم العام وموظفيه ورجال الأعمال الفرنسيين (الذين كان يؤيدهم المقيم العام السابق جوان عن بعد)، قبضت السلطة على مئات من زعماء الاستقلال ورجال الحزب. واتجهت السياسة الفرنسية نحو التخلص من محمد الخامس. واستعمل القلاوي ثانية الذي أنذر السلطات الفرنسية (١٧ آب/اغسطوس، ١٩٥٣) بأن محمد الخامس فقد ثقة الشعب به، وإذا لم تتخذ فرنسا الخطوة المناسبة فإنها ستفقد مركزها في المغرب. وفي اليوم التالي أحيط القصر بالجنود ونفي السلطان الى جزيرة كورسيكا أولاً ثم الى مدغشقر. ووجدت السلطة من يبايع محمد بن عرفة سلطاناً على المغرب.

المظاهرات أولاً ثم المقاومة الجدية في المدن والريف، ورد فعل من الفرنسيين، بحيث أصبحت البلاد، في بعض أجزائها على الأقل، مسرحاً للقلاقل، وظهر جيش مقاومة تحرري في المغرب. وأصبح من الواضح أن عودة محمد الخامس أمر لا مفر منه. والقلاوي الذي هدد وأوعد وأنذر من قبل بوجوب التخلص من السلطان، أصدر في ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٣ بياناً جاء فيه انه يشارك الشعب المغربي في رغبته في عودة السلطان الى البلاد، وان هذا هو السبيل الوحيد لإعادة السلام والطمأنينة لنفوس الأهلين. وفي ٣١ من الشهر نفسه نقل السلطان محمد الخامس الى فرنسا. وفي أوائل الشهر التالي صدر بلاغ يؤكد بأن الاتفاق تم على أن تجري

مفاوضات مع حكومة السلطان الدستورية (القادمة) تؤدي الى استقلال المغرب على أن يرتبط بفرنسا برباط خاص.

عاد محمد الخامس الى عرشه في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥ في اليوم نفسه الذي تولى فيه العرش (١٩٢٧).

وفي ٢ آذار (مارس) ١٩٥٦ اعترفت فرنسا باستقلال المغرب، وفي ٧ نيسان (ابريل) ١٩٥٦ وقعت اتفاقية مماثلة مع الحكومة الاسبانية اعترفت فيها باستقلال المنطقة الشمالية، وألغي بعد حين الوضع الدولي لمدينة طنجة. وفي سنة ١٩٥٩ ضمت طنجة الى المغرب رسمياً. وفي سنة ١٩٥٩ أعادت اسبانية أفني الى المغرب، لكنها احتفظت بالصحراء المغربية (الغربية) أي بالساقية الحمراء ونهر الذهب.

بعد الاستقلال

١ ـ في سنة ١٩٥٧ أعلن الأمير الحسن ولياً للعهد واتخذ السلطان لقب الملك. وأخذت الحياة السياسية في المغرب تتمحور حول أحزاب سياسية جديدة. فبالإضافة الى الاستقلال ظهر الاتحاد الوطني لقوى الشعب العامل (١٩٥٨) بزعامة المهدي بن بركة، وجبهة الدفاع عن الحريات الدستورية (١٩٦٢). على ان الملك ظل هو الذي يقبض على زمام الأمور. ولما توفي محمد الخامس (شباط/فبراير١٩٦١) تولى العرش الحسن الثاني، الذي استمر على هذه الخطة. ولا يزال العرش في المغرب هو المسيطر على شؤون المملكة، على ان المغرب يعرف من الأحزاب السياسية وحرية الاجتماع والصحافة والرأي أكثر مما تعرفه أقطار عربية أخرى. وقد خطا المغرب بعد موت الحسن الثاني واعلان ابنه ملكاً جديداً خطوات نحو التحرر السياسي والديمقراطي.

٢ ـ قامت مناوشات بين المغرب والجزائر (١٩٦٢) لكن الأمر سوي يومها عن طريق لجنة تحكيم عينت الحدود. وكانت ثمة خلافات صغرى بين المغرب وموريتانيا لكنها سويت بين الدولتين وتم اعتراف رسمي للأول بالثانية (١٩٦٩).

٣ ـ ان المشكلة الرئيسية التي كانت تقض مضجع رجال الحكم في المغرب (ولا تزال) هي مشكلة الصحراء المغربية (الغربية) التي كانت لا تزال تتبع اسبانية (ومن هنا كانت تظهر على الخرائط باسم الصحراء الاسبانية).

فبعد أعمال حروب غير رسمية قامت في الصحراء لضمها الى المغرب ـ أعلنت اسبانية عزمها على الانسحاب من الصحراء الغربية، وبدأت المشكلات بين دول المغرب الثلاث ـ المغرب والجزائر وموريتانيا. وانتهى الأمر بأن قسمت المنطقة بين المغرب وموريتانيا (١٩٧٦). الا ان موريتانيا تخلت عن حصتها فيما بعد (١٩٧٥). وكان من الممكن ان تحل المشكلة لولا قيام حركة البوليساريو التي تلقى دعماً من الجزائر ومن ليبيا في الشمال الافريقي.

وما دمنا بسبيل الحديث عن الصحراء المغربية فلا بد لنا من تسجيل خبر

الزحف الاخضر. وقد تم هذا بأمر من الملك الحسن إذ أمر به. وكان هذا الزحف الدافع الى الاتفاق بين المغرب وموريتانيا على تقسيم الصحراء (١٩٧٦).

المغرب عضو في جامعة الدول العربية. وقد وقف إلى جانب الفلسطينيين والدول العربية في حرب ١٩٦٧. اما في حرب ١٩٧٩ فقد أرسل جنوداً قاتلوا إلى جانب الجيش السوري في مرتفعات الجولان. والمغرب إلى ذلك عضو فعّال في الامم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية ومنظمة الدول الاسلامية. والملك المغربي هو رئيس لجنة القدس.

المغرب اليوم

المغرب بلد غني متطور؛ موارده الطبيعية متعددة، وأرضه طيبة خصبة. ومع ذلك فإن تطور الاقتصاد المغربي وانجازه كان دون ما امّله المخططون له. وذلك ان عوامل ثلاثة أثرت من هذه الناحية في الحياة المغربية: وهي نفقات حرب الصحراء المغربية (الغربية)، وتدني أسعار الفوسفات في الأسواق العالمية، وتزايد السكان الكبير.

فالمغرب يحتوي على ثلثي احتياطي العالم من الفوسفات الصخري. وفي المغرب معادن أخرى لم تستغل بعد، لكن تدني الاسعار بالنسبة إلى مادة كانت حصتها من الصادرات المغربية ما يزيد عن ١٩ مليون طن، معناه خسارة كبيرة جداً بالنسبة الى ايرادات الدولة.

وتزايد عدد السكان عنى تحويل كميات كبيرة ـ نسبياً ـ من الأموال التي خصصت للتنمية الى شراء المواد الغذائية ومشاريع الاسكان إذ كان هذا ألح من مشاريع أخرى. فنحن إذاً ضممنا الخسارة من تدني أسعار الفوسفات الى ازدياد النفقات الحياتية والاجتماعية اللازمة لازدياد كبير مستمر في عدد السكان، أدركنا معنى القول بأن انجازات الاقتصاد المغربي كانت دون ما توقعه المصممون والمخططون.

يزيد عدد العاملين المنتجين في المغرب عن أربعة ملايين نسمة. يعمل منهم النصف في الزراعة ونحو ٣٠٪ في الخدمات المختلفة كالتجارة والنقل والفنادق وما الى ذلك، والباقون يعملون في الصناعة. وإذا نحن قابلنا هذه النسب المئوية بحصة كل من الفئات بما تؤديه للدخل القومي العام وجدنا ان الزراعة تنتج ٢٢٪ منه والتجارة ٢١٪ والنقل والخدمات ١٦٪ والصناعة ١٢٪ والتعدين وحده ٤٪.

الزراعة: يقيم حول ثلاثة أرباع سكان المغرب في الريف وتشتغل نصف الأيدي العاملة بالزراعة، الا ان هؤلاء يضاف اليهم عمال موسميون وأفراد الأسر الفلاحية لا يدخلون عادة في الاحصاءات العمالية. وتنتج الزراعة نحو اربعة أخماس حاجات ابناء البلاد من المواد الغذائية. هذا وتكّون المواد الزراعية نحو ٣٠٪ بالمئة من صادرات المغرب.

على أنه من الواجب أن نذكر ان تقلب أحوال المناخ يؤثر تأثيراً كبيراً في المنتوجات الزراعية (سواء فيما يحتاجه الناس او فيما تصدره البلاد).

والغلات الزراعية الرئيسية هي الحبوب، وخاصة القمح والشعير والذرة، والأثمار الحمضية والبطاطا والبندورة والقطاني والزيتون واللوز. وقد بدىء حديثاً بزراعة الشاي، ونبات الحلفا يستعمل الآن في تحضير اللب لصناعة الورق التي يدخل شهر اليوكالبتوس في عناصرها. وموارد الغابات التي تكاد تكون كلها تحت اشراف الدولة يدخل في عدادها الفلين والأرز والسنديان والارغون. ويصدر خشب تِزْرا لاستعماله في الدباغة.

بالإضافة الى ما ذكرناه من انتاج الحبوب فإننا نذكر هنا ان البلاد تنتج الزيتون والبرتقال والبطاطا والشمندر (البنجر). وتربى أنواع الماشية من الابقار والخراف والجمال والماعز والخيل والبغال والحمير.

والمغرب غني بأسماكه من حيث تعدد الانواع والكمية. وصناعة تعليب السردين متقدمة وناجحة.

التعدين: يحتوي المغرب على نحو ثلثي الاحتياطي العالمي من الفوسفات، الذي قدر (١٩٧٨) بنحو ٦,٣٠٠ مليون متر مكعب. ويعتبر المغرب ثالث دولة في انتاج الفوسفات في العالم (بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي السابق) وأكبر مُصَدِّر له. والحقول الاساسية لاستخراج الفوسفات الآن هي خُريبقا ويوسفيّة وبن غدير وسيدي حجاج ومسكّلا.

والمغرب يقوم الآن بمحاولات لاستثمار الفوسفات في صناعة مشتقات الفوسفات، ومنها الاسمدة، وذلك في حقلين قائمين الآن، وسيضاف اليهما حقلان آخران قريباً.

وفي المغرب ثروة معدنية لم يستفد منها بعد الا على نطاق محدود. فهناك الفحم الحجري والحديد الخام والرصاص والزنك والمنغنيز والكوبالت والفضة والكحل والنحاس. ويكاد يكون انتاج النفط لا أهمية له في البلاد. إلا أن الآمال معقودة على العثور على النفط في جبال الاطلس، والتنقيب جار هناك.

الصناعة: عملت الحكومة المغربية جادة على تطوير الصناعة المغربية بحيث لا يظل المغرب يعتمد على الزراعة والفوسفات في اقتصاده. ولا يزال استخراج الفوسفات الصناعة التي تتأثر باستثمارات الدولة. والصناعات الأخرى تشمل تكرير النفط وصنع الاسمنت وصناعة الأطعمة والأقمشة والكيماويات والورق والمطاط والبلاستيك. وتلقى صناعة تكرير النفط عناية كبيرة، فقد وسعت مصفاة المحمدية ومصفاة سيدي قاسم. وبما ان المغرب يعتمد اعتماداً كلياً على استيراد حاجاته من المحروقات، فإن انشاء المصافي يخفف من المدفوعات ثمناً للمحروقات. ويصنع الاسمنت بالقرب من الدار البيضاء وفي بني ملال وأغادير. وفي البلاد ثمانية عشر معملاً لتكرير السكر. وتعلب الفواكه والخضار والسمك في المغرب وتصدر هذه الى الخارج. وآسفي هي أكبر مركز لتعليب السمك.

وأكثر الشركات الصناعية في المغرب يملك المغاربة الحصة الأكبر فيها.

التجارة: يستورد المغرب مواد غذائية تشمل الحبوب والسكر والشاي والألبان (ذلك لأن ما ينتجه لا يكفي السكان المتزايد عددهم). يضاف الى هذا ان البلاد تستورد الآلات على اختلاف أنواعها والنفط الخام والكيماويات والسيارات. أما ما يصدره المغرب فيشمل الحمضيات والبندورة والبطاطا والمشروبات والخضار الطازجة والخضار والأسماك المعلبة وزيت الزيتون واللب لصناعة الورق والفوسفات وأنواع السجاجيد والبسط والأقمشة والمصنوعات النحاسية (اليدوية).

والدول التي يستورد منها المغرب، مرتبة على أساس أثمان المستوردات، هي: فرنسا واسبانيا والولايات المتحدة والمانيا الاتحادية وإيطاليا والعراق وهولندا وبريطانيا. وتستورد المملكة المغربية من فرنسا بضائع يبلغ ثمنها ربع ما تستورده اطلاقاً. وتصدر المملكة المغربية، على الأساس نفسه، الى فرنسا (ربع ثمن الصادرات كلها يأتي من فرنسا) والمانيا الاتحادية واسبانيا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا وبريطانيا.

المواصلات: توجد في المغرب طرق جيدة، وفيه من السكك الحديدية القائمة والعاملة ٢٢٠٠ كم. وهناك مشاريع لبناء سكك حديدية جديدة. وموانىء المغرب جيدة وهي: الدار البيضاء (كازابلانكا) وآسفي والمحمدية وأغادير والصويرة وطنجة والقنيطرة والناضور.

وفي المغرب ثلاثون مطارا تجاريا، أهمها، من حيث الطيران العالمي، طنجة والنواصر (الدار البيضاء) والرباط. وللمغرب شركته للطيران هي الخطوط الجوية المغربية التي يعود انشاؤها الى سنة ١٩٥٣. وهناك الخط المغربي الداخلي، للخدمات الداخلية.

التنمية: لم يختلف المغرب عن غيره من الأقطار النامية، فوضع خطة خماسية للتنمية لأول مرة ١٩٦٨ ـ ٧٢، وكانت الخطة موجهة نحو تطوير التعدين والصناعة، وقد كان نجاحها محدوداً. وجاءت الخطة الخمسية الثانية، وقد وجهت نحو قطاعات الصناعة والتعدين والسياحة ومصايد الأسماك والصناعات اليدوية والزراعة. ولكن الخطة تعثرت بسبب هبوط أسعار الفوسفات في السوق العالمية، ومن ثم فقد اقتضى الأمر اعادة النظر فيها وتقليصها بعض الشيء. وتلا ذلك خطة ثلاثية كانت أقل طموحاً. وقد وضعت مؤخراً خطة ثلاثية الغاية منها تطوير الصناعات الصغيرة والمتوسطة والمشاريع الزراعية من المستوى ذاته. فقد رؤي ان هذه المشاريع أيسر تطبيقاً وأقل نفقة وأكثر استيعاباً للأيدي العاملة وأسهل توزيعاً وإنشاء وإدارة. وهذه الخطة يعتمد نجاحها، الى درجة كبيرة، على مدى مساهمة رأس المال الخاص والقطاع الخاص في تمويلها، لأن الدولة لا تزال بحاجة الى ضغط النفقات.

المجتمع في المغرب

يتراوح عدد سكان المغرب بين واحد وعشرين واربعة وعشرين مليوناً من السكان. ويمكن القول اجمالاً بأن نحو ثلاثة أرباع هؤلاء الناس في الريف، والربع الباقي يقيم في المدن الرئيسية. ومن ثم فإن المدن مزدحمة الى درجة كبيرة، وهجرة الريف الى المدينة في ازدياد.

ومع ان اللغة العربية هي لغة العلم والأدب والفقه في المغرب منذ قرون، وهي اللغة الرسمية أيضاً، فهناك مجموعات من القبائل تتكلم، الى ذلك، لهجات بربرية مختلفة، وخاصة في الجبال المرتفعة وفي المناطق الصحراوية الجنوبية.

لما استقل المغرب كان عدد الطلاب في المدارس الابتدائية والثانوية نحو ٦٠٠,٠٠٠ طالب، وهذا معناه ان نحو ٥٪ من عدد السكان كان يدخل المدارس. وإذا حسبنا انه من المألوف أن يكون الطلاب في سن الدراسة الابتدائية والثانوية نحو ١٥٪ كان معنى العمل التعليمي، في أواخر عهد الحماية، ان ثلث الأحداث، كانوا يؤمون المدارس. (وبهذه المناسبة فقد كان في البلاد ألف طبيب في السنة نفسها، وكان من هؤلاء خمسون فقط من المغاربة).

ونحن إذا انتقلنا الى سنة ١٩٧٨، أي بعد اثنين وعشرين عاماً من الاستقلال، وجدنا ان عدد الطلاب في المرحلتين الابتدائية والثانوية كان ٢,٣٧٦,٠٠٠ تلميذاً (وتلميذة) من هؤلاء ١,٧٩٤,٠٠٠ في المدارس الابتدائية و٥٨٢,٠٠٠ في المدارس الثانوية، وهذا العدد هو ١٢,٥٪ بالنسبة الى عدد السكان. أي أن النسبة زادت ضعفين ونصف الضعف. ولنضف الى هذا أنه عند الاستقلال لم يكن في المغرب ذاته تعليم عال، بمعنى أنه لم يكن فيه جامعة أو حتى كلية. كان هناك معاهد لدراسة القانون والتاريخ والآداب والعادات والتقاليد. لكن هذه المعاهد كادت أن تكون مقصورة على الفرنسيين. أما المغاربة الذين كانوا يريدون تلقي العلوم العالية فكان عليهم ان يلتحقوا بجامعة الجزائر أو واحدة من الجامعات الفرنسية، وكان هؤلاء الطلاب يشجعون على دراسة العلوم النظرية، وقلما شجع أحدهم على دراسة أي من العلوم التطبيقية كالهندسة أو الطب أو الصيدلة مثلاً.

وإذا تذكرنا ما ذكرناه قبلا عن موقف الحكومة الفرنسية من التعليم المغربي الوطني واللغة العربية أدركنا أن السياسة العامة لحكومة الحماية كانت أقرب الى التجهيل منها الى التعليم.

ومن هنا فإنه لما استقل المغرب كانت المشكلة الأولى التي جابهته هي مشكلة النقص الفاضح في الكوادر التقنية والعلمية والفنية، وخاصة في مجال التعليم. فحتى بعد مرور ثماني سنوات على الاستقلال كان لا يزال سبعة آلاف من المعلمين في مدارس المغرب من الفرنسيين، وكانت مواد كثيرة تعلم في المدارس الرسمية باللغة

الفرنسية. يضاف الى هذا أنه لم يكن، حتى سنة الاستقلال، كتاب مدرسي مغربي موضوع باللغة العربية.

على أنه يجب أن نذكر أيضاً أن جامع القرويين، ومدارس أخرى مثل مدرسة ابن يوسف في مراكش، كانت الحصن الحصين لتعليم اللغة العربية والدين. ولجامع القرويين تاريخ طويل بين معاهد التعليم في البلاد. إذ إن هذا الجامع يمثل التعليم التقليدي الذي عرفه المغرب في أحد عشر قرناً. ولم يقتصر جامع القرويين على التعليم الديني فحسب، بل انه في أدوار كثيرة، من حياته الطويلة، كان يعلم فيه الطب ومبادىء الهندسة والفلك. وقد كان قانون ابن سينا أساس التعليم الطبي فيه. وقد ظلت علوم الحيوان والنبات والعقارات والأدوية والصيدلة تدرّس فيه، ولو على درجة محدودة، الى أواخر القرن التاسع عشر. إلا أن حكومة الحماية قيدت التدريس فيه فأعادته مدرسة دينية أدبية. ومن هنا كان في المغرب خميرة، أدبية لغوية فقهية شرعية دينية صالحة للإفادة منها في عهد الاستقلال.

وقد أخذ المغرب، منذ عهد الاستقلال، بالعناية بشؤون التعليم في مجالاته المختلفة. وقد أشرنا الى التطور العددي في التعليم الثانوي والابتدائي. وفي التعليم الجامعي بدأ العمل بعد الاستقلال مباشرة. ففي سنة ١٩٥٧ انشئت جامعة محمد الخامس في الرباط. وكان قوامها، يوم افتتاحها، ثلاث كليات، واحدة للآداب والعلوم الاجتماعية، وثانية للعلوم، وثالثة للاقتصاد والسياسة والقانون. واعتبرت يومها الدراسة الشرعية في القرويين (بفاس) كلية رابعة تابعة لجامعة محمد الخامس.

وقد أُتبع في أول الامر نظام ثنائي للتعليم العالي. فكان لطلاب كليتي الآداب والقانون ان يختاروا التعلم بالعربية أو بالفرنسية، على أساس أعدادهم في المدرسة الثانوية. فالأولون يتقدمون للحصول على الاجازة (الليسانس) في المغرب، والآخرون يتقدمون للامتحان في جامعة الجزائر أو بوردو.

وقد بلغ عدد الطلاب في التعليم العالي في المغرب (١٩٧٨) ٧٧,٤٠٠ طالب وطالبة، وهم موزعون الآن على جامعات محمد الخامس (الرباط) والدار البيضاء وفاس وتطوان ومراكش. وهذه الجامعات تتبعها معاهد للدراسات والبحوث المتخصصة، يعمل فيها الطلاب بعد الحصول على الدرجة الجامعية الأولى. وقد انشئت جامعة في وُجدة سنة ١٩٧٩.

والمجتمع المغربي يتمثل فيه اتجاهان متباينان. الأول الاتجاه المحافظ الذي يشمل الريف والمدن الصغرى وأجزاء من المدن الكبرى. انه مجتمع محافظ بالنسبة الى عاداته ولباسه ومآكله وآداب المائدة والأثاث المنزلي. فأنت تدعى الى بيت لتناول الطعام فتجد ان الجو مهيأ على الطريقة المغربية ـ ومآكلهم لذيذة جداً ـ فتجلس على كرسي منخفض، ويقدم لك الطعام على مائدة مستديرة، وتأكل باليد (اليمنى فقط).

وهذا ما حدث لكاتب هذه السطور عشرات المرات. ومع ذلك فقد تكون المائدة معدة لاستعمال الشوكة والسكين، وهذا حدث لي مرات أيضاً. والمغربي يشعر بكثير من الفخر عندما يستضيفك في منزله ويقدم لك الطعام على الطريقة المغربية التقليدية، وليس ثمة اعتذار ولا من يحزنون.

وهناك الجماعات التي تأثرت باتصالها بالغرب قبل الحماية وأثناءها بشكل خاص. وهولاء يعيشون في بيوتهم على طريقة غربية.

على ان الفئتين اللتين يتكون منهما المجتمع المغربي، أي الجماعة التقليدية والجماعة الحديثة، لا يقتصر التقليد والحداثة فيهما على أساليب العيش، بل إنه يتعدى ذلك الى النواحي الفكرية أيضاً. والمشكلة الاجتماعية الكبيرة التي واجهها المغرب، بالنسبة الى المجتمع ككل، هي أنه أدرك الحاجة الى التحديث، في الاقتصاد والإدارة والفكر، مع الرغبة الملحة في الاحتفاظ بشخصيته الأصيلة. وقد كانت قضية تقبّل الفكر الحديث، حتى لا نسميه الفكر الغربي، قضية شائكة وصعبة. ولذلك سببان أولهما ان المغرب كان عليه ان يَتَحَدَّث بسرعة ليجاري مقتضيات العصر، خصوصاً وان الحماية كانت قد ضربت نوعاً من الحاجز بينه وبين «التحديث». والسبب الثاني هو أن هذا «التحديث» لم يقتصر على طبقة دون أخرى في المجتمع المغربي، بل شمل الجميع، وعني به الجميع. ذلك بأن المجتمع المغربي يتكون من الجماعة التي تدور في فلك البيت المالك، من حيث ارتباط أسرها الطويل بالعمل في الدواوين المخزنية (أي السلطانية)، وينضم الى هؤلاء أسر كبار التجار في فاس والرباط وتطوان (بشكل خاص) ورجال الدين والعلم. ويأتي بعد ذلك جماعات صغار التجار ثم العمال والفلاحون. ولكن المهم في المجتمع المغربي ان «طبقاته» لم تكن مغلقة قط. فحتى أعلى الطبقات كانت مفتوحة دوماً أمام من تسمو به همته الى الوصول. ولعلّ لجامع القرويين فضلاً كبيراً في ذلك. فالجامع كان يأتيه الطلاب من جميع انحاء البلاد ومن جميع الطبقات. فإذا انتهى الطالب من دراسته، وأثبت أنه حري بأن ينضم الى رجال العلم في فاس أو غيرها فالباب امامه مفتوح. والدواوين لا تقفل دونه لأنه كان فلاح الأصل أو ما الى ذلك... هذا تقليد قديم وقد استمر.

يقبع المغرب في الزاوية الشمالية الغربية من افريقية، وقد أطلق عليه جغرافيو العرب المغرب الأقصى، بسبب بعده عن مركز السياسة العربية. لكن المغرب كان دائم الاتصال بالجيران. فمن أقدم الأزمنة التاريخية، وعبرها على الدوام، كانت له صلات مع أوروبة، لعلها ظهرت على أقوى ما ظهرت أيام الصلات المغربية الاندلسية. وكانت له صلات مع السودان الغربي. وهذه الصلات ازدادت واتسعت وقويت لما أصبح «الجمل» سفينة الصحراء، ينقل التجار والتجارة والآراء والدين والعادات من المغرب الى السودان الغربي عبر الصحراء. وكانت للمغرب صلات بالمشرق، لعلها بدأت في

الألف الثالث قبل الميلاد أو حتى قبله، لكنها كانت مزدهرة في الألف الأول قبل الميلاد. ومع أنها تعثرت بعض الشيء في العصر الروماني، فإنها بلغت الذروة يوم وصل العرب المسلمون الى المغرب، وأصبح المغرب جزءاً من دولة العروبة والإسلام وينبوعاً من ينابيع الفكر العربي الاسلامي ـ بل كان في القرن الثالث عشر للميلاد، مثلاً، حصن الاسلام الحصين في تلك الرقاع النائية.

واليوم، وقد انتشرت وسائل السفر والنقل الحديثة، فقد ازداد اتصاله بأجزاء العالم. فالخطوط الجوية المغربية تصل البلد بدمشق وبيروت شرقاً وامريكا غرباً، فضلاً عن الانتقال الى أوروبا وأفريقيا. وثمة اتصال بالمغرب لجميع الخطوط الجوية الكبرى العربية والأجنبية.

وأود ان أختم بإشارة الى أن زيارة المغرب أمر لا يندم المرء عليه. وكاتب هذه السطور يعرف البلاد منذ سنة ١٩٣٩، وقد زارها نحو عشر مرات، وفي كل مرة كان يسر وينشرح ويكتشف أموراً جديدة في البلاد والناس. البلاد واسعة، ومناطقها متعددة أنواع الجمال، بحيث انك تجتاز الأطلس المتوسط على ارتفاع نحو ثلاثة آلاف متر، وتسير في سهل واسع من طنجة الى مراكش، وتسير في أودية متمعّجة جميلة من وُجْدة الى تازة ففاس فمنطقة تادلا فمراكش.

إن الزائر للمغرب لن يندم قط. وأنا واثق أنه سيعود.

٢ـ الجزائر

تمتد الجزائر ما يزيد عن ألف من الكيلومترات على شاطىء البحر المتوسط بين تونس شرقاً والمملكة المغربية غرباً. وتبعد اجزاؤها الجنوبية نحواً من ألفي كيلومتر عن شواطىء البحر المتوسط. وتقدر مساحتها بـ (٢,٣٨٢,٠٠٠) من الكيلومترات المربعة، منها نحو ١,٩٠٠,٠٠٠ ك م٢ مناطق صحراوية أو شبيهة بذلك، أي ما يقرب من أربعة أخماس مساحتها كاملة.

تقسم الجزائر، من حيث طبيعة السطح والمناخ، الى منطقة التل التي تمتد موازية للبحر المتوسط، وتشمل السهول الساحلية الضيقة وسفوح الأطلس وسلسلتها الشمالية وبعض الهضبة الواقعة بين سلسلتي الاطلس. وتلي التل منطقة السهوب، وهي سفوح الاطلس الجنوبية وانحداراتها نحو الصحراء، ثم المنطقة الصحراوية بواحاتها. ومنطقة التل تتسع في الجهة الشرقية الى الجنوب على حساب السهوب، كما ان السهوب تمتد في الجهة الغربية شمالاً، بحيث تعتدي على التل. وتقدر مساحة التل بنحو ١٣٤,٠٠٠ ك م٢، بينما تبلغ مساحة السهوب نحو ١٧٢,٠٠٠ ك م٢. وبينما نجد ان معدل سقوط الامطار في منطقة التل بكاملها لا يقل عن ٤٠٠ ملمتر (ويصل الى نحو ١,٠٠٠ ملم)، فإن السهوب لا يسقط فيها أكثر من ٤٠٠ ملم. والجنوب الصحراوي قلما يعرف الأمطار. وتقع على أطراف الهضاب المرتفعة، سلاسل من الجبال هي، من الغرب الى الشرق، القصور والعمور وأولاد نايل والاوراس. وهذه هي أروع تكتل جبلي في جبال الأطلس الجزائرية وفيها أعلى قمة هي جبل شيليا (٢,٣٢٨ متراً).

وسكة الحديد التي تصل تونس بقسنطينة والجزائر وتلمسان تجتاز قلب المنطقة الشمالية. وسهول المنطقة التونسية تكون جرداء في الصيف، فإذا اجتاز القطار الحدود التونسية الجزائرية أخذ يسير في أودية متعرجة حتى سوق الخميس، عندها تبدو الجبال على جانبي الطريق، وهي جبال تكتسي بالأحراج الجميلة. ويصعد القطار الى دوفيفية، ثم يعود الى التصعيد الى قسنطينة، التي تقع على مجموعة من القمم يتراوح ارتفاعها بين ٦٨٠, ٧٦٠ متراً. ومن قسنطينة الى مدينة الجزائر يكون الطريق أكثر امتاعاً. فمع أن القسم الأول منه عادي، يجتاز القطار فيه أرضاً سهلية تخترقها أودية أكثرها جاف، فإن المنطقة تظهر محاسنها تدريجاً، وبخاصة بعد اجتياز برج بوعريريج. عندها تتنوع الألوان على الجبال. وهذه الاشجار التي تبدأ زيتوناً وصنوبراً

افريقياً متفرقاً، لا تلبث أن تتزاحم في بقع كثيرة، وتتناكب في أخرى، بحيث إنها تتعانق صفصافاً وحوراً على عدوات الأودية. والطريق يدور ويلف في هذه الأودية التي تحرسها جبال منطقة القبايل الكبرى. وبين مدينة الجزائر والبليدة (على بعد خمسين كيلومترا الى الجنوب) يجتاز المسافر منطقة كروم غاية في الاتقان والترتيب، وفيها أشجار الزيتون. ويزين التلال الملاصقة لها شجر الصنوبر والارز.

والطريق من مدينة الجزائر الى تلمسان يجاري أطراف منطقة التل والسفوح الجنوبية للأطلس الشمالية، وقبل الوصول الى تلمسان تدور الطريق وتلف، متجنبة الأودية السحيقة، محاذية الجبال السامقة، مستظلة بين الفينة والفينة الاشجار الباسقة، مشرفة، بين الحين والحين، على نهيرات عذب ماؤها وصاف لونه. ويقبل المسافر على تلمسان فإذا به في منبسط من الارض جاد فيه التراب، فأينع الثمر وانتظم الشجر، وفاح من الزهور أريج وكسا الجبال غاب. والطريق من تلمسان الى وهران ومنها الى مستغانم على هذا النحو. الا ان الخصب الذي يعطي الارض قوتها للزرع والضرع، قد يعطله، في سنوات كثيرة، وقد تكون متلاحقة، جفاف يضرب الاجزاء الجنوبية من التل والسهوب، فيأتي على الحرث والسعي (الماشية).

تمتد الجزائر نحواً من ١,٥٠٠ ك م الى الجنوب من سلسلة الأطلس الصحراوية. وقاعدة المنطقة الصخور القديمة التي التوت جبال الاطلس (التي تشبه جبال الألب في كونها جبالاً التوائية) الى جانبها الشمالي. والمنطقة سهلية، وان كانت تتقطها بعض الهضاب، مثل إقلاب وتسيلي. وترتفع كتلة جبال الحجر (اغّار) الى ٢,٩١٨ متراً، وهذه تقع في الجزء الجنوبي الشرقي من البلاد. ومن هذه الكتلة تمتد كتلتا ادرار وأير الجبليتان عبر الحدود الجزائرية الى جارتي الجزائر الجنوبيتين مالي والنيجر (وليبيا هي جارة الجزائر الشرقية).

ومناخ الجزائر الصحراوية يتميز بالفروق الكبيرة بين نهايات الحرارة العظمى والصغرى (صيفاً وشتاء، ونهاراً وليلاً) وبالرياح والجفاف. فالحرارة اليومية تتراوح بين ٣٢ درجة مئوية وما يزيد عن ٥٥ درجة مئوية في الظل. وقد يصحب ارتفاع الحرارة عواصف رملية عنيفة. والمطر لا يتجاوز ١٣٠ ملمترا، هذا ان سقط. وقد يهطل من المطر بضع سنتمرات في يوم واحد، يعقبه سنوات من الجفاف التام. ومن ثم فالنباتات هنا قليلة، والسكان يتكتلون حول الواحات، أو يكونون بدواً رعاة ينقلون مواشيهم الى حيث يوجد الكلأ.

التاريخ القديم والمتوسط

ان الصحراء الكبرى، التي تخترق افريقية من حوض النيل الى المحيط الأطلسي، حديثة العهد نسبياً، إذ إنها ترجع، في شكلها الحالي، الى حول سبعة آلاف سنة. وقد كانت قبلاً، على ما يرى الباحثون، في بقايا البحيرات وقيعان الأنهار الجافة، مناطق صالحة للزراعة والرعي، وكانت فيها شبكات من الأنهار أهمها تلك التي كانت تصب

في النيل شرقاً، وتلك التي كانت تغذي نهر النيجر غرباً. فلما قحلت الأرض، وجفت المياه، انكفأ سكان الصحراء أو المنطقة التي كانت قبل الصحراء، الى الشمال والجنوب. وسكان الشمال هم الذين يسمون البربر. وعهدهم بالمنطقة يرجع الى أزمان متوغلة في القدم، ولعلهم من سكان البحر المتوسط القدامى الذين تعود أصولهم الى حول ١٢,٠٠٠ سنة. وقد كان هؤلاء متوزعين قبائل على بلاد المغرب الكبير. وأول ما نعرف عن تنظيم دولي لهم، وان كانت دولة عابرة، كان في أيام الحرب البونية، بين قرطاجة والرومان، وذلك في القرن الثالث قبل الميلاد. وأهم دولة ظهرت هي نوميديا (٢٠٨ ـ ١٤٨ ق.م.) على يد الزعيم ماسنيسّا. وقد شملت دولته الجزء الأكبر من الجزائر الحالية الى الشمال من الصحراء. ولما دمرت قرطاجة (١٤٦ ق.م.) حُوِّلَت نوميديا، بعد تقليص مساحتها، الى ولاية رومانية. وفي أيام اغسطوس قيصر نجد نوميديا ولاية رومانية عادية. أما الأقسام الباقية، مما يكوّن الجزائر الحالية، فقد شغلتها قبائل مستقلة، يربط بينها تحالف قد يقوى ويضعف حسب الأحوال التي تقوم فيها. ومع ان المناطق الساحلية، حيث كانت تقوم مراكز التجارة والثقافة، قد تمثلت بعض الحضارة الرومانية، فإن المناطق الجبلية والمناطق الداخلية حافظ البربر فيها على استقلالهم، مجتمعين في اتحادات لا تلبث أن تُعقد حتى تحل.

ولما انتشرت المسيحية في شمال افريقية أخذ البربر بواحد من المذاهب التي لم تقبل بها الامبراطورية الرومانية، واتخذوا من هذا الاختلاف المذهبي سبيلاً للثورة والعصيان على الدولة. وفي أواسط القرن الخامس للميلاد، وقبل ان تسقط الامبراطورية الرومانية الغربية رسمياً (٤٧٦ م) كان الفندال، وهم من القبائل الجرمانية التي كانت قد هاجمت الامبراطورية، قد احتلوا شمال افريقية وأقاموا لهم دولة في شرق الجزائر الحالية (وبعض القطر التونسي)، الا أنهم لم يتمكنوا من السيطرة على بربر الداخل. وفي سنة ٥٣١ م احتل البزنطيون، في أيام جستنيان (يوستنيانوس) تونس والجزائر الحاليتين، وامتد سلطانهم الى المغرب. الا ان البربر في الداخل ظلت لهم اتحاداتهم القبلية، وقد تمركزوا بخاصة في أوراس وبلاد القبايل.

في أواسط القرن السابع للميلاد زحفت الجيوش العربية الاسلامية من مصر وأخذت تفتح المغرب العربي الكبير. ومع ان البربر قاوموا العمل العسكري العربي فترة من الزمن، فإن تكاثر العرب في المنطقة وبناء القيروان كمركز عسكري اداري للمغرب بكامله، أدى بالبربر الى قبول الحكم العربي، واعتناق الإسلام. كان هذا في أواخر القرن السابع م. وقد اشترك البربر في مطلع القرن التالي في الزحف العربي على اسبانية. وهكذا أصبحت المنطقة المغربية بكاملها جزءاً من الدولة العربية الاسلامية الأموية.

وكان القرن الثامن الميلادي فترة اضطراب في المغرب، وفي وسطه انتهى أمر

الأمويين وقامت الدولة العباسية. وكان هذا، مع اعتناق كثير من البربر المذهب الخارجي، مناسبة للخروج على السلطة وإقامة دول مختلفة في نواحي المغرب كانت حصة الجزائر منها الدولة الرسمية (١٦٠ ـ ٢٩٦/ ٧٧٧ ـ ٩٠٩) في تيهارت (تيارت الحديثة)، التي كانت عاصمة للدولة وموقعها في غرب الجزائر. وكانت أيام هذه الدولة فترة نشاط تجاري كبير مع افريقية جنوبي الصحراء. كما ان العاصمة كانت مركزاً من مراكز الحياة العلمية.

في سنة ٢٩٧/٩٠٩ قامت الدولة الفاطمية في تونس (أسست المهديَّة عاصمة لها). وهذه الدولة سيطرت على قسم كبير من المغرب. لكن الدولة الفاطمية انتقلت الى مصر. وكان ان استخلف الفاطميون الزيريين، وهم من صنهاجة، في المغرب، فأقام هؤلاء لهم دولة في الجزائر هي الدولة الزيرية (أو الحمَّادية) بين سنتي ٣٦١ و٥٤٧/٩٧٢ و١١٥٢.

في أواسط القرن الخامس (الحادي عشر) انتشر بنو هلال وبنو سليم من مصر الى الغرب، فأحدثوا الكثير من الدمار، وهدموا الحياة الاقتصادية في المغرب. لكن من جهة أخرى كانت اعدادهم كبيرة بحيث انهم كانوا، في خاتمة المطاف، عوناً على تعريب المنطقة. ولم ينقذ البلاد من الفوضى التي عمتها الا مجيء المرابطين من المغرب الذين فرضوا سلطانهم على المنطقة المحيطة بمدينتي الجزائر ووهران (وكان بنو حماد قد استقروا في بجاية في شرق الجزائر). وخلف المرابطين، لما زالت دولتهم، الموحدون الذين كانت لهم دولة ضمت المغرب والجزائر وتونس ومنطقة طرابلس وإسبانية المسلمة. ودولة الموحدين هي أكبر دولة قامت في المغرب الاسلامي في العصور الوسطى، وكانت أيامها فترة ازدهار اقتصادي وثقافي في تلك الجهات. ولما ضعف شأن الموحدين، قامت في الجزائر دولة بني عبد الواد (٦٣٣/١٢٣٦) في تلمسان، وهي الدولة التي تعرضت لهجمات واحتلال من الدولة المرينية المغربية، ثم وقعت الجزائر تحت حكم الحفصيين، حيث كان بنو عبد الواد. على ان ضعف الحفصيين منذ حوالى سنة ٨٣٧/ ١٤٣٤ (وهي سنة وفاة المنتصر الحفصي) عرّض المنطقة للكثير من الفوضى واستبداد الحكام والزعماء، الأمر الذي دام نحواً من قرن ونصف القرن. وفي مطلع القرن السادس عشر استقر الأتراك العثمانيون في الجزائر.

في العصور الاسلامية (المتوسطة) كانت تلمسان مركزاً هاماً للحياة السياسية والعلمية والتجارية.

الجزائر في العصور الحديثة

لما احتل الاسبان غرناطة (١٤٩٢) أخذوا يتطلعون نحو شمال افريقية لاحتلال السواحل أملاً في السيطرة على تجارة البلاد مع أواسط القارة الافريقية. وقد نجحوا

في احتلال المرسى الكبير ووهران وبجاية والجزائر (المدينة) بين ١٥٠٥ و١٥١٠. وفي سنة ١٥١٦ (لما توفي فرديناند ملك قشتالة) استنجد سكان مدينة الجزائر وأحوازها بالقرصان التركي الكبير عروج، طالبين عونه ليخلصهم من الاسبان. وقد استولى عروج على مدينة الجزائر وغيرها بما في ذلك تلمسان غرباً وقسنطينة شرقاً، وعلى مناطق من الداخل. ويرى البعض ان هذا هو بدء ظهور الجزائر قوة سياسية في العصور الحديثة. ومع ان النزاع استمر بين العثمانيين والاسبان، فإن الأولين كانوا يستولون على المواقع تدريجاً تحت قيادة خير الدين بربروسًّا وخلفائه. فقد إنتزع خير الدين البنون (١٥٢٩) من الاسبان، فحرر مدينة الجزائر من الخطر الدائم. وقاد شارل الخامس بنفسه (١٥٤١) حملة كبيرة ضد الجزائر، باءت بالفشل الذريع؛ وأصبحت الجزائر منذ ذلك الوقت تابعة للدولة العثمانية. (كان العثمانيون قد احتلوا بلاد الشام ومصر ١٥١٦ ـ ١٥١٧، وفي سنة ١٥٥٥ احتلوا طرابلس، ثم احتلوا تونس ١٥٧٤، وبذلك أصبح المغرب، باستثناء المغرب الأقصى، تحت امرتهم).

وحتى سنة ١٥٨٧ كانت ايالة الجزائر يديرها بيلربك نائباً عن السلطان العثماني. وتلا ذلك عصر الباشاوات حتى سنة ١٦٥٩، إذ جاء دور آغات الانكشارية (حتى سنة ١٧١١) وأخيراً أصبحت ادارة البلاد بيدالدايات، وهؤلاء استمروا الى سنة ١٨٣٠، وهي السنة التي احتلت فيها فرنسة الجزائر. على ان القوة الحقيقية، منذ أواسط القرن السادس عشر، كانت بيد الانكشارية أو رؤساء الطوائف (وهم قادة المنظمات القرصانية). وكان الانكشارية يأتون من الأناضول، أما الفريق الآخر فقد كان منوع الأصل، لكنهم كانوا دعامة الحياة المالية للايالة.. فحكام الجزائر اهتموا بالبحر (قرصنة واغارات) وتركوا البر ـ زراعة وتجارة.

كان القرن السابع عشر فترة في غاية الازدهار الاقتصادي بالنسبة للايالة. فقد كانت لحكامها علاقات دبلوماسية مع الدول البحرية الكبرى في اوروبة الغربية ـ انكلترا وهولاندا وفرنسة، وكان لهذه الدول قناصل أو وكلاء في مدينة الجزائر. وازدهرت صناعة القرصنة التي عادت على المدينة بثروات كبيرة بأسرها السفن واستيلائها على السلع والرجال. وكانت المدينة من مراكز تجارة الرقيق الكبرى. وكانت مدينة الجزائر تتطلع، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر نحو البحر. ومع أنه كان ثمة محاولات عثمانية للسيطرة على الداخل، فإن القبائل، وبخاصة في أوراس ومنطقة القبايل، حافظت على استقلالها خلال فترة الحكم العثماني. أما القبائل القريبة من المدينة فكانت ترغم على دفع الضرائب الى الداي على مضض، أو أنها كانت تعترف بسلطته كارهة. ثم أخذت الفرص أمام قرصان الجزائر تتضاءل في القرن الثامن عشر بسبب نمو القوة البحرية الاوروبية في البحر المتوسط. وقد نقص عدد سكان المدينة من ١٠٠,٠٠٠ نسمة الى أقل من ٣٠,٠٠٠ في مطلع القرن التاسع

عشر. أما في الداخل فقد وسع زعماء القبائل نطاق نفوذهم، بحيث انهم تمتعوا ببعض الازدهار الاقتصادي.

ولما انشغل الاوروبيون بالحروب النابليونية، عاد الى القرصان وإلى اقتصاد مدينة الجزائر بعض النشاط، إلا أنه كان قصير الأمد. فلم يكد السلم يعود الى القارة الأوروبية حتى قامت السفن البريطانية الحربية بضرب المدينة (١٨١٦)، وذلك انذاراً بضرورة وضع حد لأعمال القرصنة في البحر المتوسط. وبعد أربع عشرة سنة نزلت القوات الفرنسية في الجزائر وبدأت عملية الاحتلال.

فرنسة في الجزائر

في سنة ١٨٣٠ هاجمت القوى الفرنسية الجزائر، واحتلت المدينة وجوارها. وفي سنة ١٨٣٤ أقيمت «حكومة الممتلكات الفرنسية في شمال افريقية». وكان رأي بعض الفرنسيين (سنة ١٨٤٠) الاكتفاء باحتلال الاجزاء الشمالية من البلاد فقط، وذلك تحقيقاً للسيطرة الاقتصادية على منافذ تجارة افريقية الوسطى (عبر الصحراء) وللسيطرة الاستراتيجية على غرب حوض المتوسط. لكن المقاومة (في قسنطينة الى ١٨٣٧) التي قادها الأمير عبد القادر الجزائري ضد فرنسة أقنعت الكثيرين بأن الاحتلال يجب أن يكون كاملاً. لذلك لما قضي على مقاومة الأمير عبد القادر (١٨٤٧) استمرت عملية الاحتلال. وكان الأمر صعباً بالنسبة الى فرنسة بسبب تبدل حكوماتها وتغير أشكالها. ولكن لما قامت الجمهورية الثالثة (١٨٧١) سارت فرنسة قدماً في الاحتلال ـ التل أولاً ثم الجنوب، وأخيراً استطاعت ان تفرض نفسها على القطر بكامله في مطلع القرن العشرين.

وليس المهم فقط هو ان فرنسة احتلت الجزائر، ولكن الأكثر أهمية هو السياسة التي سارت عليها فرنسة في البلاد. فمرسوم سنة ١٨٤٠ الصادر عن لويس فيليب، ملك فرنسة، اعتبر الجزائر جزءاً من التراب الفرنسي؛ وفي سنة ١٨٤٦ اعتبر الجزائريون فرنسيين، ووضعت أسس الحكم المباشر مع البطش. صحيح ان الامبراطور نابليون الثالث أعلن (١٨٦٥) مساواة الجزائريين بالفرنسيين، الا ان هذا كان وعداً خالياً من المضمون العملي. فالمعمرون الذين كانوا قد تدفقوا الى الجزائر لم يرضوا بذلك. وكل ما ترتب على المنشور هو ان ظل المسلمون يرجعون الى أحكام الشريعة في قضايا الأحوال الشخصية. ولما قامت الجمهورية الثالثة، عادت فرنسة الى الشدة والبطش، كما ذكرنا. ففي أول هذه الفترة صدر القانون المعروف بقانون كريمو، الذي منح بموجبه اليهود الجنسية الفرنسية. وفي مقابل ذلك وضع الجزائريون تحت تصرف الحاكم العام المطلق، وأقصوا عن ممارسة الحقوق العامة، واعتبر كل من يناهض الحكومة الفرنسية عاصياً ثائراً يجوز معاقبته بالسجن أو النفي أو التجريد من الأملاك. ووضعت الحكومة الفرنسية نصب عينيها انتزاع الأراضي من الأهالي،

وبخاصة أراضي التل، لتوزيعها على المعمرين، فأدى هذا الى خروج مصدر الثروة الرئيس، وهو الزراعة، من أيدي ابناء البلاد، وتدهورت حالتهم الاجتماعية والاقتصادية. وقد هبط عدد سكان القطر الجزائري من ٢,٦٥٠,٠٠٠ نسمة سنة ١٨٦٦ الى ٢,١٢٥,٠٠٠ نسمة سنة ١٨٧١.

وكان ان انكسرت فرنسة في الحرب الفرنسية ـ البروسية (١٨٧١) وسلمت الالزاس واللورين لألمانية. وكان هذا الأمر بعيد الأثر بالنسبة الى الجزائر. فمن الجهة الواحدة حاولت فرنسة ان تسترد المجد المحطم في فرنسة بانتصارات في الجزائر (ضد الثوار الجزائريين). ومن الجهة الثانية أرادت أن تعطي الفرنسيين الذين أجلوا أو جلوا عن الالزاس واللورين، والذين انتقلوا الى الجزائر بأعداد لا يستهان بها، أراضي جيدة يقيمون عليها. ولم يكن انتزاع أراضي التل وغيرها يسير على غير هدى أو يقوم على المصادفة. لقد كان الاستعمار ـ أي الاستيطان في البلاد بعد الاستيلاء على الأراضي ـ يسير وفق سياسة مرسومة واضحة القواعد. كانت قد بدأت هذه السياسة من قبل، اذ ان لجنة خاصة سبق وأنشئت لبحث مشكلة الأراضي في منطقة متدجة (في التل)، وهي أراض كانت أصلاً لأهل البلاد، فأصدرت قرارها سنة ١٨٥٠ سمحت فيه للجزائريين بـ ١١,٠٠٠ هكتار وللفرنسيين بأن يتملكوا ٣٦,٠٠٠ هكتار. وكانت حصة الحكومة ٩٦,٠٠٠ هكتار. وهذه وضعت تحت تصرف المعمرين.

لم يقف الجزائريون مكتوفي الأيدي أمام هذه التصرفات. فالثورات تعاقبت منذ الاحتلال الفرنسي. وما حركة الأمير عبد القادر سوى أقوى الأمثلة للثورة. وفي سنة ١٨٤٩ قام أبو زيان بثورة دامت ستة أشهر كاملة. ولما انتصر الجيش الفرنسي عليه بعد محاصرته في بسكرة، نكل الجيش بالسكان هناك، فدمر الواحة وقتل سكانها. وفي سنة ١٨٧١ قامت في الجزائر ثورة عمت بلاد زواوة ومقاطعة قسنطينة وأيالة الجزائر وكان على رأسها المقراني والشيخ محمد الحداد شيخ الطريقة الرحمانية. وبلغ عدد القتلى فيها نحو ستين ألفاً من الجزائريين وعشرين ألفاً من الفرنسيين. وبعد انتصار الجيش الفرنسي حكم على ستة آلاف جزائري بالإعدام، وغرمت البلاد ستة وثلاثين مليون فرنك. وبسبب عجز القبائل عن الدفع صودرت الاملاك، وأجلي السكان. فقامت على أثر ذلك ثورة أخرى بوهران استمرت خمس سنوات. وفي سنة ١٨٨٢ قامت ثورة القبائل المهرانية.

على ان الجزائريين لجأوا الى غير سبيل الثورة في سبيل توضيح وجهة نظرهم والحصول على حقوقهم. ولكن الخلاف بين النظرة الجزائرية والنظرة الفرنسية كان كبيراً ـ كبيراً جداً، ففرنسة كانت تريد ان تصبح الجزائر فرنسية وان يصبح الجزائريون فرنسيين، بحيث ينسون مقوماتهم الذاتية وشخصيتهم التي أكسبهم اياها تاريخهم ولغتهم ودينهم. وهذه السياسة كان يقرر قواعدها فئتان: المعمرون الفرنسيون

في الجزائر الذين أصبحوا أصحاب القول الأول في شؤون القطر كله، والحكومة الفرنسية التي اتبعت هذه الخطة منذ الاحتلال. أما الجزائريون فكانوا يأبون هذه «الفرنسة». انهم يريدون ان يظلوا جزائريين مسلمين، وان يكونوا أحراراً مستقلين في بلادهم. ومن ثم فلم يكن ثمة حل لهذه المشكلة الا عن طريق الثورة، وقد قاومتها فرنسة بمنتهى الشدة، وقمعتها بمنتهى البطش. ومع ذلك فقد حاول الجزائريون، المرة بعد المرة، ان يتفاهموا مع فرنسة. وقد قبلوا، أول الأمر، درجة بسيطة ـ نسبياً ـ من حفظ كيانهم. لكن كلما اشتطت فرنسة في أعمال القمع، ازداد الجزائريون في مطاليبهم، ونشطت حركاتهم، وانتشرت فكرة الاستقلال بين أفراد الشعب.

كانت أولى المطالبات السلمية السياسية تلك التي بدأها أحمد أبو دربة وصادق دندان والحاج عمار في حدود ١٩١٠. فقد طالب هؤلاء بتطبيق قانون سنة ١٨٦٥ (القائل بالمساواة بين الجزائريين والفرنسيين). وكانوا يرمون الى تقوية الجامعة الاسلامية، والاستعانة بالدولة العثمانية. فقد كان البعض لا يزالون يعتقدون، ولو الى درجة محدودة، بأن الدولة العثمانية لا يزال باستطاعتها ان تنشط الى تبوء دور القيادة في العالم الاسلامي.

في اثناء الحرب العالمية الأولى هاج الجزائريون على أثر اعتزام الحكومة الفرنسية تجنيد العدد الكبير من ابناء البلاد للقتال في صفوف الجيش الفرنسي. الا ان فرنسة وعدتهم بأن تمنحهم، بعد الحرب، سائر الحقوق المدنية. فقبلوا، واشترك نحو ستين ألف جزائري في القتال. ولما انتهت الحرب تقدم وفد جزائري الى ولسون، رئيس الولايات المتحدة، يطالب بحقوق أهل الجزائر على أساس بنوده الاربعة عشر، وبخاصة ما يتعلق منها بتقرير المصير. وهذه الجماعة هي التي أصبحت فيما بعد «كتلة الناخبين المسلمين الجزائريين». وقد تركزت أهدافها في أمرين: الحصول على الحقوق المدنية كاملة، وإصلاح أحوال الجزائريين الاقتصادية والاجتماعية. وكان على رأس هذه الجماعة الأمير خالد. ولم تلتفت فرنسة الى أي من هذه المطالب، ونفي الأمير خالد مرتين بسبب انتشار فكرته بين أفراد الشعب. (وتوفي في سورية منفيا سنة ١٩٣٦).

في سنة ١٩٢٤ انعقد المؤتمر المغربي في باريس، وطالب بحرية القول والنشر وإلغاء قانون الانديجينيا (أي قانون السكان الأصليين) الذي كان يحرم الجزائريين حقوقهم المدنية، بل حقوقهم السياسية. وقد نشأ عن هذه الحركة وعن انتشار الروح القومية بين الافارقة (الشماليين) المقيمين في فرنسة، قيام «جمعية نجم شمال افريقية» التي صارت لها صيغة سياسية (١٩٢٦). وفي عام ١٩٣٣ انعقد اجتماع عام لهذه الجمعية اتخذت فيه المقررات التالية: (١) اطلاق حرية الصحافة والاجتماعات. (٢) اقامة برلمان قومي في الجزائر يكون منتخباً على أساس التصويت العام. (٣)

تمكين الجزائريين من الالتحاق بوظائف الدولة، التي كانت حكراً على الفرنسيين. (٤) جعل التعليم باللغة العربية الزامياً في القطر كله. وبعد ادخال هذه الاصلاحات المستعجلة تأتي ثلاث خطوات أخرى ينظر فيها في المستقبل وهي: (١) جلاء الجيوش الفرنسية عن البلاد وإنشاء جيش جزائري وطني. (٢) منح الجزائر الاستقلال التام واعتبار جميع المنشآت الاقتصادية ملكاً للدولة الجزائرية. (٣) اعادة الأراضي التي اغتصبتها فرنسة الى أصحابها. وقد ظلت الجمعية قائمة الى سنة ١٩٣٧ إذ حلتها الحكومة الفرنسية.

وفي الوقت الذي كانت فيه جمعية النجم تعمل في فرنسة، كانت جمعية العلماء المسلمين تعمل في الجزائر. وكانت غايتها على ما أوضحها مؤسسها عبد الحميد بن باديس في مجلة «الشهاب» في عام ١٩٣٦ هي، على حد قوله: «اننا نرى ان الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت به سائر أمم الارض. وهي لا تزال حية ولم تزل. ولهذه الأمة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها وتقاليدها الحسنة والقبيحة كمثل سائر أمم الدنيا. وهذه الامة الجزائرية ليست هي فرنسة، ولا تريد ان تصبح هي فرنسة، ومن المستحيل ان تصبح فرنسة حتى ولو جَنّسوها».

وفي سنة ١٩٣٧ انعقد في مدينة الجزائر مؤتمر جزائري برئاسة الدكتور بن جلول، تمثلت فيه النزعات السياسية المختلفة، وقرر المطالبة بما يلي: (١) انتخاب الجزائريين في البرلمان. (٢) الغاء قانون الانديجينا، والغاء الأوامر التي من شأنها ان تعتبر مقاومي السيادة الفرنسية مجرمين يستحقون العقاب. (٣) الاعتراف باللغة العربية لغة قومية في البلاد. (٤) تطهير الادارات الجزائرية من العناصر المناهضة لرغبات الشعب الجزائري ومطالبه. وذهب وفد جزائري لمفاوضة حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية (حكومة بلوم). لكن الشعب الجزائري كان، في الواقع، يطلب أكثر مما قرر المؤتمر. فقامت في البلاد تظاهرات وإضرابات ووقعت مصادمات مع الجيش، تشددت الحكومة الفرنسية والمعمرون الفرنسيون في قمعها. وأهملت المطالب، خاصة وان حكومة بلوم لم تعمر طويلاً.

وفي السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية قامت في الجزائر أحزاب سياسية أهمها اثنان: (١) حزب الشعب الجزائري (صار فيما بعد حزب انتصار الحريات الديمقراطية) ـ انشأه مصالي الحاج سنة ١٩٣٧. وقد سجن زعيمه ونفي مرات. وكان الحزب يدعو الى التحرر الكامل والاستقلال التام. (٢) حزب اصدقاء البيان (صار فيما بعد حزب الاتحاد الديمقراطي لمسلمي الجزائر)، أسسه عباس فرحات سنة ١٩٤٣. وقد دعا الى تأسيس جمهورية جزائرية ذات برلمان جزائري منتخب انتخاباً حراً كاملاً. وقد قبل هذا الحزب ان تظل الجمهورية الجزائرية داخلة في الاتحاد الفرنسي. لكن الكثيرين من رجاله تبنوا فيما بعد المطالبة بالاستقلال التام.

وبعد حوادث ٨ ايار (مايو) ١٩٤٥ الدامية التي أدت الى مقتل عدد من الجزائريين يقدر بنحو ١٥,٠٠٠ في سطيف وغيرها، اتضح ان فرنسة لا تنوي بالبلاد وأهلها خيراً. ولذلك فقد ازدادت المطالبة بالاستقلال حدة وشدة. عندها عرضت الحكومة الفرنسية سنة ١٩٤٧ مشروعاً على مجلس النواب الفرنسي أقره، وقوامه ما يأتي: (١) تعتبر الجزائر مجموعة من العمالات (الولايات) الفرنسية وتكون ذات شخصية مدنية واستقلال مالي وتنظيم خاص بها. (٢) يظل الوالي (الحاكم) العام (وهو فرنسي طبعاً) محتفظاً بالسلطة التنفيذية باستثناء شؤون العدل والمعارف، فإنها تتبع الوزيرين المختصين في باريس. (٣) تنحصر السلطة التشريعية في مجلس حكومي يتكون من ستة اعضاء، ثلاثة منهم، وهم مقيمون في الجزائر، تعينهم الولاية العامة، يضاف اليهم رئيس ونائب رئيس ومدير المال. وهذا المجلس هو الذي يراقب المجلس النيابي الجزائري. (٤) والمجلس النيابي هذا يتكون من ١٢٠ عضواً، نصفهم فرنسيون ينتخبهم الفرنسيون المقيمون في الجزائر، ونصفهم الثاني ينتخبهم الجزائريون، وتجتمع كل فئة على حدة. (يلاحظ ان ٩ ملايين جزائري اعتبروا مساوين لنحو مليون وبعض المليون من المعمرين الفرنسيين). وينتخب الاعضاء بالاقتراع السري على درجتين، ويتولون النيابة لستة أعوام. وعمل هذا المجلس مناقشة الموازنة العامة والموافقة عليها. على أنه لا يجوز له أن يصوت ضد الحكومة.

أقرّت الحكومة الجزائرية هذا الذي سمته اصلاحاً (!) وسمحت لمن يريد من الجزائريين ان يتجنس بالجنسية الفرنسية على ان يحتفظوا بقوانين الأحوال الشخصية الاسلامية. لكن هذه الأعمال لم ترض الشعب الجزائري. فالتفريق في المعاملة ظل قائماً، والمساواة كانت معدومة، قولاً وفعلاً، وقد اعتبرت اللغة العربية لغة من لغات الاتحاد الفرنسي.

وفي سنة ١٩٥١ قام في الجزائر تكتل سياسي اسمه «الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحريات». وقد انضم الى هذه الجبهة ممثلون عن الحزبين المذكورين آنفاً وعن جمعية العلماء المسلمين في الجزائر والحزب الشيوعي الجزائري وجماعة من السياسيين المستقلين.

الاستعمار الاقتصادي

أشرنا من قبل الى اغتصاب الأراضي الجيدة في الجزائر على أيدي الادارة الفرنسية وتوزيعها ـ بوسائل مختلفة ـ على المعمرين. وقد بلغ مجموع ما سلب من الأرض (قبيل الحرب العالمية الثانية) ٢,٢٥٠,٠٠٠ هكتار. وقد انتزعت هذه على النحو التالي: بين سنتي ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ شمل الاغتصاب ٣٦٥,٠٠٠ هكتار؛ وبين ١٨٦٠ ـ ١٨٨٠ نهب ٣١٥,٠٠٠ هكتار؛ وبين سنتي ١٨٨٠ و١٩٠٠ انتزع من الأرض ما مساحته ٢٤٣,٠٠٠ هكتار. وبين سنتي ١٩٠٠ ـ ١٩٢٠ كان المستولى عليه هو ١,٣٢٧,٠٠٠ هكتار.

وإذا نحن نظرنا الى الملكية العقارية في الجزائر في أعقاب الحرب العالمية الثانية لوجدنا ان عدد الذين يملكون من الأرض ما تزيد مساحته عن ٥٠٠ هكتار كان منهم ٦٠٠ جزائري و٩٠٠ اوروبي (الأغلبية الساحقة من الفرنسيين إذ كانوا نحو ٩٥٪ من السكان الاوروبيين). وكانت مساحة ما يملكه الجزائريون هؤلاء ٤٧٤,٠٠٠ هكتار، أما ما كان بيد الفرنسيين (وغيرهم من الأوروبيين) ٩٦٣,٠٠٠ هكتار. أما مجموع الملاكين الجزائريين (ممن تعد عقاراتهم دون الهكتارات العشرة الى ما يزيد عن الخمسمئة هكتار) فكان ٥٣٢,٠٠٠ يقابلهم ٢٥,٠٠٠ من الفرنسيين. والأولون لهم ٧,٦٧٠,٠٠٠ هكتار، وللآخرين ٢,٧٢٠,٠٠٠ هكتار (ذلك ان الفرنسيين استولوا، بعد سنة ١٩٢٠ على ٥٠٠,٠٠٠ هكتار). وحري بالذكر ان الأرض التي استولى عليها الفرنسيون كانت الأكثر خصباً، كما ان الفلاح الفرنسي كان يعطى جميع المساعدات المالية والفنية والادارية والتنظيمية لإنجاح أعماله. وهذه كلها كانت ممنوعة على الفلاح الجزائري الا في حدود ضيقة ومناطق معينة ولأشخاص مقربين.

بالإضافة الى ملكية الأرض، ومعنى ذلك التفوق الزراعي والسيطرة على الثروة الزراعية، فإنه كان في الجزائر (١٩٤٩) ٥٠٥ مؤسسات صناعية وتجارية. وهذه كادت ان تكون حكراً على الفرنسيين. وكانت الادارة الجزائرية قد منحت (حتى سنة ١٩٤٩) ١١٢ امتيازاً لشركات اوروبية لاستخراج الثروة المعدنية في الجزائر. وجميع الصناعات الثقيلة او الصناعات الخفيفة ذات القيمة الاقتصادية والتجارة الخارجية تسيطر عليها المؤسسات الفرنسية.

ولعل التعليم (أو التجهيل إذا أردنا التسمية الصحيحة) تبدو فيه السياسة الفرنسية المتعنتة المستأثرة بالخير. ففي سنة ١٩٠٠ كانت المدارس الرسمية تؤوي نحو ١٤٠,٠٠ طالب وطالبة منهم ١١٥,٠٠٠ اوروبي (بما في ذلك الفرنسيون وكانوا ٧٥,٠٠٠) والباقون، وهم ٢٥,٠٠٠ جزائريون. هذا في الوقت الذي كان فيه الجزائريون بنسبة عشرة الى واحد بالمقابلة مع الاوروبيين جميعاً.

فما الذي وصل اليه الحال سنة ١٩٥٠؟ الطلاب والطالبات الجزائريون أصبح عددهم ٢١٢,٠٠٠ وصار الفرنسيون ١٣٨,٠٠٠ (أما الاوروبيون فقد تناقص عددهم إما بسبب الهجرة أو بسبب التجنس بالجنسية الفرنسية. كانوا ٣,٦٠٠ فقط). والمهم ان النسبة بين السكان الجزائريين والفرنسيين كانت هي عشرة الى واحد. وقد قدر عدد البنين والبنات من الجزائريين في سن التعليم الابتدائي سنة ١٩٥٠ بنحو مليون كان منهم في المدارس ٢١٢,٠٠٠ أي بنسبة واحد لكل خمسة يحتاجون الى مدرسة. أما الفرنسيون فقد كان لكل تلميذ أو تلميذة مكان في المدرسة الرسمية. هذه الأمثلة التي قدمنا هي من التعليم الابتدائي. أما في التعليم الثانوي فقد كان للجزائريين ٩٪ من مجموع الطلاب في المدارس الثانوية (أي ٢,٧٠٠ من أصل نحو ٢٤,٠٠٠ طالب).

والمدارس المهنية كان فيها نحو ٢٠٪ من الطلاب من الجزائريين، أما الجامعة فقد كان فيها سنة ١٩٤٨ ـ ٤٩ من الطلاب ٤,٦٣٩ منهم ٢٨٢ جزائرياً (٢٥١ طالباً و٣١ طالبة).

سيرت المدارس على المنهج الفرنسي، فحُرمت اللغة العربية في المدارس الرسمية تعليما وتعلّماً، وأبعد التاريخ العربي والاسلامي عن المناهج، وفرض تاريخ لغة فرنسة وأدبها وتاريخها على الجميع. وكان للحكومة الفرنسية في الجزائر ثلاث مدارس خاصة بالطلاب المسلمين في مدينة الجزائر وفي قسنطينة وفي تلمسان. وهذه تدرّس العربية والشرع والفقه الى جانب الفرنسية وآدابها، وهذه كان عملها تخريج مترجمين للمحاكم الشرعية. ذلك ان المحاكم الشرعية كانت، في وقت من الأوقات، تحت اشراف مدير العدلية الفرنسي. وكان لا بد ان يصادق على الأحكام الشرعية قبل تنفيذها. فكان خريجو تلك المدارس يعملون تراجمة في هذه المراكز، كما أنهم كانوا يترجمون، عند الحاجة، أمام حاكم فرنسي عندما تعرض عليه قضية فيها ناحية شرعية.

ثورة المليون شهيد

ليس من اليسير الالمام بكل ما قامت به فرنسة في الجزائر مما يمثل النهب العنيف لمقدرات الأمة. كما أنه ليس من اليسير التحدث عن المقاومة البطولية الجزائرية عبر عقود من السنين. وهي المقاومة التي توجت بحرب الاستقلال أو ثورة المليون شهيد (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢). ولذلك، فكما اننا اختصرنا فيما رويناه الى الآن، فإننا مضطرون الى الاقتضاب في أخبار هذه الثورة التي تكاد تكون فريدة في العالم العربي!.

ماطلت الحكومة الفرنسية بما لا يتحمل في تنفيذ برامج الاصلاح في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات. وكان العامل الأول في تعثر جميع الخطى والحيلولة دون تنفيذ البرامج، هم المعمرّون. فتعطيل الانتخابات (١٩٤٨ و١٩٥١) وغير ذلك من المواقف المتعنتة حمل الجزائريين على التفكير بالثورة، والتنظيم للثورة، والبدء بالثورة، ثم السير بالثورة الى النهاية المحتومة.

بدأت الثورة في مطلع تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ واتخذت جميع الأشكال القتالية والأساليب النضالية، وعملت التنظيمات الحزبية والفوق حزبية على القتال في الجبال والسهول والمراعي والقرى والدساكر والمدن. وعملت التنظيمات الثورية القيادية والميدانية بنوع من التنسيق غريب عن المنطقة، وقليل من الصراخ والدعاية، والعمل على الحصول على العون المادي والعسكري من كل مكان جاء.

اشتد تكالب المعمرين وحرصهم، يؤيدهم نصف مليون من الجند الفرنسي في الجزائر، وقام تنظيمهم السري (منظمة الجيش السري) بمحاولات كبيرة للسيطرة على الموقف. لكن الامر خرج من يد الفرنسيين، وأصبحت، منذ سنة ١٩٥٨، كفة الثورة

الاستقلالية هي المائلة نحو الربح. وحتى عودة ديغول الى الحكم (١٩٥٨) لم تخفف الأزمة؛ ذلك بأن الرجل، مع ادراكه خطورة الوضع، لم يعلن تصريحه الرسمي (١٩٦٠) بأن يسمح للجزائريين بتقرير مصيرهم الا بعد محاولة عسكرية أدرك فشلها وخطرها على الفريقين. وحتى بعد التوقيع على اتفاق افيان (١٨ آذار مارس ١٩٦٢) حاول المعمرون العمل على تفشيله. وبعد مفاوضات حول التفاصيل ووضع حد لتصرف الضباط المتمردين (الفرنسيين)، انتهى الأمر بإجراء الاستفتاء في ١ تموز/ يوليو ١٩٦٢ الذي كانت نتيجته ان ٩١٪ من الناخبين طالبوا بالاستقلال. وفي ٣ تموز/ يوليو أعلن الجنرال ديغول «الجزائر دولة مستقلة».

وقد كان عدد كبير من السكان الاوروبيين ـ والفرنسيين بشكل خاص ـ قد غادروا البلاد لما وقعت اتفاقية افيان. وكانت ثمة مشكلات كبيرة وكثيرة تواجه الدولة المستقلة. فقد سارت الحكومة على خطة اشتراكية قوية. فأممت المصالح النفطية الفرنسية ووضعت برنامجاً للإصلاح الزراعي. وفي عام ١٩٧٦ (كانون الاول/ديسمبر) خطط لانتخابات للرئاسة والمجلس الوطني. وكانت الشرعة الجزائرية الوطنية، قد ووفق عليها في استفتاء في حزيران/ يونيو من السنة نفسها، والأسس التي اعتمدت فيها هي: دولة اشتراكية واعتبار الاسلام دين الدولة. كما ان دستور الدولة قبل في استفتاء آخر. وفي شباط/ فبراير ١٩٧٧ تمت انتخابات «المجلس الوطني» (٢٦١ عضواً).

الوضع الاقتصادي

السكان: بلغ عدد سكان الجزائر، في أول عام ١٩٧٨، ١٨,٢٥٠,٠٠٠ نسمة (منهم ٨٢٨,٠٠٠ يعيشون في الخارج). يعيش ٦٠٪ من هؤلاء في الريف، الا ان نحو ١٠٠,٠٠٠ نسمة من الفلاحين ينزحون الى المدينة كل سنة، بحثاً عن عمل. وأكبر المدن هي العاصمة وفيها ١,٨٠٠,٠٠٠ (الا اننا نحسب ان هذا العدد قد ازداد في الآونة الأخيرة) ووهران (٥٠٠,٠٠٠) وقسنطينة (٤٣٠,٠٠٠) وعنابة (٣٤٠,٠٠٠) وتيزي ـ اوزو (٢٣٠,٠٠٠) وسيدي بلعباس (١٥٨,٠٠٠). وتقدر الزيادة السنوية للسكان بأكثر قليلاً من ٣,٢٪. ونحو نصف السكان هم دون الخامسة عشرة من السن.

وسكان الجزائر حريصون على استقلالهم، وقد دفعوا ثمنه غالياً. فالمليون شهيد هم الذين سقطوا في حرب الاستقلال الأخيرة (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢)، لكن البلاد قدمت قوافل من الشهداء عديدة، وان كانت كل منها أقل عدداً، منذ بدء الاحتلال الفرنسي.

ويعمل الجزائريون في استغلال الأرض الخصبة في الشمال ـ في السهول والأودية، حيث ينتجون الحبوب والكرم والزيتون والفواكه. أما ما تبقى من البلاد فلا تُمكن القوم من الانتاج الزراعي. لكن في المناطق الجبلية تعود الرعاية والاحراج على السكان بدخل متواضع. وتكثر في الواحات الجنوبية اشجار النخيل، التي تزود السكان هناك ببعض الدخل.

التخطيط الحكومي للاقتصاد: الأساس الذي اتبعته الحكومة الجزائرية منذ الاستقلال هو ـ السيطرة على الاقتصاد وتطوير التنمية الاقتصادية. ولذلك فإن الدولة استولت على بعض المصادر الاقتصادية استيلاء تاماً أو جزئياً، مثل تأميم المناجم التي كانت في حوزة الاجانب، والاستيلاء على الأرض التي تخلى عنها الأجانب لما غادروا البلاد، وشركات التأمين (١٩٦٦) وتولت جميع الموارد النفطية (١٩٧١).

والدولة تسيطر على الصناعات الثقيلة، أما صناعة المنتوجات الغذائية فلا تزال في غالبها بإشراف القطاع الخاص. وقد أممت بعض المنشآت التي تنتج الاقمشة والجلود وبعض المواد الغذائية. وتسير الجزائر على قاعدة الحد من استيراد الكماليات.

أعدت الجزائر خططاً للتنمية هي: الخطة الثلاثية ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩؛ الخطة الرباعية (الأولى) ١٩٧٠ ـ ١٩٧٣؛ الخطة الرباعية (الثانية) ١٩٧٤ ـ ١٩٧٩؛ الخطة الرباعية (الثالثة) ١٩٧٩ ـ ١٩٨٣. وقد خصص في الموازنة (للخطة الثلاثية) ٤,٢٠٠ مليون دينار جزائري للتنمية. وكانت هذه الفترة فترة تجارب واختبارات وفيها تمت عمليات تأميم كثيرة. وفي الخطة الرباعية الاولى اتجهت العناية نحو تطوير الصناعات البترولية وصناعة الحديد والصلب والكيمائيات والهندسة. وقد كان الاتجاه في الخطة الرباعية الثانية (١٩٧٤ ـ ١٩٧٩) نحو وضع أسس ثابتة للصناعة، وتحسين وسائل الانتاج الزراعي وأساليبه والإسكان والصحة والتدريب الفني والمهني. ومع ذلك فلم تزد حصة الزراعة من موازنة التنمية سوى ١٠٪ (بلغت مخصصات هذه الخطة ١١٠,٠٠٠ مليون دينار)، فيما أعطيت المشاريع الصناعية نحو ٤٤٪ من الموازنة. (كان الدخل القومي للشخص الواحد سنة ١٩٧٠ نحو ١٥٠٠ دينار سنوياً). أما الخطة الجاري العمل بها الآن، وهي الخطة الرباعية الثالثة (١٩٧٩ ـ ١٩٨٣)، فتتجه نحو تحسين الانتاج في الزراعة والصناعة، مع عناية متزايدة بالصناعات الخفيفة وانتاج حاجات المستهلك. الا انه من الطبيعي ان تنال صناعات البترول والحديد والفولاذ والتعدين الحصة الاكبر من العناية والانفاق.

ومن القضايا التي توليها الحكومة اهتماماً خاصاً هو شق الطرق في الجنوب الجزائري. وقد أنشئت الأقسام الممتدة من عين صالح الى تامنراست (من الطريق عبر الصحراوي) في سنة ١٩٧٨، وجرى بعدها العمل في الجزء الذي يصل البلاد الى حدود دولة النيجر.

الزراعة: قدرت الأيدي العاملة في الجزائر بنحو ٤,٠٠٠,٠٠٠ شخص يعمل ٤٢٪ منهم في الزراعة (١٩٧٨). ولا تزال الجزائر تعتبر أصلاً بلاداً زراعية. والجزء الصالح للإنتاج الزراعي يشغل رقعة تمتد بين ١٠٠ و٢٠٠ من الكيلومترات عن الشاطىء جنوباً. وهناك نحو سبعة ملايين هكتار من الأرض تستغل زراعياً، وتغطي الغابات نحو مليونين

ونصف المليون من الهكتارات. وتأتي زراعة الكرم في مقدمة المنتوجات الزراعية (بخاصة بالنسبة الى قيمة هذاالمنتوج في جدول الصادرات، اذ إنه يساوي نحو ثلثي الصادرات قيمة). وتستغل الأراضي الواسعة لإنتاج القمح والشعير والشوفان، وذلك للاستهلاك المحلي. وبين المنتوجات الزراعية الأخرى هناك الذرة بأنواعها والارز والأثمار الحمضية والزيتون والتين والتمر والتبغ. ومع الاهتمام بالزراعة فإن هذه تتأثر بالمناخ كثيراً، سيما وان الجزائر، مثل غيرها من بلاد الشمال الافريقي، تتعرض للتقلبات التي تجتاحها كالفيضانات والجفاف.

الأراضي: في سنة ١٩٦٣ استولت الدولة على جميع الأراضي التي كان ملاكها الاوروبيون (الفرنسيون بخاصة) قد تخلوا عنها وهجروها. (في سنة ١٩٦٦ أممت الحكومة الجزائرية ما تبقى من أرض كانت من أملاك الأجانب)، وحولتها الى مزارع حكومية، تديرها لجان عمال. وقد بلغت مساحة هذه الاراضي ٢,٣ مليون هكتار. وفي سنة ١٩٧١ وضعت الحكومة خطة لتوزيع الأراضي التي يملكها كبار الملاكين الجزائريين على الفلاحين، على ان ينظم هؤلاء في تعاونيات. وقد بدىء بتطبيق الخطة في السنة التالية. وفي سنة ١٩٧٩ كان في البلاد ٦,٠٠٠ تعاونية من هذا النوع.

وهناك خطة لزيادة المنتوج الحيواني في البلاد، بخاصة في مناطق السهوب. وتقضي الخطة بتأميم هذه الثروة الحيوانية، بحيث ان الملايين الثمانية من الأنعام التي ترعى في المناطق الجنوبية يعاد توزيعها وتنظيم اقامة أصحابها الجدد في وحدات تعاونية. وهذه المحاولات والخطط يصيبها النجاح أحيانا، وقد تمنى، في بعضها، بالفشل، بسبب النواحي الاجتماعية، أو الأحوال المناخية أو كلا الأمرين معاً.

الثروة المعدنية: الجزائر غنية في ثروتها المعدنية، حتى قبل عصر النفط. فقد كانت تستخرج الحديد الخام الجيد وتصدره، وكذلك الفوسفات والرصاص والزنك والكحل. والتعدين الآن تابع لمؤسسة سونارم الحكومية. ولكن الثروة الحقيقية، بالنسبة الى الجزائر الآن، هي الثروة النفطية والغازية. فقد بدأ انتاج النفط الخام تجارياً سنة ١٩٥٨ في حاسي مسعود (أواسط الجزائر) وادجيلة (على الحدود الليبية). وارتفع الانتاج من ١,٢ مليون طن سنة ١٩٥٩ الى ٢٦ مليون ...طن سنة ١٩٦٥، وكان هذا هو الحد الذي تستوعبه الأنابيب الممتدة الى الصخيرة (في تونس) وبجاية (على الساحل الجزائري)، الى ان تم انشاء خط أنابيب جديد (١٩٦٦) الى ارزو على الساحل الجزائري، وكان هذا ينقل ٢٢ مليون طن سنوياً. وقد بلغ انتاج النفط الخام ٥٧,٢ مليون طن سنة ١٩٧٨. وبلغت واردات الجزائر من تصدير النفط الخام ٦,٢٠٠ مليون دولار سنة ١٩٧٨. وثمة مصفاة في مدينة الجزائر (٢,٥ مليون طن في السنة)، واخرى صغيرة في حاسي مسعود لتوزيع النفط اللازم للمناطق الصحراوية في الجنوب. وتعتبر الجزائر الدولة السابعة في الشرق الاوسط في انتاج النفط.

المصدر الثاني للطاقة في الجزائر هو الغاز الطبيعي. ومن المنتظر ان تصبح الجزائر أول دولة في العالم في انتاجه وتصديره. وسيحل الغاز الطبيعي محل النفط كمصدر رئيس للثروة، عندما يخف المصدر الاخير. وقد بدىء بشحن الغاز الى الخارج سنة ١٩٦٤.

الصناعة: ان التصنيع هو حجر الأساس بالنسبة الى السياسة الاقتصادية في البلاد. وتعتبر صناعة الحديد والفولاذ نقطة رئيسة في هذه السياسة. وتولي الحكومة الامر عناية خاصة، تنظيماً واتفاقا. وهناك المنشآت البتروكيميائية في سكيكده. كما ان قسنطينة مركز كبير لصناعة الآلات الزراعية والسيارات والشاحنات، على ان هذا ليس المكان الوحيد المعد لذلك. فهناك في برليت ورويبة ووهران. وهذه الصناعات تقوم بالتعاون مع المانية الاتحادية واليابان وفرنسة وايطالية.

يضاف الى ذلك ان صناعة الورق والأقمشة والأدوات الكهربائية موضع اهتمام كبير. وتكاد تصل الجزائر الى درجة الاكتفاء الذاتي في صناعة الاسمنت والبلاستيك والكيمائيات والاسمدة. والصناعة تحت اشراف الدولة.

التجارة الخارجية: تستورد الجزائر الكثير من حاجياتها من الخارج. بعض هذه الواردات للاستهلاك المحلي، وبعضها يستعمل في الصناعة المحلية، وقد يكون مادة للتصدير بعد ذلك. والمواد الرئيسة التي تستوردها الجزائر هي: المواد الغذائية والتبغ والمصنوعات الجزئية لتستعمل في الصناعة المحلية والآلات اللازمة للتنمية والبضائع الاستهلاكية. الا ان الجزائر تصدر النفط والغاز والمواد الخام للصناعة (مثل بعض المعادن) وبعض المصنوعات المحلية وكمية محدودة من المواد الغذائية. وقد صدرت الجزائر ما قيمته ٢٣,٠٠٠ مليون دينار جزائري من النفط سنة ١٩٧٧ (وهذا ليس كل الواردات من النفط).

أما الدول الرئيسة التي تستورد الجزائر منها حاجاتها فهي: فرنسة والمانية الاتحادية وايطالية والولايات المتحدة واليابان واسبانية (ويلاحظ انها بلاد صناعية، وهي التي تزود الجزائر بالكثير من القطع اللازمة لصناعة الآلات الزراعية ووسائل النقل). أما البلاد الرئيسة التي تصدر الجزائر اليها فهي: المانية الاتحادية وفرنسة والولايات المتحدة وايطالية.

وحري بالذكر ان الجزائر تملك ٤,٠٠٠ ك م (٢,٤٨٠ ميلاً) من السكك الحديدية، الا ان وسيلة النقل الرئيسة هي الطرق الجيدة. وفي الجزائر منها ٨٢,٠٠٠ ك م (٥٠,٨٤٠ ميلاً). وأجود الطرق هي في الشمال، لكن الجزائر معنية بالطريق الصحراوي الكبير الى دولة النيجر.

الحالة الاجتماعية

التعليم: الجزائر معنية عناية كبرى في تطوير التعليم بحيث يصبح جزائرياً عربياً، ولو ان صعوبات جمة تقف في سبيل ذلك، وأهمها انعدام المعلمين الاكفاء. وفي سنة ١٩٧٩ خصصت الحكومة الجزائرية ربع الموازنة الادارية للتعليم.

يتلقى نحو ٨٠٪ من الأولاد والبنات في سن التعليم علمهم في المدارس الرسمية. فقد كان عددهم (في المدارس الابتدائية) سنة ١٩٧٨ نحو ٢,٩٠٠,٠٠٠ (مقابل ٨٠٠,٠٠٠ في سنة ١٩٦٢). والتعليم المتوسط والثانوي لا يزال محدوداً بعض الشيء، مع أنه تحسن كثيراً منذ الاستقلال. ففي مقابل ٤٨,٥٠٠ طالب وطالبة في سنة ١٩٦٢ هناك (١٩٧٨) ٧٤٢,٠٠٠ منهم. (يمكن الرجوع الى الأرقام المتعلقة بالتعليم أيام الفرنسيين الى ما سبق في هذا الفصل). وقد كان معظم المعلمين قبل الاستقلال من الفرنسيين. أما في ١٩٧٦ فقدكان ٩٥٪ من معلمي المدارس الابتدائية من الجزائريين، ونحو ٦٥٪ من معلمي المدارس المتوسط والثانوية كذلك من الجزائريين.

وبلغ عدد الطلاب في الدراسات العليا في سنة ١٩٧٨ نحو ٥٢,٠٠٠ طالب وطالبة، يضاف اليهم بضعة آلاف من الطلاب الجامعيين الذين يدرسون في الخارج. وثمة معاهد مهنية وفنية يؤمها كثير من الطلاب (قدر في سنة ١٩٧٨ بنحو ١٢,٠٠٠). والحكومة الجزائرية تحرص كل الحرص على تنمية هذه الناحية من التعليم بغية تزويد القطاعات الصناعية والمهنية والتجارية والفنية بحاجتها من الأيدي العاملة.

توجد في الجزائر الجامعات التالية: جامعة الجزائر وجامعة عنابة وجامعة قسنطينة وجامعة وهران والجامعة العلمية والتكنولوجية في مدينة الجزائر والمركز الجامعي في تلمسان والمركز الجامعي في تيزي ـ اوزو والمركز الجامعي في سطيف والمركز الجامعي في بطنه والمركز الجامعي في تيارت. وبلغ عدد المدرسين في هذه الجامعات ما يقرب من ٣١٠٠٠ مدرس. وأقدم الجامعات الجزائرية هي جامعة الجزائر (العاصمة) التي انشئت سنة ١٨٧٩، وقد مر بنا ذكرها لمناسبة الحديث عن التعليم أيام الفرنسيين.

وكان للجزائر صحافة هامة حتى في أيام الحكم الفرنسي، نذكر منها الشهاب والبصائر العربيتين، وكانتا لسان حال جمعية العلماء المسلمين بالجزائر. أما اليوم فتصدر في الجزائر أكثر من صحيفة يومية وأسبوعية، وهناك دوريات عديدة. وهذه الصحف تصدر إما بالعربية أو بالفرنسية، ذلك بأن اللغة الفرنسية لا تزال لغة مقروءة في الجزائر. وقد تصدر بعض الدوريات باللغتين معاً.

وحري بنا ان نذكر، ونحن نتحدث عن الحياة الاجتماعية في الجزائر، ان السكان في ذلك القطر يجب أن ينظر اليهم من زوايا ثلاث على الأقل. فهناك سكان المدن

الكبرى الذين يعيشون في بيئة حضرية منفتحة على الخارج بحكم علاقاتها التجارية والسياحية. والجزائر العاصمة تأتي في الطليعة لمناسبة الامكانات. إلا أن هذه المدن، والعاصمة بشكل خاص، ينجذب اليها أهل الريف بحثاً عن عمل، لذلك ازدحمت بالسكان وتعرضت الحياة المستقرة فيها الى عناصر من القلق بسبب صعوبة الحصول على لقمة العيش. والذين يعرفون المدن الجزائرية من قبل والذين زاروها يستطيعون ان يتقروا هذا التبدل الذي أصابها. والحياة في المدن الكبرى اليوم أكثر ديناميكية والسكان أكثر تطلعاً وأوعى لأمورهم.

وهناك أهل الريف. وفي الواقع عندما نتحدث عن الريف في الجزائر فنحن نقصد هذه الشطيرة الموازية للساحل والتي لا يزيد بعدها عنه عن المئة كيلو متر الا في اجزاء قليلة، فيصل الى نحو المئتي كيلومتر. والمقصود بأهل الريف لا الفلاحين العاملين في الأرض، بقطع النظر عن نوع عملهم، ولكن سكان البلاد والمدن الصغيرة نسبياً، التي أصبحت عادات الريف وتقاليده تغلب عليها. ولكن هذا الريف اصابته رياح التغيير في السنوات الأخيرة إذا أصبحت أراضيه إما ملكاً للدولة فوزعت في بعض المناطق على تعاونيات زراعية، أو هي احتفظت بها الدولة لتدير بعضها مزارع يعمل فيها الفلاحون عمالاً. ولا شك ان هاتين الخطوتين، مع قيام نقابات فلاحية، الى جانب نقابات الشغيلة، بدلت الكثير من مظاهر الحياة في الريف الجزائري. لكن هل بدلت الجوهر كثيراً؟ وهل من الضروري ان يتبدل الجوهر؟.

ولدينا ـ عندما ننظر من الزاوية الثالثة ـ البدو الرحل أو شبه الرحل. وهؤلاء تغيرت حياة فئات منهم، تلك التي عملت في صناعة النفط والمعادن في الجنوب الجزائري. الا ان الكثيرين منهم، عندما تنتهي أعمالهم هناك، يهرعون الى المدن، اذ لم يعد بإمكانهم العودة الى حياة الرعي أو الزراعة في الواحة.

لما أصابت البلاد رياح النهضة العربية الحديثة في مطالع القرن التاسع عشر، كانت فرنسة قد أطبقت على الجزائر أو كادت، فحرم الجزائريون الاسهام في الأعمال الأدبية والفكرية التي قام بها أهل المشرق العربي وتونس والمغرب الاقصى. وجاءت الثقافة الغربية فرنسية الثوب رسميته. فكانت تواكب الاستعمار وتؤيده وتعمل معه في سبيل القضاء على الشخصية الجزائرية. ومن ثم فقد كان رد الفعل عند الاغلبية الساحقة من الجزائريين عنيفاً بقدر ما كان الضغط والكبت شديدين. نفر القوم من الثقافة الغربية، ولجأوا الى الحركة السلفية الاسلامية دفاعاً عن مقوماتهم. وقد وصف المرحوم الشيخ البشير الابراهيمي عمل جمعية العلماء المسلمين في الجزائر بما ملخصه: لقد نجحت الجمعية في أمرين وهما توجيه الأمة نحو العروبة ونحو الشرق، والتوجه نحو الشرق هو استمداد أفكار الاصلاحات الدينية والتوجيه الاسلامي من مصر وجوارها.

استقلت الجزائر وتحررت نهائياً من السيطرة الاستعمارية، وأخذت أمورها بأيديها ـ وقد جاء هذا كله بعد حروب وثورات وخسائر في الأرواح ـ آخرها ثورة المليون شهيد ـ الامر الذي لا بد أنه أحدث في نفوس السكان الكثير من الشعور الجديد والوعي القوي للمشكلات والقضايا على نحو لعل الذين لم يدفعوا الثمن نفسه لا يدركونها بالعنف ذاته والقوة عينها. وكل هذا ثروة نفسية روحية تنفع في زيادة زخم الرغبة في التقدم والسير الى الامام.

٣ـ تونس

تشغل جمهورية تونس جزءاً صغيراً من المغرب العربي تبلغ مساحته نحو ١٦٤,٠٠٠ ك م٢ (نحو ١٠٢,٠٠٠ ميل مربع). وتقع بين خطي عرض ٣٠ و٣٧ شمالاً، وبين خطي طول ٨ و١١ شرقاً (بالنسبة الى غرينتش). وتحيط بها ليبيا من الشرق والجنوب والجزائر من الغرب. ولها شاطىء على البحر المتوسط يبلغ طوله نحو ١,٣٠٠ ك م، إذ يحف بها البحر من الشمال والشرق. وإذا نحن استثنينا الاجزاء الجبلية فإن البلاد مستوية في سطحها، وقلما يتجاوز ارتفاع السهول فيها ٣٥٠ متراً. أما المناطق الجبلية في الغرب فقد يبلغ ارتفاعها نحواً من ١٣٠٠ متر. وأعلى جبال تونس هو جبل شامبي البالغ ارتفاعه ١٥٥٠ متراً. وقد كانت البلاد، بحكم موقعها، نقطة التقاء بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، وبين البحر والبر، وبين الخصب والجدب ـ نقطة التقاء في الطبيعة والثقافة والعنصر والحضارة.

ونحن نجد في هذه الرقع الصغيرة من الارض تنوعاً في المناخ وفي طبيعة الارض. فإلى الجنوب من خليج قابس وفي منطقة الجريد تقترب الطبيعة والأرض من الصحراء بكثبان الرمل المنتشرة والجفاف والسبخات. وفي المناطق الغربية والشمالية الغربية نجد جزءاً من جبال الأطلس، هي امتداد للأطلس المغربي الجزائري. أما السهول التي تمتد في الشمال والشرق وتشمل سهل خليج تونس وخليج قابس ومنطقة بنزرت، فهي سهول رسوبية خصبة. وتتمتع منطقة بنزرت بكمية معتدلة من المطر تبلغ نحو ٦٣٠ ملم، أما حول تونس فقلما سقط من المطر أكثر من ٤٦٠ ملم سنوياً. وقد تلفح الرياح الشرقية الجنوبية (الصيفية) هذه المنطقة بحرارتها وجفافها فتصبح وكأنها السهوب. ويبلغ سقوط المطر في مرتفعات الخمير نحوا من ١٥٠٠ ملم في السنة. وهذه المنطقة أغزر مناطق الشمال الافريقي مطراً. ويمكن القول اجمالاً ان الشمال التونسي هو متوسطيّ المناخ.

الجبال التونسية هي نهاية للسلسلتين الاطلسيتين، على التوالي: التل الشمالي (الخمير) وهي سلسلة قليلة العرض، والتل الجنوبي (أو التل الاطلسي) الذي هو امتداد لجبال الاطلس الجزائرية الصحراوية. وهذا الجزء من المرتفعات أعرض من الشمالي. وبين هاتين السلسلتين يمتد وادي مَجرْدَة. ونهر مجردة هو النهر الوحيد في تونس الدائم الجريان. ومساحة الوادي تبلغ نحواً من ١٥,٠٠٠ م٢، وتربته خصبة

سوداء، وهو أغنى اجزاء البلاد التونسية. وأهميته في المشاريع الزراعية كبيرة، على ما سنرى.

إلى الجنوب من سلاسل الجبال، وإلى الغرب من خليج قابس تقع السهوب الوسطى الممتدة من الساحل شرقاً والممتدة تدريجاً نحو الغرب. وقد ترتفع نحواً من ٦٠٠ متر. واقتصاد هذه المنطقة هو اقتصاد المناطق الشبيهة بالصحراوية، لأنها لا تنال أكثر من ٤٠٠ ملم من الأمطار. وساحل سوسة ـ وهو الامتداد الشرقي للسهوب المتاخم للبحر ـ يقوم اقتصاده، مبدئياً، على زراعة الاشجار المثمرة التي تجود في هذه المنطقة التي تسمى، مع امتداد شمالي وجنوبي، «الساحل».

وتلي منطقة السهوب، الى الجنوب، منطقة المنخفضات الجنوبية أو منطقة الشطوط، التي توجد فيها البحيرات الملحة (تسمى واحدتها شُطّ في تونس) الموسمية، والتي تغطيها قشرة من الملح. لكن تحت هذه يوجد الماء العادي الصالح لري الاشجار. وأكبر الشطوط هو شط الجريد، الذي ينخفض ١٦ متراً عن سطح البحر ويمتد من على مقربة من البحر المتوسط الى حدود الجزائر تقريباً. وإلى الشمال منه يقوم شط الرهارسة الذي ينخفض ٢١ متراً تحت سطح البحر. بالإضافة الى هذين الشطين الكبيرين هناك شطوط نفثة والوديان والحمة.

وثمة منطقة تمتد نحو ٣٢٠ ك م من الشمال الى الجنوب، تقع جنوبي منطقة المنخفضات، هي صحراوية، وتبلغ مساحتها نحو ٥٠,٠٠٠ ك م٢، وقلما يسقط فيها أكثر من ١٥٠ ملم (ويغلب ان يكون ١٠٠ ملم) من الأمطار. وفي هذه المنطقة الجنوبية تقع جبال القصور الصخرية، وهي التي تفصل سهل جفّارة المصاقب للساحل، جنوبي قابس، عن الأرض الرملية المنخفضة.

والجبال التي تنال قسطاً وافراً من مياه الأمطار، في الشمال الغربي من البلاد، تكسوها غابات الفلين والبلوط. أما حيث اجتث الناس الغابات، على مدى العصور، فقد تنبت الانجم والاشجار القزمة. والمنطقة الواقعة جنوبي الجبال مباشرة تصلح للحبوب، أما السهوب فتنتج الاسبرتو، الذي يستعمل في صنع الورق. والجنوب فيه واحات، هي التي تفيد من مياه الشطوط، مثل توزر على شط الجريد. والاختلاف بين درجات الحرارة الصيفية والشتوية كبير في الجنوب التونسي بأكمله.

قدّر عدد سكان تونس في سنة ١٩٧٧ بنحو ستة ملايين نسمة، بمعدل ٣٦,٢ نسمة للكيلومتر المربع الواحد، على تباين بين الشمال والجنوب. ويعيش أكثر هؤلاء في المنطقة الشمالية المعتدلة المناخ، ذات الامطار. وقد قدر ان ١٠٪ من سكان البلاد يقطنون الحاضرة (حول ١٩٧٥) إذ بلغ عددهم ٥٥٠,٠٠٠ نسمة. وإلى جانب العاصمة تقوم في شمال البلاد: بنزرت (٦٣,٠٠٠) وسوسة (٧٠,٠٠٠). والمدن الأخرى الكبيرة هي: صفاقس (١٧١,٠٠٠) والقيروان (٥٥,٠٠٠) وجربة (٧٠,٠٠٠)

وقفصة (٤٢,٠٠٠) وقابس (٤٠,٠٠٠). (كلها ارقام تعود الى منتصف الجزء الثاني من القرن العشرين وقد ازدادت اليوم).

عرفت هذه الرقعة من الارض وجود الانسان مستقراً منذ حول سنة ١٠,٠٠٠ ق.م. أو قبل ذلك، وهذا هو الانسان المعروف عنصرياً باسم جنس البحر المتوسط. لكن تونس لم تكن بمعزل عن الاقطار الأخرى، القريبة منها والبعيدة على حد سواء. لذلك فقد دخل في تركيب السكان عناصر مختلفة، جاءت من اوروبة في آخر الحقبات الجليدية، ثم في العصور القديمة والمتوسطة، وان كان أثرها في جهات القطر مختلفاً؛ وجاءت من آسية بحراً وبراً، من لبنان وغير لبنان؛ وجاءها العرب في القرن السابع للميلاد، كما دخلتها العناصر التركية، ولو أنها محدودة.

أفادت تونس لا من عناصر هؤلاء السكان فحسب، ولكن من المدنيات والثقافات التي التقت فوق ترابها ـ فالفينيقيون واليونان والرومان والمصريون القدماء والليبيون والبربر والعرب ـ وكل له في الحضارة مشاركة وفي الثقافة اسهام ـ نقلوا ما كان عندهم. وكانت تونس بوتقة لهذه كلها ـ التقت واختلطت وامتزجت واختبرت وجربت وأخيراً أصبحت جزءاً من الشخصية التونسية الفكرية والروحية والأدبية. وكانت وسيلة التعبير التي استخدمتها نهائياً هي اللغة العربية، وكان المصدر الروحي الذي قبلته هو الاسلام. لكن الاختبارات الأخرى لم تذهب هدراً، ولم تسمح تونس لنفسها بأن تنساها أو تخنقها. فتونس هي التي أعطت العالم القديس اوغسطين وهي التي وهبت الفكر اسد بن الفرات، وابن سحنون وقدمت للأدب ابن رشيق وللعلم ابن الجراح.

بدأ ظهور تونس على مسرح التاريخ الواسع لما أصبحت قرطاجة (أنشئت في القرن التاسع ق.م. على أيدي الفينيقيين) قوية بحيث انها تمكنت من السيطرة التجارية والبحرية على سواحل البحر المتوسط الجنوبية الغربية وجزيرة صقلية، كما كانت لها مراكز تجارية هامة حتى الشواطىء الجنوبية الغربية من ايبريا (في أواسط القرن السادس ق.م.). وبلغت أوج عظمتها في القرن الرابع ق.م. إذ دخلت يومها في منافسة عنيفة مع رومة، النجم الجديد في البحر المتوسط الغربي. وقد انتهت الحروب البونية (٢١٨ ـ ٢٠١ و١٤٩ ـ ١٤٦ ق.م.) بتدمير قرطاجة التي أصبحت ولاية رومانية. وقد ظلت المدينة مهملة قرناً ونصف القرن حتى أعاد اغسطوس قيصر (٢٧ ق.م. ـ ١٤ م) تعميرها، وعاد اليها ازدهارها بحيث انها أصبحت، في القرنين الأولين للميلاد، المدينة الثانية في الامبراطورية بعد رومة. ولكنها عادت الى مدينة عادية بسبب انحطاط الامبراطورية في الغرب. وفي سنة ٤٣٩ م احتلها الفندال واتخذوها عاصمة لهم الى ان استعادتها بزنطية (٥٣٣ ـ ٤ م). وفي القرنين ونصف القرن التي تلت ذلك كانت تونس تعاني ما كانت تعانيه مناطق الشمال الافريقي من تمرد الحكام

المحليين على السلطة البزنطية والخلافات الدينية المسيحية التي قامت في المنطقة.

وفي أواسط القرن السابع للميلاد احتلت الجيوش الاسلامية البلاد التونسية، فيما احتلته من أقطار المغرب. ولن يتسع المجال هنا لتفصيل ما أصاب البلاد التونسية بين الفتح العربي والفتح العثماني، لكننا لا بد لنا من عرض موجز لتطور البلاد الحضاري والسياسي. ويمكن القول اجمالاً ان تونس في عصر الولاة (٢٧ ـ ١٨٤ هـ/٦٤٧ ـ ٨٠٠ م) مرت بفترة حروب وثورات، لكن الأمر استقر للعرب أخيراً، وأخذت العربية والاسلام بالانتشار. وهذه الفترة تذكر دوماً ببناء مدينة القيروان (التي أصبحت عاصمة الشمال الافريقي وحتى اسبانية لبعض الزمن بعد فتحها)، وتأسيس أول دار لصناعة السفن قرب قرطاجة القديمة، وبناء جامع الزيتونة في مدينة تونس. وفي سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م قامت الدولة الأغلبية التي كانت تتبع الخلافة العباسية، إلا أنها كانت مستقلة في ادارتها. وهذا الدور امتد الى ٢٩٨ هـ/٩٠٩ م وفيه فتح الأغالبة صقلية ومالطة، وحظيت تونس (وأصبحت تسمى افريقية عند جغرافيي العرب) بعمران وافر، فكثر البناء، ووسع جامع الزيتونة في تونس، وأصبحت القيروان مركزاً كبيراً للعلم وبنيت مدينة رَقَّادة.

في سنة ٢٩٧ هـ ـ/٩٠٩ م قامت في تونس الدولة الفاطمية (عاصمتها المهدية التي بناها المهدي) وظلت الدولة هناك حتى انتقالها الى مصر (٣٦٠ هـ/٩٧٠ م). وخلفتها الدولة الصنهاجية (٣٦٢ ـ ٥٤٣/٩٧٣ ـ ١١٤٨). وفي أيامها بلغ القطر التونسي شأوا عظيماً في التمدن العربي الاسلامي؛ فانتعشت الزراعة واتسعت الأراضي المستغلة وتنوعت المحاصيل وتقدمت الصناعة (المنسوجات الصوفية والحريرية والقطنية والزجاج) واتسع نطاق التجارة البرية والبحرية. وقد ازدهر سوق الأدب وظهر عدد من العلماء، وكثر البناء والعمران في تونس العاصمة وفي غيرها. الا ان تونس زحفت اليها قبائل بني هلال وبني سليم (٤٤٠ ـ ٤٤٣/١٠٤٨ ـ ١٠٥١) فدمرت الكثير من المدن وبخاصة القيروان، وعطلت الزراعة وأخرت التجارة. وقد شجع هذا الاجانب على مهاجمة اجزاء منها. كما عمت الفوضى ارجاءها.

وقد أنقذ تونس من الفوضى الحكم الموحدي (٥٥٥ ـ ٦٢٦) الذي جاء على يد عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين في المغرب الأقصى. وفي أيامهم أصبحت مدينة تونس عاصمة البلاد، ونظمت الادارة ووضع حد للثورات. وقد عهد الموحدون الى عبد الواحد الحفصي بإدارة البلاد. فكان انه لما تولى أبو زكريا الحفصي الأمر قطع الخطبة للموحدين وجعلها لنفسه، وبذلك قامت دولة الحفصيين (٦٢٦ ـ ٩٨١/١٢٢٨ ـ ١٥٧٤).

وكان الحفصيون، الى اهتمامهم بالإدارة والحكم، يعنون بالموارد الاقتصادية في البلاد زراعة وتجارة وصناعة، كما شجع أكثر ملوكهم العلم والأدب. فإلى أيامهم يرجع

انشاء المدارس النظامية ودور الكتب (كان لأبي زكريا، مؤسس الدولة، مكتبة في قصر بالقصبة فيها ستة وثلاثون ألف مجلد). وأقبل الناس على زيارة العاصمة التونسية للاستزادة من العلم والأدب. وفي العصر الحفصي ظهر ابن خلدون (توفي/١٤٠٥).

كان القرن السادس عشر قرن خصومة ومنافسة ونزاع للاستيلاء على تجارة البحر المتوسط والسيطرة على شواطئه. وكانت اسبانية قد احتلت غرناطة (١٤٩٢)، فأخذت ترنو الى الشمال الافريقي. كما كانت الدولة العثمانية في عز مجدها وقوتها. وكانت المنافسة بين هاتين القوتين كبيرة. وقد استولت اسبانية على بجاية وطرابلس وجربه (مطلع القرن السادس عشر) لكن الدولة العثمانية استقرت في الجزائر. ودارت بين ١٥١٦ و١٥٧٤ معارك بحرية كبيرة بين العثمانيين والاسبان، في شمال افريقية ومالطة ولبنتو (١٥٧١)، انتهت بأن استولى العثمانيون على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط (وكانوا قد احتلوا سورية ومصر سنة ١٥١٦ و١٥١٧) من غرب الجزائر الى الحدود المصرية. وهكذا ففي سنة ١٥٧٤/٩٨١ دخلت القوات العثمانية البحرية والبرية (من طرابلس والجزائر) تونس، وأصبحت البلاد ولاية عثمانية.

احتلت الدولة العثمانية تونس (١٥٧٤) وعندها وضع سنان باشا، القائد الفاتح نظاماً لإدارة البلاد قوامه وال (برتبة باشا) هو الحاكم العام، يعاونه رئيس للانكشارية (وعددهم أربعة آلاف جندي)، والباي وهو المشرف على الشؤون المالية، ورائس هو المشرف على شؤون الولاية البحرية. وضم هؤلاء جميعاً ديوان يفصل في شؤون الجند وتدبير الولاية. وقد يحضر الديوان بعض الأعيان بصفة استشارية. ولم يصمد هذا التنظيم أمام ثورة الجند، فاتفق الوالي وكبار الضباط وقرروا ان يعهد الى «الداي» بالإشراف على الانكشارية وتأمين سير الأمور في المدينة. حدث هذا سنة ١٥٩٠. وقد قام على شؤون البلاد دايات الى سنة ١٦٥٠. ونعمت تونس في أيامهم، على العموم، بقسط وافر من الثراء والأمن والتقدم. وهبط تونس بين ٦٠ و٨٠ ألفاً من مهاجرة الاندلس (إذ أخرجهم الأسبان قسراً من ديارهم) فانتشروا في أكناف البلاد يشيدون القرى وينشئون المزارع والبساتين. وقد مصروا أو عمروا من البلدان سليمان وقرنبالية والجديدة وزغوان وطبَرقة ومجاز الباب وتستور وقلعة الاندلس وغيرها. واستوطن عدد منهم العاصمة وأنشأوا أسواقاً للصناعات التي حملوها معهم كصناعة الشاشية (الطربوش القصير) ونسج الحرير ونقش الرخام والحفر عليه وعمل الجبس وصنع الزليج (القاشاني). واهتم الدايات بالأسواق والصناعات، وإصلاح الحنايا (القني) الحفصية الأصل وإحداث الحصون وإقامة الجسور. وكانت لتونس تجارة خارجية لا يستهان بها، خاصة في القرن السابع عشر، مع مدن ايطالية وبلاد هولندا وانكلترا. وكانت تونس وبنزرت وجربة الموانىء الرئيسة للتجارة الخارجية.

وعلى نحو ما اختفى نفوذ الوالي (الباشا) أمام سلطة الداي، تقلص نفوذ هذا

أمام الرجل الجديد الذي تولّى السلطة وهو الباي، المشرف المالي أصلاً، والحاكم الفعلي الآن، الذي يحصل على موافقة الباب العالي في استانبول، ويمنح رتبة الباشاوية. وعهد البايات الأول يسمى العهد المرادي ويمتد من ١٦٤٠ الى ١٧٥٠. وقد بدأ العهد بداءة طيبة، فأعيد الأمن الى البلاد، ونظمت مواقع الجند ومراكزهم، وبنيت الزوايا والمساجد، وأنشىء مارستان في الحاضرة، وشيدت القنطرة القائمة على نهر مجرّدة. إلا أن الخصام والنزاع دبّا بين أفراد العائلة، ونشبَت حروب أهلية، وغزت الجزائر البلاد، فتعثرت الأمور تعثراً كبيراً وملّ الناس الظلم والقتل والتشريد والتعسف والاستبداد، فنادوا «بطيب نفس واختيار منهم بحسين بن علي التركي آغا اوجاق (أي آمر فرقة) باجة، وسلموا له أمر الولاية العامة، وأقرت الدولة العثمانية ولايته». وكان ذلك سنة ١٧٠٥، وهو التاريخ الذي بدأت الدولة الحسينية حكم تونس. (البيت الحسيني ظل يحكم البلاد التونسية، على تباين في مستويات النفوذ ودرجات السلطة حتى سنة ١٩٥٧ على ما سيمر بنا).

والدور الأول من العهد الحسيني يوصلنا الى سنة ١٨٣٧.

لسنا ننوي ان نؤرخ للولاة أفراداً، ولكننا لا بد ان نلم بما جرى في هذه الفترة (١٧٠٥ ـ ١٨٣٧). فقد كانت العلاقة مع الجيران سيئة، فكثرت حملات الجزائريين والطرابلسيين على تونس، الأمر الذي كان سيّىء الأثر اقتصادياً وسياسياً. يضاف الى ذلك ان البلاد شهدت ثورات ضد الحكام، بعضها كان بين أفراد البيت الحاكم. ومع ذلك فقد تقدمت تونس في أيام محمود باي (١٨١٤ ـ ١٨٢٤) وحسين باي (١٨٢٤ ـ ١٨٣٥)، وكان الثاني عوناً لأبيه منذ ان تولى الأول الحكم (لأنه كان متقدماً في السن). فقد ترقت تونس واتسع نطاق عمرانها. فكان فيها «معالم عمومية» كثيرة في داخل الحاضرة: ١٧ جامعاً للخطبة وعشرون مدرسة كبرى و١١٥ مكتباً للمبتدئين، عدا الزوايا والسبايل والتكايا والمستشفى.

ومع ان تونس كانت ولاية عثمانية، فإن نفوذ الدولة العثمانية في الايالات المغربية الثلاث (طرابلس وتونس والجزائر) كان ضعيفاً. وكان بايات تونس يظهرون بمظهر الفخامة، وكانت فرنسة تشجع التصرف المستقلّ للبايات، لأن هذا في مصلحتها، ومن ثم فالمعاهدات التي عقدت بين فرنسة وتونس (وكانت عادة تعقب خلافات أو حملات) مثل سنة ١٧٦٨ و١٨١٦ وغيرهما، عقدت بعيداً عن الدولة. وكانت فرنسة قد أفادت من الامتيازات التي منحها سليمان القانوني لفرنسوا الاول (١٥٣٥) فطبقتها يومها في تونس، وعينت قنصلاً لها فيها منذ سنة ١٥٧٧. ولكن الصفة العامة للعلاقات التونسية الفرنسية في هذه الفترة تمثل النشاط وحسن الجوار. وكانت لتونس متاجرات كثيرة مع الخارج، وبخاصة فرنسة وايطالية، وكان ذلك يتم عن طريق تونس وطبرقة وسوسة وجربة. وفي زمن محمود باي (حكم ١٨١٤ ـ ١٨٢٤) انتفى الرق

من الأراضي التونسية، إذ قبل الباي بمقررت مؤتمر اكس ـ لا ـ شابل (آخن) الذي انعقد سنة ١٨١٨ وقرر القضاء على الرق.

في عام ١٨٣٠ أنزلت فرنسة جندها في الجزائر وبدأت عملية احتلالها واستعمارها. وهذا الحادث كان هاماً بالنسبة الى تونس. ذلك ان فرنسة، كما كان يقال عنها فيما بعد، انها باحتلالها الجزائر خلقت مشكلتين ـ المشكلة التونسية والمشكلة المغربية. وقد ظلت فرنسة تعمل لحل المشكلتين مدة طويلة حتى حلتهما لمصلحتها فاحتلت تونس ١٨٨١ والمغرب ١٩١٢.

في الوقت الذي كان فيه محمود الثاني سلطان تركية (توفي ١٨٣٩) وخلفاؤه يحاولون اصلاح تركية، وكان محمد علي باشا (١٨٠٥ ـ ٤٩) يفتح أبواب مصر للحضارة الغربية، كانت تونس تسير على طريق الحضارة الحديثة بخطى حثيثة. حكامها كانوا مأخوذين بذلك، وبعض وزرائهم كان مؤمناً بمثل هذا الخطو.

وكان البايات الذين حكموا تونس في هذه الفترة ثلاثة هم: أحمد باي (١٨٣٧ ـ ١٨٥٥) ومحمد باي (١٨٥٥ ـ ١٨٥٩) ومحمد الصادق باي (١٨٥٩ ـ ١٨٨٣). وقد اهتم الأول بالادارة بعامة وبالجيش وبالأسطول بخاصة وأنشأ المكتب الحربي وأنشأ المحمدية على غرار فرساي (بعد زيارته لفرنسة سنة ١٨٤٦) وأبطل الرقيق وأعتق المماليك الموجودين في الايالة. لكن أعماله اقتضت نفقات لم يكن للدولة بها قبل، فأحدثت ضرائب جديدة واحتكرت تجارة الملح والصابون والدخان والجلد. فكان من ذلك ضيم لحق بالناس. وفي أيام خلفه محمد باي (١٨٥٥ ـ ١٨٥٩) احتفل بالجيش لكن الاهم من ذلك صدور عهد الامان والمجلس الشرعي والمجلس البلدي للحاضرة وإدخال الطباعة العربية الحديثة الى البلاد. ومع ان محمد الصادق باي (١٨٥٩ ـ ١٨٨٣) كان عاقد النية على الاصلاح أصلاً، فقد كان فريسة اهواء وزرائه. ومع ان خير الدين كان أحد الوزراء، ثم رئيساً للوزارة (١٨٧٣ ـ ١٨٧٧)، فإن أثره الرسمي لم يكن كبيراً، لكن أثره الاصلاحي كان أكبر. ومع ذلك فقد حصلت تونس في عهد الصادق باي على دستور لتطبيق نصوص عهد الامان وفتحت المدرسة الصادقية وعني بجامع الزيتونة وأنشئت الرائد التونسي.

والمكتب الحربي (أو مكتب المهندسين) انشىء سنة ١٨٤٠ بقصد إعداد الضباط الفنيين للخدمة في الجيش (على نحو ما كان يقوم به محمد علي في مصر). ومع ان المكتب لم يعمر طويلاً فقد كان له أثر كبير، إذ أتيح لأستاذ عظيم من علماء الزيتونة هو الشيخ محمود قبادو بالامتزاج بأفراد من أساتذة الغرب ـ ايطاليين وفرنسيين وبريطانيين. فكان ذلك مجالاً لأن يحدث «احتكاك بين العقلية الغربية والعقلية الاسلامية». وقد نقل قبادو بعض الآراء الى زملائه في الزيتونة بعد ان أقفل المكتب. ولعلّ أهم ما جاهر به قبادو فيما بعد هو حاجة العالم الاسلامي الى العلوم الحكمية

والرياضية. ولعلّ أبرز المصلحين في تونس في تلك الأيام هو خير الدين التونسي (١٨١٠ ـ ١٨٧٩ م). وقد أوضح آراءه في كتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك». وخلاصة ما ذهب اليه أن أهل أوروبة بلغوا ما بلغوا بسبب التقدم في «العلوم والصناعات وبالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسي». وهذا ما يحتاجه المسلمون. ويعود الى خير الدين الاهتمام بالمدرسة الصادقية (١٨٧٦)، وهي مدرسة كان القصد منها ان تعلم العلوم العصرية واللغات الأجنبية.

إلا أن تونس وقعت تحت طائلة ديون كثيرة (على نحو ما حدث في مصر في الوقت نفسه) وأنشئت اللجنة المالية (القومسيون المالي) سنة ١٨٦٨ لترتيب دفع الفوائد على الأقل. (في السنة نفسها الغي الدستور). وكانت فرنسا في الواقع تريد ان تحتل تونس، لكن بريطانيا وايطالية وقفتا لها في الطريق. فلما التأم مؤتمر برلين (١٨٧٨) دبرت فيه الأمور. فوافقت فرنسة على ان تستأجر بريطانية قبرص من الدولة العثمانية مقابل ان تطلق هذه يد تلك في تونس. وكان بسمارك يريد تشجيع فرنسة على مغامرة استعمارية تلهيها عن الحرب البروسية الفرنسية. ولذلك فإن فرنسة احتلت تونس (١٨٨١) وعقدت معاهدة اعتبرت موقتة مع الباي محمد الصادق. فلما توفي الباي (١٨٨٣) وخلفه علي باي، عقد، مرغماً، مع فرنسة (بواسطة الوزير المقيم كومبان) معاهدة المرسى التي نصت على حماية فرنسية على تونس (١٨٨٣).

كانت الحماية الفرنسية على تونس استعماراً تاماً مقنعاً أول الأمر تكشفت حقيقته إذ بدت الأساليب المستعملة لتحقيق أطماع فرنسة واضحة. ففرنسة لم تكن لتكتفي بالسيطرة على شؤون البلاد ومواردها، بل أرادت أن تجعل منها منطقة ينتقل اليها الفرنسيون للإقامة والاستيطان الدائمين. ولذلك فقد اتبعت سياسة تتلخص فيما يلي:

١ ـ جعلت جميع الوظائف ذات الأهمية في الادارة بيد الفرنسيين، وشجعت الفرنسيين على قبول ذلك عن طريق منحهم علاوات مختلفة (سكنية وتعليمية وصحية وتعويضات سفر وما الى ذلك) بحيث ان الموظف الفرنسي العامل في تونس كان له ثلاثة وأربعون صنفاً من العلاوات وكانت مرتبات الموظفين تبلغ ٧٥٪ من موازنة الدولة التونسية (١٩٥١). واستغني عن اللغة العربية في الادارة والتعليم الرسمي، ووضعت اللغة الفرنسية مكانها.

٢ ـ مكنت الادارة الفرنسية للمعمرين الفرنسيين (وكان بينهم نحو ٥٪ من الاوروبيين) من الحصول على مساحات شاسعة من الأرض. فأراضي الدولة بيعت لهم بأسعار بخسة وعلى أقساط طويلة الأمد. والغابات عوملت بالأسلوب ذاته. بل ان بعض أراضي الأوقاف بدّلت بعقارات في المدن كي يمكن بيعها للفرنسيين. وكانت شركة الانفدا الفرنسية قد ابتاعت قطعة واسعة من الأراضي في الشمال التونسي (نحو

١٠٠,٠٠٠ هكتار) قبل الاحتلال. أما بعد فرض الحماية فقد شجع شراء الأراضي بالطرق الخاصة، وهذا تمركز في سهول حاضرة تونس وبنزرت وماطر. أما الذي أشرنا اليه من البيع الرسمي فقد كان أكثره في الوسط والجنوب. وقد استطاع المعمرون، حتى قيام الحرب العالمية الثانية، من تملك ٥٤٠,٠٠٠ هكتار (منها نحو ١٤٠,٠٠٠ للأوروبيين) بالطريقة الخاصة، بينما الاستعمار الرسمي وضع تحت تصرفهم ما يزيد عن ٦٠٠,٠٠٠ هكتار. ومعنى هذا أنه كان للمعمرين، وغالبيتهم الساحقة من الفرنسيين، نحو ٣٠٪ من الأراضي الصالحة للاستغلال في القطر التونسي.

٣ ـ بالإضافة الى تملك الأرضين الجيدة جعلت فرنسة موارد الاقتصاد التونسي بيد الفرنسيين ـ الصناعات الرئيسة وتجارة الصادر والوارد ووسائل المواصلات واستغلال الفوسفات ـ كانت جميعها حكراً على الفرنسيين (كانت التجارة الخارجية، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ٦١٪ بيد الفرنسيين شركات وأفراداً).

٤ ـ جعل التعليم فرنسي الصبغة رسمياً. والتعليم الخاص ترك حراً، لكن دون عون مالي. في سنة ١٩٥٠ كان ثمة مكان لـ ١٣٤,٠٠٠ طالب (وطالبة) في المدارس الرسمية، ووسعت المدارس الخاصة لتستوعب ٣٠,٠٠٠ طالب. أما العدد الذي كان يجب أن يوجد له مكان للتعليم الابتدائي فهو ٦٠٠,٠٠٠ طالب، أي ان المدارس جميعها وسعت ٢٩٪ من العدد الأصلي. ومن مجموع الطلاب في المدارس الرسمية كانت نسبة الفرنسيين ٢٢٪ (كان عدد السكان الفرنسيين في تونس جميعها لا يتجاوز ٥٪ من مجموع السكان). ووزعت المدارس الرسمية توزيعاً غير عادل على انحاء البلاد. ففيما كانت المدارس أكثر عدداً حيث توجد الجماعات الفرنسية (في المناطق الشمالية) كانت أقل عدداً في الجنوب. أما التعليم الثانوي فكان كله بيد الادارة الفرنسية. ومثل ذلك يقال عن «معاهد الدراسات العليا» (وكانت هذه مقصورة على الآداب والقانون). وحتى جامع الزيتونة أراد الفرنسيون التدخل في شأنه ادعاءً منهم أنهم يريدون اصلاحه لتكون خدمته للعلم أنفع!

ومع ان التونسيين قاموا بثورات بعيد الاحتلال الفرنسي، وكذلك قاموا بثورة في مطلع الحرب العالمية الأولى، فإنهم فضلوا العمل السياسي المنظم. وبعد حركتين أوليتين على يد الشيخ محمد السنوسي والشيخ المكي بن عزوز (نفي الأول وأرغم الثاني على الهجرة) بدأ العمل السياسي المنظم سنة ١٩٠٥ على يد جماعة «الحاضرة»، لكنه اتخذ شكلاً أكثر تنظيماً في ١٩٠٨ لما قام حزب «تونس الفتاة»، وكان علي باش حمبه المنظم له (حتى سنة ١٩١١ إذ نفي من البلاد). وفي سنة ١٩١٩ رغب بعض الساسة من الافادة من مؤتمر الصلح (١٩١٩) فنظموا أمورهم، ونشأ عن ذلك الحزب الدستوري برياسة الشيخ عبد العزيز الثعالبي.

وقد تقدم الحزب الى الحكومة (إلى الباي الذي كان لا يزال الرأس الاسمي للحكومة التونسية) مطالباً بإنشاء مجلس تشريعي مختلط الاعضاء (تونسيين وفرنسيين) وحكومة مسؤولة أمامه، والفصل بين السلطات الثلاث، والسماح للتونسيين ان يوظفوا في حكومتهم (!)، وشراء الأراضي من ادارة الشؤون الزراعية (اسوة بالمعمرين الفرنسيين!)، وتقرير حرية الصحافة وجعل التعليم الزامياً. وقدمت مذكرة الى الرئيس الامركي ولسن (في باريس) طالب الحزب فيها باستقلال تونس.

تظاهرت الحكومة بقبول بعض المطالب (فصل السلطات وحرية الصحافة) لكن الامر لم يطل، وضغطت الحكومة على اعضاء الحزب فأخذ البعض يخرج من البلاد، ومنهم الثعالبي نفسه الذي غاب عن بلاده من ١٩٢٣ الى ١٩٣٧. وفترت عزيمة الحزب وأعضائه فقام شباب جدد بمهمة تنظيم جديدة سنة ١٩٣٤ فأنشأوا الحزب الدستوري الجديد بقيادة الحبيب بورقيبة. وكان للحزب تقديم مذكرات وتنظيم مظاهرات وتحمل أفراده النفي والحبس والتشريد (بخاصة بين ١٩٣٦ و١٩٣٨). ولكنه عمل سراً واحتفظ بتنظيمه الذي شمل البلاد في خلايا عديدة. وبعد ان سمح له بالعودة نظم مؤتمراً وطنياً (١٩٤٦) حضره الحزبان الدستوريان (القديم والجديد) وأساتذة الزيتونة والاتحاد التونسي لموظفي الحكومة واتحادات العمال (وبهذه المناسبة فإن تونس كانت في مقدمة الأقطار العربية التي قامت فيها تنظيمات عمالية نقابية في أعقاب الحرب العالمية الأولى). وأصدر المؤتمر الوطني بياناً حدد فيه أهداف العمل الوطني جاء فيه: «ويعلن عزم الشعب الثابت على استرجاع استقلاله التام، والانضمام ـ كدولة ذات سيادة ـ الى جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة والمشاركة في مؤتمر الصلح».

وأمام اصرار الشعب على الحصول على الاستقلال، قامت فرنسة ببعض اصلاحات وتعديلات، فزادت عدد الوزراء في الحكومة بحيث تساوى أهل البلاد مع الأجانب، وصارت رئاسة مجلس الوزراء الى تونسي، وأخذت تعين تونسيين في المناصب الكبرى. وفي سنة ١٩٥٠ نشرت الحكومة برنامجاً للإصلاح، فاشترك الحزب الدستوري الجديد في الوزارة لتطبيق البرنامج.

إلا ان مقاومة المعمرين اشتدت فوقف العمل في اتجاه الحكم الذاتي، وتوقفت الحكومة، وابتعد الوطنيون عنه بطبيعة الحال. وبين ١٩٥١ و١٩٥٤ تعرضت البلاد لسجن زعمائها وفرض الأحكام العسكرية فيها (١٩٥٢) وقيام الارهاب على يد المنظمة التي انشأها المعمرون (سموها الكف الاحمر) ورد الفعل التونسي بقيام «الفلاّقة». ولم يطرأ على الوضع تغيير حتى تولى رئاسة الوزارة الفرنسية منديس ـ فرانس (١٩٥٤ ـ تموز/يوليو) فعرض على تونس الحكم الذاتي، وبدأت المفاوضات في الخريف، ومع انها توقفت إذ سقطت الوزارة الفرنسية، فإنها استؤنفت، وتم الاتفاق في حزيران (يونيو) ١٩٥٥ على ان يكون لتونس حكم ذاتي، وان يحافظ على المصالح

والعلاقات الفرنسية، وان تحتفظ فرنسة بمسؤوليتها عن الشؤون الخارجية والدفاع والأمن الداخلي. على ان هذا كله لقي الرفض من المعمرين والزعماء الوطنيين، وعادت أعمال الارهاب. وأخيراً، ورغبة في التوصل الى نتيجة، عادت المفاوضات في باريس بين بورقيبة والحكومة الفرنسية (شباط/فبراير ـ ١٩٥٦) وانتهت في ٢٠ آذار (مارس) ١٩٥٦ بإعلان استقلال تونس وحقها في ممارسة المسؤولية في الشؤون الخارجية والدفاع والأمن، على ان تسحب القوات الفرنسية من البلاد، بما في ذلك بنزرت، خلال فترة انتقالية. وانتخبت اللجنة التأسيسية لوضع الدستور. (يجب ان يذكر هنا أن مما عجل في قضية منح تونس استقلالها هو استقلال المغرب في السنة ذاتها، واحتدام الثورة الجزائرية في ذلك الحين، التي بدأت في ١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٤).

تلكأت فرنسة في سحب قواتها من تونس، وتعللت بالثورة الجزائرية، وأدى الأمر الى تصادم بين التونسيين والجنود الفرنسيين. وبعد أخذ ورد وقطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين وتوسط الدول الغربية في الأمر، وتولي ديغول السلطة (حزيران/ يونيو ـ ١٩٥٨) وقعت اتفاقية انسحبت بموجبها القوات الفرنسية (تشرين الاول/ اكتوبر ـ ١٩٥٨) من تونس باستثناء تلك المرابطة في بنزرت.

وقد تمت ثلاثة أمور سياسية هامة في أواخر الخمسينات. أولها وضع حد للأسرة الحسينية. ففي ٢٥ تموز/يوليو ـ ١٩٥٧ قرر المجلس التأسيسي الغاء الملكية وإعلان تونس جمهورية. (وهكذا ظلت الأسرة الحسينية تحكم تونس ـ عملاً أو شكلاً ـ من ١٧٠٥ الى ١٩٥٧). وثانيها ان تونس انضمت الى جامعة الدول العربية (تشرين الاول/ اكتوبر ـ ١٩٥٨). إلا ان علاقة تونس مع مصر لم تكن جيدة دوماً، ولذلك فإن الأولى كانت تقاطع الجامعة كثيراً منذ دخولها حتى حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧.

والأمر الثالث هو سن دستور جديد لتونس (١٩٥٩) أساسه الحكم الرئاسي على أن ينتخب الرئيس لخمس سنوات، ويمكن تجديد انتخابه ثلاث مرات متوالية، وقد أعطيت للرئيس سلطات واسعة. (انتخب الحبيب بورقيبة رئيساً للجمهورية لأول مرة بعد الغاء الملكية، وأعيد انتخابه مرات، وأخيراً انتخب رئيساً لمدى الحياة في آذار/مارس ـ ١٩٧٥).

وطلبت الحكومة التونسية من فرنسة ان تسحب قواتها من بنزرت، لكن فرنسة ترددت، فوقع القتال بين الفريقين في صيف ١٩٦١، وقتل فيه عدد من التونسيين (نحو ٨٠٠) ومن الجنود الفرنسيين. وعاد الفريقان الى طاولة المفاوضات. ولما توقف اطلاق النار في الجزائر (آذار/ مارس ـ ١٩٦٢) تسارعت المفاوضات التونسية الفرنسية. وفي صيف ذلك العام انسحب الفرنسيون من بنزرت وسلموا منشآتهم العسكرية الى الحكومة التونسية.

وسن المجلس الوطني التونسي تشريعاً (١٩٦٣) أذن بموجبه للحكومة في أن تستملك جميع الأراضي التي يملكها أجانب في البلاد ومساحتها نحو ٧٥٠,٠٠٠ هكتار. وفي السنة التالية اتجه الحزب الدستوري (الجديد) نحو الأخذ بالمبادىء الاشتراكية، فغير المؤتمر الوطني اسم الحزب الى الحزب الدستوري الاشتراكي. الا ان سياسة التعاونيات الزراعية (١٩٦٤ ـ ١٩٦٩) لم تنجح تماماً، ورجعت الحكومة عنها تدريجاً.

ومع السير نحو توطيد دعائم الاستقلال في تونس فإن ثمة مشكلات كانت تعترض السبيل. وأهم هذه التزايد في عدد السكان وفقر القطر التونسي نسبياً ومواقف تونس السياسية الخارجية.

الوضع الاقتصادي

تشغل تونس ١٦٤,٠٠٠ ك م٢ من الأرضين. وقد كان عدد السكان، في أواسط سنة ١٩٧٥، ٥,٥٨٨,٠٠٠ نسمة، وكان أكثر من النصف دون الخامسة والعشرين من سنهم. وقدر عدد السكان (١٩٧٧) بنحو ستة ملايين، ومعنى هذا ان الزيادة السكانية هي ٢,٦٥٪ سنوياً. ومع ان أكثر سكان المدن والقسم الأكبر من سكان الريف يقطنون المناطق الساحلية، ومع ان المناطق الوسطى والجنوبية تشكو من الجفاف وضعف التربة، فإن تزايد السكان فيها أكبر منه في الشمال. (كان عدد سكان تونس في أعقاب الحرب العالمية الثانية/٣,٢٣٠,٠٠٠ وكان منهم ٢,٧٨٠,٠٠٠ من سكان البلاد الاصليين). وقد ذكر من قبل عدد سكان المدن الرئيسة في البلاد فلا حاجة الى اعادة ذلك هنا. وأكبر مركز مدني في البلاد هو تونس وجارتها حلق الواد. وكان يقطن في هذه المدينة نحو ٥٠,٠٠٠ اوروبي أكثرهم من الفرنسيين. (كان في البلاد التونسية حول سنة ١٩٥٠ ما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ اوروبي نحو ثلثيهم كانوا فرنسيين أصلاً والباقي متجنسون بالجنسية الفرنسية). وأظهرت احصاءات سنة ١٩٧٧ ان ما يزيد عن ٣٠٠,٠٠٠ تونسي يعملون خارج البلاد.

ان تطور تونس في السنوات الأخيرة فيه ما يدعو الى الاعجاب، إذ ان معدل دخل الفرد هو ٨٥٠ دولاراً في السنة.. وقد زاد الدخل القومي زيادة لا بأس بها أيام كانت أسعار الفوسفات العالمية مرتفعة. الا ان هبوط أسعاره أثر على الدخل القومي العام. وعلى ان البلاد تعاني من البطالة.

الزراعة: يعتمد على الزراعة بين ٦٠٪ و٧٠٪ من سكان تونس، وتقدر حصة الزراعة في الانتاج القومي بنحو ١٧٪ فيما تزود الزراعة الواردات التونسية بنحو ٤٠٪ من قيمتها. ويمكن القول اجمالاً انه في السنوات التي تغزر فيها الامطار، تزود الزراعة البلاد بفائض للتصدير، أما في سنوات الجفاف، التي تعتور البلاد كثيراً وفي فترات متباينة، فإن الانتاج الزراعي ينقص الى حد قد يؤدي الى نفاق نحو نصف الحيوانات.

فعلى سبيل المثال كان منتوج القمح السنوي بين ١٩٤٨ و١٩٥٧ حول ٦٧٠,٠٠٠ طن متري، لكنه وصل الى ١٦٥,٠٠٠ طن سنة ١٩٦١، وكان لا بد من استيراد القمح للأكل، الامر الذي أرهق موازنة الدولة. وتبلغ مساحة الأراضي الصالحة للاستغلال في البلاد نحو ٩,٠٠٠,٠٠٠ هكتار. وتقسم هذه الأراضي، من الناحية الزراعية، الى خمس مناطق هي: الشمال بجباله والأودية الواسعة الخصبة التي تضمها؛ الشمال الشرقي حيث تصلح التربة بخاصة لزراعة البرتقال وغيره من الأثمار الحمضية؛ والساحل حيث ينمو الزيتون؛ والوسط بهضابه المرتفعة ومراعيه؛ والجنوب بواحاته حيث تكثر اشجار النخيل. والحبوب الرئيسة هي القمح وهو أهم منتوج زراعي، والشعير ثم تأتي الذرة والشوفان والذرة البيضاء. وللأشجار المثمرة دور هام في البلاد التونسية، خصوصاً الكرم والتين، بالاضافة الى ما ذكرناه قبلاً.

وبسبب المراعي الجيدة ـ إذا جادت السماء عليها بالمطر ـ فإن تونس غنية بالأنعام. فقد كان فيها (١٩٧٧) نحو ٣,٦ ملايين من الخراف، ونحو مليون من الماعز، ونحو ٩٠٠,٠٠٠ من الابقار، وأكثر من مئة ألف من الخيول، ونحو مئتي ألف حمار ومثل ذلك تقريباً من الابل. وجبال تونس فيها الصنوبر الألبي والسنديان والفلين.

وهناك عناية فائقة من جانب الحكومة لتحسين الانتاج الزراعي عن طريق مكننة الزراعة وتحسين الانسال (وهذا ينطبق على الانعام أيضاً) وتزويد الفلاحين بالأسمدة والبذور وتنويع الزروع، وإرشادهم زراعياً وتقديم القروض المعقولة لهم. والذي تأمله الدولة التونسية هو ان تصبح البلاد قادرة على الاكتفاء الذاتي فيما يتعلق بإنتاج المواد الغذائية اللازمة.

ومما يدخل في تحسين الزراعة في البلاد اقامة السدود لحجز المياه وتوزيعها. وأكبر المشاريع هي: سد بوهرتمة في جندوبة، وسد سيدي سالم وسد سيدي سعد قرب القيروان. والأراضي التي يمكن ريها تقدر مساحتها بمئتي ألف هكتار.

والشواطىء التونسية غنية بالأسماك المنوعة الجيدة. ويعمل في صناعة الأسماك ما يزيد عن عشرين ألف عامل. ومركز الصناعات السمكية هي صفاقس. وتصدر كميات كبيرة من اسماك تونس الى الخارج.

كانت ملكية الأرض التقليدية في تونس تقوم على واحد من الأسس التالية: ملكية خاصة يتصرف بموجبها المالك بأرضه تصرفاً حراً. والحبوس (الأوقاف في المشرق) التي وقفها أصحابها على مؤسسات اسلامية (وتدخل في عدادها الحبوس الذرية). والأرض المشاع التي تملكها قبائل او عشائر ملكاً يمكنها من الاستفادة من الأرض واستغلالها للرعي أو لجمع الحطب وما الى ذلك. وهناك الأراضي التي تملكها الدولة. ولما دخلت فرنسة تونس كان يهمها ان تشجع الفرنسيين على الاستيطان هناك، دون أن تحمل الخزينة الفرنسية نفقات باهظة، فشجعت الاستعمار الفردي الحر. وفي سنة

١٨٨٥ أخـذت الادارة الفـرنسـيـة في تونس بمـبـدأ تسـجـيل الأراضي على اسـمـاء المعـمـرين، بقطع النـظر عن المـالكين الأصليين، وبخـاصـة أراضي الـدولة. وترتب على ذلك ان جاء متـمولون فـرنسـيون كبـار، فـابتـاعوا الأرض وأجـروهـا لفـلاحـين ايطاليين ومـالطيين، ولم تفـد فـرنسـة كثيـراً من حيث توطين الفـرنسـيين هنـاك، وعندهـا أخـذت فـرنسـة تدير تونس لا على أنهـا محـمية لهـا قواعـد خاصـة، بل على أنهـا مستـعمـرة في الواقع. فـاسـتـولت (اعـتـبـاراً من سنـة ١٨٩٢) على الأراضي المـراحـة أو البـور بدءاً من منطقـة صفـاقس، حيث يمكن للمعـمـرين الفـرنسـيين ان يعـملوا في زراعـة الزيتون. ثم استولت على بعض أراضي الحبوس (الأوقـاف) على نحـو مـا مـر بنـا. وجـاءت الخطوة الثـالثة لمـا تملك المـعـمـرون، بمـسـاعـدة الادارة، مـا كـان للدولة من أراض (وهـو نـحـو ١٠٠,٠٠٠ هكتـار)، فـشـرعت الادارة بزيادة أمـلاك الدولة بوضع المـراعي والينـابيع وغيـرهـا تحت تصرفهـا، ثم نقلها الى المعـمـرين، بحيث أصبح لهم ٩٠٠,٠٠٠ هكتار من الأراضي الجيدة، وكان ٢٣٪ منهـا مؤسسات مالية كبرى.

تبدلت الأوضـاع منذ ان نالت تونس استقلالهـا. فقد استولت الدولة على الأملاك المشتركة المـدنيـة (٤٠٠,٠٠٠ هكتار) وقسمتهـا قطعاً صغيـرة وزعت على الفلاحين. كمـا أنهـا أخـذت الأمـلاك المشـاع (٢,٢٥٠,٠٠٠ هكتار) وقسـمت ووزعت على البـدو، أمـلاً في توطينهم. وقـد شـاهدنا بعض النجـاح في هذا المشـروع قبـل سنوات. أمـا مـا بقي في أيدي الأوروبيين الى سنة ١٩٥٧ وهـو ٧٤٠,٠٠٠ هكتـار (إذ ان بعضهم قـد بـاع أملاكه بعد الاستقـلال مباشـرة) فقد نقص الى ٤٠٠,٠٠٠ هكتـار في سنة ١٩٦١ بسبب بيع المـعـمـرين لـلأراضي والرحيل عن تونس. وابتـاعت الحكومـة التونسـيـة ١٥٠,٠٠٠ هكتـار سنة ١٩٦٣ من المعـمـرين. وفي السنة التـاليـة كـان القسم الأكبر مـما كـان بأيدي المعمرين قد نقلت ملكيته وأمم ووزع على الفلاحين التونسيين.

المعادن: يعمل في قطاع التعدين نحو ٢٤,٠٠٠ عامل. وتعتبر تونس رابع دولة في العـالم في انتـاج الفـوسـفـات الذي يستـخرج في أواسط البـلاد. والفـوسـفـات والاسـمـدة المستـخـرجـة منه تكون المـادة الثـانيـة من حيث الأهمـيـة بين صـادرات تونس. ويصـدر ٦٠٪ منه الى الأسواق الغـربية، وبخـاصـة فـرنسـة، فيمـا يصـدر البـاقي الى أسـواق اوروبة الشرقية والصين.

ومنذ ان اكـتـشف النـفـط في تونس (١٩٦٤) في البـورمـا على الحـدود الجـزائرية، والحكومـة معنيـة بالبحث عن النفط في منـاطق أخرى. وينقل نفـط البـورمـا في أنـابيب تتصل بالأنابيب التي تنقل نفـط الجزائر المجـاور، وهذه تنتهي في الصخيرة في خليج قابس، ومن هناك ينقل الى المصفاة في بنزرت. وقد عثر (١٩٦٨) على آبار النفط في دُولب (على بعد ٢٠٠ ك م شمـالي البورمـا) وينقل من هنـاك الى الصخـيـرة. كمـا عثـر على آبـار أخـرى. وفي أوائل السـبـعـينات اكـتـشف النفـط تحت المـاء في خليج قـابس،

وهذا يساوي نصف منتوج تونس. وتنتج مصفاة بنزرت ١,٢ مليون طن في السنة، وثمة خطة لتقويتها بحيث تنتج أربعة ملايين طن سنوياً. والنفط هو صادر البلد الرئيس.

يضاف الى ذلك ان احتياطي الغاز الطبيعي في تونس كبير بحيث يكفي الاستهلاك المحلي لمدة عشرين سنة. وفي البلاد مناجم للحديد أهمها احتياطي جريسة ودواريا. كما يوجد في تونس الرصاص (في المنطقة الساحلية الشمالية) والزنك (في الزاوية الشمالية الغربية من البلاد).

الصناعة: يكاد يتمركز في تونس الحاضرة من الصناعات أكثر من نصفها. والمدن الصناعية الأخرى هي سوسة وصفاقس وغابس وبنزرت وقفصة وباجه والقصرين. وقد كانت الصناعة قبلاً تعنى بتزويد السوق المحلية من الاقمشة والمواد الغذائية. لكن الصناعة تشجع الآن للتصدير. ولا يزال تصنيع المواد الغذائية يأتي في الدرجة الأولى، تليه صناعة الاقمشة والألبسة، وهذه تصدر الى الخارج، ومردودها من النقد النادر هام. وتصنع تونس الزجاج والأثاث والبطاريات الكهربائية والدهانات والمصنوعات الجلدية. وتشتهر نابل بزليجها (القيشاني)، وينقى السكر في باجه، وتصنع الزرابي (البسط) في القيروان على الانوال اليدوية. وثمة مصنع للسلولويد في القصرين، كما يحضر اللب من الحلفا (الاسبارتو) لصنع الورق في القصرين وفي منطقة القيروان. وثمة توسع ونمو في الصناعات المعدنية والميكانيكية والكهربائية. فمصنع الفولاذ (منزل بورقيبة قرب بنزرت) تزوده البلاد بحاجته من الحديد. وفي سوسة مصنع لتجميع سيارات وشاحنات (بيجو) ينتج ستة آلاف سيارة و١٤,٠٠٠ شاحنة في العام. وهناك صناعة الاسمنت، الذي تقوم بإنتاجه عدة مصانع. والحكومة مهتمة بتشجيع الصناعات الكيميائية مثل صنع الاسمدة (من الفوسفات) والدهانات والغراء (صفاقس وقابس) وصناعة البلاستيك والخيوط الصناعية (قابس).

ومما يساعد الصناعة ونقل المصنوعات، الطرق الجيدة والسكك الحديدية في البلاد، إذ ان المرء يستطيع ان ينتقل في جميع انحاء تونس بسهولة ويسر، باستثناء المناطق الجنوبية النائية. كما أنه يوجد في تونس اربعة مطارات دولية (اثنان في الحاضرة تونس وواحد في جربة ورابع في مناستير)؛ وثمة مشروع لإنشاء مطار دولي خامس في تورز. والموانىء التونسية الكبرى معدة إعداداً جيداً لاستقبال السفن الكبيرة.

مخططات التنمية: درست مخططات التنمية لأول مرة في سنة ١٩٦١، بحيث وضع يومها منظَّرٌ لعشر سنوات، ثم وضعت مشاريع للتنمية موضع التنفيذ الأول لثلاث سنوات (١٩٦٢ ـ ٦٤) وتلاه ثلاثة مشاريع رباعية هي ١٩٦٥ ـ ٦٨ و١٩٦٩ ـ ١٩٧٢ و١٩٧٣ ـ ٧٦. وتونس الآن تعمل في اطار مشروع جديد هو لخمس سنوات (١٩٧٧ ـ ٨١). ومما يرتبط بمشاريع التنمية أمران: الأول هو التزايد الكبير في عدد السكان

على نحو ما مر بنا، والثاني قضية تمويل المشاريع بالنسبة لبلد فقير نسبياً. ففي مشروع الخمس سنوات الأخير، مثلاً، كان من الضروري ايجاد ٦٤,٠٠٠ عمل جديد سنوياً لمقابلة التزايد السكاني، لكن لم يُوجد سوى ٤٥,٠٠٠ عمل جديد. وعلى كل، فإن تونس تزودها المنظمات الدولية والبلدان العربية والغربية بالكثير من المساعدات المالية للتنمية. وقد تزايدت المساعدات من دول الخليج العربي والمانية الغربية والبنك الدولي في السنوات العشر الاخيرة. وقد جاءت مساعدات أقل من الاتحاد الاوروبي.

وبالإضافة الى ما ذكر من الصناعات التي تلقى العناية والاهتمام والتشجيع والتنظيم من الدولة (وتدخل طبعاً في مشاريع التنمية)، فهناك صناعة رئيسة في البلاد التونسية هي السياحة. وقد كانت السياحة أكبر مصدر للنقد الأجنبي. ويزداد عدد السواح سنة بعد اخرى.

التجارة الخارجية: تعتمد الصادرات التونسية على المنتوجات الزراعية والمعدنية، وهذه تتأثر كثيراً بالمحصول (داخلياً) وبالأسواق الخارجية للمعادن. ويمكن القول اجمالاً بأن ٤٣٪ من قيمة الصادرات بأجمعها تأتي من البترول، والفوسفات ومشتقاته تعادل ٢٣٪ والأقمشة والمصنوعات الأخرى ١٩٪ والزيتون ١٤٪. وأهم البلاد التي تصدر تونس اليها سلعها هي فرنسة والمانية الاتحادية وايطالية واليونان والولايات المتحدة وهولاندا وبلجيكا ولكسمبورغ.

وتستورد تونس بالدرجة الأولى الآلات ومشتقات البترول والحديد والفولاذ والسكر والقمح (عندما يقصر المحصول المحلي) والزيوت النباتية والأدوات الكهربائية. وفرنسة هي أكبر الدول المصدرة الى تونس (٣٤٪) وتليها المانية الاتحادية وايطالية واليونان والولايات المتحدة. وقد وقعت تونس اتفاقاً مع السوق الأوروبية المشتركة (١٩٧٦) أعفي بموجبها زيت الزيتون التونسي من رسوم الاستيراد، وخفضت الرسوم على بقية المنتوجات الزراعية التونسية. إلا ان تطبيق هذا الاتفاق لم يتم على الشكل المفيد الى الآن.

تونس اليوم

تونس المستقلة اليوم تكافح على أكثر من جبهة لتحافظ على استقلالها وتثبت كيانها. وقد ذكرنا بعض مشكلات البلاد الاقتصادية والسكانية. والذي يجب أن يذكر دائماً ان التجربة التونسية لها أبعادها الخاصة، ولها طابعها المميز. ونحن يجب أن نذكر ان في مقدمة الأمور التي تعنى بها تونس، التعليم. وقد ذكرنا شيئاً عن التعليم في أيام الفرنسيين من قبل. ولنذكر مثلاً أنه بعد الاستقلال بعشر سنوات كان لا يزال في البلاد نحو ٧٠٪ من الأميين، وذلك بفضل السياسة الفرنسية. ولما غادر الفرنسيون تونس كان عدد طلاب المدارس الابتدائية ٢٠٠,٠٠٠ فأصبح سنة ١٩٦٦

(أي بعد عشر سنوات من الاستقلال) ٧٣٤,٠٠٠ وكان في المدارس الثانوية نحو ١٥,٠٠٠ فأصبح (سنة ١٩٦٦) ٨٠,٠٠٠ وكان مجموع طلاب الدراسات العليا ١,٣٠٠ طالب، فأصبحوا في تلك السنة بالذات ٥,٠٠٠ طالب. أما في سنة ١٩٧٨ فقد وصلت الاعداد نحو مليون في المدارس الابتدائية ونحو ٢١٥,٠٠٠ في الثانويات. والجامعة كان فيها سنة ١٩٧٨ عشرين ألفاً من الطلاب ويزيد. وقد بلغ عدد المعلمين في تلك السنة ٢٥,٠٠٠ في التعليم الابتدائي (يعملون في ٢٤٢٥ مدرسة) وعشرة آلاف في التعليم الثانوي (يدرسون في ١٩٣ مدرسة). وعدد العاملين في التدريس الجامعي هو ٢٠٠٠. وقد اهتمت الدولة بالتعليم لا كمّاً فحسب ولكن نوعاً وتوجيهاً وتنويعاً. فقد أدخلت في المدارس الثانوية برامج صناعية واقتصادية ومهنية. وكان في سنة ١٩٧٧ في نهاية الدراسة الثانوية: ١١٥٠ طالباً في الصناعة و١٧٠٤ في الاقتصاد والتجارة ونحو ٥٠٠٠ طالب و١٧٧١ طالبة في الأقسام المهنية.

ولعلّ من أبرز مظاهر التوجيه التعليمي في البلاد التونسية هو تلبية الطلاب الدعوة الى الاهتمام بالدراسات العلمية والتقنية على المستوى الجامعي. فقد أظهرت بيانات السنة الجامعية ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ ان طلاب الجامعة موزعون على النحو التالي: ٥٦٨٠ في أقسام العلوم و٤٥١٩ في الأقسام الأدبية والعلوم الانسانية و٤٨٣٥ في الأقسام الطبية و٨٦٨٠ في أقسام العلوم الاجتماعية (هذا من أصل ٢٤٧٥١ طالباً في الدراسات العليا).

وفي القطر التونسي نحو ٣٠ دورية بالعربية والفرنسية، بين اليوميات: العمل والصباح (وهذه لها دار نشر أيضاً) بالعربية؛ وتعتبر مجلة الفكر (الشهرية) من أنفس المراجع للدراسة الأدبية في تونس في العقود الأخيرة. كما أن في البلاد عدداً كبيراً من دور النشر، لكن أكبرها هي الدار القومية. وتعتبر البلاد التونسية من البلاد التي تكثر فيها الأندية الثقافية والاجتماعية.

ويقدر عدد العمال في البلاد بنحو ١,٤ مليون شخص يعمل منهم نحو ٦٠٪ في الزراعة ونحو ٢٠٪ في الصناعة والباقي في مجالات العمل الأخرى.

المجتمع التونسي تغلب عليه الحضارة والاستقرار، فالقسم الأكبر من السكان يعيش في المدن أو الريف المزروع أو المستغل. والبداوة، أو شبه البداوة، مقصورة على المناطق الجنوبية. وبسبب الاقامة في المدن ووجود صناعات في البلاد، كانت تونس من أول الأقطار العربية التي ظهرت فيها تنظيمات عمالية (في أعقاب الحرب العالمية الاولى).

والاستقرار، مع وجود معاهد العلم في العصور العربية المختلفة (من القيروان الى تونس الى غيرها) يسّر للتونسيين ان تكون لهم أسس ثقافية فكرية ثابتة. وجامع الزيتونة بفروعه كان له فضل على حفاظ التونسيين على لغتهم العربية. واتصلت تونس

بالغرب في عهد أحمد باي ومحمد باي والصادق باي وأخذت نفسها بالتعرف الى الحضارة الحديثة، لما دهمتها فرنسة وعطلت تطورها. وقد كان رد الفعل الأول على هذا العمل الفرنسي هو «نفور التونسيين من هذه الحضارة المرتبطة بالمستعمر والاستعمار، وخشية من اولئك الذين هي آراؤهم وحضارتهم». ولم تفعل فرنسة شيئاً يخفف من هذا الأمر.

ومع ذلك فالفكر العربي وصل الى عدد قليل من الناس أيام الاستعمار، وإلى عدد أكبر كثيراً منذ الاستقلال. وفي أيام الاستعمار كان الذين يتعرفون الى الفكر والعلم الغربيين ينتقلون الى اللغة الغرنسية لأنهم تلقوا العلم بتلك اللغة. أما الآن فكثيرون هم الذين يتلقون العلم والفلسفة في الغرب ثم ينقلون هذه الاشياء الى العربية.

وكانت أساليب الكتّاب العرب الى أوائل القرن الحالي تتسم بالتقليد والمحافظة. ذلك بأنهم تلقوا علمهم في المعاهد التقليدية كجامع الزيتونة وفروعه. الا ان هؤلاء وطلابهم لما أتيح لهم الاطلاع على الفكر الغربي، وكتبوا فيه أو نقلوا عنه، كانت آثارهم جزلة في اللغة، متينة الاسلوب أنيقة الصياغة. ويمكن أن يتأكد قارىء هذه السطور من ذلك إذا رجع الى الكتب الأدبية والتاريخية ودواوين الشعر التي تصدر هناك. وإذا رجع الى مجموعة الفكر التونسية، فلعله يجد ضالته.

تونس بلد سياحي ـ آثاره وشواطئه ومناخه تجذب اليه السواح والزوار. والدولة جادة في تيسير ما يريح هؤلاء. فالفنادق كثيرة، وطرق الوصول الى تونس متيسرة. ففي البلاد، على ما ذكرنا، أربعة مطارات دولية، والبلاد تتصل بالعالم بالخطوط الجوية العالمية المختلفة. أما الخطوط الجوية العربية التي تصل الى تونس فعددها كبير.

وترتبط تونس بالجماهيرية الليبية بطرق برية جيدة، وبالجزائر والمغرب بطرق سيارات ممتازة وبسكة حديد تنقل الراكب من تونس الحاضرة الى مراكش في الجنوب المغربي.

٤ ـ ليبيا

ليبيا قطر واسع مترامي الأطراف تمتد شواطئه على المتوسط، بين حدود تونس غرباً وحدود مصر شرقاً، ألفين ويزيد من الكيلومترات. ويمتد عرضاً، من الشمال الى الجنوب، مئات من الكيلومترات. وتبلغ مساحة البلاد ١,٧٦٠,٠٠٠ كم٢ (أكثرها صحار وبواد جرداء). وهذه المساحة تتوزع جغرافيا على المحافظات الغربية (منطقة طرابلس) ٢٨٥,٠٠٠ كم٢، والمحافظات الشرقية (منطقة برقة) ٩٠٥,٠٠٠ كم٢، والمحافظات الجنوبية (منطقة الفزان) ٥٧٠,٠٠٠ كم٢.

يمتد الشاطىء البرقاوي، من البردية الى خليج سرت، على شكل قوس منحن. وهو خال من التعاريج الكبيرة باستثناء تعريجة واحدة عند طبرق. وهذا الشاطىء يحاذيه سهل ساحلي هو، في الجزء الاوسط منه، ضيق بحيث يتكّون في الواقع من جيوب ساحلية تنحشر بين رؤوس صخرية تصل الى الشاطىء. لكن في البطنان (أو مرمريقة) وفي برقة البيضاء والحمراء، وهما جناحا برقة الشرقي والغربي، يتسع السهل الساحلي بحيث يلتقي بالصحراء.

ويستأثر الجبل الاخضر، وهو هضبة مرتفعة تبلغ نحو ٨٧٠ متراً في أعلى قممها، بالأمطار الغزيرة نسبياً والأرض الخصبة. فأجزاؤه الجنوبية تغطيها الغابات، وسفوحه الشمالية تكسوها الكروم، وما بين هذه وتلك تمتد الارض الخصبة الصالحة للزراعة. ولكن عندما يجتاز المرء الجبل الاخضر ويشرف على بني غازي يعود الى الأرض عريها وتبدو المناطق الشبيهة بالصحراوية، التي تنتهي بالصحاري. والجبل الاخضر يرتفع من الشاطىء ارتفاعاً مباشراً، ويرتقي ارتقاء مصعداً صعباً، لكنه ينحدر نحو الجنوب، الى الصحراء، انحداراً تدريجياً فيه هون ولين. وكأني بالطبيعة كانت رفيقة بالمصعد من الصحراء، فلم توصله الى ما يشبه الجنان بسرعة، وكانت رئيفة بالمحدر الى الصحراء، فلم تلقه في أحضانها دفعة واحدة.

ومنطقة الجبل الاخضر فيها بلدة الشحات (قورنية القديمة) التي تحتل بقعة من أجمل ما يوجد في الجبل الاخضر ـ أرض تكسوها الاشجار الجميلة كالصنوبر والسرو والزيتون البري، وماء غزير يتدفق من ينابيعها. وفيها الوسيطة، أرض المرج الخصبة، منطقة القمح والفواكه والخضار والكروم والتين والزيتون. وفي جنوب الجبل الاخضر منطقة الظاهر وهي التي تسمى الغابة أيضاً. وعلى الساحل، في سفح الجبل الاخضر،

تقبع درنة، المدينة البيضاء الاندلسية، التي تكتنفها اشجار النخيل، ويزينها الياسمين. وبين البردية ودرنة نحو ٣٠٠ كم، تقع فيها طبرق وثلاث قرى كبيرة ومنتجعات تصلح للرعي في منطقة تتسع نحو ٨٠ كم الى الجنوب من الشاطىء.

والمتجه من بني غازي جنوباً ثم غرباً، بمحاذاة الشاطىء، يجد حول السلوق واجدابية مناطق تصلح لزراعة الشعير والقمح وللرعي. وبعدهما، غرباً وجنوباً، أراض صحراوية. فالطريق بين اجدابية وسرت لا تقع العين فيه، في القسم الأكبر من السنة، الا على أشواك وما اليها.

وأقليم المحافظات الغربية (منطقة طرابلس) جباله أكثر ارتفاعاً من جبال برقة، ومن ثم فإنه يقتنص من رطوبة الجو كمية أكبر، بحيث ان بعض الأودية تتحول في الشتاء إلى أنهار صغيرة. والساحل هنا أوسع منه في برقة، وأرضه، على العموم، أخصب قليلاً. ومراكز الحياة والنشاط هي الواحات الساحلية، وهي من الشرق الى الغرب: سرت ـ مصراته ـ زليطن ـ الخمس ـ تاجوراء ـ سوق الجمعة ـ مدينة طرابلس ـ الزاوية ـ زوارة. وهذه الواحات أكثر اقتراباً واحدتها من الأخرى في الغرب منها في الشرق.

وعندما يجتاز المرء سهول جفارة الرملية، المحاذية للمنطقة الساحلية، في الجزء الغربي منها، تتلقاه سفوح جبل نفوسه. وهو هضبة تمتدمن نالوت الى القصابات، ويتراوح ارتفاعها بين ستمئة وتسعمئة من الأمتار. ويفيد السكان من الأودية الخصبة التي تتخلل هذه المرتفعات في زراعة الحبوب، ومن السفوح لغرس الاشجار. وتكسو الغابات الطبيعية الكثير من اجزاء جبل نفوسه. وينحدر الجبل انحداراً تدريجاً نحو الجنوب الى حمادة الحمراء التي تمتد جنوباً الى خط عرض ٢٨ شمالاً.

وتتكون منطقة الفزان من ثلاثة منخفضات واسعة تحيط بها الهضاب الرملية والصخرية القاحلة وتفصلها واحدها عن الآخرين. وهي منطقة سبهة ومنطقة براك ومرزوق وزلاف. وفي الصحاري الجنوبية توجد مجموعة من الواحات كانت، ولا تزال، مراكز الحياة والتجارة. وأهم هذه الواحات هي الكفرة (نحو ١١٠٠ كم٢) واوجيلة وجالو وغدامس وغات.

يختلف مناخ ليبيا باختلاف الارتفاع والبعد (أو القرب) من البحر. فالأمطار التي تسقط في الجبل الاخضر أغزر من التي تسقط في أجزاء أخرى، ذلك بأن الاجزاء الشمالية من برقة بعيدة عن البحر مسافة أبعد من غيرها. ومن ثم فإن السفوح المرتفعة للجبل الاخضر قد يسقط عليها بين ٥٠٠ و٦٠٠ ملم، أما السهل الساحلي فيصله نحو ٢٠٠ ملم. ومعدل سقوط الأمطار، في الأماكن التي تفيد من ذلك (على السفوح الليبية) هو بين ٤٠٠ و٥٠٠ ملم، ودرجة الحرارة تختلف بين مكان وآخر أكثر بكثير من الاختلاف في سقوط الامطار. ففي شمال برقة، مثلاً، تتراوح درجات الحرارة الصيفية بين ٢٧ و٣٢

مئوية. لكن إذا هب القبلي ـ أي الريح الصحراوي الجنوبي ـ ارتفعت الحرارة بين ١٥ و٢٠ درجة (مئوية) خلال ساعات. (وقد خبر كاتب هذه السطور هذا النوع من التبدل في الحرارة مرتين في صيف ١٩٤٩ في بني غازي). وفي سهل الجفارة تصل الحرارة من ٤٠ الى ٤٥ درجة مئوية، وقد سجلت حرارة قريبة من ٤٩ مئوية في غريان مرات كثيرة. ومع هذه الدرجات المرتفعة للحرارة في الصيف، فقد تهبط الثلوج على المرتفعات الليبية وتظل تغطي القمم بعض الوقت. على ان مشكلة المناخ الرئيسة بالنسبة الى ليبيا هي الجفاف الذي يضرب البلاد بين الآونة والأخرى.

ولعله من المفيد ان نلقي نظرة عجلى على التربة في مناطق ليبيا المختلفة. فجبل نفوسه تربته في غالبها كلسية تقوم فوقها رمال أو صلصال. ومع ان منطقة جفارة تشبه الجبل تربة فإنها تكثر في سهولها الساحلية الملاحات والمنخفضات الجافة الصلبة. ولذلك فالأجزاء الصالحة للاستغلال الزراعي محدودة.

في الجبل الاخضر والسهل الساحلي بين بني غازي وطوكرة تتكون الارض من طبقات صخرية نارية او من صخور كلسية. أما في قورنية (الشحات) فالتربة دكناء، وفي الوسيطة نجد تربة حمراء جيدة. ويغلب على تربة الأراضي الصالحة للاستغلال الزراعي في ليبيا فقرها في المواد العضوية والنتروجينية.

وفي ليبيا مناطق غنية بالمياه الجوفية مثل الواحات الساحلية والمثلث المحدود بصبراته والعزيزية وتاجوراء (في منطقة طرابلس). ولكن الجبل الاخضر فقير في ذلك لأن الأمطار التي تسقط عليه تنحدر عن طبقات أرضه. ووادي الآجال في الفزان وغيره من أودية الجنوب وواحاته فيها مياه جوفية غزيرة وقوية.

وإذا أخذنا الارض (التربة) والمياه (الأمطار وغيرها) والحرارة (واختلافها) بعين الاعتبار يمكننا ان نخلص الى النتائج التالية:

١ ـ ان ليبيا تنتج الحبوب، وخاصة القمح والشعير، والتمر والزيتون والفواكه والخضار، والذرة في الواحات الجنوبية.

٢ ـ في ليبيا مجالات للرعي ولتربية الماشية كالخراف والماعز والابقار والابل، أما الخيول والحمير فأقل. (نحن نتحدث هنا عن الأوضاع الطبيعية، وسنتحدث عن نواحي الاستغلال القائمة اليوم فيما بعد).

٣ ـ السهوب الجنوبية هي مناطق الخراف والابل، أما الأبقار والماعز فموطنها الاجزاء الشمالية. الا ان عشرات الآلاف من الخراف والابل تتجه نحو المرتفعات في الصيف لتحصل على قوتها.

٤ ـ أكثر التمور وأجودها تنتجه الواحات (وكاتب هذه السطور يتذكر الى الآن طعم حبات التمر التي جمعها بنفسه عن شجرة تمر على مقربة من سبهة وأكلها هناك سنة ١٩٦١).

السكان (تاريخياً)

كان سكان ليبيا، قبل ان يصلها العرب في القرن السابع للميلاد، من البربر. ومع ان أكثر هؤلاء قد تعربوا، فإن جماعات منهم لا تزال تغلب على بعض المناطق المحدودة في البلاد، مثل اوجيلة وفي جهات من جبل نفوسة وفي بعض مناطق الفزان.

وصل العرب الى ليبيا في موجات ثلاث: الاولى جاءت مع الفتح (القرن السابع م) وكان أغلبهم من اليمن. وهم الذين اختلطوا بالبربر وعربوهم الى درجة كبيرة. والموجة الثانية جاءت، على ما يبدو، في القرن التاسع للميلاد (ولعلها استمرت الى مطلع القرن العاشر أيضاً). وهؤلاء كانوا من عرب الشمال. وجاءت الموجة الثالثة في أواسط القرن الحادي عشر، وهؤلاء هم بنو هلال وبنو سليم (أرسلهم الخليفة الفاطمي المستنصر ليحتلوا شمال افريقية فيتخلص من مضايقتهم لسكان مصر). وكان عدد هؤلاء كبيراً، على ما يظهر، وإليهم يرجع الفضل في تعريب البلاد، وخاصة المحافظات الشرقية. وبنو هلال وبنو سليم مضريون.

وفي ليبيا، مع الاتجاهات الحديثة والتطورات الاقتصادية والاجتماعية، لا يزال الشعور بالقبيلة موجوداً. ونحن نذكر أشهر القبائل الموجودة في ليبيا: وهي (في برقة) العبيدات في شرق برقة (البطنان او مرمريقة) وجزء من الجبل الاخضر. والحسا على ساحل الجبل الاخضر وسفحه، حول سوسة (ابولونية) والشحات. وعايلة فايد يقيمون الى الغرب من منازل العبيدات وجنوبي منازل الحسا. والبراعصة يقيمون في أواسط الجبل الاخضر (والتقليد يقول انهم جاءوا من المغرب الأقصى). والدرسة، منازلهم على الساحل من طلميتة الى الشرق. والعبيد ومظاعنهم في الامتداد الغربي للجبل الاخضر، وعرفة يقيمون في الساحل بين طلميثة وطوكرة. والعواقير ومنازلهم في غرب الجبل الأخضر وجزء من برقة البيضاء والسلوق كانت مركزهم. والمغاربة موزعون بين برقة وطرابلس وقد كانوا يتمركزون حول اجدابية. والقطعان والمنفة والشواعر وعوامة وزوية والفواخر وهم منتشرون في نواح مختلفة من المحافظات الشرقية.

أما في المنطقة الطرابلسية فأشهر القبائل هي: أولاد شكر وهم هلاليون في نسبهم (في مسلاته وزليطن). والرياحة، هلاليون أيضاً، يقيمون في زليطن ومصراته. وأولاد شبل ويتصلون بالنسب ذاته وينزلون في جهات الزاوية وطرهونة وغماتا والغريان. وبو سليمة والمهادي والمحارزة وبنو عامر وبنو كروه ينتسبون الى بني هلال أيضاً ومنازلهم في طرهونة وتاورغة وحفارة وزليطن. وأما القبائل التي تدعي النسب السليمي فهي بنو عوف (في الغريان وطرهونة ومصراته)، وبنو جابر وفروعهم الكثيرة. وثمة قبائل ترفع نسبها الى بني هلال وبني سليم معا مثل المعاقل وبني غشم. ولا يخطرن بالبال ان هذه القبائل هي الآن، كما كانت قبلاً من حيث الاقامة والحمى ودفع

القادم والمهاجم. ولكن هذا هو، على ما يرى الباحثون، الترتيب الذي حفظه التاريخ والتقليد القبليان حتى وقت قصير.

على ان ليبيا دخلتها، عبر التاريخ الطويل، عناصر بشرية أخرى من الرومان والأوروبيين في العصور الوسطى، والكريتيين في القرن الماضي، وسكان افريقية السوداء. لكن هذه كلها، بالنسبة الى السكان، قليلة عدداً، وكان دخولها متفرقاً، وقد أصبحت جزءاً من السكان.

صفحات من الماضي

لنضع أمام القارىء بضع نقاط لعلها تساعده على متابعة العرض التاريخي المقتضب الذي سنعرض له في هذا الحديث. وأول هذه ان تاريخ ليبيا، وفي فترات متعاقبة من أزمانها الطويلة، هو تاريخ مستقرات حضارية يقوم أكثرها على الساحل، شرط ان يتوفر على الأقل واحد من شرطين: إما أن يكون الموقع فيه ماء وله منقلب خصب يزوده بالنتاج الزراعي اللازم؛ وإما ان يكون الموقع عند نهاية طريق تجاري الى الداخل ـ يعبر الصحراء ويحمل من البلاد الواقعة جنوبها وإليها المتاجر المتنوعة. وإذا توفر الشرطان كان المستقر الحضاري أكبر وأكثر ثروة. وثاني هذه الملحوظات هي ان هذه المستقرات كانت تقوم في الشرق او الغرب، ولكن لم تقم أي منها في الوسط. والوسط هذا هو الساحل الجاف المحيط بخليج سرت. ففي هذه الرقعة التي يبلغ طولها نحواً من ٥٠٠ كم لم تقم مستقرة قط. والملحوظة الثالثة (وهي مرتبطة بالثانية) هي ان هذه المستقرات قامت في صبراتة وطرابلس ولبتس (الخمس) في الغرب وفي قورنية وبرقة (المرج) وبرينتشى (بني غازي) ودرنة في الشرق (ويمكن ان تضاف طبرق في بعض الأوقات). ورابع ما يجب أن يذكر هو أنه لم يقم في الصحارى القاحلة شيئ، أما في المناطق الشبيهة بالصحراوية وحول الواحات النائية، فقد كان البدو يعيشون من الرعي ومن حراسة القوافل التجارية. وأخيراً فقد كان في ليبيا، كما كان في غيرها من الاقطار التي تقع شمالي الصحراء الكبرى، نزاع بين البدوي المتنقل والمستقر المتحضر. فإذا كان هذا قوياً وقف البدوي بعيداً عنه ولعله كان يتعلم منه بعض الأمور. أما إذا كان المستقر ضعيفاً، فقد كان يختبىء هو خلف أسواره، وعندها لا يعدو تأثيره أبواب المدينة، هذا اذا لم يهاجمه البدوي ويقضي عليه. وما أكثر ما تكرر هذا في العالم العربي من بغدانه الى تطوانه! الى هذا يجب ان نضيف ان مصر الفرعونية، التي أخذت في الألف الثاني ق.م. تقيم امبراطورية، حاولت احتلال برقة (بين ١٩٧٠ و١١٨٧ ق.م.).

وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار، مثلاً، ان سكان غرمنتيا في الفزان كانوا يقومون على تربية الابقار منذ حول سنة ١٠٠٠ ق.م. (على الاقل)، وأنهم كانوا ينقلون ما عندهم الى الساحل، وان الفينيقيين من صور وصيدا (بلبنان) أخذوا يفدون الى

الشواطىء الليبية ليبيعوا مصنوعاتهم وليبتاعوا ما يمكن ان تبعث به المناطق الواقعة جنوبي الصحراء من ذهب وفضة وعاج وريش، أدركنا ان القرنين التاسع والثامن ق.ب. لا بد وأنهما كانا فترة نشاط تجاري هناك. وقد كثر تردد الفينيقيين على تلك السواحل وازدادت أعمالهم، وكانت أسفار البحر شاقة وخطرة بالنسبة الى المسافات الطويلة والسفن الصغيرة، لذلك قام هؤلاء الفينيقيون بإنشاء مستقرات تجارية لهم في ساحل ليبيا الغربي في لبتس (الخمس) وأويات (طرابلس) وصبراتة. وكانت قرطاجة، ابنة صور، أكبر ما أقام الفينيقيون على الشاطىء الافريقي. وقرطاجة قامت في تونس، لكنها لم تلبث ان قويت واتسعت وأنشأت امبراطورية شرقاً فضمت المدن الليبية الثلاث الى أملاكها (٥١٧ ق.م.).

وكان اليونان قد بدأوا التوسع في حوض البحر المتوسط منذ أواسط القرن السابع ق.م.، فوصلوا الساحل الليبي في برقة واستقروا في جزيرة على مقربة «ممبة» ثم انتقلوا الى الساحل حيث تقوم تميمي حالياً. لكن اليونان الذين جاءوا كانوا يهتمون بأكثر من رعي الاغنام وتربيتها (صناعة ذلك الجزء من الساحل البرقاوي)، لذلك بحثوا عن مكان أفضل ـ وأفضل بكثير فوجدوا قورنية ـ الجيدة المناخ الغزيرة المياه الخصبة الارض الجميلة الموقع ـ تنتج القمح والشعير وتغذي الاغنام والخيول والابقار وتنمي شجرة الزيتون. وازداد عدد السكان في قورينة (الشحات) فانتقلت جماعة منهم الى أرض الوسيطة حيث تقوم مدينة المرج الحالية وأنشأت بركة (ومنها أخذت البلاد هناك اسمها برقة) وجعلوا من طوكرة ميناء لها، وأنشئت يوسفريدس (بني غازي) على أيدي جماعة يونانية أخرى. وفي القرن الخامس كانت المدن الخمس (بنتابوليس) مراكز الحياة اليونانية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، وهي: قورينة وأبولوينة (سوسة) وبركة وطوكره ويوسفريدس. والفترة الممتدة من حول ٤٥٠ ق.م. الى أواخر القرن الرابع ق.م. هي العصر الذهبي للمدن اليونانية، فناً وعلماً وفلسفة. فقد ظهر فيها اريستبوس وكريندس من الفلاسفة واراتوشينس القوريني في الجغرافية والرياضيات، وهو أول من قاس محيط الارض قياساً رياضياً دقيقاً (في القرن الثالث ق.م.)، وكليماخوس الشاعر الذي أصبح أحد امناء مكتبة الاسكندرية. والمنطقة الطرابلسية أنتجت كتباً في الزراعة في أيام الفينيقيين.

ويبدو أنه في مطلع القرن الرابع ق.م. أقام القرطاجيون حداً تنتهي عنده أملاكهم وتبدأ السيادة اليونانية. وهذا الحد كان عند تلال فيلانيوس (حيث يقوم القوس الرخامي اليوم).

في سنة ٣٣١ ق.م. خضعت قورينة للاسكندر بعد ان فتح مصر. الا ان خليفته هو الذي احتل برقة. ومنذ ذلك الحين، وإلى نهاية العصر الهلينستي كانت برقة جزءاً من امبراطورية البطالمة المصرية يصيبها ما يصيب هذه من خير او ضر. وبين سنة تدمير

قرطاجة على يد الرومان (١٤٦ ق.م.) واغتيال يوليوس قيصر (٤٤ ق.م.) انتقلت ليبيا وسواحل البحر المتوسط الجنوبية بأكملها، الى الامبراطورية الرومانية. وفي أيام حكمه أنشأ يوليوس قيصر ولاية رومانية في افريقية الجديدة تدخل فيها الولايات الغربية، أما الولايات الشرقية فقد كانت ولاية مستقلة. واحتل الرومان الفزان (٢٠ ق.م.). وهكذا أصبحت ليبيا بأجمعها جزءاً من الامبراطورية الرومانية. وقد ساد هذه، في القرنين الأول والثاني للميلاد، الأمن والرخاء، واستمتعت ليبيا بذلك. وكان لكل من لبتس وطرابلس وصبراته ممثلون تجاريون دائمون في اوستيا (ميناء رومة). وكانت لبتس تبيع في أسواقها جميع أنواع السلع الاستهلاكية. وفي سنة ١٩٧ م تولى عرش الامبراطورية الرومانية سبتيموس سفيروس، وهو مولود في لبتس، فاهتم بالمنطقة لكنه منح مسقط رأسه هبات أخرى. فبنى فيها الندوة والهيكل والحمامات العامة والميناء وأقام الشوارع ذات الاروقة المعمدة. وزائر الخمس (لبتس) اليوم يرى بقية صالحة من هذه الآثار، بعد ان نفض عنها التراب والرمال والغبار. وقد زينت قورينة أيضاً بالجميل من الابنية والأنيق من الأسواق. ومثل ذلك أصاب المدن الليبية الأخرى. وفي هذه الفترة شهدت قورينة ثورتين لليهود قامتا فيها وفي ما يحيط بها في سنتي ٧٠ و١١٥ م، كان من نتائجهما ان تصدع كيان المدينة، ولم ينجح الاباطرة في اعادة الحياة اليها.

في سنة ٣٩٥ م انقسمت الامبراطورية الرومانية نهائياً، فوقعت برقة في نطاق الامبراطورية الرومانية الشرقية (البزنطية فيما بعد)، وكانت طرابلس في حيز الامبراطورية الرومانية الغربية. وفي أوائل القرن الخامس دهم الفندال (الوندال) شمال افريقية (آتين من اسبانية) ووصلوا طرابلس واحتلوها ودمروا من عمران المنطقة الكثير. وانتهى ملكهم سنة ٥٣٣ م لما احتلت جيوش جستنيان، الامبراطور البزنطي شمال افريقية، وأصبحت ليبيا تابعة لهذه الدولة. واعتنى الحكام البزنطيون بتحصين البلاد وإصلاح الادارة وأساليب الحكم. لكن هذه المحاولات لم تنجح؛ فإن الحياة هناك كان قد نخرها السوس من الداخل. وقد وصل عمرو بن العاص الى برقة (٦٤٢) ووصل الى طرابلس (٦٤٣) وكان آل جرجير (غريغوريوس؟) قد استقلوا بمصر منذ مطلع القرن السابع، وهم الذين انتزع العرب ليبيا منهم بين ٦٤٢ و٦٥٠ م.

في أيام الرومان، وخاصة في القرنين الثالث والرابع، انتشرت المسيحية في شمال افريقية، وقد ظلت جماعات مسيحية تقيم في تلك الربوع حتى بعد زوال الحكم البزنطي، وقد نشط السكان في بناء الكنائس منذ أيام قسطنطين، وصار للأساقفة دور كبير في أمور البلاد السياسية وغيرها. وقد اشتهر في أواخر القرن الرابع سينيسيوس القوريني الذي أصبح مطراناً لطلميثة سنة ٤١٠. وبهذه المرتبة كان هو المشرف على شؤون الدين والادارة والجيش.

على أنه يجب ألا يغرب عن بالنا ان المسيحية في شمال افريقية عرفت

الانشقاق والخلاف في الرأي. وكانت الخلافات الدينية لها صبغة سياسية، من مثل مقاومة السلطة. وقد حاول البزنطيون ان يعيدوا المسيحيين في شمال افريقية الى حظيرة الكنيسة الجامعة (الرسمية)، لكن لا الاصلاحات الادارية ولا المحاولات الدينية أدت الى تحسين الوضع. فقد كان كل شيء بحاجة الى تغيير جذري. ولم تكن الادارة البزنطية قادرة على ذلك، فقد توالت عليها الضربات من أكثر من جهة واحدة.

بدأ الفتح العربي لشمال افريقية سنة ٦٤٢. وفي السنة التالية كان عمرو بن العاص يحاصر طرابلس. لكن الفتح لم يتابع يومها، ولذلك كان لا بد من العودة الى ميدان القتال مرة بعد أخرى. وحتى في أيام الدولة الاموية كان سكان شمال افريقية لا يزالون يقاومون الجيوش العربية، هذا مع ان جماعات منهم كانت قد اعتنقت الاسلام. وقد جند موسى بن نصير جماعات من سكان الشمال الافريقي لفتح الاندلس. ويمكن القول اجمالا إن ليبيا كانت تصاب بما تصاب به مصر. وإذ ان الكثيرين من البربر كانوا من الخوارج، فقد كانت ثوراتهم ضد السلطة المركزية، حتى بعد قيام الدولة العباسية، مزيجاً من السياسة والدين. وسنة ٨٠٠ قامت دولة الاغالبة في تونس واستولى هؤلاء على طرابلس بعض الوقت، لكن الاغالبة قضى عليهم الفاطميون الذين انتقلوا، في النهاية، الى مصر (٩٧٢م). وقد حكموا برقة من القاهرة. لكن طرابلس تبعت آل زيري (٩٧٢ ـ ١١٤٨) ثم وقعت طرابلس تحت حكم الموحدين (١١٣٠ ـ ١٢٦٩).

وأهم ما حدث أيام حكم آل زيري كان قدوم قبائل بني هلال وبني سليم الى ليبيا في أواسط القرن الحادي عشر. وقد دمر هؤلاء الكثير من المدن في طريقهم، وخصوصاً مدينة القيروان. ولم تنج من شرهم سوى بعض المدن المحصنة ومنها طرابلس. لكن مجيء هذه القبائل كان نافعاً لليبيا إذ إنه كان عاملاً هاماً جداً في تعريب الجماعات التي تقطنها، والتي لم تكن قد تعربت. وانتشار اللغة العربية فتح أمام سكان تلك الجهات مجالاً لتدوين ما عندهم من أدب. وقد انتشر الاسلام في وقت مبكر بين البربر، ووجد فيه السكان خلاصاً من الوثنية. أما المسيحية فقد كانت قد ضعف شأنها كما مر بنا.

ويبدو ان عدداً من المدن الليبية ظلت، حتى في القرنين التاسع والعاشر وإلى الغزو الهلالي، مراكز كبيرة للتجارة مع كل ما أصابها من فتن وثورات. فالجغرافيون العرب الذين زاروا ليبيا في تلك الفترة تحدثوا، مثل ابن حوقل، عن ثراء طرابلس وغيرها.

مر بنا ان الموحدين حكموا منطقة طرابلس، ثم خلفهم الحفصيون الى حول سنة ١٤٦٠، ثم قامت امارات متعددة. وفي سنة ١٥١٠ احتل الاسبان طرابلس، وفي سنة ١٥٣٥ نقلوا السلطة فيها الى فرسان القديس يوحنا (فرسان مالطة). وفي سنة ١٥٥١ احتل العثمانيون طرابلس. وفي أيام ولاية درغوت باشا (دارغوت) وسع الرقعة التابعة

للحكم العثماني بحيث شملت السواحل الليبية بأكملها تقريباً. على ان البلاد لم تنتعش في أيام العثمانيين لأن اهتمامهم بالبلاد كان عسكرياً فحسب. لكن أصبحت ليبيا الآن جزءاً من السلطنة العثمانية التي صارت، اعتباراً من سنة ١٥٧٤، سيدة سواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية حتى حدود المغرب الاقصى.

ليبيا في العصور الحديثة

كانت ليبيا في القرن والنصف قرن بعد الاحتلال العثماني مقسمة الاهواء. فطرابلس فيها باشا تعينه الاستانة، لكن سلطانه قد لا يتعدى المدن وما اليها من الساحل. أما برقة فقد تحس بوجود حاكم عثماني وقد لا تشعر بوجوده، فالأمر متوقف على القبائل. وعليه فقد أسس القرمنليون حكمهم في ليبيا سنة ١٧١١ وظلوا حكاماً الى ١٨٣٥. وكانت مصادر ثروة الحكام القرصنة والضرائب التي تجمع من السكان بكثير من الشدة والعنف. والسكان يقومون بالثورة تلو الثورة. لذلك، فمع ان طرابلس كانت سوقاً بحرية كبيرة، فإن البلاد اضطربت أمورها. ولما اختلف الورثة القرمنليون على الحكم (١٧٩٨ ـ ١٨٣٥) دخلت فرنسة وبريطانية والولايات المتحدة في منافسة حول ليبيا، ويمكن اعتبار هذه الفترة بدء التدخل الاجنبي في البلاد.

شدت الدولة العثمانية عزيمتها أخيراً وأعادت ليبيا الى حظيرة السلطنة، لكن هذا لم يضع حداً للفتن والاضطرابات. يضاف الى هذا ان ليبيا أصابها الجفاف أكثر من المألوف، وخاصة سنة ١٨٧١ ـ ١٨٧٢، كما ان الكوليرا حلت بها (١٨٥٠) وقد مات بسببها ٨٠٠ شخص في ثلاثة أشهر في طرابلس وحدها. ومع ذلك فإن الدولة قامت ببعض الأعمال الادارية والتنظيمية والتحصينية. ولا شك ان احتلال فرنسة للجزائر (١٨٣٠) ولتونس (١٨٨١) واحتلال بريطانية لمصر (١٨٨٢) كان له أثر في محاولة الدولة العثمانية لتحسين أوضاع البلاد. الا ان الذي يجب ان يذكر أيضاً ان هذا الاحتلال بالذات هو الذي حمل ايطالية على الاتجاه بكليتها نحو ليبيا (وخاصة بعد فشلها في احتلال الحبشة ١٨٩٦).

وفي القرن التاسع عشر، كما كان الأمر من قبل، كانت التجارة الصحراوية مصدراً للثروة في ليبيا. على ان قيام القوافل وتنقلها كان مرتبطاً بالأمن وإرضاء القبائل في الطريق. وقد خفت تجارة الصحراء بالنسبة لطرابلس لأن توسع فرنسة في افريقية الغربية والاستوائية حوّل التجارة غرباً بدل الشمال. أما في برقة فقد استمرت التجارة الصحراوية. وكانت القوافل تحمل الذهب وريش النعام والعاج والصمغ العربي والنطرون. وكانت ليبيا تنتج الحبوب والزيتون والاثمار الحمضية. وكثر الاهتمام بجمع الحلفا (الاسبارتو) ونقله الى الخارج ليستعمل في صنع الورق وغيره.

ساهمت ليبيا في حركات الاصلاح الاسلامية الكبرى التي عرفها العالم الاسلامي. فالسنوسية، مع ان مؤسسها السيد محمد بن علي السنوسي كان جزائري المولد حجازي

النشأة، فإن عمله الأساسي تم في ليبيا لما انشأ الزاوية البيضاء في الجبل الاخضر (١٨٤٣)، التي ظلت مركز الحركة حتى الانتقال الى الجنوب (١٨٥٦). ولما توفي السيد محمد بن علي تولى زعامة الحركة ابنه السيد المهدي (١٨٥٩) واستمر في ذلك الى ١٩٠٢. وقد نقل هذا مركز السنوسية الى الكفرة (١٨٩٥). والدعوة التي قام بها السيد محمد بن علي، أساسها العودة الى الاسلام الصحيح بعد ازالة ما علق به من أوهام العوام. فكان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الأساس الوحيد الصحيح للإسلام. وكانت الزاوية نقطة الانطلاق للتعاليم الاصلاحية الاسلامية. لكنها كانت الزاوية العاملة المجدة التي تزرع الارض المحيطة بها وتحرس التجار وتمنع القتال بين القبائل وتعلم الأطفال والكبار وتدرب الشباب (الجغبوب) على فنون القتال.

أشرنا الى ان ايطالية أخذت تلقي بناظريها الى ليبيا وخاصة بعد ان ابتلعت فرنسة تونس (١٨٨١) وبريطانية مصر (١٨٨٢). وبدأت تتسلل فعلاً في ليبيا. ففتحت المدارس في طرابلس وبني غازي، كما انها انشأت فروعا لبنكو دي رومه في البلاد وأخذت تقرض الأهالي الاموال لقاء ارتهان الارض. أما بالنسبة الى الدول الاوروبية فإنها نتيجة للاتفاقات والمساومات التي تمت فيما بينها، أطلقت يد ايطاليا في ليبيا اعتباراً من سنة ١٩٠٩.

وأخيراً هاجمت ايطالية ليبيا في ايلول (سبتمبر) ١٩١١ وبدأت عملية احتلال، جمع بين أساليب العنف والشدة والفظاعة والهمجية بشكل غريب. وهذه الحرب التسلطية امتدت على فترتين ١٩١١ ـ ١٩١٧ و١٩٢٣ ـ ١٩٣٢. وجاءت ايطالية ليبيا مجهزة بالعدة والعدد وأساليب التخريب والتدمير ونية البطش ورغبة الاستيلاء على الارض بعد القتل. وقد نجحت في احتلال الارض وعذبت الخلق وقتلت الآلاف والآلاف وجوعت الآلاف والآلاف، ولكن الذي لم تستطع ايطالية أن تفعله في ليبيا هو أن تسحق «الشعب». كل ليبي قاتل دفاعاً عن وطنه وأهله ودينه؛ فاستشهد من استشهد، وترمل من ترمل، وتيتم من تيتم. ولكن ليبيا وأهلها كانوا، فرادى ومثنى وجمعا، نموذج الجهاد. لكن هؤلاء الليبيين وهذا الجهاد كان له رمز هو السيد عمر المختار، الذي كان قلب الحرب النابض سنوات طويلة حتى وقع أسيراً بيد الطليان وحوكم وحكم عليه بالاعدام شنقاً، ونفذ فيه الحكم في السلوق في ايلول (سبتمبر) ١٩٣١. وقد شعر كل ليبي يومها كأن حبل المشنقة كان يلتف حول عنقه.

وايطالية المنتصرة استولت على الارض الجيدة (٤٥٠,٠٠٠ هكتار) وأعطتها للمعمرين الايطاليين الذين بلغ عددهم نحو ٧٠,٠٠٠ سنة ١٩٣٩. وجَهَّلَت الحكومة أهل البلاد إذ حرمت على العرب التعليم الا أقله. وامتص الايطاليون عصارة القوم جيلاً كاملاً، فلم يمكنوهم الا من العمل البسيط العادي.

لقيت ليبيا، وخاصة برقة، الامرين في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) إذ

كانت مسرحاً للقتال. ولما احتل الجيش البريطاني الاجزاء الشمالية من البلاد (١٩٤٢) واحتل الفرنسيون الفزان، خرج الايطاليون رسمياً من ليبيا (ان جميع السكان الايطاليين المدنيين خرجوا من برقة مع الجيش الايطالي المنسحب). وظلت البلاد تحت ادارة بريطانية (في الشمال) عسكرية أولاً ثم مدنية، وتحت ادارة فرنسية عسكرية في الجنوب الى سنة ١٩٥٠. وكان مستقبل ليبيا متأرجحاً لأن كلا من الدول الكبرى كانت تريد ان يكون لها حصة من الغنيمة ـ نعم لقد اعتبرت ليبيا، مثل غيرها معها وقبلها، غنيمة حرب يجب ان يقتسمها القوم المنتصرون! وأخيراً أصدرت الأمم المتحدة قراراً (تشرين الثاني/نوفمبر ـ ١٩٤٩) بأن تستقل في موعد لا يتجاوز مطلع ١٩٥٢. وفي الواقع فقد أعلن استقلال «مملكة ليبيا المتحدة» في ٢٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥١. وفي سنة ١٩٦٣ عدل الدستور بحيث أصبحت ليبيا «وحدة سياسية واحدة» لا «ثلاث ولايات متحدة».

كانت ليبيا قد بدأت تفيد من النفط الذي اكتشف بين سنتي ١٩٥٥ و١٩٥٩، والذي تدفق من خمس وثلاثين بئراً (١٩٦٠) وكان نتاجها نحو ٩٣,٠٠٠ برميل في اليوم. وفي هذه الاثناء عقدت اتفاقات مع بريطانية (١٩٥٣) والولايات المتحدة (١٩٥٤) لإقامة قواعد عسكرية لهما في البلاد. وفي الفاتح من ايلول (سبتمبر) ١٩٦٩ قامت الثورة في ليبيا، فألغت الثورة النظام الملكي، وألغت الاتفاقات العسكرية (١٩٧٠)، وصادرت أملاك الايطاليين (نحو ٢٥,٠٠٠) في السنة ذاتها.

وفي ربيع ١٩٧٣ أعلن العقيد معمر القذافي الثورة الثقافية والنظرية العالمية الثالثة (التي انتظمها الكتاب الاخضر فيما بعد). ويمكن القول بأن ليبيا تسير على قاعدتين: الاولى ان القرآن الكريم هو أساس الحياة فيها، وان القومية العربية هدفها الذي تسعى الى تحقيقه. (النظرية العالمية الثالثة سنعود اليها قريباً). وفي ٢ آذار (مارس) ١٩٧٧ أطلق على ليبيا اسم الجماهيرية الليبية العربية الاشتراكية الشعبية. ويومها قدم العقيد القذافي الى المؤتمر الشعبي العام «النظرية العالمية الثالثة».

الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية الشعبية

السلطة في هذه البلاد بيد الشعب الذي يمارسها عبر مؤتمر الشعب العام (الذي يجتمع مرة كل ثلاث سنوات، او عندما تدعو الحاجة الى عقد مؤتمر الشعب العام وهو الهيئة المشرعة) وهو مصدر السلطة. وثمة المؤتمرات الشعبية الاساسية التي تلتئم في المراكز الادارية للمحافظات السبع عشرة. وهناك لجان شعبية لجميع فئات الشعب الليبي والعاملين في مختلف النواحي ـ الزراعة والتعليم والطب وبقية الاعمال.

وجميع الاعمال في البلاد ـ من الجامعات الى المدارس، ومن المشاريع الزراعية الكبرى الى أصغر مشروع زراعي، ومن التجارة الخارجية الى الحوانيت الصغيرة، ومن

الفنادق الضخمة الفخمة الى الفنادق الصغيرة وغير ذلك من الامور ـ تديرها لجان شعبية. فإذا كانت المؤسسة مما يمكن ان يمتلك، كفندق مثلاً، يمتلكه صاحبه والعاملون فيه فيكون الجميع شركاء لا اجراء، ويديرونه كذلك. أما إذا كان مصلحة عامة، كالجامعة، فإن اللجنة الشعبية للجامعة هي التي تسيرها. فالواقع ان الاساس المتبع هو التسيير الذاتي مع التملك (حيث يمكن ذلك). والمشرفون على الأعمال الادارية العامة، أي الذين يسمون وزراء في الدول الاخرى، هم في الجماهيرية «امناء» للجان الشعبية لتلك القضايا.

الحياة الاقتصادية

قبل استخراج النفط بكميات تجارية في الخمسينات كانت ليبيا تعتمد على الزراعة والثروة الحيوانية في مصادر ثروتها، ولم تكن هذه تغطي أكثر من نصف نفقات الموازنة العادية ومشاريع التنمية. لكن بين ١٩٦٢ و١٩٦٨ ارتفع الدخل القومي من ١٣١ مليون دينار ليبي الى ٧٩٨ مليون دنيار ليبي (أما الدخل القومي العام فقد ارتفع من ١٦٣ م دل الى ٩٠٩ دل)، وكان النفط يكوّن (١٩٦٨) ٥٢٪ من هذا الدخل العام. أما في سنة ١٩٧٤ فقد بلغ هذا الدخل ٣,٥٣٤ م دل. وقد وصل عام ١٩٧٩ نحو ٥,٦٠٠ م دل.

الزراعة والثروة الحيوانية: تعنى ليبيا بالقطاع الزراعي عناية كبرى. فالمياه الجوفية تستغل الآن استغلالاً منظماً، بحيث يمكن ان يستفاد منها دون استنزافها. وقد أصبحت الاراضي المروية المستغلة تقدر بنحو ٣٠٠,٠٠٠ هكتار. وهناك مشاريع زراعية كبيرة في ليبيا، وأهمها: مشروع الكفرة الزراعي لاستغلال ١٠,٠٠٠ هكتار، ومشروع تاورغة لاستصلاح ٣,٠٠٠ هكتار، ومشروع استصلاح أراضي السرير، ومشروع الجبل الاخضر، ومشروع سهل جفارة، ومشروع وادي القطيرة. وقد تم بناء سد وادي جارف (١٩٧٦) وهو واحد من أكبر السدود في ليبيا. وخصص (١٩٧٤) ٣,٤ مليون دينار ليبي لستة مشاريع، مساحة الارض التي تشملها تبلغ ١٠,٠٠٠ هكتار. وأكبر مشروع زراعي انمائي في ليبيا هو مشروع خصص له ٧٠٠ م دل لعشر سنوات (١٩٧٣ ـ ١٩٨٣). ويمكن القول اجمالاً ان نحو ٥٠٪ من السكان في ليبيا يعملون في المشاريع الزراعية. وقد قدرت الاراضي المستغلة في ليبيا على النحو التالي: الارض الصالحة للزراعة ٢,٤٠٠,٠٠٠ هكتار، والارض التي تستغل دوما ١٤٤,٠٠٠ هكتار، والمراعي ٦,٧٨,٠٠٠ هكتار، والغابات ٥٣٤,٠٠٠ هكتار.

والثروة الحيوانية الليبية يدخل في عدادها (١٩٧٧): ١٥,٠٠٠ من الخيل و٧٣,٠٠٠ حمار و١٥٢,٠٠٠ من الابقار و٦٠,٠٠٠ من الابل و٣,٠٠٠,٠٠٠ من الخرفان و١,٢٥٠,٠٠٠ من الماعز و٥,٢٠٠,٠٠٠ من الطيور. وتنتج هذه سنوياً: ٦٧,٠٠٠ طن من اللحوم و٦١,٠٠٠ طن من الحليب و٦,٦٠٠ طن من الصوف و٩,٨٠٠

طن من الجلود. أما الغلات الزراعية فهي سنوياً: ٢٠٠,٠٠٠ من الشعير و٧٠,٠٠٠ طن من القمح و١٠٠,٠٠٠ طن من الزيتون و٢٨,٠٠٠ من الحمضيات و١٥,٠٠٠ من الفول السوداني ونحو ٦٠٠٠ طن من اللوز و٢٠٤,٠٠٠ طن من البندورة و٧٠,٠٠٠ طن من التمر و٨٠,٠٠٠ من البطايا و١٢,٠٠٠ من العنب. وقد أخرج الصيادون نحو ٥,٠٠٠ طن من السمك. وسنتحدث عن مشروع القره بوللي الزراعي فيما بعد.

الصناعة: في ليبيا صناعات تقليدية أهمها صناعة البسط (الزرابي). وهناك صناعة المواد الغذاية. وقد نشطت صناعات أخرى بسبب وجود النفط، كما ان هناك مشاريع كبرى صناعية، الأساس فيها النفط كالصناعات البتروكميائية، كما ثمة تفكير حتى في انشاء صناعات ثقيلة مثل بناء السفن. أما الصناعات القائمة فهي صناعة المواد الغذائية (منتوجها نحو ٢٠ م دل) والتبغ (٢١ م دل) والكيميائيات (١٠ م دل) والاسمنت (١٢ م دل) والمرطبات (٥ م دل) والمنتوجات المختلفة (٢,٥ م ذل).

التجارة الخارجية: تصدر ليبيا (عدا عن النفط) الغلات الزراعية وتستورد المصنوعات. وقد بلغت واردات ليبيا في السنوات الاخيرة نحو ١,٢٠٠ م دل والصادرات كانت (١٩٧٧) نحو ٣,٠٠٠ م دل. والدول التي تصدر الى ليبيا بضائعها التي تلزمها هي: ايطالية (٢٥٪) والمانية الاتحادية (١٦,٨٪) وفرنسة (٩,٩٪) واليابان (٦,٧٪) وبريطانية (٥٪). أما البلاد المستوردة للنفط الليبي فهي بريطانية وفرنسة والمانية الاتحادية وايطالية والولايات المتحدة.

مشروع تنمية: نضع هنا أمام القارىء مشروع تنمية ١٩٧٦ ـ ١٩٨٠ كي يتضح له مدى الاهتمام الذي تبذله ليبيا في سبيل الافادة من ثروتها لوضع اقتصادها على أسس صحيحة. فمشروع التنمية هذا خصص له أول الامر ٧,٥٣٥ م دل. ثم عدل المشروع فجعل المبلغ المخصص له ٩,٢٥٠ م دل. وأهم أبواب الانفاق في هذا المخصص الجديد هي: المشاريع الزراعية، بما في ذلك استصلاح الاراضي وإقامة السدود، ١,٦١٤ م دل؛ والصناعة ١,٢٠٤ م دل؛ والاسكان ١,١٣١ م دل؛ والمواصلات والطرق ٩٣٠ م دل؛ والتعليم والصحة والضمان ٨٢٨ م دل. وهذه المبالغ تعادل نحو ٦٢٪ من موازنة المشروع. وهذه ناحية من نواحي فلسفة التنمية في الجماهيرية وهي: الاصرار على الانتاج.

الانطباع الذي يصل عليه زائر ليبيا في هذه الايام هو ان مجتمع الجماهيرية مجتمع حركة. الناس فيه منتجون، وهم شركاء لا اجراء. وكل يؤمن له مسكن وسيارة (ان كان ثمة حاجة اليها مثل المشاريع الزراعية الكبرى).

ومن الامور التي سارت في ليبيا بنشاط كبير، شؤون التعليم على مستوياته المختلفة. ففي اثناء الحكم الايطالي البغيض كان التعليم في ليبيا (مطليًّنا)، شأنه في

ذلك شأن مرافق الحياة الاخرى. وقد كلفت الحكومة الايطالية المستشرق الاستاذ كارلو نلينو ان يضع منهاجاً للتعليم في ليبيا. فلما أتم وضعه رفضته الحكومة، باعتبار ان نلينو لم يراع في منهاجه الناحية الاستعمارية. ووضعت الحكومة منهاجاً، ظل في مبدأه واحداً، وان اختلف بين وقت وآخر. والأصل فيه ان يحرم العرب التعليم الا أقله ـ كما ونوعاً. فقد اقتصر التعليم (بالنسبة للعرب) على التعليم الابتدائي فقط، وكانت مدته خمس سنوات يتعلم فيها الطفل العربي اللغة العربية في السنوات الثلاث الاولى، الى جانب اللغة الايطالية. أما في السنتين الاخيرتين من مرحلة التعليم الابتدائي فكانت اللغة الايطالية هي اللغة الرئيسية، والعربية اللغة الثانوية. وهذه المدارس لم يتجاوز عددها المئة في ليبيا كلها حتى سنة ١٩٣٩، وكان فيها نحو عشرة الآف تلميذ. وكان في البلاد عدد كبير من الكتاتيب القرآنية التي كانت تقوم بتعليم الاطفال الذين لم تكن أمامهم فرص للالتحاق حتى بالمدارس الابتدائية، إذ إنها كانت دون حاجة البلاد عدا. وقد بلغ عدد هذه الكتاتيب (١٩٣٩) نحو خمسمئة ضمت ما يزيد عن عشرة آلاف تلميذ، أما بالنسبة الى الطلاب العرب والتعليم الثانوي فقد سمح لبعض العرب الليبيين بدخول المدارس الثانوية (١٩٢٨) وكان هذا في طرابلس فقط. أما عدد الطلاب العرب الذين سمح لهم بالذهاب الى الجامعات الايطالية فكان محدوداً جداً.

والطائفة اليهودية في ليبيا كانت أوضاعها التعليمية أفضل بكثير؛ اذ إنها كانت تؤيد الاستعمار الايطالي والحكم هناك. ومن ثم كان لليهود في منطقة طرابلس ١٩ مدرسة ابتدائية (فيها نحو ٢٧٠٠ تلميذ ومدرستان مهنيتان ثانويتان) (نحو مئة طالب) وخمس عشرة مدرسة خاصة كان يؤمها نحو ألفين من الطلاب. وكان لليهود في برقة خمس مدارس ابتدائية. ويظهر من هذه الارقام البون الشاسع بين المعاملتين.

وفي فترة الادارة البريطانية لمنطقتي طرابلس وبرقة (١٩٤٣ ـ ١٩٥١) كانت ثمة عناية بالتعليم لكن أقل مما كان متوقعاً. وقد طبق المنهاج المصري في التعليم، وجاء البلاد مدرسون مصريون. وفي سنة ١٩٥٠، أي في أواخر عهد الادارة البريطانية والفرنسية (فزان) كان في البلاد من المدارس الابتدائية ٢٠٣ مدرسة (١٣٤ في منطقة طرابلس و٥٤ في منطقة برقة و١٥ في فزان) وكان ثمة أربع مدارس ثانوية في طرابلس ومدرستان ثانويتان في برقة فقط، وأنشئت ثلاث دور لتدريب المعلمين (كان منها اثنتان في طرابلس وواحدة في برقة). وكان عدد الطلاب الاجمالي يقرب من ٣٢,٠٠٠ (منهم نحو ٢٤,٠٠٠ في طرابلس ونحو ٨,٠٠٠ في برقة).

اهتمت ثورة الفاتح بالمدارس اهتماماً كبيراً، كما انها نوَّعت المدارس ومناهجها وأساليبها في السنوات الأخيرة. وقد أظهرت الاحصاءات ان ليبيا كان فيها (١٩٧٧) من

المدارس الابتدائية ٢,٠٤٢ مدرسة (فيها ٥٥٦,٠٠٠ تلميذ ويعنى بهم نحو ٢٥,٠٠٠ معلم) و٥١٠ مدارس اعدادية (فيها ٢٣,٠٠٠ تلميذ يعلمهم نحو ٨,٠٠٠ مدرس)، وهناك ٧٤ مدرسة ثانوية (فيها نحو ١٨,٠٠٠ تلميذ لهم ١,٧٢٥ مدرس). يضاف الى هذا ٩١ مدرسة لإعداد المعلمين (فيها نحو ٢١,٠٠٠ تلميذ لهم ١,٨٣٢ استاذاً) و١٢ مدرسة مهنية (فيها ٣,٢٨٥ تلميذاً ويقوم بالتدريس والتدريب ٣٤٠ استاذاً).

انشئت الجامعة الليبية في بني غازي (١٩٥٨) وكان فيها كليتان، واحدة للتربية والأخرى للتجارة. وفي السنة التالية فتحت كلية العلوم في طرابلس، وأضيفت كليات أخرى في السنوات التالية. وفي سنة ١٩٧٣ صار لليبيا جامعتان: جامعة الفاتح في طرابلس وجامعة قار يونس في بني غازي. وجامعة الفاتح فيها الكليات العلمية النظرية والتطبيقية جميعها وفيها كلية للتربية، أما الكليات النظرية فهي في قار يونس. ويقارب عدد الطلاب في الجامعتين العشرين ألفاً. يضاف الى هذا مئات الطلاب الذين يتخصصون في الخارج. وحري بالذكر ان مشروع تنمية ١٩٧٦ ـ ١٩٨٠ خصصت فيه مبالغ طائلة لتطوير التعليم (١٩٠٠ م دل).

مشروع القره بوللي الزراعي

نقدم هذا المشروع كنموذج لواحد من أكبر مشاريع التنمية الزراعية في ليبيا، وفيه الدلالة الكافية على مدى عناية القائمين على الأمور في ليبيا بالزراعة (وهناك ١٢٠ مشروعاً مختلفة الدرجات معدة للتنفيذ أو الدرس). يقع هذا المشروع الى الشرق من مدينة طرابلس على نحو خمسة وخمسين كم. والهدف الذي يرمي اليه مخططو هذا المشروع هو انشاء وتطوير ١١٥٠ مزرعة بمساحة قدرها ٢٦,٥٠٠ هكتار. وهذه المزارع موزعة على أربعة أسس: مزرعة مزيج من الزراعة المروية والبعلية (٢٦ هكتار للواحدة)، ومزرعة مروية صغيرة المساحة، ومزرعة مروية متوسطة المساحة، ومزرعة تحت النظامين البعلي والمروي ولكنها متوسطة المساحة. هذا التنويع في المساحة والتقسيم الداخلي أخذ فيه بعين الاعتبار صلاحية الارض لنظام معين ولمزروعات معينة ومنوعة. وبذلك يمكن الاستفادة من الأرض الى أقصى حد. فالمشروع يرمي أصلاً الى استغلال الارض. لكن مثل هذا الاستغلال يحتاج الى اليد العاملة المدربة للعمل في الارض والاشخاص المدربين الذين يساعدون اجتماعياً. وهذان الأمران يتمان في المزرعة ـ الفلاح وزوجته وأبناؤه وبناته! والتعاون ـ عن طريق الجمعيات التعاونية ـ لتوفير الآلات وغيرها، هو الآخر يحتاج الى تدريب. فالمزرعة تصبح عندها أرضاً مستغلة وفلاحاً ينتج وأسرة تعمل. ولذلك يمكن توفير دخل لا يقل عن ١٥٠٠ دينار ليبي في السنة.

يعيش الفلاحون في بيوت تقوم في الارض ذاتها، وهذه مزودة بمخازن وحظائر.

لكن الخدمات على اختلاف أنواعها يتم الحصول عليها في القرى المنشأة على المشروع وهي خمس.

كانت بداية تنفيذ هذا المشروع سنة ١٩٧٤. وأمامي الآن تقرير يبين ما تم من انجاز المشروع الى تاريخ ١٩٨٠/١٢/٣١. وهذه المنجزات هي أولاً تجهيزات ثم دراسات ثم استصلاح الارض وإنشاء الطرق. وقد شاهدنا المشروع ووجدنا (شباط/فبراير ـ ١٩٨٢) ان أموراً أخرى قد تم عملها بالإضافة الى التقرير. فقد درست الارض مساحة وجواً ووضعت الخرائط اللازمة لذلك. كما ان المياه والتربة درست درساً دقيقاً (في ثلاثين بئراً للمياه، ومساحة ٢٦,٥٠٠ هكتار بالنسبة للأرض). واستصلحت أراض جديدة ونميت مزارع قائمة (١٥٠٠ هكتار). وقد تم حفر ١٤٦ بئراً انتاجية بعد دراسة المياه، ومعنى هذا ان شبكات الري قد مددت. وأقيمت المحطات لتحويل الكهرباء اللازمة للعمل الصناعي (اللازم للزراعة) وللاستهلاك البيتي. وزرعت نحو مليوني شتلة، مصدات للرياح، من مختلف الأنواع. كما غرست نحو ١,٧٠٠,٠٠٠ شتلة اشجار فاكهة من أصناف متعددة. وتم تنفيذ طرق رئيسية بطول نحو ٢٦٥ كم وطرق ترابية بطول نحو ٨٣٥ كم. والواقع ان تنمية الخضار في بيوت من البلاستك كان شيئاً بالغ الاتقان. وتكلف الدونم الواحد ـ من انشائه حتى يبدأ بالانتاج ـ بين ٩٠ و١٠٠ ألف دينار ليبي.

وفي المشروع أسر من الفلاحين تقطن البيوت الحديثة وتعمل في الانتاج بأدوات حديثة، ولعل هذا يجعلها تفكر تفكيراً جديداً في المستقبل.

ليبيا بلد يقع على البحر المتوسط. وقد كان لها اتصال ببقاع الارض المحيطة بهذا البحر عبر العصور التاريخية المختلفة، بقطع النظر عن طبيعة هذا الاتصال ونتائجه. والحال لم يتغير من حيث اتصال ليبيا بالجيران والاقطار المقابلة، الا ان الاتصال بهؤلاء يتم الآن براً وبحراً وجواً. وهذا الاتصال الجوي (والاتصالات السلكية واللاسلكية) تجعل أقطار الارض الاربعة في متناول أيدي الجماعات المختلفة. فالطرق المزدوجة تربط ليبيا بمصر شرقاً وتونس غرباً في الطريق الساحلي الذي يبلغ طوله ١٨٢٢ كم. وهناك طريق آخر يبدأ عند نقطة تبعد ١٢٠ كم عن مصراته جنوباً، ويسير الى سبها فغات قرب حدود الجزائر (١,٢٥٠ كم). وثمة طريق تبدأ من سبها وتجتاز الصحراء الى حدود تشاد والنيجر. وهناك فروع أخرى (ودان الى سرت والمرج ـ لملوده). وفي غرب البلاد ١٢٠٠ كم من الطرق الجيدة ومن هذا النوع توجد ٥٠٠ كم في الشرق.

وموانىء ليبيا هي طرابلس وبني غازي ومرسى بريغه والسدير. والاولان قديمان، أما بريغه والسدير فموانىء نفطية الاصل والفعل. مرسى بريغه (١٩٦١) لناقلات البترول، وثمة انبوب يصل المرسى بآبار زليطن. وخط آخر من الأنابيب يصل مرسى

حـريقـة بآبار السـدير، وأنـبوب آخـر ينقل النفط من هـذه الى طبـرق وثالث ينقله الى الزويتينة (١٩٦٨).

والخطوط الجوية الليبية تتم شبكة الاتصال بين ليبيا والبلاد العربية وأوروبة وبعض اجـزاء افـريقيـة. أما الخطوط الجـوية العالمـية فإنهـا تجعل من البـلاد هدفاً لرحلاتها.

الصحافة في ليبيا مؤممة (١٩٧٣)، في يومياتها وأسبوعياتها وشهرياتها. ومن أهم الدوريات ما تنشره كليات الجامعتين في المجالات العلمية والتربوية والادبية.

٥ ـ موريتانيا

جمهورية موريتانيا الاسلامية تحتضن في جزء منها آخر الاطراف الصحراوية القاحلة، وتفتح صدرها، في الاجزاء الاخرى، لمظاهر الحياة، بدءاً من البسيط منها حتى المعقد والمركب. تقع ثلاثة أرباع هذه البلاد جنوبي مدار السرطان. وموقعها الجغرافي ذو أهمية كبيرة: فالرمال والجفاف والرياح هي التي تعين الأوضاع الحياتية فيها. والماء هو الذي يحدد المستوى الحياتي عبر هذه الرقعة الواسعة من الارض.

تغطي الصحراء ٦٠٪ من مساحة البلاد. ونصف هذه المساحة تنطبق عليها الأوصاف المألوفة المعروفة للصحاري: المساحات الشاسعة، والرقاع التي تغطيها الرمال، والفراغ، وهذه تتداخل معها كثبان الرمال المتنقلة والتلال والهضاب التي تبريها اختلافات الحرارة الكبيرة والرياح المحرقة التي تسوق الرمال أمامها أو تحملها معها، فتحف هذه بالهضاب والتلال فتبريها.

والأحوال الصحراوية القاسية توجد في المنطقة التي تمتد الى هضبة دراع شمالاً، وتمتد شرقاً بحيث تحتوي الجوف، وفي الجنوب تصل الى هضبتي ولاطة وتيشِت. أما في الغرب فتحدها منطقة وَرَان. وفي منطقة الجوف بئران معروفان وتفصل بينهما مسافة تقرب من خمسمئة كم، من الأراضي الجافة.

وأشد اجزاء الصحراء الموريتانية هولاً هي منطقة السراب الواقعة الى الشرق من ادرار وتاغَنْت. وهذه لا يعرف فيها سوى مكان واحد للاستسقاء. وفي هذه المنطقة الصحراوية، كما في غيرها من المناطق، قد تهبط أمطار غزيرة فوراً، بين حزيران (يونيو) وتشرين الاول (اكتوبر) فيعقب هذا حلة قشيبة من الأعشاب لمدة قصيرة. أما الماء فبعضه يغور في الارض، وبعضه الآخر تختطفه الحرارة الشديدة بخاراً ـ وتعود الأحوال الصحراوية الى حالتها الأصلية.

وما تبقى من الصحراء الموريتانية (أو من المناطق الصحراوية على الأصح) فذلك الذي يدور به خط يمتد من نقطة على نحو ١٦٠ كم من نواكشوط شمالاً في غرب الى اطار (في أدرار) ثم ينحني جنوباً في شرق بين تيشِت وتيجكْجا الى الهضاب الجنوبية. والصحارى الموريتانية هي أصلاً منطقة مرور وعبور ـ للجمل والبدوي.

وتقع منطقة الساحل ـ وهذا الاسم أطلقه جغرافيو العرب، على ما يبدو، على البلاد الواقعة جنوبي الصحراء، تشبيهاً لها بالساحل بالنسبة الى البحر الرملي الواسع

ـ الى الجنوب من خط يمتد شمالي الألغ وكيفا وعيون العتروس ونيما. وهنا تقع منطقة السهوب الموريتانية: هنا النباتات أكثر، والحياة الحيوانية أغنى، ومع ان ماءَها أغزر من المناطق السابقة، فالقضية لا تزال عويصة.

وتتكوّن الاجزاء الجنوبية (الغربية) من موريتانيا من الجزء المداري ـ الحار الرطب والذي تسقط فيه أمطار موسمية ـ وفيه تقوم المراعي الغنية (السافانا)؛ ثم من الجزء النهري السنغالي ـ حوض نهر السنغال ـ الغزير الامطار، الخصيب التربة والذي، لذلك، يتمركز فيه قسم كبير من سكان موريتانيا. وهو المدخل الرئيسي الى افريقيا ما وراء الصحراء.

وموريتانيا، على ما ظهر لنا، منطقة انتقالية بين شمال افريقيا والسودان ـ وهي كذلك لا جغرافياً فحسب، بل حضارياً أيضاً، على ما سيتضح فيما بعد.

تبلغ مساحة موريتانيا ١,٠٣٠,٧٠٠ كم٢. وتحدها في الشمال الغربي الصحراء الغربية (المغرب) وفي الشمال جزء من هذه الصحراء، والجزائر ومالي في الشرق والجنوب، والسنغال في الجنوب (الغربي). ولها ساحل على المحيط الاطلسي يبلغ طوله نحو ٧٠٠ كم: بلاد شاسعة واسعة، وهي سهلية على العموم. فالسهول الساحلية (البحرية) هي دون الخمسين متراً (فوق سطح البحر)، والسهول الاكثر ارتفاعاً في الداخل يتراوح ارتفاعها بين ١٩٠ و٢٥٠ متراً. وهذه السهول الداخلية الواسعة تتكون، في النهاية، من هضاب تصل بينها منحدرات خفيفة الانحدار. وقد يتخللها كثبان او تلال رملية او صخرية تصل احياناً الى ثلاثمئة متر. وأعلى مرتفع معروف هو كيدت ايجل (او كيدت الجلّ) الذي يصل نحو تسعمئة متر.

وتغطي الكثبان الرملية قرابة نصف مساحة البلاد، ارتفاعها نحو مئة متر، وتتعارض وتتلاقى في أشكال وأوضاع مختلفة.

ان الجفاف الذي يسيطر على موريتانيا يعود سببه الى ان البلاد تقع في مهب الرياح التجارية الشمالية الشرقية التي تهب دوماً على المنطقة الواقعة شمالي مدار السرطان، والتي تهب معظم أيام السنة على المناطق الواقعة جنوبه. وهناك الرياح الشرقية التي تهب على البلاد من الاجزاء الجافة. والأمطار التي تسقط على البلاد تحملها اليها الرياح الغربية من المحيط، والتي تنتشر فوق النصف الجنوبي من البلاد، في عز الصيف. ومدة الفصل الماطر، وكمية الامطار الساقطة، تتناقص باستمرار من الجنوب الى الشمال. ففيما يسقط في سيلبابي، في أقصى الجنوب، حوالى ٦٣٠ ملم من الامطار (بين حزيران ـ يونيو، تشرين الاول ـ اكتوبر)، نجد أن كيفا الى الشمال منها، تنال ٣٥٠ ملم (من اواسط حزيران ـ يونيو إلى اواسط تشرين الأول ـ اكتوبر)، وتيجكجا يسقط فيها نحو ١٧٥ ملم (بين تموز ـ يوليو وأيلول ـ سبتمبر) وأطار ينالها نحو ١٧٥ ملم أيضاً (لكن بين أواسط تموز ـ يوليو وأواسط تشرين أول ـ اكتوبر)،

ويسقط في نواذيبو (وهي بورت ـ اتيان سابقاً) بين ٢٥ و٥٠ ملم (عادة بين أيلول ـ سبتمبر وتشرين الثاني ـ نوفمبر). وبسبب التصادم الذي يحدث بين الرياح الشرقية والرياح الجنوبية الغربية، فإن الامطار تسقط غالباً بغزارة.

والحياة النباتية والحيوانية مرتبطة بدرجة الجفاف. وقد أشرنا الى النباتات السهوبية والسافانية والسودانية من قبل، فنشيرُ هنا الى الحيوانات التي تعيش في موريتانيا. ففي منطقة مراعي السافانا يعيش الاسد الى جنب الوعول، وفي جهات أفّوله، في الجنوب، تعيش قطعان من الفيلة. وتسرح في السهوب الغزلان وطيور النعام وما شابهها. وحيث تتجمع المياه في بحيرات صغيرة يعيش التمساح.

شيء من التاريخ

يبدو من الآثار التي عثر عليها في موريتانيا في العقود الاخيرة، ومن الرسوم والنقوش الصخرية للأدوات والأسلحة، والحيوانات التي كانت تعيش في تلك المناطق، ان البلاد كانت، قبل بضعة آلاف من السنين، تتمتع بمناخ يختلف كلياً عن مناخها الحار الجاف الحالي. وحقيقة الامر ان موريتانيا، بوصفها جزءًا من الصحراء الكبرى، كانت الى قبل ثمانية آلاف سنة، أو ما الى ذلك، تسقط فيها الامطار، وكانت فيها أنهار تكوّن مجموعتين رئيستين تصب الاولى في حوض النيل، وتتجه الاخرى الى حوض النيجر. والقيعان الجافة والبحيرات التي لا تزال قائمة، وأكبرها بحيرة تشاد، شاهد على ذلك. لكن الأحوال المناخية الصحراوية أخذت في الظهور، لأسباب لم يتفق العلماء بعد عليها، حتى سادت منطقة الصحراء الكبرى. وفي هذه الاثناء انكفأ سكان الصحراء (الناشئة) اما شمالاً نحو الشمال الافريقي ومصر، وإما جنوباً إلى المناطق المدارية والاستوائية. ومن ثم فإن العصر الحجري الحديث شهد جماعات مستقرة تعمل في الزراعة وكانت تقطن الصحراء. والبداوة هي، نسبياً، أمر طارىء على الصحراء الكبرى، بما في ذلك موريتانيا.

والذي اتفق عليه الباحثون هو ان القبائل الصحراوية التي نجدها في القرون المسيحية الاولى، وأهمها صنهاجة والطوارق، كانت قد توغلت في الصحراء، ولا شك في أنها اختلطت بمن كان قد تبقى من السكان في تلك المناطق. على ان «حركة» هذه القبائل و«تنقلها» كانا قليلين. وكانت القبائل تعتمد، اقتصادياً، على ما يتسرب اليها من التجارة من الشمال والجنوب، بالاضافة الى ما تنتجه الواحات المنتشرة في موريتانيا، على قلتها.

إلا ان صنهاجة وصلها الجمل قبيل الفتح العربي الاسلامي. والجمل وصل الى الشمال الافريقي متأخراً، مع أنه كان معروفاً في مصر منذ أيام البطالمة (٣٠٠ ـ ٣١ ق.م.) على أقل تعديل. وكان في اقتباس الجمل وسيلة للسفر والتنقل والحمل في تلك المناطق ـ في موريتانيا التي تهمنا الآن ـ تحرير للمجموعة من السيطرة الشمالية أولاً،

ثم أخذت هذه المجموعة بالسيطرة (ولو جزئياً) على تجارة الصحراء، كما أنه منحها قوة سياسية كبيرة، فوسعت نطاق نفوذها الى ضفاف نهر السنغال.

لقد تحدثنا عن الفتوح العربية الاسلامية وانتشار الاسلام في الاجزاء الغربية من الصحراء الكبرى وقيام المرابطين وما ترتب على ذلك من نشر الاسلام في أوداغُشْت وغانة من قبل (في البحث عن المغرب المنشور في العدد (٢١) من مجلة شؤون عربية)، لذلك لا نرى حاجة الى العودة الى ذلك هنا. وقيام دولة الموحدين في (مراكش) المغرب لم يكن له أثر مباشر في موريتانيا، لأن هذه الدولة اتجهت نحو شمال المغرب والجزائر وتونس وطرابلس والاندلس. على أننا نود ان نذكر القارىء بأن انتصار المرابطين في موريتانيا ترك أثره في سكانها البيضان (والسودان) في الادارة وعلوم الدين، كما أنه أدى الى انتشار الاسلام من غرب البلاد الى شرقها في منطقة المراعي (السافانا) السودانية. يضاف ان انتشار الاسلام بين الطبقات الرئاسية والثرية أدى الى اهتمام خاص بأداء فريضة الحج، وهذا قوّى الصلات بين سكان تلك الاصقاع والمشرق العربي. وقد أصبح هذا الموكب من الحجيج يسمى فيما بعد موكب الحج الشنقيطي (نسبة الى شنقيط في موريتانيا). بل ان اسم شنقيط أصبح تدريجياً هو الاسم الذي يطلق على المنطقة بأسرها في المشرق العربي.

ولنذكر أنه في أواسط القرن الحادي عشر للميلاد دخلت المغرب العربي قبائل بني هلال وبني سليم. والاولى منها هي التي وصلت تدريجاً الى المغرب الاقصى. وفي أواخر القرن الثالث عشر أخرج أبو يوسف يعقوب المريني سلطان المغرب (١٢٥٨ - ١٢٨٦) جماعة من القبائل الهلالية من بلاده، فاتجهت جنوباً. هؤلاء هم بنو مَعْقِل، الذين كانوا قلة في العدد، لكنهم كانوا معروفين بالشجاعة والشهامة. وقد استقروا في شمال موريتانيا، وانضم اليهم الكثيرون ممن دخل في حمايتهم، ومن ثم تكاثر عددهم، وأصبحوا قبائل وعشائر وجماعات كان أكبرها أثراً بنو حَسّان. ومع أننا لا نعرف الكثير عن بني حسان (المعاقلة) لفترة تمتد نحو قرنين من الزمان، فإننا نجدهم قد أصبحوا أصحاب الامر في موريتانيا منذ القرن الخامس عشر. ومن المؤكد أنهم تزاوجوا مع سكان البلاد، فازداد بذلك عددهم، وقويت شوكتهم. ولعلّ أكبر أثر لبني حسان هو أنهم نشروا العربية في موريتانيا، وهي اللهجة المعروفة باسم الحسانية، التي يتكلمها نحو أربعة أخماس سكان البلاد، وتقرأها نسبة أكبر من ذلك. والواقع ان بني حسان (المعاقلة) هم مزيج من العرب القادمين وصنهاجة البربرية. وهم أكثرية السكان في موريتانيا.

وكان من نتيجة سيطرة بني مَعْقل (الحسّانيين) ان صارت الامارة لهم، ودفع الباقون الاتاوة (المغارم) على من عداهم، فيما أعفوا أهل الزوايا، وهو الاسم الذي أطلق على أهل العلم، من المغارم، بحيث كانوا، الى درجة كبيرة، مساوين لبني حسّان،

أي من موريتانيا.

والذي يمكن ان يستخلص من الروايات الشفوية المتوارثة ومن الذي خلفه البرتغاليون من الذين كانت لهم علاقات تجارية مع الساحل الموريتاني (في جزيرة إرغِن أو إرغوين) وفي الداخل في ودان (ادرار) والذين دونوا أخبارهم، هو أن بني حسّان كانوا أصحاب النفوذ منذ القرن الخامس عشر، وان نفوذهم تقوّى نتيجة لحروب قامت في القرن السابع عشر. ويبدو ان بني حسّان تبلورت آدابهم ونظمهم الاجتماعية في منطقة الحوض في القرن السادس عشر.

موريتانيا الحديثة

أصبح لموريتانيا اتصال بالبرتغاليين منذ ان أخذ القوم أنفسهم بإقامة المراكز التجارية على الساحل الاطلسي، وذلك في القرن الخامس عشر. فقد قامت لهم سوق كبيرة في جزيرة إرغن، كما أقاموا مركزاً تجارياً كبيراً في ودَان (في ادرار). واهتم البرتغاليون بالصمغ العربي، من منتوجات البلاد الهامة، وكانوا يحملون المصنوعات الاوروبية الى موريتانيا.

وفي القرن السابع عشر تناوب البرتغاليون والهولانديون والفرنسيون والبريطانيون النفوذ والاستيلاء، حرباً أو بمعاهدات، على موانىء متعددة على الساحل الموريتاني في: إرغن وسان لويس والمرسي (شمالي نواكشوط) وبورتندك. وفي سنتي ١٧٨٣ و١٨١٤ تم الاتفاق أولاً بين بريطانيا وفرنسا، ثم في معاهدة باريس، على أن تكون الصحراء الموريتانية والمنطقة السنغالية الساحلية منطقة نفوذ فرنسي مطلق.

أخذت فرنسا، خلال القرن التاسع عشر، تتوسع في الداخل، رغبة منها في أن تصل بين مناطق نفوذها في موريتانيا بوجودها في الجزائر. وفي سنة ١٨٩٩ أعلن وزير المستعمرات الفرنسي أنه ينوي أن يضم المنطقة الممتدة من الضفة اليمنى (الشمالية) لنهر السنغال الى جنوب الجزائر والمغرب بما في ذلك تمبكتو تحت ادارة واحدة باسم موريتانيا الغربية.

وأخذت فرنسا تعمل في سبيل توسيع رقعة نفوذها داخلياً بدءاً من ١٩٠١. ودام العمل الاستعماري فيما سمي «التهدئة»، وهو احتلال (على نحو ما سميت العملية التي تمت من قبل في الجزائر والمغرب) الى سنة ١٩٣٤ (وهي السنة التي تم فيها احتلال المغرب) ولكنه شمل، خلال هذه المدة، الاجزاء الداخلية من الصحراء الكبرى، أي الواقعة الى الشرق من موريتانيا، وهي التي عرفت باسم افريقيا الغربية الفرنسية. وقد شملت المنطقة التي تمتد من بحيرة تشاد شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً، ومن الجزائر والمغرب شمالاً الى المحيط الاطلسي جنوباً، باستثناء الاجزاء التي كانت بريطانيا قد دخلت فيها وعلى سبيل التوسع داخلياً (وهي نيجيريا وساحل الذهب ـ غانا اليوم وسيراليون) وتلك التي كانت اسبانية قد وضعت اليد عليها وهي المعروفة

اليوم بالصحراء المغربية (الغربية). وكانت سان لويس، في السنغال، عاصمة ادارية لهذه المنطقة الواسعة. على ان موريتانيا حدّدت خطوطها الادارية (السياسية فيما بعد) سنة ١٩٢٠ لما أعلنت مستعمرة فرنسية.

وقفت موريتانيا الى جانب فرنسا في الحرب العالمية الثانية، فجندت هذه من الموريتانيين، كما جندت من بقية سكان افريقيا الغربية، جماعات قاتلت الى جانب الدولة المستعمرة. الا انه في الفترة السابقة للحرب، وبعد سنوات «التهدئة»، كان الموريتانيون يقارعون الفرنسيين إنكاراً للاستعمار. وفي سنة ١٩٤٦ (وهي السنة التي وضع فيها دستور الجمهورية الفرنسية الرابعة) فصلت موريتانيا عن السنغال، ولو ان موريتانيا ظلت تدار من سان لويس (في السنغال)، وتمت انتخابات للمجلس التشريعي الموريتاني، كما انتخب أول موريتاني (حرمة ولد بابانا) للمجلس الوطني الفرنسي. وبعد ذلك بدأت الاحزاب السياسية في الظهور في موريتانيا، وكان الاتجاهان الرئيسان هما: الانضمام الى الاتحاد الفرنسي او الاستقلال. فقد قام في البلاد «حزب الاتحاد الموريتاني» و«حزب الوفاق الموريتاني». وقد كان للثورة الجزائرية (التي بدأت أول تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٥٤) واستقلال المغرب (١٩٥٦) بعد الاحداث التي مرت بها البلاد - من اقصاء محمد الخامس عن عرشه، وتنصيب محمد بن عرفة، وثورة المغاربة، واضطرار فرنسا الى التسليم بالأمر الواقع وتوقيع اتفاق الاستقلال - أثر كبير في تطور العمل السياسي في موريتانيا. لكن السكان كانوا يتعلمون ويختبرون الاساليب السياسية والحزبية، لذلك كان هناك تنافس زاده قوة تعدد العناصر السكانية، خاصة في الجنوب والجنوب الشرقي من البلاد، كما كانت البلاد تخشى أن تفقد كيانها بسبب وجهات نظر الجيران. وعلى كل فقد اجتمع الحزبان واتحدا (شباط - فبراير ١٩٥٨) في «حزب التجمع الموريتاني» الذي أخذ على نفسه التفاوض في سبيل حصول موريتانيا على استقلال داخلي مع قبول الانضمام للاتحاد الفرنسي (ايلول - سبتمبر ١٩٥٨). وقامت أول حكومة موريتانية في الشهر ذاته. وفي الوقت نفسه قام «حزب النهضة الوطنية» الذي كان يعارض البقاء ضمن الاتحاد الفرنسي.

وفي شهر آذار (مارس) ١٩٥٩ سن أول دستور لموريتانيا وتم انتخاب أول مجلس للبلاد في ايار (مايو) من السنة نفسها. وفي ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٠ أعلنت موريتانيا الاسلامية جمهورية مستقلة ذات سيادة.

وبسبب ان موريتانيا لم تكن قد نضجت فيها بعد فكر «الأمة»، فإن تعدد الاحزاب كان له أثر سيىء على وحدتها، وخاصة بسبب الروح القبلية السائدة. وكان من أثر ذلك قيام حكومة الحزب الواحد، لكن الوحدة الوطنية كانت تهددها عوامل أخرى، منها استمرار الوجود الفرنسي في المجالات الصناعية التقنية والسياسية بوصف هؤلاء الفرنسيين خبراء، ولكنهم كانوا من الذين جاؤوا لاستعمار البلاد أصلاً.

اختارت موريتانيا النظام الرئاسي أساساً لتنظيمها السياسي. وكان مختار ولد دادا (الذي رئس أول وزارة) أول رئيس للبلاد (وحزبه هو حزب الشعب). وقد ظل في هذا المنصب حتى ١٩٧٨ إذ طاله انقلاب سلمي، فخلفه، كقائد لمجلس الثورة، ولد سالك، ولما استقال ولد سالك جاء بعده أحمد لولي (١٩٧٩). ولما اعتزل هذا المنصب (١٩٨٠) تولى شؤون البلاد وُلْد هَيْدَلا.

الحياة الاقتصادية

تكونّ هضبتا ادرار وتاغَنْت قلب موريتانيا، وهي المنطقة المعروفة محلياً باسم «تراب الحجرة»، وذلك بسبب ان سطحها يغلب عليه الصخر. وفي هذا الجزء من موريتانيا تقع واحات كبيرة، منها وادان وتيشِت وتيجكْجا واطار وولاطة. وهذه كانت مدناً ومراكز تجارية كبيرة في العصور الوسطى. ولا تزال تيجكْجا وأطار تتمتعان بأهمية تجارية نسبية الى يوم الناس هذا. ومع ان الأحوال الصحراوية تسود في الاجزاء الشمالية والغربية من المنطقة، فإن استغلال المناجم في زوَيْرات وتطوير ميناء نواذيبو (سان اتيان سابقاً) جعلها محور الحياة الاقتصادية الحديثة.

والمنطقة الجنوبية الغربية الساحلية من البلاد (ترارْزه) هي مركز لتربية المواشي. فيها تربى الماشية وتقوم زراعة هامة في المنطقة الجنوبية الغربية الداخلية (براكنا وغوغول والعصّابة). وسكان هذه الرقعة هم من البيضان والفولاني. وفي أقصى الجنوب (غويديماخا) تقوم قرى كبيرة تحيط بها حقول الذرة. وتربى الماشية في منطقة الحوض الواسعة الصخرية المكسوّة بالكثبان. وهذه المنطقة ترتبط اقتصادياً بجارة موريتانيا الشرقية، مالي. وحوض السنغال (في موريتانيا) هو السلّة الزراعية للبلاد ويسمى محلياً «الشمّامة».

الزراعة وتربية الماشية هما العنصران الاساسيان لمصادر الثروة في موريتانيا. على أن هناك عوامل مختلفة تحدد الانتاج الزراعي وإعداد الماشية في البلاد. فالأرض الصالحة للزراعة متوسطة في درجة الخصوبة؛ والمطر سقوطه محدود وقليل؛ ونهر السنغال غير منتظم في حمله الماء وسيره؛ وملكية الارض او الانتفاع بها لا يزالان غير واضحين وتتحكم فيهما أمور قبلية كثيرة؛ ومن هنا كان العمل الزراعي يتجه، مبدئياً، نحو انتاج ما تحتاجه الاسرة. وثمة نوع من المقايضة يقوم بين السكان، بدل اتباع سبل الاتجار العادية. فإذا أخذنا هذه الامور بعين الاعتبار، وأضفنا اليها العوامل الطبيعية والمناخية، لا نستغرب ان نجد ان منطقة حوض السنغال (الى الشمال من النهر نفسه)، والمعروفة بالشمامة، هي المنطقة الزراعية الرئيسة، وهذه يبلغ عرضها بين عشرة وثلاثين كيلومتراً. وتليها السفوح والأودية في تراب البيضان. والغلتان الاساسيتان هما الذرة والتمر، يضاف إليهما كميات صغيرة نسبياً من القمح والارز والقطاني والفستق (السوداني) والبطيخ والشعير واليام (وهو نبات جذري مثل

اللفت وإن كان طعمه مزيجاً من اللفت والبطاطا). وقد قدر منتوج الذرة بنحو ٦٠,٠٠٠ طن والتمر بنحو ١٥,٠٠٠ طن (في أواسط الستينات). والتمر هو من منتوج هضاب ادرار وتاغَنْت والعصبة وأفوّله.

وتربية الماشية، وهي المهنة الاساسية لسكان موريتانيا، تكاد تكون العامل الوحيد الثابت في حياة السكان. فالموريتاني يعتمد على ماشيته في غذائه، باللحم والحليب، ويتنقل عليها (إبلاً وحميراً) ويصنع من شعرها خيامه ومن جلودها قرَب الماء، فضلاً عما تزوده به من الجلود للتصدير أو للصناعات البدائية المختلفة. وبهذه المناسبة فإن المخيم البدوي الموريتاني الكبير (في السهول الجنوبية الغربية) قد يصل الى نحو ٣٠٠ خيمة، أما في الشمال فالمخيم قد يتكون من بضعة بيوت من الشعر.

والحصان أقل الحيوانات أهمية من الناحية الاقتصادية في موريتانيا - فهو حيوان الترف للركوب والصيد. ومن ثم يوجد بين ١٠,٠٠٠ و٢٠,٠٠٠ من الخيول في البلاد. أما الحمير فأكثر بكثير إذ ثمة ما بين ١٥٠,٠٠٠ و٣٠٠,٠٠٠ منها. والجاموس (زبو) ذو أهمية كبيرة في الاقتصاد الموريتاني، إذ يقدر العدد بما يتراوح بين ١,٥٠٠,٠٠٠ و٣,٠٠٠,٠٠٠ منها، ويقدر عدد الخراف والماعز في موريتانيا (١٩٧٠) بنحو ستة ملايين (ورد في الاحصاءات انه في سنة ١٩٦٣ كان في البلاد نحو ثمانية ملايين). أما الجمال فقد قدر عددها (١٩٧٠) بنحو نصف مليون (وثمة تقديرات توصل العدد الى نحو المليون من الابل). والمقدر هو أن ثلثي الابقار توجد في جنوب غرب موريتانيا، فيما تكثر الاغنام (والماعز) في الاجزاء الشرقية. وبهذه المناسبة فإن التقديرات المتعلقة بتصدير هذه الحيوانات هي: ٩٠,٠٠٠ ثور، نحو مليونين من الخراف والماعز وستة آلاف من الإبل و١٢,٠٠٠ حمار وفرس؛ وأكثر هذه المواشي ترسل الى السنغال.

الشاطىء الموريتاني غني بالأسماك. وقد قدر ما يصاد من السمك، من أنواعه الجيدة الصالحة للتصدير، بنحو ٢٠٠,٠٠٠ طن. أما الاسماك الموجودة في نهر السنغال فهي للاستهلاك المحلي. وصيد الاسماك في نهر السنغال مقصور على طبقة من السكان (ويبلغ ما يصاد نحو ٣٠,٠٠٠ طن).

وحري بالذكر ان ثلاثة أرباع السكان في موريتانيا لا يزالون بدواً أو ما يقرب من ذلك، والربع فقط هم سكان مستقرون في القرى الزراعية أو المدن التي أخذت تكتظ بالسكان بسبب وجود أعمال جديدة فيها.

ومنذ إعلان استقلال موريتانيا (١٩٦٠) كان ثمة اتجاه الى العناية بالناحية الصناعية. فهناك التعدين الذي يقوم على استغلال الحديد الخام في كديث إجل (إجلي). فالاحتياطي منه يقدر بنحو مئتي مليون طن. وقد مد خط حديدي (٦٧٠ كم)

بين زويرات وميناء نواذيبو (حيث يمكن للسفن التي تصل حمولتها الى ١٥٠,٠٠٠ من إلقاء مراسيها). واستخراج الحديد تقوم به شركة «ميفرما» (٥٦٪ من التمويل فرنسي والباقي تمويل بريطاني وألماني وايطالي ومن الحكومة الموريتانية) وقد ارتفع المصدّر من ١,٣٠٠,٠٠٠ طن (١٩٦٣) الى ٩,٠٠٠,٠٠٠ (١٩٧٠).

وثمة احتياطي من النحاس في أكْجوجْت يبلغ ٥٠٠,٠٠٠ طن من المعدن النقي. وقد بدىء باستخراج المعدن سنة ١٩٦٩ (الشركة الموريتانية للتعدين) التي يملك ٥٤٪ من أسهمها مؤسسات بريطانية ـ امريكية و٢٥٪ منها تخص الدولة الموريتانية وما يبقى تملكه مؤسسات فرنسية. ويُنقل المعدن الى نواكشوط عبر طريق طوله ٢٧٦ كم. وقد قدر ما صدّر منه (١٩٧١) بـ ٣٤,٠٠٠ طن.

وعلى كل، فالحكومة الموريتانية، رغم شواغلها السياسية ومشاغلها الاجتماعية، تعنى بالتنمية الاقتصادية. وقد وضعت ثلاث خطط تنمية، الاولى ١٩٦٠ ـ ٦٢ والثانية ١٩٦٣ ـ ٦٧ والثالثة ١٩٧٠ ـ ٧٤. ولحظت في هذه جميعها مبالغ خاصة لتطوير الزراعة وتربية المواشي وصيد الاسماك. ففي الزراعة اتجه الاهتمام نحو توسيع الارض المروية من مياه السنغال، رغبة في زيادة انتاج الارز الذي تستورد منه موريتانيا نحو ٢٠,٠٠٠ طن سنوياً، وتجديد اشجار النخيل، بدل تلك التي قضت عليها الامراض، مع تحسين نوعية التمر، وزيادة انتاج الخضار. فيما اتجهت العناية نحو تحسين منشآت صيد الاسماك وتعليبها في نواذيبو بشكل خاص.

ولعلّ أضخم مشروع للري سيقوم في موريتانيا قريباً هو مشروع سد ضخم على نهر السنغال. والمشروع يقتضي بناء سدّين الاول عند قرية دياما، في دلتا نهر السنغال. وهذا يوسع رقعة الاراضي المروية في دلتا النهر وينظم ريها، كما أنه سيمنع مياه البحر من الوصول إلى الأراضي المزروعة. أما السد الثاني فيقع عند قنانتلي الواقعة على بعد ٩٣٠ كم عن البحر (في دولة مالي). وهذا السد سينظم سير المياه (الذي يجف نحو ثلاثة أشهر في السنة) وسيجعل النهر صالحاً للملاحة من ميناء (سان لويس) الى مدينة كيس (في مالي). هذا بالاضافة الى ان هذا السد سيولد الطاقة الكهربائية التي تلزم للتعدين في شرق دولة السنغال ومالي.

والهدف الذي يرمي اليه المشروع هو توفير العمل لمليون ونصف مليون نسمة يقيمون في حوض النهر. ذلك بأن المشروع خاص بالدول الثلاث التي يمر النهر فيها وهي مالي (حيث المنبع والروافد الاولى)، وموريتانيا والسنغال اللتان يكّون النهر حداً بينهما، ولكنه يوفر القسم الاكبر من المواد الغذائية الرئيسية للأولى منهما، خاصة.

والمرحلة الاولى من المشروع ستؤدي الى استصلاح ٣٧٥,٠٠٠ هكتار بوضعها تحت الري. أما الهدف النهائي فهو إرواء ٨٠٠,٠٠٠ هكتار في المدى البعيد. ويرى القائمون على المشروع (والمخططون قبلهم) ان الاقطار الثلاثة، مالي وموريتانيا

والسنغال، التي تتعرض كثيراً للجفاف وما يحمله معه من قتل للزرع والضرع، ستصبح بلاداً تنتج فائضاً زراعياً غذائياً. ونفقات المشروع هي ألفا مليون دولار. وقد جاءت المعونات المالية، للخطوات الاولى للمشروع، من المملكة العربية السعودية (١٥٠ مليون دولار) والكويت (١٠٠ مليون دولار) والمانيا الاتحادية (٩٨ مليون دولار) وأبو ظبي (٧٠ مليون دولار) وفرنسا (أيضاً ٧٠ مليون دولار). والدول الثلاث المعنية بالمشروع مباشرة ستدفع ٤٠ مليون دولار. وهذا المبلغ (٥٢٨ مليون دولار) يكاد يكفي لبناء السدين (قدر ذلك بـ ٥٥٠ مليون دولار، إلا أن التضخم المالي زاد المبلغ بمعدل ٨٪، فأصبح ٥٩٤ مليوناً من الدولارات).

لا يزال للإبل في الشمال من البلاد وللحمير والثيران في جنوبها الدور الأساسي في التنقل والمواصلات. ولكن الاتصال بواسطة سيارات الشحن آخذ في الازدياد بين المدن الكبرى. وبناء الطرق، في هذه المساحات الصحراوية الرملية الشاسعة، أمر عسير. والطريق الرئيسي هو الذي يمتد من روصو الى نواكشوط ومن هذه الى أكْجوجْت. وثمة طريق يبنى حالياً بقصد الوصل بين نواكشوط وكيدي وكيفا وعيون العتريس ونيما. وقد ذكرنا السكة الحديدية التي تصل زويرات بنواذيبو ـ من مركز التعدين الى ميناء التصدير.

وثمة ثلاث مدن يمكن القول بأنها حديثة (في موريتانيا). صحيح أنه كان لها أسس من قبل، لكن نواكشوط تعود الى سنة ١٩٥٨ لما اتخذت عاصمة للبلاد التي كانت تدار من سان لويس. أما المدينة الثانية فهي نواذيبو، وهاتان بحريتان، والثالثة فهي فُدرِّك (فور غورو سابقاً).

ويمكن القول بأن الزراعة تعطي البلاد ٢٢٪ من الدخل القومي العام، فيما تزودها الصناعة (بما في ذلك تعليب الاسماك) بما قيمته ٢١٪. وقد قدر عدد العاملين في البلاد (١٩٧٥) بنحو ٤٢٠,٠٠٠ منهم ٩٠٪ يعملون في الزراعة (بمافي ذلك تربية المواشي).

وموريتانيا ذات علاقات تجارية خارجية. فهي تتاجر مع: فرنسا وايطاليا وبريطانية والمانية الاتحادية والسنغال واليابان واسبانية والولايات المتحدة. وتستورد الآلات والمصنوعات والبضائع الاستهلاكية. وتصدر المواشي والجلود والاسماك والحديد الخام والنحاس.

المجتمع الموريتاني

بلاد واسعة تكثر فيها الصحارى، وفيها من السكان ما يقدر بنحو مليون ونصف المليون (في احصاء ١٩٦٥ كان عدد السكان ١,٠٧١,٠٠٠ نسمة، وفي تقدير لسنة ١٩٧٠ كان الرقم ١,١٤٠,٠٠٠، والتقدير المذكور هو آخر تقدير لسنة ١٩٧٩). وهؤلاء السكان متنوعو الاصل ـ فمنهم البيضان وهم الاكثرية والسودان. وقد تتضارب

المصالح بين الجزء الواحد من البلاد والآخر، وقد تدخل النزاعات القبلية حلبات الخصومة، وذلك بسبب سيطرة الحياة البدوية على البلاد. يضاف الى هذا ان البلاد ظهرت «كوحدة» قبل مدة قصيرة. ولكن الشعور الموريتاني القومي ظهر في البلاد في هذه الفترة، بحيث أصبح من المظاهر الواضحة هناك.

ومما يقوّي هذا الشعور ان السكان في موريتانيا مسلمون، ومن أتباع المذهب المالكي، على نحو ما هو عليه الحال في أقطار المغرب. واللغة العربية هي اللغة التي يتكلمها أكثر السكان كما ذكرنا (وهي التي تسمى الحسانية). وهي اللغة الرسمية، لكن اللغة الفرنسية لا تزال تستعمل في أمور كثيرة، بحيث يمكن القول بأنها ذات مكان مساو للعربية كلغة رسمية.

«ولا تزال النزعات القبلية ذات أثر بارز في حياة سكان موريتانيا ...». والنزعة القبلية تتغلغل في الحياة السياسية والفكرية وتتحكم في سلوك الافراد الاجتماعي تحكماً ظاهرياً. ومما هو حري بالذكر ان الاستعمار الفرنسي حافظ، في موريتانيا، على هذه النزعات القبلية، لأنه وجدها الوسيلة الوحيدة للسيطرة على البلاد عن طريق الزعماء القبليين. على ان ما كان معروفاً من قبل ان الحسانيين يكوّنون الطبقة الحاكمة، والزوايا، وهم أصلاً من صنهاجة، كانوا أهل العلم الديني بشكل خاص، قد ضعفوا أو زال نفوذهم، مع الزمن. فالشِّعر، مثلاً، وهو مظهر الادب في تلك الديار، لا يقتصر على الحسانيين، وإن كان يكتب بالعربية (الحسانية) بل يشترك في انتاجه كل من أتيح له ان يحظى بنصيب من العلم. وحري بالذكر، أيضاً، ان سكان تلك الديار كان لهم حج سنوي الى مكة المكرمة. وكان الركب يمشي من شنقيط، وكان يتعلق به كل من رغب في الحج، بحيث ان هذا الحاج كان يعرف بالحاج الشنقيطي، لأن أهل شنقيط كانوا أهل العلم. وقد ورثت بُتّلِمين شنقيط كمركز للعلم الديني الاسلامي.

عرفت موريتانيا في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر نهضة ادبية عربية، وخاصة في الصحراء والساحل (الصحراوي). ولعلّ ذلك يعود الى التواصل الذي كان قائماً بين تلك الديار والمغرب وتونس ومصر والحجاز. فقد ظهر عدد من المتصوّفين ورجال الفقه والنحو، منهم سيدي المختار الكونتي وسيدي عبدالله بن الحاج ابراهيم والشيخ محمد اليدالي وسيدي المختار بن بونا. ولعلّ أكبر علماء تلك الفترة الشيخ سيدي (تلفظ سيديا) الكبير (١٧٧٥ ـ ١٨٦٨) من أولاد آبَيْري وأحفاده.

ومن مؤرخي الادب في موريتانيا أحمد بن الامين المشهور بالشنقيطي صاحب كتاب «الوسيط في ادباء شنقيط» الذي طبع في القاهرة سنة ١٩١١. ويتحدث المؤلف عن شنقيط فيقول إنها بنيت حوالى سنة ١٣٠٠ م. (وكانت موريتانيا بأجمعها تُعرف باسم شنقيط). ولعلّ من أجمل ما نقله المؤلف من الشعر الموريتاني أبيات لمحمد بن الشيخ سيدي (سيديا) الآبييري، وقد نظمها تشوقاً منه لوطنه وكان بعيداً عنه. قال:

هاجَ التذكر للأوطان في الحين — برقٌ تألقَ من نحو الميامين
برق يحاكي اغتداء الطير آونة — ونبضةَ العرق في بعض الاحايين
فقلت، إذ شمته وهنا، أخاطبه — دور الميامين أو دور الكناوين
سقيا لها اربُعا شطت بساكنها — عن نازح مستهام القلب محزون

ويعتبر صاحب الوسيط محنضن الدَيْماني من أهل المعرفة بشنقيط. وقد ضبط أحدهم شغله في يوم فقال: «رأيته وقت الصباح يسوق بقرة الى موضع الرعي، ثم يذهب، والقدّوم على عاتقه، يقطع به أعواداً من الشجر الرطب، ليطوي بها بئراً يحفرها في محل صعب، ثم يعود بكثير منها على عاتقه، ثم يرجع الى البئر ليقف على عبيده المكلفين بحفرها. ثم يرجع ليدرس للطلبة، ثم يشتغل بقرى الاضياف، لأنه كان مورداً. ثم يبقى هكذا الى أن ينام الناس، فيشتغل بتصنيف كتابه «ميسر الجليل على مختصر ابن خليل»، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم.

وكان ابن حبيب الله، الذي عاصر محمد بن عبدالله سلطان المغرب (١٧٥٧ - ١٧٩٠) كثير النقلة في طلب العلم ونشره. وقد رحل الى المشرق فتذكر بلاده، فنظم في ذلك قصيدة مما يسميه أهل الصحراء الغناء بالعربية. منها قوله:

يا مَنْ يرى ولا يُرى — عني الكروب نفّس
لقد نفى عني الكرى — شوقي لأهل تيرس[1]
واجعل الامرَ عسرا — يسرا بلا تعكّس
لهفي عليهم نبلا — مهذبين فضلا
إن قيس مَعْبَدٌ على — غرّيدهم كالاخرس
أو قيس سحبان على — بليغهم لم ينبس
حب المهيمن جرى — في الدم منهم وسرى
وامتثلوا ما أمرا — به أجل قَبَس
واجتنبوا ما حظرا — من خبث ورجس
منزلهم رحب الذرى — وكومهم شم الذرى

ومن الشعراء (والعلماء) المحدثين المختار بن حامد الديماني الذي يقول، من قصيدة فيها مقاصد دينية:

(١) تيرس: مسقط رأس الشاعر

هل يتبعُ الامر أو بالنهي يُرتدَع — أو يسمع النصح أو بالوعظ ينتفعُ؟
يا أيها الناس ان الشرعَ شاملكم — كلا، ففي شرع طه كلكم شُرَعُ
قد جاءكم رسلٌ من ربكم بهدى — فبينوا سنة للناس تُتبعُ
يرضى بها كل من كانت سريرتُه — تقوى الاله، وبالأمر الذي شرعوا
وجاءكم منه ذكر فيه أمركم — ان تسمعوا وتعوا، فاسمعوه وعوا
لا تعرضوا عن كتاب الله جل وما — قد صح عن عبده طه فتبتدعوا
والغيب، لا تدعوا علماً به أبداً — فما عليه سوى الخَلاّق يطلع

ولعلّ من أجمل ما وصل الينا من الشعر الموريتاني الذي له دلالة خاصة، أبيات لمحمد فال ولد عينين يؤكد فيها أن بني حسن (حسان) هم عرب. يقول:

إنا بنو حَسَنٍ دلّت فصاحتنا — أنّا الى العرب الاقحاح ننتسبُ
ان لم تقم بيناتٌ أننا عرب — ففي «اللسان» بيان أننا عربُ
فانظر الى مالنا من كل قافية — لها تُذَمُّ شذورُ الزِبرجِ القُشُبُ

والشعر الموريتاني جزل فصيح سليم، يقوم مبدئياً على تقليد القدامى ـ من الجاهلية الى العصور الاسلامية الاولى. وكثيراً ما يضّمن الشاعر أبياتاً لهؤلاء الشعراء. وقد كان للمعلقات أثر كبير في شعر القوم (وهناك شعر عامي يقوم الى جانب ذلك).

كانت الدراسة من قبل، دراسة اسلامية تقليدية تدور حول التفسير والحديث والفقه والادب والنحو. الا ان العقود الاخيرة شهدت قيام حركة تعليمية حديثة. وقد كان في سنة ١٩٦٣ في التعليم الابتدائي ١٨,٠٠٠ تلميذ وألف طالب في التعليم الثانوي. فأصبح العدد (في التعليم الابتدائي والثانوي) ٨٤,٠٠٠ طالب (١٩٧٧). كما كانت معاهد التعليم العالي، وخاصة في فرنسا ومصر، تأوي نحو ألف طالب موريتاني يتلقون العلم في رحابها. وقد أنفقت الدولة الموريتانية (سنة ١٩٧٢) ٤,٣٪ من موازنتها العامة على التعليم.

وما دمنا في سبيل الحديث عن العلم والتعليم فنشير الى معهد بُتلَميت (بوتلميت) المعروف باسم «المعهد الاسلامي»، الذي هو، على ما يقول محمد يوسف مقلد في كتابه «شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون» (الدار البيضاء وبيروت، ١٩٦٢) «اليوم بالنسبة لأفريقيا السوداء... المعهد الذي يضم عدداً غير قليل من طلاب الاقطار الافريقية، مالي والسنغال ونيجيريا وغيرها... وقد أسست هذا المعهد، جمعية ترقي

الثقافة الاسلامية... ويحرص على تدريس علوم الشريعة التي بها قوام الدين واللغة والثقافة... ويشدد المعهد على الناحية التربوية في طلبته تشديداً لا هوادة فيه... وللمعهد برنامج للاشتغال بالأعمال اليدوية والرياضة البدنية».

ونحن إذا حسبنا ان المعهد يتعهد الطلاب أحياناً منذ بدء دراستهم، وجدنا ان سنوات الدراسة فيه هي عشر. فالسنتان الاوليان للتعليم الابتدائي، يلي ذلك خمس سنوات للتعليم الثانوي ثم تأتي سنوات ثلاث هي للتدريس العالي الذي ينتهي بالاجازة. والمعهد، بالاضافة الى الدراسة الدينية والأدبية واللغوية، تُدرّس فيه مواد التاريخ والجغرافية والعلوم العصرية، ولو ان هذه كانت محدودة في مجالاتها. ففي المرحلة الثانوية من الدراسة يتلقى الطالب دروساً في التاريخ الاسلامي والافريقي (وكان تاريخ فرنسا جزءاً من المنهاج) وتاريخ الحضارات القديمة والحضارة الاسلامية وحضارة اوروبا. أما الموضوعات الجغرافية في هذه المرحلة فتتناول جغرافية العالم اجمالاً ثم، مع شيء من التفصيل، جغرافية افريقيا والبلاد العربية (وكانت جغرافية فرنسا وبلاد الاتحاد الفرنسي تدرّس من قبل). أما العلوم العصرية فتشمل الحساب في الدرجة الاولى.

ويستمر تدريس التاريخ والجغرافيا في قسم التدريس العالي، فتاريخ العصر الحاضر والحركات السياسية والاقتصادية والفكرية المعاصرة. أما في الجغرافيا فثمة عناية بجغرافية الدول الكبرى والجغرافيا الاقتصادية والبشرية العالمية، مع الاهتمام الخاص بالدول الكبرى.

ومع أن طرق القوافل قلّ شأنها في العصور الحديثة، فلا زالت هناك قوافل تنتقل بين موريتانيا وجيرانها في الشمال والشرق والجنوب، وإن كان الاتجاه نحو الجنوب أقل منه في الاتجاهين الآخرين. على ان موريتانيا تتصل بحراً، عبر ساحلها الاطلسي، بالعالم الخارجي، كما تنقل الطائرات اليها ومنها أعداداً كبيرة من المسافرين.

أصبحت موريتانيا عضواً في جامعة الدول العربية (١٩٧٣). وهي أيضاً عضو في الامم المتحدة وفي منظمة الوحدة الافريقية. وهذه العضوية، بسبب تعددها، تربط بين موريتانيا والعالم الخارجي. فالعزلة التي كانت فرنسا تفرضها على موريتانيا ذهبت الى غير رجعة.

٦ـ مصر

نقل الرواة ان الخليفة عمر بن الخطاب الذي فُتحت مصر في أيامه على يد عمرو بن العاص، وقد عين هذا أميراً عليها، كتب الى أميره يطلب منه ان يصف مصر. فكتب عمرو بن العاص: «أصلح الله الامير. مصر تربةٌ غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر وعرضها عَشْرٌ. يكنفها جبل أغبر ورمل أعفر. يخطّ وسطها نهر ميمونُ الغَدَوات، مبارك الروّحات. يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر، له أوانٍ تظهر به عيون الارض وينابيعها. حتى إذا اصّلح عجاجه، وتعظمت أمواجه، لم يصل بعض أهل القرى الى بعض إلاّ في خفاف القوارب وصغار المراكب. فإذا تكامَلَت تلك كذلك، نَكَص على عقبه، كأول ما بدا في شدّته وطما في حدّته. فعند ذلك يظهر أهل ملّة يُخْرجون من كل محلة أدلّة. يحرثون بطون أوديته ورواباه. يبذرون الحب، يرجون الثمار من الرب، لغيرهم ما سعوا من كسبهم، ويُنالُ منهم من غير حدهم. حتى إذا أشرق وأشرف سقاه من فوقه الندى، وغَذَاه من تحته الثرى. فعند ذلك يدرّ حلابُه، ويغنّي ذبابه. فبينما هي، يا أمير المؤمنين، درة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زَبَرْجدة خضراء. فتعالى الله الفعال لما يشاء».

وقبل ذلك بألف ومئة سنة ويزيد قال هيرودوتس، المؤرخ اليوناني الذي عاش في القرن الخامس ق.م. «مصر هبة النيل». ونحن عندما نحاول تحليل هذا القول نجد أنه يشمل في الواقع ثلاثة أمور: أولاً، ان الاجزاء الخصبة من وادي النيل، في مصر وحتى قبلها جنوباً، بناها نهر النيل في العصور الجيولوجية المتأخرة. وثانياً، ان ماء النيل يفيض كل سنة في الصيف فيروي أرض مصر، سواء في ذلك الري المباشر كما كان في القديم، إذ كان ماؤه يغرق الارض، والري بالسدود والترع كما أصبح في الازمنة الحديثة. وثالثاً، هو أن النيل اثناء فيضانه يحمل الى واديه طَمْياً أو غِرْيَنا يزيد في خصب التربة.

والذي يعنينا من نهر النيل الآن هو الجزء الممتد من وادي حلفا (الشلال الثاني) الى البحر. وهذا يقسم الى قسمين متباينين ـ وادي النيل والدلتا. والدلتا، وتعرف باسم مصر السفلى، مثلث له ساحل مقعر قليلاً على البحر المتوسط طوله ٢٨٠ كم ويبعد رأسه ١٦٠ كم عن الشاطىء. وتربة الدلتا تتكون مما رسبه النيل بمعدل ١١ سم في القرن الواحد، ويبلغ ثخنها بين ١٥ و١٢ متراً. وهذه الارض الخصبة تتكون من سهول طينية. فالأماكن المهملة منها تكّون مستنقعات تنمو بها الاعشاب الغليظة

والشجيرات وتكثر فيها الاسماك وتعيش حولها الطيور. وكانت مناطق تنتشر منها الملاريا فيما سبق من الزمن. ونحن عندما نتجه في الدلتا شرقاً أو غرباً نلاحظ نقصاً تدريجاً في الأرض الطينية حتى ننتهي الى الرمال المتنقلة. وتكون السواحل إما دعوصاً من الرمال أو أراضي منخفضة تغمرها مياه البحر، فتتكون من ذلك مجموعة من البحيرات الملحة.

وليس ما يحمي الدلتا من الشرق او من الغرب. فإلى الغرب منها تمتد السهول الساحلية الافريقية القاحلة، التي قد يصلح بعضها للرعي. وإذا ابتعدنا هنا عن الشاطىء مئتي كيلومتر او أكثر قليلاً الى الجنوب، وجدنا مجموعة من الواحات تمتد عبر الصحراء بحيث تكون طريقاً للقوافل. وهكذا نجد ان مصر لم تحمها صحراء ليبيا الممتدة الى غربها، من هجرات شعوب كانت ترحل الى مصر وتزعج سكان البلاد المستقرين.

أما في الجهة الشرقية فتنتهي بحيرة الدلتا بأرض يابسة تكون قنطرة، تمكن الناس من العبور من آسية الى مصر وبالعكس (هناك تقع مدينة القنطرة على قناة السويس، لكننا نحن نتحدث هنا عن قبل قناة السويس). والاجزاء الشمالية من صحراء سيناء، التي تقع الى الشرق، منخفض ساحلها، قاحلة أرضه، وينتهي بسهول فلسطين الجنوبية. أما صحراء سيناء نفسها فهضبة قاحلة ترتفع تدريجاً نحو الجنوب. لكن مرتفعاتها غنية بالغرانيت وبالمعادن كالنحاس. وهذه المرتفعات لم تكن لتمنع جماعة جائعة أو جيشاً منظماً من الوصول الى مصر.

وأما وادي النيل، أو مصر العليا (أو الوجه القبلي) فيبدأ جنوبي الدلتا ويمتد جنوباً نحو ألف كم (إلى وادي حلفا). والجزء الاول من هذا الوادي (يمتد ٤٢٥ كم جنوبي القاهرة) فهو أرض جافة قلما يسقط فيها المطر (وهذا ينطبق على كل وادي النيل). ويتراوح عرض الوادي بين ١٥ و٢٥ كم، وجانباه صخور كلسية يروي النهر بعض أجزائها. أما الى الجنوب من طيبة (الاقصر الحالية) فعدوات النهر تتكون من الحجر الرملي، وقلما يتجاوز عرض الوادي ثلاثة كيلومترات. ويعترض مجرى النيل جنادل وشلالات مثل التي عند اسوان (الشلال الاول) وعند وادي حلفا (الشلال الثاني). ثم يضيق الوادي بحيث يصبح نحو مئتي متر!

ووادي النيل، كما ذكرنا، ينعدم فيه المطر تقريباً، ومن ثم فإن النباتات يقتصر نموها على الأجزاء التي تصلها مياه النيل إبان الفيضان. وأي نقص في مياه الفيضان يُسبب خسارة كبيرة للسكان.

ومصر العليا تتصل بجاراتها في الجنوب، بطريق يحاذي وادي النيل نفسه. وقد يتجه هذا الطريق عبر وادي حمامات الى البحر الاحمر. وكانت واحة الخارجة مركز الطرق الصحراوية التي كانت تصل جنوب مصر بالسودان الاوسط غرب افريقية.

والشجرة المثمرة الوحيدة الاصيلة في وادي النيل هي، فيما يرجح، شجرة النخيل. وشجرة الاكاسيا أصيلة أيضاً. أما التوت والرمان والكرم فقد نقلها الطارئون على مصر الى البلاد. ولكن الحلفا والبردي وأنواعاً أخرى من القصب قد تكون نباتات أصيلة. ووادي النيل غني بالزهور، وفي مقدمتها زهرة اللوتس. وكان الوادي والدلتا غنيين بالكثير من الحيوانات، كالخنزير البري والحمار الوحشي. أما النيل فموطن التمساح ووحيد القرن. وأدخل الحمار والفرس والجمل الى مصر في الازمنة التاريخية.

جذور الشعب المصري، جاءت أولاً من جنس البحر المتوسط (وخاصة في الصحراء الغربية والصحراء الشرقية). أما الوادي نفسه فقد كانت فيه جماعات لها صفاتها المصرية الخاصة. وهذا الجذر الاول انضمت اليه شعوب من الجنوب والشمال. فالشعب المصري هو نتيجة هذا المزيج: من جنس البحر المتوسط والحاميين والساميين الذين تسربوا من الجهة الشمالية الشرقية والليبيين والزنوج.

في بدء الزمان المؤرخ

في نهاية الألف الرابع ق.م. نجد أن مصر قد أصبحت مملكة واحدة، وأن إسماً يعزى إليه هذا التوحيد السياسي (لمملكتين قديمتين شمالية وجنوبية) يتردد في أبهاء التاريخ والأسطورة هومينس. والمصريون أرخوا لتاريخهم القديم (وهكذا أرخ لهم الآخرون) على أساس الأسر، وجاء المؤرخون المحدثون فقسموا التاريخ المصري القديم إلى: المملكة القديمة (حول ٣٠٠٠ ـ ٢١٨١ ق.م. الاسر الست الاولى)، والمملكة المتوسطة (الاسر من السابعة الى الثانية عشرة) وعصر الامبراطورية (الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون).

ومصر هي المهد الثاني للحضارة والمدنية في الشرق القديم. وإذا كانت قد أظهرت تنظيماً وديناً وشيئاً من الفن حول سنة ٣٠٠٠ ق. م، فإن ازدهارها جاء في أيام المملكة القديمة في عهد الاسرة الرابعة. فمن هذه الاسرة كان خوفو باني هرم الجيزة الاكبر. وهذه الاسرة هي التي اتخذت ممفيس عاصمة للدولة المصرية. وبناء الاهرام دليل على تقدم تكنولوجي كبير، وحكومة ملكية مركزية قوية. إلاَّ أن نوعاً من التأخر أصاب مصر في أواخر الألف الثالث ق.م، لم تنهض منه إلاَّ في أوائل الألف الثاني، وعندها وحدت مصر ثانية وتوسعت فتحا الى النوبة جنوباً وسيناء شمالاً في شرق، كما أن أراضي الفيوم استصلحت وبنيت هياكل كثيرة. ولعل سبب ذلك كان الذهب الذي حمل من النوبة.

ومع أن جماعات من شعوب مختلفة، متآلفة مصلحة، هاجمت مصر واحتلتها وأقامت لها دولة في الدلتا هي دولة الهكسوس، فإن مصر عادت وحزمت أمرها بعزم ملوك طيبة (الاقصر اليوم)، فطردت الهكسوس ولحقت بهم الى مشارف فلسطين.

هذه هي الاسرة الثامنة عشرة، التي يعود اليها الفضل (مع الأسرة التاسعة عشرة) في إنشاء امبراطورية مصرية واسعة (ومن هنا يسمى هذا العصر عصر الامبراطورية). وفي أول الامر كانت العناية بالتوسع التجاري، في بلاد الشام وبلاد بونت (البر الافريقي والبر الآسيوي بعد اجتياز مضيق باب المندب). لكن لما اعتلى العرش تحوتميس الثالث، قاد جيشه المدرب والمسلح جيداً الى بلاد الشام، وانتصر على جيش شامي كبير كان قد تجمع في مجدو، في مرج ابن عامر، (ح/١٤٧٩ ق.م.) وبذلك تم له فتح بلاد الشام، (وأعاد الكرة عشرين مرة ليتأكد من ذلك) ووصلت جيوشه نهر الفرات. كما أنه أعاد النوبة الى حظيرة الطاعة. وتأخرت الحياة السياسية في أيام أخناتون الذي شغل بالأمور الدينية. ولما عادت الى مصر عزيمتها لاستعادة السلطة في بلاد الشام كان الحثيون قد أقاموا لهم امبراطورية في آسية الصغرى، وتوسعوا في الشام. ودارت حروب المنافسة بين الامبراطوريتين، وانتهى الأمر بأن اقتسمتا سورية والساحل فيما بينهما. لكن السنة ١٢٠٠ أو ما يقارب ذلك شهدت ضعف الامبراطوريتين ثم زوالهما. وكان رعمسيس الثاني (حول ١٣٠٠ ـ ١٢٣٤ق. م.) آخر ملك مصري فرعوني يستحق أن يذكر!.

حكام من الخارج: ٦٧١ ق.م.ـ ٦٤٠ م: كانت بلاد الشام (التي تمتعت بقيام دويلات مستقلة متعددة) ومصر (التي لم تعرف سوى صحوات متقطعة) تنتظر قوة جديدة تسيطر عليها. وقد وصلت هذه القوة الأشورية بلاد الشام في القرن الثامن ق.م. ووصلت مصر سنة ٦٧١ ق.م، إذ احتل الأشوريون مصر وأخرجوا الأباطرة الثونيين (الذين كانوا على وشك ان يعيدوا إليها قوتها). ثم جاء الكلدانيون. وفي سنة ٥٢٥ ق.م. وصل الفرس الى مصر محتلين. وفي أيام دارا الأول (٥٢٢ ـ ٤٨٥) تم فتح قناة تصل النيل بالبحر الاحمر (وقد كان المصريون قد بدأوا هذا العمل). على أن سلسلة الحكام الاجانب، التي بدأت بالاشوريين كما رأينا، استمرت في سيرها. ففي سنة ٣٣٢ ق.م. استولى الاسكندر المقدوني على مصر، واعترف كهنة آمون، في واحة سيوه، بالاسكندر فرعوناً.

وبعد خصومة طال أمدها بين خلفاء الاسكندر ظلت مصر في يد بطليموس أحد قواده الكبار. وكانت دولة البطالمة (وعاصمتها الاسكندرية التي بنيت على يد الاسكندر) يونانية، والاسكندرية يونانية السكان والصبغة، أكثر منها مصرية. وكانت مصر، بحسب تفكير ذلك الزمان، لا تعدو كونها ملكاً خاصاً لهذه الاسرة المالكة.

تبدل الحاكم الاجنبي مرة ثانية سنة ٣٠ ق.م، إذ انتقلت مصر (بعد انتحار كليوباترة) الى الرومان. وكانت ولاية خاصة بأوغسطوس قيصر، ولو أنها كانت جزءاً من امبراطورية واسعة تحيط بالبحر المتوسط كله. وفي أيام الرومان انتشرت المسيحية في مصر، وأخذ الأقباط بعقيدة الطبيعة الواحدة. وفي مصر قامت

المؤسسة الرهبنية أول ما قامت. ولما انتقلت مصر من الدولة الرومانية الى الدولة البزنطية، وقامت الخلافات الدينية بين المصريين والكنيسة الرسمية، كان تمسك المصريين بالطبيعة الواحدة (اليعقوبية) نوعاً من إثبات الشخصية الوطنية ضد الاستعمار البزنطي، (وهذا كان موقف جماعة كبيرة من الكنيسة الفلسطينية السورية في ذلك الوقت).

مصر ٦٤٠ ـ ١٥١٧: كانت منطقة الشرق الاوسط يسيطر عليها، في أوائل القرن السابع لليملاد، دولتان هما بزنطية والساسانيون. وكانت الحروب بينهما سجالاً. ومع ان الدولة الساسانية هاجمت جيوشها بلاد الشام ومصر (٦١٦) فإن البزنطيين لم يلبثوا ان استعادوا البلدين. إلاَّ أن دولة جديدة ـ هي الدولة العربية الاسلامية ـ كانت على وشك الظهور. وبعد وفاة الرسول (٦٣٢) بدأت الفتوح العربية التي قضت على الدولة الساسانية وانتزعت بلاد الشام ومصر من البزنطيين. ففي سنة ٦٤١ فتحت مصر، وأقام أميرها، عمرو بن العاص، عاصمته في الفسطاط، عند رأس الدلتا، فكأنه أعاد بذلك عمل الفراعنة الاوائل الذين كانت عاصمتهم ممفيس تقوم هناك.

ومع توالي الزمن أصبحت مصر عربية اللغة، والدين الغالب على سكانها الاسلام، وإن كانت الكنيسة القبطية، وأتباعها بعد كثر في وادي النيل، ظلت (ولا تزال) تستعمل اللغة القبطية في الصلوات.

تبعت مصر الدولة الاموية (٦٦١ ـ ٧٥٠) ثم الدولة العباسية التي قامت سنة ٧٥٠. إلاَّ أن أطراف هذه الدولة أخذت، منذ أواسط القرن التاسع للميلاد، تقوم فيها دويلات مستقلة أو لها حكمها الذاتي. وقد قامت في مصر دولتان (الطولونية ٨٦٨ ـ ٩٠٥، والاخشيدية ٩٣٥ ـ ٩٦٩) وكان مؤسساها رجلين من أصل تركي. وحكم كل منهما مصر (وبعض بلاد الشام) حكماً يكاد يكون مستقلاً، لكنهما كانا يعترفان للخليفة العباسي بالسلطة الرمزية. وفي سنة ٩٦٩ دخلت جيوش الفاطميين (الذين كانوا قد أنشأوا دولتهم في تونس سنة ٩٠٩) مصر. واختط جوهر، قائد الخليفة الفاطمي المعز (٩٥٣ ـ ٩٧٥)، القاهرة التي أصبحت عاصمة الدولة الجديدة. كما أنه بنى الازهر، الذي أصبح واحداً من أكبر مراكز الدراسات الاسلامية في العالم.

كانت مصر، في أيام الفاطميين الاوائل، تتمتع بإدارة مركزية قوية، كما كانت نقطة الثقل في دولة شملت، فيما شملت، بعض شمال افريقية وصقلية وبلاد الشام والحجاز. كانت الزراعة ناشطة والتجارة كانت رائجة سوقها، إذ كانت لمصر صلات تجارية مع اوروبة والهند. وكل هذا كان مصدر ثروة كبيرة للبلاد. إلاَّ ان الحكم الفاطمي أخذ بالتدهور منذ أوائل القرن الحادي عشر. وازداد هذا مع الوقت، وقامت ثورات في أنحاء مختلفة من الامبراطورية وحتى في مصر بالذات. وأخيراً وضع صلاح الدين حداً للخلافة إذ ألغاها (١١٧١) وأعاد الدعوة الى العباسيين على منابر مصر.

وكان الصليبيون قد احتلوا سواحل بلاد الشام، وأنشأوا لهم فيها مملكة وثلاث دوقيات، وحاولوا الاستيلاء على مصر، وانصرف صلاح الدين الى مقارعة الصليبيين في بلاد الشام (وانتصر عليهم في حطين ١١٨٧) وفي مصر، الا ان الضعف تسرب الى دولة صلاح الدين الأيوبية (١١٦٩ ـ ١٢٥٠)، وانتهى الأمر باستيلاء المماليك (١٢٥٠) على السلطة.

دامت دولة المماليك مدة طويلة (١٢٥٠ ـ ١٥١٧). وقد كان هؤلاء حكاماً أجانب في مصر (وبلاد الشام والحجاز وبرقة)، ولكنهم دفعوا عن البلاد أذى الصليبيين (إذ أخرجوهم من بلاد الشام نهائياً سنة ١٢٩١)، وأذى المغول (إذ انتصروا عليهم في معركة عين جالوت ١٢٦٠)، وأحيوا الخلافة العباسية في القاهرة (وكان المغول قد قضوا عليها لما دمروا بغداد ١٢٥٨).

نشطت التجارة المصرية ـ الشامية في أيام المماليك، وبالأخص تجارة الافاويه والطيوب. وقد خلّد المماليك حكمهم في مجموعة كبيرة من الجوامع والمدارس التي بنوها في القاهرة. إلاّ أن حكمهم أخذ بالضعف منذ أواسط القرن الرابع عشر، وأثقلوا كاهل الشعب بالضرائب، وخاصة لما ضعفت التجارة التي كانت تقوم على أساس احتكار الدولة لها. ولما دار فاسكو دي غاما برأس الرجاء الصالح، واكتشف الطريق المباشر للاتجار مع الهند (١٤٩٦ ـ ١٤٩٩) خسرت مصر المورد الرئيسي لثروتها، إذ سيطر البرتغاليون على تجارة الهند عبر المحيط الهندي والخليج العربي، وأقفلوا طريق البحر الاحمر.

مصر العثمانية: ١٥١٧ ـ ١٨٠٥: في سنة ١٥١٧ دخل السلطان سليم العثماني القاهرة وقضى على دولة المماليك (كان سليم قد انتصر عليهم في السنة السابقة في معركة مرج دابق قرب حلب)، وأصبحت مصر ولاية عثمانية. إلاّ أن بكَوات المماليك والجنود التابعين لهم ظلوا في الواقع أصحاب الأمر. فلا الوالي العثماني ولا الفرق الانكشارية التي كانت ترسل الى مصر مارسوا سلطة في البلاد. والمهم هو أن تبدل الطرق التجارية بتنكبها مصر، واحتلال العثمانيين لها، كانا عاملين في تقهقر البلاد. والمماليك، سواء لما كانت لهم دولة وامبراطورية أو لما أصبحوا أصحاب سلطة داخلية دون دولة، ظلوا غرباء عن مصر. وقد استغلوا البلاد والعباد لمصالحهم. وظهر بينهم من جرب حتى الانفصال عن الدولة العثمانية مثل علي بك الكبير (١٧٦١ ـ ١٧٧٢ خلا سنتين هما ١٧٦٦ و١٧٦٧ كان خلالهما منفيا). وقد حالف الشيخ ظاهر العمر حاكم عكا في فلسطين. ولكن محاولة علي بك لم تنجح، ومات أسيراً (١٧٧٣).

لعل أهم حادث عرفته مصر في نهاية القرن الثامن عشر هو حملة نابليون (١٧٩٨ ـ ١٨٠١). وقد كان لهذه الحملة غرضان رئيسان هما: إنشاء قاعدة فرنسية في

مصر فتفيد فرنسة من ثروة البلاد، والغرض الثاني كان محاولة قطع طريق الهند على بريطانيا. ولم يكن من الصعب على جيش منظم في قيادته وجنده وعدته أن يتغلب على المماليك. فبعد ان ألقى الاسطول مراسيه في الاسكندرية (تموز/يوليو ١٧٩٨) سار الجيش وقابل المماليك في معركة الاهرام (٢١ من الشهر نفسه) فانهزم هؤلاء وتفرقوا أيدي سبا. لكن الاسطول الفرنسي تعرض الى انكسار كبير (في شهر آب/ اغسطس) في معركة أبو قير، وفي الشهر التالي أعلن الباب العالي الحرب على الفرنسيين. وبسبب تصرف الفرنسيين أنفسهم أيضاً، قامت ثورة القاهرة (تشرين الاول/ اكتوبر) ضد الفرنسيين التي أخمدت بالحديد والنار.

وقاد نابليون جيشه في أوائل سنة ١٧٩٩ الى فلسطين واحتل ساحلها وحاصر عكاء (كان حاكمها أحمد باشا الجزار) لكنه لم ينل من المدينة وانسحب. وعاد بعد ذلك نابليون الى فرنسة، وظل جيشه بعده، إلاّ أن التحالف العثماني ـ البريطاني أرغم الفرنسيين على إخلاء مصر نهائياً.

مصر ١٨٠٥ ـ ١٩١٤: هذه فترة تتجاوز القرن بقليل، لكنها، بالنسبة الى تاريخ مصر في العصور الحديثة، هامة جداً. فالحملة الفرنسية نفسها فتحت عيون فئة قليلة من المصريين إلى أن عالماً يختلف عن عالمهم يقوم بعد البحر المتوسط. وهو أمر تنبه له حاكم مصر الجديد، الذي انتهت اليه السلطة كوال للدولة العثمانية ـ محمد علي باشا ـ وكحاكم شبه مستقل لمصر في الواقع (١٨٠٥ ـ ١٨٤٩). فقد تم لمحمد علي أن انتصر على حملة بريطانية بحرية في الاسكندرية (١٨٠٧)، وقضى على المماليك (١٨١١) وقام بمهمة الحملة المصرية ـ التركية (نيابة عن السلطان) في الجزيرة العربية حيث انتصر على السعوديين (١٨١١ ـ ١٨١٨)، واحتل شمال السودان (لحساب الدولة العثمانية) بين ١٨٢٠ ـ ١٨٢٢، وأعان الدولة العثمانية في حربها ضد اليونان الثائرين عليها (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧). وكان محمد علي يأمل بأن يكافئه السلطان بضم بلاد الشام الى حكمه، لكن هذا خيب أمله، فأرسل محمد علي بعثة عسكرية الى بلاد الشام احتلتها (١٨٣١) وسارت شمالاً حتى هددت الدولة العثمانية في عقر دارها. وبعد اتفاق (١٨٣٣) وتجدد القتال، اضطر ابراهيم باشا، أمام موقف عسكري، اشتركت فيه بريطانية وفرنسة وروسيا، الى الانسحاب. وفي سنة ١٨٤٩ توفي محمد علي باشا رجلاً هرماً تعباً يائساً (كان ابنه ابراهيم قد توفي ١٨٤٨). لكن محمد علي أصلح ادارة مصر ونظم موارد الدولة وحسّن التعليم وبعث البعثات الى اوروبة للدراسة (نحو ٤٠٠ شاب أرسلوا الى اوروبة) وأنشأ صحافة وأقام مطبعة. والواقع هو أن محمد علي باشا أدخل مصر «العالم الحديث» وفتح لها أبواب التبدل والتطور.

والأمر الثاني الذي تم في هذا القرن (أي بين ١٨٠٥ و١٩١٤) هو فتح قناة السويس (١٨٦٩). ولسنا نريد ان نتحدث عن تاريخ «صنع» هذه القناة، ولكن نريد ان

نذكر القراء بأن فتح قناة السويس أعاد الى مصر، وما قبلها وما وراءها، القيمة والأهمية التجارية التي كانت للمنطقة، كما أنها جعلت لمصر - في تنافس الدول الكبرى على التوسع - دوراً عسكرياً هاماً جداً. ومن هنا أخذت مصر، مع الإفادة من التجارة، تعاني المشكلات المترتبة على الناحية العسكرية.

ثمة أمر ثالث هو خديوية اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩). اسماعيل أراد ان يسير في خطى محمد علي باشا. لكن هذا الأخير كان حكيماً فلم يستدن باسم مصر أو باسمه، حاكماً لها، قط. أما اسماعيل فقد أفرط في ذلك بحيث ان الدول المدينة بنوكها ومؤسساتها وضعت يدها على بعض الموارد المالية الرسمية إما لاستيفاء ديونها أو للحصول على الفائدة. وهكذا ارتهنت مصر، وعزل اسماعيل وولي الأمر توفيق (١٨٧٩ - ١٨٩٢).

والحادث الرابع الذي مر على مصر في تلك الفترة هو ثورة عرابي الوطنية (١٨٨١ - ٨٢) التي اغتنمتها بريطانية فرصة لاحتلال مصر (١٨٨٢)، ووضعها تحت نفوذها (مع أنها ظلت تعترف بها ولاية عثمانية - على الورق طبعاً - الى ١٩١٤) وإداراتها. واحتلت بريطانية السودان فيما بعد (١٨٩٨) وإدارته شركة (ولكن قسمة ضئزى) مع مصر. ولما دخلت تركية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤) الى جانب دول الوسط أعلنت بريطانية نهاية الحكم العثماني في مصر وجعلت البلاد «محميّة بريطانية».

مصر: ١٩١٤ - ١٩٥٢: خرجت مصر من الحرب منهوكة القوى، وكانت، مثل الأقطار العربية الأخرى، تأمل أن ينصفها الحلفاء لما قدمت هذه كلها من عون لهم. لكن فأل الجميع خاب (وعلى سبيل المثال وافقت الولايات المتحدة في مؤتمر السلم على وضع مصر تحت الحماية البريطانية). ولذلك بدأ جهاد سياسي وطني في مصر قاده الوفد (أولاً بزعامة سعد زغلول ثم برئاسة مصطفى النحاس ١٩٢٧). وقد اتخذ شكل صراع بين مراكز قوى ثلاثة (١٩٢٢ - ١٩٣٩) - الملك والسلطات البريطانية والوفد. وهذه فترة دقيقة في تاريخ مصر انتهت بمعاهدة ١٩٣٦. لكن هذه المعاهدة لم يتم تطبيق بنودها بسبب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، كما ان سنوات الحرب أدت الى خلق مشكلات جديدة للمصريين وخاصة لما اقترب الالمان من جهة الغرب. يضاف الى ذلك الأعمال المالية غير المقبولة التي كانت البلاد تعاني منها وبمعرفة أصحاب المناصب العالية جداً.

وتلت الحرب سنوات اشتد فيها هذا الامر، وزادت المصاعب واشتركت مصر في حرب فلسطين (١٩٤٨) بسبب إعلان قيام دولة اسرائيل، وظهرت أمور تتعلق بالسلاح الفاسد وصفقاته التي ارتبطت بأسماء يعمل أصحابها في القصر.

وأخيراً - في ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢ قامت الثورة المصرية - التي انتهت (بعد

فترة) بإلغاء الملكية وإعلان مصر جمهورية وإجراء الإصلاح الزراعي وإنهاء الوضع الاحتلالي البريطاني (١٩٥٤، معاهدة)، وتزعم مصر (مع الهند ويوغوسلافيا) جماعة عدم الانحياز (باندونغ، ١٩٥٥). ومع ان محمد نجيب كان على رأس النظام الى سنة ١٩٥٤، وأن جمال عبد الناصر لم يصل الى القمة إلاّ في تلك السنة، فإن السياسة المصرية الداخلية (الاقتصادية والاجتماعية) والخارجية كانت تسير بإرشاده وتوجيهه.

مصر ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠: كانت شخصية عبد الناصر هي المؤثرة والسائدة والمفلسفة للثورة وأعمالها، وكان هو الذي يوجه السياسة الخارجية أيضاً. وقد ألمت بمصر في أيامه حرب السويس (١٩٥٦) التي اشتركت فيها بريطانية وفرنسة متآمرة مع اسرائيل. كما اتحدت مصر مع سورية في الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨ ـ ٦١). والخلافات العربية والدولية التي كان على عبد الناصر أن يدور معها وحولها ليصل الى أفضل الحلول لمصر والعرب، لم تكن بالأمر اليسير. وتكفي حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، التي أدت الى إقفال قناة السويس، فخسرت مصر مورداً أساسياً لإدارة البلاد ولتنميتها. والواقع ان التحدث عن السنوات هذه في تاريخ مصر يحتاج الى مجال أوسع، لذلك فإننا نكتفي بما ذكرنا، ونعيد القول بأن مشكلات مصر والحلول التي تحتاجها وعلاقاتها السياسية العربية والدولية كانت كلها تقع على كاهل عبد الناصر، ولذلك فقد كانت الخسارة بوفاته (١٩٧٠) كبيرة جداً.

بعد عبد الناصر: لن نتعرض للقضايا المختلفة التي ثارت في مصر منذ سنة ١٩٧٠. لكن لا بد من الاشارة أولاً الى المتاعب التي تعانيها مصر دوماً من ازدياد السكان مثلاً، وعجز التصنيع مثلاً، عن اللحاق بهذه المشكلة بالذات. وثانياً هناك حرب اكتوبر ١٩٧٣ التي رفعت رأس العرب بسبب الانتصارات المصرية ـ السورية (مع عون عسكري من الدول العربية ـ المغرب والكويت وغيرهما).

وثمة زيارة السادات للقدس (١٩٧٧) والتي عقبها، بعد سنة، اتفاقا «كمب ديفيد». وتوقيع هذين الاتفاقين أقصى مصر عن المجموعة العربية. فقطعت العلاقات الدبلوماسية معها ومنعت المساعدات الكثيرة عنها ونقلت جامعة الدول العربية منها (الى تونس). وفي تشرين الاول/ اكتوبر ١٩٨١ اغتيل السادات. وانتخب حسني مبارك رئيساً لمصر. وبدأت مصر طريق العودة إلى الجسم العربي ولكن بحذر شديد.

الحياة الاقتصادية

هناك بضع ملحوظات يجدر بنا ذكرها قبل الحديث عن الحياة الاقتصادية في مصر. فمنها ان نوعاً من الانفتاح الاقتصادي أدخل في البلاد سنة ١٩٧٤ في مقابل التأميم الذي كان السياسة الاقتصادية المألوفة. وثانيها ان مصر حصلت على مبالغ لا يستهان بها من الدول العربية على شكل معونات اقتصادية. كانت أول دفعة منها بمعدل ٣١٠ ملايين دولار سنوياً (١٩٦٧ ـ ٧٣) وكان المبلغ ٢٧٠ م دولار (١٩٧٣) و. ٢٦ , ١م

دولار سنوياً (١٩٧٤ الى ١٩٧٧). وكان المفروض ان يتراوح مبلغ المساعدة بين ١,٧٠٠ و٢,٠٠٠ م دولار بعد ١٩٧٧، إلاَّ أن هذا كله (أو جله على الاقل) قطع بعد ١٩٧٩. وقد أملت مصر أن تحصل من الولايات المتحدة وغرب اوروبة واليابان عوناً مالياً بقيمة ١٢,٢٥٠ م دولار خلال خمس سنوات.

وكان العنصر الرئيسي التعميري الذي أنفق عليه عن سعة هو إعادة فتح قناة السويس (١٩٧٧). وقد كانت واردات القناة ٢٣٠ م دولار (١٩٧٧) و٥٢٠ م دولار (١٩٧٨) و٥٨٠ م دولار (١٩٧٩) وهو الرقم الذي تحافظ عليه الآن. كما أنفق الكثير على تعمير المدن في القنال. وفي سنة ١٩٧٩ قدر عدد الذين عادوا الى منازلهم في بور سعيد والاسماعيلية والسويس بأكثر من مليون نسمة.

ومما يجب ان يلاحظ أن مجموع مساحة مصر هو مليون كم٢، لكن الارض الصالحة للزراعة هي ٤٪ (٩٦٪ من البلاد صحار قاحلة). ومعنى هذا ان كثافة السكان (في الأراضي المستغلة) هي نحو ألف شخص للكيلومتر المربع. ويزداد السكان في مصر بمعدل مليون في العام. وقد وعى عهد الثورة المشكلة الاقتصادية الرئيسية فبُذِلَت جهود كبيرة في سبيل زيادة الإنتاج الزراعي. فوضعت أول خطة للتنمية (١٩٦٠ ـ ١٩٦٥) وخصص لها ١,٥١٣ مليون جنيه مصري. وكان المفروض أن تنظم خطط تنمية أخرى، ولكن كان ثمة تردد في ذلك حتى سنة ١٩٧٨، إذ وضعت خطة تنمية (١٩٧٨ ـ ١٩٨٢) وموازنتها ١٢,٠٠٠ مليون جنيه مصري، خصص منها ٤,٧٠٠ مليون جنيه مصري للتطوير الصناعي، على أساس أن هذا قد يكون فيه فائدة كبيرة للحاق بالتزايد السكاني، خاصة وأن أسعار القطن الطويل الخيوط قد تدنت في الأسواق نسبياً.

الزراعة: لا تزال الزراعة في مصر تزود البلاد بقسم كبير من نتاجها القومي العام، إذ ان نسبة الوارد من الزراعة يبلغ ٣٠٪ وهي نسبة ثابتة نسبياً في مقابل دخل الصناعة وهو ٢٠ ـ ٢١٪ ويعمل ٤٠٪ من اليد العاملة في الزراعة، ويبلغ ما توفره للبلاد من أسعار الصادرات ٦٠٪.

ومن المشاكل التي يجب ان يلتفت إليها في الزراعة هو استصلاح الاراضي التي تتعرض لارتفاع في ملوحتها وتجمعها. ومن هنا فقد كان بناء السدود ووسائل الري الأخرى أمراً ضرورياً لتوصيل المياه الى حيث يجب. وبسبب من استعمال الوسائل المختلفة يمكن إنتاج أكثر من موسم واحد في السنة وزيادة الإنتاج بالذات.

القطن والأرز وقصب السكر تتقدم غيرها من المحصولات الزراعية التي توفر لمصر النقد النادر عن طريق تصديرها. يتلو ذلك الفواكه والخضار. فمصر تنتج نحو ثلث حاجة العالم من القطن الطويل الخيط (الطويل التيلة). ولمصر خبرة طويلة في إنتاج هذا القطن، كما أن التربة والمناخ يعود إليهما شيء من الفضل. والقطن يحلج

في مصر قبل تصديره. وقد أممت هذه الصناعة (وتصدير القطن) سنة ١٩٦٣. وعلى كل فإن حاجة مصر المتزايدة الى الاقمشة القطنية المصنوعة داخلياً حدّت من الكمية التي يمكن تصديرها. هذا بالإضافة الى اتجاه الصناعة النسيجية في العالم نحو خيوط أخرى ـ أكثرها صناعي ـ بدل القطن. وقد كان محصول القطن في سنة ١٩٧٨ قرابة ٤٠٠,٠٠٠ طن قدر ما جلبته لمصر من النقد الخارجي بنحو ٦٠٠ م ج مصري، أي نحو ثلث قيمة الصادرات بأجمعها.

الإصلاح الزراعي: بعد قيام الثورة مباشرة تمت الخطوات الاولى في سبيل الإصلاح الزراعي. حددت الملكية الفردية بما لا يتجاوز ٢٠٠ فدان (والفدان يساوي ٤٢٠٠ م٢ أي يزيد قليلاً عن أربعة دونمات)، ثم خفضت المساحة الى ١٠٠ فدان (١٩٦١) ثم الى خمسين فداناً (١٩٦٩). وقد كان الهدف من ذلك، مبدئياً، القضاء على الثروة (ومن ثم القوة) الاقطاعية لزعماء الاحزاب السياسية. وقد كان النجاح واضحاً هنا. وأخذ الإصلاح الزراعي، بعين الاعتبار، مراقبة الايجارات، وتنظيم ملكية الارض وزيادة التعاونيات الزراعية من ١,٧٢٧ (١٩٥٢) الى ٤,٨٩٧ (١٩٦٣).

السد العالي: بدىء ببناء السد العالي في كانون الثاني/ يناير ١٩٦٠ وانتهى العمل منه في تموز/ يوليو ١٩٧٠، ولكن الاحتفال بتدشينه كان في كانون الثاني/ يناير ١٩٧١. وقد كلف مصر نحو ستمئة مليون جنيه مصري، إلاّ أنه انتج، الى سنة ١٩٧٤، أكثر مما أنفق عليه.

ثمة بحيرة (بحيرة ناصر) تمتد نحو ٥٠٠ كم طولاً و١٠ كم عرضاً. وهذه البحيرة مركز لتربية السمك وتطوير الصناعة المتعلقة به. والخزان ينتج طاقة كهربائية يؤمل ان تؤدي الى كهربة كل قرية في مصر.

وقد كان استصلاح الاراضي (القاحلة الصحراوية) من أهداف بناء السد العالي. وقدرت الارض التي مكن أن تستصلح بسبب السد بمساحة ١,٢٠٠,٠٠٠ فدان = ٥٠٤,٠٠٠ هكتار. إلاّ أن ارتفاع النفقات حمل الحكومة على التوقف (١٩٧٢) عن القيام بمشاريع استصلاح جديدة. لكن الضغط السكاني حمل الحكومة على إعادة الحديث عن استصلاح الصحراء. وهناك من يأمل أن يكون قد تم استصلاح ما بين مليونين وأربعة ملايين فدان في نهاية القرن الحالي.

الصناعة: كانت مصر أول قطر عربي طورت فيه الصناعة في أعقاب الحرب العالمية الاولى. ففي العشرينات من القرن الحالي أنشىء بنك مصر، وقامت حوله مجموعة من الصناعات التي كانت تزود السوق المحلية بحاجاتها من الاقمشة القطنية (وهذه كانت في مقدمة الصناعات كمية وجودة ـ في المحلة الكبرى)، والسكر والاسمنت والزيوت النباتية والصابون. وجاء هذا الدور مواكباً لقيام الحركة الوطنية المصرية، الأمر الذي حمل المصريين على استهلاك ما تنتجه بلادهم (وكان جزء من

هذه المصنوعات يباع في فلسطين والسودان وغيرهما). وفي سنة ١٩٣٧ أضيفت صناعة التعدين الى الصناعات الاخرى. ومع ذلك فإن القطاع الصناعي زود مصر بما نسبته ٨٪ من الدخل القومي العام (١٩٣٩). إلاَّ أن الحرب العالمية الثانية شجعت الصناعات المصرية على زيادة الإنتاج، فتضافرت الجهود على سد النقص الناشىء عن صعوبة الاستيراد. وظل هذا التقدم مستمراً حتى سنة ١٩٥١. فقد كان في مصر (١٩٣٧) ١٥٥,٠٠٠ مؤسسة صناعية يستخدم في كل منها أكثر من عشرة عمال فأصبح عددها (١٩٤٧)، مع ان الصناعة أصابها بعض الركود، ٢٧٨,٠٠٠ مؤسسة (في كل منها عشرة عمال أو أكثر). وزاد الإنتاج الصناعي (في سنة ١٩٥١) ١٤٠٪ عما كان عليه في سنة ١٩٣٨. وبعد حرب السويس (١٩٥٦) كان ثمة اهتمام رسمي أكبر في محاولة لوضع مصر على أساس الاكتفاء الذاتي، فوضع لذلك برنامج للتصنيع ضم فيما بعد الى خطة التنمية ١٩٦٠ ـ ١٩٦٥.

أما في السنوات الأخيرة فقد تأخرت الصناعة بسبب نقص في العملات الصعبة، الأمر الذي جعل الحصول على المواد الخام وقطع الغيار (للآلات) أمراً فيه صعوبة. ومع ذلك فإن مردود الصناعة (في الدخل القومي العام) كان ١,٨٨٣ م ج سنة ١٩٧٤. ولا تزال صناعة المواد الغذائية والاقمشة في مقدمة الصناعات المصرية. وفي سنة ١٩٧٧ كان هناك ١٩٪ من اليد العاملة تعمل في الصناعة، مقابل ٤٣٪ في الزراعة.

ومعمل الصلب والحديد في حلوان (تم انشاؤه في سنة ١٩٧٣) ينتج ٩٠٠,٠٠٠ طن سنوياً. والمؤمل أن يصل انتاجه الى مليوني طن سنوياً. ومصنع الالمنيوم (في نجع حمادي) الذي بُدىء العمل فيه سنة ١٩٧٥ من المنتظر أن يصل انتاجه الى ١٠٠,٠٠٠ طن سنوياً. والمواد الخام اللازمة له تحمل من استراليا. وهناك مشروع الفوسفات. كما أن مشروع أسمدة كيمائية في طلخا سيكون عوناً في انتاج هذه المواد لمصلحة الفلاح المصري والأرض المصرية.

وقد اتضح للمسؤولين ان الطاقة الكهربائية التي ينتجها السد العالي لن تكون كافية لحاجات الصناعة، ولذلك أخرجت مشاريع منخفض القطارة من الدروج. والفكرة هي وصل هذا المنخفض بالبحر المتوسط، لتفيض مياهه على المنخفض. وهذا يؤدي الى انتاج الكهرباء على نطاق واسع.

النفط والغاز: بلغ انتاج النفط الخام في مصر سنة ١٩٧٨ نحو ٤٨٠,٠٠٠ برميل في اليوم (كان ٤٢٠,٠٠٠ في ١٩٧٧). وقد أفادت مصر بما قيمته ٦١٢ م ج م من النفط (١٩٧٧). ولكن الجهود في سبيل الكشف عن آبار جديدة للنفط لم تستنزف كلها. وفي سنة ١٩٧٤ ظهر أول حقل للغاز في مصر (أبو ماضي، في الدلتا). وهناك حقول كثيرة أصبحت مخططة، لكنها تحتاج الى اعتمادات مالية.

التجارة الخارجية: في مجال التجارة الخارجية، مصر كانت تعاني نقصاً في

ميزان المدفوعات حتى في السنوات السابقة للحرب العربية الثانية، واستمر الأمر بعد الحرب، والصادرات لا تزال هي: الغلات والمصنوعات التقليدية، والواردات، في الكثير منها، مواد غذائية استهلاكية.

السياسة الاقتصادية في مصر تقوم بشكل أساسي على الاشتراكية. وقد بدا هذا واضحاً منذ البدء بالإصلاح الزراعي سنة ١٩٥٢، إلاّ أن الاقتصاد ظل، حتى سنة ١٩٦١، في القطاع الخاص (باستثناء تأميم قناة السويس). ففي تلك السنة أممت جميع الشركات العاملة في تصدير القطن، وصادرت الدولة ٢٧٥ مؤسسة صناعية وتجارية (إما كلياً أو جزئياً) ووضعت ضريبة الدخل التصاعدية كي تحدد دخل الموظفين من القطاع الخاص (بحيث لا يتجاوز ٥,٠٠ ج م سنوياً).

وقد أدخلت الدولة قيوداً جديدة بعد ١٩٦٧ للحد من استيراد البضائع الاستهلاكية، إلاّ ان نوعاً من التحلل في تطبيق الاشتراكية دخل البلاد في السنوات الأخيرة، فاعتبرت مصادرات ١٩٦١ غير قانونية. وثمة تشريعات وضعت كان القصد منها الانفتاح الاقتصادي، والسماح للقطاع الخاص أن يشترك في عمليات الاستيراد والتصدير والمواصلات، وثمة تطلع مصري الى الاستفادة من الاستثمارات الاجنبية في البلاد.

المواصلات: كانت مصر من أول البلاد التي بنيت فيها سكة حديد في العالم. ففي سنة ١٨٥١ أنشئت سكة حديد الدلتا. وفي مصر الآن نحو ٤٠٠٠ كم من السكك الحديدية. وهذه كلها بحاجة الى تحديث. وقد لُحِظَ مبلغ ١٦٥ مليون دولار للقيام بذلك. وثمة طرق جيدة تصل القاهرة بالإسكندرية وبمدن القنال ومدن مصر العليا. والنية معقودة على توسيع هذه الشبكة.

وقد تعطلت مدن القنال بسبب حرب ١٩٦٧ وما تلاها. لكن مشاريع إصلاح هذه الموانىء (بور سعيد والاسماعيلية والسويس) يسير على قدم وساق، كما أن ثمة عناية بتحسين ميناء الاسكندرية وموانىء البحر الاحمر.

ويزود النيل مصر بطريق مائي ممتاز يبلغ طوله نحو ١,٦٠٠ كم. وثمة ما يقرب من ١,٥٠٠ كم من القنوات التي تيسر الانتقال في البلاد، وخاصة في الدلتا. وعلى سبيل المثال فإن القناة النوبارية في الدلتا، وبحر يوسف، بين الفيوم وأسيوط، يمكنان للاسكندرية أن تتصل بمصر العليا عبر القاهرة.

مصر اليوم

تبلغ مساحة مصر نحو مليون كم٢. وقد كان عدد السكان (احصاء ١٩٧٦) يزيد قليلاً عن ٣٨ مليون نسمة. وكان في سنة ١٩٧٩ أربعين مليوناً ونصف المليون. ولعله أصبح الآن اثنين وأربعين مليوناً. وسيصبح فوق الستين في آخر القرن. وهي زيادة كبيرة اطلاقاً، ثم هي كبيرة بالنسبة الى مساحة الارض الصالحة للاستغلال الزراعي.

تدين الاكثرية الساحقة من سكان مصر بالإسلام. ويختلف تقدير عدد المسيحيين المصريين بين ٤ و٧ ملايين. وأكثرية هؤلاء من الأقباط والارثوذكس، الا ان الكنائس المسيحية الأخرى، الشرقية والغربية، موجود أتباع لها من أبناء مصر بالذات (أي غير الاجانب).

وأكبر شخصيتين دينيتين في مصر هما: الشيخ الاكبر شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية. ويلي ذلك بطريرك الاقباط الارثوذكس، وبطريرك الروم الارثوذكس، وبطريرك الاقباط الكاثوليك. وثمة كنائس يقيم بطريركيوها خارج مصر، لكن لهم ممثلون من درجة رئيس اساقفة أو أسقف وهي: كنيسة الروم الكاثوليك والكنيسة الارمنية الاسقفية والكنيسة الارمنية الكاثوليكية والكنيسة المارونية والكنيسة السريانية الكاثوليكية.

التعليم: قدر الاطفال بين عمر ٦ و١١ سنة الذين يذهبون الى المدارس الابتدائية في مصر بنحو ٧٢٪ (١٩٧٥). وكان ٤٠٪ من الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢ و١٧ يتلقون تعليمهم في المدارس الثانوية.

يخضع التعليم جميعه لوزارة التربية والبحث العلمي. فالوزارة مسؤولة مباشرة عن التعليم الابتدائي والثانوي العام والثانوي المهني (التجاري والصناعي والزراعي) وتدريب المعلمين (للمدارس الابتدائية) والتعليم العالي. ومع ان وزير التربية هو رئيس المجلس الأعلى للجامعات، فإن الجامعات تحافظ على شخصيتها الى درجة كبيرة. والمجلس الأعلى يتألف من رؤساء الجامعات (في مصر تستعمل كلمة مدير الجامعة بدل رئيس الجامعة) ووكلائهم وممثلين عن بعض الكليات المتخصصة، وعمله تخطيطي وتنظيمي على العموم.

والتعليم الابتدائي الزامي في مصر ومدته ست سنوات يتلوه الدور الإعدادي ومدته ثلاث سنوات، ويأتي بعد ذلك التعليم الثانوي ومدته ثلاث سنوات أيضاً. وثمة مؤسسات للتدريب المهني على نوعين ـ أحدهما يقضي فيه الطالب سنتين، والآخر (وهو الاعلى درجة) يحتاج الطالب فيه الى ٤ سنوات (أو حتى خمس سنوات) للحصول على الشهادة.

وقد كان في مصر سنة ١٩٧٧ من المدارس الابتدائية عشرة آلاف مدرسة ويزيد، ومن المدارس الاعدادية ألفان ومئتا مدرسة و٤٥٠ مدرسة ثانوية عامة و٥٦٠ مدرسة ثانوية مهنية و٦٥ معهداً لتدريب المعلمين و١٩٠ معهداً للتعليم (المهني) العالي. وكان يتلقى العلم في هذه المؤسسات كلها نحو ٧,٢٥٠,٠٠٠ طالب ويعمل فيها جميعها ٢٣٥,٠٠٠ من المدرسين.

أما التعليم الجامعي في مصر فيمثله نحو ٣٦٠,٠٠٠ تلميذ ونحو ١٣,٠٠٠ استاذ. وحري بالذكر ان جامعة أهلية قامت في القاهرة سنة ١٩٠٨ (كان من أوائل

خريجيها في سنوات قبل الحرب العالمية الاولى طه حسين وحسن ابراهيم حسن وزكي مبارك وأحمد بيلي وغيرهم). وقد تعثرت أعمال الجامعة هذه اثناء الحرب العالمية الاولى. وفي سنة ١٩٢٥ حلت جامعة القاهرة (الرسمية) مكانها. وهي أقدم جامعة رسمية في البلاد، (الا ان المدرسة الطبية فيها ـ مدرسة القصر العيني تعود الى سنة ١٨٢٨ اذ انشأها محمد علي باشا). وفي الثلاثينات قامت الجامعة الازهرية في كليات حديثة (منبثقة من أقدم مؤسسة جامعية في مصر وهي الازهر/ ٩٦٩ م). وجاءت ولادة جامعة الاسكندرية سنة ١٩٤٣، ثم توالت الجامعات الاخرى. ويوجد في مصر الآن الجامعات التالية: جامعة القاهرة والجامعة الازهرية وجامعة عين شمس وجامعة حلوان والجامعة الاميركية (جميعها في القاهرة). وهناك جامعة الاسكندرية وجامعة المنصورة وجامعة طنطا وجامعة المنيا وجامعة اسيوط وجامعة الزقازيق. والجامعة الاميركية هي الجامعة الوحيدة الخاصة (والاجنبية). وأكثر الجامعات الكبرى والأولى في مصر تتوفر فيها جميع الكليات للدراسة والحديثة في سبيل استكمال حاجاتها وكلياتها.

الصحافة: في مصر عدد كبير من الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية والشهرية، ولا مجال لذكرها جميعها في هذه العجالة، ولكننا نود ان نشير الى البعض منها الذي يعود انشاؤه الى أواخر القرن الماضي أو مطلع القرن الحالي. فمن الصحف اليومية: الاتحاد المصري ـ الاسكندرية (١٨٧١) والاهرام المقطم (١٨٧٥) والايجبشن غازيت ـ انكليزية اللغة (١٨٨٠) والبروغريه ايجبشيان ـ فرنسية اللغة (١٨٩٠) والريفورم فرنسية اللغة ـ الاسكندرية (١٨٩٥) وفوس اليونانية اللغة (١٨٩٦) والايجبشن ميل ـ انكليزية اللغة (١٩١٠). ومن المجلات الهلال (١٨٩٥).

وفي مصر عدد كبير من المجلات العلمية والتقنية. ولكن نريد ان نشير الى مجلتين طبيتين: الاولى المجلة الطبية الاسكندرية (١٩٢٢) ومجلة جامعة القاهرة الطبية (١٩٣٥). والمجلتان تنشران باللغات العربية والانكليزية والفرنسية.

المصارف: مصر، بسبب اتساع مجالها الاقتصادي، وتنوع حاصلاتها وغلاتها وحاجاتها من الخارج، عرفت المصارف في وقت مبكر. (وحري بالذكر ان جميع المصارف في مصر قد تم تأميمها في سنة ١٩٦١). وأقدم بنك فتح سنة ١٨٦٤ في الاسكندرية (واسمه بنك الاسكندرية). وهو، فيما نعلم، ثاني بنك يفتح في المشرق العربي. فقد فتح أول مصرف في بيروت (١٨٥٦) وكان فرعاً للبنك العثماني. وفي سنة ١٨٩٨ انشىء البنك الاهلي المصري. وكان هذا البنك هو مؤسسة اصدار النقد المصري الى تأسيس البنك المركزي المصري. ومن أهم البنوك التي انشئت في مصر كان بنك مصر (١٩٢٠ ـ انشأه طلعت حرب باشا). وقد مر بنا ارتباط هذا البنك بالتطور الصناعي في القطاع الخاص في العشرينات.

ومـصـر، بعـدد سكانهـا وثروتهـا وسـيطرتهـا على قناة السـويس وبمـوقـعـهـا الاستـراتيجي والتـجاري، وباتصالها بأوروبة في وقت مبكر، كان لها، منذ القـرن التاسع عشـر، أثر كبيـر في النهضة العـربيـة في الداخل والخـارج. ولا تزال مصـر لهـا وزنها العلمي والادبي والفكري بالنسبة الى العالم العربي.

٧ـ السودان

السودان أكبر الاقطار الافريقية مساحة، إذ يشغل (٢,٥٠٠,٠٠٠) ك م٢ من الارض ويمتد عبر ١٨ درجة من درجات خطوط العرض، من مناطق الغابات الشبيهة بالاستوائية (جنوباً) الى بعض اشد صحاري العالم جفافاً. وعلى تباين نوعية هذه الارض وتباعد اجزاء البلاد، فإنها ترتبط اجزاؤها الواحد منها بالآخر عبر نهر النيل ـ العامل الموحد والواصل فيها. وكما قال هيرودتس (المؤرخ اليوناني في القرن الخامس ق.م.) عن مصر انها هبة النيل، ومن ثم لفت الناس الى الاهتمام بدراسة هذا الترابط بين النيل ومصر (من أيامه الى الآن)، فإنه يجدر بنا أن نذكر نحن أيضاً ان أي دراسة للسودان يجب ان تبدأ بالنيل ـ هذا النهر الذي هو عنصر حي هام في حياة السودانيين. ويحد السودان مصر شمالاً وليبيا وتشاد غرباً، وزائير وأوغندا وكينيا جنوباً، وأثيوبيا والبحر الاحمر شرقاً، ويدخل النيل السودان (من اوغندا) عند غولي، ولا يلبث «بحر الجبل»، كما يسمى هناك، أن يتغذى بما تدفع به اليه النهيرات والسواقي التي تحمل المياه من الجزء الجنوبي الغربي (من السودان). ويدخل النيل بعدها منطقة السد، حيث تغطي المستنقعات مساحات واسعة من الارض. ويحمل «النيل الابيض» المياه من السد شمالاً، بعد ان يستخدم نصف المياه في مشروعات ري في المنطقة (منطقة السد). ويحمل النيل الازرق المياه من مرتفعات اثيوبيا، ويتحد بالنيل الابيض عند الخرطوم. وثمة فرق بين النهرين. فالنيل الازرق يفيض في شهر آب (اغسطس) فترتفع مياهه نحو سبعة امتار عن مستواها الادنى. ومن ثم فإنه يزود المياه المتجهة شمالاً بنحو ٩٠٪ من حجمها، عند الخرطوم. فإذا عادت المياه سيرتها كان للنيل الابيض، الاكثر انتظاماً في جريانه، فضل دفع ٨٣٪ من المياه شمالاً، فيما تتناقص حصة النيل الازرق (الى ١,١٪). ويصبح النيل، شمالي الخرطوم، المحور الذي تدور حوله النشاطات الزراعية الى حد كبير، ويستمر هذا حتى وادي حلفا وبحيرة ناصر. أما نهر عطبرة، وهو الرافد الاوحد للنيل شمالي الخرطوم، فإنه يجري ستة شهور، ثم يصبح سلسلة من البرك الصغيرة، متى انقطع المطر.

والسودان، على سعته، بلد مستو، تحيط به الجبال الى الشرق (مرتفعات البحر الاحمر) وإلى الغرب (جبل مرة وجبل جمبالا ٣٠٧١ متراً). والجزء المتوسط من السودان هو مخلفات النيل الابيض من الطمي (والغرين). أما شمال السودان فتمتد

فيه الصحراء من ضفتي النيل الى مسافات بعيدة جداً. وقلما ترتفع عن ٣٠٠ متر (عن سطح البحر). وهذه الصحراء، مهما اختلفت تسمياتها أو تسميات اجزاء منها في السودان او مصر او ليبيا، هي جزء من الصحراء الكبرى، التي تمتد من البحر الاحمر الى المحيط الاطلسي. وتتبدل أشكال الارض الى الشرق من هذه الصحراء، حيث ترتفع جبال البحر الاحمر البركانية (٩٠٠ متر). وفي الجهة المقابلة، في الصحراء الغربية، يكون المطر قليلاً جداً، الا ان المياه الجوفية مكنت للسكان من الاستقرار في واحات هناك أهمها النخيلة والعطرون. وتمتد صحراء بيوضه في جنوب شرقي الارض الجافة الواسعة، ويدور النيل بها من المشرق والشمال والغرب. لكن الارض المزروعة في هذه الجهة لا تتجاوز ضفتي النيل ـ وإلى مئات الامتار في أغلب الاحيان.

ثمة سهل واسع رملي يمتد من النيل الابيض غرباً فيشمل كردفان ودارفور، تتخلله بعض المرتفعات، وتشغل تلال النونا جزءاً من (ولاية) كردفان، وهي ترتفع الى نحو ٧٠٠ متر، وثمة قمم تصل ١,٠٠٠ متر. ومنطقة السدود التي يدور بها نهر السوباط وبحر الجبل وبحر الغزال هي منطقة المستنقعات الدائمة. وتظل منطقة الجزيرة، الواقعة بين النيل الابيض والنيل الازرق ونقطة التقائهما عند الخرطوم، المنطقة التي كان لها أثر كبير في تطور السودان منذ أواخر القرن التاسع عشر (سنعود اليها).

مناخ السودان متباين بين اجزاء البلاد المختلفة، لكنه حار أصلاً. ويستمر فصل الامطار في الجنوب نحو ثمانية شهور، ويسقط من الامطار ألف ملمتر (أي متر). أما في عطبرة، شمالي الخرطوم، فثمة شهر واحد تسقط فيه الامطار، هو شهر آب (اغسطس) ويسقط منها فيه ٥٠ مليمترا فقط. وتشتد الحرارة في الشمال صيفاً، فتبلغ أربعين درجة مئوية في شهري أيار وحزيران (مايو ويونيو). أما في الجنوب فالحرارة أقل ارتفاعاً إذ يكون معدلها نحو ثلاثين درجة مئوية، وأشد الشهور حرارة هما شباط وآذار (فبراير ومارس).

نباتات السودان متنوعة بقدر ما في البلاد من تنوع في التربة والمناخ. فمرتفعات الاجزاء الجنوبية القصوى، حيث يسقط المطر المداري الغزير، توجد الغابات. والجهات الجنوبية الشرقية تتغلب عليها المراعي ذات الانجم، التي تمتد شمالاً الى كردفان ودارفور وولايات النيل الازرق فتصبح مناطق سهوب مسطحة تغلب عليها غابات الاكاسيا والأعشاب القصيرة. أما في الشمال فثمة انتقال من شبه صحراء الى صحراء. والمنطقة الوحيدة التي لا تتفق مع هذا الاطار العام هي منطقة السدود (أو السد)، ذات المستنقعات الدائمة، والتي هي نسيج وحدها في البلاد جمعاء.

كان عدد سكان السودان عشرة ملايين وربع المليون في الاحصاء الذي تم سنة ١٩٥٦، فأصبح نحو خمسة عشر مليوناً في احصاء سنة ١٩٧٣. وقد قدر عدد السكان (١٩٧٦) بما يزيد قليلا عن ستة عشر مليوناً. ومن المتوقع ان يصل العدد الثلاثين

مليوناً في أواخر القرن. ويبدو عدد السكان قليلاً بالنسبة الى مساحة السودان، لكن توزيع السكان لا يخضع لقاعدة او قواعد عامة. فنصف السكان يتجمعون في نحو ١٥٪ من البلاد. ويتكاثف السكان على ضفاف النيل وحول الخرطوم. الا ان بعض مناطق كردفان القريبة من السكة الحديدية ومرتفعات النوبا وبعض جهات بحر الغزال ودارفور تبلغ كثافة السكان فيها ١٥ نسمة للكيلو متر المربع الواحد. وسكان شمال السودان مزيج من أصول عربية وأفريقية، يتكلمون العربية ويدينون ـ في الاعم الاغلب ـ بالاسلام، وتغلب عليهم الحياة البدوية او ما يشبه ذلك في تقاليدهم وعاداتهم. أما الجنوب فتغلب عليه القبائل النيلوتية وفي مقدمتها النوير والدنكا والشلوك.

والمدن الرئيسة هي المراكز الادارية للولايات، وفي مقدمتها مثلث الخرطوم ـ ام درمان ـ الخرطوم بحري. وهناك عطبره وواد مدني والأبيض وجوبا وبور سودان.

وفي السودان من السكك الحديدية ما يوصل بين وادي حلفا وعطبرة والخرطوم وواد مدني والرصيرص، شمالاً في جنوب؛ ومن بور سودان الى كسلا فسنار فالأبيض ونيالا. وتمتد السكة الحديدية شرقاً في غرب.

شيء من التاريخ

موقع السودان بين البحر المتوسط والشرق الاوسط من جهة، وأواسط القارة الافريقية من جهة ثانية، جعل منه جسراً كبيراً للاتصال بين المنطقتين. وكانت مصر، ولا تزال نقطة الاتصال بين السودان وحوض البحر المتوسط والشرق الاوسط. ومن المفيد ان يتقرى الواحد منا الشعوب والحكومات التي احتلت مصر (أو أقامت فيها دولة) كانت تشعر بالحاجة الى ان يكون لها نفوذ في السودان أيضاً، هذا إذا لم يصل الامر الى الفتح والاستعمار. على ان سكان شمال السودان كانوا معرضين لواحد من خيارات ثلاثة: إما ان يقبلوا بسيطرة الحكم المصري (وطنياً كان أم أجنبياً) أو أن يقيموا لهم دولة مستقلة او ان يقوموا هم باحتلال مصر. والحد التقليدي الفاصل بين مصر والسودان هو المنطقة الواقعة بين الجندل (الشلال) الاول والثاني. والخيارات الثلاثة عرفها السودان وجربها عبر تاريخه الطويل.

ثمة منطقة في السودان الشمالي تعرف تاريخيا باسم كوش (وتمتد هذه الى الجزيرة الواقعة بين النيل الازرق والنيل الابيض الى حيث يلتقيان في الخرطوم الحالية). وهذه كانت في فترة التوسع المصري الامبراطوري القديم (١٥٣٠ ـ حول ٧٥٠ ق.م.) واقعة تحت النفوذ المصري الفعلي. ومع ان الكوشيين خلعوا النير المصري فقد ظلوا جزءاً من المدنية المصرية، الى حد أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم حماة هذه المدنية والمنافحين عنها والعاملين على نشرها جنوباً. ومنذ أواسط القرن الثامن ق.م. تقوى الكوشيون بحيث انهم احتلوا مصر بالذات وأقاموا فيها الاسرة الخامسة والعشرين. وفي أيام ترحاكا (٦٨٨ ـ ٦٦٣ ق.م.) وسع هذا الامبراطور مجال

فتوحاته بحيث أعاد امبراطورية مصر القديمة التي وصلت في أيام تحوتميس الثالث (في القرن الخامس عشر ق.م.) الى شمال شرقي سورية، فاحتل (ترحاكا) فلسطين وسورية. لكن فتوح ترحاكا لم تستمر طويلاً، فقد جاء الاشوريون مصر (٦٦٦ ق.م.) واحتلوها وجاء بعدهم الكلدانيون فالفرس فاليونان. أما مملكة كوش فقد استمرت نحو ألف سنة بعد ذلك، وتوسعت جنوباً، ونقلت العاصمة من نبتا الى ميروي، على نحو ١٦٠ كيلو متراً شمالي الخرطوم (الحالية). وقد انتهى أمر مملكة ميروي سنة ٣٥٠ م لما هاجمت مملكة اكسيوم المسيحية حوض النيل. وقامت بعد ذلك الممالك النوبية التي وصلت اليها المسيحية من مصر في أوائل القرن السادس للميلاد.

ولما احتل العرب مصر (٦٣٩ م) كان ثمة دولتان نوبيتان مسيحيتان في شمال السودان (في المنطقة التي كانت مملكة ميروي من قبل). وعقد العرب (في مصر) معاهدة مع الدولة الواقعة الى الشمال من هاتين الدولتين. ودامت هذه المعاهدة نافذة مدة ستة قرون تقريباً. وخلال هذه المدة أخذ الكثيرون من العرب بالهجرة الى المناطق السودانية الشمالية، وكان الاسلام ينتشر معهم بين السكان الاصليين. وازدادت هجرة العرب الى تلك الجهات بشكل خاص في أيام المماليك (قامت دولة المماليك سنة ١٢٥٠) بحيث ان المنطقة أصبحت مسلمة عربية على وجه العموم. وبلغت هذه العملية (أي انتشار الاسلام والعروبة) نهايتها بالقضاء على الدولة النوبية المسيحية (١٥٠٤) وقيام دولة الفونج الاسلامية مكانها.

والواقع ان هذه الدولة كانت تحالفا بين قبائل المنطقة وزعمائها، وكانت تدار من سنار عاصمة الدولة الجديدة (تقع سنار على بعد ٢٧٠ كيلو متراً جنوبي الخرطوم). ومع ان سلطة الفونج كانت مقبولة لدى رقعة واسعة في السودان، فإن سلطنة كردفان نازعتها النفوذ (انشئت هذه السلطنة سنة ١٥٩٦). وبسبب من الحروب المتوالية بين الفونج من جهة وسلطنة كردفان غرباً، والحبشة (اثيوبيا) شرقاً، أصاب الوهن الفونج بحيث انها لم تكن، في مطلع القرن التاسع عشر سوى شبح من الدولة القوية الاولى.

تولى محمد علي باشا شؤون مصر سنة ١٨٠٥، وكان رجلاً شديد الطموح، وأراد ان يجعل مصر قوية غنية، فكان بين ما خطط له ان يحتل السودان، طمعاً في ذهبه وفي رقيقه ـ الاول ليملأ خزينته والثاني للحصول على الجنود اللازمين لحروبه وفتوحاته. ومع ان الفتح تم سنة ١٨٢١، لما استسلم آخر ملوك سنار، ومع ان مصر توسعت بحيث انها وصلت في سيطرتها رأس حفون في أيام الخديوي اسماعيل (١٨٧٧)، ومع ان المصريين ظلوا يحكمون السودان حتى سنة ١٨٨٥، فإن أملي محمد علي في السودان لم يتحققا. فلم يعثر على الذهب اذ ان مناجم العلاقي المعروفة في العصور الوسطى كانت قد استنزفت، ولأن السودانيين لم يستطيعوا ان يكونوا عنصراً هاماً في الجيش المصري.

وقد غلب على السودان انها عادت ولايات تتبع حدود القبائل ومواطنها، على ما كانت عليه أيام الفونج، في الفترة التي تلت أيام محمد علي. واضطربت الامور، ادارياً واقتصادياً في أيام الخديوي اسماعيل ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩، بحيث انه لما قام محمد أحمد عبدالله بحركته وأعلن نفسه المهدي (١٨٨١) ودعا الى الجهاد ضد الاتراك (ومعهم المصريون طبعاً) ووضع اصلاح حال المسلمين نصب أعين الناس، وجد التربة خصبة لهذه الدعوة، وعمل في سبيل ذلك حتى احتل الخرطوم (١٨٨٥). وهكذا، فقد حكم السودانيون أنفسهم أيام المهدي (١٨٨١ ـ ١٨٨٥) وخليفته عبدالله (١٨٨٥ ـ ١٨٩٨).

وجد القائمون على شؤون مصر في أواخر عهد المهدي ان الانسحاب من السودان هو السبيل السوي، فتم ذلك بقيادة غوردن الذي قتل في الخرطوم (١٨٨٥) لما احتلتها قوات المهدي. وهذا الانسحاب جاء بعد احتلال بريطانية لمصر (١٨٨٢). الا ان السودان تعرض الى احتلال جديد على يد جيش مصري ـ انكليزي (١٨٩٦ ـ ١٨٩٨). وكان الباعث على ذلك رغبة بريطانية في تأمين مصالحها في السودان وأعالي النيل وسبق فرنسة وغيرها من الدول الاوروبية الى تلك الاصقاع. فأنهى هذا الاحتلال الجديد دولة المهدي (٢ ايلول/ سبتمبر ١٨٩٨). وأقيم في السنة التالية (١٨٩٩) نظام الحكم الثنائي الذي كان السودان، بموجبه، تحكمه مصر وانكلترا متضامنتين متكافلتين، على ان تقرير الامور كان بيد بريطانية وكانت ادارة السودان تسير على غرار الادارة الاستعمارية البريطانية. ولما سحبت القوات المصرية من السودان (١٩٢٤) أخذت بريطانية نفسها بخلق نوع من الحكم غير المباشر، ولو شكلاً، اعتمدت فيه على ما كان باقياً من القبائل وزعامتها، مع ايجاد مجلس اداري هنا ومجلس هناك.

الاستقلال

بين ١٩٢٤ والسنوات السابقة للحرب العالمية الثانية كانت الادارة السودانية راكدة، والاهتمام بالتعليم ضئيلاً، فكلية غوردن (انشئت ١٩٠٢) كانت لا تعدو كونها مدرسة لتدريب الموظفين والفنيين. والمشروع الوحيد الذي نُمي في تلك الفترة هو مشروع الجزيرة لزراعة القطن أصلاً. وبذلك ارتفعت واردات الادارة من حول ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني سنة ١٩١٤ الى ما يزيد عن أربعة ملايين جنيه سوداني سنة ١٩٣٦.

تجمعت خيوط الحركات القومية والنزعات الاستقلالية في أواسط الثلاثينات (من القرن العشرين). ولعل انشاء مؤتمر الخرجين (١٩٣٦) كان أكبر مظهر للحركة الوطنية. ولعل الحركة الوطنية التي نشطت خلال الحرب العالمية الثانية في السودان كما نشطت في أقطار عربية أخرى، وجدت ما يشجعها في قيام الثورة المصرية (١٩٥٢). وانتهى الأمر بأن استقل السودان، بعد سنوات من الجهد والجهاد، داخلياً

وخارجياً، في (كانون الاول ـ ديسمبر) سنة ١٩٥٥، واعترفت بريطانية ومصر بذلك، واعتبر اليوم الاول من عام ١٩٥٦ يوم استقلال السودان.

وخلال الفترة التي قطعها السودان منذ استقلاله مرت عليه فترة الادارة البرلمانية (١٩٥٦ ـ ١٩٥٨) ثم فترة الادارة العسكرية بقيادة الجنرال أحمد عبود (١٩٥٨ ـ ١٩٦٤). وعادت البلاد الى ادارة مدنية (١٩٦٤ـ ١٩٦٩). وفي تلك السنة تولى الجنرال جعفر محمد النميري إدارة شؤون السودان حتى اطيح به في انقلاب عسكري جاء بعمر البشير رئيساً. وفي الفترة الاولى (١٩٥٦ ـ ٥٨) أثبت السودان وجوده دولياً فانضم الى جامعة الدولة العربية والأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية.

الحياة الاقتصادية

خصائص الحياة الاقتصادية: ثمة بضعة أمور يجب ان يذكرها الواحد منا كي يتفهم الحياة الاقتصادية في السودان. أول هذه ان الاقتصاد السوداني لا يزال عماده الزراعة والرعي. والزراعي، بالنسبة لهذا الحديث، يتناول اموراً أكثر من مجرد حراثة الارض وريها وجمع الغلة. ان الغابات وموارداها والحيوانات ونتاجها والشواطىء (والأنهار الداخلية) وأسماكها هي جزء من الحياة الزراعية. أما المراعي في السودان فتعيش فيها آلاف الحيوانات الاليفة التي تقدم الغذاء للسكان ومواد للتصدير. والقسم الاكبر من ملايين الايدي العاملة السودانية يعمل في قطاع الزراعة والرعي. والأمر الثاني المتعلق بالحياة الاقتصادية هو ان تقليدية الحياة الاقتصادية جعلت دخل الفرد متدنياً. ففي سنة ١٩٧٠/١٩٧١ كان دخل الفرد يزيد قليلاً عن مئة دولار سنوياً. صحيح انه بلغ ٢٤٢ دولاراً ١٩٧٤ ـ ٧٥، الا ان هذا هو من نوع التضخم ليس إلاّ.

وثالثاً هناك سيطرة القطاع العام وتغلبه في مجالات الحياة الاقتصادية. ففي الخطة السداسية للتنمية ١٩٧٧/٧٨ ـ ١٩٨٢/٨٣ تبلغ حصة القطاع العام ٥١٪ والقطاع الخاص حصته ٤٩٪. والدولة هي المشجعة والمنظمة للصناعات على العموم.

الزراعة: ان العامل الرئيس في تطور وتطوير الحياة الزراعية في السودان هو الحصول على الماء. والحصول على ماء الشفة، للإنسان والحيوان، وخاصة قبل فصل سقوط المطر وبعد الانتهاء من الزرع وبدء فصل جمع الحصاد، صعب جداً. وتبلغ مساحة الاراضي الصالحة للاستغلال الزراعي في السودان ما يزيد عن مئتي مليون فدان، ولا يزيد المستغل منها زراعياً عن ٨٪ والذي يروى هو أقل من أربعة ملايين. ونصف هذه المساحة في مشروع الجزيرة، والباقي ترويه مياه الفيضان المنحدرة من نهري غاش وبركه (في شرق السودان) ومياه النيل.

وقد كان ثمة خلاف مستمر حول حصة كل من مصر والسودان من مياه النيل. لكن اتفاق ١٩٥٩ حدد الحصة لكل منهما، وإنشاء سدي الرصيرص وخشم الغربة (اللذين لم يتما بعد لأسباب ادارية مختلفة) كان من المفروض ان يحل هذه القضية

بالنسبة للسودان. وبالإضافة الى انشاء السدين المذكورين فهناك عدد من المشاريع الزراعية التي ستزيد من القدرة الانتاجية للزراعة السودانية. فهناك (١) مشروع تنويع المزروعات في الجزيرة وتوسيعاتها (المناجل) بحيث يزرع القمح والفول السوداني والخضار والقطاني. (٢) مشروع جونغلي لزيادة أراضي الري في مجرى النيل نفسه. (٣) مشروع الرهد الذي يعتمد على سد الرصيرص، وبذلك يزداد منتوج القمح والفول السوداني والخضار. (٤) مشروع سوكي في الولاية الشمالية. ومع ذلك فإن الاراضي التي تعتمد على المطر في زراعتها لها أهميتها الخاصة، ان لم تكن أكثر أهمية بالنسبة للزراعة في السودان. والأرض التي يعتمد انتاجها على الأمطار قد تتسع او تتقلص تبعاً لسقوط المطر. والمواد الغذائية، باستثناء الفول السوداني، تنتجها اراضي المطر. ففي المواد الغذائية الأساسية يعتبر السودان مكتفياً ذاتياً. وهذه المواد هي الذرة واللحوم والزيوت والملح.

والثروة الحيوانية في السودان هامة اذ ان حصتها من الدخل القومي العام هو ١٠٪ وقد قدرت اعداد الحيوانات المختلفة (١٩٧٧) بنحو ١٦ مليوناً من الابقار و١٥ مليوناً من الخراف و١٣ مليوناً من الماعز وثلاثة ملايين من الابل.

وغابات السودان تزود البلاد بالصمغ العربي (وهو مادة للتصدير) وأنواع الاخشاب. كما ان السودان غني بحيوانه البحري. فمصايد الاسماك الداخلية تغطي ما مساحته ٢٠,٠٠٠ كم٢، والمصايد البحرية تمتد ٧٠٠ كيلو متر على شواطىء البحر الاحمر. وتقدر قيمة الأسماك وغيرها من الحيوانات المائية بنحو عشرة ملايين جنيه سوداني.

أما فيما يتعلق بالمنتوجات الزراعية بالذات، فإن القطن هو أهم منتوج زراعي من حيث قيمته الاقتصادية. فهو المحصول الاول على جدول الصادرات، والمحصل الرئيسي للنقد الاجنبي، والمحرك الاول للدخل في السودان. والذرة هي منتوج السودان الزراعي الاساسي بالنسبة الى السكان لأنها أساس خبزهم. والحكومة مهتمة، كما ذكرنا من قبل، بتنويع المزروعات والنباتات في المناطق المختلفة، ومنها زيادة الأراضي التي تزرع قمحاً وفولاً سودانياً. وقصب السكر أخذ يحتل منزلة خاصة في الزراعة. ومع الاهتمام بقصب السكر فهناك عناية بصناعة السكر. ومنذ سنة ١٩٧٤ والمشاريع المتعلقة بمصانع السكر قائمة على ساق وقدم. فهناك مخططات لمصانع لتكرير السكر في سنار وميلوت (مع عون من بلجيكا) ومونقلا (بالتعاون مع تشيكوسلوفاكيا). ومتى تمت هذه المصانع وغيرها يصبح منتوج السكر الابيض النقي ٨١٥,٠٠٠ طن سنوياً (في أوائل الثمانينات).

ان عدداً من الصموغ تنتجها غابات السودان، وقد كانت مادة للتصدير منذ ألفي سنة على أقل تقدير. وفي مقدمتها الصمغ العربي الذي قدر بنحو ١٠٪ من صادرات

السودان سنة ١٩٦٩ (و٥٪ سنة ١٩٧٣). والصمغ العربي ظل مدة طويلة يشغل المنزلة الثانية بين صادرات السودان الزراعية، حتى سنة ١٩٧١ لما سبقه الفول السوداني. (في سنة ١٩٧٤ كان ثمن الصمغ العربي المصدر يزيد قليلاً عن ١٤ مليون جنيه سوداني!). والصمغ العربي أهم نتاج الغابات في البلاد، ومع أنه لا يزال يجمع على الطريقة التقليدية، فإنه «منتوج يحّصل نقداً»، ويصدر جميعه. وقد كان السودان أكبر منتج للصمغ العربي في الستينات، إذ انه أنتج ٩٢٪ من منتوج العالم (١٩٦٢ ـ ٦٦). الا ان هذا الموضع انتقلت اليه بلدان اخرى، اذ إن منتوج السودان بالنسبة الى المنتوج العالمي كان (١٩٧٣ ـ ٧٤) ٤٨٪ فقط.

الصناعة: كان حلج القطن أول صناعة شجعت في مطلع القرن العشرين. وقد ازداد الاهتمام بحلج القطن مع التوسع بزراعة القطن بالذات، بحيث ان «مؤسسة الجزيرة» وحدها تملك أكبر مجموعة في العالم من محالج القطن التي هي تحت ادارة واحدة. ومن القطن يستخرج الزيت من بذره. ويقشر الفول السوداني تمهيداً لتصديره. (المعادن الموجودة في السودان قليلة وتساوي ١٪ من قيمة الصادرات، وهي تصدر بشكلها الخام، وتشمل النحاس والحديد والميكا والكروميت). والصناعات التي عرفها السودان حتى سنة ١٩٦٠ هي: الصابون والمرطبات وعصر الزيوت؛ أما بعد ١٩٦٠ (أي بعد الاستقلال) فقد أخذت الحكومة تعنى بالصناعة وتنظمها وتشرف عليها. وفي سنة ١٩٦٢ انشأت الحكومة «مؤسسة التنمية الصناعية» للاشراف على الصناعات المرتبطة بالقطاع العام. وخلال بضع سنوات كان للمؤسسة اشراف على تسعة مصانع.

كان مصنع السكر في الجنيد أول مصنع انشىء، وقد بدأ انتاجه (١٩٦١) بكمية هي ٦٠,٠٠٠ طن. وفي سنة ١٩٦٣ انشىء مصنع خشم القربة (للسكر أيضاً). وفي هذه الفترة بالذات انشأت الحكومة مصنعاً للدباغة وآخر لتجفيف البصل (في كسلا) وثالث للتعليب (في واو).

أما القطاع الخاص فقد كان له دور هام في عملية التصنيع. ففي سنوات ١٩٦٠ ـ ١٩٦٩ استثمر القطاع الخاص ٣٦ مليون جنيه سوداني في الصناعة وذلك في صناعة المنسوجات والصابون وعصر الزيوت والأحذية والمرطبات والطباعة والطحين. وزاد دور القطاع الخاص في السبعينات، فاستثمر ٥٣ مليون جنيه سوداني لتحسين المواصلات والآلات والمعدات. والمواصلات مورد ربح هام للقطاع الخاص بسبب النقص الذي تعانيه البلاد.

وحري بالذكر ان الحكومة شجعت التصنيع الى درجة كبيرة. فالقوانين التي أصدرتها (١٩٥٩ و١٩٦٧ و١٩٧٢ و١٩٧٤) كانت الغاية منها تشجيع الصناعة اما بإعفاء المؤسسات الناشئة من الضريبة لمدة معينة او بإنشاء المصرف الصناعي وغير ذلك.

والواقع ان الدولة تشجع صناعة الاقمشة والملبوسات وصناعة السكر كثيراً، على أساس ان السودان يجب ان يصبح مكتفياً ذاتياً. فقد تم مؤخراً انشاء خمسة مصانع للأقمشة، هذا غير المخطط له، كما تم انشاء (وتوسيع) مصانع للسكر.

وعملت شركات مؤخراً للتنقيب عن النفط في السودان. بدأ هذا سنة ١٩٧٣، وتم استخراج البترول في اواخر التسعينات. وثمة مشروع لإنشاء مصفاة ثانية لتكرير النفط في بور سودان. وقد بني خط أنابيب نفط من بور سودان الى الخرطوم (١٩٧٧) طوله ٨٥٠ كم.

خطط التنمية: في أعقاب الحرب العالمية الثانية أصاب العالم الراغب باللحاق بالدول المتقدمة صناعياً حمى «الخطط الثلاثية والرباعية والخماسية» الخ للتنمية. وقد وقعت بلاد كثيرة في اخطاء كبيرة بسبب جهل الأسس القويمة لمثل هذه المخططات. وشمل الجهل ابناء البلاد والخبراء الاجانب، الذين انتدبتهم حكوماتهم او حتى المنظمات الدولية. لم يكن لا هؤلاء ولا اولئك يعرفون عن العلاقة بين الخطة والبرنامج كما عرف نظرياً على الورق، وبين الأحوال الخاصة والواقع في البلاد التي ذهبوا اليها (لعل معرفة أكثرهم لم تتعد كتاب جيب عن العرب او الشرق الاوسط مثلاً، أو ما تزودهم به وزارات الخارجية من كتيبات فيها الكثير مما يضحك أو يبكي لكنه لا يفيد). ولم يسلم السودان من مثل هذه الاخطاء في محاولاته وضع خطط للتنمية وخاصة في السنوات الاولى من الحكم الذاتي (١٩٤٦ ـ ٥١ و١٩٥١ ـ ٥٦) وبدء استقلاله (١٩٥٦ وما بعدها). وعلى كل فقد بدأت الخطط المنظمة سنة ١٩٦١ إذ وضعت الخطة العشرية (٦٢/١٩٦١ ـ ٧١/١٩٧٠) وخصصت لها موازنة هي ٥٦٥ مليون جنيه سوداني. وكانت حصة القطاع العام ٦٠٪ والقطاع الخاص ٤٠٪. وجاءت الخطة الثانية وهي الخمسية (٧١/١٩٧٠ ـ ٧٦/١٩٧٥، ومددت هذه الى سنة ١٩٧٧). أما الخطة التي تلت فهي خطة سداسية (٧٨/١٩٧٧ ـ ٨٣/١٩٨٢) وموازنتها ٢,٦٧٠ مليون جنيه سوداني. وللقطاع الخاص منها ٤١٪ والباقي (٥٩٪) للقطاع العام. وتوزع مخصصات الخطة السداسية على النحو التالي: للزراعة والري ٣٢٪؛ للصناعة والتعدين وللطاقة والسياحة ٢٥٪؛ للخدمات الاجتماعية والادارة ١٩٪ وما تبقى (٢٤٪) لمشاريع أخرى.

وثمة صعوبات اعترضت الخطة السداسية الحالية منها النقص في التمويل المحلي والاجنبي والضعف في وسائل النقل (السكك الحديدية بشكل خاص) والطاقة والاسمنت.

والحكومة السودانية تعتمد في موازنتها، وتحقيق ذلك، على الضرائب غير المباشرة التي تبلغ حول ٤٨٪. أما الضرائب المباشرة فهي ٩٪. والباقي تحصل عليه الحكومة من التمغة (الطابع الاميري) ومجلس الجزيرة واحتكار السكر وموارد أخرى.

تعتمد الحكومة السودانية على العون الخارجي، على نحو ما تعتمد حكومات العالم الثالث. وقد قدمت دول الكتلة الشرقية بين ١٩٦٠ و١٩٦٩ مساعدات معينة. فأنشأت يوغوسلافيا ثلاث مدابغ للجلود ومصنعاً للكرتون وقدمت ثلاث سفن لأسطول السودان التجاري. وساعدت رومانيا في تنظيم الملاحة النهرية وأسهمت في التنقيب عن البترول (١٩٧٣). أما حصة روسيا فكانت رافعتين للحبوب ومصانع للألبان وتصنيع المواد الغذائية، ومختبرات بيطرية. ومنذ سنة ١٩٧١ أصبحت الحكومة السودانية تتلقى العون من الدول الغربية والصين. فالصين بنت جزءاً من الطريق البري من الخرطوم الى بور سودان (١٩٧٧) كما أقامت قاعة المؤتمر في الخرطوم، رمزاً للصداقة الصينية ـ السودانية. ونحن إذا تناولنا الأرقام التي دفعتها الولايات المتحدة او بريطانية أو غيرهما للسودان نراها ضئيلة. لكن هناك قروضاً ضخمة طويلة الأجل بفوائد منخفضة. وحري بالذكر ان ثلاثا من دول السوق الاوروبية المشتركة (المانية الاتحادية وبريطانية وهولاندا) تنازلت (١٩٧٨) عن ديون كانت مستحقة لها على السودان واعتبرتها هبات. والمبلغ المدين به كان ٢١٨ مليون دولار (لألمانية الاتحادية) ونحو ١٠ ملايين جنيه سوداني (بريطانية) و١٩ مليون دولار (لهولاندا). وهذا المبلغ في مجموعه (أي ٢٦٦ مليون دولار) نقص المطلوب من السودان بما يساوي ١٦٪.

التجارة الخارجية: يصدر السودان (بحسب سنة ١٩٧٥ وهي آخر ما حصلنا عليه من احصاءات) القطن المحلوج (قيمته نحو ٦٨ مليون جنيه سوداني) والفول السوداني (نحو ٣٤ مليون ج.س.) والسمسم (نحو ١٢ مليون ج.س.) ويلي ذلك منتوجات زراعية أخرى او حيوانات. أما واردات السودان فهي كثيرة، وهي، من حيث ترتيب أهميتها (لسنة ١٩٧٦ أيضاً) وقيمتها: المعدات لوسائل النقل والمواصلات (نحو ٦٤ مليون ج.س)، والآلات (نحو ٥٩ مليون ج.س.)، المنسوجات (٤٣ مليون ج.س.)، السكر (نحو ٤٠ مليون ج.س.)، مشتقات النفط (نحو ٢٧٠ مليون ج.س.)، والحديد والفولاذ (نحو ١٣ مليون ج.س.). وقد بلغت قيمة الواردات (١٩٧٧) نحو ٤٠٠ مليون جنيه سوداني، كما بلغت قيمة الصادرات نحو ٢٣٣ مليون جنيه سوداني. ويستورد السودان من الدول التالية (هذا الترتيب مبني على قيمة الواردات من تلك الدولة سنة ١٩٧٥): بريطانية واليابان والمانية الاتحادية والهند وايطالية والعراق والصين. أما الدول التي يصدر اليها فهي (مرتبة على الأساس السابق ذكره): ايطالية وفرنسة والصين ومصر والمانية الاتحادية ويوغوسلافية وبريطانية.

المواصلات: يعتمد السودان في مواصلاته على السكك الحديدية، أما السفن النهرية والسيارات فلها دور ثانوي في تنقل السكان ونقل البضائع. فالطرق العادية في السودان هي ٨٢١ كم من الطرق المعبدة والمزفتة. والطرق الصالحة للاستعمال مع أنها

غير مزفتة هي ٤,٩٣٦ كم. اما الطرق المكشوفة والمعينة فقط فهي ١٢,٤٩٢كم. ومجموع هذا هو ١٨,٢٤٩ كم. وهذه الشبكة من الطرق (من الدرجة الثالثة فما دون) تقع في بلاد مساحتها ٢,٥ مليون كم٢، أي ان كل ٢٥٠ كم لها نحو ٧٣٠ متراً من الطرق. ولا شك ان طبيعة البلاد السودانية واتساعها يحولان دون انشاء الكثير من الطرق. ومن هنا كانت العناية بالسكك الحديدية. وهذه مع تحسينها لا تزال أقل من الحاجة. طول السكك ٤,٧٨١ كم (بمعنى انه لدى مقابلتها بالطرق البرية تكون حصة كل ٢٥٠ كم٢ هي ٤٧٥ متراً). وفي البلاد سفن نهرية من أشكال وأعمار مختلفة، لكنها تنقل الركاب والمتاجر عبر ٤,٠٦٨ كم. لكن الوسيلة التي أخذ الكثيرون، خاصة رجال الاعمال وموظفو الحكومة، يلجأون اليها في الآونة الاخيرة لتنقلهم هي طريق الجو. فالخطوط الجوية السودانية (أنشئت ١٩٤٧) تربط الخرطوم بعشرين بلدة ومدينة سودانية (كما ان رحلاتها الى الخارج تربط السودان بالشرق الاوسط وشمال افريقية وأوروبة).

الحكومة والادارة

آخر دستور سوداني أقره مجلس الشعب في القرن العشرين كان في نسان (ابريل) ١٩٧٣. وبموجبه يرئس الدولة رئيس (للجمهورية) هو أيضاً القائد الاعلى للقوات المسلحة ورئيس الادارة. وللبلاد مجلس الشعب وهو البرلمان، مدة عضويته أربع سنوات. وللمنطقة الجنوبية وضع خاص بحيث ان لها مجلس شعب اقليمياً وحكومة خاصة بها. ومركز ادارة المنطقة الجنوبية هو جوبا، ورئيس الادارة الاقليمية هو حكما نائب رئيس الجمهورية.

ومجلس الشعب (القومي) اصبح عدد اعضائه ٣٠٤ (هذا بعد انتخابات ١٩٧٨). ومن هؤلاء ٢٧٤ ينتخبون بالاقتراع العام (لمدة أربع سنوات)، وثلاثون عضواً يسميهم العمال وغيرهم من المنظمات ورئيس الجمهورية. أما مجلس الشعب الاقليمي فيتكون من ستين عضواً، يمثل ثلاثون منهم وحدات جغرافية و٢١ قوى الشعب العامل وتسعة يمثلون الوحدات الادارية.

والسودان مقسم اداريا الى ثماني عشرة من المديريات هي: مديرية البحر الاحمر ومديرية النيل والمديرية الشمالية ومديرية كسلا ومديرية الخرطوم ومديرية الجزيرة ومديرية النيل الابيض ومديرية شمال كردفان ومديرية شمال دارفور ومديرية النيل الازرق ومديرية جنوب كردفان ومديرية جنوب دارفور ومديرية اعالي النيل ومديرية جونقلي ومديرية البحيرات ومديرية بحر الغزال ومديرية شرق الاستوائية ومديرية غرب الاستوائية. والمديريات الجنوبية هي التي تتمتع بإدارة اقليمية تشمل المنطقة الجنوبية ولها صلاحيات واسعة، الا فيما يتعلق بالشؤون التي تخص الجمهورية السودانية بأجمعها مثل الدفاع والسياسة الخارجية والتجارة الخارجية والنقد وقضايا الجنسية والهجرة والجمارك.

والمـدن الرئيسـة فـي السـودان هي الخـرطوم وأم درمـان والخـرطوم بحـري وبور سودان ووادي مدني وعطبرة وجوبا.

السكان والتعليم

لسنا نريد ان نعيد هنا ما ذكرناه قبلاً عن السكان عدداً وكثافة وانتشاراً، لكننا نريد ان نتعرف الى السكان في أساليب عملهم، إذ يختلف السودان عن كثير من الاقطار العربية في ان ١٠٪ فقط من سكانه يقطنون المدن والبلدان (مقابل ما بين ٣٥٪ و٤٠٪ في بعض الاقطار العربية). ويمكن القول اجمالا بأن الذين يعملون في الرعي (أو تربية الماشية في المراعي الطبيعية) من سكان السودان يتراوحون بين ٣٠٪ و٤٠٪. وهؤلاء بطبيعة الحال، يعيشون حياة بدوية او شبيهة بذلك. ونحن إذا أخذنا هؤلاء الرعاة (البدو) وجدنا انهم ينقسمون، عموماً، الى نوعين: رعاة الابل ورعاة الابقار. ولأن الجمل يتحمل العطش اكثر من غيره من الحيوانات الاخرى، فإن مدى تحركه هو نحو ٨٠ كيلو متراً بدون الماء. والمنطقة التي تربى فيها الابل تمتد من الحدود المصرية الى خط عرض الابيض (حول ١٣ شمالاً). ولا يجرؤ الجمل على تجاوز هذا الخط بسبب وجود ذبابة الغفار التي تؤذيه. وفي الجنوب الغربي تحد ذبابة تسي تسي من نشاط الرعاة (والزراع)، كما يكثر الجراد والبعوض في الجهات الجنوبية. ويوجد الجمل شرقي النيل، في مرتفعات البحر الاحمر. أما في الغرب فالجمل يعيش داخل حدود ليبيا وتشاد حتى خط طول ١٨ شرقاً. بعد هذا الحد تصبح الصحراء جافة حتى بالنسبة لهذا الحيوان الشديد المراس.

والكبابيش أمهر القبائل من حيث تربية الابل، بين القبائل التي تقطن غربي النيل. وتنقسم سنتهم قسمين: الاول يمتد من حزيران (يونيو) الى كانون الاول (ديسمبر) وهو وقت التنقل سعياً وراء الكلأ الذي يكثر نسبياً بعد سقوط المطر (ولو أنه قليل). فإذا استهلكت حيواناتهم الكلأ استقروا فيما تبقى من العام على مقربة من الآبار والواحات، ذلك بأن الفصل فصل الجفاف، والارض أعجز من ان تزود الحيوانات بحاجتها من العشب.

ويقيم البجا الى الشرق من النيل، وهم يعملون في تربية الابل، شأنهم شأن الكبابيش، ويعيشون الحياة نفسها. على أن القبيلتين تختلفان عرقيا ـ فالكبابيش يغلب عليهم انهم عرب (من أصل سامي)، فيما نجد ان البجا هم حاميو الاصل. ومع أنهم يتكلمون لهجة عربية خاصة بهم، فإنهم يحتفظون بلغتهم الاصلية ـ تبداوي ـ أيضاً.

أما مناطق رعاة الأبقار فتقع الى الجنوب من خط العرض ١٣ شمالاً (خط عرض الابيض). فالبقرة لها هنا مكانة مرموقة في حياة السكان. فهي رمز الشرف والثراء، وسبيل المقايضة في التجارة وغيرها من الاعمال. ويعيش رعاة البقر الحياة ذاتها التي يعيشها رعاة الابل، من حيث بداوتها وتنقلها. ومما تجب ملاحظته، بالنسبة الى رعاة

البقر في السودان، هو ان الحيوانات تبتعد عن المياه ـ أيام الفيضان ـ فتلجأ الى الاماكن المرتفعة نسبياً.

ومربو الابقار، ولو أنهم يسمون البقارة، يتألفون من عروق متنوعة. فمنهم القبائل العربية الاصل في جنوب دارفور وكردفان، وقبائل نيلوتية في منطقة النيل الاعلى ـ الشلوك والدنكة والنوير. وقد يقوم البعض منهم بأعمال زراعية، لكن رعاية الابقار هي الأساس في حياتهم. والرعاة هؤلاء لا يعدمون الماء والكلأ، لكن الاحوال تحملهم على التنقل. ففي فصل الشتاء الجاف يقيمون حول ضفاف نهر العرب في جنوب كردفان ودارفور. ولكن عندما يبدأ فصل الامطار (وهي غزيرة هناك) تصبح الارض مغطاة بالمستنقعات وتهاجم ذبابة تسي تسي الحيوانات، فيرحل رعاتها بها الى الشمال (حول خط عرض ١٢ شمالا) حيث تقضي الحيوانات بقية العام. ويقوم جماعة من البقارة، قبل انتقالهم شمالا، بزرع الارض بالذرة، فاذا عادوا بعد تنقلهم شمالاً حصدوا المحصول وأكلوه. لكن هذا لا يكفي، لذلك يلجأون الى أسواق نيالا وأبو زبد يبيعون هناك ما يصنعونه من الزبد والجبن وما ينظفون من الجلود، ويبتاعون السكر والشاي والقطن والحبوب.

والبقارة، كما رأينا، اسم يطلق عليهم بسبب عملهم، الا انهم هم من الشلوك، الذين يعيشون غربي النيل الابيض وفي مجاري نهر سوباط الدنيا. وهذه الجماعة آخذة في الانتقال الى الحياة الزراعية. أما الدنكا والنوير منهم، الذين يقطنون الاحواض الدنيا لأنهار الغزال والجبل وسوباط، أكثر ارتباطاً بحياتهم التقليدية والحيوانات التي يربونها. بلادهم مسطحة واسعة، يقيمون أكواخهم على ما نشز من الارض، أما حياتهم في السهول فحياة بدو!.

بين رعاة الابل في الشمال ورعاة الابقار في الجنوب، تمتد الرقعة التي تغلب عليها الجماعات المستقرة والتي تعمل في الزراعة، وهي تشمل جانبي وادي النيل وهضبة كردفان ودارفور والمنطقة الممتدة جنوباً في غرب حتى حدود زائير. وهضبة دارفور وكردفان تقطنها قبائل الفور والنوبا وغيرها، وهي جماعات اتخذت من الزراعة مهنة. ومثل ذلك يقال عن الازانده الذين يقطنون في المرتفعات التي تكوّن خط تقسيم المياه بين نهر الغزال ونهر الكونغو. الا ان أكثر المناطق الزراعية المستقرة أهمية في حياة السودان هي، كما مر بنا، منطقة الجزيرة.

في القطر عناية كبرى بتطوير التعليم في مراحله المختلفة. ومما يذكر في هذا السبيل ان مديريات التعليم في الولايات (او المحافظات) أعطيت سلطة لا يستهان بها في سبيل مراقبة التعليم في مناطقها. والحكومة تيسر تعليماً ابتدائياً مجانيًا (من سن ٧ ـ ١٢) ومتوسطا مجانيا (من سن ١٣ ـ ١٥) وثانويا، مجانا أيضاً، (من سن ١٦ ـ ١٨). وقد خصصت الحكومة السودانية في موازنة ٧٦ ـ ١٩٧٩ مبلغ ١٠,٣ مليون جنيه

سوداني لشؤون التعليم، وهي نسبة متواضعة ٣,٤٪. وفي الخطة السداسية خصص مبلغ ١٠٠ مليون جنيه سوداني لشؤون التربية والتعليم (من أصل موازنة قيمتها ٢٦٧٠ ج.س. أي ٣,٧٥٪).

في مجال التعليم الابتدائي ارتفع عدد الطلاب من نحو ٦١١ الفا (١٩٦٩) الى ١,٢١٨ ألفاً (١٩٧٧). كما زاد عدد المعلمين من ١٢,٣٧٠ (١٩٦٩) الى ٣٣,٧١٨ (١٩٧٧). وبلغ عدد التلاميذ في الأقسام الابتدائية في الجنوب ١١٠ آلاف (١٩٧٧) بعد ان كان ٥٣,٠٠٠ (١٩٧١).

ويتلو التعليم الابتدائي الدور المتوسط، وهو أكاديمي (علمي) أصلاً، ويلي ذلك ثلاث سنوات من التعليم الثانوي، وهذا مقسوم الى أكاديمي (علمي) ومهني (أو فني) وتدريب معلمين. يبدأ تعليم اللغة الانكليزية (اللغة الاجنبية الاولى) أول المرحلة المتوسطة (١٣ سنة) وتعليم الفرنسية (اللغة الاجنبية الثانية) يبدأ مع المرحلة الثانوية (١٦ سنة).

وتقوم على التعليم العالي في البلاد خمس جامعات ومؤسسة الكليات الفنية في الخرطوم (كانت تعرف باسم المعهد العلمي العالي من قبل). والجامعات الآن تنوع اتجاهاتها. وأقدم جامعات السودان، من حيث عمرها، هي جامعة الخرطوم، التي انشئت مدرسة باسم كلية غوردن (١٩٠٢) لتخريج موظفين للدولة. وظلت على ذلك حتى بعد الحرب العالمية الاولى بحيث أصبحت مدرسة ثانوية، فكلية جامعية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فجامعة الخرطوم بعد ذلك. وكان لجامعة القاهرة فرع في الخرطوم، وهو مؤسسة قديمة نسبيا. أما الجامعات الجديدة في السودان فهي جامعة ام درمان الاسلامية، وجامعة جوبا وجامعة الجزيرة في واد مدني (افتتحت ١٩٧٨). وهاتان الجامعتان تعنيان بتطوير الريف والمشكلات المرتبطة بذلك.

أما مؤسسة الكليات الفنية ففيها ألف تلميذ، وقد خطط لها ان يصبح عدد طلابها ثلاثة آلاف في الخطة السداسية.

كان السودان، اثناء الحكم البريطاني، معزولاً عن العالم ـ عربيه وغربيه. ولكن بعد الاستقلال أخذ يعوض عما سبق بالانفتاح على العالم والاتصال به ـ فكرياً وأدبياً. الا ان ثمة صعوبات تقف في الطريق ـ طريق الكتاب ـ أهمها القيود المالية. لكن السودان ليس وحده في هذا المجال ـ لا في العالم العربي ولا في العالم المماثل له!.

٨- جيبوتي

تحيط أراضي جمهورية جيبوتي بخليج تاجورة احاطة السوار بالمعصم، لكنه سوار عريض، اذ يتراوح عرضه بين مئة ومئة وعشرين من الكيلومترات. وتقع البلاد في القرن الافريقي (الشرقي) في مقابل مضيق باب المندب الذي يصل البحر الاحمر بخليج عدن. ويتضح من هذا ان جيبوتي تحتل مركزاً استراتيجياً هاماً بالنسبة الى الطريق البحري الذي يصل مصر (وبعدها البحر المتوسط) بخليج عدن (وبعده المحيط الهندي). وهذا هو الامر الرئيس الذي حدّد تاريخ جيبوتي (وعدن والصومال) في الازمنة الحديثة.

تحيط اثيوبيا بجيبوتي من الشمال والغرب والجنوب الغربي. أما في الجنوب فإن جيبوتي تشترك حدودها مع الصومال. وتبلغ مساحة جمهورية جيبوتي ثلاثة وعشرين ألف كيلومتر مربع، ويبلغ طول ساحلها، وخليج تاجورة يمتد طويلاً الى الداخل، ثمانمئة كيلومتر من دوميرا الى لوياده، شمالاً في جنوب.

جيبوتبي بلاد صحراوية تتكون، في غالبيتها، من هضاب بركانية قليلة الارتفاع، تحيط بها في بعض اجزائها، سهول منخفضة وبحيرات، بعضها هو تحت سطح البحر، مثل بحيرة عَسّال التي تنخفض ١٥٠ متراً تحت سطح البحر. وتصل بعض الجبال، مثل جبل موسى علي، الى نحو الفي متر في الارتفاع، ويليه جبل داوادايا (١٤٣٠ متراً) وجبل ريما (١٢٦٠ متراً). وأكثر الجبال المرتفعة هذه تقع الى الشمال من خليج تاجورة. اما داوادايا فإنه يقع في الطرف الجنوبي للبلاد.

مناخ جيبوتي شديد الحرارة في أكثر أيام السنة. فالحرارة في العاصمة جيبوتي معدلها ثلاثون درجة على مدار السنة، وان كانت تتمتع بانخفاض ضئيل في درجة الحرارة بين شهري تشرين الثاني (نوفمبر) ونيسان (ابريل). والرطوبة عالية على السواحل، وان كانت تنخفض انخفاضاً ملحوظاً في الداخل. والمطر قليل سقوطه وغير منتظم، وهو لا يتجاوز أربعين سنتمتراً على السواحل، والخمسين سنتمترا في الجبال. وباستثناء مناطق محدودة في جبال مبلاوغودا التي تكسوها الغابات، فإن الانجم الشوكية السهوبية هي الطابع الغالب على الحياة النباتية الطبيعية. والحياة الحيوانية الطبيعية شبيهة بالموجود منها في اثيوبيا وبلاد الصومال، وتضم الضباع والذئاب والابل والغزال.

كان آخر تقدير رسمي لسكان جمهورية جيبوتي (أوائل السبعينات) هو نحو ١٢٥,٠٠٠ نسمة (وقد قدر العدد مؤخراً بنحو ٢٥٠,٠٠٠). والفئتان الرئيستان بين سكان جيبوتي هما العفر والعيسى. والجماعة الاولى تقترب عنصريا من سكان اثيوبيا اما العيسى فأقاربهم يقيمون في الصومال، عبر حدود جيبوتي الجنوبية. (وسنعود الى الحديث عن السكان فيما بعد).

الموارد الزراعية محدودة جداً، وذلك لأن المناخ الصحراوي الجاف هو الذي يسيطر على البلاد، وتكاد المنتوجات الزراعية تقتصر على كميات محدودة من التمر والفاكهة والخضار والذرة. أما المناطق المنتجة فتقع في امبولي ودكّيل، وتقع كلا المنطقتين في الجنوب.

لكن الثروة الحيوانية في جيبوتي لا يستهان بها. فقد ذكرت المصادر الرسمية في أواسط السبعينات انه كان فيها ٢٢,٠٠٠ من الابل و٦٣٠,٠٠٠ من الخراف والماعز و١٦,٠٠٠ من الابقار. الا ان هذه معرضة لأن تنفق بسبب العطش إذا شحت الامطار، كما حدث في أواخر العقد الماضي. وقد قدرت الخسارة بنحو ثلث المواشي اجمالاً.

شيء من التاريخ

كان البحر الاحمر ممراً تجارياً بين مصر، من جهة، وشرق افريقية وجنوب غرب الجزيرة العربية، من جهة أخرى، منذ ان ركب الانسان البحر هناك رغبة منه في الحصول على منتوجات البلاد وما يقع وراءها، ونقلها الى مصر حيث تستهلك أو توزع على الاقطار المجاورة لقاء ما تبعث به تلك الاقطار الى مصر. ومن الصعب ان يتصور المرء ان خليجاً مثل خليج تاجورة لم ينفع لهذه السفن الصغيرة التي كانت تسير حذرة يقظة محاذية للشواطىء، لأنه لم يكن لها قبل بمواجهة العواصف والزوابع البحرية. فكانت مضطرة الى الالتجاء الى مكان يعصمها من الاخطار الى أن تزول. ولكن النقوش المصرية التي تحدثت عن أرض «بونت» (وهي في الغالب منطقة القرن الافريقي والساحل الافريقي الشرقي وجنوب غرب الجزيرة العربية)، والتي تعود الى أيام حتشبسوت المصرية (من أيام الامبراطورية المصرية الاولى)، لم تشر الى أي من هذه الملاجىء الفقيرة. ولم يكن لدى سكان جيبوتي القدماء نقوش تشير الى تاريخهم القديم، كما ان الرفش والمعول، اداتي علماء الآثار الرئيستين، لم يصلا الى جيبوتي بعد بشكل يدعو الى ابداء الرأي على نحو واضح، ولو نسبياً، حول تاريخ البلاد القديم. ولذلك فإن ما يردده القوم هناك، على ما يرى أهل الاختصاص، هو أساطير تناقلتها الاجيال ثم أسكنتها بعض الخرائب الموجودة في البلاد، ثم حاولت استنطاقها التاريخ. وهو باختصار تاريخ تغلّب فيه السكان الموجودون الآن على سكان البلاد الأصليين، فيما غبر من الزمان، وأرغموهم على الرحيل الى الداخل، واستقروا في أماكنهم.

وحتى تاريخ انتشار الاسلام في تلك الربوع لا نعرف عنه الا القليل جداً: وهو أنه جاء على يد جماعات هبطت جيبوتي والصومال من الجزيرة العربية في أوقات مختلفة، وكان استمراراً لعملية انتقال سابقة، وهذه حملت معها الاسلام الذي اهتدى به السكان، بعد ان كانوا على عبادة الأوثان.

على ان جيبوتي دخلت عالم التاريخ، شأنها في ذلك شأن الصومال، لما اشتدت المنافسة بين الدول الاوروبية، وبخاصة بين بريطانية وفرنسة، في القرن التاسع عشر. وكان بدء التنافس حملة نابليون على مصر (١٧٩٨). ذلك بأن فرنسة أملت في ان تستولي على مصر بصورة مستديمة، فتقيم لها هناك قاعدة تحارب منها بريطانية فتقطع عليها الطريق الى الهند من جهة، وتعوض الخسارة التي منيت بها إذا خسرت، في حروبها مع بريطانية، وبخاصة في حرب السنوات السبع (١٧٥٦ ـ ١٧٦٢)، جزءاً كبيراً من مستعمراتها في اميركا الشمالية، حيث انتقلت ملكيتها الى بريطانية. وأصبحت بريطانية، نتيجة لذلك، أكبر دولة استعمارية في العالم. لكن آمال فرنسة تحطمت إذ انتهى الامر بها الى الانسحاب من مصر.

أخذت بريطانية عندها تقيم أماكن لحماية طريق الهند فاحتلت عدن (١٨٣٩). ودعا هذا فرنسة الى الاهتمام بالساحل الافريقي المشرف على خليج عدن، منذ أربعينات القرن الماضي. الا ان هذا الاهتمام لم يتخذ شكلاً عملياً الا في سنة ١٨٦٢، اذ قررت ان تكون اوبوك، الواقعة على مدخل خليج تاجورة الشمالي، هي المركز لنشاطها. فاتفقت مع الشيخ ديني أحمد أبو بكر على ان يتنازل لها عن ميناء اوبوك والسهل الممتد من رأس علي في الجنوب الى دوميرا في الشمال، ووقعت المعاهدة بين الفريقين في ١١ آذار (مارس) ١٨٦٢. وقد تعهدت فرنسة مقابل هذا التنازل بأن تدفع للشيخ ديني مبلغ ١٠,٠٠٠ ريال.

كان من نتيجة هذه المعاهدة ان أخذت بريطانية ترنو بناظريها الى الصومال. هذا مع العلم بأن فرنسة لم تستغل، حتى ولم تحتل، المنطقة التي ابتاعتها. لكن الامر الذي حفز فرنسة على العمل كان احتلال بريطانية لمصر (١٨٨٢)، وتطلعها الى الاستيلاء على ما كانت مصر تمتلكه على سواحل البحر الاحمر. (وكانت مصر قد استأجرت في أيام محمد علي باشا، ١٨٠٥ ـ ١٨٤٩، ميناءي سواكن ومصوع من السلطان العثماني. ثم تنازل السلطان العثماني عنهما لاسماعيل ـ حكم ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ ـ الذي أضاف اليهما ميناء زيلع وبربرة وبلهار وتاجورة تنازلا من السلطان، واحتل هرر سنة ١٨٧٥). وهكذا ففي سنة ١٨٨٤ جلت الحاميات المصرية، لصالح بريطانيا، عن تاجورة وزيلع وبربرة في السنة التالية أخْليت هرر (١٨٨٥).

وهكذا فإنه لما احتلت بريطانية مصر وتطلعت الى توسيع نفوذها في السودان والساحل الافريقي، عملت فرنسة على تأكيد ملكيتها لميناء اوبوك والمنطقة الساحلية

المذكورة آنفاً. وأرْسل لاغارد الى المنطقة لتحديد الاملاك الفرنسية هناك. وقبل ان تنسحب القوات المصرية من تاجورة عقد لاغارد مع سلطانها (١٨٨٤) معاهدة أعطى هذا بموجبها لفرنسة بلاده الممتدة من رأس علي حتى قُبَّة الخراب، مع تعهده بأن لا يبرم أية معاهدة مع أية دولة اوروبية دون موافقة الحاكم الفرنسي في اوبوك. وهكذا أصبحت فرنسة تسيطر على الساحل الشمالي لخليج تاجورة. وبذلك امتلكت زمام الطريق التجاري المؤدي الى الحبشة. لكن احتلال لاغارد لتاجورة جاء بعد انسحاب القوات المصرية منها (٢٥ ايلول ـ سبتمبر ١٨٨٤).

جاءت الخطوة الفرنسية التالية في سنة ١٨٨٧ إذ أقيمت قاعدة في جيبوتي، التي أصبحت عاصمة المنطقة في سنة ١٨٩٢. وجيبوتي (المدينة) كانت أكثر نفعاً لفرنسة من اوبوك لأنها تطل على خليج عدن، وبذلك تشرف على المحيط الهندي، كما أنها نقطة ابتداء السكة الحديدية التي تصلها بأديس ابابا عاصمة اثيوبيا (بدىء ببناء هذه السكة سنة ١٨٩٧، وتم ذلك في سنة ١٩١٧، وكانت مشروعاً فرنسياً ـ اثيوبياً). وقد وسعت فرنسة منطقة استعمارها بعقد معاهدات مع السلاطين المحليين.

وضعت بريطانية وفرنسة حداً لخلافاتهما حول مناطق النفوذ في سنة ١٨٨٨ بأن تركت بريطانية رأس جيبوتي لفرنسة مقابل اعلان بريطانية حمايتها على بلاد الصومال، واعتبر الخط الممتد من جنوبي جيبوتي الى حدود الصومال وأثيوبيا حداً فاصلاً بين ما تملكه فرنسة وما تسيطر عليه بريطانية. أما الحدود الحالية بين جيبوتي وأثيوبيا فقد تم الاتفاق عليها في سنتي ١٩٤٥ و١٩٥٤.

وكان من الطبيعي ان يسعى سكان جيبوتي الى التخلص من النير الفرنسي، لكن ذلك لم يكن متيسراً بادىء الامر لأن فرنسة حاربت كل محاولة من هذا النوع، قمعاً وإرهاباً ومنعاً لإنشاء أحزاب سياسية أو تكتلات، وشجعت التجمعات والتكتلات القبلية والعشائرية. الا ان روح النضال ازدادت قوة بين أفراد الشعب في جيبوتي بعد الحرب العالمية الثانية. وقد كانت فرنسة تعتبر جيبوتي جزءاً من الاتحاد الفرنسي. وفي سنة ١٩٥٠ سمحت فرنسة بقيام مجلس تشريعي مؤلف من خمسة وعشرين عضواً. لكن السلطة كانت بيد الحاكم الفرنسي.

وفي سنة ١٩٥٧ أعادت فرنسة تنظيم الاقليم (الذي كان يعرف باسم الصومال الفرنسي) فأنشأت مجلساً نيابياً، بدلاً من المجلس التشريعي، مكوناً من اثنين وثلاثين عضواً ينتخبهم السكان على أساس الاقتراع العام (ومدة النيابة خمس سنوات). وهذا المجلس يختار من بين اعضائه مجلس وزراء (يتراوح عددهم بين ٨ و١٢). ومع ان المجلس النيابي كان ينتخب على أساس الاقتراع العام فإنه كان يمثل الوحدات الادارية الخمس وهي جيبوتي ودخيل وعلي سابية وتاجورة واوبُوك. أما رئاسة المجلس فكانت للحاكم العام. ثم أعطيت الرئاسة الى أحد الاعضاء. وتبدل اسم الحاكم العام الى

مندوب سام، يتم تعيينه في مجلس الوزراء الفرنسي. وبطبيعة الحال احتفظت الحكومة الفرنسية بحقها في حل المجلس النيابي عندما تدعو حاجتها الى ذلك. وكان يمثل المنطقة مندوب عن أهلها في مجلس الشيوخ الفرنسي وآخر في مجلس النواب الفرنسي.

نظم الكفاح الشعبي ضد الحكم الفرنسي نفسه في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ففي سنة ١٩٤٥ انتخب محمود حربي رئيساً لفرع «حزب وحدة الشباب الصومالي» في جيبوتي. وأخذت مكانة حربي بعداً آخر لما انشأ (سنة ١٩٤٧) أول نقابة للعمال وانتخب رئيساً لها. وهذه النقابة هي التي تألف منها، فيما بعد، «حزب الاتحاد الجمهوري» الذي كان يدعو الى وحدة جميع اجزاء الصومال، الامر الذي لم ترغب فيه فرنسة، والذي وقف ضده مؤيدو فرنسة في المنطقة. على ان المجلس النيابي الجيبوتي أخذ ينقل اليه مسؤوليات ادارية كبيرة، مثل شؤون المالية العامة والامور الاقتصادية والمشكلات الاجتماعية.

في سنة ١٩٦٠ أعلن استقلال المنطقتين اللتين كانتا تابعتين لبريطانية وايطالية من الصومال، وتم اتحادهما في الجمهورية الصومالية. ولكن فرنسة رفضت منح جيبوتي (التي أصبحت تسمى افريقية الشرقية الفرنسية) الاستقلال. فكان من الطبيعي ان يشتد عنف النضال الوطني في جيبوتي، وان يحاول الفرنسيون وقف ذلك. لكن الامر انتهى بإعلان استقلال جيبوتي في ٢٧ حزيران ـ يونيو ١٩٧٧. وأصبحت العضو رقم ١٤٨ في الأمم المتحدة والعضو ٤٩ في منظمة الوحدة الافريقية ورقم ٢١ في جامعة الدول العربية.

جيبوتي اليوم

الحياة الاقتصادية: ثروة جيبوتي هي المواشي التي تربى في السهوب والمرتفعات. وقد مر بنا ان البلاد كان فيها، في مطلع السبعينات، ٢٢,٠٠٠ من الابل و٦٣٢,٠٠٠ من الأغنام والماعز و١٦,٠٠٠ من الابقار. الا ان هذه الاعداد يمكن ان ينفق منها الكثير في سنة او سنتين بسبب انحباس المطر، كما حدث في أواخر السبعينات. ومعنى هذا ان تعويض الخسارة قد يحتاج الى وقت طويل.

وهناك مساحات محدودة من الارض الصالحة للزراعة، وهي التي تنتج التمر وبعض الفواكه والخضار. وأكثر هذه تُستَهلك في العاصمة.

ومن المعروف ان البلاد فيها كميات محدودة من المعادن، أهمها الحديد والنحاس والميكا، لكن أكثر هذه لم تستغل الا بشكل ضئيل جداً. وكان الملح من منتوجات جيبوتي الهامة. فقد بدىء باستخراجه قبيل الحرب العالمية الاولى، وكان المنتوج ٥٦,٠٠٠ طن متري (١٩٣٨) وبلغ اثنين في المئة من المنتوج العالمي للملح. وبلغ المنتوج ٨٠,٠٠٠ طن متري في سنة ١٩٥٠ (وكان أيضاً ٢٪ من المنتوج العالمي).

وفي سنة ١٩٥٤ أنتجت جيبوتي ٥٩,٠٠٠ طن متري. ثم أخذ الانتاج يتقهقر فكان ١٨,٠٠٠ طن متري سنة ١٩٥٥ و٧,٠٠٠ طن متري سنة ١٩٥٦. وفي سنة ١٩٥٧ أقفلت مقالع الملح نهائياً.

والتجارة الداخلية في جيبوتي قليلة الاهمية، اذ تقتصر على توريد ما ينتج من الخضر والفواكه الى العاصمة، وابتياع حاجات الناس من الاقمشة والأدوات المعدنية من أسواق العاصمة ونقلها الى المناطق المختلفة.

لكن الاقتصاد في البلاد يعتمد على الخدمات والتجارة الخارجية وبالأخص تجارة العبور أو المرور (الترانزيت). فالواردات تشمل الاقمشة والمصنوعات الاستهلاكية والفحم الحجري والاسمنت. أما الصادرات فهي الجلود وما ينقل الى جيبوتي من اثيوبيا من البن والحيوانات (وذلك لتصديرها الى الخارج).

فميناء جيبوتي فيها نحو ١٩٥٠ متراً من الارصفة، وتسعة أحواض لاستقبال السفن ومستودعات مبردة وخزان للوقود وحوض لإصلاح السفن. وتتصل جيبوتي بأديس آبابا بخط حديدي يبلغ طوله ٧٨٤ كيلو متراً، وهو خط ضيق مفرد (بدىء العمل به سنة ١٨٩٧ وانتهى سنة ١٩١٧). وهو شريان التجارة الاثيوبية. ومع ان اثيوبيا أصبحت لها ميناءان هما عصب ومصوع (بعد اتحاد ارترية معها)، فإن جيبوتي تظل ميناءها الأيسر والاقرب والمنفذ الرئيسي الى البحر، وبخاصة لأنه يقع على المحيط الهندي.

وقد كان لافتتاح قناة السويس (١٨٦٩) أثر كبير في تطوير الاهتمام الفرنسي بالمنطقة، بحيث ان تجارة جيبوتي أخذت تنمو باضطراد. لذلك لما أقفلت قناة السويس بسبب حرب ١٩٦٧، تأثرت تجارة جيبوتي الى درجة كبيرة، إذ نقصت ٧٥٪ عما كانت عليه. وبعد فتح قناة السويس للملاحة من جديد أخذت تجارة جيبوتي تستعيد بعض نشاطها.

الحكومة: جيبوتي اليوم دولة مستقلة ذات سيادة، لها رئيس للجمهورية، وتدير شؤونها وزارة، وهناك مجلس نواب. واللغة العربية هي الرسمية، وان كان السكان، وبالأخص سكان جيبوتي العاصمة والمستقرات المدنية الاخرى، يتكلمون الفرنسية بطلاقة. وهناك أيضاً لهجات محلية يستعملها السكان الاصليون، ولكن هذه اللهجات دخلتها كلمات وتراكيب عربية بسبب ان السكان (باستثناء فئات صغيرة) مسلمون، ولأن الاتصال بين الجزيرة وهذه المنطقة (مع الصومال) قديم، وهجرة العرب الى تلك المناطق قديمة العهد ومستمرة.

وبسبب أهمية ميناء جيبوتي فهناك، في الحكومة الجيبوتية، وزارة خاصة بالميناء، لها موازنة خاصة بها. ويتولى هذه الوزارة (اجمالاً) رئيس وزراء البلاد بنفسه. وكانت موازنة الميناء، في أواخر الستينات، ٢٠٩ ملايين فرنك جيبوتي، فيما كانت موازنة البلاد بكاملها ١,٠٩٥ مليوناً.

في سنة ١٩٤٩ وضع الفرنك الجيبوتي موضع العمل، وحددت قيمته بنحو ٢٤,٤٠ فرنكا للدولار الاميركي.

وقد قدرت الموازنة العامة للدولة (١٩٧٩ ـ ١٩٨٠) باثني عشر ونصف مليار فرنك جيبوتي (نحو خمسمئة مليون دولار). وتقدم الحكومة الفرنسية نحو ٤٥ مليوناً من الدولارات دعماً لجيبوتي، كما تقدم الدول العربية، منفردة، ومجتمعة، عن طريق صناديق الدعم والتنمية، مبالغ لا يستهان بها.

السكان: سكان جيبوتي يتكونون من جماعتين رئيستين: العفر (او الدناقيل) وهم سكان شمال البلاد وغربها، وأقرباؤهم يقيمون في اثيوبيا؛ والعيسى الذين يقطنون في الجنوب، وقرابتهم في الصومال. وبحسب التقدير الذي بين ايدينا، والذي يعود الى اوائل السبعينات، يبلغ عدد سكان جيبوتي نحو ١٢٥,٠٠٠ نسمة منهم نحو ٤٨,٠٠٠ من العفر و٥٨,٠٠٠ من العيسى. وهناك ثمانية آلاف عربي ونحو عشرة آلاف يشملون الاوروبيين، وهم فرنسيون ويونان وإيطاليون على هذا الترتيب من حيث العدد، والتجار الهنود والسودانيين والصوماليين والاثيوبيين. ويعيش نصف السكان تقريباً في جيبوتي (العاصمة). ومن سكان البلاد الاصليين بينهم أربعون ألفاً هم بدو متنقلون. (كان عدد سكان جيبوتي بحسب احصاء سنة ١٩٦٠ واحداً وثمانين ألفاً!).

وسكان البلاد الاصليون، أي العفر والعيسى، ينقسمون قبائل وعشائر. فالعفر تتوزعهم جماعتان رئيستان: الادويامر والاساهيامار. وكل من هاتين الجماعتين لها قبائلها وعشائرها. والعيسى تنتظمهم ثلاث جماعات رئيسة هي: الابغال والدلول والورديق. وكل من هذه لها قبائلها وعشائرها.

ونحن نجد ان سكان البلاد بأجمعهم، وقد نستثني القسم الاكبر من سكان العاصمة، تغلب عليهم التقاليد القبلية المعروفة في مثل هذه الحالات. فهم ذوو مفاخر كثيرة، راغبون في الحرية والاستقلال، ممتازون بالكرم. وإلى ذلك فالعصبية القبلية، التي كانت موجودة فيهم أصلاً، قوتها السنوات الطويلة جداً من الحكم الفرنسي. فقد كانت القوى الاستعمارية هناك ترى في مصلحتها تقوية الخلافات وتنميتها، بل وخلقها. وحياة الرعي والتنقل، التي يحياها الكثيرون من السكان، وبخاصة عندما تتوفر لها العوامل التي يدفعها الى الاستمرار، لا يمكن ان تؤدي الى مجتمع مستقر. ومن ثم فالمجتمع الجيبوتي لا يزال، في الغالب الاعم من الحالات، مجتمعاً غير مستقر. والقيم والاعراف والتقاليد والعلاقات الاجتماعية التي تلازم مثل هذه المجتمعات، عميقة الجذور هناك.

المجتمع القبلي، على ما يعانيه من ضائقات مالية، لم يتخلّ، ولا يمكن ان يتخلّى، عن عاداته الأصيلة كالضيافة والكرم. ومع ان البلاد فيها عدد كبير من الخراف والماعز، فلا يزال للابل الدور الأوّل في حياة الناس لأنها واسطة اتصالهم بالجماعات المجاورة

لهم في اثيوبيا والصومال. فضلاً عن ان الابل دليل الثروة والجاه. ومهنة العناية بالابل شاقة معقدة، لا يقدر عليها الا الشاب القوي الدؤوب الشجاع. ورعاة الابل، مثلاً، يشربون حليب الناقة، لكنهم لا يقبلون على شرب حليب الخراف او الماعز او البقر. كما ان رعاة الابل يترفعون عن رعاة الخراف والماعز والبقر. وهي أمور يتفقون فيها مع سكان الصومال الآخرين. فالعشيرة مثلاً يهمها ان تضع على إبلها شعارها الخاص بها، وان كانوا لا يهتمون بوضع مثل هذا الشعار على المواشي والابقار.

وأبناء البادية، أي الذين يعنون بالرعي، ويتعيشون منه، تمتلىء قلوبهم خوفاً عندما يتأخر المطر. ولا يبدو السرور والبشر على وجوههم الا عندما تسقط النقاط الاولى من المطر.

والرجل الذي يريد ان يحصل قوت يومه من العمل لا يجد مجالاً واسعاً لذلك. وأكثر الاعمال هي أعمال موقتة. والمجالات، وهي محدودة بالنسبة الى عدد السكان وحاجاتهم، تكاد تقتصر على ميناء جيبوتي والسكة الحديدية، والأشغال العامة والشركات التجارية. فالميناء والسكة الحديدية تحتاجان الى عمال للصيانة (وأكثر الماهرين منهم من الفرنسيين والاوروبيين الآخرين) والنقل والحمل وما الى ذلك. والمشاريع العامة قليلة، ولا تحتاج، في وضعها الحالي، الى أعداد كبيرة.

في البلاد ستة مستشفيات منها اثنان في العاصمة، أحدهما فيه نحو ٦٠٠ سرير، والثاني صغير. أما المستشفيات الباقية فهي في دور التحضير النهائي، ومع ذلك فإنها تقوم بخدمات طبية علاجية وجراحية وتقديم الادوية اللازمة.

وكان في جيبوتي في الثمانينات ٣٦ طبيباً منهم: ١٦ فرنسيون و٧ جيبوتيون والباقي أجانب من جنسيات مختلفة. والجدير بالذكر انه لما استقلت جيبوتي (١٩٧٧) لم يكن فيها، بعد هذه المدة الطويلة من الحكم الفرنسي، سوى طبيب واحد جيبوتي ومهندسين اثنين من ابناء البلاد. والدولة تجاهد في سبيل تدريب اطباء ومهندسين جيبوتيين.

كانت المدارس في جيبوتي، في السنوات السابقة للاستقلال، فيها ٧,٦٠٠ تلميذ في المدارس الابتدائية ونحو ١١٠٠ تلميذ في المدارس الثانوية. ومعنى هذا انه كان لكل ألف من السكان ٧٨ تلميذاً، الا ان هذا الرقم بحد ذاته يحتاج الى تفسير. فالحكم الفرنسي، عندما يتحدث عن المدارس والتلاميذ في أيامه (سواء في ذلك جيبوتي وغيرها) انما يقصد بذلك التلاميذ من جميع السكان، وإذا حللنا هذه الارقام وجدنا ان أكثر التلاميذ هم من الفرنسيين والاوروبيين. ومعنى هذا ان حصة سكان البلاد أنفسهم كان لهم دون الرقم المذكور.

أما الآن ففي جيبوتي ٤١ مدرسة ابتدائية منها اثنتان وعشرون مدرسة في العاصمة. والتعليم الثانوي مقصور على سكان العاصمة وبعض المدن أيضاً.

والحياة الثقافية في البلاد لا تزال تتركز في العاصمة، حيث توجد مكتبات عامة عددها قليل. وثمة مجلة فصلية اسمها «بونت» كانت تقوم على نشرها جمعية البحوث لشرق افريقية، وجريدة اسبوعية تنشرها وزارة الاعلام والسياحة. هذا الى صحيفة يومية تقتصر على رواية الاخبار الداخلية والخارجية.

ولعّل المشكلة الاجتماعية الكبرى التي تواجه الحكومة والزعماء في جيبوتي هي انتشار استعمال «القات». واستعمال «القات»، او مضغه على الاصح، لا يقتصر على فئة دون أخرى، بل يشمل رجال البلد في غالبيتهم.

والقات يُسْتَوْرَدُ من اثيوبيا. ينقل يومياً بالطائرة الى جيبوتي كي يبقى طرياً طازجاً. وتبلغ حصة الرجل الواحد من القات (إذا اعتبرنا ان جميع الرجال يمضغونه) نحو ١٥٠ غراماً في اليوم. ومع ان مضغ القات يتم يومياً، فإن عطلة الاسبوع (وهي يوما الجمعة والسبت) هي الوقت الذي يقبل فيه الناس على مضغه اقبالاً خاصاً.

جيبوتي والعالم الخارجي: ليست جيبوتي معزولة عن العالم الخارجي كما قد يتبادر الى الذهن. فهي، وان كانت صغيرة المساحة وقليلة في عدد سكانها، فإنها تتصل بحراً ـ عن طريق ميناء العاصمة ـ بكل قطر او بلد ينقل اليها بضائعه ومتاجره، ويحمل منها ما تبعث به اثيوبيا اليها ليعاد تصديره الى الخارج. وتتصل جيبوتي بأديس أبابا بالسكة الحديدية التي مر ذكرها. كما تربط طرق القوافل بين البلدين ـ جيبوتي وأثيوبيا. ويمكن الانتقال جواً من جيبوتي الى باريس وعدن وأديس ابابا، وعن طريق هذه وغيرها يسهل الانتقال الى جيبوتي ومنها يومياً.

جيبوتي تعاني مشكلات كثيرة، وأهمها الحصول على المال اللازم لإقامة مشاريع فيها تمتص السكان العاطلين عن العمل وتوفر لهم عيشاً كريماً بالمعنى المادي. فالعيش الكريم خلقياً واجتماعياً تضمنه تقاليد السكان وعاداتهم وأعرافهم.

٩ـ الصومال

اسم الصومال (وهو الذي يشمل الجمهورية الصومالية الآن) مشتق من اسم سكان البلاد الاصليين. وتشغل بلاد الجمهورية القسم الاكبر من القرن الافريقي. ويحد الصومال من الشمال جيبوتي وخليج عدن ومن الشرق المحيط الهندي ومن الغرب اثيوبيا، وتقع كينيا الى الجهة الجنوبية الغربية من البلاد. وللصومال ساحل طويل منه نحو ٩٦٠ كم من جيبوتي الى رأس غاردفوي (على خليج عدن) وما يقرب من ١٩٠٠ كم من الرأس المذكور حتى نهر تانا. وتقع البلاد الصومالية بين خط عرض ١٢ شمالاً وخط عرض ١٤ جنوبي خط الاستواء. وتبلغ مساحة الصومال نحو ٦٣٠,٠٠٠ كم٢. ومعظم هذا الاقليم هضبة يبلغ متوسط ارتفاعها أكثر من ٩٠٠ متر قليلاً، وترتفع ارتفاعاً تدريجياً من ساحل المحيط الهندي وساحل خليج عدن في اتجاه غربي وشمالي حتى تصل بعض اجزائها القريبة من اثيوبية نحو ألفي متر.

في البلاد ثلاثة أنهار، هي أقرب لأن تكون مجاري مائية، وهي نوغال في الشمال وشبالي في الوسط وجوبا في الجنوب. وجميعها تجري نحو الجنوب في اتجاه المحيط الهندي. والنهر الوحيد الذي يصل ماؤه الى المحيط ويصب فيه هو جوبا (يصب قرب ميناء قسمايو). أما نهر شبالي فتعترضه، على بعد من الساحل يقرب من عشرين كيلومتراً، كثبان من الرمال، تحول دون وصوله الى البحر. وعندها يتجه جنوباً نحو ٢٧٠ كيلومتراً، وبعدها يتلاشى في مستنقعات تسمى بالي، وذلك قبل ان يصل الى مصب نهو جوبا.

والاجزاء المشرفة على خليج عدن والمحيط الهندي هي صحراوية، اذ قلما يسقط فيها من المطر اكثر من ١٣٠ ملمتراً في السنة، مع ان الهضاب العالية التي تلي هذه السواحل تصل أمطارها الى نحو ٥٠٠ ملمتر في السنة. أما الرياح التي تحمل الامطار الى هذه المناطق فهي الرياح الموسمية (الشتوية). وبسبب سقوط الامطار على الهضبات فإنها تصبح مراعي جيدة للماشية والاغنام والماعز والابل. أما الزراعة فتكاد تكون محدودة في مناطق تحيط بمجاري نهري شبالي وجوبا، وتمتد نحو مئة وخمسين كيلومتراً في بعض الحالات. والمنتوجات الزراعية تقتصر على الموز والذرة والشعير وقصب السكر والتبغ والفول السوداني. ويجمع السكان الصمغ العربي من الاماكن التي توجد فيها الغابات.

وأكثر الصومال مناطق صحراوية، وسكانه تغلب عليهم البداوة (نحو ٨٠٪). ومع ان ٣١٪ من البلاد فيه مراع لا يستهان بها، فإن ٤٥٪ صحراء قاحلة تقريباً. ويقدر الباحثون بأنه إذا استخدمت المياه الجوفية في البلاد فإنه يمكن ارواء نحو ٢٨ بالمئة من الأرض الصومالية. وفي البلاد من المعادن الملح والحديد والخام والجبس.

للتاريخ

في تاريخ مصر القديمة ان الملكة حتشبسوت (من القرن الخامس عشر قبل الميلاد) أرسلت أسطولاً تجارياً الى بلاد بونت، فعاد الاسطول يحمل الكثير من المتاجر منها اللبان والمر والعاج وما الى ذلك. ونحسب اننا لا نعدو الصواب إذا نحن فسرنا هذا على النحو التالي: بلاد بونت هي المنطقة العربية الافريقية الدائرة بباب المندب والمحيطة بخليج عدن. وعندها تكون الصومال جزءاً من بلاد بونت. ونضيف الى ذلك ان عمل حتشبسوت كان، على ما يبدو، احياء لعلاقات تجارية أقدم عهداً من زمنها، ولعلها لم تكن على المقياس نفسه، ولكن المهم هو ان مصر، التي كانت لها تجارة واسعة عن طريق وادي النيل والبحر الاحمر مع شرق افريقية، ما كان لها ان تنسى سواحل الصومال.

والتجارة بين الهند من جهة ومصر والبحر المتوسط من جهة ثانية، عن طريق اليمن والبحر الاحمر وشرق افريقيا استمرت عبر العصور. ولعلّ هذه التجارة كانت تتأثر بالأحوال السياسية في العصور المختلفة، ولكن هذا الانقطاع كان لا يلبث ان يعود. وكانت الموانىء الافريقية الواقعة على شواطىء البحر الاحمر وخليج عدن والمحيط الهندي توسع مدى تجارتها مع الداخل لتحمل من تلك الجهات، بالإضافة الى الفيلة والعاج والمر الافريقي والصمغ العربي، الرقيق الذي كان يُحصل عليه بمختلف الوسائل ليُنقل الى الاسواق المختلفة في الشرق الاوسط. وهي تجارة استمرت حتى القرن التاسع عشر.

الصلة التجارية بين الجزيرة العربية والقرن الافريقي كانت ترافقها هجرات بشرية الى افريقيا في فترات متقطعة. إلا اننا نعرف عن مثل هذه الهجرات في مطلع العصور الاسلامية. ففي سنة ٦٩٥ م، أرسل الحجاج الثقفي، والي الامويين على العراق، حملة ضد عُمان، ولم يتمكن زعيما المنطقة من مقاومة الجيش الاموي فهاجرا الى بلاد الزنج (ولعلها تقع الى الجنوب من بلاد الصومال، أو لعلها تشمل بعض بلاد الصومال) مع جماعة من أتباعهما، واستقر الجميع هناك. وجاءت هجرة ثانية الى شرق افريقية سنة ٧٣٩ م. ويبدو ان هذه الهجرة كان عمادها جماعة من الزيدية زعيمهم زيد بن علي زين العابدين. وكانت هجرة في سنة ٩٢٠ قادها سبعة اخوة من الاحساء، ويعزى اليهم انشاء مقديشو. ويبدو ان هؤلاء القادمين الجدد هم الذين أجلوا جماعة الزيدية عن الساحل واستبدوا بالأمر والبلاد دونهم. وفي القرن العاشر نفسه

غادرت جماعة الساحل الفارسي للخليج العربي المنطقة الى القرن الافريقي. ولعلّ هذه الجماعة هي عربية الاصل من مهاجرة الجزيرة الى تلك الجهات الفارسية، غُلبت على أمرها في ذلك الوقت، فولت وجهها شطر الصومال وما اليه من شرق افريقيا وانضمت الى جماعة العرب التي سبقتها. وقامت للعرب التجار في تلك المناطق دويلات وزعامات وتمت لهم تجارات مع الداخل والخارج. ولم تقتصر الهجرات الى القرن الافريقي على العرب، بل انضمت اليهم جماعات من الهنود جذبتهم التجارة، فاستقروا هناك. ولكنهم لم يطمعوا، او لعلهم لم يقدروا ان يطمعوا في السيطرة او السيادة، اذ ان هذه ظلت للعرب.

وكان أول اتصال مباشر لشرق افريقيا بالأوروبيين في اوائل القرن السادس عشر لما وصل البرتغاليون الى تلك الديار بعد ان داروا برأس الرجاء الصالح. ثم أخذوا يحتلون المدن الواقعة في طريقهم الرئيس الى الهند، ومنها مقديشو وبراوه. وظل للبرتغاليين نفوذ في المنطقة الى حول سنة ١٦٦٠، لما تمكن سالم الصارمي العُماني من اخراج البرتغاليين من الصومال وشملها بحكمه.

في العصور الحديثة

في سنة ١٨٣٩ احتلت بريطانيا عدن لتكون لها محطة على طريق الهند. وكان من الطبيعي ان تفكر بريطانيا في ان يكون لها مراكز على الساحل الافريقي للمحيط الهندي، كي تبعد المنافسة عن طريق الهند. يضاف الى هذا ان عدن بالذات كانت منطقة فقيرة، وكانت بحاجة شديدة الى التموين.

وكان لفتح قناة السويس (١٨٦٩) أثر كبير في تحريك الاهتمام الاوروبي بالقرن الافريقي من جديد. فاهتمت فرنسا بالأرض التي كانت قد ابتاعتها (اوبوك) سنة ١٨٦٢، ودخلت مصر حلبة النزاع فاستولت على مواقع على الساحل الافريقي الشرقي بين سنتي ١٨٧٤ و١٨٨٤، منها هرر وبربرة وتاغورة. واحتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢، وأخذت تحاول الاستيلاء على مراكز في القرن الافريقي. وبعد مناورات ومداورات سياسية أعلنت بريطانيا (١٨٨٤) حمايتها على جزء من الصومال، لكن ذلك لم يقبل رسمياً الا في سنة ١٨٨٩، وهي السنة التي تم فيها الاتفاق على ان يكون لكل من فرنسا وايطاليا وبريطانيا مواطىء أقدام في بلاد الصومال. وتم لكل من الدول الثلاث ما تريد ورسمت الحدود بين الصومال الفرنسي سابقاً (جيبوتي اليوم) والصومال الايطالي سابقاً (على ساحل المحيط الهندي) والصومال البريطاني سابقاً (على ساحل خليج عدن). والجمهورية الصومالية اليوم تشمل هذين القسمين الاخيرين، أي الصومال الايطالي (السابق) والصومال البريطاني (السابق)، رغم انفصال الأول الموقت حالياً.

وقد ظلت ادارة الجزء الذي وقع لإيطاليا تحت ادارة شركتين ايطاليتين حتى سنة ١٩٠٥، عندما وضعته الحكومة الايطالية تحت سلطتها المباشرة.

ايطالية والصومال الايطالي (السابق): حكمت ايطالية هذه المنطقة ما يزيد عن نصف قرن (١٨٨٩ ـ ١٩٤١)، وكانت تسمح لنفسها بالحكم المطلق. فما الذي صنعته هناك؟

تولّى الحكم الايطالي تيسير وصول الارض الى المعمرين الايطاليين الذين كانوا يملكون نحو ١٣,٠٠٠ فدان. وكان الايطاليون يسهل لهم اقتراض الاموال اللازمة لتحسين أراضيهم، كما كانت الادارة الايطالية تمد الطرق بحيث يفيد منها أصحاب الارض الايطاليون. والتجارة الخارجية كانت حكراً للايطاليين. ومن الطريف ان نظام الضرائب وضع بحيث كان اليسر فيه للطليان. فالكماليات من البضائع، وهي التي كان استعمالها خاصاً بالايطاليين وغيرهم من الاوروبيين، كانت الرسوم الجمركية عليها قليلة. أما الامور والاشياء اللازمة لمجموع السكان الصوماليين لاحتياجهم اليها، فقد كانت تفرض عليها ضريبة استيراد باهظة. فالسكر، مثلاً، وهو شيء لا يستغني عنه الصومالي، كانت تجبى عليه جمارك تعادل ١٢٥٪ يدفعها ـ أو أكثرها على الاقل ـ ابناء البلاد. ومثل ذلك يقال فيما يتعلق بالضرائب التي كانت تفرض على السلع المصدرة. فالموز، وتجاره من الايطاليين في غالبيتهم، كانت الضريبة التصديرية عليه ضئيلة، وعندها يصدر الى الخارج ويفيد التاجر الايطالي من بيعه في الاسواق الخارجية. وكان الموز قلما يستهلك في البلاد نفسها.

ولم تكن ثمة خطة لتنمية موارد البلاد، الا حيث يفيد منها الاجانب ـ الايطاليون أولاً ثم غيرهم من الاوروبيين. وهذه كانت سياسة رسمية لإيطاليا التي صرح وزير خارجيتها (١٩٠٨) بضرورة الاهتمام بتنمية الصومال (الايطالي) كي يخفف من الضغط السكاني في بعض الريف الايطالي. وبعد الحرب العالمية الاولى زاد عدد الايطاليين الذين هُجِّروا الى صوماليا. فبعد ان كان عددهم ١٦٣١ ايطالياً سنة ١٩٣١، بلغ نحو ٨,٠٠٠ نسمة سنة ١٩٤١. ولم تحاول الحكومة الايطالية منع تجارة الرقيق هناك، بل لعلها شجعتها لأنها كانت تدر على الحكومة أرباحاً طائلة.

صحيح ان موازنة صوماليا ارتفعت من مليونين ونصف مليون ليـر ايطالي (١٩٠٨) الى ٧٤ مليون ليـر ايطالي في الثلاثينات، لكن المهم في وضع الموازنات التأكد لا ممن يمد الحكومة بأكبر جزء من وارداتها، بل بمن يفيد أكثر من غيره من مثل هذه الموازنات.

بريطانيا والصومال: أعلنت المنطقة محمية تابعة لبريطانيا سنة ١٨٨٤، لكن الاهتمام بدأ بعد ذلك ببعض الزمن. وقد كان لقدوم المبشرين وإقامتهم في قرية ديمولي (غربي بربرة) أثر سيىء في نفوس السكان الذين كانوا قد تضايقوا من القوى الاجنبية المقيمة في بلدهم اقامة احتلال. فقامت ثورة بقيادة الزعيم محمد بن

عبدالله حسن سنة ١٩٠٠ واستمرت الى سنة ١٩٢٠، ولو ان الزعيم كان إذا أحس باحتمال انكسار على أيدي القوات البريطانية أو غلب في معركة، كان يلجأ الى المنطقة الايطالية لفترة قصيرة أو طويلة. (التجأ مرة الى هذه المنطقة لثلاث سنوات ١٩٠٥ ـ ١٩٠٨). وقد بدأت ثورته في بربرة، وعانى الانكليز منها الكثير، لما انتشرت جماعاته في وادي نوجال. وقد ترك الزعيم الصومالي الثورة سنة ١٩٢٠ فاراً الى أيمي وتوفي بعد ذلك بمدة قصيرة.

ولم تعن بريطانيا بتطوير المنطقة التي تولت أمورها من الصومال. فهي بالنسبة لها منطقة استراتيجية، خاصة وان بريطانيا استولت على مناطق أغنى في شرق افريقيا ـ ساحلاً وداخلاً. فهي لم تنشىء المدارس إلا سنة ١٩٣٢ بعد جهاد وكفاح شعبي من أجل الحصول على بُلْغَة من التعلم، ونظمت المدارس (القليلة) في البلاد ابتدائية (أول مدرسة) سنة ١٩٤٠ ومدرسة متوسطة (١٩٤٥).

الحرب العالمية الثانية وما بعدها

لما وقعت الحرب العالمية الثانية، وبدأت المناوشات بين الدول الاوروبية، أصاب المنطقة الصومالية شرارة منها. ففي سنة ١٩٤٠ هاجمت ايطاليا المنطقة البريطانية واحتلتها. إلا ان بريطانيا عادت واسترجعت منطقتها ثم احتلت المنطقة الايطالية أيضاً (١٩٤١)، وظلت تسيطر على مقدرات المنطقة كاملة الى سنة ١٩٥٠، إذ صدر قرار الأمم المتحدة بإعادة ايطاليا وصية على المنطقة التي كانت تحكمها من قبل لعشر سنوات على أن تستقل صوماليا في سنة ١٩٦٠. وقد نجحت ايطاليا في ذلك بسبب مساعدة الدول الغربية لها أولاً، وبسبب الدور الذي لعبته جماعة المحاربين القدماء في هذه القضية ثانياً.

وهذه الجماعة تتألف «من ثلاثين ألفاً من الصوماليين كانت ايطاليا قد جندتهم اثناء حكمها للمنطقة في صفوف القوات الايطالية للقتال في حروبها الاستعمارية في اثيوبيا (١٩٣٦) واريتريا والصومال البريطاني (السابق) وليبيا، كما كانت تستعين بهم في حفظ الامن في البلاد. فلما احتلت بريطانيا صوماليا (١٩٤١) تفرقت هذه الجماعة. لكن بريطانيا نظرت الى هؤلاء المحاربين نظرة ريبة، لأنهم كانوا قد حاربوا في صفوف الايطاليين. فحرموا الوظائف. فكانوا، بسبب ذلك، ينقمون على بريطانيا. فلما استطلعت الامم المتحدة رغبة شعب صوماليا في فترة تقرير المصير، استطاع الايطاليون استغلال سخط هذه الجماعة، ومنوهم بالوعود، واتخذوا منهم وسيلة للدعاية لهم فنظموا أنفسهم، وكانوا معتادين على النظام والطاعة، في العاصمة وغيرها من المدن في مظاهرات ضخمة، تحبذ ادارة ايطالية في فترة الوصاية. ولكن الايطاليين، بعد ان عادوا، الى صوماليا، حنثوا بوعودهم، فاستغل البريطانيون عندها سخط هؤلاء الجنود الذين أخذوا يقيمون العقبات في وجه الادارة الايطالية» (يونس).

مر بنا ان ايطاليا، اثناء حكمها الاول للمنطقة الصومالية، كانت قد أهملت شؤون التعليم والاقتصاد وغيرهما بالنسبة الى المواطنين الصوماليين. لكن مع ذلك فقد كان هناك الكثير من التعليم الاصلي في البلاد يتم في الكتاتيب والمساجد وفي العشائر اذ يرتحل الشيخ مع العشيرة والقبيلة، وعن سبيل الطرق الصوفية (وأهمها في تلك الجهات القادرية والاحمدية المنسوبة الى السيد أحمد بن ادريس) «وقد تمكن بعض الاهالي، في أواخر العهد الايطالي الاول، من افتتاح مدرسة نظامية لتعليم اللغة العربية والدين. وفي الفترة التي سيطرت فيها بريطانيا على المنطقة (١٩٤١ ـ ١٩٥٠) تم للشعب هناك الاتصال بالعالم الخارجي. ويبدو ان بريطانيا شجعت التعليم، فتحولت المدرسة الاهلية المذكورة الى مدرسة رسمية وأدخلت فيها موضوعات جديدة كاللغة الانكليزية والتاريخ والجغرافية. وأصبحت المدرسة تدريجاً مركزاً لتخريج المعلمين وتدريبهم. وعمل خريجوها (وقد بلغ عددهم نحو أربعين سنة ١٩٥٠) مدرسين في المدارس القليلة التي فتحت". ويلاحظ يونس «ان التعليم اثناء الحكم البريطاني كان محدوداً الا أنه كان منظماً ودقيقاً وسريعاً».

ولما تسلمت الادارة الايطالية الوصاية (١٩٥٠) بدأت بفتح مدارس لتدريب المعلمين الصوماليين على تدريس اللغة الايطالية. وضاعف الشباب الصومالي جهوده في سبيل التعلم سواء في البلاد نفسها او في ايطاليا (بعثات حكومية) أو في غيرها (على حساب الآباء القادرين على ذلك).

وفي سنة ١٩٥١/١٩٥٠ كان عدد التلاميذ (كباراً وصغاراً) في المدارس الابتدائية نحو ٦,٥٠٠ تلميذ في سبعين مدرسة، يقوم بتعليمهم ٥٢ معلماً ايطالياً و٧٧ معلماً صومالياً وأربعة من المعلمين العرب. فأصبح العدد في سنة ١٩٥٨/١٩٥٧ (كباراً وصغاراً) نحو ٣٢,٠٠٠ تلميذ في ٢٧١ مدرسة يشرف على تعليمهم ١٤٥ معلماً ايطالياً و٤٦٦ معلماً صومالياً. (لم يكن في تلك السنة معلمون من العرب، مع اننا نجدهم، في اعداد محدودة، بين ١٩٥١، و١٩٥٧). وأنشئت مدرسة زراعية على نهر شبالي (على نحو مئة كيلومتر من مقديشو الى الجنوب) ومدرسة تجارية وأخرى صناعية وثالثة للبحرية والمصائد. كما انشىء معهد الدراسات الاسلامية (على أيدي اساتذة معارين من الازهر)، وأقيمت مدرسة اعدادية وفتح معهد للمعلمين. وأنشأت الادارة الايطالية مدرسة الإعداد السياسي والاداري. أما في التعليم الثانوي فقد كان عدد الطلاب في سنة ١٩٥١/١٩٥٠ (كباراً وصغاراً) نحو مئتي طالب في أربع مدارس ولهم ١٤ معلماً ايطالياً ومعلمان عربيان، فأصبح العدد سنة ١٩٥٨/١٩٥٧ (كباراً وصغاراً) ١,١٣٠ طالباً في ١٤ مدرسة ولهم ٩٢ من المعلمين الطليان و٢٥ من المعلمين العرب.

أنشأت الادارة المعهد العالي للقانون والاقتصاد على مستوى جامعي كان فيه ١٩٥٥/١٩٥٤ من الطلبة ١٤ صومالياً و٥ ايطاليين لهم مدرس ايطالي واحد فأصبح

عددهم ٥٨ طالباً صومالياً وأربعة طلاب ايطاليين يقوم على تدريسهم أربعة مدرسين ايطاليين (كانت الايطالية لغة التدريس في المعهد). يضاف الى هذا مدارس عسكرية لتدريب قوات الشرطة ومدرسة الطيران.

وقامت في البلاد مدارس خاصة قومية تعنى باللغة العربية والتاريخ والجغرافية، كما انشئت مدارس خاصة بالجاليات الهندية والباكستانية والايطالية. وارتفعت الموازنة الخاصة بالتعليم من نحو مليوني شلن صومالي سنة ١٩٥١/١٩٥٠ الى نحو تسعة ملايين شلن صومالي في سنة ١٩٥٨/١٩٥٧. (في سنة ١٩٨٠ كان الجنيه الاسترليني يساوي ١٣,١٥ شلنات صومالية وكان الدولار يساوي ٦,٠٢ شلنات صومالية).

في الفترة الممتدة من حول ١٩٥٠ الى ١٩٦٠ انشأت الحكومة البريطانية في المنطقة المشرفة عليها معهداً للمعلمين (١٩٥٢) والمدرسة الثانوية العليا (١٩٥٣). وبعدها تتابع انشاء المدارس الابتدائية والثانوية. فبلغ عدد الاولى عشرين مدرسة فيها نحو ٤٥٠٠ تلميذ (منها مدرستان للبنات). وبلغ عدد المدارس المتوسطة سبعاً (واحدة منها للبنات وواحدة فنية صناعية في هرجيزا فيها نحو ٢٥٠ تلميذاً). وكان في البلاد مدرسة ثانوية عليا واحدة.

الاستقلال والوحدة

كان قد قام في الصومال (الايطالي سابقاً) في عهد الادارة البريطانية نادٍ للشبيبة الصومالية بلغ عدد اعضائه نحو ٢٥,٠٠٠ (١٩٤٧) وقد أصبح يعرف باسم «وحدة الشباب الصومالي» (أو حزب وحدة الشباب الصومالي أو عصبة الشباب الصومالي). فلما تمت انتخابات للجمعية التشريعية في صوماليا (الصومال الايطالي سابقاً) في سنة ١٩٥٦ حصل على ٤٣ مقعداً من أصل ٦٠ مقعداً، وتولى زعيمه عبدالله عيسى رئاسة الوزارة، فكان أول صومالي يتولى هذا المنصب. ومع ما كان في المنطقة من خصومات سياسية فقد ظل عبدالله في هذا المنصب حتى الاستقلال (١ تموز - يوليو ١٩٦٠).

وفي شباط (فبراير) ١٩٦٠ أجريت انتخابات لجمعية تشريعية في الصومال (البريطاني السابق) فنجح فيها حزب الرابطة الصومالية الوطنية، وقد أعلن الحزب عن رغبته في الانضمام الى صوماليا حالاً، فاستجابت بريطانيا الى ذلك. وأعلنت انها ستمنح المنطقة التي تشرف عليها، استقلالها قبل موعد استقلال صوماليا، كي تتمكن المنطقتان من الاتحاد يوم أول تموز (يوليو).

وهذا ما حدث:

١ - في ٢٦ حزيران (يونيو) تم الاحتفال بنيل الصومال البريطاني الاستقلال.

٢ - كانت قد طالبت جميع الاحزاب السياسية في صوماليا بتقديم موعد اعلان الاستقلال الى أول تموز (يوليو) بدلاً من أول كانون الاول (ديسمبر) من سنة ١٩٦٠.

ووافق برلمان صوماليا على ذلك (كما وافق البرلمان الايطالي على قانون بإنهاء الحكم الايطالي في صوماليا).

٣ ـ كان زعماء صوماليا والصومال البريطاني (السابق) قد اتفقوا في ١٦ نيسان (ابريل) ١٩٦٠ على الاتحاد وتكوين جمهورية ديمقراطية.

٤ ـ في أول تموز (يوليو) أعلن استقلال صوماليا.

٥ ـ في اليوم نفسه أعلن قيام «الجمهورية الصومالية» وتقدمت الجمهورية الجديدة بطلب الانضمام الى الامم المتحدة، وأوصى مجلس الامن بقبولها عضواً في الهيئة الدولية.

وتولى رئاسة الجمهورية آدن عبدالله عثمان وكلف عبد الراشد علي شير ماركه رئاسة الوزارة. وجرت أول انتخابات بعد الاستقلال في ربيع ١٩٦٤، وفاز حزب وحدة الشباب الصومالي بأكثرية كبيرة في البرلمان، وتولى الوزارة عبد الرزاق حاج حسين، بدلاً من شير ماركه. وفي سنة ١٩٦٧، نجح شير ماركه في انتخابات الرئاسة.

بدت امارات اضطراب داخلي وتذمر بين الزعامات، وانتقد البعض الثلاثي الحاكم ـ شير ماركة رئيس الجمهورية وإيغال رئيس الوزارة وياسين نور وزير الداخلية، الذي فقد الكثير من شعبيته. وقد اغتيل الرئيس شير ماركه (تشرين الاول ـ اكتوبر ١٩٦٩) بسبب خلاف عائلي، لا سياسي، كما يبدو. وبعد اسبوع من ذلك ـ في ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) قام الجنرال محمد سياد بري بانقلاب عسكري؛ وأنشىء مجلس ثورة مكوّن من ٢٥ عضواً من الضباط، وعينت وزارة من المدنيين. والمؤسستان، فيما بينهما، أعادا تنظيم الادارة المحلية، وأظهرا اتجاهاً نحو الحصول على دعم من الاتحاد السوفييتي. أما المطالبة بالصومال الكبير (أي بضم الجزء الذي كان لا يزال تحت حكم فرنسا بعد استقلاله عنها) فقد وضعت على الرف (هذا الجزء من الصومال استقل فيما بعد وأصبح اسمه جيبوتي).

ليس من اليسير تفسير قيام الانقلابات العسكرية دوماً. إلا ان بعض الامور تسرّب الى الصحف والجمهور. ومن الامور المتعلقة بانقلاب سنة ١٩٦٩ في جمهورية الصومال هو التساؤل الذي دار هناك حول الاعانات البالغة ٢٠٠ مليون دولار من العون الاجنبي التي وصلت الى البلاد وليس ثمة ما يدل على طريقة صرفها تماماً. ولقد كان هناك خطة تنمية خمسية ١٩٦٣ ـ ١٩٦٨، وخطة تنمية قصيرة الامد ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠. ومع أنه يمكن الاشارة الى بناء ميناء عميق في بربره (من العون الروسي) وأحواض للسفن في قسمايو (من العون الاميركي)، فقد كان ثمة فشل في تطوير القمح والقطن والبذور الزيتية. وكانت لا تزال ثمة حاجة للحصول على المال الخارجي لدعم الخزينة. والمواد الوحيدة المصدرة على شكل مرض هي الاغنام والماعز والموز. وحتى تصدير هذه السلع لم يسر على حسب الخطة الموضوعة.

الجمهورية الصومالية اليوم

يبلغ عدد سكان الصومال، بحسب تقدير يعود الى سنة ١٩٧٨ ـ ٣,٧ مليون نسمة. ويوجد في المدن الرئيسة الاعداد التالية: مقديشو العاصمة (٣٥٠,٠٠٠) هرجيزا (٦٠,٠٠٠) كيسي (٦٠,٠٠٠) مركا (٥٦,٠٠٠) بربرة (٥٠,٠٠٠). ولا يعرف اليوم العدد الفعلي الصحيح لكل من هذه المدن.

ان الدستور الذي وضع في سنة الاستقلال والوحدة (١٩٦٠) والذي وافق عليه الشعب الصومالي في استفتاء (١٩٦١) ألغي في الانقلاب (١٩٦٩). ووضع للبلاد دستور جديد (١٩٧٩) وجرت انتخابات في السنة ذاتها. وأصبح عدد اعضاء البرلمان ١٧١ عضوا.

الجمهورية عضو في الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية وجامعة الدول العربية.

وضعت خطة تنمية مختصرة (١٩٧٩ ـ ١٩٨١) لإنفاق ٧,٠٠٠ مليون شلن (كل جنيه استرليني يساوي ١٣,١٥ شلناً صومالياً، وكل دولار يساوي ٦,٠٢ شلنات صومالية، على أساس أسعار النقد سنة ١٩٨٠). من هذه الموازنة ٣٧٪ تنفق على المواشي والزراعة والتعدين (عثر في الصومال على الاورانيوم).

في البلاد نحو ١٣,٠٠٠ كم من الطرق منها المزفت نحو الفي كم. وهو شيء قليل بالنسبة الى بلاد مساحتها نحو ٦٣٠,٠٠٠ كم٢.

في سنة ١٩٧٦/١٩٧٧ كان في البلاد نحو ٢٧٠,٠٠٠ تلميذ في المدارس الابتدائية ونحو ٤٢,٠٠٠ في المدارس الاعدادية وما يقرب من ١٧,٠٠٠ في المدارس الثانوية ونحو ٢,٧٠٠ طالب مهني.

وفي مقديشو تقوم جامعة الصومال الوطنية التي منحت البراءة سنة ١٩٧٥، ولو ان نواتها تعود الى المعهد العالي الذي فتح في العاصمة سنة ١٩٥٩.

١٠ ـ المملكة العربية السعودية

الجزيرة العربية وحدة جغرافية واضحة المعالم بينة الحدود. تدور بها المياه من جهات ثلاث. فهي تحتضن الخليج العربي وخليج عمان شرقاً، وتغسل أمواج البحر العربي والمحيط الهندي شواطئها الجنوبية، وينفحها البحر الاحمر، الواقع غربيها، بالشواطىء والجزر المرجانية. أما في الشمال فتتصل صحاري الجزيرة بالبيداء السورية التي تتقاسمها العراق وسورية والاردن.

والجزيرة العربية، من حيث تركيبها الجيولوجي، هضبة متسعة، تقدر مساحتها بنحو مليونين ونصف المليون من الكيلومترات المربعة، مكّونة من صخور قديمة. وقد كانت في الازمنة الجيولوجية السحيقة، متصلة بشمال شرق افريقية، الا انه في العصور الجيولوجية الحديثة نسبياً، تفتحت في الصخور شقوق كبيرة، كان من نتيجتها ظهور هذا الوادي الخلعي الضخم الممتد من شمال سورية الى شرق افريقية، والذي يكون البحر الاحمر وخليج عدن جزءاً منه، وهو الذي يهمنا في هذا البحث. والجزيرة العربية في هضبتها المتسعة، تشبه ترسا او مجنا منحنياً ـ أعلى اجزائه في الغرب في محاذاة البحر الاحمر، وينحدر تدريجاً نحو الشرق. ومن ثم فإن ساحل البحر الاحمر تغلب عليه القسمات الجافة والجبال التي تنحدر اليه (من الحجاز) انحداراً قوياً، فيما تكون سواحل الخليج العربي مستوية، وقد تكون منخفضة وتدور بها هوامش من الشواطىء المرجانية، بحيث يصبح الاقتراب من الشاطىء أمراً صعباً.

والمرتفعات الغربية تكثر فيها الحرات، وهي مساحات صخرية بركانية المظهر، لأنها نتيجة تدفق اللافا أي الحمم البركانية، لما كانت البراكين ثائرة. ومن الطبيعي ان تكون هذه الحرات قاحلة. وتزين ساحل البحر الاحمر، حتى خليج عدن، الاقماع البركانية، التي يرتفع بعضها الى ثلاثة آلاف متر (والحد الاعلى الذي تصل اليه هو أربعة آلاف متر، وهذا جبل يقع في اليمن). والجزء الاقل ارتفاعاً في هذا الجدار الجبلي يقع في الوسط ـ في منطقة جده ومكة المكرمة والمدينة المنورة. وهذه المدن الثلاث تقع على الطريق الايسر توصيلاً، للناس وأنعامهم، من الساحل الى الداخل، فضلاً عن انه أقصر طريق يجتاز الجزيرة من شرقها الى غربها.

الجزيرة كلها مكونة من صخور قديمة جداً، الا ان الاجزاء الواقعة الى الشرق تغطيها، في بعض المناطق، طبقات رقيقة من الصخور الاحدث عهداً. وقد تفتت بعض

الطبقات الصخرية فنتج عن ذلك انخفاضات ضحلة، وقامت طبقات أخرى في مناطق مختلفة، فظلت هذه سلاسل جبلية تتمتع ببعض الارتفاع. هذه المنطقة المتوسطة بأوديتها الضحلة وسلاسل جبالها الناتئة، وبالرمال التي تغطي اجزاء واسعة منها، هي التي تسمى نجد. وقلما ترتفع الارض في المناطق التي تمتد شرقي نجد الى أكثر من ٣٠٠ متر. وتمتد صحراء النفوذ في الشمال ـ شمالي نجد ـ وتتمتع ببعض الآبار وقليل من ماء المطر. أما الى الجنوب من نجد فيمتد الربع الخالي.

على ان السواحل الشرقية للجزيرة التي هي مبسطة منخفضة، وبخاصة في الحسا، فإن المنطقة الجنوبية الشرقية منها يقوم فيها الجبل الاخضر (في عُمان) الذي أحدثت المياه المنحدرة منه على طول المدى شروما بحرية متعددة. وثمة أودية طويلة كانت في زمن مضى مجاري مائية، لكنها جفت مع الزمن وخلفت هذه الاودية التي تمتد مسافات طويلة. فوادي حضرموت يسير بضع مئات من الكيلومترات في موازاة الساحل الجنوبي، ووادي السرحان الذي يمتد من النفود في تجاه شمالي غربي الى الاردن.

مع ان الجزيرة العربية تحيط بها المياه من الشرق والغرب، فإن هذه المجامع المائية ضيقة في مجالها، ولذلك فإن تلك البلاد تعتبر أنها محاطة بالبر، وبالطبع فإن هذا ينطبق على الجهة الشمالية اطلاقاً لا نسبياً. ولما كانت الجزيرة العربية تتأثر بالرياح التي تهب عليها من البر، فإن هذه الرياح هي، على وجه العموم، جافة، ومن ثم فإن البلاد صحراوية المناخ. فالشمال يسقط فيه بين ١٠ و٢٠ سنتمتراً من المطر. أما في الجنوب فإن المطر الساقط أقل من ذلك، باستثناء المناطق الساحلية. وحتى المناطق المرتفعة في الجزيرة العربية، باستثناء مرتفعات اليمن، التي تسقط فيها كميات لا يستهان بها من المطر، فإن سقوطه قد يتعرض لاختلاف كبير بين سنة وسنة، أو حتى في السنة الواحدة. وتظل جبال اليمن والجبل الاخضر في عُمان المنطقتان اللتان تنعمان بالمطر (على ما سنرى عند التحدث عن تلك المناطق في الاحاديث اللاحقة).

وترتفع الحرارة في انحاء الجزيرة في الصيف، بحيث تتجاوز خمسين درجة سنتغراد (مئوية). أما في الشتاء فتهبط الحرارة كثيراً. فالفرق في الحرارة اليومية (أي بين الحد الاعلى والحد الادنى خلال اليوم الواحد) والسنوية (أي بين الحد الاعلى والحد الادنى بين الصيف والشتاء) كبير. وحري بالذكر ان الاجزاء الداخلية من الجزيرة العربية تتعرض لكثير من الزوابع والرياح والاعاصير المحلية المتسببة أصلاً عن هبوب رياح مختلفة في درجة الحرارة من جهات مختلفة، والتقائها في نقطة واحدة. وسواحل الجزيرة المشرفة على البحر الاحمر والخليج العربي وجزء من خليج عمان وخليج عدن تتعرض للرطوبة المرتفعة كثيراً.

قدمنا الكلام على الجزيرة العربية لأن المملكة العربية السعودية تشغل بين ٧٥٪ و٨٠٪ من مساحة الجزيرة. والآن نتناول الاجزاء من الجزيرة التي تدخل في المملكة، ونوليها العناية الخاصة.

تقع نجد موقع القلب من المملكة العربية السعودية، فهي نواة البلاد الجغرافية وهي نواة الدولة التاريخية والسياسية. اذ في نجد قامت الدولة السعودية الاولى في اوائل القرن الثاني عشر الهجري (القرن الثامن عشر الميلادي). ونجد هضبة يجتازها جبل طويق من الشمال الى الجنوب. الى شرقه تقع سدير والمحمل والعارض والخرج والحريق والافلاج، كما أنه الى الجهة الغربية منه تقوم شمر والقصيم والوشم. والجغرافيون القدامى مختلفون فيما بينهم على حدود نجد الغربية (الطبيعية أصلاً). فالذين يوسعون «نجدا» غرباً يضيقون على الحجاز في شرقيه والعكس بالعكس. وبسبب من اختلاف القدامى اختلف المحدثون. ونحن لا نشير هنا الى الوحدات السياسية، فهنا كان الخلاف بشأنها أشد، إذ انها مرتبطة بالقبائل ومظاعنها وحرمها وولائها.

ويحيط بنجد صحار واسعة في الشمال والجنوب، وفيما بينهما الصحارى الاصغر التي تربط بين الشمال والجنوب. أما صحراء الشمال فهي النفود. والنفود صحراء واسعة لها شكل بيضاوي يبلغ أقصى طول له ثلاثمائة كيلومتر وتغطي مساحة تقرب من السبعين ألف كيلومتر مربع. وتغطي سطح النفود في بعض اجزائه لا سيما الجنوبية والجنوبية الغربية، رمال كوارتزية متحركة. وعندما تهب الرياح تتحرك هذه الرمال بسهولة محدثة أصواتاً تشبه الموسيقى. لذا سماها البعض بالرمال الموسيقية (غرايبه).

أما الربع الخالي فيشغل قرابة نصف مليون كيلومتر مربع من الارض الصحراوية، سطحها رمال كلسية. والربع الخالي لم يعرف معرفة دقيقة في العصور الحديثة الا منذ سنة ١٩٣٠، على أيدي رحالة مغامرين بريطانيين أولاً، ثم على يد شركة البترول العربية الاميركية (ارامكو). وتقع الدهناء بين نجد والربع الخالي.

تمتلك السعودية على البحر الاحمر نحو ١٨٠٠ كم من السواحل. والغالب على هذه السواحل أنها ضيقة أو انها تكون في الواقع جيوباً سهلية ساحلية، وأقصى عرض لها هو نحو أربعين كم. وإذا استثنينا منطقة جده ـ مكة ـ المدينة فإن الارتفاع من الساحل الى جبال السراة (في مناطقها المختلفة وهي من الشمال العقبة ومدين والحجاز وتهامة الشمالية او عسير) مفاجىء وحاد. فالجبال ترتفع في مقابل ساحل مدين الى ٢٧٥٠ مترا، وتبلغ في عسير ٣٠٠٠ متر، أما في الحجاز فأقصى الارتفاع هو ألف متر. وإذا كان الارتفاع من الساحل مفاجئاً وحاداً، فالانحدار المائي يكاد يكون عامودياً. فالأودية القصيرة تقذف بمائها وما يحمله من غرين او طمي الى البحر،

وتكّون عند مصباتها شروما او أخواراً هي موانىء طبيعية للسفن الصغيرة. أما السفن الكبيرة فكان يتعذر عليها الوصول الا الى عدد محدود من الموانىء وذلك بسبب الشعاب المرجانية الكبيرة.

وللسعودية على ساحل الخليج العربي نحو ٥٥٠ كيلومتراً من الشواطىء، في عرض لا يتجاوز ثلاثين او أربعين كيلومتراً. والساحل هنا مستقيم قليل التعاريج قوي الرياح الخليجية وهي أمور كانت تعرقل الملاحة.

يرى الباحثون ان الامطار التي تسقط على سفوح جبال الحجاز الشرقية وما يجاورها، تغوص في الارض مخترقة الطبقة الكلسية او الرملية من التربة، ثم تسير متجهة شرقاً على طبقة دلغانية، متبعة انحناءة الترس الذي يكون جانبه الادنى في الشرق. وهذه المياه هي التي تظهر واحات وينابيع في نجد والمنطقة الشرقية. وما الرياض وحائل وبريدة وعنيزة وغيرها سوى نماذج للواحات الكبرى. أما الينابيع فهي مثل الذي توجد في الخرج والقصيم. وحتى الاحساء مدينة في مياهها الغزيرة، على رأي البعض، الى بعض ما يسقط من المطر في تلك الاجزاء الغربية النائية.

والمملكة العربية السعودية، التي تشغل نحو اربعة أخماس مساحة الجزيرة العربية، لها حدود مشتركة مع الكويت (١٩٢٢) والعراق (١٩٣٠) والاردن (نهائياً ١٩٦٥) في الشمال (والسنوات الموضوعة بين الاقواس تشير الى التواريخ التي تم بها تحديد الحدود مع البلد المذكور). أما في الشرق فالحدود المشتركة هي مع البحرين (في المياه الاقليمية) ودولة قطر ودولة الامارات العربية المتحدة. أما في الجنوب (مع اتجاهيه الجنوب الشرقي والجنوب الغربي) فالدولة السعودية تصاقب الجمهورية اليمنية وعُمان. ولما ضمت المملكة السعودية عسير وجيزان سنة ١٩٣٤ حددت الحدود بين المملكة واليمن في المناطق الخصبة الغربية. أما المناطق الرملية الداخلية فلا تزال الحدود فيها غير معينة. والربع الخالي أقله في عمان (أو هكذا يقال) وأكثره في السعودية. ولكن ليس من اليسير وضع الخط الفاصل بين البلدين.

اسم المملكة العربية السعودية حديث نسبياً. فقد أصدر الملك عبد العزيز آل سعود مرسوماً ملكياً بتاريخ ٢٠ جمادى الاخر ١٣٥١ (٢١ ايلول/ سبتمبر ١٩٣٢) أطلق فيه هذا الاسم على المنطقة التي كان يحكمها. ومع اننا سنعود الى الحديث عن هذه الامور ببعض التفصيل فيما بعد، فإننا نرى لزاماً علينا أن نجمل تطور هذه الدولة مع اسمها الجديد، هنا. ففي سنة ١٩٢١ كان الملك عبد العزيز آل سعود قد استولى على حائل وما اليها، ولذلك فقد أعلن في تلك السنة (١٩٢١) نفسه «سلطانا على نجد وملحقاتها». وبسبب الحرب التي قامت بين عبد العزيز والحسين بن علي ملك الحجاز، والتي انتهت باستيلاء آل سعود على المنطقة بكاملها، أعلن عبد العزيز آل سعود ملكاً على الحجاز (٢٣ جمادى الاخر ١٣٤٤/٨ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٦). وظل

هذا هو لقب عبد العزيز (سلطان نجد وملحقاتها وملك الحجاز) الى سنة ١٣٥١/١٩٣٢، عندما أصبح اسم الدولة «المملكة العربية السعودية» وكان عبد العزيز أول من حمل هذا اللقب. ولما ضمت جيزان وعسير بعد ذلك بسنتين الى الملك السعودي، أصبحتا، بطبيعة الحال، جزءاً من المملكة العربية السعودية.

وسكان المملكة العربية السعودية مختلف في عددهم. فالاحصاء الذي تم سنة ١٩٧٤ أظهر العدد يزيد عن سبعة ملايين قليلاً. والتقديرات الاقدم من ذلك تجعل الرقم بين خمسة وعشرة ملايين (وسنعود الى هذه القضية فيما بعد).

وعندما ننظر الى سكان المملكة من حيث العنصر، فإننا نجد انه، بالرغم من الرأي القائل بصفاء سكان السعودية على أنهم «أكثر العرب نقاوة وأقلهم اختلاطاً»، كان ثمة تمازج واختلاط عنصري في العصور القديمة. فالعناصر الحامية الافريقية جاءت الساحل الغربي ووصلت الى السواحل الشرقية في زمن لاحق. أما العناصر الارمنية فقد وصلت بعض الاجزاء الشمالية في وقت سابق لسنة ٣٠٠٠ ق.م. والعناصر الايرانية دخلت المناطق الشرقية، في أكثر من فترة واحدة. الى هذا يجب ان نذكر ان المدن الرئيسة في الحجاز هبطتها في أوقات مختلفة جماعات من الصين وأندونيسية والهند وافريقية الغربية (فضلاً عن الشرقية). وهذه الجماعات جاءت متاجرة قبل الاسلام، وجاءت حاجة (وربما متاجرة أيضاً) بعد الاسلام. واستقر أفراد أو أسر منها في المنطقة وأثرت في السكان اما عنصرياً، بالتزاوج، أو اجتماعياً بالمخالطة.

وتدين المملكة العربية السعودية بالاسلام على أساس المذهب الحنبلي الوهابي. والملك والحكام وأمراء المقاطعات والقضاة يسيرون على الفقه الحنبلي الوهابي. الا ان في المملكة عدداً صغيراً من الشيعة (الكيسانية) في الغرب، في ينبع وبين قبائل حرب وجهينة. وفي الاحساء عدد أكبر قليلاً من الشيعة. كما انه توجد جماعات من أتباع القرامطة في منطقة القطيف.

واللغة العربية هي اللغة الرسمية في البلاد، وثمة اهتمام حديث العهد باللغات الاجنبية وبشكل خاص بالانكليزية.

لعبت بلاد المملكة العربية السعودية أدواراً هامة في التاريخ البعيد للمنطقة بأسرها. فالطرق التي كانت تجتازها من شواطىء الخليج العربي الى الاردن وسورية ومصر، والطرق التي كانت تتبعها القوافل من مدن السواحل الجنوبية دوراناً بالربع الخالي او مروراً باليمن ثم الى الحجاز حتى تصل الى الاردن وفلسطين، هذه الطرق التي كانت تسير عليها قوافل الحمير أولاً الى ان دجن الجمل واستعمل (في النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد) ـ هذه الطرق والقوافل كانت سبيل انتقال البخور، لبانا ومرا، والطيوب وغير ذلك، من مناطق واسعة تمتد من شرق افريقية الى جنوب الجزيرة الى الهند (وما وراء الهند) الى أسواقها الاستهلاكية او موانىء ومدن توزيعها

في منطقة أخرى تقع على النهايات الغربية لهذه الطرق ـ في مصر والمدن الفينيقية والموانىء الفلسطينية والأسواق السورية (مثل دمشق). الا ان معرفتنا في الواقع عن هذا التاريخ البعيد قليلة. الرواية المكتوبة لا تعدو ما رواه المؤرخون والجغرافيون الكلاسيكيون من يونان ورومان. وهذه الرواية لا تسبق القرن الخامس قبل الميلاد، فيما كانت هذه الطرق تستعمل قبل ذلك بنحو ألف سنة او يزيد! وما رواه الكتّاب العرب فيما بعد لم يزدنا معرفة. ونحن بانتظار أعمال الحفر والتنقيب الاثريين أملاً في الحصول على صورة لما كان يجري من قبل. وقد جرت أعمال حفر قيّمة في مداين صالح وفي الفاو وفي العجير (ولعلها الجرهاء). ولكننا لا نزال، بالنسبة الى التاريخ الابعد عهداً، نخدش السطح، ولم نجرح الجسم.

على أننا عندما نقترب من أيام السيد المسيح، تتضح الامور الى درجة كبيرة. فالامبراطورية الرومانية التي كانت تسيطر على منافذ التجارة الى البحر المتوسط، كانت حريصة على ان توفر اما الطريق او المتاجر من الشرق. والبحر الاحمر بحرها الى حد كبير. والمتاجر تصل. لكن اغسطوس يريد ان يحتل الجزء العربي من سواحل البحر الاحمر ويسيطر على طرقه ويمنه. وهكذا فإنه يرسل حملة في سنة ٢٤ م لتأمين هذه السيطرة. لكن الحملة فشلت، وعاد الجنود أدراجهم بعد ان تكبدوا خسائر كبيرة وجهوداً أكبر. واضطر هو وخلفاؤه ان يعتمدوا البتراء تاجرة وسوقاً، الى ان أخطأ تراجان الامر فاحتلها (١٠٦ م) وقضى على دولة الانباط.

ومما تجدر الاشارة اليه ان الطريقن المتوازيين اللذين يربطان اليمن بالشمال (مصر وبلاد الشام) هما طريق البحر الاحمر (المائي) وطريق الحجاز (البري)، كانا يتبادلان السيطرة في نقل المتاجر. فإذا انتشر القرصان في البحر الاحمر، انتقل التجار الى الطريق البري، مع كل ما فيه من مشاق السفر وصعوبته. ويبدو أنه في القرنين الخامس والسادس للميلاد كان للقرصان في البحر الاحمر انتشار، لذلك نشط الطريق البري الحجازي (وهناك أمور أخرى تتعلق بالزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة سنتحدث عنها في حديث آخر). وفي النصف الثاني من القرن السادس كانت مكة سوق الحجاز الرئيسة ومركز تجارة الشمال والجنوب، وكانت المدينة مصنعه الرئيس. وكانت للطائف مكانة يفيد منها المكيون. في هذا الزمن نفسه كانت التجارة في الخليج العربي بيد الدولة الساسانية، ولعلها كانت تجنح الى الموانىء الايرانية، وإن لم تكن تستغني عن بعض الموانىء الصغرى (أما ميناء الابلة فهو خارج بلاد المملكة العربية السعودية). ومما يجب ان يذكر ان مدن الحجاز، على ما كان لها من أهمية تجارية، ظلت مستقلة فلم تصل اليها أيدي البزنطيين أو الساسانيين. صحيح أنه كانت ثمة حملة حبشية على الحجاز، لكنها فشلت، كما فشلت حملة اغسطوس قبل ذلك بنحو خمسة قرون. وكانت قريش سيدة مكة وتجارتها.

لسنا نحسب اننا بحاجة الى الحديث عن ظهور الاسلام، إذ أوحي به الى النبي (ص)، وما تلا ذلك من تطور في تاريخ العرب والاسلام. فالدعوة وانتشارها في الجزيرة أولاً، والفتوح وامتدادها في نحو قرن من الزمان من الهند الى اسبانية ثانياً، وقيام الدولة العربية الاسلامية ثالثاً، وتطور الحضارة العربية الاسلامية الى نهاية القرن الرابع/العاشر، أمور معروفة. ولكن لنا بضع ملحوظات نرى أنه من المفيد أن تدون هنا: وأولها، أن قيام الوحدة السياسية الواسعة فتح طرقاً جديدة بين اجزاء الامبراطورية عبر بر وبحر بعيدين عن الحجاز. لذلك فقد الحجاز قيمته كطريق تجاري رئيس. والواقع ان هذه الخسارة كانت كبيرة، لولا أن الامويين ـ على العموم ـ أرادوا ان يطمئنوا الى الحجازيين فأغدقوا عليهم العطاء. وثانيها، أن مكة أولاً، وبقية مدن الحجاز، أفادت من كونها أصبحت قبلة المسلمين ومحط آمالهم في اداء فريضة الحج. هذا الامر عوّض على مكة لا الخسارة المادية (التجارية) فحسب، بل الكثير من الخسارة المعنوية والأدبية والسياسية. فالحجاج بتنوع فئاتهم وتباعد ديارهم وكثرة عديدهم كانوا ينفحون الحجازيين بعامة، والمكيين والمدنيين بخاصة، شيئاً كثيراً من الشعور بالقيادة في مجال الفقه والحديث (الى ان قامت المدارس الاخرى) والاحساس بأنهم أصحاب مهد الاسلام.

والأمر الثالث الذي يجب ان يلحظ هو أن الجزيرة، بعد فترة لم تكن طويلة من الوحدة السياسية، عادت سيرتها الاولى من حيث تقاسم القبائل او الامراء السلطة والنفوذ، وتنازع هؤلاء فيما بينهم. وكان لحكام مكة استقلال واسع النطاق. لكن يجب ان يذكر ان قرب الحجاز من مصر، واحتياج الحجاز الى حبوب مصر وموادها الغذائية، مكن، في كثير من الحالات، لحكام مصر أن يسيطروا على المدن المقدسة. وهو أمر كان له في نفوس حكام مصر قيمة كبيرة. (الامثلة على ذلك كثيرة منها الفاطميون (٢٩٧ ـ ٩٠٩/٥٦٧ ـ ١١٧١) والايوبيون (٥٦٤ ـ ١١٦٩/٦٥٠ ـ ١٢٥٢ في مصر) والمماليك (٦٤٨ ـ ١٢٥٠/٩٢٢ ـ ١٥١٧).

وبقدر ما كانت مصر تتولى نقل المتاجر من البحار الشرقية الى أوروبة وبالعكس، وبقدر ما كانت بلاد الشام تقوم بقسط كبير من هذا العمل، أيام المماليك بشكل خاص، كانت حصة الحجاز من هذه الصناعة قليلة، لكن يبدو ان طريق الخليج العربي ـ البحر المتوسط كان يفيد منه بعض القبائل المقيمة في شمال بلاد المملكة العربية السعودية.

في أوائل القرن العاشر للهجرة (القرن السادس عشر الميلادي) دخل الاوروبيون ـ بقيادة البرتغاليين زمنياً ـ العالم العربي من الباب الخلفي. داروا برأس الرجاء الصالح، وتعرفوا الى مسالك السفن في المحيط الهندي، وطمعوا في امتلاك المراكز التجارية الحساسة، واستولوا على الكثير منها واتخذوها قواعد لمتاجرهم وأساطيلهم

وبخاصة في خليج عمان والخليج العربي. لكن البحر الاحمر ظل بعيداً عن نفوذهم. وتبع البرتغاليين الهولانديون والانكليز والفرنسيون (في القرنين السابع عشر والثامن عشر).

وفي الوقت الذي كان البرتغاليون يدخلون فيه العالم العربي من الباب الخلفي، كان العثمانيون يقضون على دولة المماليك (٩٢٢/ ١٥١٧) ويحتلون بلاد الشام ومصر ويستتبعون الحجاز ثم يدخلون العراق. واستلحقت، فتحا أو تبعية، بقية انحاء الجزيرة. معنى هذا ان بلاد المملكة العربية السعودية كانت تابعة للدولة العثمانية ولكن على درجات مختلفة. فالحجاز محط أبصار سلاطين آل عثمان، الذين أصبحوا خلفاء المسلمين وأمراء المؤمنين؛ والعناية به أشد. والخليج العربي موضع اهتمامهم وبخاصة الاحساء، وخليج عمان مطمحهم. أما الاجزاء الداخلية وما يحيط بها، فلم يكن من اليسير للدولة العثمانية ان تسيطر عليها، كما أنه كان من العسير حتى استرضاء القبائل الظاعنة فيها، خصوصاً فيما يتعلق بحماية القوافل التجارية المارة بأرضها، وحراسة قوافل الحجاج من اعتدائها.

على أن الحادث الابعد مدى والاكثر تأثيراً والأوسع شهرة الذي شهدته تلك البلاد هو قيام محمد بن عبد الوهاب بحركته الاصلاحية، وقيام دولة آل سعود في الوقت ذاته، وذلك في أواسط القرن الثاني عشر/ الثامن عشر.

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العُيَيْنة (١٧٠٣/١١١٥)، وهو سليل اسرة كان منها عدد من قضاة العيينة وفقهاء نجد. وقد قضى الشيخ محمد السنوات الاولى في العيينة، ثم رحل في طلب العلم الى الحجاز والعراق والاحساء. ولما توفي والد الشيخ محمد (أي القاضي عبد الوهاب في السنة ١١٥٣/١٧٤٠) أعلن الشيخ دعوته. والدعوة في أصلها هي حمل الناس الى العودة الى ينابيع الاسلام الاصلية، على ما هي عليه في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. والشيخ محمد، مثل آبائه، كان حنبلياً، وكان إمامه في دعوته ابن تيمية إمام الشام وأحد كبار المصلحين في الاسلام (٦٦١ - ٧٢٨/ ١٢٦٢ - ١٣٢٨).

ولم يستطع الشيخ محمد بن عبد الوهاب البقاء في العيينة، فانتقل الى الدرعية حيث كانت تقوم إمارة آل سعود التي ترجع الى أواسط القرن التاسع/ الخامس عشر في أصولها. وهنا تحولت أفكار محمد بن عبد الوهاب الى برنامج عملي سياسي اجتماعي أيدته سلطة آل سعود. فكان من ذلك هذه الحركة الاصلاحية السلفية الجامعة. احتفظ الامير الحاكم بالسلطة الادارية والسياسية، واكتفى الشيخ بالسلطة الدينية.

الدولة السعودية (الاولى) التي نشأت عن هذا التناسق والتوافق بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والامير محمد بن سعود دامت سبعين سنة ونيفا (١١٥٩ - ١٢٣٣/

١٧٤٦ ـ ١٨١٨). وقد تولى الامارة فيها اربعة من آل سعود هم: محمد بن سعود، وعبد العزيز بن محمد، وسعود بن عبد العزيز وعبدالله بن سعود. وكان خلفاء الشيخ بعد وفاته (١٢٠٦/ ١٧٩٢) ابنه حسين ثم عبدالله أخوه وعلي بن حسين.

قام كل أمير بحصته من الجهاد والاحتلال. فلما توفي الامير محمد (١١٧٩/ ١٧٦٥) ترك لابنه إمارة كبيرة قوية ضمت العارض (باستثناء الرياض) والمحمل وقبلت بالولاء له الوشم وغيرها. أما عبد العزيز فقد انتشرت سلطته في ارجاء الجزيرة العربية الواقعة شمالي الربع الخالي. إذ شملت دولته الرياض وسدير والخرج والقصيم وشمر والاحساء وساحل عمان وقطر والبحرين والحجاز وعسير. وقد تحقق للدولة السعودية ثلاثة أمور: أولها انتشار حركة محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية وآرائه الدينية في البلاد، وثانيها توحيد نجد، وثالثها جعل نجد قلب هذا التوسع في الجزيرة.

إلا أن الامور التي حققتها الدولة السعودية هي التي اثارت حفيظة الدولة العثمانية ضدها. إذ لم يكن مما يرضى به السلطان العثماني ان تقع المدن المقدسة خارج نفوذه وهو الخليفة. هذا، الى ان الدولة السعودية هاجمت جنوب سورية وجنوب غرب العراق. يضاف الى هذا كله أن «الامير السعودي كان أول حاكم سني يرفض الاعتراف» بخلافة السلطان العثماني.

فكان من جراء ذلك ان وجهت الدولة العثمانية حملة تركية ـ مصرية نظمها محمد علي باشا. وأرسلت الحملة في سنة ١٢٢٢/ ١٨١١ وانتهى الامر بها ان استولت على الدرعية ١٢٣٣/ ١٨١٨ وقضت على الدولة السعودية الاولى، وقد تم ذلك على يد ابراهيم باشا. (وكانت هناك حملة ثانية بعد عشرين سنة. ولكن النشاط عاد الى الامراء السعوديين فأقاموا الدولة السعودية الثانية بزعامة تركي ثم فيصل وخلفائهما (الى سنة ١٣٠٥/١٨٨٧) لما احتل ابن الرشيد أمير حائل الرياض. وأخيراً اضطر زعيم آل سعود عبد الرحمن أن يلجأ الى الكويت ومعه ابنه عبد العزيز (١٣٠٨/١٨٩١). إلا ان عبد العزيز احتل الرياض (١٣١٩/ ١٩٠٢) وأعاد الى السعوديين امرتهم.

حكم عبد العزيز آل سعود من ١٣١٩ ـ ١٣٧٣/ ١٩٠٢ ـ ١٩٥٣. ولما قامت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ م) كان عبد العزيز قد وضع، تحت سلطته، كل أواسط الجزيرة والاحساء. ورغبة منه في أن يعيد دعوة محمد بن عبد الوهاب الى نشاطها وأثرها أنشأ (١٩١٠) «الاخوان» الذين كانوا يقيمون في مستوطنات في نجد، فكان له، في ذلك، مؤسسة قوية افادته دينياً واجتماعياً وإدارياً، كما أفادت البلاد منها.

وقد جرّت الحرب العالمية الاولى أموراً كثيرة على الجزيرة. فمنها سيطرة بريطانية على السواحل الشرقية (باستثناء الاحساء) والجنوبية للجزيرة. ومنها ان عبد العزيز عقد اتفاقاً مع بريطانية على أن يظل على الحياد. وقد اعترفت له بريطانية

باستقلال نجد وسلامة أملاك عبد العزيز. ومنها انه نتيجة للمراسلات التي قامت بين شريف مكة، الحسين بن علي، والحلفاء، أعلن الحسين الثورة على الدولة العثمانية في ٩ شعبان ١٣٣٤ (١٠ حزيران/ يونيو ١٩١٦).

وفي سنة ١٣٤٠/١٩٢١ قضى عبد العزيز على آل الرشيد وضم شمر الى ملكه. ثم وقع الخلاف بينه وبين الحسين بن علي فهاجم عبد العزيز الحجاز (١٣٤٣/ ١٩٢٤)، وتنازل الملك حسين لابنه علي عن العرش. لكن الحملة السعودية استمرت حتى تم للبيت السعودي الاستيلاء على الحجاز بكامله. فتنازل علي وانسحب الى العراق (١٣٤٤/ ١٩٢٥). وفي العام التالي نودي بعبد العزيز ملكاً على الحجاز، بعد ان كان قد اعترف به سلطاناً على سلطنة نجد وملحقاتها. وفي سنة ١٣٥١/ ١٩٣٢ أصبح اسم المنطقة التي يحكمها عبد العزيز آل سعود المملكة العربية السعودية، وأصبح لقبه، ولقب خلفائه من بعده، ملك المملكة العربية السعودية، وقد حكم البلاد الملك عبد العزيز (١٣١٩ ـ ١٣٧٣/ ١٩٠٢ ـ ١٩٥٣) والملك سعود (١٣٧٣ ـ ١٣٨٤/ ١٩٥٣ ـ ١٩٦٤) والملك فيصل (١٣٨٤ ـ ١٣٩٤/ ١٩٦٤ ـ ١٩٧٥)، والملك خالد (١٣٩٤ ـ ١٤٠١/ ١٩٧٥ ـ ١٩٨٣). وصاحب الحكم اليوم هو الملك فهد.

كان أول ظهور عام ـ عربي اسلامي ـ للدولة السعودية سنة ١٩٢٦ لما دعا عبد العزيز آل سعود الى عقد مؤتمر اسلامي لبحث شؤون الحج. ومع ان موضوع الخلافة كان يشغل الكثيرين من زعماء العالم الاسلامي يومها، بسبب خلع السلطان (الخليفة) العثماني (١٩٢٤)، فإن عبد العزيز لم يسمح للموضوع حتى بأن يثار في المؤتمر.

على أن المملكة العربية السعودية أصبح لها دور هام في شؤون المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الثانية (وذلك، بالاضافة الى أسباب أخرى، يرجع الى الثروة البترولية التي تفجرت في البلاد، والتي سنعود الى الحديث عنها). وكان أول مشاركة بناءة قامت بها العمل على إنشاء جامعة الدول العربية (١٩٤٥). ثم جاءت المساهمة في قضية فلسطين، منذ حرب ١٩٤٨ وإلى الآن. وبعد حرب ١٩٦٧ (في مؤتمر القمة في الخرطوم) قررت الدولة السعودية ان تكون حصتها من العون المالي المقدم الى مصر والاردن، خمسين مليون جنيه (من أصل ١٣٥ مليون قررت على الدول المنتجة للنفط). وقد كان للمملكة العربية السعودية دور فعال في المفاوضات التي انتهت بقيام دولة الامارات العربية المتحدة. كما أسهمت المملكة العربية السعودية في حرب ١٩٧٣، مالياً وعسكرياً وسياسياً وبترولياً.

وللمملكة دور كبير في السياسة العالمية. ومع ان هذا قد بدأ منذ سنة ١٩٢٧، فإن المملكة أخذ دورها ينمو ويكبر منذ ١٩٤٥، إذ اشتركت كعضو مؤسس في إنشاء الامم المتحدة. وكانت البلاد، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، تعاني ضائقة اقتصادية (لأن النفط لم يكن مردوده قد أصبح هاماً) لذلك قبلت (١٩٤٦) معونة مالية

بقيمة ٢٧,٥٠٠,٠٠٠ دولار. وتلقت من المؤسسات الدولية (١٥,٠٠٠,٠٠٠ دولار) ومن برنامج «النقطة الرابعة». لكن هذا العوز انحسر، وأصبحت المملكة العربية السعودية عوناً لدول كثيرة عربية وأفريقية. ومنذ انشاء منظمة أوبك (أي الدول المنتجة للنفط) في سنة ١٩٦٠، وللمملكة دورها الرئيس فيها. ومما يدل على مدى اهتمام المملكة بالعالم الخارجي الرحلات الواسعة والبعيدة المدى التي يقوم بها ملوكها. ولعل الملك فيصل كان الابعد شأوا في ذلك. فقد قام بزيارة عدد كبير من الدول الاسلامية والافريقية والغربية (في سنتي ١٩٦٦ و١٩٦٧ ثم في سنتي ١٩٧٢ و١٩٧٣).

والمحور الرئيس في تطور الأوضاع في المملكة العربية السعودية منذ أواسط الاربعينات هو النفط. وقبل ان ننتقل للتحدث عن أهمية هذا المعدن للبلاد من الناحية الاقتصادية، نرى لزاماً علينا أن نضع أمام القارىء لمحة تاريخية مقتضبة عن هذا الموضوع. اكتشف النفط في السعودية قبل الحرب العالمية الثانية. ويبدو ان اكتشافه في البحرين (١٩٣٢) هو الذي شجع الباحثين عن الثروة في باطن الارض بالاتجاه نحو الشاطىء الغربي للخليج العربي. وقد منح الامتياز للتنقيب عن النفط سنة ١٩٣٣، والواقع انه في سنة ١٩٣٨ استخرجت ارامكو (شركة البترول العربية الاميركية) نصف مليون برميل! لكن استخراج النفط أوقف خلال الحرب العالمية (الثانية) ثم عاد في ١٩٤٤. وأنشئت أول مصفاة في البلاد في سنة ١٩٤٥ في رأس تنورة. وفي أواخر سنة ١٩٥٠ تم انشاء خط الانابيب الذي يصل بين مناطق الانتاج في شرق المملكة وميناء الزهراني (جنوبي صيدا في لبنان).

كانت امتيازات النفط التي تمنح للشركات الاجنبية مجحفة بحق البلاد. ولأول مرة صار الشرط أن تكون الارباح مناصفة (١٩٥٠) في السعودية. وفي السنة التالية اتبع هذا التقليد مع شركات النفط العاملة في الشرق الاوسط. (في سنة ١٩٧٤ أصبحت النسبة ٦٠٪ للبلاد المنتجة و٤٠٪ للشركة). وفي سنة ١٩٥٦ انشئت الشركة الوطنية للنفط، وكان لها ان تنقب في الاماكن التي لم تكن داخلة في امتياز ارامكو. وفي سنة ١٩٧٣، وبسبب العون الاميركي الذي قدمته الولايات المتحدة لاسرائيل اثناء حرب رمضان (اكتوبر)، قطعت المملكة العربية السعودية النفط عن الولايات المتحدة وبعض الدول الغربية، وذلك في إطار سياسة عربية عامة يومها. الا ان الضخ والتصدير استؤنف سنة ١٩٧٤.

الزراعة في المملكة العربية السعودية

يعمل نحو نصف سكان البلاد في الزراعة على مستويات مختلفة ودرجات متباينة. ومع ذلك فإن الدخل من الزراعة، بالنسبة الى الدخل القومي العام، كان في سنة ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ أقل من واحد في المئة. هذا مع العلم بأنه كان أكثر من واحد

بالمئة في سنة ١٩٧٤. ومع ذلك فإن هذا لا يعني تأخراً في الانتاج الزراعي، بل ان الدخل القومي العام هو الذي ازداد. والاستغلال الزراعي يكاد ينحصر في الواحات والمناطق التي تروى، وهذه لا تتجاوز مساحتها ٢٪ من أرض المملكة. أما ما تبقى من الارض الصالحة نوعاً للزراعة، فتستغل مراعي لأنواع من الماشية. والغلات الرئيسة التي تنتجها الاراضي الصالحة لذلك هي: القمح وأنواع الذرة، والاشجار المثمرة المنوعة، وفي مقدمتها النخيل، الموجود في انحاء مختلفة من البلاد. وكمية القمح التي أنتجت في سنة ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ (والقمح هو المحصول الثاني بعد التمر) غطت ٢٥٪ من حاجة المملكة. لكن الدراسات المخبرية والتجريبية التي تمت في الستينات (بالتعاون مع منظمة التغذية والزراعة) أظهرت انه من الممكن زيادة الانتاج الى الضعف وذلك بإدخال بذار جديد.

أما الحيوانات التي تربى، للافادة من استعمالها ولحومها وصوفها، فهي الخراف والماعز والابل.

للدولة السعودية سياسة زراعية ذات هدفين: الاول تقليل الاعتماد على المواد الغذائية الزراعية المستوردة؛ والثاني رفع مستوى المعيشة لسكان الريف. ولتحقيق ذلك اهتمت المملكة بالزراعة على أساسين، الاول تنويع المنتوج الزراعي، والثاني التخطيط الدقيق للمشاريع. ويدخل في التخطيط العناية القصوى بالماء. فالماء في البلاد نزر. لذلك فإن دراسة مستوفاة للمياه الجوفية تصبح أمراً رئيساً في التخطيط. على ان الدراسة يضاف اليها التنفيذ فيما يخص المياه تتطلب بناء السدود وتحلية مياه البحر. وفي المشروع الخمسي الثاني (١٩٧٥ ـ ١٩٨٠) خصصت ٤,٠٠٠ مليون ريال للزراعة وما لا يقل عن ٣٤,٠٠٠ مليون ريال لمشاريع المياه (معظم المبلغ خصص لتحلية مياه البحر). والهدف كان زيادة الارض المزروعة من ١٢١,٠٠٠ هكتار الى ١٧١,٠٠٠ هكتار (أي بزيادة خمسين ألف هكتار).

درس الخبراء (في الستينات) ما يقرب من نصف مساحة البلاد، وكان رأيهم ان زيادة الانتاج الزراعي ممكنة، إذا توفرت مشاريع توزيع المياه وتصريفها. وقامت الحكومة السعودية بتنفيذ أربعة مشاريع ري ضخمة هي: مشروع ري الاحساء، مستوطنات فيصل النموذجية، سد وادي جيزان، وسد ابها.

وقد دشن مشروع الاحساء للري والتصريف في شهر كانون الاول/ ديسمبر ١٩٧١. (كان من حسن حظنا ان زرناه حتى قبل ان يدشن رسميا، فكانت الزيارة مدعاة لسرور كبير، اذ ان الماء أصبح يفيد ريا ويفيد غسلا للأرض). وقد تم العمل في خمس سنوات وكانت نفقاته ٢٦٠ مليون ريال، استصلحت بها أرض مساحتها ١٢,٠٠٠ هكتار، وقدر المستفيدون من المشروع بنحو ٥٠,٠٠٠ نسمة.

ومشروع مستوطنات فيصل النموذجية لتوطين البدو افادت منه نحو ألف أسرة

بدوية، إذ جهزت لها أرض صالحة للزراعة المستمرة (نفقات هذا المشروع بلغت مئة مليون ريال).

وفي ربيع ١٩٧١ احتفل بتدشين سد وادي جيزان، الذي يتسع خزانه لنحو سبعين مليون متر مكعب من الماء. وهذا هو المرحلة الاولى من مشروع كبير لتطوير وادي جيزان، سيؤدي الى زيادة الاراضي المستغلة بنحو ثمانية آلاف هكتار. والعمل جار الآن في بناء سد لخزن نحو سبعين مليون متر مكعب من الماء في سد جيزان ـ نجران. وقد افتتح سد أبها (في منطقة عسير) في ربيع ١٩٧٤، واستيعابه كان ٢,٤ مليون متر مكعب من الماء.

أما مشاريع تحلية المياه في البلاد، في الخطة الخمسية ١٩٧٥ ـ ٨٠، فترمي الى زيادة الماء المحلى من ١٣ مليون غالون في اليوم الى ١٤٥ مليون غالون. وفيما بين المحطات الجديدة، وتلك التي وسعت للمرة الاولى، والتي وسعت للمرة الثانية، أصبح في البلاد (١٩٨٠) سبع وعشرون محطة لتحلية المياه.

لا تألو الحكومة جهداً في تشجيع العمل في الزراعة. فالمصرف الزراعي (افتتح سنة ١٩٦٣) يقدم للمزارعين قروضاً بدون فائدة، ويحصل الفلاحون على الاسمدة والمضخات والآلات الزراعية والحيوانات المستوردة بأسعار منخفضة بسبب دعم الحكومة لها.

النفط وماله

أهم صناعة في السعودية هي إنتاج النفط الخام والمنتجات النفطية. والسعودية أكبر اعضاء اوبك (منظمة الدول المنتجة والمصدرة للبترول) انتاجاً للنفط. إذ انها تنتج نحو ٣٠٪ من مجموع الانتاج، وهي ثاني (أو ثالث) دول العالم إنتاجاً للنفط. وقد قدر احتياطي النفط في السعودية (كانون الثاني/ يناير ١٩٧٩) ١٦٥,٧٠٠ مليون برميل. ومعنى هذا انه إذا استمرت البلاد تنتج النفط على غرار سنة ١٩٧٨ فإن ما في البلاد يكفيها لنحو نصف قرن من الزمان.

وقد تطور منح الامتيازات وتأليف الشركات النفطية منذ سنة ١٩٣٣ (سنة منح أول امتياز للتنقيب عن النفط لشركة ستاندارد أوف كليفورنيا) بحيث أصبح هناك (سنة ١٩٥٥) شركة ارامكو وهي كبرى الشركات (وتمثل مصالح عدد من شركات النفط) وشركة جتي وشركة الزيت العربية وشركات أخرى صغيرة.

وهناك أربعة عشر بئراً رئيسة هي التي تنتج النفط السعودي: غوار/ ابقيق/ صفانية/ بري/ ابو حدرية/ ابو سعفة/ القطيف/ الفاضلي/ منيفة/ خورسانية/ الدمام/ مرجان/ زلوف/ خريس. وأهمها الاماكن الاربعة الاولى. فغوار أكبر آبار النفط في العالم، وصفانية أكبر الآبار (المائية) في العالم.

ولسنا بحاجة الى تتبع الكميات المنتجة من النفط سنوياً، ولا السير سنة فسنة

مع أسعار النفط. ولكن لا بد من بضع محطات نقف عندها للتدليل على أهمية النفط كمصدر للثروة، ومن ثم لتمويل المشاريع المختلفة، في البلاد. ففي سنة ١٩٤٦ أنتجت السعودية نحو ستين مليون برميل وكانت وارداتها من ذلك تزيد قليلاً عن عشرة ملايين دولار. وفي سنة ١٩٧٠ أنتجت البلاد ١,٣٨٦ مليون برميل وبلغ الدخل منها ١,٢١٤ مليون دولار. إلا أن سعر النفط ارتفع سنة ١٩٧٤ (مثلاً) فالمنتوج الذي كان وقتها ٣,٠٩٥ مليون برميل أدى الى وارد نقدي هو ٢٢,٥٧٣ مليون دولار. أما الآن فيقدر المنتوج اليومي للسعودية بنحو عشرة ملايين برميل وثمن البرميل من النفط السعودي نحو ثلاثين دولاراً. يضاف الى ذلك ان الحكومة السعودية هي الآن شريكة لارامكو بنسبة ٦٠٪ (بدأت المشاركة بخمسة وعشرين بالمئة سنة ١٩٧٣).

والقاعدة التي تسير عليها الحكومة السعودية في سياستها الصناعية هي التنويع. فهناك تصنيع في مجالات مختلفة، لكن التصنيع يجب ان يرافقه تنويع. لذلك فالخطوة الاولى كانت صنع الاشياء اللازمة محلياً كالمواد اللازمة للبناء ومصنوعات مرتبطة بالنفط مباشرة. فهناك صناعة الاسمنت والأنابيب البلاستيكية والآجر والبلاط والأثاث، والمنوسجات القطنية والسجاد ومواد كيماوية للصابون والدهان.

وشركة بيترومين تعنى الآن بالمصالح والصناعات النفطية. انشئت بيترومين ١٩٦٢، وكانت لها سلطة تنظيمية على جميع الصناعات تقريباً. لكن لما أنشئت وزارة الصناعة والكهرباء (١٩٧٥) تولت هي التطوير الصناعي في المملكة. وقد زودت هذه الوزارة بمبلغ ١٠,٠٠٠ مليون ريال سعودي للاشراف على الصناعات الثقيلة. ومن هذه مصنع للفولاذ في جدة، (بدأ الانتاج فيه سنة ١٩٦٨). وأما مصفاة النفط التي انشئت في جدة (١٩٦٨) فهي مما يقع في اختصاص بيترومين. كما ان بيترومين تملك ٥١٪ من أسهم شركة الاسمدة العربية السعودية.

ومن المشاريع النفطية التي هي قيد التنفيذ شبكة من أنابيب النفط الغاية منها إيصال النفط الخام من آباره في المنطقة الشرقية الى ينبع في الحجاز، وأنبوب لنقل الغاز الى ميناء ينبع أيضاً.

أما الشركة السعودية العربية للصناعات الاساسية، وهي التي وضعت الوزارة (وزارة الصناعة والكهرباء) العشرة آلاف مليون ريال سعودي تحت تصرفها لتنمية الصناعة وتطويرها، فأمامها الآن خطط لإنشاء ثلاث مصاف لتكرير النفط للتصدير. وستتمكن هذه في المستقبل من تكرير مليون ونصف المليون برميل يومياً. وستقوم اثنتان منها في الشرق والثالثة في الغرب. أما المشروع الذي تم تدشينه، وقد تم على يد هذه الشركة، فهو مصفاة الزيت التي تم العمل فيها سنة ١٩٧٨ في جدة.

والمعادن التي يقوم العمل بها صناعياً الآن، بالإضافة الى النفط ومشتقاته، هي الصخر الكلسي (المستعمل في صنع الاسمنت) والجبس والرخام والصلصال والملح.

ومن المعروف ان هناك كميات لا يستهان بها من الحديد الخام والرصاص والنحاس والذهب والزنك والفضة، كما ان البلاد تحتوي على بعض الاورانيوم.

ومن المشاريع الكبرى التي هي على جدول الاولويات الصناعية في السعودية ثلاثة مجمعات للصناعات البتروكيميائية في الشرق وواحد في الغرب، ومركزان (أو ثلاثة مراكز) لصناعة الاسمدة.

يقول الخبراء ان المملكة العربية السعودية فيها الآن أكثر من ٢٠٠٠ مصنع، من مختلف المستويات والانتاج. والمال المستثمر في هذه المصانع كبير جداً. وقد أشرنا الى بعض الانجازات الصناعية التي تمت الى الآن في الخطة الخمسية الثانية (١٩٧٥ ـ ١٩٨٠).

الحكومة السعودية وخبراؤها يعرفون ان مصدر الثروة الرئيسي ـ أي النفط ـ ليس دائماً. لذلك فلا بد من إيجاد البديل للمستقبل. ويمكن القول إجمالاً ان هناك نقطة انطلاق أساسية تشدّد على تنويع مصادر الدخل. وهذه الانطلاقة تتمثل في إحداث تغييرات في بنية الاقتصاد الصناعي. فالقاعدة الصناعية توسع، والتنمية المتوازنة يعنى بها عناية فائقة.

المواصلات

إن رقعة المملكة العربية السعودية الواسعة، كانت تحتاج، في بدء حياتها السياسية التنظيمية، الى طرق تربط أطراف البلاد بعضها بالبعض الآخر. وكان إنشاء الطرق البرية هو المعول الاول لتحقيق هذا الهدف. لكن الموارد لم تكن كبيرة الى حد الوصول الى الغرض المنشود. فحتى سنة ١٩٦٤ كانت الطرق المرصوفة رصفاً جيداً، تقتصر على منطقة آبار النفط وطريق جدة ـ مكة ـ المدينة الرئيس. إلا ان ازدياد الواردات من النفط مكّن الحكومة من توسيع الشبكة، بحيث انه يوجد الآن نحو عشرين ألفاً من الطرقات الجيدة (ثلثاها مزفت). فالسيارة تقطع البلاد من الشاطىء الشرقي الى جدة، عبر الرياض ومكة، على طريق غاية في الجودة. وهذا مثل واحد فقط.

والموانىء الرئيسة في المملكة هي جدة وينبع (على البحر الاحمر) والدمام على الخليج العربي. وهذه الموانىء تطورت كثيراً في السنوات الاخيرة. فجدة فيها الآن تسعة أحواض جديدة. وجيزان على جدول التطوير قريباً. والدمام تزدهر. فيها اليوم ميناء الملك عبد العزيز. ويبدو ان المشاريع التي بدأ تنفيذها في الجبيل، على الخليج العربي، ستجعل من هذه المدينة وجهاً حضارياً ممتازاً.

وقد كان الملك عبد العزيز آل سعود حريصاً على إدخال السكة الحديدية الى البلاد. وقد تم له ذلك اذ احتفل في سنة ١٩٥١ بوصول السكة الحديدية الى الرياض (عاصمة المملكة)، وهي التي تبدأ من الدمام. ويبلغ طول هذه السكة ٥٦٥ كم.

والطموح السعودي يرمي الى وصل الخليج العربي بالبحر الاحمر بسكة حديدية من النوع الاول.

وفي المملكة ثلاثة مطارات دولية كبيرة: في جدة والظهران والرياض. والحكومة تنفق عن سعة على توسيع وتجديد المطارات. فالظهران فيها الآن مطار يضاهي اتقن المطارات الدولية. ومطار جدة الجديد، وكذلك مطار الرياض، يعتبران في مقدمة المطارات. وبالاضافة الى هذه فهناك مطارات قائمة أو مزمع انشاؤها في: المدينة وأبها وحائل وبدنه والطائف وطريف والخفجي والقريات. والسعودية هي الخطوط الجوية للمملكة، التي تصل المدن السعودية واحدتها بالأخرى، كما أنها تربط مدن المملكة بالعالم الخارجي.

التجارة الخارجية

يكاد النفط يحتكر الصادرات من السعودية. ومعنى هذا ان المورد المالي الرئيس للمملكة هو من النفط. وتصدر السعودية نفطها الى أوروبة الغربية، وهي أكبر مستورد له (بلغ ما استوردته هذه الدول من النفط السعودي ٣٩,٥٪ منه ٣٣٪ صُدِّر الى دول السوق الاوروبية المشتركة). وتصدر المملكة أكثر من ثلث نفطها بقليل الى الدول الآسيوية وفي مقدمتها اليابان (١٩٪). وهذه الارقام لسنة ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨. أما الولايات المتحدة وحدها فقد استوردت في تلك السنة ٩,٥٪ من مجموع نفط المملكة المصدر الى الخارج. وهي المستورد الرئيس الآن.

بالاضافة الى هذا المصدر الاول والأهم، هناك ما تفيده المملكة العربية السعودية من الحجاج.

أما ما تستورده المملكة العربية السعودية فيشمل البضائع الاستهلاكية على اختلاف أنواعها، كما ان هذه البضائع تأتي من أقطار العالم المتباعدة. وتأتي في مقدمة المواد المستوردة الآلات على اختلاف أصنافها ومعدات وسائل النقل والمواصلات والمعادن الأساسية والمواد الغذائية.

وتأتي في مقدمة البلاد التي تستورد منها المملكة حاجاتها الولايات المتحدة وتليها اليابان ثم جمهورية المانية الاتحادية وبريطانية وايطالية وفرنسة والدول العربية خصوصاً المشرقية ومصر. على ان الواقع ان المملكة العربية السعودية تبعث بنفطها الى عدد كبير من الدول غير التي ذكرنا، وتستورد حاجاتها من دول أخرى كثيرة. إنما أردنا أن نذكر أمثلة فقط.

الخطة الخماسية الثانية (١٩٧٥ ـ ١٩٨٠)

إن الخطة الخماسية الثانية تعطينا فكرة واضحة عن النواحي التي تعنى بها المملكة العربية السعودية. والأرقام التي نوردها قربناها الى أرقام مئوية، وذلك تسهيلاً

للحديث عنها. فالمبلغ الاجمالي الذي خصص للخطة هو ٥٠٠,٠٠٠ مليون ريال سعودي. وقد اجملنا المشروعات تحت رؤوس أربعة توضيحا للعمل. فهناك أولاً المشاريع التي تمس حاجة المجتمع مباشرة، وهذه تضم التعليم والصحة والبرامج الاجتماعية وشؤون الشباب وشؤون البلديات والاسكان وشؤون الحج. وكانت حصة هذه من مجموع مخصصات الخطة هو ٣٦٪. وثمة ثانياً أمور التنمية ويدخل في عدادها الماء وتحليته والزراعة والكهرباء والصناعة والتعدين والمواصلات (بما في ذلك البريد والمواصلات السلكية واللاسلكية) والطيران وأمور أخرى. وكان نصيب أمور التنمية هو ٢٨٪. أما الدفاع والادارة فقد نالهما ٢٣٪. والباقي، وهو ١٣٪ كان حصة صناديق العون.

ونحن عندما ننظر في الاجزاء التفصيلية نجد ان التعليم خصه ٧٤,٠٠٠ مليون ريال سعودي، ولم يكن ثمة سوى الدفاع الذي تجاوز هذا الرقم، إذ بلغت حصته ٧٨,٠٠٠ مليون ريال سعودي. فالتعليم كان له ١٤,٨٪ من مجموع المبلغ المخصص للخطة بأكملها، والدفاع بلغت حصته ١٥,٦٪. وإن كان هذا يدل على شيء فإنه يدل على مبلغ العناية التي توليها المملكة لشؤون التعليم.

وما دمنا في سبيل الحديث عن المساعدات التي تقدمها المملكة العربية السعودية فلنشر الى انه اعتباراً من سنة ١٩٦٧ والسعودية تدفع سنوياً ١٨٨ مليون دولار لدول المواجهة (مع اسرائيل). وقد قدمت المملكة مساعدات قيمتها نحو ٥,٧٠٠ مليون دولار الى الدول العربية (وبخاصة دول المواجهة) ودول اسلامية أخرى (وبخاصة باكستان). ومنذ مؤتمر قمة الرباط (١٩٧٤) أخذت المملكة العربية السعودية تخصص ألف مليون دولار سنوياً للمساعدات الخاصة بالدول العربية والافريقية الفقيرة. وحري بالذكر ان الدولة السعودية هي أكبر ممول لصناديق العون الخاصة بهذه الدول. ومنذ إنشاء صندوق التنمية السعودي (١٩٧٤) والدولة تقدم قروضاً بدون فائدة للعالم العربي وافريقية وآسية وأميركة اللاتينية.

خاتمة

تقدر مساحة المملكة العربية السعودية بنحو ٢,١٢٥,٠٠٠ كيلو متر مربع. على أننا إذا تذكرنا أنه لا تزال بعض المناطق في الجنوب لم تحدد حدودها مع جيرانها بشكل نهائي، أدركنا أن هذا التقدير قد يعدل في يوم من الايام. لكنه لن يكون تعديلاً كبيراً بالنسبة الى هذه المساحة الواسعة من الارض.

أما عدد السكان فأمره متأرجح كثيراً. فقد قدر عدد السكان في اليوم الاول من عام ١٩٥٦ بما يزيد قليلاً عن ستة ملايين نسمة. وقد أجري احصاء في ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣، لكن الارقام التي نتجت عنه رفضت رسمياً. وهناك تقدير لقسم السكان التابع للأمم المتحدة يعود الى سنة ١٩٦٥ وهو ٦,٧٥٠,٠٠٠ مع التقدير على ان سكان

المملكة سيصبحون ٧,٧٤٠,٠٠٠ سنة ١٩٧٠ و٨,٩٦٦,٠٠٠ في سنة ١٩٧٥. على ان بعض الرجال الرسميين في المملكة كانوا، حتى سنة ١٩٧٥، يقدرون عدد السكان بـ ٥ ـ ٦ ملايين نسمة، مع ان احصاء سنة ١٩٧٤ ظهر فيه ان عدد السكان نحو سبعة ملايين. ويقدر اليوم ان العدد بات يقارب السبعة عشر مليوناً.

ويرى المراقبون ان نحو نصف السكان يسكنون المدن والقصبات، فيما يتمركز بعض النصف الثاني في مناطق تحيط بالواحات ويقومون بالأعمال الزراعية، والباقون هم بدو.

وفي السعودية عدد من الاجانب يقدر رسمياً بنحو نصف مليون، وقد يزيد عن ذلك. وأكثر هؤلاء عرب من اليمن ومصر وفلسطين وسوريا ولبنان، بالاضافة الى رجال الاعمال والعاملين في صناعة النفط من الاميركان والاوروبيين.

وفي سنة ١٩٧٦ قدر عدد سكان المدن الرئيسة في العربية السعودية على الوجه التالي: الرياض (العاصمة ٦٦٧,٠٠٠) جدة (٥٦١,٠٠٠) مكة المكرمة (٣٦٧,٠٠٠) الطائف (٢٠٥,٠٠٠) المدينة المنورة (١٩٨,٠٠٠) الخبر والدمام ـ معاً (١٧٦,٠٠٠) الهفوف (١٥٠,٠٠٠) حرض (١٠٠,٠٠٠). كما قدر عدد سكان كل من ينبع وابها وجيزان والظهران ورأس تنورة بنحو مئة ألف. وكانت الجبيل الى قبل مدة قصيرة بلدة صغيرة على ساحل الخليج العربي؛ أما وقد أصبح من أهداف الدولة إقامة مدينة صناعية تجارية هناك، فثمة من يقدّر ان عدد سكان الجبيل سيصبح نحو ٣٠٠,٠٠٠ في نهاية القرن الحالي، أي بعد نحو عشرين سنة. إلا أن هذا لا يزال بعد في عالم الامل، ولو ان اللبنات الاولى للمشروع بكامله قد وضعت في السنتين الماضيتين. والأرقام اعلاه قد زادت كثيراً في اواخر القرن

ولعل من أبرز مظاهر التطور في المملكة العربية تطور التعليم. فالتعليم في البلاد مجاني للجميع. والمعاهد التعليمية، على اختلاف مستوياتها، هي مؤسسات رسمية. ومع ان هناك مدارس خاصة للمستويين الاول والثاني، فإن هذه ليست سوى جزء ضئيل من المدارس الموجودة في المملكة.

ولعل بعض الارقام تتحدث عن تطور التعليم أفضل من الكلمات الكثيرة. فقد كان هناك ٩٦,٠٠٠ تلميذ في المدارس الابتدائية و٤,٢٨٠ تلميذاً في المدارس المتوسطة والثانوية في سنة ١٩٦٠ فارتفع، بعد تسع سنوات فقط، الى ٢٥٤,٠٠٠ تلميذ في المدارس الابتدائية ونحو ٤٠,٠٠٠ تلميذ في المدارس المتوسطة والثانوية. وقد كان مجموع الطلاب في المدارس في البلاد ٧٦٠,٠٠٠ في سنة ١٩٧٤/١٩٧٥ إلا ان الخطة الخمسية الثانية قدرت ان يكون عددهم في نهايتها، أي في سنة ١٩٨٠، مليونا وثلث المليون.

وقد بدأ التعليم الرسمي للبنات سنة ١٩٦٠. وفي سنة ١٩٧٥ كان هناك

٢٥٠,٠٠٠ تلميـذة في مـدارس البنـات. وقـدر ان يصل العـدد الى ٣٥٠,٠٠٠ فـي سنة ١٩٨٠.

والمنتظر ان يرتفع عـدد الطلاب فـي دور المعلمين والمـعلمـات من ٩,٠٠٠ الى ٢٠,٠٠٠، كما ان المعاهد والمدارس المهنية يزداد عددها باستمرار. وحري بالذكر ان الطلاب في دور المعلمين والمعاهد المهنية تدفع لهم مرتبات اثناء دراستهم.

١١ ـ الامارات العربية المتحدة

تقع دولة الامارات العربية المتحدة بين خطي عرض ٢٢ و٢٦,٥ شمالاً، وبين خطي الطول ٥١ و٥٦,٥ شرقاً. ويحدها شمالاً وشمالاً بغرب الخليج العربي. أما غرباً فحدها دولة قطر والمملكة العربية السعودية. ويقع الى شرقها خليج ودولة عمان، وتكّون دولة عمان والمملكة العربية السعودية حدها الجنوبي. وتتكون الدولة من سبع امارات تقع ست منها على الخليج العربي ممتدة مسافة نحو ٧٠٠ كيلو متر وهي: أبو ظبي ودُبَي والشارقة وعَجْمان وأم القيوَيْن ورأس الخيمة. وتوغلها في الداخل متفاوت الا انه يصل في نهاية حدود الدولة في المنطقة الشرقية الى خليج عمان، الذي تقع امارة الفُجَيرة على ساحله في امتداد نحو تسعين كيلومترا. والفجيرة هي الامارة السابعة.

تبلغ مساحة دولة الامارات العربية المتحدة نحو ٩٠,٠٠٠ كيلومتر مربع (وقد ذكر ان مساحتها نحو ١٢٥,٠٠٠ كيلومتر مربع) وتشغل امارة أبو ظبي ما يقرب من ثمانية أعشار المساحة هذه، اذ تمتد سواحلها نحو ٤٠٠ كيلومتر من حدود قطر الى حدود دُبَي، وتتوغل داخلا بحيث تصل، في بعض الحالات، ما يقرب من ٢٥٠ كيلومترا، في محاضر ليوا وواحات المنطقة الشرقية في العين والبُرَيْمي. أما الامارات الباقية فمساحتها صغيرة وأكبرها دُبَي (نحو ٤٠٠٠ ك م٢) وأصغرها عجمان (نحو ٦٠٠ ك م٢).

ولنسارع الى القول بأن موقع دولة الامارات العربية المتحدة له قيمة استراتيجية كبيرة بالنسبة لخليج عمان والخليج العربي. فالبلاد تكّون جزءاً من الجناح الشرقي الطبيعي الذي يحمي المنطقة ويدعم استقرارها.

ويمكن تبين مناطق خمس طبيعية ينقسم اليها سطح الدولة وهي بدءاً من الشرق وانتهاء بالغرب: (١) شريط ساحلي هو سهل رملي، تربته ملحة، حديث العهد جيولوجيا، اذ انه نتيجة انحسار المياه عنه. وفي مقابل هذا السهل الساحلي توجد مئات من الجزر، يتبع أكثرها أبو ظبي. (٢) المنطقة الصحراوية الرملية، التي تشغل قرابة ثلثي مساحة الدولة. وقد تنتشر في أجزاء منها حشائش وانْجم. وهذا يصدق على بعد لا يتجاوز مئتي كيلومتر عن الساحل. ثم تتلاشى هذه المنطقة الصحراوية في الربع الخالي. (٣) ثمة منطقة سهول حصبائية محدودة في مساحتها تمتد بين المنطقة الصحراوية المذكورة والمرتفعات الشرقية. (٤) توجد في الشرق منطقة

مرتفعات عالية لعلّ أكثرها في امارة رأس الخمية. (٥) وأخيراً ثمة منطقة سهول خصبة تحتضنها المرتفعات وساحل البحر على خليج عمان، وهذه تقع في الفجيرة.

يتأثر مناخ دولة الامارات العربية المتحدة، بشكل عام، بأمور ثلاثة: أولها، أنها تقع في المنطقة الجافة التي تمتد عبر الصحراء الكبرى في افريقية وصحارى اسية في ايران والهند. وهذا يجعل حرارتها شديدة. اذ ان متوسط الحرارة في الدولة هو أربعون درجة لشهر تموز (يوليو). أما في أبو ظبي والشارقة فتصل الى خمسين درجة في فصل الصيف. أما حرارة الشتاء فتتراوح بين ١٦ و٢٥ درجة. ويمكن القول اجمالاً بأن فصل الحر يمتد من أيار (مايو) الى تشرين الاول (اكتوبر)، وفصل الحرارة المعتدلة يشغل بقية شهور السنة. والعامل الثاني الذي يؤثر في مناخ الدولة هو الرياح التي تهب عليها والتي يتغير اتجاهها مع الفصول. والاضطرابات او التغيرات المناخية التي يتعرض لها شبه الجزيرة العربية يُحْدِثُ أعاصير رعدية في دولة الامارات العربية المتحدة. أما العامل الثالث الذي يؤثر في مناخ الدولة فهو ان المناطق الساحلية تهب عليها رياح خفيفة من البحر فتحمل الى هذه الاجزاء الساحلية رطوبة كبيرة في نسبتها المئوية. فأبو ظبي تصل فيها درجة الرطوبة حد الاشباع (٩٩٪)، وهي ليست الوحيدة. الا ان المناطق الداخلية لا تتأثر بذلك. وأمطار الدولة قليلة. ولا يزيد متوسط سقوطها عن ٦٥ ملمترا في السنة. وهذه الامطار القليلة تسقط بين شهري تشرين الثاني (نوفمبر) ونيسان (ابريل). وجدير بالذكر ان المرتفعات الشرقية يغزر مطرها نسبياً، لأنها تقدر على اقتناص ما في الاجواء العليا من رطوبة. وهذا ما يجعل رأس الخيمة بلداً فيه زراعة نشيطة، بحيث انها تزوّد جيرانها وحليفاتها بالكثير من الغلات الزراعية.

قدّر عدد سكان دولة الامارات العربية المتحدة في سنة ١٩٧٧ بنحو ٦٥٦,٠٠٠ نسمة. ولكن تقدير سنة ١٩٨٠ هو نحو ٧٠٠,٠٠٠، يقيم نحو ثلثيهم في أبو ظبي ودبي، ويتوزع الباقي على سائر الامارات. ففي الشارجة نحو تسعين ألفاً وفي رأس الخيمة ما يقارب ستين ألف نسمة. أما الفجيرة وعجمان وأم القَيْوَيْن فأعداد سكانها قليلة. ويقدر عدد سكان الامارات اليوم بمليوني نسمة.

الوطنيون من سكان الدولة هم الاصل، وهم يعودون الى قبائل معروفة اسماؤها وبطونها وأفخاذها وعشائرها، وان كان يصعب اعطاء أرقامها بالدقة المطلوبة. أما المقيمون من غير الوطنيين فمنهم كثيرون جداً من رعايا الدول العربية الذين جذبتهم الاعمال الكثيرة الى الدولة. لكن هناك أجانب من الايرانيين والبلوش (البلوخستانيين) والهنود والباكستانيين الذين استقر الكثيرون منهم نهائياً في البلاد. يضاف الى هذا كله الاجانب الغربيون الذين يعملون في مختلف القطاعات الخاصة والعامة، مع عناية أكبر بالأولى.

أما السكان الوطنيون فإنهم ينتمون، على نحو ما يعرِّف العرب أنفسهم، الى أصول يمنية قحطانية (جنوبية) ونزارية عدنانية (شمالية). والقبائل الرئيسة في منطقة الصحراء الغربية هي بنوياس والمناصير، ولكل فروعها المتعددة. أما في الساحل الشمالي فتوجد جماعات من قبائل النعيم، والخواطر (في رأس الخيمة بخاصة). وتوجد قبائل النعيم والظواهر والعوامر في منطقة البُرَيْمي. والمناطق الجبلية المجاورة للساحل هي مساكن قبائل الشرقيين والطنيج والمزاريع والمطاريش والشحيين. على أنه يصعب ذكر جميع القبائل وفروعها في عجالة كهذه.

الا انه في أواخر عهد اليعاربة في المنطقة استقرت الزعامة في المنطقة في اثنين هما محمد بن ناصر الغافري (نزاري) وخلف بن مبارك الهناوي (يمني). وقد توزع ولاء القبائل العربية، اثناء الحروب الاهلية، بين هذين الزعيمين، بقطع النظر عن أصولها. وقام ثمة حلفان حلف الغافريين وحلف الهناوين. على ان هذا الامر آخذ في الزوال بسبب ما طرأ ويطرأ على المنطقة من تبدل وتطور وتغير.

قبضة تاريخ

يبدو من الدراسات الاثرية والتاريخية ان الخليج العربي كان طريقاً تجارياً رئيساً بين ارض سومر ومدنها (جنوب العراق) وبحر العرب ومن ثم المحيط الهندي والبحر الأحمر، منذ اقدم الازمنة التاريخية. فالقيود التي عثر عليها والتي تعود الى الالف الثالث قبل الميلاد، تدلنا على علاقات تجارية وثيقة، وعلى وجود سفن كانت تحمل الاخشاب والنحاس وغيرهما من السلع الى المدن السومرية التي كانت تحتاج إليها في تطوير صناعاتها. وكانت السفن الاولى صغيرة، بطبيعة الحال. فلم تكن تجرؤ على خوض غمار المياه العميقة، بل كانت تحاذي السواحل في تنقلها. ومعنى هذا انها كانت بحاجة الى أماكن تمتار منها، وتتزود بالماء، وتتقي العواصف والزوابع، وهي، بهذه المناسبة كثيرة في الخليج. ومن هنا، على ما ظهر من الكشوف الاثرية على قلتها، جاءت أهمية أم النار (أبو ظبي) ورأس الخيمة. وتشير الآجرات السومرية القديمة إلى ان سومر كانت تستورد «عين السمك»، والمقصود بذلك اللؤلؤ. وقد كانت توجد في المنطقة الممتدة من طرف شبه جزيرة قطر الى الشارجة أماكن بالغة الجودة للغوص (على اللؤلؤة). فمعنى هذا ان ساحل دولة الامارات العربية المتحدة كان يسهم في تصدير اللؤلؤ الى اغنياء سومر وسراتها. وقد استمرت هذه التجارة، مثل الاتجار في المواد السابق ذكرها والحجارة للبناء الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وهنا نأتي على فترة، تمتد نحوا من عشرة قرون، نجد فيها ان التجارة الخليجية مع العراق قد ضعفت، كما انها كادت ان تتوقف تماماً مع حوض السند بعد ذلك بنحو قرنين او يزيد. ولعلّ السبب في ذلك يعود، بالنسبة الى العراق، الى تصدع امبراطورية بابل القديمة (امبراطورية حمورابي) في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، واتجاه الدول التي خلفتها

في شمال العراق الى اسية الصغرى وبلاد الشام للحصول على المعادن (النحاس من اسية الصغرى وقبرص) والاخشاب (بلاد الشام). أما بالنسبة الى حوض السند فالامر يرجع الى ان الحضارة السندية قضي عليها في القرن السادس عشر قبل الميلاد.

عادت التجارة الخليجية الى الكثير من نشاطها أيام الاشوريين والكدانيين (البابليين المحدثين) والفرس القدامى (من حوالى ٧٥٠ ـ ٣٣٠ ق.م.) الذين كان يقابلهم قيام دول هندية لها عناية بالتبادل التجاري. وكانت هذه الدول الهندية قد اكتشفت اهتمام أرض الرافدين والبلاد الواقعة غربها بطيوبها وأفاويهها وتوابلها، كما أدركت أهمية الكثير من صناعات المنطقة المناظرة لها ـ ثياباً وخمرا وزيتا وحليا وما الى ذلك.

وجاء الاسكندر الى الشرق، وافتتح واحتل وقضى على الامبراطورية الفارسية ووصل اواسط اسية وحوض السند (٣٣٤ ـ ٣٢٦ ق.م.). ولما اعتزم العودة جهز اسطولا (٣٢٦ ق.م.) ضخما وعهد بقيادته الى نيارکوس الذي سار به حتى شمال الخليج العربي (٣٢٥). وبعد عودته الى بابل جهز الاسكندر ثلاثة اساطيل معتدلة لاكتشاف الساحل الغربي (العربي) من الخليج العربي. ويبدو ان آخر واحد من هذه الاساطيل وصل الى مكان قريب من رأس مُسنْدَم (ان لم يكن قد بلغه بالذات). وإذا كانت غاية الاسكندر التعرف الى سواحل الخليج الغربية، فإن الاسطول الثالث، ولا شك، عرَّج على موانىء أبو ظبي (ودبي؟) ورأس الخيمة. ولعلّ ما ورد عند الجغرافيين الكلاسيكيين من اليونان والرومان عن القرن الاول قبل الميلاد مستمد في غالبيته مما نقله الرواة عن أساطيل الاسكندر هذه.

ومع ان البحر الاحمر كانت له حظوة عند البطالمة المصريين، والرومان فيما بعد، فان الدول التي قامت في العراق وإيران معاصرة لهؤلاء وأولئك (وهم السلوقيون والفرثيون والساسانيون) كانت حريصة على تقوية تجارة الخليج وتنميتها. ومن هنا يمكن القول بأن دور تجار عُمان ودول الامارات العربية المتحدة كان دوماً كثيراً في هذا التبادل التجاري: الهندي ـ العراقي ـ الشامي.

ونحن عندما نحاول التعرف الى السكان الذين كانوا يقطنون السواحل والمنطقة الواقعة خلفها نجد أنهم كانوا عرباً منذ أقدم الازمنة، شأنهم في ذلك شأن بقية سكان الجزيرة العربية، الا اننا نعرف انه منذ القرن الثاني للميلاد أخذت موجات من عرب اليمن تتجه نحو تلك المنطقة. وكان الازد العنصر الرئيس في الهجرات الاولى. وهؤلاء الازد هم الذين حرروا المنطقة من الاغراب الذين كانوا قد أقاموا لأنفسهم فيها سلطة موقتة.

وكان الحدث الهام في تاريخ تلك المنطقة عربياً وإسلامياً هو اعتناق هؤلاء القوم الاسلام في حياة الرسول (ص) على يد عمرو بن العاص. ومع ان بعض العشائر اشترك في الردة، فإن الاسلام عاد اليهم، وعندئذ أصبحت المنطقة نقطة انطلاق

لحملات عسكرية بحرية نحو فارس وغيرها فيما بعد. ومما يجدر ذكره ان قيام الدولة العربية الاسلامية جعل طريق الخليج وطريق البحر الاحمر متممَين واحدهما للآخر، بدل ان يكونا طريقين متنافسين.

وفي الفترة التي سيطرت فيها سيراف ثم قيس ثم هرمز (القرن العاشر الى القرن الخامس عشر للميلاد) كان لموانىء المنطقة أهمية تجارية. وقد أصبح لهرمز، منذ حول سنة ١١٠٠ م، حكام عرب يتولون شؤونها، وهم الذين سيطروا على جهتي الخليج العربي حتى البصرة، واحتكروا تجارته. وقد اجتمع في ميناء هرمز أحياناً نحو ثلاثمئة سفينة كبيرة. وكان العمانيون، وفيهم أهل الساحل المقصود بدولة الامارات، بحارة الخليج، وصنّاع سفنه، وسادة الطريق الهندي الخليجي.

كان مجيء البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر ايذاناً بتغيرات وتبدلات كثيرة. وكان اهتمام البرتغاليين الاول منصباً على اكتشاف طريق جديد الى الهند يمكّن لهم الاتجار بالبهارات والتوابل والافاويه وحتى الطيوب رأساً، وكسر طوق احتكار المدن الايطالية لهذه التجارة (كانت المدن الايطالية تتاجر عن طريق القسطنطينية ومصر، فلما احتل العثمانيون القسطنطينية تركزت التجارة في مصر). ومن الطبيعي ان يحاول البرتغاليون احتكار هذه التجارة بالنسبة الى غرب اوروبة وشمالها متى نجحوا في الوصول الى الهند.

ولما وصل البرتغاليون الى مناطق عمان والخليج العربي وركزوا أعلامهم في الهند، عمدوا الى احتلال المدن الخليجية والعمانية لتكون محطات لهم. فاستولوا على مسقط وعمان وهرمز (١٥٠٦). وسنتحدث لاحقاً عن هذه المدن، لكن الآن نريد ان نشير الى خور فكّان (الفجيرة) التي احتلها البرتغاليون، بعد ان دمروها كما دمروا غيرها (١٥٠٦). وقد كانت خور فكان، على رواية البوكيرك القائد البرتغالي، مكاناً كبيراً جداً، ومدينة ذات بيوت جيدة يسكنها تجار اغنياء من الهند وغيرها. وكانت المدينة تحوي اصطبلات واسعة لإيواء الخيول التي كانت تصدر الى الهند. وكان ثمة صيد بحري كثير تقوم به السفن الخاصة به.

والمكان الآخر الذي نعرف عنه شيئاً يستحق العناية هو رأس الخيمة (وكانت يومها تعرف باسم جلفر). ويبدو ان بحارة رأس الخيمة لم يكونوا ماهرين في الملاحة فحسب، ولكن نبغ منهم من كتب في علم الملاحة وفنون البحر مثل أحمد بن ماجد الملاح (وهناك أيضاً سليمان المهري لكن هذا كان، على ما يبدو، من مهرة).

كان قدوم البرتغاليين ايذاناً بدخول الدول الغربية ميدان التنافس فيما بينها للتمكن من الافادة في مناطق جنوب شرق اسية تجارياً، ومن ثم التنافس على المراكز التجارية في الخليج باعتبارها محطات لهذه التجارة البعيدة المدى. وقد استمرت هذه المنافسة منذ حول ١٥٠٠ الى أواخر القرن الثامن عشر، وكان المسهمون فيها، وعلى

نحو من التوالي الزمني تقريباً: البرتغاليين ثم الانكليز والهولنديين والفرنسيين. وكان الدفاع عن المنطقة يقوم به أصلاً ابناؤها الذين ثاروا على البرتغاليين مرات عديدة، كما قاوموا الآخرين. وكان في القرن السادس عشر يؤيدهم في ذلك الاتراك العثمانيون، بعد ان قضوا على دولة المماليك واحتلوا بلاد الشام ومصر (١٥١٧). وقد تمكن البرتغاليون من الهيمنة على الخليج لنحو قرن من الزمان. (وفي هذا القرن قامت الدولة العثمانية بإرسال حملتين بحريتين الواحدة سنة ١٥٣٨ بقيادة سليمان باشا، والثانية بقيادة علي بك سنة ١٥٨١، كما ظهر في الخليج أحد زعماء القراصنة الاتراك بير بك سنة ١٥٥٠ ـ ١٥٥١ الذي أزعج البرتغاليين كثيراً). لكن بريطانية وهولندا أخذتا بالاهتمام بتجارة الشرق، ومن ثم بالخليج، في أواخر القرن السادس عشر. وأسست شركة الهند الشرقية التجارية (الانكليزية) سنة ١٦٠٠ وشركة الهند الشرقية التجارية (الهولاندية) بعد ذلك بسنوات، وذلك في سبيل تنظيم أعمال الغزو والاحتلال والاتجار والمساومات مع أصحاب الامر. ويبدو ان الوضع البرتغالي ضعف في الخليج مع مطلع القرن السابع عشر، إذ ان العرب استخلصوا خور فكان منهم نهائياً (١٦٢٣) وتقووا عليهم ولو موقتا في رأس الخيمة ودبا وكلبا. وكان للهولانديين المكان الاول في الخليج منذ العقد الثالث من القرن السابع عشر الى أواسط القرن الثامن عشر، حيث أخذت بريطانية، عن طريق شركة الهند التجارية، في زحزحة الهولانديين أولاً ثم اخراجهم من الخليج أخيراً. الا ان الفرنسيين زاحموا البريطانيين في الخليج لبعض الوقت في أواسط القرن الثامن عشر.

وحري بالذكر ان الخليج العربي وخليج عمان وبحر العرب كانت مسرحاً لأعمال قرصنة على نطاق ضخم في العقود الاخيرة من القرن السابع عشر والعقود الاولى من القرن الذي يليه، وقد اشترك فيها القرصان الاوروبي (وبينهم عشرة انكليز جاءوا الخليج سنة ١٧٠٠) وأسهم فيها العرب ـ عرب عُمان والقواسم، الذين كانوا يستقرون في الشارقة ورأس الخيمة.

في سنة ١٧٦٣ منح ملك ايران كريم خان (حكم ١٧٥٠ ـ ١٧٧٩) بريطانية حق فتح اعتمادية في بوشهر، مع منح الشركة (الانكليزية) احتكار تجارة الاصواف الى ايران، وإعفائها من الضرائب، والوعد بأنه لن يسمح لأي دولة اوروبية أخرى بإقامة مركز تجاري هناك. ومن هذا الوقت بدأ زمن السيطرة البريطانية على الخليج، الامر الذي دام نحواً من قرنين من الزمان.

كان القواسم، حول سنة ١٨٠٠، قد أقاموا لأنفسهم مركزاً ممتازاً في الخليج العربي. اذ انه بالاضافة الى استقرارهم في رأس الخيمة والشارجة، فقد كانت لهم مراكز على الساحل الفارسي. وكان ذلك يسهل لهم الاستئثار بحصة كبيرة من تجارة الخليج، ولم يكن لهم اهتمام خاص «بالقرصنة». لكن يبدو ان محاولة نابليون، لما وصل

الى مصر واحتلها (١٧٩٨)، في الاتصال بزعماء الخليج وبعض امراء الهند لقطع طريق الهند على بريطانية، اثارت اهتمام هذه الدولة في محاولة لفرض سلطانها على منطقة الخليج. ولما تدخل البريطانيون في الحرب بين عُمان والقواسم، ورفضوا ان يدفعوا لهؤلاء ضرائب على سفنهم التي تمر في ملك القواسم، أخذ هؤلاء عندها بالقيام بمهاجمة السفن الهندية البريطانية. وازدادت أعمالهم بحيث شعرت بريطانية بضرورة الحفاظ على مصالحها الاستغلالية التجارية الاستعمارية. لذلك وجهت حملة كبيرة (بعد فشل حملات سابقة) في أواخر سنة ١٨١٩. وتمكنت الحملة بين ٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٨١٩ و١٧ كانون الثاني (يناير) ١٨٢٠ من احتلال رأس الخيمة وأم القيوين وعجمان وفشت والشارقة ودبي. وبذلك تمت لبريطانية السيطرة على طريق الخليج.

ليس من اليسير ان نروي قصة بريطانية في الخليج خلال ما تبقى من القرن التاسع عشر. ولكن لا بد من الاشارة الى ثلاث معاهدات فرضتها على امارات الخليج ومشيخاته وهي: (١) «معاهدة السلام العام» (١٨٢٠) وخلاصتها انه لا يجوز لأي من الامارات او المشيخات ان تهاجم أياً من السفن البريطانية. (٢) «اتفاقية الهدنة الدائمة» (١٨٥٣) وتنص على أنه لا يجور لسفن أي من الامارات او المشيخات أن تهاجم سفن أي من الامارات والمشيخات الاخرى. (٣) «الاتفاقيات المانعة» (١٨٩٢) وكانت تقضي بتعهد زعماء المنطقة بعدم التعامل مع أي دولة الا عن طريق بريطانية - فلا يسمح بإقامة أي وكالة أجنبية او منح امتياز الا باستشارة الحكومة البريطانية.

وهكذا فقد قيدت مشيخات الساحل العُماني (كما أطلق على الامارات التي كونت فيما بعد دولة الامارات العربية المتحدة) في كل تصرفاتها (كما قيدت امارات الخليج جمعاء) بإرادة بريطانية. ومهما قيل في التطوير الذي أدخلته بريطانية في مشيخات الساحل العماني (أو مشيخات الساحل المتصالح) كان المقصود منه قبل كل شيء الحفاظ على مصلحة بريطانية.

نحو قيام دولة الامارات العربية المتحدة

كانت ثمة اتجاهات نحو تعاون وثيق بين حكام امارات الساحل العماني بدا في تكوين مجلس حكام الامارات المتصالحة (بدأت الفكرة سنة ١٩٣٢، وطبقت بالفعل، وكان المجلس يعقد اجتماعات دورية) وذلك بسبب التيارات السياسية التي أخذت تصل الى تلك المنطقة، كما انشىء صندوق لتطوير الامارات (سنة ١٩٦٥ بشكل خاص) وكانت الجامعة العربية حاولت انشاء صندوق لتنمية امارات الخليج لكن بريطانية وقفت في سبيله. واهتمت الكويت والسعودية بمشروعات تنمية خاصة بكل منهما في امارات الساحل، ثم أخذت أبو ظبي بالقيام بمشروعات تنمية في تلك الجهات.

جاءت الخطوة الاساسية في سبيل قيام دولة الامارات على أيدي أصحاب القضية أنفسهم. ففي سنة ١٩٦٨ أعلنت الحكومة البريطانية عزمها على تصفية

وجـودها العـسكري في منطقـة الخليج العـربي في مـوعـد أقـصـاه نهـاية سنة ١٩٧١. وعندها بدأ حكام الامارات باتخاذ الخطوات العملية لتحقيق وحدة تمكنهم من الدفاع عن مصالح منطقتهم متحدين. ويمكن اجمال هذه الخطوات فيما يلي:

(١) عقد اجتماع في السميح بين حاكمي ابو ظبي ودبي، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيـان والشيخ راشـد بن سعيـد آل مكتوم في ١٨ شبـاط (فبـراير) ١٩٦٨، تم فـيه اعـلان اتحـاد بضم البلدين. وقـد قـرر الحـاكمـان ان يدعوا حكام الامارات المتصـالحـة وحاكمي قطر والبحرين للتشاور حول القضايا التي تهم البلاد بأجمعها.

(٢) استجـاب الحكام للدعوة واجتمعوا في ٢٧ شباط (فبـراير) من سنة ١٩٦٨. حضـر الاجتماع حكام ساحل عمان العـربية السبع ـ أبو ظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القيـوين ورأس الخيـمـة والفجيـرة ـ كمـا حضـره حاكمـا قطر والبـحـرين. في هذا الاجتمـاع اعلِنَ قيام «اتحـاد الامارات العـربيـة». وفي دورة عقـدت سنة ١٩٦٩ (٢١ ـ ٢٥ تشـرين الاول ـ اكتوبر) انتخب الشـيخ زايد بن سلطان رئيسـاً للاتحـاد (لمـدة عـامين) والشيخ راشد بن سعيد نائباً للرئيس للمدة نفسها.

(٣) قـامت وجهـات نظر متبـاينة فيمـا يتعلق بالاتحـاد التسـاعي. وقـرر البـحـرين وقطر اعـلان اسـتـقـلال منفـرد لكل منهـمـا. (أعلنت البـحـرين اسـتـقـلالهـا في ١٤ آب (اغسطس) ١٩٧١، كما أعلنت قطر استقلالها في أول شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٧١.

(٤) اجتمع حكام امارات سـاحل عمـان السبع في دبي في ١٨ تمـوز (يوليو) ١٩٧١ وقرروا، وذلك استجابة لرغبات الشعوب العربية في اماراتهم، ان يقيمـوا دولة اتحادية يطلق عليها اسم «دولة الامـارات العربيـة المتحدة» بحيث تكون نواة لاتحـاد أوسع فيمـا بعد. وصـدر عن المجتمعين دستور مـوقت لتنظيم أمور هذه الدولة. ولكن رأس الخيـمة لم تعلن انضـمـامها يومئذ، لذلك اقتصر الاتحـاد على ست امـارات هي: أبو ظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القيوين والفجيرة.

(٥) عـقـد حكام الامـارات الست (المـذكورة في ٤) اجتـمـاعـاً في ٢ كـانون الاول (ديسـمبـر) ١٩٧١، أعلنوا فيـه سـريان الدسـتور المـوقت و«قيـام دولة الامـارات العـربيـة المتـحـدة» باعـتـبـارها «دولة مـسـتـقلة ذات سـيـادة وجـزءاً من الوطن العـربي الكبيـر؛ تستهدف الحفاظ على استقلالها وسيادتها، وعلى أمنها واستقرارها، ودفع كل عدوان على كيانها او كيـان الامارات الاعضاء فيها، وحماية حقوق وحريات شعبها، وتحقيق التعاون الوثيق فيمـا بين اماراتها لصالحها المشترك من أجل هذه الاغراض ومن أجل ازدهارها وتقدمـها في كافة المجالات، وتوفيـر الحياة الافضل لجميع المواطنين، ونصرة القضايا والمصالح العربية والاسلامية، وتوثيق أواصر الصداقة والتعاون مع جمـيع الدول والشعوب، على أسـاس مبـادىء ميثاق الجـامعة العـربية وميـثاق الامم المتحدة والاخلاق الدولية المثلى».

وتقرر في اليوم نفسه انتخاب الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيساً للدولة لمدة خمس سنوات، والشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم نائباً للرئيس للمدة ذاتها.

(٦) أعلنت رأس الخيمة في ١٠ شباط (فبراير) ١٩٧٢ رغبتها في الانضمام الى دولة الامارات العربية المتحدة وموافقتها على دستورها الموقت. ووافق المجلس الاعلى للاتحاد بالاجماع على انضمام امارة رأس الخيمة الى الدولة في التاريخ ذاته.

وبذلك تكاملت «دولة الامارات العربية المتحدة» على ما هي عليه من الامارات السبع وهي: أبو ظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القيوين والفجيرة ورأس الخيمة.

وقد وقعت دولة الامارات العربية المتحدة معاهدة صداقة مع بريطانية في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١، وانضمت الى جامعة الدول العربية (العضو الثامن عشر) والامم المتحدة (العضو ١٣٢)، كما أصبحت في اوبيك (منظمة الدول المنتجة للبترول) وأوابيك (منظمة الدول العربية المصدرة للبترول)، كما أصبحت عضواً في الوكالات المتفرعة عن الامم المتحدة.

والتنظيم السياسي لدولة الامارات العربية المتحدة تتكون هيكليته من الرئيس ونائب الرئيس والمجلس الاعلى للاتحاد وأعضاؤه هم حكام الامارات السبع، ويتمتع فيه حاكما أبو ظبي ودبي بحق النقض، والوزارة الاتحادية، والمجلس الوطني الاتحادي (التشريعي)، وقد تم تنظيمه في سنة ١٩٧٢. ولكل امارة فيه ممثلان يعينهما الحاكم، ومدة العضوية سنتان. وترك للامارات الاعضاء السيادة على أراضيها في جميع الشؤون التي لا يختص الاتحاد بها. والحكومة الاتحادية تمارس العلاقات الخارجية وشؤون الدفاع، وتتكون القوات المسلحة في الدولة من ٢٦,١٠٠ ضابط وجندي (٢٣,٥٠٠ للجيش و١,٨٠٠ للطيران و٨٠٠ للاسطول).

مصادر الثروة (قبل النفط)

كان الغوص على اللؤلؤ احدى الصناعات الكبرى التي اعتمدت عليها مشيخات ساحل عمان. وصيد اللؤلؤ قديم جداً، ونوعية اللؤلؤ الخليجي جيدة، بحيث كانت دوماً مطمح أنظار تجاره. وفي الثلاثينات من القرن الماضي كانت نحو ألفي سفينة، مختلفة الحجوم، تشترك في الغوص على اللؤلؤ. وكانت هذه تأتي من البحرين والساحل الايراني وساحل عُمان. الا ان نحو ٣٥٠ منها كانت تخص غواصي الشارقة ورأس الخيمة، ومثل ذلك العدد تقريباً كان يأتي من أبو ظبي، وكان نحو ٢٢,٠٠٠ رجل يعملون في الغوص على اللؤلؤ في مطلع القرن العشرين، بحيث كانت قرى الساحل ومدنه تبدو خالية في موسم الغوص، الذي كان يمتد من أيار (مايو) الى ايلول (سبتمبر)، وقد قدِّر عدد سفن الغوص في مطلع القرن الحالي بما يزيد عن ألف من أبو ظبي ودبي والشارقة (مع رأس الخيمة)، بالاضافة الى أربعين سفينة كانت تخص عجمان وسبعين كانت لأهل أم القيوين. وقدر ثمن اللؤلؤ المصدر من الساحل العُماني

وحده في سنة ١٨٩٦ ـ ١٨٩٧ بنحو ثلاثة أرباع مليون جنيه استرليني. وكان حكام المشيخات يشجعون هذه الصناعة لأنهم كانوا يتقاضون جعلاً معيناً من كل سفينة بحسب حجمها. وقد دخل خزانة أبو ظبي نحو ٢٠,٠٠٠ استرلينية (سنة ١٩٠٩) من هذا المصدر. ولم يكن يسمح الا لسكان البلاد المحيطة بالخليج العربي ان يغوصوا على اللؤلؤ.

الا ان هذه الصناعة تأثرت كثيراً بدخول اللؤلؤ الياباني السوق العالمية في ثلاثينات القرن العشرين. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية عزف الغواصون عن العمل في هذه الصناعة، بحيث ان عدد السفن التي كانت تمارسها، والتي كانت تخرج من الساحل العماني، كان ضئيلاً جداً.

وكانت التجارة مصدراً هاماً للثروة، ذلك بأن تجار الساحل العماني كانوا، في القرن السابق ومطلع القرن الحالي، كما كانوا عبر التاريخ ينقلون السلع والمتاجر بين البصرة والبحرين (التمر والخيول) والموانىء الايرانية (التبغ والسجاد والسكر والسمن) وبمباي (الارز والمعادن والاقمشة) واليمن (البن) وزنجبار (الرقيق). وكان للحكام ١٠٪ عن جميع السلع التي تدخل الموانىء، ومثل ذلك على التمر.

وترتب على اتساع نطاق تجارة الساحل والحاجة الى عدد كبير من السفن ان كانت صناعة بناء السفن صناعة هامة في دبي. وكانت السفن في تنقلها تفيد من الرياح الموسمية. فترحل الى ممباسّا وزنجبار ودار السلام شتاء محملة بالتمر والاقمشة، وتعود في الصيف محملة بالتوابل والافاويه. وكانت بعض السفن تحمل من ساحل عمان السمك المجفف الى مناطق بعيدة. ذلك بأن السمك متوفر بكميات كبيرة في الخليج. وكانت خور فكّان (في الفجيرة) المركز الرئيس للتجارة في خليج عمان، كما كانت دبي المركز المقابل له على الخليج العربي. وهذه كانت توصف بأنها ميناء التجار الوحيد هناك.

وكانت تقوم في الساحل العماني زراعة لا يستهان بها، إذا تذكرنا ان أكثر البلاد هي صحراء. وأكبر محصول زراعي في المنطقة هو التمر. وتزرع كميات ضئيلة من القمح والشعير. ويبدو ان العناية بزراعة الحبوب كانت أهم من قبل (لعلّ القمح كان يزرع في أم النار الواقعة على مقربة من أبو ظبي المدينة). وينقل المسعودي انه بسبب كثرة التعامل التجاري بين موانىء الساحل، مثل خورفكان ودبة، والهند فقد نقل البرتقال الهندي مع التجار، وزرع هناك قبل ان يحمل الى حوض البحر المتوسط.

ومع ان الكميات الزراعية المنتجة في الساحل العماني، سابقاً واليوم، محدودة، فإن التنويع موجود. وثمة منطقتان زراعيتان رئيستان في الساحل: أحدهما في المنطقة الشرقية، والثانية في رأس الخيمة في الشمال. وهناك تزرع أنواع الخضار التي تنمو في حوض البحر المتوسط.

وما دمنا في سبيل التحدث عن الزراعة فلنشر الى الافلاج، وهي وسيلة الري المألوفة هناك منذ القرن الثالث للميلاد على الاقل. والافلاج (ومفردها فلج) هي قنوات مائية تحت الارض (شبيهة بما يعرف في ايران باسم قنات). والاصل فيها هو ان يعين مصدر مائي تحت الارض، بحيث يكون مكان النبع أعلى من البستان الذي سيرويه، وعندها تحفر قناة تحت الارض الى ان تظهر المياه على سطح الارض بحيث يمكن تحويلها للري. وقد يبلغ طول الفلج هذا بضعة كيلومترات. ولا شك ان إحدى الفوائد من اللجوء الى هذا النظام للري هي عدم تعريض الماء للجو الجاف الحار، اذ يتبخر عندها جزء كبير منه.

وهناك مادة الاكسيد الاحمر التي كانت تستخرج من جزيرة أبو موسى وغيرها منذ أزمنة قديمة جداً، وتستعمل في صنع الاصبغة والدهانات.

النفط في دولة الامارات

شهدت العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين نشاطاً متزايداً في البحث عن النفط في مناطق الخليج العربي، وكان ان وصل هذا النشاط الى ساحل عُمان في أواخر الثلاثينات، فمنحت بعض الشركات الاجنبية امتيازات للبحث عن النفط واستخراجه في رأس الخيمة (١٩٣٨) وأبو ظبي وعجمان (١٩٣٩). على ان رحى الحرب العالمية الثانية لم تلبث ان دارت، وتوقف النشاط النفطي في المنطقة. وقد أعيد النظر في بعض الامتيازات من حيث شروطها وأوقاتها، كما منحت امتيازات جديدة. وكانت أبو ظبي في مقدمة مشيخات ساحل عمان من حيث تصدير النفط الى الاسواق العالمية في سنتي ١٩٦٢ و١٩٦٣ (في الاولى كان من مقر البحر ومركزه جزيرة داس، وفي الثانية من البر). وقد ارتفع انتاج النفط في أبو ظبي من ٢,٥ مليون طن (١٩٦٣) الى ٢٣,٦ مليون طن (١٩٦٨). أما في سنة ١٩٧٦ فقد كان منتوج النفط في أبو ظبي نحو ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ طن. وبالإضافة الى النفط فإن أبو ظبي بلد غني بالغاز الطبيعي، واحتياطه في ذلك البلد يعد بين أغنى مخزون للغاز في العالم.

وعثر على النفط بكميات تجارية في دبي سنة ١٩٦٦، وأُنتِجَ بعد ذلك بثلاث سنوات، ووصل ذلك ١٢,٦ مليون طن سنة ١٩٧٥. وليس احتياطي النفط في دبي كبيراً. ومع ان شركات النفط قد أممت عملياتها، فإنها لا تزال تقوم بعملية استخراج النفط وتسويقه. والشارقة بدأ انتاج النفط فيها سنة ١٩٧٤، لكن الكميات لا تزال قليلة. ورأس الخيمة تنتظر ظهور النفط بكميات تجارية. وأم القيوين والفجيرة وعجمان لم تحصل بعد على ما يشفي الغليل من النفط.

وحري بالذكر ان امارات ساحل عمان دخلت حلبة السباق النفطي في وقت كانت فيه سياسة زيادة حصة البلد المنتج للنفط بالنسبة لما كان عليه قبلاً، وهو أربع شلنات للطن الواحد. الا ان الارباح اليوم هي في الغالب مناصفة بين البلد المنتج

والشركة المستثمرة. وقد انتهجت اليابان سياسة أساسها ٦٠٪ للبلد المنتج و٤٠٪ للشركة صاحبة الامتياز. واتبعت هذه الطريقة في أبو ظبي منذ سنة ١٩٧٤. وقد يكون من الضروري ان نشير هنا الى ان البلد المنتج لا يحصل دائماً على هذه النسبة من الارباح، اذ ان الشركة تدخل في الحسابات أرقاماً متنوعة ونفقات مختلفة تخفض النسبة المخصصة للبلد.

ومما يجب ان يذكر هنا ان أبو ظبي انضمت الى منظمة الاقطار المنتجة للبترول (اوبك) سنة ١٩٦٧ وكانت هذه قد أنشئت سنة ١٩٦٠. ودولة الامارات العربية المتحدة هي اليوم عضو في تلك المنظمة. وبذلك تسنى لدولة الامارات ان يكون لها شأن كبير في قضايا النفط العالمية.

دولة الامارات اليوم

تكاد دولة الامارات العربية المتحدة تعتمد على النفط في وارداتها. وأبو ظبي تعتبر بين أغنى دول العالم على أساس الدخل للفرد الواحد. وتليها في الامارات دبي. وقد أدى ارتفاع أسعار النفط الى زيادة الواردات بالنسبة الى أبو ظبي ودبي، وبالتالي الى دولة الامارات. وقد بلغت واردات النفط لعام ١٩٧٦ قرابة ٧,٠٠٠ مليون دولار.

والمركز التجاري الرئيس بالنسبة الى دولة الامارات هو دبي؛ وهو كذلك الميناء الاول. وتقوم الآن ببناء حوض جاف لناقلات النفط الضخمة. وثمة مركزان هما في طريق ان يتخذا شكل المركز الصناعي الاول وهما: رُبَيْس في أبو ظبي وجبل علي في دبي. وثمة ميناء عميق في طريق الوصول الى نهاية العمل فيه في جبل علي. كما ان دبي ستتم انشاء مصنع للالومينيوم في عام ١٩٨١.

كانت واردات أبو ظبي من النفط ٧٥٠ مليون دولار (١٩٧٣) فارتفع الى ٤,٥٠٠ مليون دولار (١٩٧٤). وقد خصص في سنتي ١٩٧٧ ـ ١٩٧٩ نحو ٨,٧٠٠ مليون دولار للتنمية؛ و٨٠٪ من هذا المبلغ يصرف على الاسكان والمواصلات والصناعة. وسيكون لأبو ظبي مصفاتان (واحدة جديدة) ومصانع للبترو كيميائيات ومواسير البلاستيك وتحلية ماء البحر ومصانع للحديد والفولاذ.

وتنفق أبو ظبي الكثير من وارداتها النفطية في مساعدة الاقطار المحتاجة. ففي سنة ١٩٧٦ أنفقت الامارة ٢٩,٥ مليون دولار على أنواع من المساعدة. و٧٥٪ من هذا المبلغ دفع مساعدة لمصر وسورية والاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية. وصندوق التنمية الاقتصادية العربية الذي انشىء في سنة ١٩٧١ برأس مال قدره ١٢٠ مليون دولار، رفع رأس ماله في سنة ١٩٧٤ الى ٥٠٠ مليون دولار. وقد بدأ تقديم القروض لدول اسيوية وافريقية في سنة ١٩٧٦. وأفادت من قروضه الدول العربية بما قيمته ٧٢٪، وأما الباقي، وهو ٢٨٪، فقد انتفعت به بنغلادش والهند وسيريلانكا (سيلان) وماليزيا والملديف وبورُندي ومالي.

وقد كان احتياطي أبو ظبي في ١٩٧٤ يعادل ٢,٠٠٠ مليون دولار، فارتفع الى ٣,٠٠٠ مليون دولار في السنة التالية. وقُدِّر الوفر لسنة ١٩٧٧ بما قيمته ٤,٥٠٠ مليون دولار.

ولدبي تاريخ عريق في التجارة. فقد استقطبت التجارة الخليجية في جزئه الجنوبي قديماً، وجذبت اليها التجار حديثاً. وذلك بسبب نشاط أهلها وخبرتهم في شؤون البحر ومعاملة البضائع والتجار، والتيسير الجمركي والحماية اللتين يحصل عليهما التجار من حكام دبي.

وميناء راشد التي كان فيها أربعة أحواض للسفن في سنة ١٩٧٤ أضيفت اليها ١٥ حوضاً في السبعينات المتوسطة، وسيصبح لها، في مطلع الثمانينات اثنان وعشرون حوضاً.

أما الحوض الجاف وصناعة الالومينيوم في دبي فقد أشرنا اليهما قبلاً. والشارقة سيقوم فيها قريباً مصنع لمواسير البلاستيك وآخر للدهانات. وهناك مشروع لتطوير ميناء خالد.

وفي رأس الخيمة انتاج زراعي لا يستهان به. والامارة كانت دوماً تنتج الثمار والخضار. الا ان المزرعة التجريبية التي انشئت هناك في الستينات، والاهتمام الخاص الذي تبذله الدولة لتحسين الاصناف وزيادتها ومساعدة الزراع فنياً ومالياً، جعل من الارض الزراعية القليلة منتجا لكميات كبيرة مما تحتاجه البلاد. والارض الزراعية القليلة بعضها في المرتفعات، وعندها تصبح أودية أو سهولاً صغيرة جداً، تنحصر بين المرتفعات، وترتوي من المطر الذي يسقط (وهو قليل) والذي يمهد له السكان كي يتجمع في آبار تحفظه لحين الحاجة. أما في الجزء الساحلي السهلي فالارض يتيسر لها ري صالح نسبياً، من الآبار الارتوازية ومن الافلاج التي تنقل الماء من طبقات الارض العليا الى الاماكن المنخفضة. وفي رأس الخيمة الآن مصنع للاسمنت ينتج ٧٠٠ طن يومياً، لكن انشاءاته ستمكنه من انتاج ٤٥٠٠ طن يومياً.

ومن الأمور التي تعنى بها الدولة، كما عني بها الحكام كل في امارته، وكما عنيت بها ادارات المساعدات التي قدمت للساحل العماني (قبل انشاء دولة الامارات)، المواصلات. فالطرق الآن تصل بين عواصم الامارات والدواخل. كما تقوم طرق تصل الدولة ـ خاصة في قسمها الجنوبي ـ بالجيران. وفي داخل المدن طرق جيدة جداً. كما ان البلاد كلها فيها ثلاثة مطارات دولية كبرى. وجدير بالذكر ان اتفاقات بين حكام بعض الامارات وبعض شركات الطيران قد وقعت في الثلاثينات (مثلاً الشارقة ١٩٣٢، ودبي ١٩٣٧) كانت نقطة الانطلاق في هذه المشاريع. الا ان الامر ازداد نشاطاً بعد الحرب العالمية الثانية ثم طفرة كبيرة في الستينات والسبعينات. أما الموانىء فقد

ذكرنا ان أهمها وأكبرها دبي وأبو ظبي، هذا الى جانب موانىء أصغر نسبياً في الشارقة ورأس الخيمة والفجيرة (خورفكّان).

وقد بلغت واردات دولة الامارات العربية المتحدة ١٣,١٥٠ مليون درهم إماراتي (ودرهم الامارات يساوي في السوق العالمية نحو ربع دولار)، كما بلغت الصادرات ٣٣,٧٧٠ مليون درهم. والصادرات تشمل الزيوت الحيوانية والنباتية والمشروبات والتبغ والكيميائيات والحيوانات. الا ان أكبر سلع تستوردها دولة الامارات هي: المصنوعات والماكينات والآلات والأدوات، ووسائل النقل والمواصلات، فهذه تكاد تستهلك نحو ثلاثة أرباع الواردات. وهذا طبيعي في بلد مجتمعه استهلاكي غني، ولا يُصنع فيه شيء من الحاجات اللازمة للسكان.

أما الدول الرئيسة التي تتعامل دولة الامارات العربية المتحدة معها تجاريا ـ للتصدير والاستيراد ـ فهي بريطانية والولايات المتحدة واليابان والمانية الاتحادية والهند والمملكة العربية السعودية وأكثر الدول العربية.

وليس من شك في ان تطور التعليم في دولة الامارات العربية المتحدة يعد في مقدمة مظاهر التقدم هناك. فإذا نحن أخذنا السنوات الاربع بين ١٩٧٥ و١٩٧٨ وجدنا ان عدد المدارس ارتفع من ١٦٧ مدرسة الى ٣٥٠ مدرسة؛ وان عدد الطلاب الذي كان حول ٥٣,٠٠٠ أصبح نحو ٩٥,٠٠٠؛ كما ان المعلمين الذين كان عددهم نحو ٤,٠٠٠ وصل نحو ٨,٠٠٠. وحري بالذكر ان هناك مدارس فنية وتقنية وزراعية. كما ان جامعة أنشئت في العين (أبو ظبي) سنة ١٩٧٧ وكان يومها عدد طلابها ٣٢٠ طالباً يدّرسهم ١٠٥ من الاساتذة؛ اما عدد الطلاب اليوم فيعد بالآلاف. ولسنا بحاجة الى القول بأن هناك عدداً كبيراً من الطلاب الجامعيين يتلقون علومهم في الخارج.

وهذه المدارس هي التي ستهيء لدولة الامارات حاجتها من الموظفين والتجار والتقنيين والمعلمين ومهرة الصناع والعاملين في الحقول الاجتماعية من ابناء البلاد، وقد كان الكثيرون من هؤلاء، الى يومنا هذا، من الذين يفدون الى البلاد من الخارج للقيام بالكثير من هذه الاعمال.

العنصر البشري

ذكرنا من قبل ان عدد السكان في دولة الامارات هو نحو ٧٠٠,٠٠٠ (تقديراً لعام ١٩٨٠). على ان هناك من يقدر هذا العدد للفترة القريبة زمنياً بنحو ٨٧٧,٠٠٠. وهو اليوم يفوق المليونين. وسواء صح التقدير الاول أم الثاني، فالمهم هو ان ربع السكان فقط هم من مواطني دولة الامارات. أما الباقون فهم ممن جاء البلاد للعمل فيها. ومن ثم فقد لا يكون من اليسير التحدث عن مجتمع دولة الامارات، بالشكل الذي يمكن ان يتحدث الواحد عن مجتمع متجانس. فالوافدون على البلاد يأتون من أقطار مختلفة ومتباعدة، وخلفياتهم الاجتماعية والحضارية متنوعة. فهناك الباكستانيون والهنود

والايرانيـون (ومـؤخـراً الكوريون). ومع اننـا لا نملك أعـدادهم الدقيـقـة، فـهم كـثـرة، ويقـومـون بالأعـمـال اليـدوية، ويصعب عليـهم، حتى لو أرادوا، ان يتفـاهمـوا مع السكان الاصليـين بسبب اخـتـلاف اللغة. يضـاف الى ذلك ان الغـالبيـة منهم تأتي لتعـمل مـدة محـدودة، فتـجـمع بعض الثـروة وتعـود الى بـلادهـا. وهناك العـمـانيون، وكـثـيـرون منهم يقـومون بالأعـمال ذاتها، الا انهم عـرب ولغتهم عـربية، ولذلك فإن الاتصـال بينهم وبين السكان الاصليين ايسـر. والغـالبيـة من هؤلاء قد تبقى في دولـة الامارات اذا سـمح لهـا بذلك. ويأتي بعد ذلك، لا ترتيباً ولا عدداً، العرب المشارقة القادمون من سورية ولبنان وفلسطين والاردن ومصر. ولعلّ هؤلاء يكّونون، في الدرجة الاولى، فئة اصحاب المهن الحـرة (كـالتـعـهـدات والبناء والمـصـارف والتـجـارة) والمـوظفـين في دوائر الـحكومـة ومنشـآتها الادارية والصـحية والتعليمية والمصرفية والبترولية. وصناعة النفط يعمل فيـها عـدد لا يستهان به مـن الاجانب، الا ان هذه الصناعـة، التي تزود الدولة بالمـصدر الرئيس والاول من الواردات، يعمل فيـها عدد قليل. ذلك بأنهـا تعتمـد على التكنولوجيـا اكثر من أي صناعة أخرى في البلاد.

وهؤلاء الوافـدون الى الدولـة يقـيـمـون في المـدن ـ حـيث تطلبـهم أعـمـالهم واختـصاصـاتهم، سـواء في ذلك العـرب وغيـرهم. والمناطق النائيـة، على أنها أصبـحت في متناول الجميع بسبب الطرق الجيدة ووسائل النقل الحديثة، يقيم فيها ابناء البلاد. ومن الطبيعي اذن ان تكون ثمة فـروق كبيـرة بيـن المجتمعات الريفيـة والصحـراوية من جـهة وبين مـجـتـمـعـات المدن. صحيح ان الكهـرباء وصلت الى كثـير حـتى من البلدان الصغيرة، ولكن المدينة الكبيرة تظل لها خصائصها وصفاتها وطابعها.

فـالمـجـتـمـعات التـقليـدية لا تزال تحـافظ على عـاداتهـا في أفـراحـها وأعيـادها وأتراحها وولائمها. فهي تعقد حلقات الرقص (للرجال وحدهم طبعاً) للاحتفال بعيد او طهور او ختم للقـرآن الكريم. ولا تزال السفن التي تجتاز الخليج في مسافاته القريبة يسـمع غناء مـلاحيـهـا كمـا كـان يسمع عـبـر العصـور. وفي امـارة رأس الخـيـمـة، في المرتفعات، قد تكون المستوطنة مكونة من أفراد عائلة واحدة (كبيرة طبعاً). ولعلّ من أجـمل العـادات التي يحـافظ عليـها القـوم في دولة الامـارات البيـزرة. فـالصـقـر وتدريبـه والمـحـافظة عليـه واصطحـابه في صيـد الحـبـارى أمور يقبل عليـها الحكام والاغنيـاء والشيـوخ، ويعنون بها عنايتهم بأعز ما لديهم. كما ان سباق الخيل يعتنى به. لكن الذي لا يعـرفه سكان الامـاكن الواقعـة على شـواطـىء البحـر المتـوسط مثـلاً، هو ان هناك سبـاقاً للجمـال. والقوم في دولة الامـارات يولون هذا النوع من السبـاق ما يولونه لسبـاق الخيول، من حيث الاهتمام والمشاهدة والحماسة.

الى جانب هذه العادات العـربيـة الاصيلة التي يعتـز بها مـواطنو الدولة الاصليون، تقـوم عـادات حـملهـا كل قـوم من بلدهم. وبعض هذه العـادات فيـهـا خيـر كـثـيـر، وبعض

سكان البلاد يقبلون عليها بطبيعة الحال بسبب الاتصال اليومي المباشر مع الوافدين، وبخاصة في المدن وفي العمل والسوق والمطعم والمقهى.

الخاتمة

دولة الامارات العربية المتحدة لا تزال في أواخر العام العاشر من عمرها. ونحن إذا تأملنا ما تم في هذه المدة القصيرة، تدهشنا الخطوات الجادة والهامة التي تمت. اذ اننا عندما نمعن النظر فيما كانت عليه الحال قبل خمسة عشر عاماً مثلاً، نجد ان مشيخات او امارات ساحل عمان كما كان يجب ان تسمى، او امارات «الساحل المهادن» او «الساحل المتصالح»، كما كانت تسميها الوثائق الرسمية البريطانية، كانت المشاحنات بينها قوية، والخصومات عنيفة. وقد يستغرب المتمعن في الامر لماذا كان يحدث مثل هذا في بلد او منطقة كان لها من عناصر الوحدة ومقوماتها الكثير. فهي منطقة جغرافية متناسقة، تغلب السهول والهضاب على سطحها، وليس ثمة جبال مرتفعة تعترضها، او خلجان كبيرة تخترقها. فالاتصال بين اجزائها متيسر دوماً. وموقعها جعل منها، على مر العصور، منطقة تجارية منفتحة على العالم الذي يربطها به الخليج العربي وخليج عمان وما وراء ذلك من المحيط الهندي وتفرعاته. وسكان المنطقة، مهما اختلفت اهواؤهم ولهجاتهم، هم عرب أصلاً، ولغتهم العربية. يضاف الى ذلك ان السكان مسلمون. واذن فالبيئة الطبيعية والجماعة البشرية والروابط الروحية قائمة بين اجزاء هذه الامارات.

على أننا يجب ان نذكر انه الى جانب هذه المقومات والعناصر الموحدة، كان هناك ثلاثة عوامل تدعو الى الفرقة والتأخر. فالعصبية القبلية والتنازع الاسري كانا قويين. والفقر كان يؤخر المنطقة. لكن الذي كان أكبر أثراً وأبعد مدى في التفرقة والابقاء على الفقر هو الاستعمار البريطاني الذي جثم على صدر هذه المنطقة ـ كما جثم على صدر اقطار الخليج العربي جميعها ـ قرناً ونصف القرن، والذي كان يعنى بمصلحته فقط. ومن ثم فإنه لم يول الامور الداخلية أي اهتمام. بل انه، على العكس من ذلك، شجع الفرقة والنزاع والتنافس، اذ انه رأى في هذه التفرقة توطيداً لوجوده.

ولكن الاستعمار اضطر الى الانحسار، وتدفق النفط فأغنى المنطقة. وعندها رؤي ان في الاتحاد مصلحة الجميع وقوة لهذه الامارات، فأجمعت أمرها على ذلك. وقيام الاتحاد بحد ذاته (٢ كانون الاول ـ ديسمبر ١٩٧١) كان عملاً جباراً اقتضى الجهد الكبير والسير الحثيث. وعندها بدأ العمل الداخلي في سبيل تطوير البلاد وتنميتها على نحو ما مر بنا.

صحيح ان الدولة لا تزال تسير على دستور موقت، لكن ذلك لم يمنع القائمين على الامر من اتخاذ اجراءات تتجه نحو تقوية الحكومة المركزية كي تتم الوحدة في المستقبل. وفي مقدمة هذه الانجازات الكبيرة انشاء المصرف الاتحادي (١٩٧٥). وفي

سنتي ١٩٧٦ و١٩٧٧ أعيد النظر في أمور عامة هامة، وجُعلت شؤون كثيرة تحت سلطة الاتحاد بعد ان كانت بعض عناصرها تختص بها السلطات المحلية للامارات. فالقوات المسلحة وُحِّدت، وأُنشىء حرس لحماية حدود الدولة البرية والبحرية، ووحدت اجهزة الامن الداخلي، وأصبح الاشراف على الاجهزة الاعلامية تابعاً للدولة الاتحادية.

والمجلس الوطني الاتحادي، المكون من اربعين عضواً، لا تزال صفته استشارية أكثر منها تشريعية، لكنه آخذ بالاهتمام بالأمور الاتحادية. وهو مجلس، كما ذكرنا، يعين حكام الامارات اعضاءه (أبو ظبي ٨، دبي ٨، الشارقة ٦، الخيمة ٦، عجمان ٤، الفجيرة ٤، ام القيوين ٤).

ودولة الامارات العربية المتحدة تيسر لها، الى الآن، القيام بتنظيم البنى التحتية، او أكثرها على الاقل. ومع ان أكثر القائمين بهذه الشؤون هم من الوافدين، فإن ذلك لن يضير البلاد، ولا بد من مرور بعض الوقت حتى تتمكن الدولة من تدريب ابناء البلاد على ذلك. على ان الأهم هو الانتقال الآن، ولو على أيدي الوافدين، الى تنظيم البنى الاوسع والاكبر ـ في الصناعة على اختلاف أنواعها، وفي الادارة على تشعبها.

ولا بد للدولة من انشاء مشاريع وصناعات تعوض، في المستقبل، عن النفط. ومع ان احتياطي البلاد (٣٢,٥٠٠ مليون برميل)، وهذا، اذا استمر الانتاج على ما هو عليه الآن، يكفي البلاد نيفاً وخمسين سنة. فالحكمة تقضي بأن يخطط لأبعد من ذلك، وبخاصة إذا زاد الانتاج السنوي. وهذا هو الذي تخطط له دولة الامارات العربية المتحدة.

وليس ثمة من شك في ان اللبنات الاولى للوحدة قد وضعت في مكانها المناسب عن طريق انشاء الاتحاد؛ والباقي ستعمل المدرسة والصحافة والراديو والتلفزيون على تقويته، بحيث يشعر القوم بأهمية الوطن الكبير إذا ما قيس بالوطن الصغير السابق. وعندها تكون الدولة أقدر على الاسهام في مقدرات الوطن الاكبر ـ الوطن العربي، ومن ثم في النشاط العالمي..

١٢ ـ الكويت

تقع الكويت على رأس الخليج العربي، ويحيط بها العراق والمملكة العربية السعودية براً، وتبلغ مساحتها ١٧,٨١٨ كم٢ (يدخل في ذلك مساحة الجزء المشترك بينها وبين المملكة العربية السعودية). وهي قطعة من البادية العربية، قاحلة، ليس فيها من الماء الصالح للشرب إلا ما تمنحها إياه الآبار القليلة التي كانت تزود الأعداد القليلة جدا بالماء العذب، نسبيا، عند هطول الأمطار، فإذا انتهى ذلك وقع الناس على ماء فيه شيء من الملوحة. على أن هذه الآبار لم تكن تكفي للسكان، فكان أهل الكويت يعتمدون على الماء الذي تحمله المراكب من شط العرب. وسطح الكويت مستو، فيه واحات قليلة (تقوم حول الآبار المذكورة). إلاّ أن سطحها يرتفع في الداخل إلى ما بين ٤٥ و ١٢٠ متراً، وهنا تقع تلال الزور في الشمال. والبلاد تحيط بالخليج، الذي هو سر اهمية موقعها تجارياً وإستراتيجياً.

وبين شهري تشرين الثاني / نوفمبر، ونيسان / ابريل تسقط بعض الأمطار، وتتراوح بين ١٠ و٣٧٠ مليمتراً. ويتبع ذلك اكتساء الأرض (في الكثير من بقاعها) بحلة من العشب الأخضر. كان الكويتيون يحتفلون به (ولا يزال البعض يفعلون ذلك الى الآن) بأن ينتقلوا إلى الريف، فينصبون الخيام، ويخرجون المواشي. كانوا، على حد تعبيرهم، «يُربِّعون» (أي يحتفلون بالربيع). والحرارة مرتفعة صيفا، إذ قد تصل إلى ٤٨ درجة مئوية، مع انها في الشتاء تتراوح بين الصفر و٢٩ درجة مئوية. وقد يحدث الصقيع أحياناً (في شهر كانون الثاني / يناير).

نما عدد السكان في الكويت نمواً كبيرا، بسبب اكتشاف النفط والحاجة إلى اليد العاملة على اختلاف المستويات. وعلى سبيل المثال نذكر ان سكان مدينة الكويت سنة ١٨٣١ كان نحو ٤,٠٠٠ نسمة (ولم تكن يومها سوى هذه المدينة في المنطقة). لكن عندنا من الأرقام الحديثة للسكان ما يدل على التطور منذ الخمسينات من القرن العشرين. فقد كان عددهم ١٢٥,٠٠٠ سنة ١٩٥٠ فأصبح العدد ٣٢١,٠٠٠ سنة ١٩٦٠ و٧٣٨,٠٠٠ سنة ١٩٧٠. وقد اجري احصاء سنة ١٩٧٥ فكان عدد سكان الكويت ٩٩٥,٠٠٠. والتقدير الأخير لعام ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ هو ١,٧٧٢,٠٠٠٠ نسمة. وهو اليوم أكبر قليلاً.

ومع ان الكويت بين اكثر الدول نمواً طبيعيا في السكان، فإن هذه الزيادة ترجع

أصلاً إلى الهجرة، فقد زاد عدد السكان الذين ليسوا من أصل كويتي بين سنتي ١٩٥٧ و١٩٧٨ من نحو ٩٣,٠٠٠ (٤٥٪ من مجموع السكان) الى نحو ٦٢٥,٠٠٠ (٢٥٪)، واكثر الطارئين على الكويت من الأقطار العربية.

وبحسب احصاء سنة ١٩٧٥ كانت التجمعات الرئيسة للسكان في العاصمة (نحو ٧٨٠,٠٠٠) وحولي (نحو ١٣٠,٠٠٠) والسالمية (نحو ١١٣,٠٠٠)، وابرق خيتان (نحو ٥٩,٠٠٠) والفراوانية (نحو ٤٥,٠٠٠).

وثمة المنطقة المشتركة التي تتنازع عليها الكويت والمملكة العربية السعودية (مساحتها ٥,٧٠٠ كم). والمركز الرئيسي للسكان هناك هو الخفجة.

وتتبع الكويت مجموعة من الجزر اكبرها فَيْلكة، وهي الوحيدة، فيما يبدو، التي سكنت في الأزمنة الخوالي. وهذه الجزيرة فيها ينابيع مائية لعلها كانت مما يغري الناس بسكناها. يضاف الى ذلك انها تقع على الطريق البحري القديم من جنوب الخليج العربي الى شماله. ومن هنا كانت فيلكة هي التي ارشدتنا الى التاريخ القديم لدولة الكويت، لا مدينة الكويت نفسها (على الأقل الى الآن). ولسنا نريد ان نطيل، فنكتفي بالقول بأن حضارة تعود الى حول سنة ٢٠٠٠ ق.م. (أو قبل ذلك بقليل) عرفت في هذه الجزيرة، وهي حضارة شبيهة بما كشف عنه في البحرين (في بربر) ومتأثرة بالعناصر والعوامل نفسها التي أثرت في تلك، أي التجارة مع سومر وعُمان، ويتضح هذا في هيكل قديم للإله انشانغ (؟) وفي بقايا مصنوعات صغيرة وآثار منازل السكن. كما ان الحفريات كشفت عن وجود هيكل يوناني لارطميس يعود بناؤه الى سنة ٢٢٩ ق.م. مما يدل على وجود جالية يونانية في أيام السلوقيين. ولعل هذه الجالية كانت تقوم بأعمال تجارية في الخليج على غرار ما كان يتم على أيدي أسلافهم قبل ذلك بنحو عشرين قرناً.

وهنا نسمح لأنفسنا بإبداء ملحوظة حول هذه النقطة بالذات. ان النهاية الشمالية للخليج العربي ضحلة مياهها، صعب على السفن الدخول فيها، إلا في اوقات المد (وهذا ينطبق على الكويت نفسها). فلعلّ السفن كانت تريح أو ترسو أو تقيل في فيلكة استعداداً إما للوصول الى الأبلّة أو ما كان قبلها في جنوب العراق، أو لتفريغ الحمولة تميهداً لنقلها في صغار المراكب (الى الأبلة) وخفاف القوارب (الى جهات اخرى).

ومما هو جدير بالذكر ان الكويت، بحكم موقعها وطبيعة ارضها، كانت دوماً جزءاً من الصحراء لا من حوض الرافدين! إلا ان موقعها كان يسمح لها، متى سنحت الفرص، ان تكون على اتصال وثيق مع العراق وأواسط الجزيرة (نجد) والاحساء. ومن يدري، فقد يخرج الرفش والمعول خبايا من الكويت، وعندها تتغير نظرتنا الى هذه الرقعة الصغيرة من حيث تاريخها ودورها في العصور المتوغلة في القدم.

لكن للكويت تاريخاً حديثاً، يعود الى مطلع القرن الثامن عشر أو أواخر القرن

السابع عشر. فقد كان ثمة محلة يقيم فيها أولئك الذين يغوصون على اللؤلؤ ويصيدون السمك ويحرسون القوافل اذا انتقلت من شاطىء الخليج العربي الى الداخل ـ صناعة قديمة قدم حاجة الناس الى تبادل السلع بين جنوب شرق آسيا وشواطىء المتوسط وما وراءها. ومع أننا لا نسمع الكثير عن الكويت، أو في الواقع عن ساحل شرق الجزيرة العربية الممتدة إلى قطر، في العصور العربية الاسلامية الأولى، فلسنا نستبعد قط أن تكون معلقة عمرو بن كلثوم صدى، أو بعض الصدى، لحركة تجارية بحرية ـ برية تدور في تلك المنطقة (من الكويت الى الاحساء). وعلى الخصوص، لأن أيام السلوقيين وغيرهم كانت تعرف مثل هذا النشاط من الجرهاء (العقير؟) الى بلاد الشام.

وعلى كل فلنعد الى ما نعرف. كان بنو خالد أصحاب السيادة على المنطقة التي نتحدث عنها الآن (إلى قطر؟). وجاء العتوب، وهم عرب عنزة (عنيزة) واستقروا في رحابهم في مطلع القرن الثامن عشر او قبله (هاجر من العتوب جماعة الى الزبارة ثم استوطنوا ومنهم امراء البحرين آل خليفة). ولم يلبث العتوب ان وطدوا اقدامهم في الكويت وأصبحوا اصحاب النفوذ بحيث ان الزعامة صارت في ايديهم على يد جابر. لكن انشاء الأسرة الحاكمة ـ آل صباح ـ يعود الى صباح بن جابر الذي تولى شياخة الكويت بدءاً من نحو سنة ١٧٥٢ (وظل في السلطة حتى سنة ١٧٦٢). وباسمه سميت العائلة الحاكمة في الكويت التي لا تزال على رأس الدولة.

وقد جذبت الكويت في النصف الأول من القرن الثامن عشر نظر الدول الأخرى. فقد بلغت مستوى مرموقاً في تطورها التجاري (بين ١٧١٦ و ١٧٦٦) بشكل خاص. وفي سنة ١٧٧٠ اصبحت الكويت مركزاً لبريد شركة الهند التجارية الشرقية.

وقد كان ثمة حدثان هامان اثرا في تجارة الكويت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. أما أولهما فهو ان الانكليز نقلوا نشاطهم التجاري (١٧٧٠) من المحمرة الى البصرة، الأمر الذي جعل هذه أغنى ميناء على الخليج العربي. ولذلك فقد احتلّ الفرس البصرة، وهذا هو الحدث الثاني. فقد حاصر الفرس البصرة واحتلوها (١٧٧٥ ـ ١٧٧٩)، فترتب على ذلك قيام علاقات مباشرة بين الكويت وشركة الهند التجارية الشرقية (الانكليزية). فأصبحت المتاجر المنقولة من الهند تفرغ في الكويت (وفي ميناء الزبارة في الجنوب) ومنها تنقل على القوافل الى حلب وبغداد وما وراءهما، ومع نجاح التجربة فإن الانكليز لم ينشئوا مركزاً تجارياً لهم في الكويت إلا سنة ١٧٩٣. ومع ان المركز أعيد إلى البصرة بعد سنتين، فإن الكويت افادت من التجربة وحافظت على مكاسبها كمركز بحري ـ بري (حيث تتبادل سفن البحر وسفن البر احمالها). ومما ساعد على ذلك سياسة عبدالله آل صباح (١٧٦٢ ـ ١٨١٢) المتزنة.

ومع ذلك فلم يلتفت العالم الخارجي، غير التجاري إلى الكويت على ما يبدو. فلا

الكويت تدخلت في الخصومات السياسية التي كانت تقوم في المنطقة، ولا الرحالون زاروها باستثناء الرحالة الدانماركي كارستن نيبور (١٧٣٣ ـ ١٨١٥). إلا ان زائراً هو ستوكلَر وصف الكويت المدينة (١٨٣١) بأن طولها كان نحو ميل (أي أكثر من كيلومتر ونصف الكيلومتر قليلا) ويقول إن حاكمها لا يحتفظ بقوة مسلحة (أي جيش) وانه كان يتقاضى ٢٪ رسماً جمركياً على جميع الواردات. وهذه الزيارة تمت في عهد جابر بن عبدالله آل صباح (١٨١٢ ـ ١٨٥٩).

وفي سنة ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣ زار بلغريف الكويت وقال عن بحارتها انهم الأجرأ والأمهر والأدعى للثقة. وأشار الى أن الكويت كانت يومها أكثر الموانىء نشاطاً في شمال الخليج، ولا تستثنى حتى بوشير (بوشهمر). والكويت منفذ للداخل، وخصوصا لجبل شمر وقبائله.

على أن الدور الذي لعبته الكويت سياسياً بدأ في عهد مبارك الكبير (١٨٩٢ ـ ١٩١٧). ذلك أنه في أيام سلفه عبدالله (١٨٦٦ ـ ١٨٩٢) حاولت تركيا أن تفرض سلطتها على الخليج من الكويت الى الاحساء. فقبل عبدالله ان يكون قائمقاماً في الكويت تابعاً لوالي البصرة، فخشي مبارك ان يتقدم الاتراك خطوة أخرى ويحتلوا الكويت. لذلك حاول ان يحصل على نوع من الدعم الانكليزي منذ ١٨٩٧. لكن بريطانيا كانت «تتدلّل» لأنها كانت تفضل أن تفيد بدون قيد من جهة، ولأنها كانت لا تزال تحاول الحفاظ على سياسة التودد نحو الامبراطورية العثمانية. لكن أمرين حملا بريطانيا على أن تعقد مع الكويت معاهدة. الأمر الأول كان النشاط الروسي الذي بدأ في سنة ١٨٩٨، إذ كان ثمة ما يدل على ان الروس كانوا يميلون الى اقامة ميناء لهم في الكويت (وذلك عن طريق الحصول على امتياز للكونت كابنست لبناء سكة حديد من البحر المتوسط الى الخليج العربي). والأمر الثاني هو النشاط الالماني لانشاء سكة حديد برلين ـ بغداد (ان زيارة المندوبين الالمان عن مؤسسة سكة الحديد هذه جاءت في سنة ١٩٠٠، إلا أن بوادر النشاط كانت قد بدأت قبل ذلك). لذلك فإن بريطانيا تقدمت إلى الكويت وعقدت معها معاهدة (١٨٩٩) أهم ما فيها أن بريطانيا تدعم استقلال الكويت (عن الدولة العثمانية طبعاً). ومقابل ذلك تعهد مبارك بأن لا يتخلى، بأي شكل كان أو بأي طريقة كانت، عن أي جزء من المنطقة التي تقع تحت حكمه إلا للحكومة البريطانية، ولا أن يقيم أو يتفاوض مع أي دولة إلا بموافقة الحكومة البريطانية. (وكانت هذه الاتفاقية مع الكويت آخر الاتفاقيات مع شيوخ الخليج التي بدأت سنة ١٨١٢).

في سنة ١٩٢١ تولى الشيخ أحمد جابر أمور الكويت، وظل في منصبه حتى سنة ١٩٥٠. وفي عهده ظهر النفط، خجولاً في بادىء الأمر، ثم جريئاً فيما بعد. أما خجله فيعود إلى الثلاثينات. ذلك بأن التنقيب عن النفط انتهى بأن منحت شركة البترول

الانكليزية الفارسية وشركة بترول الخليج امتيازاً لاستخراج النفط. فكوّنت الشركتان، البريطانية والاميركية، شركة بترول الكويت (١٩٣٤) وبدأت نتائج التنقيب العميق تظهر آثارها لما بدأت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩)، لكن العمل أُجِّل عندها. وبعد الحرب عادت المحاولات النفطية الى نشاطها. والسياسة التي بدأها الشيخ أحمد الجابر، نظمت في عهد خلفه عبدالله السالم (١٩٥٠ ـ ١٩٦٥)، وهي التي كانت ترمي إلى خلق دولة عصرية ومجتمع يبلغ حاجته. ومن يومها بدأت مشاريع الأشغال العامة والتعليم والصحة والمستشفيات تنظم وتنفذ بحيث يفيد كل كويتي من عائدات النفط.

وفي حزيران / يونيو ١٩٦١ اتفقت الكويت وبريطانيا على انهاء اتفاقية سنة ١٨٩٩. فأصبحت الكويت دولة مستقلة وأصبح اسمها دولة الكويت، واتخذ حاكمها لقب امير دولة الكويت. وانضمت في تموز / يوليو ١٩٦١ إلى جامعة الدول العربية. وفي أيار / مايو ١٩٦٣ أصبحت الكويت عضواً (العضو ١١١) في الأمم المتحدة.

وفي سنة ١٩٦١ جرى أول انتخاب في الكويت لاختيار اعضاء مجلس تأسيسي (عددهم ٢٠، لأن الوزراء كانوا يتممون العدد). وهذا المجلس وضع دستوراً للبلاد (١٩٦٢) وبموجبه انتُخِب في كانون الثاني / يناير ١٩٦٣ أول مجلس وطني من خمسين عضواً، الذي بدوره عقد أول اجتماع له في ٢٩ كانون الثاني / يناير ١٩٦٣. ومما يذكر أن سوء التفاهم السياسي الذي حصل بين الكويت والعراق سنة ١٩٦١، أُزيل تماما في سنة ١٩٦٣، فاعترفت الثانية بالأولى، بل عقد بينهما اتفاق (ولو أنه لم يوضع موضع التنفيذ) يُزود بموجبه العراق الكويت بحاجتها إلى المياه. أما الاتفاق التجاري بين البلدين، الذي عقد في خريف السنة ذاتها، فقد ادى تقريباً الى الغاء الحواجز الجمركية بينهما.

ويمكن القول اجمالاً بأن الكويت كانت عنصر تهدئة سياسية في ما قد بدر من خلافات وتمحورات بين الدول العربية، وبشكل خاص بين سنتي ١٩٦٤ و١٩٦٧. ولما وقعت حرب ١٩٦٧ انضمت الكويت الى الدول التي منعت النفط عن الولايات المتحدة وبريطانيا. وفي مؤتمر الخرطوم (آب / أغسطس ١٩٦٧) انضمت الكويت الى المملكة العربية السعودية وليبيا في تقديم مساعدة مالية لمصر والأردن لدعم اقتصادهما الذي تأثر بتلك الحرب. وهنا يجب ان نذكر ان الكويت لم تقصر قط في مد يد العون المالي الى الدول والمؤسسات العربية، سواء عن طريق الهبات أو القروض. هذا بالإضافة الى ما يناله المواطن الكويتي من سكن وتعليم وعناية صحية وطرق وما إلى ذلك.

جرت انتخابات نيابية حرة سنة ١٩٧١، وكانت هذه تجربة سياسية مجزية بالنسبة الى هذا البلد الذي يكتشف قدراته وامكاناته ويعبىء ما يحتاج منها في خير السبل. ويحاول أن يقيم ادارة صحيحة قوية، تُجتنب فيها مشاكل الادارات العربية

الاخرى ومتاعبها. ولعل الترتيبات الوزارية التي عرفتها الكويت في تلك الحقبة دليل على هذه المحاولة. ففي سنة ١٩٧١ أصبح عدد أعضاء الأسرة الحاكمة في الوزارة ثلاثة (بدل خمسة من قبل)، وفي التعديل الوزاري بعد انتخابات ١٩٧٥ عيّن سبعة وزراء جدد كانوا من خارج أعضاء الأسرة الحاكمة (بالاضافة الى الوزراء السابقين).

وفي حرب اكتوبر / (رمضان) ١٩٧٣ أرسلت الكويت فرقة من الجنود الى قناة السويس، وقدمت عوناً مالياً كبيراً (نحو ١٠٠ مليون دينار كويتي). ودعت الكويت الى اجتماع للدول (العربية) المصدرة للنفط، قرر تخفيض الانتاج النفطي شهريا (بنسبة ٥٪ كل شهر استمر حتى مطلع ١٩٧٤)، وكانت الكويت واحدة من الدول التي منعت النفط عن الولايات المتحدة وهولندا. واستمر هذا الحظر حتى صيف ١٩٧٤.

مر تملك الدولة للنفط في خطوات متعددة. فعلى سبيل المثال سنة ١٩٧٤، نقلت الدولة الى ملكيتها ٦٠٪ من الامتيازات النفطية (الى شركة النفط الكويتية الوطنية). وفي سنة ١٩٧٥، انتهى الأمر بأن انتقلت ملكية النفط إلى الدولة ووضعت امورُه وشؤونه تحت سلطة مجلس البترول الأعلى. وما كان قد تبقى خارج عملية التأميم، أُمم في سنة ١٩٧٧.

حل مجلس الأمة (صيف ١٩٧٦) لمدة أربع سنوات. وقد قامت لجنة بدرس الدستور لادخال بعض التعديلات عليه. وجرت الانتخابات في الآونة الأخيرة، وعاد الى الحياة النيابية في الكويت نشاطها وحيويتها.

والكويت، الآن، مع الدول العربية في صف واحدَ ضد اتفاقات كامب ديفيد، والمعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية.

الحياة الاقتصادية

مر بنا ان مساحة (دولة) الكويت هي ١٧,٨١٨ كم٢ وقد كانت ميناء الكويت، حتى مطلع الخمسينات، البلد الوحيد هناك. إلا أن هذا الميناء كان قد مرّ عليه قرن ونصف القرن وهو محطّ انظار التجار الذين كانوا ينقلون متاجرهم من الخليج العربي إلى سوريا براً. كما الراغبون في الحصول على قارب متين الصنع جميل الشكل، كان عليهم أن يتوجهوا نحو الكويت. وأذكر أنه في زيارتي الأولى للكويت (١٩٥٦) رأيت هناك صنّاعاً للسفن والقوارب وكلهم يد صَنّاع.

يضاف الى التجارة وصناعة السفن الغوص على اللؤلؤ. فالكويتيون كانوا يغوصون على اللؤلؤ في الخليج العربي منذ ان عرفت هذه الصناعة. وقد نقل سيف مرزوق الشملان في كتابه «تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت» (الجزء الأول، الكويت، ١٩٧٥) أن واردات البلاد سنة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ كانت ١,٣٤٧,٠٠٠ روبية ـ (ص ٣٣٦). أما البحرين (ونذكر هذا للمقارنة فقط) فقد كانت وارداتها ١٢,٦٠٣,٠٠٠ روبية. على ان الغوص على اللؤلؤ والاتجار به ضعفا لما أخذت اليابان تغزو العالم بلؤلؤها.

ولنعد الى الكويت بعد اكتشاف النفط واستخراجه. فقد قدر احتياطي النفط في الكويت (سنة ١٩٧٧) بـ ٦٧,٤٠٠ مليون برميل. ومعنى هذا أنه لو أن الكويت استمرت على الانتاج كما كان سنة ١٩٧٦، أي نحو ٧٨٥ مليون برميل في السنة، لكان الاحتياطي يكفي الكويت ٩٥ سنة! وقد كانت الكويت (١٩٧٨) البلاد التاسعة، عالميا، في انتاج النفط. وقد قدر دخل الفرد فيها لسنة ١٩٧٧ بما قيمته ١٢,٧٠٠ دولار (ولم تسبقها سوى دولة الامارات العربية المتحدة).

وما دمنا نتحدث عن النفط، فلنتم ذلك، مختصرين الموضوع وإلا احتجنا الى صفحات وصفحات. كان انتاج الكويت من النفط قد وصل ستة ملايين طن سنة ١٩٤٨، إلا أن الزيادة جاءت مع مطلع الخمسينات، إذ إن عبادان لم تقدم من النفط ما يتوجب عليها (١٩٥١ ـ ١٩٥٣). فأفادت الكويت من ذلك بحيث إن الانتاج بلغ ٥٤ مليون طن سنة ١٩٥٦. (وكان يومها أضخم انتاج في الشرق الأوسط). ومنذ أوائل ١٩٧٣، والكويت، تحاول، مع دول عربية أخرى، تحديد الانتاج. ويتضح موقف الكويت إذا نحن لاحظنا الأرقام التالية: (١٩٧٣) ١,١٠٢ مليون برميل سنويا؛ (١٩٧٤) ٩٢٩ مليون برميل؛ (١٩٧٥) ٧٦٠ مليون برميل؛ (١٩٧٦) ٧٨٥ مليون برميل؛ (١٩٧٧) ٧١٨ مليون برميل؛ (١٩٧٨) ٧٧٧ مليون برميل.

وفي الكويت كميات من الغاز الطبيعي، لكن الاستعمال الكامل لهذا المورد لم يتم بعد. وعلى سبيل المثال ففي سنة ١٩٧٧ انتج من الغاز نحو ٣٦٢,٠٠٠ مليون قدم مكعب (١١,٣١٥ مليون متر مكعب) ولم يستخدم منه محلياً سوى ٦٧٪. (هذا الاستخدام يشمل ما تستهلكه الشركات وما يستعمل لحقن الآبار وما تحتاجه الدولة). أما ما تبقى فيحرق (أي نحو ثلث الثروة الغازية!).

والحكومة الكويتية تحاول أن تنوع في موارد البلاد، أولاً لايجاد مصادر أخرى للثروة بالاضافة إلى النفط، ومع ذلك فإن النشاطات المتصلة بالنفط هي التي لا تزال تسيطر على الموارد. وثمة لجنة التطوير الصناعي التي تساعد على تطوير الصناعة. فقد أنشئت (١٩٦٣) شركة الصناعات البتروكيميائية. وقد خصصت منطقة الشعبية، بين العاصمة والأحمدي (ميناء النفط) لتكون منطقة صناعية. فهناك تنتج الأسمدة الكيميائية (قدرتها الانتاجية مليون وثلثا مليون طن في السنة). وثمة مشاريع أو مخططات لانتاج البنزين وغيره. ومثل هذه المشاريع كثير. وفي الكويت مصانع لانتاج المواد الاستهلاكية، كالمواد الغذائية، والمرطبات والطحين. وبناء المساكن والطرق وانتاج الكهرباء وتحلية مياه البحر، من الأمور التي تعنى بها الكويت، لكن هذه ليست مما ينوع موراد الثروة إلا قليلاً. وقد بلغ عدد العاملين في الصناعة ٢٤,٠٠٠ سنة ١٩٧٥ (بالمقابل كان ٤,٤٧٦ يعملون في صناعة النفط والغاز الطبيعي).

وازدياد السكان بسبب وجود النفط، حفز الحكومة على القيام بمشاريع كثيرة

لتلبية حاجات الناس. وأهم هذه، مشاريع تحلية المياه. وقد أعيد بناء ميناء الكويت، فقد زود بأربعة احواض عميقة. ومطار الكويت الدولي أمر مرتبط بكثرة السكان والقادمين إلى البلد للأعمال المختلفة. وميناء النفط في الأحمدي مثل آخر على تطوير وسائل النقل ومراكزه.

واستغلال الأراضي في الكويت محدود بسبب قلة المياه. ففي سنة ١٩٧٧ استغل ١٧,٠٠٠ دونم من الأرض في الزراعة. وهناك محاولات جادة لانتاج الحليب ومشتقاته وتربية الدجاج وانتاج البيض. وقد ازداد انتاج التمر مؤخراً. وبحر الكويت غني بالأسماك والقريديس وما إليهما. وكثير من مستخرجات البحر يصدر إلى الخارج.

بلغت واردات الكويت للسنة ١٩٧٧ ما قيمته ١,٣٨٧ مليون دينار كويتي. أما الصادرات فبلغت ما قيمته ٢,٨٠٧ مليون دينار كويتي. والواردات تشمل المواد الغذائية والمواشي الحية والمواد الكيميائية والأقمشة والحديد والفولاذ والآلات الكهربائية وغير الكهربائية ووسائل النقل والثياب والأحذية والأدوات والآلات العلمية. وتستورد الكويت حاجاتها (على ترتيب قيمة الواردات) من غرب أوروبا بما في ذلك السوق الأوروبية المشتركة (نحو ٣٧٠ مليون دينار كويتي) واليابان (نحو ٢٠٠ م د ك) والولايات المتحدة (نحو ١٤٢ م د ك) والهند (نحو ٣٧ م د ك) وأوقيانوسيا (نحو ٢٣ م د ك) والصين (نحو ٢٢ م د ك) والبلاد العربية، وفي مقدمتها لبنان (نحو ٢٤ م د ك) الخ... وتصدر الكويت النفط أصلاً الى البلاد الآسيوية والولايات المتحدة وغرب أوروبا (بما في ذلك السوق الأوروبية المشتركة) والبلاد العربية وأوقيانوسيا.

المجتمع الكويتي

ليس من اليسير التحدث عن المجتمع الكويتي لأسباب متعددة. منها أن نصف السكان (أو يزيد قليلاً) ليسوا كويتيين أصلاً، وأكثرهم من البلاد العربية. ومع أنهم مفروض فيهم أن تكون اقامتهم موقتة، فقد مرت على الكثيرين منهم عقود من السنين وهم مستقرون هناك. وثمة فئات أجنبية عنصرياً، وليست هذه بالفئات القليلة. ثم هناك النقلة التي عرفها بدو الكويت، في فترة قصيرة من الزمن، إلى الحضارة والاستقرار مع الرفاهية. وجميع من في الكويت يتمتع، بقدر ما يعمل، بخير البلد. وجميع المرافق الموجودة في الدولة يتمتع بها جميع السكان (اجمالاً) وان كان هناك بعضها مما هو خاص بالمواطنين الكويتيين. والكويت تتقدم بسرعة مذهلة في جميع نواحي الحياة ومجالاتها. هذه كلها امور تجعل التحدث عن المجتمع الكويتي صعباً في إطار مقال أو فصل من كتاب. لكن لنذكر أولاً بعض الأرقام المتعلقة بالأوضاع الاجتماعية، لعلنا نستطيع من خلالها أن نضع اصابعنا على حقائق وملامح وظواهر. فمن ذلك أن معدل الدخل السنوي للفرد الكويتي (تقدير ١٩٧٩) هو ١٨,١٠٠ دولار. وتقدر الأيدي العاملة في الكويت بنحو ٣٠٠,٠٠٠ عامل ومن هؤلاء نحو ٧٠٪ من غير

المواطنين الكويتيين. ويعمل من هؤلاء العاملين (٣٠٠,٠٠٠) أربعون في المئة في دوائر الحكومة، و٣٤٪ في الصناعة (منهم في صناعة النفط دون ٥٪) وتستخدم الزراعة ١٪ من الأيدي العاملة. ويعمل الباقون في التجارة والمقاولات والمهن الحرة.

لكل ٢٠٠ شخص (أو أكثر قليلا) سرير في مستشفى في الكويت، ولكل نحو ٨٨٠ شخصاً طبيب. والخدمات الصحية مجانية، وللمواطنين الكويتيين الحق في المعالجة المجانية في الخارج إذا اقتضى الأمر في ذلك.

وقد أخذت الكويت بنظام تعليمي شامل يتيح للمواطن أن يدخل رياض الأطفال ويستمر في تعلمه ودراسته من سن السادسة إلى سن الرابعة عشرة ملزماً (وقد أدخل هذا سنة ١٩٦٦ ـ ٦٧) ثم مخيراً عبر التعليم الثانوي والجامعي. وهو في هذا كله يتلقى التعليم مجاناً. ويحصل على كتبه وثيابه وغذائه مجاناً أيضاً. ودور الحضانة (من سنة ٤ ـ ٦) خيارية، تتلوها أربع سنوات للتعليم الابتدائي، وأربع في التعليم المتوسط (أو الاعدادي أو التكميلي). ويبدأ التلميذ تعلمه الاختياري في المدرسة الثانوية (أربع سنوات).

وقد كان عدد التلاميذ (سنة ١٩٧٧ / ١٩٧٨) ٢٥٢,٠٠٠ يتلقون الدروس في ٣٩٠ مدرسة، ويقوم على تعليمهم نحو ٢٠,٠٠٠ معلم (تلاحظ النسبة بين ١٠ و١٥ تلميذ للمدرس الواحد). يضاف إلى هذا العدد ٥٢,٠٠٠ تلميذ كانوا في ٨٦ مدرسة خاصة يقوم على تعليمهم ٢,٥٥٥ معلماً (تلاحظ النسبة هنا ـ عشرون تلميذاً لكل معلم).

وبالاضافة الى هذه المدارس ـ الرياض والابتدائية والاعدادية والثانوية ـ كان هناك مدرستان تجاريتان (١٣٥ مدرساً و١,٢١١ تلميذاً) وكلية صناعية (٩٢ مدرساً و١٨٤ تلميذاً) ومعهدان دينيان (٩٩ استاذاً و٥٨٣ تلميذاً) ومعاهد للتدريب الخاص (١٢ معهداً فيها ٤٧٢ مدرساً و٢,٣٢١ تلميذاً) ومعهدان للمعلمين (٢٠٦ استاذاً و١٠٣٧ تلميذاً) وهناك معهد تكنولوجي ومعهد صحي. وفي هذه المؤسسات المذكورة نحو ٦,٠٠٠ طالب. وهناك نحو ٢١,٠٠٠ شخص يلتحقون بصفوف ومؤسسات تعد دروساً خاصة للراشدين. وقد كانت الأمية في الكويت إلى قبل سنوات نحو ٢٠٪ وهي تتناقص بسرعة.

وفي سنة ١٩٦٦ انشئت جامعة الكويت التي أصبحت الآن تشمل الكليات المألوفة من الآداب إلى العلوم فالاقتصاد والتجارة والهندسة والطب وغير ذلك. وفي الجامعة اهتمامات خاصة بدراسة المنطقة علمياً (علم الاحياء المائية في الخليج العربي والمياه الحارة، وعلم الصحراء) واجتماعياً وتاريخياً، ويبلغ عدد طلاب الجامعة نحو عشرة آلاف وفيها هيئة تعليمية تضم ما يقارب ٥٠٠ أستاذ. والجامعة تمنح المتفوقين هبات علمية سخية كي يتموا دراساتهم في الخارج بحيث يعودون ليخدموا بلادهم. وقد كان قبل ثلاث سنوات ٣,٠٠٠ طالب كويتي يتلقون الدراسات العليا في مصر

ولبنان وبريطانيا والولايات المتحدة. كما منحت الدولة نحو ٦٠٠ تلميذ من البلاد العربية والأفريقية والآسيوية هبات علمية للدراسة في الكويت (في الثانويات). والجامعة لها هبات علمية خاصة تمنحها لطلاب عرب وأفارقة وآسيويين.

والذي يمكن أن يقال، بشكل عام، ان المجتمع الكويتي، وعلى الأقل في جزئه العربي، يتمتع بالكثير من التوازن. وهناك من العناصر غير العربية، ما يشدها إلى الكويت شعور وطني قوي. وهذه أيضاً تضيف إلى التوازن. ولعل من خير ما يوضح فكرتنا على أساس اقتصادي ـ اجتماعي، هو تحليل بسيط لخطة التنمية للفترة ١٩٧٦ ـ ١٩٨١. فأول ما يلاحظ أن الجهد الفردي أو ما يسمى اقتصاديا القطاع الخاص، كانت له حصة كبيرة في مجال العمل، ولم يحرم عليه ذلك، إذ ثمة أنظمة توفر كل شيء للمواطن عن طريق الدولة، وبذلك لا يكون له حق في هذا النوع من العمل.

١٣ ـ البحرين

تقع البحرين في الخليج العربي على مقربة من سواحله الجنوبية بين ساحل الحسا (الإحساء) في المملكة العربية السعودية غرباً، وشبه جزيرة قطر شرقاً. وتتكون من أرخبيل مكوّن من جزيرة البحرين (عاصمتها المنامة) ـ التي تمتد أقل من خمسين كيلومتراً طولاً من الشمال إلى الجنوب، ونحو ستة عشر كيلومتراً عرضاً من الشرق إلى الغرب ـ ومن نحو ثلاثين جزيرة أصغر منها مساحة. وبعض هذه الجزر غير مأهول بالمرة.

ونحن عندما نتحدث عن البحرين اليوم، أو حتى لبضعة قرون خلت، فإنَّما نقصد «الجزر». لكن القدامى من إخباريّ العرب وجغرافييهم كانوا، إذا ذكروا البحرين، يقصدون المنطقة الساحلية المواجهة للجزر والمسماة اليوم الحسا (الإحساء). بل كثيراً ما كان البعض يقصدون منطقة أبعد امتداداً على الساحل شمالاً وجنوباً. ويبدو أن هذه التسمية، التي كانت تعم المنطقة، تخلى عنها الكتاب والمؤلّفون منذ حول ١٣٠٠م. والكتاب الذين استعملوا البحرين للمنطقة كانوا يسمون الجزيرة الرئيسة باسم أُوال. وقد يطلقون على جزر البحرين جزر أُوال.

فإذا عدنا إلى ما كنا فيه عن البحرين (اليوم) قلنا ان مساحتها هي ٦٦٢ كم٢، تشغل جزيرة البحرين منها نحو ٥٦٠ كيلومتراً مربعاً. ويحيط بهذه الجزيرة جزر أصغر مساحة وأهمها: المحرّق وستْره، وهاتان مرتبطتان بالجزيرة الكبرى بجسرين، والنبي صالح وأم الصبّان وأم النعسان وجدّه. والمجموعة الثانية من الجزر هي جزر صغيرة صخرية ، يقطنها جماعة من الصيادين والحجارة. وهذه الجزر تبعد نحواً من عشرين كيلومتراً عن قطر.

والجزر الصغيرة في المجموعتين صخرية منخفضة السطح، بحيث لا ترتفع سوى بضعة أمتار فوق سطح البحر؛ أما الجزيرة الرئيسة فهي أكثر تنوعاً في السطح. فطبقات الصخور فيها تتكون من الصخر الكلسي والصخر الرملي، وقد تكونت هذه في الأزمنة الجيولوجية المتوغلة في القدم. والجزء الأوسط منها يرتفع، عند تل جبل الدّخان، إلى أقل من ١٤٠ متراً قليلاً، وهو صخري قاحل. والمنخفضات الجنوبية والغربية تتكون من سهل رملي تتخلله سبخات ومستنقعات ملحة. أما المناطق الشمالية والشمالية الغربية فإنها تزودنا بالمنظر المختلف عن ذلك تماماً. ان هذا الجزء يكوّن

نطاقاً ضيقاً (نسبياً) من بساتين النخيل والخضار، وترتوي الأشجار والنباتات من الينابيع الكثيرة، والآبار الإرتوازية. ومن الطريف أن الماء العذب يظهر في ينابيع تحت الماء المالح إلى الشمال من جزائر البحرين. وقد كان هذا الماء يحمل في قرب، يملأها الغواصون، ويباع في مدن الجزر وقراها.

جو البحرين رطب طوال العام. ومع أن معدل الحرارة من أيار (مايو) إلى تشرين الأول (أكتوبر) يزيد عن ٢٩ درجة مئوية، فإن شهري آب (أغسطس) وأيلول (سبتمبر) تصل الحرارة فيهما إلى ٤٤ درجة مئوية، ويكون معدل الحرارة في أشهر الشتاء، أي من كانون الأول (ديسمبر) إلى آذار (مارس) ٢١ درجة. والمطر، الذي يقتصر نزوله على فصل الشتاء، يبلغ معدله ٧٦٠ مليمتراً في السنة. والرياح المسيطرة هي الرياح الشمالية الرطبة. فإذا هبت رياح من الجنوب كانت حارة وقد تحمل الرمال والتراب.

تنمو في الأجزاء القاحلة من البحرين نباتات وأنجم صحراوية متنوعة، قدر عددها بنحو مئتي نوع. أما المناطق المزروعة ففنية بالأشجار المثمرة والخضار. وتعيش بعض أنواع الحيوانات الصحراوية في الأجزاء الجافة كالسحالي واليربوع. كما أن في البحرين أنواعاً من الطيور تثير الاستغراب لأن موطنها الأصلي أوروبة وأفريقية وآسية القصوى.

كان عدد سكان البحرين نحو ١٨٢,٠٠٠ (في ١٩٦٥) وارتفع إلى نحو ٢١٧,٠٠٠ (في ١٩٧١) وأصبح نحو ٢٦٦,٠٠٠ (في ١٩٧٧). وأكثر من أربعة أخماس هؤلاء من مواليد البحرين. وهناك نحو ٥٪ من أهل عمان، ثم يكوّن الهنود والباكستانيون والايرانيون والفلسطينيون والبريطانيون ما تبقى. والمسلمون في البحرين يكادون يكونون نصفين متساويين من السُنّة والشيعة.

وأكبر المدن في البحرين هي المنامة، والمحرق، والعوالي.

شيء من التاريخ

تاريخ البحرين، مثل تاريخ الكويت وقطر ودولة الإمارات العربية، مرتبط بتاريخ الخليج العربي. (راجع مقالنا عن دولة الإمارات العربية في هذا الكتاب). فالتجارة والتجار الذين كانوا ينقلون السلع بين الشمال والجنوب، وبالعكس، كانوا يجدون في البحرين المركز المناسب للإراحة والتبادل التجاري. والفاتحون الأقدمون ـ على الأقل من الآشوريين إلى الفرس القدامى فالاسكندر فخلفائه ـ كان يهمهم الاستيلاء على البحرين (منطقة قديمة أو جزر) كما كانوا يعنون بالاستيلاء على أي ميناء على سواحل الخليج العربي. بل أول اهتمامهم بالبحرين كان أكبر، وذلك لتوسط الجزر الطريق أولاً، ولأن البحرين كان فيها ماء عذب يمكن أن يفيد منه البحارة والمسافرون، ثانياً.

على أن هناك أمرين آخرين هامين يتعلقان بالبحرين القديمة وهما: أن البحرين مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأسطورة غلغامش؛ وكثرة القبور التي عثر عليها في جزيرة البحرين، والتي تعود إلى غابر الأزمنة.

أما فيما يتعلق بالأسطورة، فإن بطلها غلغامش، بقطع النظر عن هويته التاريخية، يُمثل الرغبة في الخلود والسعي له. ويُنْصَحُ له أن يذهب إلى الفردوس ليحصل على زهرة الخلود. وتنمو الأسطورة مع الزمن فتصبح فيها إشارة، ولو بعيدة، للخليقة، وإشارة أقرب إلى الطوفان، ورحلة إلى المكان المقصود. ونحن إذا تذكرنا أن القصة سومرية الأصل، وأن المكان الذي ذهب إليه البطل هو في الخليج العربي، فالبحرين تصبح المكان المقصود، إذ فيها توجد المياه العذبة في قاع البحر، تحت الماء المالح. ويرد في الأسطورة اسم دلمون. وسنعود إلى هذا قريباً.

أما القبور الكثيرة الموجودة في البحرين فلم يكشف عنها النقاب إلا قبل مدة يسيرة. فقد كان الناس يرون هذه القباب الكثيرة في جزيرة البحرين، في وسطها وشمالها الغربي، ويتمركز أكثرها حول قرية عالي. ومع أن بعض التنقيب السطحي قد تم هناك، ومع أنه عثر على بعض القبور، فلم يعرف العالم أن المكان كان فيه آلاف من هذه القبور إلاّ لما أخذ الرفش والمعول طريقه الجدي إلى هذه المقابر. وقد بلغ من كثرتها أن ظن بعض الباحثين أولاً أن الجزيرة كانت مقبرة فقط لسكان المناطق الساحلية المجاورة؛ وأن السكان كانوا ينقلون موتاهم لدفنهم هناك لأن أرض الجزيرة ـ أُوال ـ هي أرض مقدسة، بحكم تكريس الاله ـ الصنم أُوال فيها.

وإذا كان لا يزال من يقبل مثل هذا الرأي من الباحثين، فيجب أن يعدّله (أو يعدل عنه) بحيث يكون السكان الذين كانوا يفدون على المنطقة والجزر ويقيمون في المكانين يدفنون موتاهم في تلك الجزيرة.

والثابت تاريخياً أن هذه المقابر ترجع إلى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، وهي الفترة التي كانت فيها التجارة عبر الخليج آخذة في الازدياد، بسبب حاجة المدن السومرية إلى المواد الخام، المعدنية والخشبية بشكل خاص، لتنمية صناعتها. وهنا يرد عند المؤرخين اسمان هامان، بالنسبة إلى الألف الثالث والنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وهما: ماغان ودِلْمون. ولسنا هنا في معرض سرد الآراء المختلفة حول الاسمين، ولا في سبيل مناقشة هذه الآراء. فهذان أمران ليس هنا موضعهما. ولكن الذي نريد أن نضعه بين أيدي القراء، وهو ترجيح لا قطع نهائياً فيه، هو أن ماغان هي عُمان ومنها كان يحمل النحاس إلى السومريين عن طريق مراكز مختلفة، منها، ان لم يكن اهمها، البحرين. وكانت بعض الأخشاب تُحمل من ماغان (عُمان) أيضاً، لكن الكثير من الأخشاب كان يأتي من الهند (حوض السند) أيضاً.

ويبقى عندنا دلمون. وهذا الاسم مثل ماغان (عُمان) تدور حوله آراء كثيرة. لعلّ المرء يمكن أن يلخصها بقوله ان دلمون لم تكن تعني بقعة معينة صغيرة، بل كانت تعني، في قيود أهل المدن السومرية، منطقة واسعة إلى الجنوب من بلادهم. وان مركز هذه المنطقة كان مدينة في البحرين اسمها دلمون أيضاً. وليس مثل هذه التسميات

غريبة على الانسان ـ أي أن تكون اسم العاصمة والدولة (أو المنطقة شيئاً واحداً) بل ولقب الملك أيضاً. (عندنا عن الأولى الجزائر ـ المدينة ـ والجزائر القطر. وعن الثانية غانة القديمة في السودان الغربي. فغانة كان أصلاً معناها الملك، ثم أطلقت الكلمة على الدولة وثم على عاصمة الدولة. فكانت غانة ثلاثة في واحد).

نعرف أن تجارة الخليج العربي تراجع نشاطها بين حول ١٦٠٠ و٧٠٠ ق.م، وانها عادت الى النشاط والحركة أيام الآشوريين والكلدانيين والفرس القدامى والسلوقيين. ونعرف أن الاسكندر حاول التعرف على اجزاء الخليج العربي وسواحله ـ الفارسي منها مع بعثة نيارخوس، والعربي منها في بعثاته الثلاث التالية ـ وأن واحدة من هذه البعثات وصلت البحرين. ولما عادت رفعت الى الاسكندر تقريراً عن مهمتها. لكن مما يؤسف له أن أحداً من الكتاب التاليين لم ينقل شيئاً عن هذه التقارير عن السواحل العربية للخليج.

المهم هو أنه بين ٣٠٠ ق.م. وأيام السيد المسيح كانت ثمة فرضة ومدينة اسمها الجرها ارتبطت تجارتها بتجارة البحرين. والجرها مكانها لم يتفق عليه تماماً، وإن كان ثمة شبه قبول موقت للنظرية القائلة بأن الجرهاء هي العُقَير الحالية، في شرق المملكة العربية السعودية. ولعلّ معنى هذا أن تجارة الخليج العربي ـ أو أكثرها على الأقل ـ كانت تنتقل من البحرين (أو عن طريقها) إلى الجرهاء، ومن هناك تنقل إلى دومة الجندل (الجوف) فديار الأنباط ـ البتراء، لتوزع منها على مصر وجنوب فلسطين. وقد يعود اتباع هذا الطريق، بدل طريق العراق ـ الشام الطبيعي، إلى حالة حرب كانت تقوم بين السلوقيين (أو خلفائهم) في العراق وبين الجماعات الفرثية التي كانت تناصبهم العداء.

ومنذ القرن الأول للميلاد ضعفت تجارة الخليج أيضاً، وضعفت معها تجارة البحرين والجرهاء. ويبدو أن اكتشاف هبالوس للرياح الموسمية واستعمالها في تسيير السفن الأكبر (القرن الأول ق.م.)، وقيام الامبراطورية الرومانية التي ورثت البطالمة بالاهتمام بالبحر الأحمر وتجارته مع مصر، حولت الطرق عن الخليج العربي. لكن هذا لم يدم طويلاً، ذلك بأن قيام الدولة الساسانية في مطلع القرن الثالث للميلاد واهتمامها بتجارة الحرير البرية والبحرية، حتّم عليها العناية بطريق الخليج العربي من جديد. وهكذا فلما جاء الاسلام الى المنطقة وجدها نشيطة في تجارتها.

والشيء الذي نُحبّ أن نذكره عن البحرين هو انها شاركت مناطق أخرى في شرق الجزيرة العربية في قبولها للمسيحية. وقد جاءتها هذه عن طريق الحيرة في القرن الرابع للميلاد. ومن هنا فقد كان اسقفها نسطوريا.

أما سكان البحرين، منطقة وجزراً، الذين استوطنوها منذ أقدم الأزمنة فهم الشعوب المألوفة في الجزيرة العربية، وبخاصة شرقها. ذلك أن جماعات من سكان

سومر وبابل في جنوب العراق، وفئات من أهل السند والهند، الذين كانوا يتعاطون التجارة استقروا هناك، كما استقروا، على الراجح، في عُمان وسواها. لكن العنصر الذي غلب على البحرين، (منطقة وجزراً)، هو العنصر العربي القادم إليها من جنوب الجزيرة وشمالها الغربي ـ يمنه وحجازه، قحطانه وعدنانه. والجماعة التي غلب اسمها في القرنين الثاني والثالث للبلاد هي قبيلة الأزد. ثم طُعِّمت بغيرها من الحميريين والسبئيين، بعد تفجر سدود اليمن، وبآخرين من نزار. وقد يصعب تفسير تنقل فئات من العرب من جزء من الجزيرة العربية إلى جزء آخر، ولكن لا بد أن لعامل المناخ وتبدله الدور الأول في ذلك. يضاف إلى هذا وجود اغراء في منطقة دون أخرى كالتجارة في سواحل الخليج العربي، وصيد اللؤلؤ والأسماك في مائه.

وفي حياة الرسولﷺ، وفي السنة التاسعة للهجرة حمل أبو العلاء الحضرمي رسالة إلى حاكمي البحرين وهجر، (المنذر بن ساوى التميمي وسيبخت) من النبي، يدعوهما فيها إلى الاسلام. فأسلما وأسلم من معهما من القبائل العربية. ويبدو أن غير العرب من سكان البحرين (منطقة وجزراً) آثروا أن يظلوا على مجوسيتهم، فدفعوا الجزية، وقبلت منهم. وكانت الردة فارتد الكثيرون، إلا عبد القيس، وأرسل أبو بكر اليهم العلاء الحضرمي فقاتلهم حتى أعادهم إلى حظيرة الاسلام. وظل الحضرمي أميراً على تلك الجهات. وقد تتبع فلول المرتدين في دارين والقطيف وما إليهما.

مع أن الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣ هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م) كان قد منع الجيوش العربية الاسلامية من عبور المياه (حتى إنه لم يسمح بفتح أرواد على قربها من الشاطىء السوري)، فان العلاء عبر بجيشه مياه الخليج العربي إلى الساحل الفارسي، مستعيناً، بطبيعة الحال، بمهارة أهل المنطقة في الملاحة، وبالسفن التي كانوا يملكونها. ومع أنه انتصر أول الأمر، فقد عزلته القوى الفارسية إلى أن جاءت النجدة إلى القوات العربية (وكان العلاء الحضرمي قد عزله الخليفة عن القيادة) فانتصرت على الفرس.

ويبدو أن البحرين أصبحت مركز بعوث بحرية إلى الساحل الفارسي وحتى إلى الساحل الهندي على مقربة من بومباي، ولعلها وصلت جزيرة سيلان (سرنديب).

وقد أصاب البحرين (جزراً ومنطقة) كثير مما أصاب الدول العربية الاسلامية المشرقية على أيدي المعارضة. فوصلت إليها من الخوارج (في ٦٧ و٦٩ و٨٩ هـ/ ٦٨٦ و٦٨٨ و٧٠٧) حملات كان لها آثار بعيدة المدى بالنسبة إلى السكان. ويبدو أن البحرين تأثرت بثورة الزنج، فقام في المنطقة زعيم (٢٤٩ / ٨٦٣) استولى على هجر، ثم غلب على أمره فخرج. كما أن القرامطة كان لهم قومة وحكومة ومعارك وانتصارات وانهزامات في المنطقة بين سنتي ٢٨٧/٩٠٠ و ٣٦٦/٩٧٦. وفي هذه الفترة بلغ القرامطة من القوة حداً اضطر معه الخليفة العباسي إلى عقد هدنة معهم ودفع مبلغ

سنوي لهم (٣٢٥/٩٣٦). كما انهم نجحوا في نقل الحجر الأسود من الكعبة إلى بلادهم. وقد ضعف أمر القرامطة بعد ذلك، ثم زالت دولتهم.

وبسبب ضعف الحكومة المركزية (العباسية) أخذ أهل البحرين شؤونهم بأيديهم. وفي الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى أوائل القرن السادس عشر الميلادي كانت البحرين يحكمها رؤوساء من أبنائها. ولعله من المناسب أن نتذكر، ونذكر، بأننا اعتباراً من حول سنة ١٣٠٠م عندما نذكر البحرين، فإننا نقصد الجزر. وهذا هو المعنى فيما يرد من كلامنا.

وصل البرتغاليون الخليج العربي في مطلع القرن السادس عشر، وأخذوا باحتلال مدنه وسواحله. واستولوا على البحرين فيما استولوا عليه. ولما اشتط البرتغاليون في جمع الضرائب وأساءوا إلى السكان بصلافتهم، قامت الثورة في وجههم (سنة ١٥٢٢). وكانت البحرين بين المناطق التي ثارت. لكن يبدو ان البرتغاليين عادوا إلى الجزيرة بعد أن وصلتهم الامدادات الجديدة، وظلوا فيها إلى سنة ١٦٠٢. ومع طول هذه المدة فان البرتغاليين لم يخلفوا في الجزيرة آثاراً تستحق الذكر (باستثناء قلعة البحرين). وفي أواسط القرن السادس عشر حاولت الدولة العثمانية التدخل في الخليج العربي، فهاجم أسطول بحري البحرين (١٥٥٢) لكنه لم يوفق في الحملة. وبعد إخراج البرتغاليين تعثرت أمور البحرين، إذ إنها تعرضت لغزوات وظلامات كثيرة، من الجيران. وظل الأمر كذلك إلى أن تولى العُتوب البلاد سنة ١٧٨٢. ويرى الكثيرون أن تاريخ البحرين الحديث يبدأ في هذه السنة. فمن الجهة الواحدة كان للعتوب أسطول تجاري كبير أفادت منه البحرين، ومن جهة ثانية أصبحت أغنى مغاصات اللؤلؤ في الخليج العربي.

مر بنا من قبل (في مقالنا عن دولة الامارات) أن بريطانية دخلت في معاهدة مع إمارات الساحل العماني، سنة ١٨٢٠، هي «معاهدة السلام العام» وخلاصتها أنه لا يجوز لأي من المشيخات أن تهاجم أياً من السفن البريطانية. وقد أفادت البحرين من هذه المعاهدة، وكان ذلك طبيعياً. فإن البلد كان قد انضم إلى العمل القرصني، وإذن فله أن يفيد من أي اتفاق يحدد ذلك. وفي سنة ١٨٤٧ وقع شيخ البحرين معاهدة مع بريطانية للقضاء على تجارة الرقيق. وفي سنة ١٨٦١ عقد اتفاق بين بريطانية والبحرين، اعترف فيه شيخ البحرين بالاتفاقيات السابقة ووعد بالامتناع عن الحروب والقرصنة وتجارة الرقيق بالبحر. وحصل لقاء ذلك على المساعدة البريطانية في حالة الاعتداء الخارجي. ويبدو أن المناسبة التي أدت إلى توقيع هذا الاتفاق هي مطالبة كل من فارس وتركية، في تلك السنة، بحقوق سياسية في البحرين. وأخيراً انضمت البحرين إلى معاهدة «الاتفاقيات المانعة» التي وقعت سنة ١٨٩٢، والتي كانت تقضي بتعهد زعماء المنطقة كلها بعدم التعاون مع أي دولة إلا عن طريق بريطانية، مهما كان نوع التعاون.

وكانت قد انشئت في البحرين (١٨٦٠) إدارة جمركية منتظمة ظلت، حتى سنة ١٨٨٨ تحت إدارة شيخ البحرين المباشرة. ولكنها، في تلك السنة، نقل العمل فيها إلى أيدي ملتزمين محليين، الأمر الذي عرّض الجمارك إلى كثير من التلاعب في أمورها. ثم عادت الأمور إلى التنظيم لما أعيدت إدارة الجمارك إلى الحكومة. وفي سنة ١٩٠٤ عين وكيل سياسي بريطاني في البحرين، الذي أخذ تدريجيا يسيطر على شؤون الادارة الداخلية.

وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر انشئت في البحرين أول بعثة تبشيرية مسيحية، التي كانت فرعاً من البعثة القائمة في البصرة. وكان أول مستشفى وأول صيدلية أُنشئا في البحرين على يد هذه البعثة سنة ١٩٠٢.

ومع أن البحرين كانت أول منطقة عربية اكتشف فيها النفط (منح الامتياز ١٩٢٥، واكتشف النفط ١٩٣٢، وبدأ الانتاج ١٩٣٤) فان الكميات المنتجة والاحتياطي ضئيلان بالنسبة إلى ما عرفته المناطق الأخرى فيما بعد. ولكن البحرين، كما سنرى، أفادت من هذا التقدم في التعامل مع النفط، وقامت فيها صناعة نفطية هامة.

ظلت البحرين تعتمد في مواردها الاقتصادية على الغوص على اللؤلؤ إلى أن جاء المنطقة اللؤلؤ الياباني المزروع في الثلاثينات، فأخر هذا المورد تأخيراً كبيراً. وان كان ثمة من يغوص على اللؤلؤ، لا في البحرين فحسب، ولكن في منطقة الخليج العربي، فان واردات هذه الصناعة ضئيلة جداً.

وكانت البحرين مشهورة بصناعة السفن، بل كانت في موقع الريادة في هذه الصناعة. فالغوص على اللؤلؤ كان يحتاجها. والتجارة البعيدة المدى، لأهل البحرين وجيرانهم، تتطلبها. وكانت السفن التي تأتي البحرين من الخارج تحتاج إلى صيانة. وبسبب من التطور التجاري وتبدل أنواع السفن المستعملة، ضؤلت هذه الصناعة في البحرين، بحيث لم يعد يتجاوز عدد ما تصنع من السفن المئة أو يزيد، بعد أن كانت تصنع المئات منها سنوياً. الا ان الصناعة التي استمرت قوية مدة من الزمن (ولا تزال كذلك) هي صناعة القوارب الصغيرة التي يقبل عليها هواة الصيد البحري. ويقيم أكثر صناع القوارب في ساحل النعيم وساحل المحرق.

والبحرين مشهورة منذ أزمنة قديمة بصناعة الخزف. وقرية عالي هي المركز الأول لهذه الصناعة. وكانت منطقة الرفاع (ولا تزال) تزود صناع الخزف بحاجتهم من الصلصال البني والأبيض. والصناعة التي كانت تعتمد على اليد والدولاب الرجلي منذ أقدم الأزمنة، لا تزال تُمارَس على هذا الأسلوب.

وللبحرين، ومنطقة الحسا (الاحساء) المقابلة لها في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، شهرة قديمة في صنع النسيج. فقد ذكر ناصري خسرو (القرن الخامس / الحادي عشر) مهارة السكان في صنع الأنسجة والمناشف. وقد

تركزت صناعة النسيج في أوائل القرن العشرين في البحرين في بني جمرة وأبو صيبع. وما يصنع صالح للاستعمال الشعبي. والنول المستعمل هو النول اليدوي. على أن هذه الصناعة أخذت تتلاشى بخاصة في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

ولعلّ مما يمت الى صناعة النسيج بصلة، من حيث الفكرة والأسلوب فقط، صناعة السلال والأطباق القشية الملونة.

ولا شك أن من أهم انجازات البحرين في الثلث الأول من القرن العشرين جاء في التعليم. ففي سنة ١٩١٩ عرفت البحرين مدرستها الرسمية الأولى. (وبهذه المناسبة احتفلت البحرين سنة ١٩٦٩ باليوبيل الذهبي لبدء التعليم الرسمي فيها، وكانت بطبيعة الحال ـ على ما سنرى فيما بعد ـ قد قطعت شوطاً بعيداً في مجال التعليم). وفي سنة ١٩٢٨ افتتحت أول مدرسة ابتدائية للبنات، كما أن أول بعثة حكومية (تعليمية) للخارج أرسلت في السنة نفسها. واتخذت حكومة البحرين خطوة هامة سنة ١٩٢٩ إذ وضعت المدارس تحت إشرافها المباشر. وكانت الخطوتان الأخيرتان اللتان تمتا قبل الحرب العالمية الثانية هما الابتداء بتعليم الكبار (١٩٢٦) في سبيل إزالة الأمية، وتيسير تعليم أولئك الذين يحتاجون الى ذلك في اعمالهم. والخطوة الثانية كانت افتتاح أول مدرسة ثانوية للبنين (١٩٣٩).

جاءت الحرب العالمية الثانية، وشددت الحكومة البريطانية عن طريق المستشار بلغراف، على نواحي الحياة في البحرين. بحيث إنه في اثناء توليه عمله (١٩٢٦ ـ ١٩٥٦) لم يساعد على فتح المدارس على النحو الذي كانت البحرين ترغب فيه.

من ١٩٣٤ إلى ١٩٧١

في سنة ١٩٣٤ بدأ انتاج النفط في البحرين، وكانت بريطانية قد حصلت، بالمشاركة مع الولايات المتحدة، على امتياز لاستخراجه. إلا أن الكميات التي كانت تستخرج من البحرين ضئيلة، إذا قوبلت بما يستخرج عند جاراتها؛ ولا تزال ضئيلة نسبيا (سنعود إلى الحديث عن النفط واثره في اقتصاديات البحرين فيما بعد).

وفي سنة ١٩٣٥ انشأت بريطانية القاعدة البحرية في الجفير في البحرين. كما قررت لندن، بعد ذلك بمدة قصيرة، نقل المعتمدية السياسية في الخليج من بوشهر إلى البحرين، ولو أن هذا النقل لم يتم إلا في سنة ١٩٤٦. والمعتمدية السياسية كانت الادارة السياسية التي تشرف على جميع المصالح السياسية (والعسكرية والاقتصادية وشؤون المواصلات) في الخليج. ومعنى قرار نقلها الى البحرين أن هذه الجزيرة اعتبرت المركز الرئيس والهام لما يهم بريطانية. وكان ثمة وكلاء سياسيون في امارات ومشيخات الخليج، وكلهم كانوا يتبعون المعتمدية السياسية. وحري بالذكر أن المعتمدية السياسية (في بوشهر ثم في البحرين) كانت تتبع حكومة الهند. ويعود السبب في ذلك إلى أن شركة الهند التجارية الشرقية (البريطانية) كانت تعنى بجميع

شـؤون الخليج، السـيـاسـي منهـا والحـربي، إلى سنة ١٨٥٨. فلمـا قـامت وزارة الهند بالاشراف على أمور الهند، خلفاً للشركة، انتقلت شؤون الخليج إلى وزارة الهند. ووزارة الهند (في لندن) كانت ترتبط بها حكومة الهند. ومن ثم فان المعتمدية السياسية في الخليج كانت تتبع التسلسل الاداري البـريطاني، أي أنهـا كانت تابعة لحكومة الهند مباشرة، وإلى وزارة الهند وساطة. وظل الأمـر على ذلك حتى استقلال الهند وباكستان (١٩٤٧) فانتقلت مسؤولية المعتمدية السياسية في البحرين إلى وزارة الخارجية البريطانية، واستمر الحال على ذلك إلى سنة ١٩٧١، سنة انسحاب بريطانية العسكري من الخليج، واستقلال اماراته التي أصبحت دولاً مستقلة. (الكويت كانت قد استقلت سنة ١٩٦١).

مرّ بنا أن المعاهدات التي كانت تربط امارات الخليج العربي ببريطانية (بدءاً من معـاهدة سنة ١٨٢٠) كـانت تتـرك الشـؤون الداخليـة لحكام الامـارات. لكن إذا أخـذنا البحرين مثلاً، وجدنا أن الأمر كان على خلاف ذلك. فبين سنتي ١٩٠٢ و١٩٥٣ طبقت الحكومة البـريطانيـة، عن طريق الوكيل السـياسـي في تلك الجـزيرة، مـجـمـوعـة من القـوانين البـريطانيـة. كمـا أن تعـيين مسـتـشـار بـريطاني لحكومة الكويت كان مـعناه الاشراف المباشر على جميع الشؤون الداخلية. صحيح أن المستشار كان يقدم آراءه بشكل نصائح، لكن هذه النصائح كان المفروض فيها أن تقبل، سواء في شؤون الأمن أو التعليم أو تنظيم الموازنة. وإذا تذكرنا أن شخصاً واحداً تولى شؤون المستشارية من سنة ١٩٢٦ إلى ١٩٥٦، يمكننا أن ندرك مدى تمكنه من السيطرة على الادارة الداخلية للامارة، إذ كان يعتبر نفسه مستشاراً مالياً وقضائياً وإدارياً وأمنياً.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) شدّدت بريطانية قبضتها على امـارات الخليج، بمـا في ذلك البـحـرين، بسـبب وقـوع المنطقـة بأسـرها على طريق الاتصال بين الحلفاء وروسيا، لامداد الأخيرة بحاجاتها الدفاعية من الولايات المتحدة. لذلك فان الحركة القومية العربية، التي كانت قد بدأت تتسرب إلى البحرين قبيل الحرب العالمية الثانية، جُمِّدت رسمياً أثناء سني الحرب.

إلا أن الحـركة عـادت إلى الظهور، وبشكل منظم، بعـد الحـرب، وازدادت قـوة في الخمسينات والستينات. وكانت للحركة الوطنية القومية في البحرين استشرافات متعددة النواحي. فهي، بالاضافة إلى العناية بشؤون السياسة العامة، كانت معنية أيضاً بقضايا التعليم والصحة والمجتمع والعمال. وقد كان للصحف التي انشئت في البلاد مثل صوت البحرين والقافلة والوطن، وللنوادي المختلفة التي انشئت هناك مثل نادي الخريجين وجمعية الأدباء والمنتدى الاسلامي (الذي انشىء أولاً سنة ١٩٢٦، ثم تحول إلى ناد سياسي فيما بعد) أثر كبير في التوعية الوطنية العامة. ويمكن اجمال المطالب الوطنيـة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦ في: (١) تأسيس مجلس تشريعي يمثل أهل البلاد. (٢) وضع

القوانين العامة للشؤون الجنائية والمدنية بحيث تكون متمشية مع حاجات مجتمع البحرين وتقاليده. (٣) ويتبع ذلك في المطالب اصلاح المحاكم وتنظيمها، مع تأسيس محكمة عليا للنقض والابرام تكون مهمتها النظر في أي خلافات قد تطرأ في البلاد بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية أو بين الحكومة وأفراد الشعب. (٤) السماح بتأليف نقابات للعمال ولأصحاب المهن الحرة. (٥) المطالبة بضرورة تطبيق مناصفة الأرباح بين شركة البترول (بابكو) وحكومة البحرين، والاستفادة من عائدات النفط بطريقة أفضل، والحد من الهجرة الأجنبية.

ولعلَّ من أهم انجازات الحركة الوطنية في البحرين تركيزها على الاحتفاظ بالطابع العربي للبلاد، وهو أمر كان له فيما بعد، عند بحث العلاقات بين البحرين وإيران، أهمية كبيرة

أما النتائج العملية المباشرة فكانت اقصاء المستشار بلغراف (الذي ظل في منصبه من ١٩٢٦ إلى ١٩٥٦)، وانشاء مجلس اداري للبحرين (آذار / مارس ١٩٥٦) للاشراف على الدوائر الحكومية. وكان هذا المجلس يتكون من أعضاء الأسرة الحاكمة، وهم كانوا رؤساء الدوائر الحكومية، وأضيف إلى أعضائه ثلاثة لا ينتمون إلى الأسرة الحاكمة. واعتبر المجلس الاداري جهازاً تنفيذياً للبلاد، و «وافقت السلطات الحكومية في البحرين على اجراء انتخابات لمجلس التعليم والصحة»، وهو أكثر ما حصلت عليه البلاد من المؤسسات التمثيلية الديموقراطية.

كانت إيران تدعي، باستمرار، بأن البحرين جزء من أراضيها. وكانت الصحف والمؤسسات السياسية الإيرانية تطالب بريطانية باعادتها إليها. إلا أن هذه المطالبة اشتدت عنفاً وحدة في اعقاب الحرب العالمية الثانية. وقد اتخذت إيران قرارات (من جانب واحد طبعاً) حاولت فيها أن تمارس السيادة على البحرين. فمن ذلك أن المجلس النيابي أصدر قراراً (١٩٤٦) يخول الادارة الايرانية ممارسة السلطة هناك. ومنها أن المدارس الحكومية الايرانية كانت تعلم طلابها بأن البحرين تخص إيران. ومنها احتجاج ايران على اشتراك البحرين في بعض من المنظمات الدولية. ومنها قرار صدر سنة ١٩٥٧ يقضي بضم البحرين إلى الأقاليم الايرانية باسم الإقليم الرابع عشر، وغير ذلك كثير. ولعلّ أهم من القرارات هذه، تشجيع ايران على هجرة الايرانيين إلى البحرين، الأمر الذي أزعج سلطات البحرين كثيراً.

على أن الأمر تغير بعد اعلان بريطانية عن قرار انسحابها العسكري من الخليج قبل نهاية ١٩٧١. جاء هذا القرار في سنة ١٩٦٨. وفي سنة ١٩٦٩ أعلن شاه إيران «.... ان ايران تحرص على الالتزام بسياستها القائمة على أساس عدم استعمال القوة في الحصول على مكاسب اقليمية، وإذا كان سكان البحرين لا يرغبون في الانضمام إلى بلادنا، فنحن لن نلجأ للقوة، لأن ذلك يتعارض ومبادىء سياستنا».

بعد هذا التصريح أخذت قضية علاقة البحرين بإيران سيرها في طريق المفاوضات، إلى أن انتهى الأمر بأن أرسل السكرتير العام للأمم المتحدة مبعوثاً شخصياً «إلى البحرين لاستطلاع الرأي حول مستقبلها». وقدمت ضمانات دولية مسبقة «بأن حق الاعتراض (أي الفيتو) لن يستخدم ضد النتائج التي قد يتوصل إليها المبعوث الدولي». وقد وصل المبعوث الدولي إلى البحرين في ٣١ آذار (مارس) ١٩٧٠، وأقامت بعثته أسابيع قامت خلالها «باستطلاع رأي المواطنين حول مستقبل البحرين... من حيث استقلال البلاد أو انضمامها إلى إيران».

وفي ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩٧٠ قدم المبعوث تقريره إلى السكرتير العام للأمم المتحدة؛ وكان أهم ما فيه: (١) تطلع جميع السكان إلى الهدوء والاستقرار في المنطقة، و(٢) قيام دولة ذات سيادة واستقلال تام؛ والأغلبية العظمى من السكان كانوا يضيفون إلى ذلك أن هذه الدولة يجب أن تكون عربية. وصادق مجلس الأمن على التقرير في أيار (مايو) ١٩٧٠، وبذلك طويت هذه الصفحة نهائياً من الناحية السياسية.

كانت البحرين قد أسهمت في المفاوضات المتعلقة باقامة اتحاد يشمل إمارات ساحل عُمان السبع وقطر والبحرين. فحضرت اجتماع سنة ١٩٦٨ واجتماع سنة ١٩٦٩، الا ان اختلاف وجهات النظر بين قطر والبحرين، من جهة، وإمارات الساحل العماني، من جهة أخرى، حمل الامارات على اعلان قيام «دولة الامارات العربية المتحدة» (١٨ تموز ـ يوليو ١٩٧١)، كما اتجهت البحرين الى اعلان استقلالها في ١٤ آب ـ أغسطس ١٩٧١.

ففي اليوم الذي أعلنت فيه البحرين استقلالها ألغت بريطانية المعاهدات التي كانت تربط البحرين بها. فتبادل الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة مع المقيم (المعتمد) السياسي في الخليج، السير آرثر جفري، المذكرات الخاصة بإلغاء كل ما سبق من معاهدات، وتخلت بريطانية عن عبء الحماية العسكرية التي كانت متوجبة عليها للبحرين بموجب تلك المعاهدات. واستعيض عن ذلك جميعه بمعاهدة صداقة أساسها التشاور بين البلدين.

وتقيداً بسياسة الانسحاب العسكري من الخليج أخلت بريطانية القاعدة العسكرية الخاصة بها في الجفير. وفي ٢٣ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٧١ عقدت بين البحرين والولايات المتحدة معاهدة نُصَّ فيها على اعطاء تسهيلات في قاعدة الجفير للأسطول الأميركي. فحلت قوات أميركية محل القوات البريطانية. وبموجب هذه المعاهدة، التي سمحت باستعمال القاعدة ثلاثين عاماً، منحت تسهيلات للأسطول الأميركي، الذي كان بحاجة إليها بسبب عملياته في المحيط الهندي. وبالنسبة للبحرين فقد اعتبرت التسهيلات من النوع الاقتصادي لشركات مدنية أميركية. وقد

كان من المتعذر على حكومة البحرين يومها «الاستفادة من الامكانيات الشاسعة للقاعدة». ولم تكن التسهيلات الممنوحة لتتعارض مع استقلال البحرين وسيادتها. والواقع الذي يجب ذكره هو أن ما أشير إليه بمعاهدة لم يكن سوى مذكرات تبادلتها حكومتا الولايات المتحدة والبحرين، سجلت فيما بعد في الأمم المتحدة. (في ٢٠ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٧٣ أصدرت حكومة البحرين إعلاناً ألغت بموجبه جميع التسهيلات التي كانت قد مُنِحَت للولايات المتحدة الأميركية، وذلك بسبب مساندتها لاسرائيل في خلال حرب تشرين الأول ـ اكتوبر ١٩٧٣).

في ١٦ آب (أغسطس) صدر القرار القاضي بتسمية الامارة «دولة البحرين» وسمّي حاكمها «أميراً». وأصبح مجلس الدولة (انشىء سنة ١٩٧٠) مجلساً وزارياً. وتقدمت البحرين بطلب الانضمام إلى جامعة الدول العربية والأمم المتحدة، وقبل الطلب في أيلول (سبتمبر) ١٩٧١. وأصبحت عضواً في المنظمتين والوكالات المتفرعة عنهما.

البحرين اليوم

في كانون الأول (ديمسبر) ١٩٧٢ تمت الانتخابات للمجلس التأسيسي، الذي وضع الدستور (١٩٧٣) الذي تمت بموجبه انتخابات المجلس الوطني (ثلاثون عضواً منتخباً يضاف إليهم الوزراء). والمجلس الوطني بدأ أعماله بنشاط كبير، إلا أن الاضطرابات العمالية التي قامت في البحرين سنة ١٩٧٤، واستمرت فترة أطول من اللازم، انتهت بحل المجلس الوطني سنة ١٩٧٥، وتعطلت الحياة النيابية في البلد. إلا أن تقدم البحرين في المجالات الأخرى استمر بقوة وزخم.

الحياة الاقتصادية: احتياطي النفط في البحرين صغير. ومع أن الانتاج ضئيل، فالمعروف أن هذا الاحتياطي ينتهي في مدة غير طويلة. لذلك فان سلطات البحرين أخذت هذا الأمر باهتمام منذ سنوات وعمدت الى تنمية البلد صناعياً. وحري بالذكر أن الخبرة الصناعية التي اكتسبها العمال، بسبب أن صناعة النفط بدأت هناك مبكرة والتنظيم الصناعي الذي عرفته البحرين، ساعدا في نقل الخبرات الصناعية إلى الصناعات الجديدة وتنظيمها.

وفي مقدمة الصناعات المعوِّضة في البحرين، تكرير النفط. وتقوم المصفاة في جزيرة سترة، وتبلغ طاقتها الانتاجية ٢٠٥ آلاف برميل يومياً (١٠ ملايين طن سنوياً). وهذه الطاقة هي المحافظ عليها من سنة ١٩٦٦ ـ ١٩٧٤. إلا أنها انتجت في عام ١٩٧٨ ما قدره ٢٦٠,٠٠٠ برميل في اليوم. وأربعة أخماس النفط المكرر في هذه المصفاة، وهي الثانية في الخليج حجماً وطاقة، تأتي من آبار النفط في المملكة العربية السعودية في انابيب موضوعة تحت الماء. وحري بالذكر ان البحرين تتقاسم مناصفة مع السعودية آبار النفط البحرية في أبو صفا. وصناعة تكرير النفط تزود البحرين بأكثر من نصف وارداتها النفطية (٥٤٪).

والصناعة الثانية الهامة في البحرين هي صناعة الألمنيوم. وقد بدأ المصنع انتاجه في سنة ١٩٧١ بنحو عشرة آلاف طن، والمقدر له أن ينتج ١٢٠,٠٠٠ طن في العام. والوقود اللازم للمصنع هو الغاز الطبيعي الذي وجهت البحرين اهتمامها نحوه منذ مدة للافادة منه صناعة وتصديراً. والمصنع يمكنه أن ينتج ١٨٠,٠٠٠ طن في السنة. ومما يمت إلى صناعة الألمنيوم بصلة مباشرة هو أن ما يتبقى من الألمنيوم بعد التصدير إلى الخارج، يستغل في مصنع آخر انشىء سنة ١٩٧٣ لسحق الألمنيوم وتحويله إلى بودرة تستخدم في انتاج الأصباغ المقاومة للصدأ وانتاج المتفجرات. وثمة مشروع لسحب قوالب الألمنيوم وتحويلها إلى ألواح وقضبان لتلائم أغراض البناء. أما الخامات اللازمة لصناعة الألمنيوم فتستورد من استرالية، كما أن التصدير يتم إلى أوروبة الغربية وغيرها.

في سنة ١٩٦٨ تأسست في البحرين مصانع بلاستيك الخليج، وبدأ الانتاج في السنة نفسها. وفي البلاد مصنع للورق يعود تأسيسه إلى سنة ١٩٥٧.

ومما يدخل في عداد الصناعات إنشاء الحوض الجاف في البحرين، الذي افتتح في سنة ١٩٧٩ والذي يمكنه أن يعنى بناقلات النفط الى حمولة نصف مليون طن. وما دمنا قد وصلنا إلى الحوض الجاف والتسهيلات التجارية فلنذكر أيضاً تطوير «ميناء سلْمان» التي لها ستة عشر حوضاً. وقد افتتح فيها (١٩٧٧) حوض خاص لاستقبال السفن الكبيرة التي تنقل المواد القابلة للعطب.

يضاف إلى هذا صناعات أخرى مثل صناعة المواد الانشائية اللازمة للبناء. فهناك عدد من المعامل تنتج الآجر (الطابوق) والبلاط والحجارة للبناء. وفي البلد معامل لإنتاج المرطبات. وفي البحرين معملان لهما أهمية حياتية كبيرة إذ يقومان بتقطير المياه. وفي البحرين يعتبر صيد الأسماك من الصناعات الرئيسة، وتصدر منها كميات الى الخارج سيما القريدس.

أما الزراعة فقد نالت تشجيعاً كبيراً من الدولة، سواء في تيسير الخبرات والاستشارات من أهل الاختصاص أو في التدريب العملي أو في تحسين البذر وتنويع النباتات. وكذلك في الاهتمام بتربية المواشي والأغنام، ولو أن هذه لم تتقدم كثيراً بعد. إلاّ أن في البحرين عناية بتربية الخيول والابل وذلك لاستعمالها في سباقي الخيول والجمال، وهما سباقان يهتم بهما السكان كثيراً، اما للمشاركة أو للمشاهدة.

التعليم: كما ذكرنا آنفاً بدأ التعليم الرسمي في البحرين سنة ١٩١٩، إذ وضعت أول مدرسة ابتدائية للبنين تحت الاشراف الرسمي. ومع أن الضغط البريطاني كان يعرقل نمو التعليم، فقد قامت الحكومة بفتح مدارس للبنات ابتدائية أولاً ثم ثانوية (١٩٥١). وكانت أول مدرسة ثانوية للبنين قد افتتحت سنة ١٩٣٩. وكان لا بد من استكمال المدارس في مراحلها المختلفة، وتنظيم الجهاز الاداري اللازم لذلك. وتمت

هذه الأمور في غضون المدة التي عقبت الحرب العالمية الثانية وسنة ١٩٦٩ (سنة يوبيل التعليم الذهبي). وأهم المنجزات، بالاضافة إلى المدارس الاكاديمية العادية (مرحلة ابتدائية واعدادية وثانوية)، انشاء معهد عال للمعلمين (١٩٦٦) وآخر للمعلمات (١٩٦٧) وفتح المدارس الثانوية الصناعية. وهناك كلية الخليج للدراسة الصناعية العليا.

كان عدد الطلاب ٢,٨٨٩ في سنة ١٩٤٥ فأصبح ٤٦,٢٣٥ في سنة ١٩٦٩، وما استطعنا الحصول عليه من احصاءات لسنة ١٩٧٧ يدل على أن العدد كان ٦١,٢٠١ طالباً وطالبة. وكان عدد الصفوف في تلك السنة ١,٦٣٥ صفاً منها ٦٨ صفاً للتعليم الفني و١٥ صفاً للتعليم العالي.

والتعليم العالي الذي يتم في البحرين بالذات هو الذي تقدمه دار المعلمين العليا ودار المعلمات العليا وكلية الخليج الصناعية. لكن البحرين ترسل عدداً كبيراً من الطلاب إلى الجامعات العربية وغيرها. وليس لدينا إحصاء دقيق عن عدد خريجي الجامعات في البحرين ولكن حول سنة ١٩٦٩ كان قد تخرج في الجامعات العربية والغربية نحو ثلاثمئة خريج. وكان ثمة ٢٦٨ طالباً جامعياً هم أعضاء بعثات حكومية. يضاف إلى ذلك عدد كبير من الطلاب الذين يدرسون على نفقتهم الخاصة. والتعليم مجاني في البحرين. وموازنة التعليم لسنة ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ كانت ١١,٤ مليون دينار.

السكان: تدل الأرقام ان سكان البحرين كانوا ٧٤,٠٠٠ سنة ١٩٤١ فارتفع عددهم إلى ١٤٤,٠٠٠ في العام ١٩٥٩. وفي الاحصاء الذي جرى في سنة ١٩٦٥ بلغ عدد السكان ١٨٢ ألفاً. وفي ١٩٧١، وهي سنة الاستقلال، بلغ عدد السكان (تقديراً) ٢١٧ ألفاً والتقدير السكاني لسنة ١٩٨٠ يتراوح بين ٣٠٠ و٣٥٠ ألفاً. وارتفع في منتصف الثمانينات الى ٥٠٠,٠٠٠.

وإذا أخذنا عدد السكان في الستينات مثلاً لوجدنا أن أكثر من أربعة الأخماس (٨٢,٥٪) من السكان هم من مواليد البحرين، وأن الباقين من الوافدين على البلد. وسكان البحرين أكثريتهم الساحقة من المسلمين، ويكادون ينقسمون إلى قسمين متساويين بين السنة والشيعة. وحري بالذكر أن الحركة الوطنية في البحرين، التي قامت في الأربعينات واستمرت بعد ذلك، أدت إلى تقارب بين الفريقين، بحيث يرى الجميع أنفسهم مواطنين للبحرين. ومما يلفت القارىء ملاحظة وردت في تقرير المبعوث الخاص الذي أرسله السكرتير العام للأمم المتحدة إلى البحرين (١٩٧٠) عن سكان البحرين، إذ ورد فيه أن السكان «الذين أمكن نسبتهم إلى أصول أفريقية أو هندية أو باكستانية قد اندمجوا اندماجاً يكاد يكون كاملاً في مجتمع البحرين». وهؤلاء لا يمكن أن يطلق عليه اسم الوافدين، وكذلك الايرانيون الذين قد أصبحوا

جزءاً من السكان. لكن يظل في البحرين، كما هو الحال في كثير من دول الخليج، جماعة من الوافدين، المرجح أن أكثرهم عرب، ولكن ثمة غير العرب أيضاً، وهم أولئك الذين يفدون إلى الخليج للعمل، فيقيمون بضع سنوات ثم يعودون إلى بلدانهم.

ويمكن القول بأن أكثر الوافدين يعيشون في المدن، ذلك لأنهم يعملون في التجارة والصيرفة والمهن الحرة أو هم موظفون في الدولة أو الشركات الكبرى أو البنوك، ومن ثم فقد ينطبع في ذهن الزائر لمدينة كالمنامة (السكان تقديراً ١٢٠,٠٠٠)، التي هي عاصمة الدولة، أن لها طابعاً عالمياً. وهذا يصح على بضع أجزاء أو نواح من المدينة، حيث يتجمع هؤلاء الوافدون. لكن المدن، مثل البلدان والقرى، طابعها الأصلي عربي ـ عربي عنصراً، وعربي لغة: لا لأن العربية هي لغة الدولة الرسمية ولكن لأنها لغة الناس والأدب، نثراً أو شعراً، والتعليم. والواقع أنه لما جعلت العربية لغة البلاد رسمياً، فإن الأمر لم يعد وضع الأمر في نصابه، أي تثبيت أمر تاريخي واضح.

الحياة في المدن تشبه الحياة في مدن كثيرة عربية، كبيرة وصغيرة. لكن أكثر الناس من أهل البلاد يلبسون الثياب الوطنية، وهي الثوب والكوفية والعقال. والثوب هو أبيض في الصيف. وقد يكون من القطن (وهو الغالب) أو من الحرير، وداكن في الشتاء ويكون من الجوخ أو الصوف. وفي المناسبات يلبس مواطنو البحرين الزي الوطني، حتى ولو كانوا يرتدون البدلة عادة.

وسكان الريف أكثر حفاظاً على عادات اللبس والاجتماع. أما الكرم والضيافة فهما من الصفات التي يتمتع بها الجميع. والضيافة في الريف اجتماعية مثلها في ذلك مثل الأفراح والأعراس. وفي هذه يهتم الجميع بالاستمتاع بالاحتفالات، كل على قدر طاقته وحظه.

وثمة بضع ملحوظات لا بد من ذكرها في الخاتمة:

(١) بسبب أن البحرين تعوزها الموارد الطبيعية فقد طورت اقتصادها على أساس التجارة العالمية والخدمات على اختلاف أنواعها (هذا طبعاً بالاضافة إلى الصناعات التي ذكرناها من قبل). والبحرين تستورد تقريباً جميع ما يحتاجه مجتمعها الاستهلاكي. والاستيراد يتم، في معظمه، من بريطانية والولايات المتحدة واليابان والمانيا الاتحادية واستراليا والصين. أما المواد المستوردة فتشمل الآلات ومعدات النقل والمصنوعات الأساسية والمواد الكيماوية للأغراض المنوعة والمواد الغذائية.

(٢) مع أن الأغلبية الساحقة من السكان هم عرب، ففي البلاد نحو ١٥٪ من غير العرب: من الهنود والايرانيين والباكستانيين. وحظ هؤلاء في شؤون الأعمال التجارية والنواحي التقنية والقوى العاملة هو أهم من نسبتهم العددية.

(٣) ان الصناعات النفطية القديمة في البحرين، وما استجد من صناعات،

أوجدت طبقة عاملة في البلاد، وهي طبقة تعي حاجاتها وتلح في تلبية مطالبها، من مثل تحسين أحوال العمل وانشاء نقابات عمالية. وقد كان للعمال مواقف كانت معطلة للتطور في المجالين السياسي والاجتماعي في بعض الأحيان.

(٤) بسبب من انتشار التعليم والانفتاح على الخارج وعلى الثقافات العالمية فان البحرين تتمتع بجو ثقافي متقدم، بالنسبة إلى كثير من بلدان العالم الثالث، وحتى بالنسبة إلى البلدان العربية.

١٤ـ قطر

قطر شبه جزيرة تقع على الساحل الغربي للخليج العربي، وهي في مساحتها تقارب ١١,٠٠٠ ك. م٢؛ وطول شبه الجزيرة نحو ١٦٠ ك. م وعرضها بين ٥٠ و٨٠ من الكيلومترات. وشبه الجزيرة هذه صخرية رملية قاحلة. ماؤها الجوفي قليل. وما يزرع منها يقع في الشمال حيث كانت تغذيه مياه الأمطار القليلة. والبلاد تشرب وتروي أراضيها الزراعية الآن من مياه البحر المحلاّة. وقد كان عدد السكان ١٨٣,٠٠٠ في عام ١٩٧٦، أما التقدير للعام ١٩٨٠ فهو ٢٤٠,٠٠٠. وفي منتصف الثمانينات ارتفع العدد إلى نصف مليون؛ وتستأثر العاصمة «الدوحة» بنحو ثلثي السكان، ويتمركز عدد كبير منهم على الساحل الشرقي في منطقة أم سعيد الصناعية والبحرية. وقطر صيفها حار، أما شتاؤها فمعتدل اذ إن الحرارة تتراوح بين ٢٥ و٣٣ درجة بين شهري كانون الأول / ديسمبر وآذار / مارس. أما الرطوبة فمرتفعة على طول السنة.

كانت في قطر، مثل السواحل الغربية للخليج العربي، مراكز للتجمعات البشرية من أقدم الأزمنة. فإنسان العصر الحجري الحديث خلّف آثاراً كثيرة كشفت أعمال الحفر والتنقيب على الكثير منها في العقدين الأخيرين، بما في ذلك قطر. ومعنى هذا أن الإنسان سكن تلك البقاع قبل خمسة أو ستة آلاف سنة على الأقل.

والمدن ـ أو البلدان ـ الرئيسة في مناطق الخليج العربي هذه تقع على مقربة من خور في الغالب، والخور هو الخليج الذي يمكن أن تفيد السفن الصغيرة من اللجوء إليه. وسواحل الخليج هي، على العموم، ضحلة. ولذلك، فعندما كانت تكثر القرصنة في الخليج العربي (كما كانت تكثر في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي) فإن القراصنة كانوا يجدون في هذه الشواطىء الضحلة ملجأ لهم لا تصله السفينة المطاردة (وهي أكبر طبعاً) بقطع النظر عن نوعها أو زمانها، من أيام الساسانيين إلى القرن التاسع عشر.

في أواسط القرن الثامن عشر استقر آل ثاني في قطر حكاماً لها، وكان إلى جانبهم جماعة من التجار، ومن ذلك الوقت يبدأ انتظام قطر الحديث. لكن البلاد مثل جاراتها دولة الامارات العربية المتحدة والبحرين والسعودية، كانت محدودة الموارد. فالأرض لا تغلّ والماء قليل. لذلك كان البحر مصدراً أصلياً للرزق ـ السمك بأنواعه للطعام، والمجفف منه علف للحيوان أيضاً، واللؤلؤ، والغوص عليه بما فيه من الصعوبة

والأخطار، يوفر سلعة تجارية تدر على البلاد بعض الثروة. وفي أواخر القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن الحالي، اشتركت قطر، ولو أن حصتها كانت ضئيلة، في ناحية من تجارة السلاح التي تمركزت في مسقط.

كانت الحكومة البريطانية (عن طريق الشركة التجارية الشرقية الهندية أولاً ثم عن طريق الادارة المباشرة فيما بعد) قد عقدت اتفاقات مع شيوخ الخليج العربي (بدءاً من مطلع القرن التاسع عشر وحتى آخره) من رأس الخيمة إلى البحرين إلى المشيخات المتصالحة إلى الكويت، كانت تتعهد بموجبها حكومة لندن بتقديم حماية لهذه المشيخات. لكن الواقع ان البريطانيين كانوا يشدون الوثاق على المشيخات مرة بعد أخرى. وفي سنة ١٩١٦ وقّع شيخ قطر معاهدة مع الحكومة البريطانية نص فيها على أن الشيخ لا يتنازل ولا يرهن ولا يتخلّى عن أي جزء من بلاده لأي دولة أو سلطة سوى بريطانية. وتعهد الشيخ أيضاً بألا يعقد أي اتفاق أو معاهدة أو أي نوع من العلاقات مع أي دولة أجنبية بدون موافقة بريطانية. وفي مقابل ذلك كانت الحكومة البريطانية مستعدة للدفاع عن قطر من أي اعتداء بحري. أما في حالة الهجوم من البر فإن الحكومة البريطانية تقوم بمساعيها الحميدة. وهذه المعاهدة، كما ذكرنا، مثل المعاهدات التي عقدت مع بقية الشيوخ.

اكتشف النفط في قطر في ثلاثينات القرن العشرين. لكن نشوب الحرب العالمية الثانية واستمرارها سنوات طوالاً أخر الانتاج على مقياس تجاري الى سنة ١٩٤٩. والواردات الضخمة من النفط هي التي يسرت للبلاد التخطيط لمشاريع ضخمة في المجال الاقتصادي وفي العناية الصحية والاجتماعية والتعليمية. وقد انضمت قطر (١٩٦١) إلى منظمة البلاد المصدرة للبترول وإلى منظمة البلاد العربية المصدرة للبترول ١٩٧٠.

ولما أعلنت بريطانية عن الخروج من الخليج وسحب قواتها منه قبل نهاية سنة ١٩٧١، كان ثمة اتجاه في المنطقة لانشاء دولة تضم الامارات المتصالحة وقطر والبحرين. إلا أن الأمر انتهى بأن ظلت الدولتان الأخيرتان خارج هذا المشروع ـ فقامت دولة الامارات العربية المتحدة، وأعلنت قطر استقلالها في أيلول / سبتمبر ١٩٧١. وبطبيعة الحال انضمت إلى جامعة الدول العربية والأمم المتحدة. وهي عضو فعال في المنظمتين. وتولى أمير دولة قطر، وهو الشيخ أحمد بن علي آل ثاني، الامارة في ٤ من أيلول / سبتمبر. وعقدت معاهدة صداقة مع بريطانية. وفي ٢٢ شباط / فبراير ١٩٧٢، تولى السلطة بديلاً عنه الشيخ خليفة بن حمد، وهو ابن عم الشيخ أحمد.

وقد تم انشاء المجلس التشريعي (بدأ بعشرين عضواً، ثم زيد إلى ثلاثين عضواً في ٣٠ كانون أول / ديسمبر ١٩٧٥). والاعضاء يختارون من بين أشخاص ينتخبون انتخاباً شبه عام.

وقطر تؤيّد وتنفذ مقررات جامعة الدول العربية ومؤتمرات القمة بدءاً من قطع النفط سنة ١٩٧٣ عن الولايات المتحدة بسبب دعمها الزخم لاسرائيل في حرب رمضان (أو حرب اكتوبر)، وإلى موقف الدول العربية من اتفاقات كمب ديفيد.

النفط في قطر: في سنة ١٩٣٢ سمح حاكم قطر لشركة الأنكلو ـ إيران للنفط لاجراء مسح سطحي، وفي سنة ١٩٣٥ منحها امتيازاً لاستخراج النفط لمدة ٧٥ سنة. وكان هذا أول امتياز منح هناك، وقد تبدل أصحاب الامتياز (على الأقل من حيث الأسماء) ولكن التنقيب استمر وقد اكتشف النفط سنة ١٩٣٩. وتوقف العمل، بسبب الحرب، إلى ١٩٤٧. وفي السنة ١٩٤٩ كانت آبار دوخان (في الغرب، وهي التي تقوم حول مرتفع يصل إلى ٧٠ متراً) قد بدأت الانتاج، وكانت شبكة الانابيب قد مدت إلى أم سعيد (على الساحل الشرقي) واقيمت المنشأات اللازمة لاستقبال السفن النفطية. وفي نهاية السنة صدرت الشحنة الأولى من النفط من أم سعيد. وقد دخلت ميدان استخراج النفط هناك، بالاضافة إلى الشركة العاملة التي أصبح اسمها شركة بترول قطر، شل وشركة يابانية. وأخذت الحكومة تتدخل في شؤون النفط إلى ان تم لها الاشراف عليه، في شباط / فبراير ١٩٧٧.

ويمكن القول اجمالاً بأن معدل انتاج النفط في قطر هو نحو نصف مليون برميل في اليوم. وقطر تحصل على نصف هذه الكمية من الحقول البحرية. وبسبب من ارتفاع أسعار النفط في السنوات الأخيرة نجد أن قطر كانت وارداتها من النفط ١٩٨ مليون دولار سنة ١٩٧١ وارتفعت إلى ٢٢٥ مليون دولار سنة ١٩٧٢ وإلى ٢,٠٠٠ مليون دولار سنة ١٩٧٦ والآن يقدر الدخل السنوي بنحو ٢,٢٠٠ مليون دولار.

وفي البلد مخزون كبير من الغاز الطبيعي الذي قدرت كمية المستخرج منه سنة ١٩٧٦ بنحو ألف وخمسمائة مليون من الامتار المكعبة (وهذا يستغل داخلياً للصناعة).

وفي قطر مصفاتان للنفط الأولى في أم سعيد (١٩٥٣) والثانية بنيت في الستينات.

الصناعة: رغبة منها في عدم الاعتماد على النفط وحده، شرعت حكومة قطر، وبشكل خاص منذ الاستقلال، بتنويع مصادر الثروة القطرية، وذلك عن طريق الاهتمام بالصناعة تنوعاً وانتاجاً، وبالزراعة، كماً ونوعاً. وزائر قطر في السنوات الأخيرة، اذا قابل البلاد بزياراته الأولى، يمكنه أن يدرك الفرق في الانتاج الصناعي. ومن المهم أن هذا التطوير هو منظم مخطط مدروس، بدءاً من أواسط السبعينات.

كان مصنع الحديد والصلب في أولى اهتمامات حكومة قطر. افتتح هذا المصنع في نيسان / ابريل ١٩٧٨، وبلغت نفقاته ٢٥٠ مليون دولار، وخصصت له ولتوسعاته ما يزيد قليلاً عن مليون متر مربع من الأرض. ويستورد الحديد الخام من استراليا والولايات المتحدة ويستعمل الحديد المكسور محلياً. وقد وجد أنه بسبب تدني نفقات

النقل نسبياً، فإن كميات الحديد والصلب المرسلة من قطر إلى دول الخليج، تكون أرخص من المستوردات اليابانية والأوروبية. ومع ذلك، فقد وضعت الحكومة تعرفة جمركية خاصة بحماية هذه الصناعة. وقد بلغت منتجات هذا المصنع ١١٣ ألف طن ١٩٧٨ و٣٧٩ ألف طن (١٩٧٩) و٤٠٠ ألف طن (١٩٨٠). ويستخدم المصنع ألف عامل ويستخدم الغاز الطبيعي لانتاج الطاقة اللازمة.

وفي سنة ١٩٧٣ بدأ مصنع الأسمدة الكيميائية انتاجه، وقد أنشىء مصنع آخر مجاور له وشبيه به. وبلغ انتاج المصنعين (١٩٨٠) ٥٠٨ آلاف طن من الامونيا و٦٢٨ ألف طن من اليوريا.

وفي قطر مصنع للأسمنت فتح سنة ١٩٦٩، بانتاج نحو ١٠٠ ألف طن سنوياً. لكن المصنع مع توسعاته أصبح ينتج نحو ٣٣٠ ألف طن سنوياً. وهناك مصنع لانتاج الجير الحي (بدأ العمل فيه في أوائل نيسان / ابريل ١٩٧٩) وقد وصل انتاجه قرابة عشرين ألف طن.

افتتح أمير دولة قطر في شباط /فبراير ١٩٨١ مجمع البتروكيميائيات في أم سعيد. وهو الأول من نوعه في المنطقة. وهذا المجمع هو نتيجة التعاون بين قطر وفرنسا. وقد استثمرت في هذا المشروع مبالغ طائلة قدرت بنحو ٢٤٥٠ مليون ريال قطري (الريال القطري كان يساوي ٠,٢٧ من الدولار). ومما هو جدير بالذكر أن المجمع الأول للبتروكيميائيات (الذي هو جزء من التعاون المذكور بين قطر وفرنسا) قد افتتح في دنكرك بفرنسا في ١٩٧٩. وفي المصنع نحو ٧٠٠ عامل.

كان استخراج الغاز الصناعي للخدمات المحلية ثم للصناعات قد بدأ العمل فيه منذ مدة. وقد احترق المصنع (١٩٧٩) فتراجع الانتاج موقتاً. لكن العمل جار للعودة بالانتاج إلى ما كان عليه ان لم تكن للزيادة فيه. وهناك وحدات لتخليص الغاز المصاحب للنفط في الحقول البرية والبحرية. والواقع أن هذا كله ـ الغاز بنوعيه ـ مصدر كبير للطاقة الصناعية، ثم هو مادة صالحة للتصدير. ولكن هذا ينتظر بناء أنابيب تنقل الغاز (على أنواعه) من منطقة الخليج العربي إلى أوروبا.

هذا كله في مجال الصناعات الثقيلة، أما في نواحي الصناعات الخفيفة فهناك مطاحن الدقيق التي انتجت نحو ٤٠,٠٠٠ طن من الدقيق (١٩٨٠). وثمة مصنع للسماد العضوي من القمامة. ومن الصناعات الخفيفة صناعة الأسماك التي نظمت لأول مرة سنة ١٩٦٦ باعتبارها جزءاً من الصناعة المحلية للربان (القريدس)، والتي أصبحت الآن صناعة ناجحة جداً. وفي براداتها ومصانعها يمكن للشركة أن تعنى بنحو سبعة أطنان من الأسماك يومياً.

الزراعة: تقدر الأجزاء الصالحة للزراعة والرعي في قطر بنحو ثلث مساحة البلاد (مساحة البلاد نحو ١١,٠٠٠ م م٢). لكن لا يمكن استغلال الجزء الصالح للانتاج

الزراعي منها ما لم تتوفر المياه اللازمة. والمياه المستعملة الآن للشفة والري هي المياه المحلاة، وطبعاً لا بد من زيادة الآلات اللازمة للحصول على كميات المياه اللازمة.

أما الوضع الحالي فهو أن قطر كانت مساحة الأرض التي تنتج الخضار فيها في سنة ١٩٧٣ هي تسعة كيلومترات مربعة فأصبحت ثلاثة عشر كيلومتراً مربعاً في سنة ١٩٧٧. وفي السنة ١٩٧٣ انتجت المزارع القطرية ١٨ طناً من الخضار. أما في سنة ١٩٧٧ فكان منتوجها أربعة وعشرين طناً. وهذا هو الرقم الذي حافظت عليه خلال السنوات الثلاث التالية. والذي علله الباحثون ان قطر أصبحت الآن مكتفية ذاتياً بالنسبة إلى الخضار، وأنها تستطيع أن تصدر إلى بعض دول الخليج. وفي قطر ما يقرب من ستمائة مزرعة. وهذا طبيعي في بلد أرضه الخصبة والصالحة للزراعة موزعة في اجزائه المختلفة، إذ إن الغالب على سطح قطر هو الصخرية والقحولة وفي الجنوب توجد السبخات، فالمزارع تنقط البلاد وتزينها.

وهناك محطة للتجارب انشئت في شمال البلاد على أرض مساحتها نحو ٨٠٠ دونم. وهناك تجري البحوث والتجارب على أنصاب أشجار الفاكهة والأشجار الحرجية، وعلى بذور الفاكهة والخضر والحبوب لاختيار الأنسب منها. ولعل من أول نتائج هذه التجارب زيادة منتوج القمح من ١٦٠ طناً (١٩٧١) إلى نحو ٥٣٠ طناً (١٩٧٩).

وما دمنا في سبيل التحدث عن الزراعة فلنشر إلى الثروة الحيوانية في البلاد. فقد كان في قطر سنة ١٩٧٧ من الابقار نحو تسعة آلاف ومن الابل عشرة آلاف وخمسمائة ومن الخراف ٣٩ ألفاً ومن الماعز خمسة وثلاثون ألفاً ومن الخيول ألف ومئتان. وقد قدرت قيمة الانتاج الزراعي للسنة ١٩٨٠ بما قيمته ١١٠ ملايين ريال قطري منها نحو ٢٨٪ من الانتاج الحيواني و٢٥٪ من الخضار ونحو ١٤٪ من الأسماك و١٢٪ من التمور والفواكه.

طرق المواصلات: توجد في قطر طرق من الدرجة الأولى طولها ٩٦٠ ك م تصل الدوحة بمراكز النفط (الاستخراج) في دوخان (والشحن) في أم سعيد. وقد تم رصف طريق طوله ١٠٤ ك م من الدوحة الى السلوى وهو الذي يتصل بالطريق الرئيس الذي يربط هذه الأخيرة بالهفوف (في المملكة العربية السعودية). وبذلك تصبح قطر مرتبطة بشواطىء البحر المتوسط الشرقية بطرق ممتازة. وثمة طريق طوله ٤١٥ ك م بني بالتعاون مع أبو ظبي. وهذا يربط البلدين بشبكة المواصلات الخليجية البرية. وبناء الطرق في قطر هو عملية مستمرة.

وقطر تعنى بالموانىء لأنها تتصل بحراً بالعالم في تصريف النفط وشحن المواد المستوردة المختلفة. وقد كان في الدوحة (١٩٧٧) عشرة أحواض طولها جميعاً ١٨٥٠ متراً. لكن هذه وسعت وزيد في عمقها. أما الميناء الهام ـ لتصدير النفط ـ والكثير من

المنتوجات الصناعية من المنطقة الشرقية ـ فهو أم سعيد. وقد كان النفط ينقل إلى ناقلاته الكبيرة بأنابيب. لكن منذ سنة ١٩٧٧ فتح ميناء أم سعيد الجديد وطوله أربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر. والعمل جار على زيادة امكانات العمل في الدوحة وأم سعيد.

ومن الأشياء التي سيتم العمل فيها قريباً: مزلاق جديد لاصلاح السفن المحلية، ومحطة عائمة لتزويد السفن والزوارق واليخوت بالوقود.

التجارة: تصدر قطر النفط. ان البلاد تنتج بين ١٦٠ و١٧٠ مليون برميل في العام وهذا هو رأس المال الأول لقطر. ورأس المال الثاني هو الغاز (الطبيعي والمصاحب للنفط). والاستثمارات الصناعية، والتنمية الاقتصادية في قطر تعتمد على تصدير النفط.

وفي المقابل تستورد قطر الآلات والسيارات والأدوات المصنوعة على اختلافها، والألبسة والأقمشة والمواد الغذائية وجميع السلع الكمالية. وقد كانت قيمة الصادرات (١٩٧٨) نحو ٩,٠٠٠ مليون ريال قطري (بحسب الصرف للدينار القطري في ذلك العام يساوي هذا نحو ٢,٣٢٠ مليون دولار). وبلغت قيمة الواردات للعام نفسه نحو ٤,٦٠٠ مليون ريال قطري (تساوي، على نفس الأساس، نحو ١,١٩٠ مليون دولار).

والبلاد التي تستورد منها قطر حاجاتها عديدة، بسبب تنوع حاجاتها. إنّما ثمة بعض الترابط بين حاجات قطر المستوردة وتصدير النفط إلى بعض الأقطار، ولو أن هذا ليس هو القاعدة دوماً. والدول السبع التي تستورد منها قطر سلعها، مرتبة بحسب قيمة المستورد لسنة ١٩٧٨ هي: اليابان والمانيا الاتحادية وبريطانية والولايات المتحدة وفرنسا وايطاليا وهولندا. وتأتي بعد ذلك الهند ودولة الامارات العربية المتحدة ولبنان وسويسرا.

وبالاضافة إلى النفط، فقد صدّرت قطر الامونيا واليوريا. فالأولى أرسلت (من حيث قيمة المصدر) الى باكستان والهند والصين الشعبية. أما الثانية فأرسلت إلى الهند وإيطاليا (جميع هذه الأرقام تعود إلى سنة ١٩٧٨).

السكان: يقدر عدد سكان قطر للعام الحالي بنحو ٢٥٠,٠٠٠ نسمة. على أننا، في سبيل التحدث عن السكان من حيث أعمالهم وما إلى ذلك، فإننا نعود إلى سنة ١٩٧٨ التي توجد لدينا أرقام قريبة جداً من الصحة بشأنها. وقد قدر عدد السكان في سنة ١٩٧٨ بـ ٢٠٠,٠٠٠٠ نسمة، منهم من أهل البلاد بالذات ٤٠,٠٠٠ نسمة، أي ٢٠٪ من المجموع. وقدر عدد العرب المقيمين في قطر (من غير أبناء القطر نفسه) بنحو ٣٦,٠٠٠ أي ١٨٪ وكان هناك نحو ٣٠٪ من الباكستان و١٥٪ من إيران و١٨٪ من الهند وغيرها (بما في ذلك الأوروبيون).

ونحن إذا نظرنا إلى سكان البلاد من حيث القوى العاملة وجدنا أن العاملين في قطر (١٩٧٨) قدروا بثمانين ألفاً. وقد كان توزيعهم على الأعمال كما يلي: ٧٠٪ كانوا

يعـملون في القطاع الصناعي وقطاع الخدمـات والصناعـة، و٢٠٪ كـانوا يعـملون في الدوائر الحكومية و١٠٪ كانوا يعنون بالزراعة.

اما من حيث التوزيع المكاني، فقد كان نحو ٧٥٪ من سكان المدينة (الدوحة وأم سعيد) وكان الباقون موزعين على بقية القطر.

ومن الطبيعي أن تحتاج قطر في هذا الدور من تطورها وسيرها إلى اليد العاملة من الخارج، وأن تستخدم الخبرات الخارجية أيضاً في مجال العمل الدقيق. على أن ثمة أمـرين جديرين بالعناية، وهما الافادة من العرب خبـراء وعمالاً، والثاني هو أن القطرين أنفسهم حـريصون على اللحاق بالركب الحضاري عن طريق التعليم والعلم وطلبه في الداخل والخارج.

التعليم: يمكن اعتبار سنة ١٩٥٦ سنة الانطلاق في ميدان التعليم في قطر. في تلك السنة كان هناك ١٧ مدرسـة ابتدائيـة للبنين فيـها ١٣٨٨ طالبـاً يعنى بأمـورهم ثمانون معلماً. ولم تفتح مدارس البنات إلا سنة ١٩٥٧. وكان البـدء بمدرستين انضم إليهما ٤٥١ طالبة أشرف على تعليمهن ١٤ معلمة.

في سنة ١٩٧٤ / ١٩٧٥ كـان في التـعليم الابتـدائي ٢٠,١٥٢ طالبـاً وطالبـة (١٠,٥٢٨ طالباً و٩,٦٢٤ طالبة). كما كان هناك في التعليم الاعدادي (ثلاث سنوات بعد سنوات التعليم الابتدائي الست) ٢,٦٨٣ تلميذاً و٢,٢٤١ تلميذة في السنة نفسها. وفي سنة ١٩٧٥ / ١٩٧٦ المدرسية كان في قطر ١٦,٦٣١ تلميذاً و١٤,٥٣٥ تلميذة في التعليم الابتدائي والاعدادي والثانوي (ثلاث سنوات بعد الاعدادي). منهم، في التعليم الثانوي، ١,٩٥٩ تلميذاً و١,٣١١ تلميذة، وكان عدد المدرسين في تلك السنة ١,٩١٢. أما عدد المدارس فكان ٨٧ للابتدائي و١١ للاعدادي و١٠ للثانوي.

أمـا في السنة الدراسيـة ١٩٨٠ / ١٩٨١ فقـد بلغ عـدد الطلاب ٤٠,٠٠٠ منهم ٤٨٪ من الطالبـات. والمـدارس (من جـميـع الدرجـات) كـانت ١٤٣ مـدرسـة منهـا ٧١ مـدرسـة للبنات. وقـد بلغ عـدد المـتـقـدمـين للشـهـادة الاعـدادية ٢٠١٠ من الطلاب والطالبات وعدد المتقدمين للشهادة الثانوية ١٢٧٠.

وقد فتحت في قطر في الستينات مدرسة للصناعة وأخرى للتجارة وثالثة للتعليم ورابعة للدراسات الدينية.

وأخذت حكومة قطر بإرسال الطلاب (والطالبات) النابهين الى الخارج. ففي سنة ١٩٧٦ / ١٩٧٧ كان هنـاك ٩٠٢ من القطريين يتـابعون دراسـتهم الجـامـعيـة في البـلاد العربية وبريطانية والولايات المتحـدة. وفي الوقت الحاضر يوجد أكثر من ١٣٠٠ طالب (وطالبة) يتابعون الدراسات الجامعية في الخارج.

وفي سنة ١٩٧٣ فـتحت في قطر دار المعلمـين ودار المعلمات العليـيان، وكـانتا تزودان الطلاب بمستوى التعليم الجـامعي. وكانت كلية التربيـة (وهو الاسم الذي أطلق

على المعهدين فيما بعد) نواة لجامعة قطر التي تم انشاؤها رسمياً ١٩٨٠. وفي سنة ١٩٨١ تم تخريج الدفعة الخامسة من الجامعيين (كلية التربية سابقاً). وكان عدد المتخرجين ٣٧٠ طالباً وطالبة.

والتعليم في قطر مجاني في مراحله جميعها، والبعثات العلمية إلى الخارج لا تكلف الموفد فيها أي نفقة فالدولة توفر له كل شيء.

الخدمات الأخرى: توفر دولة قطر، بالاضافة إلى التعليم، الخدمات الصحية المجانية للمواطنين. فالمستشفيات فيها سرير لكل ٩٦ مواطناً، ولكل تسعمائة مواطن طبيب. إلى هذا فإن المواطنين يحصلون، عند الحاجة، على تطبيب في الخارج. ومما يعتبر من الخدمات الاجتماعية الجلى هو الاهتمام بمحو الامية. وقد كان في السنة ١٩٨١ في مدارس محو الأمية وتعليم الكبار ٥,٠٠٠ دارس و ٢,٥٥٠ دارسة.

ولعل فقرة مقتبسة من خطاب أمير البلاد لمناسبة إعلان الاستقلال توضح موقف الدولة من المواطن القطري. قال: «في هذه المرحلة الجديدة من مراحل حياتنا يقتضينا الواجب أن نعمل معاً ... على تحقيق ما نصبو إليه من توفير كل أسباب الرخاء لشعبنا والرقي لمجتمعنا وضمان كل عوامل تمكين دولتنا من أن تكون قد احتلت مركزها الطبيعي في الأسرة العربية خاصة، والاسرة الدولية عامة».

والقطري توفر له الدولة، بالاضافة إلى المدرسة والمعهد التقني والجامعة، مجالاً للثقافة واسع الأفق. يتمثل هذا بمجلة الدوحة الشهرية العربية التي انشئت سنة ١٩٦٩ (والتي توزع الآن ٤٠,٠٠٠٠ نسخة) وأصبحت أحد الأجهزة الثقافية الهامة بين القطري والأقلام العربية (أو المترجمة) المفيدة. و «الدوحة» ليست الدورية الوحيدة في البلاد، فمؤسسة الطبع والنشر الصحافية (انشئت ١٩٥٧) تصدر يومية عربية هي «العرب» (٨,٠٠٠ نسخة) واسبوعية عربية هي «العروبة» (١٥,٠٠٠ نسخة) واسبوعية بالانكليزية هي «ابناء الخليج». وهذه النشرات تتبع القطاع الخاص. وتصدر بالانكليزية أيضاً اسبوعية هي «أوقات الخليج» (٩,٥٠٠ نسخة).

أما من حيث اتصال قطر بالخارج، عربياً كان هذا الخارج أم غير عربي، فإن هذا يتم عن طريق الهاتف الآلي المباشر. وهناك مخطط الآن لانشاء محطة جديدة للاتصالات الفضائية.

ومطار الدوحة الدولي يستقبل الطائرات على اختلاف انواعها واحجامها. وطيران الخليج تملك قطر حصة منه (والحصص الباقية تملكها البحرين ودولة الامارات العربية المتحدة وسلطنة عُمان). ويضاف إلى هذا ان شركات الطيران العالمية الكبرى تحط طائراتها في الدوحة. ومن الشركات العربية التي تزور طائراتها مطار الدوحة طيران مصر وطيران العراق وطيران الكويت وطيران الشرق الأوسط والطيران السعودي والطيران السوري والخطوط الجوية اليمنية.

ولعل أهم ما يفتح امام القطري المجالات والآفاق الواسعة، حتى دون أن يخرج بعيداً عن وطنه، هو هذا المزيج من السكان الذي يحتك به يومياً. ففي الذين يحلون قطر، من العرب وغيرهم، جماعات من أهل الثقافة والمعرفة والخبرة العلمية والادبية والمالية والهندسية والفنية. وكل هذه الخبرات تكّون تراكماً تجريبياً في ميادين المعرفة يفيد منه ساكن قطر.

في ٦ حزيران / يونيو ١٩٨١ قال الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، أمير دولة قطر، مخاطبا الدفعة الخامسة من خريجي جامعة قطر: «اننا نؤمن بأن الدولة تستمد سلامة بنائها من سلامة تنشئة المواطنين، وبأن خير أداة لتقدم الأمم وازدهارها هي عقول ابنائها وبناتها. ولذلك كانت تنمية الانسان القطري في الماضي، وستظل دائماً في المستقبل، شغلنا الشاغل، وركيزة أساسية من ركائز سياستنا الوطنية. وبدافع من هذا الايمان كان اهتمامنا باقامة جامعة قطر، ورعايتنا للجهود التي تشق بها هذه الجامعة طريقها».

اليوم والغد

أعلن استقلال قطر في أول أيلول /سبتمبر ١٩٧١. ولم تدخل في الاتحاد الذي كانت قد دارت حوله محادثات مع امارات الساحل والبحرين. ومع ذلك فإن قطر تتعاون تعاوناً وثيقاً مع الدول الخليجية (وغيرها طبعاً) في الشؤون المختلفة ـ مثل صندوق العون العربي والصندوق الافريقي العربي.

لكن برزت مؤخراً فكرة تعاون سياسي على شكل أوثق. وقد اجتمع قادة دول مجلس التعاون الخليجي في أيار/ مايو سنة ١٩٨١، بعد أن اتضح أنه من الضروري أن تكون لدول الخليج ـ من السعودية العربية الى الكويت فالبحرين فقطر فالامارات العربية المتحدة فعُمان ـ قوة ذاتية للدفاع عنه وعنها. وقد أوضح أمير دولة قطر الغاية من هذا التعاون في الكلمة التي ألقاها في الاجتماع الأول المذكور للقادة في ابو ظبي. فقد جاء قوله: «إننا نؤمن بأن خير ما تستلهمه دولنا أعضاء هذا المجلس هو اقتناعنا الاجماعي الكامل بأن أحسن الطرق لبلوغ مأربنا هو أن نضع الاعتماد على أنفسنا في المقام الأول، وأن نبذل جهدنا الجاد لارساء أصح الركائز لتكوين قوتنا الذاتية، لأنها، دون غيرها، الكفيلة بتمكيننا من قطع الطريق على كل تدخل في شؤوننا، والحفاظ على منطقتنا بمنأى عن صراع القوى الكبرى. كذلك ان هذه القوة الذاتية وحدها هي القادرة على معاونتنا على استكمال مقومات نهضتنا الشاملة واعتلاء المكان الرفيع الذي نحن به جديرون بين الأمم».

١٥ ـ عمان

تشغل سلطنة عُمان رقعة واسعة في الجنوب الشرقي للجزيرة العربية، وإذا اعتبرناها واحدة من الدول الخليجية، فهي أكبرها مساحة إذ تبلغ مساحتها نحو من ٣٠٠,٠٠٠ كم٢. وتحيط بالسلطنة دولة الامارات العربية شمالاً والمملكة العربية السعودية غرباً، وجنوباً في غرب تحدها اليمن الجنوبية. أما ساحلها فيدور به خليج عُمان شرقاً وبحر العرب جنوباً. ويمتد ساحلها قرابة ألف وستمئة كيلومتر، وهو ساحل غني بالأسماك بحيث إن هذه كانت دوما عنصراً رئيساً في اقتصاد البلاد. وحري بالذكر أن جزءاً صغيراً من البلاد، يحيط برأس مسندم، منفصل جغرافياً عن السلطنة إذ تقع دولة الامارات المتحدة بينه وبين البلاد العُمانية.

ويمكن القول إجمالاً ان سهل الباطنة الساحلي، الممتد من مسقط شمالاً إلى الحدود، هو الجزء الخصب من البلاد. اما السهل الساحلي إلى الجنوب من مسقط فيصبح صعب المرتقى من البحر وتكثر فيه المستنقعات الكبيرة والسبخات. إلا أن الأجزاء المحيطة بسلاله (في الجزء الجنوبي من ظفار) تعود إليها آثار الخصب.

تغلب على القسم الداخلي الأجواء الصحراوية وصعوبة الجبال وصخرية الأرض. ويتصل في النهاية بالربع الخالي. إلاَّ أن الجبل الأخضر، الذي يقع بين البحر والصحراء، يرتفع إلى درجة أنه يعترض الرياح الموسمية الصيفية فيفيد من الأمطار التي تسقط عليه، ومن ثم تظهر الغابات وتزرع الغلات في سفوحه. ثم هناك هضبة ظفار التي تكوّن المنطقة الزراعية الثالثة في عُمان.

يسقط في عُمان سنوياً نحو ١٠٠ ملم من الأمطار، وتتراوح درجة الحرارة بين ٢٠ و٤٣ مئوية. أما سهل الباطنة فيسقط عليه نحو ١٥٠ ملم من الأمطار. والمياه المنحدرة من الجبال إلى سهل الباطنة تمكنه من إنتاج التمور وجوز الهند والموز والاثمار الحمضية والرمان والحبوب والتبغ والخضار. وفي المرتفعات يزرع القمح، وهضبة ظفار غنية بمنتوجاتها الزراعية المتعددة. والمهم أن الأصل في الحياة الزراعية في هذه المناطق أنها كانت تعنى بالانتاج الزراعي للاستهلاك المحلي، دون أي إهتمام بالتصدير إلى الخارج. والدور التجاري الذي قامت به البلاد العُمانية عبر تاريخها، كان دور الوسيط. ولنذكر أيضاً أن عُمان تربي الابل الجيدة؛ وهي إبل مرغوب فيها في جميع أنحاء الجزيرة العربية. وتقدر الأجزاء المستغلة زراعياً الآن بنحو

٣٦,٠٠٠ هكتار، إلا أن الخبراء يقدرون أن مئة إلى مئة وعشرين ألف هكتار يمكن أن تستغل زراعياً إذا أمكن التحكم في المياه الموجودة في البلاد وتوزيعها بشكل صحيح.

عُمان في التاريخ

تعتبر عُمان مركزاً هاماً بالنسبة للطرق التجارية التي تمر بها. فالخليج العربي وخليج عُمان وشطآنهما كانت تبيع وتشتري عبر التاريخ. وكذلك كانت سواحل المحيط الهندي. ومن ثم فعندما نذكر التجارة القديمة نجد أنه كان لعُمان فيها نصيب.

ونحن إذا بدأنا حديثنا عن العصور التاريخية، وتركنا عالم الأساطير والفرضيات، وجدنا أنه منذ أن عثر على الآجرات السومرية والبابلية وحلت رموز الكتابات القديمة، بدأت بعض الأضواء تسلط على تاريخ المناطق الخليجية. ويمكن إجمال القول حول هذه الدراسات في الأمور التالية: (١) إن بلاد ماغان أو ماكان، كانت تصدر النحاس إلى أرض الرافدين. وماغان هذه هي عُمان. ويبدو أن بعض النحاس العُماني حمل أيضاً شرقاً إلى الهند. (٢) ورد في نقش يعود إلى سنة ٢٥٢٠ ق.م. من أيام أور ـ نانشي ملك لاغاش (في جنوب أرض الرافدين) أن سفن دلمون (البحرين!) حملت إليه خشباً من بلاد نائية. والأخشاب كانت تحمل إما من الهند أو من شرق أفريقيا. وعُمان كانت على طريق المنطقتين بالنسبة إلى أرض الرافدين. (٣) وورد في آجرات التاجر الكبير أبا ـ ناصر (بين ١٨١٣ و١٧٩٠ ق.م.) ذكر لدلمون وماغان مع ذكر السلع التجارية المستوردة وفواتيرها. يضاف إلى هذا ان مصر كانت لها صلات تجارية مع بلاد بونت أو بون. والذي اتفق عليه الباحثون الآن هو أن بونت أو بون تشمل المنطقة الممتدة على الساحل العربي والساحل الافريقي الى الجنوب من باب المندب. وحري بالذكر أنه بعد تدهور الامبراطورية المصرية (حول القرن الثاني عشر ق.م.) أصبح الفينيقيون أسياد التجارة في البحر الأحمر، وظلوا على ذلك الى أن قامت الدولة الآشورية.

ومما لا يختلف فيه الباحثون هو أن عدداً كبيراً من التجار وأصحاب المراكب وصناع القوارب كانوا من سكان الشواطىء العربية. فكانت لهم في ذلك مشاركة. فلما انحسرت التجارة البابلية والمصرية والفينيقية عن المنطقة، أصبحت التجارة في المحيط الهندي الشمالي في يد العرب. وقد جاءت أوقات كانت حكراً عليهم. وفي هذه الحالة كان للعُمانيين مشاركة كبيرة، ويبدو أن اللبان والمر والطيوب والأفاويه والحجارة الكريمة كانت تنقل على أيديهم. وكانت صور (عُمان) أحد المراكز التجارية البحرية الكبرى إلى جانب عدن وقنا وجزيرة سوقطرا.

يحدثنا سترابو أنه إلى الشرق من حضرموت وعلى بعد خمسة آلاف ستاديون أي ما يعادل تسعمئة كيلومتر، توجد بلاد القرفة والقصيعة (الكاسيًا). وهذه البلاد هي عُمان. والمقصود في رواية سترابو أن هذه البلاد كانت تتاجر بهاتين السلعتين. ويذكر

هذا الجغرافي الذي عاصر السيد المسيح زمناً، ميناء تيروس، وهي صور، في عُمان. (ويمثل سترابو، بهذه المناسبة، المعرفة الجغرافية الاسطورية والتجريبية والعلمية عند اليونان إلى أيامه).

ولما اكتشفت الرياح الموسمية (القرن الأول ق.م.) وأصبحت السفن تنطلق عبر المحيط رأساً إلى الهند ومنها، صارت موانىء عُمان مركزاً لانطلاق السفن التي لم تعد تضطر الى محاذاة الساحل الآسيوي من كرمان الى مصب نهر السند وسواحل الهند الغربية. وقد وجدت وثيقة ترجع الى القرن الأول للميلاد وضعها تاجر يوناني كان يعيش في مصر كدليل للتجار. واسم الدليل هو "دليل البحر الارثيري». وهو إذ يشير الى المنطقة التي تشرف على خليج عُمان وجنوب الجزيرة يذكر المتاجر التي تصل تلك الموانىء، أو تنتج محلياً، تمهيداً لنقلها إلى أماكن أخرى، ومنها: البخور والذبل «غلاف السلاحف البحرية» والتمر والعنب والكحل والمرمر والحجارة الكريمة والقوارب «المخيطة» والقمح والأرز والثياب والاردنة والنحاس والاخشاب وزيت السيرج (الشيرج). ويقول عن مدينة عُمان أنها كانت متجراً كبيراً. ويبدو أن المتاجر المختلفة كانت تنقل منها في جميع الجهات وإلى كل الموانىء.

وفي القرنين الرابع والخامس تركزت تجارة الهند والشرق الأقصى في جزيرة سيلان (سري لانكا اليوم). وحتى حرير الصين أصبح ينقل عبر البحار لأن الطريق البري كان مقفلاً في أكثر الأحيان بسبب الحروب والنزاعات بين الفرس والروم. وفي هذه الفترة كان لتجار عُمان وسفنها نصيب كبير من هذه التجارة، وخاصة لأن الموانىء اليمنية ومدن اليمن كانت تمر في أزمات مرتبطة بانهيار الحياة الزراعية بسبب تهدم السدود، وخاصة سد مأرب.

وإذا كانت أيام الأمويين مرتبطة بدمشق وسياسة البحر المتوسط، فإن العباسيين (وعاصمتهم بغداد) مرتبط عملهم بالبحار الشرقية. ولأن الصين كانت يومها تتمتع بنظام يجعلها دولة قوية، ومن ثم قادرة على التعامل التجاري الخارجي المنظم لسد رغبة الأسواق المحلية، فقد كانت ثمة تجارة قوية غنية متنوعة بين قلب العالم العربي وبلاد الهند والصين وأندونيسيا بحراً. والواقع أن معرفتنا عن عُمان في الفترة العربية الاسلامية كبيرة لأن الجغرافيين العرب عنوا بها. فقد ذكرها أصحاب الازياج (الجداول الفلكية) وقيد أصحاب الكتب الجغرافية الأولى (أشبه ما يكون بالدليل الرسمي) بُعدها عن البصرة وغيرها مثلاً، ووصفها الجغرافيون البلدانيون من أهل القرن العاشر وصفاً فيه الكثير من الدقة.

ونحن إذا حاولنا الافادة من البلدانيين مثلاً، وجدنا أنهم يذكرون في البلاد المدن التالية: عُمان ومسقط وسوقطرة (اعتبرها إبن رسته جزءاً من عُمان) وصحار وقلهات ونزوة والسرّ. والمقدسي (النصف الثاني من القرن العاشر) يقول عن صحار: «صحار

هي قصبة عُمان وليس على بحر الصين اليوم بلد أجمل منه. عامر آهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات... أسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر. دورهم من الآجر والساج شاهقة نفيسة... [وهي] دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن». ويقول المسعودي المؤرّخ الجغرافي الرحالة: «وأرباب المراكب من العُمانيين يقطعون هذا البحر [بحر الزنج] الى جزيرة قنبلو من بحر الزنج... والعُمانيون من أصحاب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري (نسبة إلى بربرة على الساحل الافريقي) موجه مجنون».

ويتحدث المقدسي عن التجارات في عُمان فيقول: "إلى عُمان يخرج الات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والساج والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والصبر والحديد والرصاص والخيزران والفضار والصندل والبلور والفلفل». ويضيف آخرون سلعاً عُمانية الأصل مثل: "الدر العُماني والقسي العُمانية والسمك والخيول". وهذه كانت تربى في سهل القريات. وقد ذكر وجود هذه الخيول بكثرة في عُمان كل من ماركو بولو وابن بطوطة والبوكيرك. لكن، على ما يقول سكيت، ليس في المنطقة خيول البتة الآن. ويضيف أن السهل الذي كانت تربى فيه هذه الخيول لتصدر إلى الخارج، وإلى الهند بشكل خاص، هو الآن للملح الصخري.

وكان مما يجمع في منطقة عُمان وما جاورها العنبر. يقول اليعقوبي، وهو من أهل القرن العاشر، «العنبر أنواع وأصناف مختلفة ومعادنه متباينة. فأجود أنواعه وأرفعه وأفضله وأحسنه لوناً وأصفاه جوهراً وأغلاه قيمة العنبر الشحري. وهو ما قذفه بحر الهند إلى ساحل الشحر. وبعد العنبر الشحري العنبر الزنجي (من بحر الزنج) وثمة عنبر يؤتى به من الهند... يأتون به إلى قرب عُمان يشتريه منهم أصحاب المراكب» أي الذين يصنعونها أو يصلحونها. وقد كانت صور مكاناً تصنع فيه القوارب والمراكب. والعنبر يدخل في صناعتها. وقد نقل الادريسي (القرن الثاني عشر) عن الذين زاروا عُمان فيقول: «... وبلاد عُمان... كثيرة النخل والفواكه الجرومية من الموز والرمان والتين والعنب... ومن بلاد عُمان مدينتا صور وقلهات... وهما مدينتان صغيرتان لكنهما عامرتان... ويصاد بهاتين المدينتين اللؤلؤ قليلاً. وصحار ومسقط هما مدينتا عُمان. وصحار أقدم مدن عُمان. ويقصدها في كل سنة التجار من بلاد بعيدة وإليها تجلب جميع بضائع اليمن ويُتجهز منها بأنواع التجارات».

ولدينا وثيقة صينية، تعود إلى القرن الثالث عشر في وضعها، من تأليف تشاو ـ جو ـ كوا. يذكر المؤلف فيها أن الصين تستورد من بلاد العرب عن طريق الموانىء العُمانية اللبان الذكر، الذي يجمع ويحمل من مرباط والشحر وظفار. وقد كانت ظفار، في أيام ماركوبولو (مر بها سنة ١٢٨٥)، ذات ميناء حسن. «وفيها حركة تجارية كبيرة

بينها وبين الهند. ويحمل التجار من ظفار عدداً كبيراً من الخيول العربية إلى الهند. ويجنون من ذلك أرباحاً طائلة». ومع أن صحار غزاها المغول من شيراز سنة ١٢٧٦، فقد وجدها ماركوبولو (زارها ١٢٩٣) «غنية وفيها سوق كبيرة للخيول العربية». وابن بطوطة الذي زار المنطقة في أوائل القرن الرابع عشر يقول ان الخيول العتاق تحمل من ظفار، والأرز يحمل إليها من الهند. ويشير إلى مدينة قلهات بأنها حسنة الأسواق وان مسجدها من أحسن المساجد حيطانه بالقاشاني. وكانت نزوة مركزاً إدارياً هاماً للمنطقة الداخلية من عمان أيام زارها إبن بطوطة. وقد قال عنها: «مدينة في سفح جبل تحف بها البساتين والأنهار ولها أسواق حسنة».

استمرت عُمان على القيام بالوساطة التجارية بين الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية من جهة والهند وغيرها من البلاد الشرقية من الجهة الأخرى، وظهرت مسقط بشكل واضح. وكان لعرب عُمان الدور الأول على ما يظهر في حمل المتاجر. وقد ظهر في تلك الجهات ربابنة كبار منهم أحمد بن ماجد المشهور.

وأخيراً دهم عُمان وما جاورها أكبر خطر تعرضت له. فقد دخل البرتغاليون المحيط الهندي عن طريق رأس الرجاء الصالح (١٤٩٨). وعلى يد البوكيرك (الذي وصل سنة ١٥٠٦) تم إحراق قلهات والقريات واستولى على مسقط، وثبت البرتغاليون أقدامهم في عُمان والخليج العربي لمدة تتجاوز قرناً من الزمان، مع أنهم تعرضوا لثورات كثيرة (قلهات ومسقط ١٥٢٦). وكان الفاتحون الجدد شديدين قساة في تصرفهم. فلم يتورعوا عن الهدم والتخريب والحرق والنهب لتثبيت أقدامهم. كما قاومهم الاتراك العثمانيون (وكانوا قد احتلوا بلاد الشام ومصر (١٥١٦ ـ ١٥١٧) وقد انتصروا على البرتغاليين أمام مسقط (١٥٥٠).

بدّل دخول البرتغاليون إلى المحيط الهندي توازن القوى فيه. فالعرب كانوا سادة التجارة فيه، فجاء البرتغاليون وانتزعوا ذلك من أيديهم. وركزوا جهدهم في صحار ومسقط وبنوا هناك حصنين كبيرين (١٥٨٧ و١٥٨٨). وجاء التجار البريطانيون والهولنديون في أعقاب البرتغاليين. وفي سنة ١٦٥٠ طرد الامام ناصر بن مرشد البرتغال من مسقط وبقية عُمان. وقد بدأت في أيامه نهضة عملية نشيطة استمرت طويلاً.

كان طرد البرتغاليين سنة ١٦٥٠ بداءة حياة نشيطة قوية في عُمان. ففي سنة ١٧٣٠ إحتلّ العُمانيون الموانىء البرتغالية في شرق افريقيا، بما في ذلك مقديشو وممباسة وزنجبار. إلاّ أن البلاد وقعت (في النصف الأول من القرن الثامن عشر) فريسة حرب أهلية عنيفة، إلى أن تولى الأمر أحمد بن سعيد (١٧٤٩) الذي أسس أسرة آل بو سعيد، التي لا يزال حكمها في عُمان قائماً الى الآن. وقد ازدهرت البلاد بقيادة الأسرة، وظهرت قوتها البحرية ثانية. وفي سنة ١٧٨٦ نقلت العاصمة إلى مسقط.

تولى شؤون البلد سعيد بن سلطان (١٨٠٤ ـ ١٨٥٦) الذي كان حاكماً قديراً. وقد ربح ثقة التجار الأجانب. وعقد معاهدات مع بريطانيا ١٨٣٩ (كان ثمة معاهدتان سابقتان في ١٧٩٨ و١٨٠٠) والولايات المتحدة ١٨٣٣ وفرنسا ١٨٤٤ وهولندا ١٨٧٧. كما أنه اهتم بإحياء العلاقات بين عُمان وزنجبار بحيث إنه في السنوات الأخيرة من حكمه، كان يقضي وقتاً طويلاً هناك. وبدأ هناك بزرع القرنفل في مزارع واسعة، كانت وارداتها فيما بعد كبيرة جداً. وأنشأ هناك أسرة ظلت تحكم زنجبار إلى سنة ١٩٦٤. (في سنة ١٨٥٦ انفصلت زنجبار عن عُمان بعد وفاة سعيد، لكن الأسرتين اللتين حكمتا البلدين هما فرعان من أسرة آل بو سعيد). وفي أيام سعيد بلغت سلطنة عُمان أوسع مداها إذ إن ظفار انضمت إلى عُمان (١٨٢٩). وقد واجهت عُمان صعوبات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فانفصال زنجبار قلّل موارد الدولة (والسكان). وتأخرت تجارة مسقط.

وكانت بريطانيا تربطها بعُمان سلسلة من المعاهدات، معاهدات صداقة وتجارة وملاحة وقعت (بعد تلك المذكورة سابقاً) في السنوات ١٨٩١ و١٩٣٩ و١٩٥١.

مرت بالبلاد أحداث مؤسفة، هي في الواقع حروب أهلية، كان لها تأثير كبير على تطور البلاد الداخلية. ولم تستقر الأمور ويصبح السلطان حاكم البلاد بأجمعها إلا في سنة ١٩٥٩. إلا أن حكم سعيد بن تيمور (١٩٣٢ ـ ١٩٧٠) كان بحد ذاته فترة ضارة، الى درجة ما، بعُمان. فقد عزلت البلاد عن العالم عزلاً كاد ان يكون تاماً. وقد اقتضى الامر القيام بانقلاب (داخل القصر) سنة ١٩٧٠ تزعمه ابنه قابوس الذي أصبح سلطان عُمان (٢٤ تموز / يوليو).

الاتجاه العام للسلطنة، خلال العقد الماضي، هو تطوير الاقتصاد والمجتمع وإنشاء البنيات التحتية اللازمة لذلك، إذ إن هذه كادت أن تكون معدومة. وقد نظمت الشؤون الداخلية وتم الاتفاق على مشكلات عدة داخلية مع منظمات عُمانية في البلاد. وقد كان من حسن حظ عُمان وسلطانها الحالي أن النفط عُثر عليه متأخراً بالنسبة الى بلدان الخليج ومن ثم لعلّ عُمان تفيد من تجربة الدول التي سبقتها.

عُمان اليوم

غيّر تولي السلطان قابوس شؤون السلطنة الكثير من الأوضاع التي كانت سائدة. ولا شك أن أهم ما تم هو الانفتاح. إن العزلة التي كانت البلاد قد فرضتها على نفسها زالت رسمياً إذ انضمت السلطنة إلى جامعة الدول العربية والأمم المتحدة (١٩٧١). وزالت العزلة داخلياً لان سكان الداخل لم يكن يسمح لهم زيارة المناطق الساحلية، كما أن سكان السواحل كان محظوراً عليهم الانتقال الى الداخل. وزالت إجتماعياً لان اموراً كثيرة كانت ممنوعة سُمح بها، أي تركت للناس حرية التصرف فيها مثل التدخين وارتداء الثياب الآتية من الخارج. وزالت العزلة أيضاً لأن مشاريع مختلفة أصبحت موضع اهتمام من الحكومة ـ مشاريع في الصناعة والصحة والتعليم.

الزراعة وصيد الاسماك: إن الاهتمام الرسمي في شؤون الزراعة يتضح من قولنا أن ٧٠٪ من القوى العاملة في البلاد تُستخدم في الزراعة. وبسبب التباين في سقوط المطر بين سنة وأخرى، فإن الري هو أساس العمل الزراعي. وتعتمد الواحات أو المناطق الزراعية في الداخل بشكل خاص على نظام الافلاج. وهي قني أو أقنية توصل مكان وجود الماء الواحد بالآخر، على أن هذه الاقنية تجري تحت الأرض. وفي بعض الحالات لا يزيد الماء المتجمع فيها عما يرشح خلال طبقات التربة المختلفة، أي ليس من الضروري أن يكون المصدر نبعاً. والمياه المتجمعة في هذه الاقنية تلتقي وتوزع على الأرض المزروعة التي تكون، بطبيعة الحال منخفضة عن مسيل القناة. وتحفر على مسافات معينة فتحات تصل بين سطح الأرض والقناة، وذلك بقصد تنظيف هذه القنوات. وبهذه المناسبة فإن هذا النظام شائع في المنطقة الممتدة من أفغانستان الى بعض المناطق السورية الى عُمان. ويعود الاهتمام بهذا النظام إلى أنه يقلل من تبخر الماء بسبب إرتفاع الحرارة في هذه المناطق. أما في سهل الباطنة، حيث لا تصل مياه الافلاج أو حيث يمكن الاستفادة منها في مناطق اخرى، فترتفع المياه من الآبار بالمضخات.

تقدر مساحة الاراضي الزراعية المستغلة بنحو ٣٦,٠٠٠ هكتار. ونصف هذه المساحة تزرع فيها أشجار النخيل، وتشمل المنتوجات الزراعية الاخرى الفصة أو البرسيم والليمون والمانغا والبطيخ والموز والبصل. وقد ازدادت مؤخراً كميات البندورة (الطماطم) والخيار التي تزرع في البلاد. ويزرع القمح في الداخل حيث يسقط من الامطار ما يكفي (خاصة حول نزوة). وقد قدرت قيمة المنتوج الزراعي (١٩٧٥) بواحد وثلاثين مليون دينار عُماني (الدينار العُماني يساوي ٢,٩٠ دولاراً أو ١,٣٩ جنيه استرليني) موزعة كما يلي: من الفواكه ١٨ مليوناً ومن الحبوب ٦,٦ مليوناً، ومن الخضار ما تبقى (أي ٦,٤ مليوناً). وتخطيط وزارة الزراعة يرمي إلى زيادة المنتوجات التي تصدر الى الخارج عادة، والى زيادة المنتوجات اللازمة للاستهلاك المحلي للتخفيف من استيراد المواد الغذائية. وفي البلاد خمس مزارع حكومية لاجراء التجارب الزراعية اللازمة ونحو عشرين مركزاً تزود هذه المزارع بالمعلومات التي تحصل عليها من تجاربها المحدودة.

تعتبر «إدارة تنمية ظفار» مسؤولة عن الزراعة في ظفار. ومن حيث ان هذه المنطقة تفيد من الرياح الموسمية الصيفية فإن الامطار تسقط فيها بين حزيران (يونيو) وأيلول (سبتمبر)، ولذلك فإن الحياة الزراعية هنا تختلف عن شمال عُمان. فالأبقار تربى على التلال الواقعة شمالي سلاله، وتزرع اشجار جوز الهند وانواع مختلفة من الخضار في السهل الساحلي. وتقوم الجهات المختصة بدراسة قضية تربية المواشي في عُمان وظفار وصحار وسهام.

ويجب ان نذكر بالنسبة الى الزراعة وتربية المواشي في عُمان الأمور التالية: (١) ان الأراضي المستغلة زراعياً (٣٦,٠٠٠ هكتار) موزعة على النحو التالي: الباطنة ١٣,٨٠٠ والداخل ١٩,٩٢٠، والعاصمة وارباضها ١,٠٨٠ ومسندم ٤٠٠ وظفار ٨٠٠. (٢) أنه يوجد في عُمان (تقدير ١٩٦٧) من الماعز ١٦٥,٠٠٠ ومن الأغنام ٥٧,٠٠٠ والابقار ١٣٤,٠٠٠ ومن الابل ١٤,٠٠٠.

وعُمان مشهورة بالاسماك. كان هذا في البدء وسيظل في المستقبل. كانت موانىء عُمان تصدر السمك الطازج والمجفف إلى الجوار والى البلاد البعيدة من قبل، ولا تزال للأسماك منزلتها في الاقتصاد العماني. والعُمانيون يستهلكون كميات كبيرة من الاسماك، كما أن الحيوانات في عُمان تأكل السمك المجفف. والنية الآن متجهة نحو تطوير صيد الاسماك ليوضع على اساس تجاري للتصدير. فهناك على سبيل المثال شركة كورية (جنوبية) حصلت على امتياز لاصطياد عشرين طناً من الاسماك في اليوم! وهناك مشاريع صيد اخرى تنظم بالتعاون مع الكويت.

النفط: مُنح أول امتياز للتنقيب عن النفط سنة ١٩٣٧، ومُنح الثاني سنة ١٩٥٣. وفي سنة ١٩٦٤ تم الاعلان عن وجود كميات من النفط تصلح للانتاج التجاري الذي بدأ سنة ١٩٦٧. وكان الانتاج أول الأمر ٢٠٠,٠٠٠٠ برميل في اليوم، فارتفع الى ٣٦٠,٠٠٠ برميل في اليوم (١٩٦٩). وقد تغير الانتاج لاسباب فنية، لكنه استقر في السنوات الاخيرة بين ١٢٠ ـ ١٢٥ مليون برميل في السنة. وقدر احتياطي النفط في عُمان (١٩٧٩) بنحو ٢,٥٠٠ مليون برميل. ومعنى هذا أن البلاد تستطيع أن تستمر حوالى اربعين سنة أو يزيد قليلاً في الاعتماد على النفط. وآبار النفط في عُمان تقع في ناطح وبيال والحويصة. وقد بلغت واردات عُمان من النفط (١٩٧٩) ٤٨٢ مليون ريال عُماني.

وفي السلطنة كميات من الغاز الطبيعي. وقد مدت أنابيب إلى مركز تحلية المياه في غُبْره للاستفادة من الغاز في تشغيل الآلات.

الصناعة والمعادن: كانت لعُمان صناعة تقليدية قديمة تشمل بعض الأسلحة اليدوية والأواني والأقمشة. وقد ظل الوضع على هذه الحال حتى مجيء زمن النفط. إلا أن التبدل في وجهة النظر نحو الصناعة لم يحل إلا بعد سنة ١٩٧٠، وهي السنة التي تغير فيها الحكم. على أنه اتضح لأولي الأمر والخبراء أن عُمان لا يمكنها، في الوقت الحاضر على الأقل، ان تسير في ميدان التصنيع مدى بعيداً وخاصة فيما يتعلق بالصناعات الثقيلة. فهناك مشكلتان لا بد من الأخذ بهما عندما يفكر بالصناعة في عُمان: الأولى ان واردات النفط ليست على مستوى الجارات الشمالية، وثانياً ان الأيدي العاملة في عُمان قليلة، وحتى الصناعة الموجودة الآن فإنها تقوم على عمال من الهند والباكستان. وفي البلاد مصنع للأدهان وآخر للأسمنت؛ أما الصناعات التقليدية فلا تزال العناية بها قائمة.

وقد كشفت التقنيات الجيولوجية عن وجود معادن ذات قيمة. فهناك كميات لا يستهان بها من النحاس الجيد قرب صحار (وعُمان كانت تبيع النحاس للعراق قبل ٥٠٠٠ سنة!) والكروم المتوسط النوعية. وهذه موجودة في الساحل المتمم للجبل الأخضر. وتوجد كميات معتدلة من الرصاص / الزنك والاسبستوس والمغنيزيا والفحم الحجري.

التنمية: التنمية في عُمان، مثل دول الخليج الأخرى، مرتبطة بالنفط. لكن النفط في عُمان أقل، والانتاج آخذ في التدني (كي يمكن الاحتفاظ بالاحتياطي لمدة أطول). ومن ثم فإن برامج التنمية التي كانت قد وضعت قلصتها الهيئات الرسمية. يضاف إلى هذا أن الانفاق على الدفاع لا يزال كبيراً وإن كان قد نقص عن ذي قبل. ان الدفاع ابتلع من الموازنة (١٩٧٩) ٣١٪.

وقد عنيت الحكومة مؤخراً بتحسين الوضع في مطار سلالة، وميناء قابوس وميناء ريسوت.

التجارة الخارجية: بلغت قيمة الواردات إلى عُمان (١٩٧٨) ٣٢٧ مليون ريال عُماني والصادرات ٥٤٨ مليون ريال. لكن هذا لا يعني أن الميزان التجاري هو في مصلحة البلد، لأن هناك ما يزيد عن مئة مليون ريال تنفق على واردات أخرى. وإذا نحن أخذنا الواردات وجدناها (بدءاً بالأكبر ثمناً) الآلات ووسائل النقل والمصنوعات الاساسية والمواد الغذائية والمعادن والزيوت المعدنية والمستحضرات الكيمياوية والمرطبات والتبغ. وأكثر البلاد توريداً إلى عُمان هي (بحسب المبالغ التي تدفع لها) بريطانيا والامارات العربية المتحدة والمانيا الاتحادية والولايات المتحدة والهند.

المواصلات: تقوم في البلاد حركة نشيطة لجعل شبكة طرق المواصلات سريعة ومفيدة. وقد أصبحت المدن مرتبطة ببعضها وأكثر القرى يمكن لسيارة «لاندروفر» أن تصل إليها.

ففي سنة ١٩٧٧ (بعد سبع سنوات فقط من بدء العمل في الطرق) كان في البلاد ١,٤٤٧ كم من الطرق المزفتة و١٠,٥٠٠ كم من الطرق الصالحة للاستعمال. وفي سنة ١٩٧٧ تم بناء الطريق الذي وصل دبي بعُمان (٣٦٢ كم). والطرق الآن تصل ريسوت بطاقة عبر سلالة؛ وتصل بين سيب ونزوة. وبالاضافة الى ميناء قابوس فهناك ميناء الفحل (مصب النفط) وريام (قرب مسقط). وتتصل عُمان بالعالم الخارجي عن طريق الجو. وهي مساهمة في شركة طيران الخليج (أسست ١٩٥٠) الى جانب البحرين وقطر والامارات العربية المتحدة. هذا الى جانب عدد من شركات الطيران العالمية التي تهبط طائراتها في عُمان.

الدفاع: موازنة الدفاع (١٩٧٨) ٢٦٥ مليون ريال عماني. والخدمة العسكرية تطوعية. والقوات العُمانية (١٩٧٨) في مجموعها كانت ١٩,٢٠٠ منها: للجيش

١٦,٢٠٠ والبحرية ٩٠٠ والجوية ٢,١٠٠. يضاف الى هذه الحرس الوطني القبلي (وهو تنظيم شبه عسكري) ٣,٠٠٠.

التعليم: لعل أهم تطور أصاب عُمان في السنوات العشر الأخيرة (أي منذ تولي السلطان قابوس الحكم) كان في ميدان التعليم. فحتى سنة ١٩٧٠ لم يكن في البلاد سوى ثلاث مدارس ابتدائية فيها نحو مئة تلميذ. ولم يكن في البلاد مدارس للبنات قط. وقد وسع التعليم افقياً وعامودياً خلال السنوات العشر الماضية. ففي سنة ١٩٧٨ صار في البلاد ٢٦١ مدرسة، منها ٢١٣ ابتدائية و٤٥ اعدادية و٣ ثانوية. من هذه المدارس ٥٨ مدرسة للبنات. وثمة تعليم مختلط في ٧٧ مدرسة في الصفوف الأولى من المدارس الابتدائية. وكان عدد التلاميذ والتلميذات في مدارس عُمان (١٩٧٨) هو نحو ٥٠,٠٠٠ تلميذ و٢٢,٠٠٠ تلميذة في المدارس الابتدائية، ونحو ٤,٠٠٠ تلميذ و٨٦٠ تلميذة في المدارس الاعدادية. أما في المدارس الثانوية فكان العدد ٣٩٧ تلميذاً و١٣٩ تلميذة. وأكثرية المعلمين معارون من أقطار عربية اخرى مثل مصر والأردن والسودان. وقد فتحت دار لتدريب المعلمين (١٩٧٨). وثمة خطة لفتح مدارس زراعية فنية. وقد نجحت الصفوف التي انشئت لتعليم الاميين نجاحاً كبيراً. وأعلن مؤخراً عن وضع خطة لانشاء جامعة عُمان، وتم فعلاً فتح جامعة سميت جامعة السلطان قابوس.

وحري بالذكر أنه الى سنة ١٩٧٠ لم يكن في البلاد سوى بضعة مستوصفات وصيدليات منتشرة في انحاء عُمان. ولكن عُمان فيها الآن مستشفيان كبيران واثنان وعشرون مستشفى صغيراً أو مستوصفاً وأربعون صيدلية.

وهكذا، فإن عُمان سائرة في طريق التقدم.

١٦ ـ الجمهورية العربية اليمنية

تحتل الجمهورية العربية اليمنية رقعة من الأرض تبلغ نحو ٢٠٠,٠٠٠ كم٢، وتقع في الطرف الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية. تحدها المملكة العربية السعودية شمالاً وشرقاً، وجمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية (١) جنوباً والبحر الأحمر غرباً. وتنقسم البلاد إلى قسمين جغرافيين متباينين تماماً واحدهما عن الآخر وهما السهل الساحلي المعروف بتهامة اليمن، والمرتفعات الداخلية. وتمتد تهامة اليمن من حلى بن يعقوب شمالاً إلى أول باب المندب جنوباً، ويتراوح عرضها بين ٣٠ و٤٠ كيلومتراً، وترتفع تدريجاً الى الداخل بحيث يصل ارتفاعها الى نحو ١٥٠ متراً. والمنطقة هذه حارة على مدار السنة، شديدة الرطوبة، إلا أن امطارها قليلة إذ لا تتجاوز ١٣٠ ملم في السنة، وكثيراً ما يكون هطولها مذراراً عاصفياً. والمطر، على العموم، غير منتظم. وتقل النباتات الطبيعية في تهامة، وأهم أشجارها النخيل.

تمتد المرتفعات الداخلية من الشمال الى الجنوب موازية لتهامة من حيث الموقع. والقسم الجنوبي من المرتفعات يتراوح ارتفاعه بين ٦٠٠ و١٥٠٠ متر. أما أجزاؤها الشمالية فيصل ارتفاعها الى نحو ٣٠٠٠ متر (تقع العاصمة صنعاء على ارتفاع يبلغ ٢٢١٥ متراً). وهذه الأجزاء المرتفعة من الجبال يسقط عليها من الامطار بين ٩٠٠ و١٠٠٠ ملم، أما الهضبة (أي المرتفعات الجنوبية) فتبلغ أمطارها بين ٣٨٠ و٥٠٠ ملم، والامطار صيفية موسمية. ومن ثم فهناك عدد من الأنهار التي تجري دائماً في المناطق المرتفعة، لكنها لا تصل المنطقة الساحلية. وحرارة الهضبة معتدلة. أما المناطق الأكثر ارتفاعاً فقد يتكوّن الصقيع على قممها في الشتاء.

وإلى الشرق من صنعاء تبدأ المرتفعات بالانخفاض تدريجياً. كما يقل سقوط المطر، وتبدو سمات المناطق الصحراوية حتى تصل الى الربع الخالي.

وبسبب من تبدل السطح وتنوع المناخ فان البلاد تختلف الحياة النباتية فيها تبعاً لذلك. فأعالي البلاد تنمو فيها الأشجار المتباعدة، وتجود فيها المراعي. وتنمو في هذه المنطقة شجيرات البن والقات وتزرع فيها الحبوب والخضار. فإذا انخفض الموقع ظهرت فيه أشجار البحر المتوسط المثمرة، وتزرع فيه الذرة والموز (حيث تتوفر المياه للري). أما المنطقة الساحلية (تهامة) فشجرتها الوحيدة هي شجرة النخيل. وحيث تتوفر المياه الجوفية يزرع القطن والتبغ.

موقع الجمهورية العربية اليمنية ذو قيمة تجارية واستراتيجية. أما الأهمية التجارية فقديمة العهد، وأما الناحية الاستراتيجية فتتوقف على الدول التي تقوم في المنطقة (قديماً وفي العصور الوسطى) أو التي تكون بعيدة، ولكن لها اتصالات وثيقة ـ تجارية وعسكرية ـ باليمن. وهذا أمر يتضح عندما يتذكر المرء تاريخ اليمن منذ مطلع القرن السادس عشر بشكل خاص.

من التاريخ القديم

يبدو أن مصر كان لها اتصال تجاري بالمنطقة المسماة «بونت» (أو بون) حتى في الألف الثالث ق.م. والباحثون يكادون يجمعون على أن بونت تشمل الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية والسواحل الشمالية من القرن الافريقي. على أنه من المؤكّد، على ما نرى في نقوش الدير البحري في طيبة في مصر العليا، ان مصر كانت لها تجارة رابحة مع بونت منذ أواسط الألف الثاني ق.م. على أننا لا نعرف شيئاً عن تاريخ تلك الرقعة من العالم في تلك الأزمنة السحيقة. ذلك بأن ما استطاع المؤرخون أن يتوصلوا إلى معرفته لا يتجاوز ٩٠٠ ق.م. والذي عندنا معرفته هو أن الرقعة التي تشغلها اليوم الجمهورية العربية اليمنية قامت فيها دول ثلاث في الفترة الممتدة بين ٩٠٠ ق.م. و٣٠٠ م، وهي: (١) دولة معين التي قامت في منطقة الجوف وكانت عاصمتها قرناو (وهي خربة معين اليوم) ومن مدنها الكبيرة يثيل (براقش اليوم) وكانت هذه مركزاً دينياً كبيراً. ودامت دولة معين من حوالى القرن الثامن ق.م. الى سنة ١١٥ ق.م. (٢) دولة سبأ (من القرن التاسع الى سنة ١١٥ ق.م.) وتمركزت حول سبأ، ثم اتسع سلطانها بحيث شمل جنوب الجزيرة بأجمعه تقريباً. وكانت عاصمتها سرواح أولاً، لكن منذ حوالى سنة ٦١٠ ق.م. صار الأمر لمأرب، فانتقل مركز الحكم إليها. ومأرب مشهورة في التاريخ بسدّها. (٣) دولة حمير (الأولى قامت سنة ١١٥ ق.م. والثانية يعود قيامها إلى سنة ٣٠٠ م). وكانت عاصمتها ظفار (في اليمن) وقد ضمت إليها دولتي سبأ ومعين. وكانت أوسع دول اليمن نفوذاً، ولما تهدّم سدّ مأرب نهائياً (في أواسط القرن السادس للميلاد) انتهت دولة حمير.

هذه الدول كان عمادها الاقتصادي التجارة والزراعة. والزراعة اليمنية، في تلك الأيام الخوالي، كان اعتمادها على الاستفادة من المدرجات على سفوح الجبال وفي الهضاب (وهو أمر لا يزال قائماً الى الآن، كما انه معروف في المناطق الجبلية المماثلة والقليلة المساحات الصالحة للزراعة مثل فلسطين ولبنان) والانتفاع من مياه الامطار التي تسقط عليها، وذلك ببناء سدود تحفظ المياه خلفها فتوزع حسب الحاجة. وأشهر سدّ في تاريخ اليمن، بل في تاريخ الجزيرة العربية القديم، هو سدّ مأرب، الذي قال عنه ياقوت الحموي «إنه هو المسنّاة التي كانت قد أحكمت لتكون حاجزاً بين ضياع القوم وحدائقهم وبين السيل»، (والسيل في اليمن هو مجرى الماء،

ساقية صغيرة كان أم نهرا أو وادياً عارماً). ولعلنا لن نظلم القراء ان نحن نقلنا لهم أبياتاً للأعشى قالها عن سدّ مأرب:

فـفي ذلك للمـؤتسي أسـوة	ومـأرب عـفّى عليـهـا الغـرم
رخـام بنتـه لهم حـمـيـرٌ	إذا مـا نـأى مـاؤهم لم يرم
فـأروى الزروع وأعنـابهـا	على سـعـة مـاؤهم اذ قُـسِم
وطار القـيـول وقـيـلاتُهـا	بيـهـمـاء فـيـهـا سـراب يطم
فكانـوا بذلك حـقـبـة	فـمـال بهم جـارف منهـزم
فـصـاروا أيادي مـا يقـدرون	منه على شـرب مـاء فطم

وقد ظل العالم الخارجي الحديث لا يعرف عن مأرب وسدها، سوى ما روته الاسطورة والقصة وارادتها العبرة، حتى القرن الماضي. فقد تمكن ثلاثة زوار أوروبيين من الوصول الى مأرب (بين سنتي ١٨٤٣ و١٨٩٤) فوصفوه لنا. لكن الدراسة العلمية تعود إلى العقود الأخيرة. ففي سنة ١٩٤٧ قام احمد فخري بدراسة وافية للمنطقة ونشر نتيجة ابحاثه في القاهرة في ١٩٥١ ـ ١٩٥٢. الا ان التنقيب الأثري الدقيق المبني على الرفش والمعول وآلة المسح والمعرفة التقنية الدقيقة لم تعرفه منطقة مأرب الا في سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢.

أما التجارة، وهي العماد الاقتصادي القوي للمنطقة، فكانت تقوم، اصلاً، على تزويد البلاد الواقعة الى الشمال منها (من بلاد الرافدين الى ديار الشام الى حوض البحر المتوسط) بالبخور الذي كان يستعمل في المعابد. والذي كانت تجارته حكراً على العرب الجنوبيين (يظهر المقال عن جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في الفصل القادم من هذا القسم). يضاف الى هذا ان العرب كانوا يسيطرون على التجارة بين الهند والغرب. فكانت متاجر الهند وسيلان (وكذلك متاجر بلاد الزنج والصومال وجزيرة سوقطرى) من الطيوب والبهارات والاقمشة والجواهر وريش النعام والعاج والفيلة تجمع في جنوب الجزيرة وتنقل شمالا اما براً من مأرب وغيرها الى الحجاز وبلاد الشام ومصر أو بحراً. وقد عثر على ما يؤيد ان المعنيين كانت لهم مراكز تجارية في بعض جزر البحر الايجي (ديلوس).

ومع ان اهتداء هِبَّالوس كان في القرن الأول للميلاد الى سرّ الرياح الموسمية، الأمر الذي مكّن للسفن الغربية من اجتياز المحيط الهندي دون التوقف في موانىء جنوب الجزيرة، وبذلك كسر الحكر التجاري العربي، الا ان العرب عادوا الى السيطرة على التجارة البحرية الهندية وحافظوا عليها في القرون الثلاثة السابقة لظهور الاسلام.

ومع ان التجارة كانت مصدر الثروة الرئيس في اليمن، الا ان الزراعة، كما ذكرنا، كان لها اهمية كبرى، لأنها كانت تزود سكان الجنوب العربي بالمواد الغذائية الاساسية،

وخاصة بحاجته من الحبوب. على ان اليمن عرفت صناعات كثيرة ايضاً. فهذا الجزء من الجزيرة غني بالحجارة الصالحة للبناء من جهة، وفيه بالاضافة الى ذلك الرخام الألبستر الشفاف الذي يعرف في اليمن باسم القمرية. فليس غريباً، والحالة هذه، أن يتقن ابناء البلاد، طوال تاريخها العريق، صناعة البناء، فتكثر في ربوعها القصور التي اشتهرت في التاريخ والأدب. ولعل أشهرها قصر غمدان الذي كان يقوم، فيما يرجح، على مقربة من صنعاء. وقد ذكر الهمداني، في وصفه جزيرة العرب، ان صاحب القصر كان يجلس في الطبقة العليا منه، المغطى سقفها بالرخام الألبستر، فاذا مر الطائر من فوقه عرف الناظر نوعه. (وبهذه المناسبة فقد ظل هذا الرخام يستعمل الى قبل فترة قصيرة في تغطية النوافذ، فيسمح للنور بالدخول دون الرؤية من الخارج).

وقد ورد ذكر الجزع الذي كان معروفا في شبام وصنعاء وظفار (اليمن). والمعرق منه كانت تتخذ منه الأواني لكبره وعظمه. وكان الملون والمخطط من الجزع اليماني محبوباً، فكانت تصنع منه الألواح والصفائح وقوائم السيوف ونصب السكاكين والمداهن. كما كانت قوائم السيوف تصنع من الشزب. وفي رواية للهمداني انه كان معروفاً في اليمن وانه لا مثيل له الا في الهند.

وقد نقل الهمداني أيضاً ان الفضة كانت معروفة في خربة سلوق. وأضاف ياقوت، الى رواية الهمداني، أن خربة سلوق ورغامة ونقم وغمدان كان فيها معدن الحديد. وكانت اليمن في مقدمة اقطار الجزيرة شهرة في الصناعات المعدنية. والسيوف اليمانية الصقيلة مشهورة. وكانت البلاد تستورد الحديد من الهند والحبشة لصنع سيوفها وجنابياتها، ودروعها الشهيرة.

اشتهر أقيال اليمن وأثرياؤها بمستوى للمعيشة رفيع. فقد نقل أغاثر سيدس عن السبئيين أنه كان لهم «في منازلهم ما يفوق التصديق من الآنية والأوعية على اختلاف اشكالها من الفضة والذهب. وعندهم الأسرة والموائد من الفضة، والرياش من افخر الانسجة وأغلاها. وصورهم قائمة على الأساطين المحلاة بالذهب أو المزينة بالفضة، وكانوا يعلقون على أفاريز منازلهم وابوابها صحائف الذهب مرصعة بالجوهر، ويبذلون في تزيين قصورهم أموالاً طائلة لكثرة ما يدخلون في زينتها من الذهب والفضة والعاج والحجارة الكريمة وغيرها من المواد الثمينة». وقد يكون في هذا الذي رواه الكاتب اليوناني الكثير من المبالغة، لكن يظل مع ذلك ان القوم كانوا يتمتعون بعيش مرهف.

وما دمنا قد ذكرنا الستائر اليمانية، فلنضف الى ذلك البرود اليمانية. فقد اشتهرت اليمن بالأنسجة، بحيث يمكن القول بأن النسيج كان أبرز الحرف فيها. وكانت برود اليمن محط انظار المهتمين بالزي الأنيق. واخبار هذه البرود كثيرة وطويلة، وهي موجودة في كتب الأدب والتاريخ. ومما رُوي ان النبي ﷺ كسا الكعبة الثياب اليمانية. ومناديل اليمن كانت تشبه بنَوْر الربيع. أما البرود نفسها فقد بيعت (في القصور

الاسلامية الأولى) بمئة درهم. الا انه يروى ان يزيد الثالث الأموي (حكم ٧٤٤) كان عنده بردتان يمانيتان ثمنهما بنحو ألف دينار.

أما المادة التي كانت البرود تصنع منها فهي القطن والصوف (وهما من منتوجات البلاد) والحرير الذي كان يستورد من الخارج. ولعل من ألطف ما روي عن معاذ ان النساء «إذا لبسن ريط الشام (أي الملاءة ذات القطعة الواحدة) وعصب اليمن اتّعَبْن الغني وكلفن الفقير ما لا يجد». وكان مما صالح الرسول ﷺ اهل نجران عليه الف جلّة.

على انه من الراجح ان الانتاج الصناعي، في غالبيته، لم يكن كافياً للتصدير، بل كان يكاد ان يكفي الحاجات المحلية. وما روي عن سيوف وبرود وعصب وغيرها انه وصل الى مناطق اخرى، حتى الى الحجاز، انما كان قليلاً، أو هو من نوع ما يهدى أو يجمع ضريبة.

كانت اليمن موضع اهتمام أولي الأمر في المنطقة خلال حقبات متعددة في التاريخ. وإذا نحن طرحنا القصة والرواية القديمة جانباً، فإننا واجدون ان أغسطوس قيصر (٢٧ ق.م. ـ ١٤م) أراد ان يضم اليمن الى الامبراطورية الرومانية كي يسيطر على مراكز التجارة وطرقها (البرية خاصة). فأرسل حملة (سنة ٢٤ ق.م) لاحتلال البلاد، ولكن الحملة، مع انها وصلت أطراف اليمن، فشلت في احتلال ماريبا (مأرب).

ويبدو ان بعض ما كان لسبأ من قبل عاد إليها في أواخر القرن الثالث الميلادي لما حكمها شمّر صاحب سبأ وذو ريدان، فوسع المملكة شرقاً بحيث ضم حضرموت واليمامة (؟) الى ملكه. لكن ذلك كان برقا خلباً. أما القرون الثلاثة السابقة للاسلام فأخبارها مضطربة. ويمكن القول بان أهم ما حدث في تلك الأزمنة يجمل فيما يلي: (١) انتشار المسيحية في بعض أرجاء اليمن، وكانت نجران اكبر مراكزها. والذي اتفق عليه الباحثون هو أن المسيحية التي وصلت تلك الاصقاع كانت النسطورية (التي جاءت عن طريق الحيرة). (٢) ان الاحباش احتلوا اليمن لفترة قصيرة في القرن الرابع للميلاد. (٣) وصلت اليهودية الى اليمن (في القرن الخامس؟). (٤) في القرن السادس للميلاد كان الساسانيون والبزنطيون يتزاحمون على احتلال اليمن. وقد جاء الاحباش المسيحيون (من مملكة اكسوم) لنصرة المسيحيين الذين اضطهدوا في نجران، فاحتلوا اليمن (حوالى ٥٢٥م). (٥) قام الحاكم الحبشي أبرهة بالمحاولة الأخيرة لاصلاح سدّ مأرب قبل أن يهمل نهائياً. وأبرهة هذا هو صاحب الحملة على مكة في عام الفيل. (٦) أخرج الساسانيون الاحباش من اليمن واحتلوها (٥٧٥)، وظلوا حكامها الى أن دخلت اليمن الاسلام، وأصبحت جزءاً من الدولة العربية الاسلامية الجديدة.

تحت راية الاسلام

دخل الاسلام اليمن في عهد الرسول ﷺ، ومنذ ذلك الحين أصبحت البلاد جزءاً من الكيان السياسي الكبير، فأصابها ما اصابه. ولما دب الضعف في الخلافة

العباسية ظهرت في اليمن دويلات مستقلة، وقد ساعد على ذلك تقسم اليمن الطبيعي الذي فصل اجزاءها الواحد عن الآخر، فظلت للقبائل كياناتها الاجتماعية التي أضافت إليها، مع مرور الزمن، خلافات مذهبية. فالامامة الزيدية، مثلا، قامت في شمال المنطقة الجبلية، فيما اتخذ الأشراف السليمانيون شمال تهامة مرتكزاً لسلطانهم. هذا بالاضافة الى دعوات تعتمد الاصل العرقي. ففي الهضبة كان العرق اليمني الأصلي (القحطاني اذا جازت التسمية) يتكتل ضد بني زياد الذين اعتمدوا على العنصر الفارسي أو ضد بني نجاح الذين كان يساندهم الاحباش. وقد ظهرت دول مختلفة في اليمن يمكن اجمالها فيما يلي:

(١) دولة بني زياد (٨١٨ ـ ١٠١٩م) وقد استقر حكمها اخيراً في صنعاء. لكن الضعف دب في دولتهم فثار عليهم عمالهم، ثم انتزع الزيديون سلطانهم.

(٢) الامامة الزيدية، ومؤسس دولتهم الامام الهادي (٨٩٣ ـ ٩١١م)، مع أن وجودهم في اليمن سبق ذلك بنحو ثلاثين سنة. وقد كانت صُعدة، مركزهم او عاصمتهم. والمذهب الزيدي مذهب شيعي لكنه أقرب الفرق الشيعية إلى السنة. وقد توسع الزيديون في اجزاء اليمن، لكنهم لم يستطيعوا ان يستولوا على البلاد جمعاء في وقت واحد. على ان الامامة الزيدية ظل لها وجودها وكيانها في اليمن الى سنة ١٩٦٢، رغم جميع ما اصابها من احتلال عثماني للبلاد.

(٣) الدولة الصليحية (١٠٤٧ ـ ١١٣٨م). شغلت هذه الدولة بالحروب والفتن والثورات (مثل حروبهم مع القرامطة ٩٠٥ ـ ٩١٥). وقد أعلنت هذه الدولة ولاءها للخلافة الفاطمية (أيام المستنصر بالله ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤). وكان من آثار قيام هذه الدولة تثبيت المذهب الاسماعيلي. كما أنها حاولت توحيد اليمن، ولانها كانت موالية للفاطميين، فقد انتقل ولاء اليمن معها من العباسيين (بغداد) الى الفاطميين (القاهرة) وقد تم ما أراده الصليحيون من وحدة البحر الأحمر السياسية على يد الدولة الأيوبية.

(٤) الدولة الايوبية (١١٧٤ ـ ١٢٢٩). ارسل صلاح الدين اخاه توران شاه فاقام للأيوبين دولة استولت على أكثر اليمن.

(٥) الدولة الرسولية (١٢٢٩ ـ ١٤٥٤) التي قامت على انقاض الدولة الأيوبية، وسارت على نهجها. «وقد نجحت في فترات قوتها في توحيد أغلب اقاليم اليمن تحت سيطرتها»... وكان لهذه الدولة علاقات تجارية واسعة مع البلدان المختلفة حتى الصين شرقاً.

(٦) الدولة الطاهرية (١٤٥٤ ـ ١٥١٧) وهي، مثل الأيوبيين والرسوليين، دولة سنية، وهي آخر هذه الدول. وقد بدأت الدولة الطاهرية في لحج وعدن، لكنها حاولت توحيد اليمن. ومع ذلك فقد ظل اليمن مقسماً بين الأئمة الزيديين في المنطقة الجبلية الشمالية والطاهريين حتى أيام عامر بن عبد الوهاب (١٤٨٩ ـ ١٥١٧) الذي

نجح، الى حد كبير، في جمع البلاد تحت سلطانه. وفي أيامه كانت عدن من أكثر بلدان العالم تجارة (يظهر المقال عن جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية لاحقاً).

في مطلع القرن السادس عشر دخل البرتغاليون العالم العربي الاسلامي من الباب الخلفي، فتغير بذلك الميزان السياسي والتجاري.

كان التغير في الميزان التجاري واضحاً في سيطرة البرتغاليين سيطرة تكاد تكون تامة على تجارة التوابل والأبازير والأفاوية والطيوب من الهند وما وراءها، بحيث اصبحت تنقل الى أوروبا رأساً عن طريق رأس الرجاء الصالح. ولتوضيح هذه الناحية ننقل عن صاحب كتاب البحر الأحمر (أ. كامرير) ما رواه من "أن سفن البندقية كانت لا تجد لديها المال الكافي لشراء التوابل المكدسة في سنة ١٤٩٨ (وهي السنة التي بدأ فاسكو دي غاما فيها رحلته الى الهند). وبعد ذلك بوقت قصير، أي سنة ١٥٠٢، لم تجد سفن البندقية في الاسكندرية ما تحمله من التوابل». والذي نريد ان نقوله هو ان تجارة اليمن (والجنوب العربي) والبحر الأحمر (ومصر خاصة) تأثرت كثيراً بهذا الاحتكار البرتغالي الجديد (وكان تأثير البرتغال السلبي على تجارة الخليج العربي أشدّ حتى من تأثيره على البحر الاحمر، لأن البرتغاليين استولوا على موانىء الخليج العربي وخليج عمان).

واما الميزان السياسي فقد تبدل ايضاً لأن البرتغاليين الذين اتخذوا من غوا (الهند) قاعدة سياسية عسكرية بحرية لأعمالهم الحربية فاستولوا على مدن خليج عمان والخليج العربي، ولكنهم فشلوا في الاستيلاء على مداخل البحر الاحمر. وقد حاول السلطان الغوري (١٥٠١ ـ ١٥١٧) ان يقف في وجههم (حتى في المحيط الهندي)، ولكنه فشل في درء خطرهم التجاري في المحيط. وكان السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري (١٤٨٩ ـ ١٥١٧) مشغولاً في حروبه الداخلية في اليمن فلم يتنبه الى الخطر البرتغالي الا في سنة ١٥٠٧، فأعدّ حملة بحرية يمنية يبدو أنها «كانت فريسة سهلة للبرتغاليين». ولم يستطع الدفاع عن سواحله امام الهجوم البرتغالي (والفصل التالي هو عن جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية).

وفي غمرة هذه الأحداث هاجم الجيش العثماني بقيادة سليم الأول المماليك وانتصر عليهم وقضى على دولتهم (١٥١٧). ووقع عبء مقارعة البرتغاليين على عاتق الدولة العثمانية. على أنه يجب أن نذكر أيضاً أن دولة الطاهريين اليمنية انتهى أمرها أيضاً سنة ١٥١٧، بمقتل السلطان عامر بن عبد الوهاب على أيدي المماليك الذين كان آخر عمل حربي توسعي قاموا به احتلال اليمن سنة (١٥١٧).

في رحاب الدولة العثمانية

لما قضى السلطان سليم الأول على دولة المماليك سنة ١٥١٧ رأى الأمير اسكندر المملوكي أن ينضم الى الحكم الجديد. لذلك أعلن في صنعاء خضوعه للسلطان العثماني. ثم دارت معارك بحرية ضد البرتغاليين، كما دارت معارك برية

لتثبيت الحكم العثماني في اليمن بين العثمانيين والسلطات المحلية وأقواها الامامة الزيدية. ويمكن القول اجمالاً بأنه خلال الفترة الممتدة بين ١٥١٧ و١٥٣٨ كانت للعثمانيين سلطة على منطقة السواحل الواقعة على البحر الأحمر، ومركزها زبيد (وقد استولى العثمانيون على عدن والشحر)؛ فيما ظلت جهات اليمن الداخلية تحت حكم الأئمة الزيديين.

كان السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) حريصاً على ضم اليمن الى السلطنة، وذلك لأهمية البلاد الاستراتيجية والتجارية، فارسل سنة ١٥٣٨ حملة لتقوية الجند العثماني الباقي في اليمن. وتم للعثمانيين في سنة ١٥٥٥ الاستيلاء على البلاد، ساحلاً وجبلاً، وذلك نتيجة للأعمال العسكرية التي قام بها الوالي ازدمر باشا (١٥٤٩ ـ ١٥٥٥). الا أن هذه السلطة تدهورت بين سنتي ١٥٥٦ و١٥٦٨. وذلك بسبب الحروب التي شنها الزيديون وغيرهم على العثمانيين وتراخي الادارة العثمانية المركزية، وخاصة بعد وفاة سليمان القانوني، فانحسرت السلطة العثمانية الى سواحل البحر الأحمر. ومن ثم فقد كان من الضروري العودة الى فتح اليمن ثانية (١٥٦٩ ـ ١٥٧١). وقد توطدت السلطة العثمانية في البلاد (١٥٧١ ـ ١٥٩٧). هذا مع أن الحروب لم تهدأ ثائرتها هناك. وفي سنة ١٥٩٧ ثار الامام القاسم (١٥٩٢ ـ ١٦٢٠) على العثمانيين، واستمر القتال بين الفريقين الى أن انتهى بخروج العثمانيين من اليمن (١٦٣٥) وعودة الامامة الزيدية الى السيطرة على البلاد.

ولعله من المناسب أن نضع هنا بضعة أمور تتعلق باليمن في الفترة العثمانية (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) لتوضيح الدور الذي قامت به الدولة العثمانية هناك. وأول هذ الأمور هو هذه الحروب المستمرة، والصعوبة التي كانت الجيوش الخارجية تواجهها في جبال اليمن الوعرة وشعابها، وشدة بلاء القبائل والحكومات «المحلية» في مقاومة العثمانيين. وثاني هذه الأمور هو أن السيطرة العثمانية لم تستقر، ولذلك فقد كانت العاصمة تنتقل بين صنعاء وزبيد وتعز. وثالث ما يجب أن يذكر هو أن الامامة الزيدية ظلت لها جذور قوية في البلاد، رغم ما كانت تصاب به من انكسار امام العثمانيين أو غيرهم. ولذلك تمكنت، في نهاية المطاف، من العودة الى اخراج العثمانيين (١٦٣٥) والاستيلاء على اليمن، ولو الى فترة محدودة.

على أن العثمانيين تركوا في اليمن آثاراً عمرانية حرية بالذكر. فقد بنوا الكثير من المساجد الجميلة في صنعاء وتعز ومهدوا بعض طرق القوافل، وأقاموا المحطات للمسافرين والتجار. واهتم العثمانيون بالمحمل اليمني. وبذلك حافظ الولاة العثمانيون على تقليد اجتماعي ديني قديم هام. والى العثمانيين يعود ادخال الأسلحة النارية الى اليمن. الا انه من الصعب «أن نجد آثاراً ثقافية واضحة للعثمانيين هناك». وكان هذا بسبب طبيعة الأوضاع الثقافية العثمانية في الامبراطورية [1].

تلا خروج العثمانيين مدة (الى سنة ١٨١٨) كانت اليمن فيها مستقلة. الا أن الحروب الداخلية ظلت مستمرة. وفي تلك السنة احتلتها قوى محمد علي باشا، التي ظلت هناك الى سنة ١٨٤٠. وفي سنة ١٨٤٩ تقلص الحكم العثماني الذي كان قد عاد إلى اليمن بعد طرده عام ١٦٣٥، بحيث أصبح يقوم حول الحديدة. وقد تمكن الاتراك من احتلال اليمن سنة ١٨٧٢ وظلت البلاد تعترف بسلطانهم حتى اتفاقية مودرس (١٩١٨) بين الدولة العثمانية والحلفاء. الا أن الثورة على الاتراك بدأت على أيدي الزيديين سنة ١٨٩٢، وفي سنة ١٩١١ عقد الامام يحيى حميد الدين (١٩٠٤ ـ ١٩٤٨) اتفاق «دعان» مع الدولة العثمانية وذلك بعد أن شنّ عليها حرباً ضروساً. ويمكن القول ان استقلال اليمن قد بدأ في تلك السنة.

في القرن العشرين

حكم الامام يحيى حميد الدين من ١٩٠٤ الى ١٩٤٨. وكانت اليمن في عهده تعيش في عزلة عن العالم، فكانت محجبة في حجاب كثيف. فهو محافظ، على خير ما يمكن أن يوصف به، ورجعي في واقع الأمر كما انه كان يحكم البلاد بقبضة حديدية. ولم يعن بأي من النواحي الاجتماعية أو الصحية او التربوية او الاقتصادية لا تطويراً ولا انماء. وكان همه منصرفاً الى الافادة من الخلافات القبلية لتدعيم سلطانه. الا ان الامام يحيى، الذي كان ذكياً جداً، كان حريصاً على تقوية مركزه ـ لا مركز بلاده بالذات ـ في العالم الخارجي، فعقد معاهدة مع العراق (١٩٣٠) وهي اول معاهدة عقدها مع دولة عربية. وهي معاهدة غريبة اذ تتكون من مواد ثلاث فقط، والغاية منها اعتراف العراق باليمن (اي بالامام) والتأكيد على سيادة السلم الدائم والصداقة الوطيدة بين البلدين. وفي سنة ١٩٣٤ عقد الامام معاهدة «الطائف» مع المملكة العربية السعودية، اثر قيام حرب بينهما، بعد ان شجع الامام حاكم عسير أن يثور على المملكة العربية السعودية، انتهت بزوال عسير كوحدة سياسية. وكانت معاهدة مفصلة تتعلق بالحدود الشمالية لليمن والقبائل والعلاقات الدبلوماسية بين البلدين. أما بالنسبة الى العالم الخارجي فثمة المعاهدة التي عقدها مع اثيوبيا (١٩٣٥) وهي معاهدة جوار قبل كل شيء. اما المعاهدات التي عقدها مع الدول الأجنبية فقد كان هدفها الاعتراف باستقلال اليمن ومن ثم بوجوده هو وتنظيم العلاقات التجارية بين بلاده والبلاد الأخرى. فقد تمت معاهدات بينه وبين ايطاليا (١٩٢٦) والاتحاد السوفياتي (١٩٢٨) وهولندا (١٩٣٢) وبريطانيا (١٩٣٤) وفرنسا (١٩٣٦) وبلجيكا (١٩٣٦). ومن هاته المعاهدات اثنتان تستحقان اهتماماً خاصاً. فالمعاهدة مع الاتحاد السوفياتي كانت اول معاهدة تعقد بين دولة عربية وروسيا. كما ان المعاهدة مع بريطانيا كان المقصود منها وضع حد للخلاف المستمر بين الامام يحيى وتلك الدولة حول رغبة الامام في استعادة عدن، التي كانت محمية بريطانية.

تضايق الكثيرون في اليمن من حكم الامام وطبيعة السلطة وعزلة البلاد عن الخارج، فقامت ثورة (١٩٤٨) انتهت بقتله، فتولى الأمر مكانه ابنه الامام احمد (١٩٤٨ ـ ١٩٦٢). ويمكن الاشارة الى ان الامام احمد عاد الى المطالبة باليمن الجنوبي، وقد دارت بينه وبين بريطانية مفاوضات (١٩٥٥ ـ ١٩٥٨) رافقتها مناوشات حدودية، لكنها لم تنته الى نتيجة. ولما تم اتحاد مصر وسوريا في الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨) عقبه اتحاد بين هذه واليمن في السنة ذاتها وهو «الدول العربية المتحدة». ولعل الامام احمد كان يأمل في الحصول على العون من جمال عبد الناصر في مقارعته للبريطانيين. الا أن هذا الاتحاد حل في اواخر سنة ١٩٦١، اثر الانفصال الذي وقع بين قطري الجمهورية العربية المتحدة (خريف ١٩٦١).

ولم تخل ايام الامام احمد من محاولات للقضاء على حكمه. والمحاولة التي قامت في سنة ١٩٦١ لم تقض عليه، لكنه توفي في السنة التالية، ولعله كان متأثراً بالجراح التي أصابته. وخلفه الامام البدر، الذي قامت ضده ثورة ١٩٦٢، واعلان الجمهورية العربية اليمنية (١٩٦٢/٩/٢٦). على أن الأمر لم ينته عند ذلك. فقد شهدت البلاد حرباً اهلية امتدت سبع سنوات (١٩٦٢ ـ ١٩٦٩) كانت فيها مصر تؤيّد الجمهوريين فيما كان الملكيون يحظون بتأييد المملكة العربية السعودية. وكان الأولون يسيطرون على الجزء الأكبر من اليمن، فيما كان الملكيون يتحكمون في جزء اصغر في المرتفعات الشمالية. وقد أرسلت مصر جيشاً كان عدده نحو اربعين الفاً في الفترة الأولى ثم زاد العدد بحيث وصل الى نحو ستين الفاً (وثمة رواية تقول بأن العدد كان ثمانين ألفاً). وأخيراً تم الاتفاق بين مصر والمملكة العربية السعودية على وقف هذا النزيف، وكان لحرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ اثر في ذلك. وانتهى الأمر بانسحاب قوات كل من البلدين من اليمن، واستقر الامر للجمهورية. وفي سنة ١٩٧٠ عقد اتفاق بين الجمهورية اليمنية والمملكة السعودية، وبذلك وضع حد نهائي للمشكلة.

عرفت الجمهورية انقلابات وخلافات داخلية متعددة، ومع ذلك فقد عقدت معاهدة مع المانيا الاتحادية (١٩٦٩) افادت منها اقتصادياً. ووضعت الجمهورية دستوراً (١٩٧٠) واجريت اول انتخابات في البلاد سنة ١٩٧١. وقد تم هذا بالرغم مما اعتور تاريخ الجمهورية من اضطرابات. ورافق ذلك تطورات ادارية مفيدة. وقد كانت ثمة محاولات لتوحيد شطري اليمن (ولا يزال الامر يبحث إلى الآن) لكنها باءت جميعها بالفشل. وعلى العكس من ذلك فان الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، تكثر بينهما المشاحنات والمناوشات وتأييد الخلافات القبلية.

الحياة الاقتصادية

الزراعـة: بالـرغم من التطور الذي عـرفتـه البـلاد في السنوات الأخـيـرة. فـان الجمهورية العربية اليمنية لا تزال بلداً فقيراً جداً. فقد قدر معدل دخل الفرد سنة ١٩٧٧ بمئتين وخمسين دولاراً في العام. وتسيطر الزراعة على الاقتصاد اليمني اذ انها تزود البلاد بنصف دخلها الوطني، وتستخدم ٧٣٪ من الأيدي العاملة. ويتكون نحو ٨٠٪ من الصادرات اليمنية (الشمالية) من المنتوجات الزراعية.

وفي اليمن مناطق هي من اخصب أراضي الجزيرة العربية، وذلك في المرتفعات، حـيث كـانت الزراعـة العـمل الرئيس للسكان منذ أقـدم الأزمنة، وفي سـهل تهـامـة الساحلي. وقدرت مساحة الأراضي المزروعة (١٩٧٧) بمليون ونصف مليون هكتار، اي ما يبلغ ٨٪ من مساحة البلاد. ومن هذه الأراضي المستغلة يعتمد اكثرها (٨٥٪) على مـيـاه الأمطار. واشهـر الغـلاّت الزراعيـة في البـلاد هو البن، الذي تنمـو أشجـاره في التـلال التي تقع غـربي تهـامـة، مع ان الشجـرة تنمـو في اماكن كـثـيـرة، وعلى درجـات متفاوتة. وقد كان البن اكبـر محصـول يمكّن اليمن من الحصـول على النقد الاجنبي. لكن تقلقل الأسـواق العـالمـيـة من جـهـة، ولأن الزراعـيين في البـلاد اكـثروا من زراعـة القات، فقد تناقصت المساحات المزروعة بشجرة البن. ولما أعلنت الحكومة (١٩٧٢) تحديد المساحات التي يمكن ان تزرع بالقات (ومنع خاصة في امـلاك الدولة واراضي الأوقاف)، فقد كان ثمة اتجاه الى زيادة المسـاحـات المزروعـة قطناً، وهـو المحصـول الذي اخذ مكان البن بوصفه مصدراً للعملات الخارجية.

والذرة (من نوع السـرغم) هي محـصـول الحـبـوب الرئيسي في البـلاد، وتـزرع حتى ارتفاع ١٧٥٠ متراً تقريبا. ومعدل انتاجها السنوي نحو مليون طن (وقد يـزيد فجـأة كما حـدث في مـوسـم ٧٥/١٩٧٤ اذ بلغ ١,٥٧ مليـون ونصف مليـون طن). ويلي الذرة القـمح والشعـير والذرة الصفـراء. ومع ان المسـاحـات المخـصصـة للحـبوب كبـيـرة، فـان الانتاج ضعيف، ولـذلك فان اليمن تعتمد على الاستيراد لسدّ حاجات السكان من الحبوب. (وقد يصيب البـلاد جـفـاف كالذي حـدث في سنوات ١٩٦٨ الى ١٩٧٠، فينقص انتاج الحـبـوب نقصاً كبـيـراً، وعندها تضطر الحكومـة الى استـيـراد كميات اكبـر من الحـبـوب). وتعنى الحكومة بتحسين زراعة الذرة الصفراء والقمح والشعير لسد النقص في الأحوال العادية.

وتزرع في المـرتفعـات الفواكه والخضـار: الأثمـار الحـمضـيـة والمـشمش والدراق والكرم والبندورة والبطاطا، هي منتوجات رئيسيـة. وتعمل وزارة الزراعة جاهدة لادخال محاصيل جديدة كالقرنبيط (الزهرة) والخس واللوبيا والخيار والبطيخ. وتحاول الدولة الحـصـول على عـون مـالـي من دولة الامـارات العـربيـة المتـحـدة والبنك الدولي لتطوير الزراعة وتنميتها في المـرتفعـات الوسطى، بمـا في ذلك العنـاية بالمـواشي (في اليمن نحو ١١,٠٠٠,٠٠٠ من الاغنام والماعز لكن الحيوانات الاخرى عددها قليل).

تنمو في سهل تهامة الحار اشجار النخيل ويزرع فيه التبغ والقطن، أملاً في أن ينشأ عن هذين الأخيرين صناعات محلية. (كانت زبيد في تهامة في أوائل العهود الاسلامية تنتج المنسوجات القطنية الجيدة بسبب نمو القطن هناك). والقطن الخام يدر على خزينة الدولة، كواحد من الصادرات الهامة. (بلغ ذلك ٢٨,٢ مليون ريال في موسم ١٩٧٤/١٩٧٥ ـ والريال يساوي ٢٢ سنتاً اميركياً اي ان الدولار يساوي ٤,٥٦ ريالاً).

وفي رأس المهمات الحكومية للمشاريع الزراعية تأمين شبكات لخزن الماء في المرتفعات والاستفادة من المياه الجوفية في تهامة. وهذا يقتضي اقامة نظام محكم للري. ومن هذه المشاريع واحد في تهامة لارواء ٦٠,٠٠٠ هكتار في مناطق زبيد والمور. وهذا المشروع (١٧,٥٠٠ مليون دولار) يتلقى العون المالي من الامم المتحدة والصندوق الكويتي. وثمة مشروع لزراعة قصب السكر (الامم المتحدة). وتتلقى اليمن عوناً مالياً لمشاريعها الزراعية من الصين وهولاندا واليابان والدول العربية. وبعض المشاريع، التي تمولها الدول الاوروبية، هي مشاريع استثمارية آنياً ولكنها في النهاية طويلة الأمد.

الصناعة: تقدر حصة الصناعة بالنسبة للانتاج الوطني بنحو ٥٪ فقط، ويعمل في الصناعة نحو ٤٪ من الأيدي العاملة. والصناعات القائمة وتلك التي يخطط لتنميتها هي امتداد للصناعات التقليدية في البلاد مثل صناعة المنسوجات والجلود والقش والحلي والزجاج، والتي تزودها البلاد نفسها بحاجتها من المواد الخام. اما المخطط الحكومي فهو قيام صناعات تؤدي باليمن الى الاكتفاء الذاتي في تصنيع الاغذية والثياب والبناء. فهناك الآن مشاريع لتنمية هذه الصناعات وتطويرها مثل مصنع صنعاء للحلج والحياكة ومصنع باجل ومصانع لحلج القطن وتجميع بزره (للزيوت) في زبيد والحديدة. وهذه المشاريع تنال دعماً مالياً وفنياً من الأمم المتحدة والصين وهولاندا وسواها.

وثمة مصنع لاستخراج الملح في صليف. وفي اليمن ما لا يقل عن ٢٥ مليون طن من احتياطي الملح. وكان الملح يباع أكثره لليابان الى سنة ١٩٧٥، اما منذ سنة ١٩٧٦ فاصبحت دول الاتحاد السوفياتي المستورد الرئيسي للملح اليمني. وقد وضع مشروع لتوسيع انتاج الملح (١٩٧٥ ـ ١٩٧٧)، في حين اتسعت اسواق الملح اليمني بحيث اصبح يصدر الى كوريا الشمالية وبنغلادش. وبالاضافة الى منجم الملح في صليف (المستقل الآن) توجد مناجم للملح في مأرب وفي قُمح.

على أن اليمن فيها معادن اخرى معروفة اماكن وجودها واهمها: الفحم الحجري والنحاس (على مقربة من تعز) والحديد الخام والكبريت والرصاص والقصدير والفضة والذهب والأورانيوم. ولكن استغلال هذه المعادن لم تتبلور مشاريعه بعد. ولدى الحكومة مخطط للاستفادة من الرخام.

واليمن تعتمد على حاجاتها من المحروقات على الاستيراد. هذا مع العلم انه يظن ان تهامة قد يكون فيها نفط.

ومن الصناعات الأخرى الموجودة في اليمن صناعة المرطبات والتبغ (الحديدة) وتعبئة الاوكسجين وصنع الواح الألمنيوم والبلاستيك (هذه على مقربة من تعز) وتعبئة عصير الفواكه (الحديدة). والسمك كثير في الشواطىء (نحو ٢٠,٠٠٠ طن سنوياً) لكن لم تقم له صناعة بعد.

الا أن الملحوظ هو ان عملية التصنيع بطيئة في سيرها، وهذا امر طبيعي إذ ان أكثر الصناعات حديثة إما أصلاً أو وساطة (أي نقل الصناعة التقليدية من اليد الى الآلة).

المواصلات: يعود اتصال اليمن بالعالم الخارجي اتصالاً منتظماً الى السنوات التي عقبت الثورة (١٩٦٢)، كما ان بناء الطرق الجيدة يعود تقريباً إلى الفترة ذاتها. وبناء الطرق يحتل المنزلة الأولى في خطط التنمية. وقد بنى المهندسون الصينيون طريق صنعاء ـ الحديدة (تم ذلك سنة ١٩٦٢) وهو عمل هندسي رائع. وهناك طرق جيدة أيضاً بين صنعاء وصَعْدة (٢٤٢ كم) وبين صنعاء وتعز وبين مخا وتعز وبين صنعاء واب وتعز (هذه الأخيرة بناها الأميركيون). ويموّل البنك الدولي طريق تعز ـ طربا. وقد أعانت دولة الامارات العربية والمملكة العربية السعودية (ولا تزالا) بناء طرق أخرى في اليمن. ويمكن القول اجمالاً بأن التنقل بين المدن الكبرى في البلاد أصبح متيسراً.

توجد في اليمن ثلاثة موانىء هي الحديدة ومُخا وصليف، وأكبرها وأهمها الحديدة ومرفأها، أتمه الاتحاد السوفياتي في سنة ١٩٦٢. فقد عُمّق بعد ذلك، والآن يوسع بمساعدة عراقية. وميناء مخا في سبيل التوسيع أيضاً. وثمة نية في الاهتمام بمرفأ صليف، بحيث يصبح الميناء الأول للبلاد.

أما المطارات فتوجد في صنعاء والحديدة وتعز، بالاضافة الى مطارات صغيرة أخرى. وتنال اليمن عوناً مالياً وفنياً من دول عربية وأخرى أجنبية لهذه المشاريع. فالمملكة العربية السعودية والعراق يقدمان العون المالي. وقد قدمت المانيا الغربية والاتحاد السوفياتي عوناً فنياً لمطار صنعاء مثلاً.

وهناك عناية كبرى في دوائر الحكومة لتطوير، توسيعاً وتنمية وفنياً، شبكة المواصلات السلكية واللاسلكية.

التجارة: ان ميزان المدفوعات في اليمن يتجه ضد واردات البلاد، فقد كان ٥٤٠ مليون ريال (١٩٧٣ فارتفع الى ١,٦٦٦ مليون ريال (١٩٧٦) وبلغ ٦,٠٠٠ مليون (١٩٧٨) بسبب ما اقترضته البلاد في سبيل مشاريعها التنموية.

وتصدر اليمن القطن الخام والبن والملح والجلود والمصنوعات اليدوية التقليدية.

والواردات الرئيسية هي المواد الغذائية ويلي ذلك الآلات والادوات والمصنوعات والمواد الكيمياوية.

كانت اليمن تستورد اكثر ما تحتاجه من استراليا (المواد الغذائية) والاتحاد السوفياتي. لكن التركيبة تبدلت منذ العام ١٩٧٢ وحتى العام ١٩٧٣ بسبب اشتداد الحاجة الى الآلات والسيارات. فأصبحت اليابان في مقدمة الدول المصدرة لليمن (في سنة ١٩٧٦ استوردت اليمن من اليابان ما قيمته ١٤٪ من وارداتها). ومن الدول المصدرة الى اليمن: المملكة العربية السعودية والهند والصين واوستراليا. وثمة ازدياد في استيراد المصنوعات والآلات من الدول الشرقية.

اما البلاد التي تصدر اليمن إليها منتوجاتها، فأهمها المملكة العربية السعودية وجيبوتي وايطاليا. وقد صدَّرت اليمن الى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (١٩٧٨) بما قيمته عشرون مليون ريال، وهو أكبر مبلغ حصلت عليه الجمهورية العربية اليمنية من صادراتها.

مشاريع التنمية: في مشروع التنمية الثلاثي (١٩٧٣/٧٤ ـ ٧٥/٧٦) وجهت الحكومة همّها الى تنمية الموارد المائية من حيث بعض مشاريع الري، ولكن أهم من ذلك تزويد المدن الكبيرة مثل صفاء وتعز بماء الشفة، وبمجارٍ للتخلص من الفضلات المائية.

أما الخطة الخماسية (٧٧ ـ ١٩٨١) فالحصة الاكبر من المخصصات اعطيت للمواصلات، وكانت حصة التصنيع هي الثانية. وقد قدرت موازنة هذه الخطة بنحو ٣,٦٥٠ مليون دولار. وتعهدت السعودية والكويت بتزويد الخطة بنحو نصف المبلغ. أما الباقي فقد كان قروضاً من المؤسسات المالية الدولية كالبنك الدولي.

المجتمع اليمني: يقدر عدد سكان اليمن بخمسة الى ستة ملايين نسمة وارتفع إلى عشرة ملايين في مطلع التسعينات، ويمكن اعتبار المجتمع اليمني مكوناً من مجموعتين من السكان: سكان السهول الساحلية (تهامة) وسكان الجبال. فسكان تهامة يتكتلون عادة في مجموعات صغيرة تقيم الواحدة منها في قرية، هذا باستثناء سكان الموانىء مثل مخا والحديدة وصليف. والاهالي سمر الوجوه وذلك لاختلاط السكان الاصليين بالصوماليين والاحباش والزنج منذ الازمنة القديمة. وعمل اكثرية السكان هنا الرعي والصيد، ولو ان تجمع هؤلاء في الموانىء في العقود الأخيرة غيّر من تجمعاتهم السكنية. كما ان المشاريع الجديدة ـ الزراعية والصناعية ـ التي أخذت الحكومة بتنفيذها في العقدين الأخيرين لا بد وأن تغيّر الكثير من أوضاع السكان الاجتماعية.

يغلب على سكان المناطق الجبلية الطابع العربي، وهم أشد حيوية واكثر نشاطاً من سكان الساحل. ووحدة المجتمع اليمني هي القبيلة. فجغرافية اليمن الطبيعية ـ

من الجبال المرتفعة والاودية العميقة والهضاب المنعزلة ـ مكّنت للقبيلة من ان يزداد ترابط افرادها وتقوى العصبية فيهم ـ وهم يعتقدون بأنهم اخوة في الدم. ويتبع ذلك نفرة القبيلة من القبائل الأخرى وانغلاقها على ذاتها، والحرص الشديد على الدفاع عن كيانها. وبسبب هذا التركيب القبلي في البلاد عرفت اليمن، في تاريخها المكتوب، تعدد الولايات والامارات والسلطنات والممالك. كما انه لم يكن من اليسير قط توحيد البلاد إلا إذا ملكها رجل قوي الشخصية شديد البطش. وعندها يكون ثمن التوحيد خسارة كبيرة في الارواح والاموال.

واهل اليمن من المسلمين؛ وينقسمون أساساً الى شيعة من أتباع المذهب الزيدي (الزيود كما يسمون هناك) والى سنة من اتباع المذهب الشافعي (لذلك يسمون هناك الشوافع).

ولعلنا لا نعدو الصواب اذا قلنا ان التقسيم الأفقي لسكان اليمن، وخاصة سكان المرتفعات، هو التقسيم التقليدي الاجتماعي (التاريخي)، ولكنه لا معنى اقتصادياً له. ففي قمة السلّم نجد السادة والفقهاء والقضاة والنقباء والمشايخ والعقال. وهؤلاء هم علية القوم. ويأتي بعد ذلك ارباب الحرف والعوام والمزارعون. وقد يكون في كل جماعة أغنياء وفقراء، بقطع النظر عن منزلتهم في المجتمع.

ومثل هذا المجتمع قويت جذوره أيام حكم الامام يحيى، ولم يتغير كثيراً في أيام الامام أحمد، أي في الفترة الممتدة من ١٩٠٤ الى ١٩٦٢. ولما قامت الثورة سنة ١٩٦٢ لم تستطع ان تنصرف الى البناء الداخلي وذلك بسبب الحرب الأهلية (١٩٦٢ ـ ١٩٦٧) وما تلاها. ومن ثم فيمكن القول ان ادخال اصلاحات اجتماعية وتربوية هو عمل لا يتجاوز خمسة عشر عاماً. (وحتى هذه المدة الأخيرة كانت فيها انقلابات وخصومات عطلت العمل او على الأقل اضعفت اثاره).

وقد جاء اليمن من الخارج كثير من المساعدات. فالكويت والمملكة العربية السعودية ثم دولة الامارات العربية المتحدة، زودت اليمن بالمدارس والمستشفيات والمستوصفات، كما ارسلت دول عربية اخرى المدرسين الى اليمن للتعليم في مدارسها. وفي السنوات الأخيرة تقدمت قطر والعراق الى المساعدة في إنشاء المدارس وتنظيم الشؤون الصحية.

وظلت اليمن تعتمد النظام التقليدي في التعليم ـ الكتّاب والمدرسة الدينية في المسجد أو خارجه ـ وتقرأ الكتب القديمة، حتى نهاية حكم الامام أحمد تقريباً. ولكن منذ سنة ١٩٦٢ (مع تذكّر اثر الحرب الأهلية في اضعاف الجهد) اخذ الحال بالتغير. ففي سنة ١٩٧٠ قدرت نسبة الأولاد (بنين اصلا) الذين دخلوا المدارس بنحو ١٠٪ (هؤلاء كانوا بين سن ٦ وسن ١١) فارتفعت النسبة إلى ٢٥٪ في سنة ١٩٧٥. وكان في سنة ١٩٧٥ نسبة الأولاد بين سنة ١٢ وسن ١٧ الذين دخلوا المدارس الثانوية ٣٪ فقط.

وعندنا احصاء للسنة الدراسية ١٩٧٦/١٩٧٧ نجد فيه أن عدد التلاميذ في المدارس الابتدائية كان ٢٢١,٤٨٢ تلميذاً منهم ١٤٪ من التلميذات، وان المدارس الثانوية العامة كان فيها ٧,١٩٧ تلميذاً منهم ١٠٪ من البنات. اما المدارس الاعدادية فكان فيها ١٧,٦٧٦ تلميذاً منهم ١٤٪ من البنات. وهذه خطوة كبيرة لا من حيث التعليم فحسب، ولكن من حيث تعليم البنات. وكان في البلاد ٥٠٣ تلاميذ يداومون في المدارس التجارية والمهنية (الثانوية) وكانوا كلهم من البنين. لكن الذين كانوا يعدون للتعليم الابتدائي كان عددهم ١,١١٢ تلميذاً منهم نحو ٤٤٪ من الطالبات. وفي معاهد الاعداد للتعليم الثانوي كان ثمة ٥٣٨ تلميذاً منهم نحو ٣٣٪ من الطالبات. وجامعة صنعاء، وهي حديثة العهد، فقد كان فيها سنة ١٩٧٦/١٩٧٧ الدراسية ٢,٧٦٠ تلميذاً.

اليمن التي كانت لسنوات طوال ـ حتى في القرن العشرين ـ محجبة محتجبة عن العالم، انطلقت نحوه، تحاول ان تقطع الزمن الذي فاتها في أقصر وقت. لا زالت هناك معوقات: المجتمع القبلي والعجز المالي والخلافات الداخلية والتوتر على الحدود.

ولكن المهم ان الدولاب اخذ بالدوران، ولن يقف. فاليمن لن تعود الى الحجاب وهذه مطاراتها الثلاثة (صنعاء وتعز والحديدة) تصلها بالعالم الخارجي عن طريق الخطوط الجوية اليمنية والخطوط العربية والأجنبية. والراديو يبثُّ يومياً والتلفزيون ينقل الصور، والصحف اليومية (الجمهورية والثورة) والاسبوعية والشهرية (مثل البلاد ومأرب وصنعاء والسلام) تصل القارىء اليمني بالعالم الخارجي. والزوار كثر من الخارج. والرحالون اليمنيون الى الخارج كثيرون. هذا فضلاً عن أن من اليمنيين عدد يقرب من مليون ونصف المليون يعملون في الخارج (ويبعثون بوافر اجورهم الى أهلهم).

كل هذا يفتح العين والطريق للسير الى الأمام.

الهوامش

(١) عند وضع هذا الكتاب في مطلع الثمانينات، كان اليمن ما يزال مقسماً إلى جمهوريتين.
(٢) السيد مصطفى سالم، «الفتح العثماني في الأول لليمن ١٥٣٨ ـ ١٦٣٥» (الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٤)

١٧ ـ جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

تشغل جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية [١] نحو ٣٣٣,٠٠٠ كم٢ من البر، وتمتد بين خطي الطول ٤٣ و٥٦ شرقاً، من طرف الجزيرة العربية عند مدخل باب المندب غرباً، إلى حدود سلطنة عمان شرقاً. أما في الشمال فتتكون حدودها من قوس يمر جنوبي الجمهورية العربية اليمنية أولاً ثم يتجه شمالاً في شرق محاذياً للأجزاء الجنوبية من الربع الخالي. وتكون المملكة العربية السعودية جارة جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية شمالاً. أما حدها الجنوبي فالمسطّح المائي الذي يكّون جزؤه الغربي خليج عدن، فيما يكون ما تبقى منه جزءاً من بحر العرب. ويتبع الجمهورية عدد من الجزر هي قمران في البحر الأحمر على بعد ٣٢٠ كم من جزيرة بريم الواقعة عند مدخل باب المندب، وسوقطرى في خليج عدن، وجزر كوريا موريا التي تقابل ظُفار في عُمان. وقد أطلق على هذه الدولة اسم «جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية» في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠.

يتكون سطح البلاد من المنحدارت الجنوبية لهضبة الجزيرة العربية. وهي كتلة ضخمة من حجر الغرانيت التي تغطيها، في أماكن كثيرة، طبقات افقية من الصخور الرسوبية الأحدث عهداً. والهضبة بكاملها تنحدر نحو الشرق وترتفع في الغرب. ومن ثم فإن أعلى أجزائها يقع قرب البحر الأحمر، وترتفع إلى ما يزيد عن ثلاثة آلاف متر، فيما تكون اكثر اجزائها إنخفاضاً في الشرق، ولا يتجاوز إرتفاعها ٣٠٠ متر. وسواحل بلاد الجمهورية هي نتيجة خلوع جيولوجية متعددة، نشأ عنها سهل ساحلي منبسط، لكنه ضيق جداً. وهذا الساحل تحصره الجبال والمرتفعات التي ترتفع إرتفاعاً مفاجئاً نحو الداخل. وثمة عدد من الفُوهات البركانية الخامدة. وتقوم عدن في واحد منها.

لعلَّ الصفة الطوبوغرافية البارزة للبلاد هي وادي حضرموت، الذي يتجه في موازاة الساحل على بعد يتراوح بين ١٥٠ و٢٢٥ كم الى الداخل. وهذا الوادي مُتسع في أجزائه العليا والوسطى، وتملأ جوانبه الأمطار الموسمية. إلا ان مجراه يضيق في أجزائه الدُنيا، ثم يتجه جنوباً في شرق بشكل فجائي وينتهي بالبحر. أجزاء الوادي العليا تقطنها جماعات تشتغل في الزراعة حيث توجد التربة الرسوبية وتتوفر مياه الفيضانات التي ترويها. أما أجزاؤه الدنيا فهي، في غالبها، لا تصلح للسكنى، بسبب جفافها.

وبلاد الجمهورية قليلة الأمطار بوجه عام، ولو أنها أغزر في الغرب منها في الشرق. فعدن يسقط فيها نحو ١٢٥ ملم في العام، وجميعها تنزل في الشتاء (بين كانون الأول وآذار/ديسمبر ومارس) بينما تتمتع المنطقة الجبلية، التي تقع على بضع كيلومترات الى الشمال من عدن، بمعدل ٧٦٥ ملم في العام. وهي امطار صيفية. ويتناقص سقوط المطر تدريجاً كلما اتجهنا شرقاً، حتى يصل إلى ما بين ٣٧٥ و٥٠٠ ملم في مرتفعات ظُفار. أما في الشمال وأقصى الشمال الشرقي فالمطر لا يسقط أبداً. والحرارة مرتفعة على العموم، وخاصة في الساحل، حيث يكون معدلها في الشتاء نحو ٢٥ درجة (في شهر كانون الثاني / يناير) ويكون معدل حرارة الصيف ٣٢ درجة (في حزيران / يونيو) في عدن. ولكن درجة الحرارة العظمى قد تصل إلى ٣٨ درجة.

تكاد ارض الجمهورية تكون خالية من النباتات الطبيعية، باستثناء الأجزاء المرتفعة التي تنمو فيها أنجم شائكة (بما في ذلك الأشجار القزمة التي تكوّن عصارتها البخور ـ في لبناه ومرّه). وثمة أماكن محدودة تستغل زراعياً. وهذه تشغل مساحات صغيرة وتقوم على عدوات الأودية أو توجد في قيعان الأنهار في وادي حضرموت، أو حيث يمكن ري الأرض من الآبار والصهاريج. والمناطق الأكثر إنتاجاً زراعياً هي لحج القريبة من عدن، ومنطقتان قرب المكلا على نحو ٤٨٠ كم شرقي عدن، وأجزاء من حضرموت الوسطى. والطريقة المستعملة في الحصول على الماء للريّ هي جمع مياه الأمطار في صهاريج محفورة في الصخر، وهي طريقة قديمة العهد في البلاد.

صفحات من التاريخ

لسنا ندري تماماً متى بدأ الانسان يصنع التاريخ في بلاد الجمهورية اليمنية الديمقراطية الشعبية. ولعلّ بعض الموانىء كانت محطات للتجارة في القرون الخوالي. ولكن الذي نعرفه على نحو من التأكيد هو أن دولتين قامتا في تلك الجهات وهما ـ قَتْبان ودولة حضرموت. وكانت الأولى تقع الى الشرق من منطقة عدن وإلى الغرب من حضرموت. وكانت عاصمتها تُمْنَع (حجر كُحْلان اليوم). ويبدو أن هذه الدولة كانت معاصرة لدولتي معين وسبأ (راجع الجمهورية العربية اليمنية) إلا أنها اصبحت دولة قوية حوالى سنة ٤٠٠ ق.م. وقد بلغت ذروة مجدها في القرن الأول ق.م. ومعروف عنها انها صكت نقداً ذهبياً حوالى سنة ٥٠ ق.م. وقد انتهى أمرها في القرن الأول للميلاد. أما دولة حضرموت فقامت أولاً في الوادي المعروف بهذا الاسم، ثم اتسعت نحو الساحل في مَهَرَه وضمت ظُفار، وكانت عاصمتها شَبْوَة. وعمرت هذه الدولة من منتصف القرن الخامس الى القرن الأول للميلاد. ولعلها هي التي قضت على دولة قَتْبَان.

ومع أن دولة قَتبان شغلت رقعة واسعة فان مراكز الحياة الرئيسة فيها كانت تقوم في وادي بَيْحان ووادي حريب. وهذان الواديان يتجهان الى الشمال نحو الصحراء بدءاً

من الكتلة الجبلية المتمركزة في جنوب البلاد. ويبدو من كثرة آثار الري ومصانع المياه في تلك المناطق ان قَتْبَان كانت من المناطق الزراعية المتقدمة في تلك الجهات.

ان السفوح الشمالية للجبال الممتدة في جنوب جزيرة العرب تواجه الصحراء الواسعة الواقعة شماليها. ومناخها هو شبه صحراوي. إلا ان الرياح الموسمية تغذيها بأمطار غزيرة في فترتين: الأولى هي نيسان وأيار (ابريل ومايو) والثانية من تشرين الأول الى كانون الأول (اكتوبر إلى ديسمبر). وقد لا تسقط الأمطار سنوات متتالية، لكنها عندما تهطل تكون (في وادي بَيْحان مثلاً) فيضاناً خاطفاً، بحيث انها تملأ الوادي الذي يبلغ طوله نحو ٦٥ كم، كما أنها تملأ عروات الأودية المتصلة به. ومثل هذا المطر والفيضان هو المعروف بالسيل. ومن هنا كان الري المعتمد عليه في تلك الجهات هو «ري السيل». وهذا يختلف، بطبيعة الحال، عن الري النهري المصري مثلاً. وقد درست بعثة أمريكية أثرية قامت بأعمال الحفر هناك في سنتي ١٩٥٠ و١٩٥١ (نشرت تقريرها سنة ١٩٥٧)، وبذلك أصبحت لدينا صورة واضحة لما كان يحدث أيام كانت قتبان دولة عزيزة الجانب.

إن السيول التي كانت تتحدر من المرتفعات الى المناطق المنخفضة من الأودية كانت تحمل معها الطميّ أو الغِرِيَن الذي كان يستقر في المنخفضات ويرفع مستوى تلك الأماكن. وكان يترتب على ذلك ان الاودية الجانبية كان يصل فيها الماء الى نقاط أعلى بسبب ارتفاع مجرى السيل العام. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ان أعمال الريّ والزراعة توقفت في وادي بَيْحان قبل نحو ١٥٠٠ عام أو يزيد، أمكننا أن نتصور ما قامت به عوامل النحت والتعرية في ذلك الطمي من حيث حفر مجارٍ خاصة بالمياه المنحدرة دون ضابط قط.

وكان القوم يفيدون من الطمي في اقامة سد تتجمع المياه خلفه. ولم يقم السكان هناك ابنية حجرية إلا حيث كانت جوانب الأودية وعرواتها تتآكل بعوامل النحت والتعرية. ولكن القوم كانوا يبنون القني لتوزيع المياه. فقد كشفت البعثة الأثرية في وادي بيحان عن القناة التي بنيت في حجر بن حميد، والتي يبلغ طولها ١٢٠٠ من الأمتار. وقد أقيمت عليها أحواض (هواويس) لتوزيع المياه على الأرض الواقعة على جانبيها. وكانت القناة مبنية من حجارة ضخمة في أول الأمر، فلما اتقن القوم صناعة البناء اصبحت الحجارة اصغر حجماً والبناء أكثر اتقاناً. وقد أظهر التصوير الجوي ان الحقول التي كانت تفيد من الري من هذه القناة كانت منتظمة في أشكالها، ويغلب عليها الشكل المستطيل. وكانت محاورها المستطيلة تتعامد على اتجاه القناة أي مصدر الماء. وقد وجدت البعثة احد عشر موضعاً من مناطق الطمي في وادي بَيْحان.

كانت الحبوب تزرع في المناطق التي تروى بهذه الطريقة، لأنها تعطي مادة الغذاء الرئيسة. ويبدو أن شجر المر كان يزرع، أو يعنى به على الاقل، في وادي بيحان، في

الأرض التي لا تصلها المياه. ومع أن تُمْنع قد احترق اكثرها بسبب هجوم الحضارمة عليها، فقد ظل لقتبان اهتمامها بالزراعة في ظل الدولة الجديدة. ومن الملاحظ ان الزراعة والري في وادي بَيحان اخذا بالتأخر في القرن الميلادي الأول. ويعزو المؤرخون ذلك إلى ان التجارة التي كانت تمر بموانىء تلك الجهات نقصت بسبب انتقال مركز الثقل التجاري الى البحر الأحمر.

وما دمنا بسبيل التجارة فلنذكر ان مؤلف دليل البحر الأحمر (القرن الأول للميلاد) يذكر ثلاثة موانىء هامة في تلك الديار، هي موشا (خور ريري) في عُمان اليوم، وقنا (حصن الغراب) ويوديمون (عدن). ويحدثنا عن قنا أنها كانت من أكبر المراكز التجارية في جنوب الجزيرة وكانت تجارتها تشمل البضائع الهندية والمصرية والافريقية. وكانت وارداتها (اما لحاجة سكانها أو لاعادة التصدير) القمح والأرز والخمر والثياب والنحاس والقصدير. وكانت تصدر اللبان والمر، إذ كانا يُحملان إليها بحراً من ظُفار (بطريق الشحر) ومنها ينقلان إلى شبوه (في الداخل) ومنها الى مأرب. وكانت السفن العائدة من الهند تَشتُو في قِنا إذا وصلتها متأخرة بالنسبة للرياح.

وكانت عدن مركزاً لتبادل السلع المحمولة من الهند والمتاجر المنقولة من مصر وما وراءها ومن إفريقية. ويجب ان نذكر ان كل مركز تجاري، بحرياً كان أو برياً، كان من مراكز تجميع البخور وتصديره، لأن البخور كان يستعمل في كل هيكل أو معبد في العالم القديم. وفي فترة الخصومة والنزاع بين البيزنطيين والساسانيين أصاب عدن وما حولها ما أصاب اليمن.

ومع انتشار الاسلام في تلك الربوع، واتساع الرقعة التي كانت تتبادل السلع فيها، فقد احتفظت عدن، بشكل خاص، بأهميتها التجارية. وهذا الجغرافي المقدسي (القرن العاشر للميلاد) يحدثنا عن عدن فيقول: «وعدن بلد جليل عامر آهل حصين خفيف، دهليز الصين، وفرضة اليمن، وخزانة الغرب، ومعدن التجارات. كثير القصور... معايشهُ واسعة... ونعمه ظاهرة».

وقد روى المقدسي قصة عن نفسه ننقلها هنا للقراء لما فيها من الطرافة والدلالة قال: «ولما ركبت بحر اليمن اتفق اجتماعي مع أبي علي الحافظ المروزي في الجلبة (أي السفينة). فلما تأكدت المعرفة بيننا، قال لي: قد شغلت والله قلبي. قلت بماذا؟ قال: أراك رجلاً على طريق حسنة، تحب الخير وأهله، وترغب في جمع العلوم. وقد قصدت بلاداً قد غرَّت كثيراً من الناس، وصدتهم عن طريق الورع والقناعة. وأخشى إذا أنت دخلت عدن، فسمعت أن رجلاً ذهب بألف درهم فرجع بألف دينار، وآخر دخل بمئة فرجع بخمسمئة وآخر بكندر فرجع بمثله كافوراً، طلبت نفسك التكاثر. قلت: أرجو أن يعصم الله. فلما دخلتها (عدن) وسمعت أكثر مما قال غرَّني والله ما غرَّ القوم، وعملت على الذهاب الى ناحية الزنج (وهي سوق رئيسة في عدن)

وآتيت ما ينبغي أن يُشْترى، وتقدمت فيه إلى الوكلاء. فبرّد الله عزّ اسمه ذلك على قلبي بموت شريك كنت عاقدته، وكسرت نفسي بذكر الموت».

قامت في عدن ولحج، في أواخر العصور الوسطى، الدولة الطاهرية (١٤٥٤ - ١٥١٧). وكان من أكبر حكامها السلطان عامر بن عبد الوهاب (١٤٨٩ - ١٥١٧) الذي وسّع املاكه، وضم اليه المنطقة الشمالية من اليمن واستولى على صنعاء.

ولكن الدولة الطاهرية لم تكن الدولة الاسلامية الوحيدة التي اهتمت بعدن، بسبب اهميتها الاستراتيجية والتجارية. فابن زياد مؤسس دولة بني زياد (٨١٨ - ١٠١٩) اهتم بنشر الامن في ربوعها فقصدتها السفن التجارية لقربها من موانىء المحيط الهندي. وعني حسين بن سلامة الزيادي بتمهيد طرق القوافل من ميناء الشحر الى عدن. وكذلك اهتم الأئمة الزيديون بالميناء. كما عني بها الصلحيون والأيوبيون. فحصّنها من حصّن وبنى حولها الأسوار واعتنى بتوصيل الماء اليها، وأقيمت الأبنية والأسواق فيها.

كانت التجارة الهندية المصرية رائجة في أيام الطاهريين، وكانت عدن إحدى قواعدها الكبرى. وقد وصف دوراتو بربوزا (وهو رحالة برتغالي) عدن في أواخر عهد الطاهريين فقال عنها انها من أكثر بلدان العالم تجارة. وبأن تجارها من أكثر التجار ثراء. وكانت تقصدها، على حد قول بربوزا، السفن العديدة المختلفة الأنواع والأحجام من جميع البقاع، من جدة محمّلة بالبضائع الأوروبية والمصرية والسورية، ومن موانىء ساحل إفريقية الشرقي - من زيلع وبربرة وسفالا وكلوه محملة بالمواد الغذائية وسبائك الذهب والفضة والعاج وريش النعام، ومن موانىء الهند وجزء الهند الشرقية موسوقة بالطيوب والتوابل. وبلغ من إهتمام السلطان عامر بعدن انه كان يقصدها في أوقات الرياح الموسمية ليشرف بنفسه على خروج القافلة البحرية الى الهند.

ومع أن عدن فقدت الكثير من اهميتها التجارية بعد ان وصل البرتغاليون الى المحيط الهندي وأخذوا يتاجرون مع موانئه مباشرة، فقد ظلت لها أهميتها الاستراتيجية. وقد حاول البرتغاليون الاستيلاء عليها لتكون مرتكز دخولهم الى البحر الأحمر (١٥١٣) لكنهم فشلوا. ومع ان أمير عدن سمح للقائد البرتغالي (١٥١٦) بدخول عدن، لكن لما عاد القائد (بعد ان فشل في الاستيلاء على جدة) ليستعمل الميناء ثانية رفض أميرها طلبه. وهكذا ظلت المدينة بمنأى عن السلطة البرتغالية يومها.

ولما أخذ العثمانيون انفسهم بمقارعة البرتغاليين، بعد قضائهم على دولة المماليك (١٥١٧) رأوا في عدن مركزاً استراتيجياً هاماً وقاعدة رئيسة للعمل ضد البرتغاليين في المحيط الهندي. فاحتلها سليمان باشا (١٥٣٨) ، كما احتل اليمن ودخل صنعاء فيما بعد. الا أن العدنيين قاموا بثورة ضد الأتراك وذبحوا أفراد الحامية

(١٥٤٠) واستعانوا بالبرتغاليين، فقدم هؤلاء وظلوا في المدنية الى سنة ١٥٥١، لما استعادها الاسطول العثماني بقيادة بري باشا. وبعد ثورة الامام الزيدي القاسم المنصور (١٥٩٢ ـ ١٦٢٠) على الاتراك، واستمرار ابنه محمد المؤيد (١٦٢٠ ـ ١٦٥٤) في خصومته لهم، رأى مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) ان يسحب قواته من اليمن بأجمعها، فترك عدن معها (١٦٣٥). وقامت حروب بين القبائل للسيطرة على عدن ولحج وأبين وانتهت عدن، وما حولها، نهباً بين القبائل.

في العصر الحديث

كان من نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ان تأخرت تجارة عدن، بحيث انها أصبحت، في مطلع القرن السابع عشر «مدينة بدون تجارة، مع انها قبل قرن فقط كانت تعج بالتجار وتزدحم بالسماسرة وتكتظ أسواقها بالمتاجر. لكن أهمية عدن الاستراتيجية ظلت على حالتها. وبسبب قيام شركة الهند الشرقية التجارية (الانكليزية) التي أخذت توسّع نطاق أعمالها في الهند وما إليها، اكتسبت عدن أهمية خاصة. لذلك فإننا نجد أن بريطانيا (عن طريق الشركة) تحاول أن يكون لها موطىء قدم في عدن (ولأنها فشلت أولاً فقد جربت جزيرة بريم القليلة الماء وحاولت إبتياع جزيرة سوقطرى).

نشطت بريطانيا بعد أن احتل نابليون مصر عام ١٧٩٨، إذ كان يهمها أن تقف في طريق فرنسا. وازداد النشاط البريطاني لما أصبح محمد علي (سنة ١٨٣٣) سيد مصر والسودان ونجد والحجاز واليمن، إذ خشيت أن يعود نفوذ فرنسا الى المشرق العربي بسبب ما كان بينها وبين محمد علي من تقارب سياسي. ومن هنا نجد ان بريطانيا ينتهي الأمر بها الى احتلال عدن (١٨٣٩). وأصبحت المدينة قاعدة عسكرية هامة، كما آلت الى مستودع لتزويد السفن البخارية (الحديثة العهد) بالوقود.

وكان من جراء هذا الاحتلال أن عادت الى عدن أهميتها التجارية، وازداد عدد سكانها. فعدن التي قدر عدد سكانها في القرن السابع عشر بنحو ٣٠,٠٠٠ نسمة (وهناك من يرى أن هذا الرقم مُبالغ فيه) كانت حوالى سنة ١٨٣٨ يقطنها بين ٦٠٠ و٨٠٠ نسمة (لعل هذا الرقم مصغّر قليلاً). اما في سنة الاحتلال فقد اصبح سكانها ١,٦١٣ نسمة ووصل سنة ١٨٤٢ الى ١٦,٥٨٧ نسمة.

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر (بين ١٨٨٢ و١٩١٤) عقدت بريطانيا معاهدات مع شيوخ القبائل وسلاطين المناطق الواقعة الى الشرق من عدن، على نحو ما فعلت في الخليج العربي. وعلى كل، ومهما اختلفت التسميات السياسية والادارية، فعدن وجوارها كانت تدار على انها مستعمرات بريطانية. وحري بالذكر ان

الامام يحيى حميد الدين (١٩٠٤ ـ ١٩٤٨) كان دوماً يطالب بعدن والمحميات على أنها جزء من اليمن، الى أن عقدت معاهدة بينه وبين بريطانيا (١٩٣٤) لتنظيم العلاقات بين الفريقين. لكن ابنه، الامام احمد (١٩٤٨ ـ ١٩٦٢) عاد الى المطالبة باليمن الجنوبي، وقد انتهى حكمه دون ان تصل المفاوضات او المناوشات الى نتيجة.

كانت بريطانيا قد ضمت المحميات التابعة لها في اتحاد هو اتحاد الجنوب العربي، وضمت عدن نفسها اليه فيما بعد (تم ذلك ١٩٦٣). على أن المهم ان الرغبة في الاستقلال كانت قد تأصلت في نفوس العرب الجنوبيين، فقامت ثورة في سنة ١٩٦٣ واشتدت عنفاً في ١٩٦٥. وليس من ريب في ان قيام الجمهورية في الجزء الشمالي من اليمن (١٩٦٢) والحرب الأهلية بين الملكيين والجمهوريين، كان لهما أثر كبير في نشاط الحركات الاستقلالية. وقد انتهى الأمر بإعلان الاستقلال في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧. وفي سنة ١٩٧٠ أطلق على البلاد اسم «جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية». وقد قامت محاولات وتمت اجتماعات وعقدت اتفاقات لتوحيد شطري اليمن ـ ولكن ذلك كله لم ينتهِ الى نتيجة.

الأوضاع الاقتصادية

ملاحظات عامة: يقدر عدد سكان جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بـ/١,٨٥٣,٠٠٠ نسمة (أساس ١٩٧٨)، والازدياد السكاني هو ٣٪ (بدءاً من إحصاءات سنة ١٩٧٠). ويبلغ الدخل السنوي للفرد ٢٨٠ دولاراً. ويتجمع أكثر السكان في الأجزاء الغربية من البلاد.

كانت البلاد تفيد، أثناء الحكم البريطاني، من السفن التي كانت ترسو في ميناء عدن، إذ ان هذه كانت مركزاً رئيساً للطرق البحرية بين أوروبا والهند والشرق الأقصى وافريقيا الشرقية التي تستعمل قناة السويس. وكانت مصفاة النفط في عدن (التي تم إنشاؤها سنة ١٩٥٤) مصدراً كبيراً للواردات. وكانت بريطانيا تعنى بشؤون عدن ـ ميناء وقاعدة حربية ـ أكثر من عنايتها بتطوير البلاد إقتصادياً. ولو أنها طورت زراعة القطن في أبين (بدءاً من ١٩٣٧) وفي لحج (في الستينات). واهتمت الحكومة المحلية بمشاريع الري في وادي حضرموت.

تأثرت الأوضاع الاقتصادية في الجمهورية بسبب اغلاق قناة السويس (١٩٦٧) وانسحاب القوات البريطانية في السنة ذاتها. فنقصت الحاجة الى الخدمات العامة. يُضاف الى هذا ان العون المالي البريطاني والانفاق على الحامية الذي كان ١١ مليون جنيه استرليني (١٩٦٠) وبلغ ٣٦ مليوناً سنة ١٩٦٧ توقف بعد الانسحاب البريطاني. فكان على الجمهورية ان تبحث عن عون جديد لتستعين به في تطوير اقتصادها من اقتصاد خدمات الى اقتصاد يعتمد على الزراعة والصناعة. وقد جاءتها المساعدات من دول الكتلة الشرقية. وكانت الدولة قد أمّمت الاستثمارات الأجنبية في البلاد سنة

١٩٦٩، باستثناء مصفاة النفط التي لم تؤمّم إلاّ في سنة ١٩٧٧. والدول التي مدّت يد المساعدة بشكل خاص للجمهورية الجديدة هي الاتحاد السوفياتي والصين والمانيا الديمقراطية.

وضعت الدولة ثلاث خطط للتنمية. الأولى لثلاث سنوات (١٩٧١ ـ ١٩٧٤)، وكانت شبكة المواصلات وزيادة الانتاج الزراعي وإقامة صناعات خفيفة على مقياس متواضع بحيث تعتمد على المواد الخام المحلية، الأهداف الأولى لهذه الخطة. وقد نجحت في المواصلات السلكية واللاسلكية.

والخطة الخماسية (١٩٧٤ ـ ١٩٧٩) التي تلت كان هدفها الأول تقوية صناعة الأسماك (صيداً وتعليباً) وصناعة النفط. وكانت دول الكتلة الشرقية، وخاصة الاتحاد السوفياتي، والصين وراء هذه الخطة. أما الخطة الخمسية (١٩٧٩ ـ ١٩٨٣) الثانية فقد خصص لها ٣٧٠ مليون دينار (الدينا = تقريباً ٠,٣٥ من الدولار)، وكانت مشاريعها الرئيسة زيادة الانتاج الصناعي وتطوير صناعة الأسماك والزراعة. إلا ان هذه الخطة عدّلت في سنة ١٩٨٠ واستعيض عنها بخطة معدّلة (١٩٨١ ـ ١٩٨٥)، ذلك لأنه لوحظ ان أهدافها لم تكن واقعية. وهدفت الخطة الجديدة اعطاء الصناعات القائمة: مصفاة النفط وصناعة الاسمنت والملح والأسماك، الدرجة الأولى من الاهتمام. فالزراعة في البلاد يعوق تقدمها نقص الماء اللازم للري. لذلك أدخل في صلب الخطة المعدّلة مشاريع للبحث عن المياه الجوفية.

أملت الحكومة أن يأتيها الدخل اللازم من زيادة المعونات الخارجية، وما يبعث به اليمنيون العاملون في الخارج الى البلاد، وازدياد حركة الملاحة في ميناء عدن. وقد قدر ما يبعث به اليمنيون العاملون في الخارج بنحو مئة مليون دينار سنوياً. أما الدعم الخارجي فقد خفّ بعض الشيء. وأما ميناء عدن فلم تَعُد إليه الحركة التجارية التي كانت مألوفة بعد أن أُعيد فتح قناة السويس. وثمة مشكلة تواجه الحكومة وهي تخوف الشركات العالمية من أنظمة التأميم المتبعة في البلاد.

على أن النقص الذي أصاب الدعم المالي الخارجي من الكتلة الشرقية، عُوِّض عنه بدعم مالي جاء من المملكة العربية السعودية ودول الخليج. ومع أن العلاقات بين الجمهورية اليمنية والمملكة العربية السعودية تأزّمت، فإن الدعم المالي هو موضوع مفاوضات مستمرة. وقد عادت دول الكتلة الشرقية الى زيادة عونها المالي والفني مؤخراً.

الزراعة: إن ربع مساحة الأراضي الصالحة للزراعة هي المستثمرة الآن. والمناطق المستغلة استغلالاً جيداً هي أَبْين، شرقي عدن، ولحج الواقعة شمال عدن. وأودية حضرموت هي الأخرى خصبة ومستغلة إستغلالاً جيداً. وقد قدمت الكويت (١٩٧٤) قرضاً مالياً (٤,٢ مليون دينار كويتي، نحو ١٦ مليون دولار) لاستصلاح

الأراضي وريها في منطقة دلتا أبين، وتقدمت بلغاريا بالمساعدة الفنية. وقد تم إقامة سد أبين، وهذا سيؤدي الى زيادة الانتاج الزراعي هناك.

يزرع القطن، في الدرجة الأولى، في لحج وأبْين، ولو أنه ينتج في مناطق أخرى من البلاد. والمساحات المزروعة قطناً في تناقص، مع أن الدولة تقدم للمزارعين فوائد خاصة. وقد يؤدي إقامة محلجين جديدين للقطن ومصنع لزيت القطن الى زيادة الانتاج.

وتنتج البلاد حاجاتها من الخضار عامة. ولكنها تستورد البصل والبطاطا والفواكه. وأهم ما تنتجه من الخضار والفواكه هو: البندورة والجزر وخضار السلطة (السلاطة) والموز والبطيخ. ويمكن زيادة انتاج الموز، شريطة أن توفر له أسواق للتصدير. ففي سنة ١٩٧٢ كان البلد الأجنبي الوحيد الذي يستورد الموز هو الصين.

وينمو القمح، في أغلبيته، في حضرموت وبَيْحان، لكنه لا يكفي حاجات السكان. وتستورد الجمهورية القمح من استراليا. وتزرع الذرة والشعير، كما يزرع التبغ في منطقة غَيْل باوزير.

وقد حافظت اعداد الحيوانات في السنوات الأخيرة على مستواها، لكنها لا تكفي حاجات السكان. ففي البلاد أكثر من مليون وربع مليون من الماعز. ونحو مليون من الخراف ونحو مئة ألف من الأبقار (١٩٧٨).

والمشاريع الزراعية الكبرى لا تجد التمويل اللازم لها. لذلك فإن جهود البلاد منصرفة الى تحسين الأوضاع القائمة في لحج وأبين وبَيحان وحضرموت. وزيادة انتاج التبغ مع تقوية صناعة الاسماك، لهما الأولوية في الشرق. والمكلا هي مركز صناعة الأسماك.

الأسماك: إمكانات صناعة الاسماك في بحر العرب كبيرة جداً. وهي امكانية كبيرة لزيادة ثروة البلاد. وفي المنطقة نحو ١٠,٠٠٠ صياد سمك، وأكثرهم يصطادون في المياه الاقليمية. ومعداتهم ضعيفة ولا مجال لهم لتسويق ما يصطادون. والتعاونيات السمكية لم تصل بعد الى درجة من التنظيم تمكّنها من التسويق الخارجي. وقد بلغ الصيد في البلاد ١٦١,٧٠٠ طن (١٩٧٧) بعد أن كان ١١٧,٥٠٠ طن فقط (١٩٧٠).

وللحكومة اسطول للصيد مكّون من ١٦ سفينة صيد للوصول الى المياه البعيدة (وهذا الاسطول جاء البلاد من الاتحاد السوفياتي واليابان والصين). وتقوم الآن شركة يمنية ـ سوفياتية وشركتان يابانيتان بالصيد في المياه اليمنية. وثمة مصنعان للتعليب في المكلا وشقرا ومصنع لتجميد الاسماك في المكلا. وتقدر قيمة ما يعود على البلاد الآن من تصدير الاسماك بنحو عشرين مليون دولار سنوياً.

الصناعة: مصفاة النفط في عدن أكبر مشروع صناعي في البلاد إذ تعمل على إستخراج مشتقات النفط من النفط الخام الذي يحمل إليها من الخليج. وهناك مخطط لتوسيع أعمالها.

وتعنى الحكومة عناية فائقة بالتنقيب عن النفط. وقد منحت عدة إمتيازات لشركات أجنبية للقيام بذلك في أنحاء من البلاد، براً وبحراً، وقد تم الاتفاق مع المملكة العربية السعودية على إنشاء خط أنابيب للنفط من حقوله في المملكة الى مكان على شاطىء حضرموت. على ان الاتجاه الرسمي هو تقوية الصناعات الزراعية كالقطنيات وصناعة السجاير.

والصناعات الموجودة اليوم هي (في عدن): صناعة الاسمنت وانتاج الملح والمرطبات. وفي المحافظات الغربية يحلج القطن. وثمة مطاحن للحبوب واستخراج الزيوت من الحبوب الزيتية. وصناعة الاسماك تتركز في المكلا، كما ذكرنا. وهناك مخططات لانشاء مصانع للبسكويت والزيوت النباتية وغذاء الحيوانات ورُب البندورة.

ومما يجدر ذكره أن الثروة المعدنية للجمهورية اليمنية لم ينقّب عنها بعد. وقد بدىء البحث عن النحاس وغيره من المعادن في سنة ١٩٧٥ وهناك تعاون بين عدد من الخبراء. ويظن البعض ان النحاس والرصاص والقصدير موجودة في المناطق الشرقية. وسيكشف المستقبل عن صحة هذه الأمور.

المواصلات: لا تزال الطرق المسفلتة قليلة في البلاد، وقد لا يتجاوز طول الموجود منها بضع مئات من الكيلومترات، وأكثرها قائم حول عدن وفي القطاع الغربي من الجمهورية. ولكن يوجد طريق جيد، بني بمساعدة الصين، يصل عدن بالمكلا.

أما بالنسبة للطيران ففي عدن مطار كبير. وهناك مطارات كبيرة أخرى تحت الإنشاء. أما المطارات الصغيرة فموجودة في المدن الرئيسة.

إلا أن مركز المواصلات الرئيس في البلاد هو ميناء عدن وفيه جميع الوسائل اللازمة لاستقبال السفن الكبيرة من أحواض وأرصفة ومخازن للبضائع. وثمة مشاريع كثيرة لزيادة هذه التسهيلات، لكن المهم في الأمر هو أن السفن لا ترسو هناك بالقدر الذي كانت ترسو فيه قبل حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧. فحتى سنة ١٩٧٩ (أي بعد أربع سنوات من إعادة فتح قناة السويس) لم تكن عدن تستقبل سوى ربع ما كان عليه العمل قبل سنة ١٩٦٧.

التجارة الخارجية: تستورد الجمهورية الثياب والمواد الغذائية والمواشي وجميع أنواع الآلات والمصنوعات. وتصدر القطن والجلود والسمك المجفف والأرُز والبن. وقد كانت قيمة ما استوردته في سنة ١٩٧٧ نحو ١٢٢ مليون دينار، مقابل نحو ١٦ مليون دينار قيمة ما صدرته. ومن هنا يبدو أن ميزان المدفوعات هو سلبي.

أما البلاد التي تستورد منها عدن حاجاتها فهي، مرتبة بحسب قيمة المواد المختلفة لسنة ١٩٧٨، بريطانيا واليابان والكويت وهولاندا والصين وتايلاند واستراليا والاتحاد السوفياتي. وتصدر، على الأساس نفسه، الى: اليابان وبريطانيا والصين والمانيا الاتحادية وايطاليا والمملكة العربية السعودية والسودان وسنغافورة.

خاتمة

ذكرنا أن عدد السكان قُدِّر (١٩٧٨) بـ/١,٨٥٣,٠٠٠ نسمة، وارتفع في منتصف الثمانينات إلى ثلاثة ملايين، وأشرنا أن المجموعات السكانية أكبر في المناطق الغربية، ونضيف هنا إلى أن عدن وما حولها هي التي تستأثر بالجزء الأكبر من السكان. فعدد سكان العاصمة (تقدير ١٩٧٧) هو ٢٨٦,٠٠٠ وهذا وحده يكوّن أكثر من ١٥٪ من مجموع السكان. صحيح أن البلاد ليس فيها مدن أخرى كبيرة. فأكبر مدينة بعد العاصمة هي المكلا التي يقدر عدد سكانها بنحو ٥٠,٠٠٠ نسمة. ومع ذلك فيقدر عدد السكان المستقرين في المدن والبلدان والقرى الكبيرة (وهو جماع ما يسمى سكان الحضر) بنحو ثلث مجموع السكان. ولا شك في أن مراكز إدارة المحافظات يتجمع فيها هؤلاء القوم. والمحافظات ست (قرار سنة ١٩٨٠) وهي عدن (عدن) وتوبان (الحوطة) وأبين (زنجبار) وشبوَه (عتق) وحضرموت (المكلاّ) وغيده (غيده).

وإذا كان الثلث يقيم في المدن وما إلى ذلك، فماذا هو نوع السكن بالنسبة للباقين؟ لا يزال في البلاد فئات شبه بدوية هي التي تعنى بالأبقار والأنعام والأغنام. وثمة فئات تعمل في الزراعة، فهي بطبيعة عملها ريفية.

وسكان الجمهورية الديمقراطية الشعبية يزودون البلاد بنحو ٤٠٠,٠٠٠ عامل. ويمكن القول إجمالاً بأن النصف، أو أكثر قليلاً يعملون في الزراعة و٣٥٪ تستخدمهم التجارة والمواصلات ويقومون بالخدمات المختلفة وهناك ٥٪ من السكان يعملون في التعدين والصناعة ونحو ٥٪ تستخدمهم أعمال البناء المختلفة ويتبقى نحو ٥٪ يقومون بأعمال متنوعة.

والسكان عرب، وإن كان بينهم أقليات ضئيلة من الهنود والباكستانيين والصوماليين. وهؤلاء يوجدون في المنطقة الغربية، وأكثرهم في عدن بالذات.

والبلاد لم يمر عليها الزمن الكافي لمعالجة كثير من المشكلات التي ورثتها عن الحكم السابق ـ الاستعمار والحكم القبلي الشخصي الذي كا يؤيده ويسير في ركابه. هذا الى صعوبات مالية ونقص في طرق المواصلات. وإلى ذلك يُضاف أن توحيد البلاد ليس بالأمر السهل. فالصحارى تفرق بين المجتمعات وإمتناع المطر يؤدي الى جفاف وقد ينتهي بتنقل من مكان الى مكان. ولذلك لا نستغرب أن نجد ان حصة الطبيب الواحد من مجموع السكان هو ٨٧٥٠ شخصاً، مثلاً.

والتعليم لا يزال ينتظر الكثير. ففي البلاد، حسب آخر إحصاءات إستطعنا

الحصول عليها، ٢٤٢ مدرسة إبتدائية (منها خمس خاصة) وثلاث وأربعون مدرسة متوسطة (منها أربع خاصة بالمرة) وست مدارس ثانوية. وقد كان تلاميذ المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية نحو ٢٣,٦٠٠ تلميذ. وهناك مركزان لتدريب المعلمين وواحد لتدريب المعلمات ومعهد تكنولوجي. وطلاب هذه المؤسسات هم نحو ألف. أما التعليم العالي فيُتَلَقّى في الخارج.

ومعاهد المعلمين والتعليم الفني (المهني) تقوم في عدن. الا أن الحكومة تنوي فتح معاهد أخرى في بقية المراكز الادارية للمحافظات.

وصحافة البلاد، مثل أمور أخرى كثيرة، تنشر في عدن: ١٤ اكتوبر، وتصدر ٢٠,٠٠٠ يومياً، والثوري (اسبوعية) وهي لسان حال الحزب اليمني الاشتراكي، وثمة الثقافة الجديدة (شهرية) وهذه مجلة رسمية.

الهوامش

(١) وضع هذا الكتاب عندما كان اليمن ما يزال مقسماً إلى شمال وجنوب.

١٨ ـ الأردن

لو أتيح لنا أن نرتفع في الجو بحيث نتمكن من القاء نظرة على الأردن بكامله، لاتضح لنا ان تضاريس هذا البلد الطبيعية بينة المعالم والحدود. ذلك باننا نرى سلسلة من المرتفعات والهضاب التي تحتضن سهولاً صغيرة؛ وان المرتفعات والهضاب تتكون من مناطق يفصل بين الواحدة والأخرى واد عميق يمتد من الشرق الى الغرب. فمنطقة عجلون في الشمال تنتهي جنوباً بوادي الزرقاء الذي يحمل مياهه الى نهر الأردن. وبين وادي الزرقاء ووادي الموجب، الذي تصب مياهه في البحر الميت، تقع منطقة البلقاء. ويحصر وادي الموجب ووادي الحسا مرتفعات الكرك والطفيلة. وتمتد جبال الشراه، التي تصل الى مشارف الحجاز، جنوبي وادي الحسا. والمناطق الأربع هذه تنحدر نحو الغرب انحداراً فجائياً إلى غور الأردن والبحر الميت ووادي عربة، أما إلى الجهة الشرقية فان انحدارها يكون تدريجياً، فتذوب في البادية السورية. وتبدو لنا حدود الأردن السياسية واضحة: فنهر الأردن والبحر الميت ووادي عربة تحده غرباً، وسورية شمالاً، والعراق والمملكة العربية السعودية شرقاً، وهذه جنوباً أيضاً.

١ ـ غور الأردن هو جزء من خلع جيولوجي يمتد من شمال سورية عبر سهل الغاب والبقاع وسهل الحولة وبحيرة طبرية وغور الأردن والبحر الميت ووادي عربة وخليج العقبة والبحر الأحمر إلى شرق أفريقيا، ويبلغ طوله نحو خمسة آلاف كيلو متر. وغور الأردن بكامله هو تحت سطح البحر. فبحيرة طبرية تقع على مئتي متر تحت سطح البحر، والبحر الميت منخفض ٣٩٢ متراً عن سطح البحر. والمنطقة، من حيث المناخ شبه مدارية. فالحرارة في شهر تموز (يوليو) تزيد عن ٣٨ درجة مئوية دوماً، وقلما تنزل حرارة شهر كانون الثاني (يناير) عن ٩ درجات مئوية. والمطر قليل سقوطه، إذ ندر ان يزيد عن مئتي ملمتر.

يستمد نهر الأردن مياهه، في منابعه الأصلية، من ثلاثة أنهر هي الحاصباني (والوزان) في لبنان، واللدان (تل القاضي) في فلسطين، وبانياس في سورية. وهذه تجتمع في الجزء الشمالي من سهل الحولة (بحيرة الحولة سابقاً)، ثم يجري النهر إلى بحيرة طبرية. وإلى الجنوب من هذه البحيرة يلتقي الأردن بنهر اليرموك. ونهر الزرقاء، المتمعج في سيره الطويل نسبياً، يصب في الأردن من الشرق. ومع أن نهر شعيب دائم الجريان، فان مياهه قلما تصل نهر الأردن، لأنها تستغل في الري في طريقها غرباً. اما

زرقاء معين والموجب ووادي الكرك فانها تصب في البحر الميت. وثمة مجموعة من الأنهار والوديان التي تنبع في فلسطين وتحمل مياهها الى نهر الأردن، ولعل وادي بيسان ونهر الفارعة اهمها.

٢ ـ المنطقة الجبلية تصاقب الغور الى الغرب، وترتفع منه ارتفاعاً فجائياً. وهي أعرض في الشمال منها في الجنوب، كما انها اكثر ارتفاعاً هنا منها هناك. وهذه المنطقة هي الأكثر ارتفاعاً في الأردن بأجمعه، وفيها مدن مزدهرة مثل اربد وعجلون والسلط ومادبا والكرك والطفيلة. وهي منطقة باردة، وسقوط الثلج فيها، سيما في شهر كانون الثاني (يناير)، أمر مألوف. وصيفها حار، وتزداد الحرارة كلما اتجهنا شرقاً، ومعدل النهاية العظمى للحرارة هو نحو ٣٣ درجة مئوية. والمطر يزداد سقوطه مع ارتفاع الجبال، ويقلّ كلما اتجهنا شرقاً. ومعدل سقوط المطر في هذه المنطقة هو ٤٠٠ ملمتر.

٣ ـ الهضبة الأردنية تقع بين المنطقة الجبلية غرباً والصحراء شرقاً. وتكاد سكة حديد الحجاز تكون الحد الشرقي لها. ويتراوح ارتفاعها بين ٨٠٠ متر و١٢٢٠ متراً. ومع ان الحرارة فيها شبيهة بالمنطقة الجبلية، فان الفرق بين النهاية العظمى والنهاية الصغرى اقل منه في تلك المنطقة. اما المطر فيها فقلما يتجاوز المئتين من الملمترات. وفي هذه المنطقة نجد عمان، العاصمة، والمفرق ومعان. ومع ان أراضي عجلون والبلقاء خصبة، فان كمية المطر لا تسمح بقيام زراعة على مقياس كبير.

٤ ـ المنطقة الممتدة بين جبال الشراه في الشمال والشمال الشرقي ووادي عربة في الغرب، وخليج العقبة في الجنوب، هي منطقة صخرية رملية، الزراعة فيها قليلة، والمطر فيها قليل جداً، والفرق بين حرارة الصيف والشتاء فيها كبير. فالعقبة مثلاً قلما يسقط فيها اكثر من عشرة ملمترات من المطر. وتزيد الحرارة فيها عن أربعين درجة مئوية في الصيف، كما أنها تهبط الى خمس درجات مئوية في الشتاء.

٥ ـ منطقة السهوب والصحراء التي تشغل نحو أربعة اخماس مساحة الأردن، وهي تتمة انحدار الهضبة التدريجي نحو بادية الشام، التي هي في الواقع، جزء منها، والحرارة فيها قارية تامة، مرتفعة صيفاً منخفضة شتاء، وقلما يسقط فيها من المطر اكثر من مئة ملمتر. وتقع في هذه المنطقة واحتا الأزرق والجفر الغنيتان بالماء نسبياً. وثمة واحات صغيرة مثل باير. وقد يسقط المطر دفعة واحدة. فيملأ بعض الأودية بالماء، فتنبت على جنباتها الأعشاب التي تتغذى بها الأغنام والماعز والابل التي يملكها السكان القلائل المنتشرون في ارجائها.

٦ ـ وادي السرحان يكاد يكون الحد الشرقي الطبيعي للبلاد. واكثر هذه المنطقة هو دون ٣٠٠ متر فوق سطح البحر. وهذا الوادي، الذي يتجه من جهة الشمال الغربي الى جهة الجنوب الشرقي تزوده اودية متعددة بالمياه التي تصبها فيه من الجهتين،

وهي مـيـاه تأتي من ينابيع دائمـة، هي قـوام حـيـاة السكان البـدو وقطعـانهم في تلك المنطقة.

هذه هي المناطق الطبيعية التي يتكون منها الأردن. والأردن، الذي تبلغ مساحته نحو خمسة وتسعين ألفاً من الكيلو مترات المربعة، يعتبر، جغرافياً، من منطقة حوض البحر المتوسط، ذات الصيف الحار والشتاء البارد. إلا أن الفروق البينة في مناخه تعود الى تباين ارتفاع مناطقه عن سطح البحر او انخفاضها عنه، والى قرب البلاد من الصحراء. ولذلك فان التغير في الطقس من فصل إلى آخر ترافقه الرياح المعروفة بالخماسين، التي تهب من الجهة الجنوبية الغربية، أو الرياح الشرقية الهابة من الشرق، فتحرق الأولى الزرع والضرع، وتنخر الثانية في العظام.

ومع ان الأودية التي ذكرنا من قبل: الزرقاء والموجب والحسا، عميقة، فانها لم تكن في يوم من الأيام حاجزاً في سبيل الاتصال بين الشمال والجنوب. فهذا الطريق المعروف تاريخياً بالطريق السلطاني يمتد من أربد شمالاً الى العقبة جنوباً مروراً بجرش والسلط (أو عمان) ومادبا والكرك والطفيلة والشوبك ووادي موسى والقويرة. كما انه هناك طريق آخر مواز له الى الشرق، ويتبع سيف البادية، من المفرق شمالاً إلى المدورة جنوباً عبر المشتى والقطرانة وجرف الدراويش ومعان. هذا هو الذي عرف، منذ ظهور الاسلام، باسم درب الحج. وقد اتبع هذا الطريق في جزء كبير من سكة حديد الحجاز لما بنيت في مطلع القرن الحالي.

كانت ثمة طرق تقطع البلاد من الشرق جنوباً إلى الغرب فتصلها بموانىء فلسطين ولبنان، كما كانت هناك طرق تمتد شرقاً في شمال وشرقاً في جنوب، هي سبل اتصال بين انحاء البادية السورية والجزيرة العربية.

والاردن هو الزاوية الجنوبية الشرقية من بلاد الشام، وهذه تكوّن جزءاً من منطقة المشرق العربي وجيرانه الأقربين. في هذه المنطقة الأوسع نشأت الحضارات وتفاعلت، ونال الأردن حظه من التأثر، كما قام بدوره في التأثير. وقد كانت هذه المسائل مجهولة الى عقود من السنين خلت، لأن الكثير مما خلفه الانسان القديم هنا كان الزمن قد طمره. لكن لما جاء علماء الآثار بالرفش والمعول اظهروا هذا المخبأ للعيان. وانتهى الأمر بهم الى ان اعتبروا ما سبق سنة ٣٠٠٠ ق.م. ازمنة ما قبل التاريخ. اما الأزمنة التاريخية فتبدأ في تلك السنة أو حولها. وأولها العصر البرونزي (٣٠٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م.) ويتلوه العصر الحديدي (١٢٠٠ ق.م. ـ الفتح اليوناني، على خلاف طفيف بين الباحثين).

والسؤال الذي يطرح نفسه علينا الآن هو: من أين جاءت هذه الشعوب التي عملت في الحضارة وخلفت الآثار، وكانت منها، في نهاية المطاف هذه الجماعات التي تعيش اليوم في الأردن وبقية بلاد الشام؟.

إذا تذكرنا ان الأردن هو جزء من مسرح التاريخ الأكبر المحيط به، عرفنا ان الشعوب التي جاءت الجزء الأصغر هي، في الغالب، نفسها التي هبطت المحيط الأكبر. ولسنا نعرف هوية الأقوام الأول. ولكن الصورة يمكن تقريبها منذ بدء العصور التاريخية؛ الا أنها تظل باهتة مقلقة في أول الأمر، ثم تأخذ في التشكل تدريجاً، ثم تبين ظلالها، ثم تتضح خطوطها ثم تبدو ابعادها. والمتعارف عليه ان الصحراء العربية كانت المصدر الأهم للشعوب السامية التي هبطت الأردن وبقية بلاد الشام. ولعل الكنعانيين (الألف الثالث ق.م.) أبعدها صيتاً، وبخاصة تفرعاتهم. وفي العصور اللاحقة جاءت شعوب أخرى؛ وهبط اليونان والرومان بلاد الشام، واستقرت من الأولين جماعات في شمال الأردن.

لكن العنصر الأهم، الذي بدأ يدخل قبل خمسة وعشرين قرناً أو يزيد، هو العنصر العربي. والانباط اقدم جماعة معروفة تاريخياً، والغساسنة يتلونهم. ثم جاء الفتح العربي وانتشر العرب في بلاد الشام جمعاء. فسكان الأردن عرب في أرومتهم، والنقلة من البادية الى الداخل لم تنقطع قط.

على اننا يجب ان نذكر أنه في اواخر القرن التاسع عشر جاءت جماعات شركسية لا تزال مقيمة فيه. وهي اليوم جزء اصيل من سكان البلاد.

عدد سكان الأردن بموجب التقديرات الأولية لسكانه (كما كانوا يوم التعداد العام في ١٠/١١/١٩٧٩) هو ٢,١٥٢,٢٧٣ نسمة (منهم ١,١٢٤,٩٧٧ ذكور، و١,٠٢٧,٢٩٦ إناث). وإذا عدنا الى تعداد سابق (١٨/١١/١٩٦١) وجدنا ان مجموع السكان كان ٩٠٠,٧٧٦. وفي عام ١٩٥٣ كان المجموع ٥٨٦,٨٨٥ نسمة. وسنعود الى الحديث عن السكان فيما بعد.

شيء من التاريخ القديم

تعتمد معرفتنا عن العصور السحيقة في تاريخ الأردن على التنقيب الأثري. فقد حضر العلماء ونقّبوا في أماكن تعد بالعشرات ونظّموا ما عثروا عليه ودرسوه. ونحن نقدم، في هذه العجالة، نماذج مما تم على أيدي علماء الآثار في أريحا والبيضا وتليلات الغسول بالنسبة الى العصور الحجرية الحديثة (أي قبل سنة ٣٠٠٠ ق.م.) وجاوا وسحاب وتل المزار، بالنسبة الى الفترة التي تلت ٣٠٠٠ ق.م.

ومع أن أريحا تقع في فلسطين فان ذكرها هنا ضروري لأنها، بسبب وفرة الماء بها، ظل الناس يستعملونها باستمرار منذ ان دجن الانسان القمح فيها (وهي أقدم مكان معروف في العالم تم فيه ذلك) في أوائل الألف السابع ق.م. ولعله دجن حبوباً اخرى وكذلك بعض أنواع الحيوان (الماعز؟)... ومن اريحا انتشرت زراعة القمح في دوائر كانت تتسع حتى شملت معظم مهد الحضارات الشرقية القديمة. وتقع البيضا في جنوب الأردن (شمالي البتراء). وقد عثر فيها على أربع قرى تعود اقدمها إلى

الألف السادس ق.م. ويبدو ان حضارتها متأثرة بأريحا. والمثل الثالث هو تليلات الغسول التي تعود ابنيتها القروية الى الألف الرابع ق.م. وأهمية البيضا، من الناحية الحضارية، هي ان سكانها أقاموا سدوداً احتجزوا خلفها ماء المطر القليل ليستعملوه لحاجاتهم. فلما تهدمت السدود تفرق القوم أيدي سبا.

وفي الألف الثالث ق.م. وفد الكنعانيون وفروعهم الى الأردن. أما في الألف الذي يليه فقد جاء العموريون. والصفة البارزة لهذه الفترة هي ظهور المدن المسورة المحصنة، التي كانت كل منها دولة قائمة بذاتها. وقد بنيت مدن كثيرة، في الأردن وفلسطين، على مقربة من ينابيع المياه. لكن لدينا مدينة تعود الى تلك الفترة قامت في شمال الأردن هي جاوا. وتقوم جاوا وسط منطقة بازلتية لا ينابيع فيها. ومع ذلك فقد بنى أهلها سداً، جمعوا خلفه مياه المطر، ثم أجروا ماءه الى مزارعهم وبيوتهم ومعابدهم. وقد قدر عدد سكان جاوا بما يتراوح بين ٤,٠٠٠ و٥,٠٠٠ نسمة.

استمرت هذه الحياة المدنية في البلاد، بحيث كان هناك من الممالك بقدر ما يمكن للقبائل المستقرة والمدن المحصنة من الدفاع عن نفسها أو التحالف مع غيرها. وتدل الدراسات والتنقيبات الأثرية على ان البلاد تعرضت حول سنة ١٩٠٠ ق.م. لغزو كبير جاءها من الشرق. وقد أدى ذلك إلى تدمير اكثر معالم الحضارة فيها، بحيث ان مدنها وحصونها ومستوطناتها لم تستعد الحياة الى مدة طويلة، اي الى القرن الثالث عشر ق.م..

وبين القرنين الثالث عشر والسابع ق.م. نجد في الأردن عدداً من الممالك تكاد تتفق في حدودها مع التضاريس الطبيعية للبلاد. ولسنا نرى فائدة من تتبع تطور هذه الممالك، لكننا لا بد من ان نذكر ان ثراءها كان يعود اصلاً الى عناية بالزراعة حيث يسر الأمن، على العموم، ذلك للسكان؛ والى كون المنطقة كانت جسراً تجارياً بين بلاد العرب وسورية وفينيقيا وفلسطين (ومن هنا الى مصر). وفي هذه الفترة، وبخاصة في القرن العاشر، استخرج النحاس في وادي عربة. فكانت صناعته مورد رزق كبير.

ومع ان البلاد، مثل بقية اجزاء بلاد الشام، خضعت منذ القرن السابع ق.م. على التوالي، للأشوريين والكلدانيين والفرس واليونان والرومان والبزنطيين، فقد كانت لها، في أجزاء كثيرة منها، مشاركات مدنية بسبب ما كان يصلها من عناصر المدنية المختلفة مع هؤلاء القادمين وبسبب استعداد سكان البلاد للتفاعل مع هذه العناصر الحضارية القادمة. ولسنا نريد الاطالة لكننا، رغبة في ضرب الأمثلة، نريد ان نشير الى أمور ثلاثة تعطينا معنى صحيحاً للتطور المدني للبلاد خلال تلك العصور وهي: الانباط والمدن العشر والغساسنة.

الانباط: استقر الانباط في البتراء وما يحيط بها في القرن الخامس قبل الميلاد. وهم عرب جاءوا هذه الرقعة من أواسط الجزيرة العربية أو حتى من جنوبها.

وقد حاول السلوقيون، خلفاء الاسكندر في سورية، احتلال بلاد الانباط لكنهم فشلوا. وسبب هذه المحاولات تعود الى رغبة السلوقيين في الاستيلاء على مصادر الثروة في البتراء وما جاورها. وهذه المصادر كانت تشمل القار الذي كان يطوف قطعاً صغيرة على سطح البحر الميت، والذي كان يجمع في شباك، وينقل الى مصر ليستعمل في صنع العقاقير، كما كان مادة أصلية في التحنيط. وأهم من القار هو ان البتراء كانت مركزاً للطرق التجارية البرية (والبحرية عبر خليج العقبة والبحر الأحمر) الآتية من اليمن عبر الحجاز، والواصلة من دومة الجندل (الجوف) عبر وادي السرحان، والموصلة الى فلسطين ومصر وشواطىء البحر المتوسط (في غزة وصور وصيدا) وسورية شمالاً. هذه الطرق كانت تلتقي في البتراء، وتحمل القوافل (من الابل) لبان حضرموت ومر الصومال وطيوب الهند وتوابلها وبرود اليمن وسيوفها الى البتراء، حيث تقوم هذه بتوزيعها على الاقطار الشمالية والغربية. يضاف الى هذا ان الانباط كانوا صنّاعاً ماهرين. فالفخار الذي صنعوه كان من أجمل ما انتجته المنطقة جمعاء. فهو الى زخرفه الانيق الملون الدقيق رقيق الى حد الشفافة. ومنه صنعوا المعاطر والمكاحل والصحون والأطباق والأباريق. كما أنهم استغلوا مناجم النحاس في وادي عربة، وصنعوا العطور الجيدة. وقد أقام الانباط حصوناً لحماية طرقهم وقوافلهم وتجارتهم في ملكهم الواسع الذي امتد، قبيل زمن المسيح، من مداين صالح في شمال الحجاز الى دمشق التي احتلوها سنة ٨٠ ق.م.

وأشهر ملوك الانباط هو الحارث الرابع (حكم ٩ ق.م. ـ ٤٠ ب.م.) الذي عرف باسم «حبيب الشعب». وكان الرومان قد احتلوا سورية سنة ٦٤ ـ ٦٣ ق.م. لكن بومبي وخلفاءه وأغسطوس قيصر والأباطرة الذين خلفوه تركوا للأنباط استقلالهم وتجارتهم، وان كانوا قد ارتبطوا معهم بمعاهدة. فلما تولى العرش تراجان أرسل جيشاً لاحتلال البتراء، فتم له ذلك سنة ١٠٦م. وعندها انشأ ولاية سماها «العربية» هي في واقع الأمر الأردن اليوم مع امتداد الى الشمال، ووصل العقبة والبتراء بطريق امتد الى بصرى ودمشق. وكانت بصرى عاصمة هذه الولاية.

ومع ان دور الانباط السياسي انتهى يومها، فان نشاطهم التجاري والصناعي والمعماري لم يتوقف، بل استمر بعد ذلك أكثر من قرن من الزمان. والبتراء اليوم قبلة الزوار، يشاهدون آثارها المكونة من هياكل وبيوت منحوتة في صخرها الوردي الجميل، والأقنية التي كانت توصل الماء الى تلك الاماكن المرتفعة، والبقايا التي عثر عليها في متحف البتراء.

المدن العشر: لما احتل بومبي سورية (٦٤ ـ ٦٣ق.م.) كان حريصاً على تقوية دفاعها ضد الهجمات من الشرق. فأفاد من مدن كانت قد قامت في شمال الأردن وشمال فلسطين وجنوب سورية وهي مدن يونانية الانشاء والبناء ولكن سكانها كانوا،

الى درجة كبيرة، خليطاً من أهل البلاد الأصليين، وبعضهم عرب، واليونان الذين استقروا فيها. ومع ان هذه المدن كانت تحت اشراف حاكم سورية الروماني، فقد ترك لها الكثير من الاستقلال الذاتي. وقد عرفت هذه المدن تاريخياً باسم «المدن العشر»، ولو انها لم تكن دوماً عشراً ـ فقد كانت ثمان منها اصلية هي النواة، وقد بلغت في أحد الأوقات ثماني عشرة مدينة. والمدن الثمان الأصلية هي سكيثوبولس (بيسان) وپلا (طبقة فحل) وغدارا (ام قيس) وهيبو (قلعة الحصن) وديون (أيدون؟) وكناثا (القنوات) وغراسا (جرش) وفيلادلفيا (عمان). وست من هذه في الأردن (بيسان في فلسطين والقنوات في سورية). أما المدن التي كانت تنضم اليها (وقد تنفصل مختارة) فمنها أربلا (إربد) وكابيتولياس (بيت راس) وكلاهما في الأردن، ودمشق. ومن اليسير ان يتعرف المرء الى أهمية هذه المجموعة من المدن إذا القى نظرة على خارطة للمنطقة. فهناك تلتقي طرق تتجه جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، وفي هذه المنطقة يمكن اقامة خطوط دفاع.

ونود ان نقول هنا كلمة قد نعيدها ثانية فيما بعد. وهي ان هذه المدن، وغيرها من المدن التي قامت في العصر اليوناني الروماني في انحاء سورية بأجمعها، لها صفة المدينة اليونانية ـ الرومانية، من حيث هندستها ومبانيها العامة وهياكلها ومسارحها. ولكن من هم الصناعيون والبناءون والفنيون الذين قطعوا الحجارة وشذبوها وحفروا تيجان الأعمدة وقواعدها، ونحتوا التماثيل القائمة في هذه المدن وفي بعلبك وتدمر وانطاكية والقدس وغيرها؟ لقد كان هؤلاء من أبناء المنطقة بالذات، الذين كان خلفهم مئات السنين من الخبرة الصناعية والمعمارية والفنية.

ولنذكر أيضاً ان سكان المدن العشر أسهموا في الحياة الفكرية. فعندنا مينبوس الشاعر الساخر (القرن الثالث ق.م.) وهناك ميليا نغر الغداري (القرن الثاني ـ القرن الأول ق.م.) المواطن الأصلي الذي كان يتقن الآرامية والفينيقية واليونانية، وقد كان فيلسوفاً على الطريقة الأبيقورية. وثمة أربعة أسماء تعود الى القرنين الثاني والثالث للميلاد وهي: ثيودور وأوينوماوس وأسبينس وأرخاياس. وكلهم أسهم في الحركة الفكرية والفلسفية والأدبية.

الغساسنة: كانت جماعات أو عشائر عربية تنتقل باستمرار الى أواسط الأردن وشماله. ولكننا نجد أن عدد الجماعات أخذ يزداد منذ القرن الثاني للميلاد. ويبدو أن ارتباطات قبلية كانت قائمة باستمرار بين هذه الجماعات. ومن ثم فإننا نجد أن الغساسنة العرب استقروا في الأردن والجولان في القرنين الرابع والخامس للميلاد، وأصبحت لهم في البلاد قوة وبلاط وحضارة. وكانت المسيحية قد انتشرت انتشاراً واسعاً في ربوع الأردن منذ القرن الثالث، واتسعت رقعتها في القرن الرابع. ومن هنا كانت هذه الكنائس الكثيرة التي بنيت بين القرنين الرابع والسادس في ربوع الأردن.

فجرش وحدها فيها آثار اثنتي عشرة كنيسة! وكاتدرائيتها كانت موجودة سنة ٣٥٩ (اشترك اسقف جرش في مجمع سلوقية المسكوني الذي عقد في تلك السنة). وكان الغساسنة مسيحيين، لكنهم كانوا يعاقبة يقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح، وهو مذهب يخالف المذهب البزنطي الرسمي. والغساسنة والبزنطيون كانوا حلفاء مع ذلك. وكان اقباط مصر يعاقبة أيضاً. ومن المؤرخين من يرى في موقف الغساسنة والاقباط من البزنطيين شيئاً أكثر من خلاف على قضية دينية. انهم يرون في ذلك موقفاً وطنياً ضد السلطة الأجنبية، وان اتخذ التعبير عنه الأسلوب الديني.

والكنائس التي بنيت في الأردن في ذلك العصر تمتاز بزخرفتها بالفسيفساء، التي كانت تستعمل للجدران والأرضين. وأجمل الزخارف الفسيفسائية في الأردن هي التي توجد في مادبا وجوارها. وأشهر هذه الزخارف خارطة الأرض المقدسة والبلاد المجاورة لها يتوسطها مصور لمدينة القدس. وحول هذا كله الأبراج السماوية وصور لبعض أنواع النباتات المرتبط نموها بالأبراج. (هذه الفسيفساء موجودة في الكنيسة الأرثوذكسية في مادبا). ومن سوء حظ عدد كبير من هذه المباني ان الزلازل التي كانت تصيب البلاد دمرت الكثير منها. ولعل الزلزال الذي وقع سنة ٧٤٦ للميلاد كان من أشدها ضرراً. وهو الذي خلف جرش مدينة شبه مهجورة.

العصر اليوناني الروماني البزنطي: أشرنا من قبل الى أهمية الأردن بالنسبة الى تجارة المناطق المجاورة وحتى البعيدة عنه. وكثير من المدن التي أنشأها اليونان في العصر الهلينستي (من الاسكندر الى أغسطوس)، والتي بناها الرومان على غرارها، في الأردن وجواره، لها صفات خاصة. منها تعامد شوارعها؛ ومنها وجود الهياكل (الكنائس فيما بعد) والمسارح والسوق أو دار الندوة؛ ومنها العناية بتزيينها وزخرفتها. ومنها الاهتمام بنقل المياه اليها في اقنية من أماكن بعيدة (نقلت المياه الى درعا من نبع يبعد عنها ١٥ كيلو متراً).

وقد اهتمت جميع السلطات التي قامت في الأردن وجواره في هذا العصر (نحو عشرة قرون) ـ السلطات المركزية والمحلية والمدنية والعسكرية ـ بتأمين طرق التجارة، لأن التجارة كانت مورداً كبيراً من موارد الدولة والشعب. ولذلك فقد بنى الرومان (وبخاصة في القرن الثالث الميلادي) المسالح والحصون في الأردن لتأمين الطرق ودفع المغيرين من المشرق والشمال الشرقي. فقد كان ثمة خط دفاعي من المدورة في جنوب البلاد الى مشارف الفرات، وأهم مراكزه كلوه والأزرق والمشتى وعمان وبصرى. وهذا كله أضاف، في فترات كثيرة، الى انتشار الأمن في المناطق الداخلية فنشطت الزراعة وزادت العناية بالمواشي، بالإضافة الى ازدهار الصناعة والتجارة. ولولا ذلك لما أمكن للبلاد ان تقيم مثل هذه المدن وما فيها من الأبنية الضخمة الجميلة التي عملت فيها يد الصانع المحلي الوطني!.

الأردن العربي المسلم

كان العرب، على ما رأينا، قد استوطنوا الأردن قبل الاسلام بمدة لا تقل عن أحد عشر قرناً، من أيام الانباط. لكن الفتح العربي في القرن الأول للهجرة (السابع للميلاد) أدى الى زيادة في عدد العرب في الأردن، كما كان دخولهم أقوى وأشد زخماً.

في السنة الثامنة للهجرة جهز النبي ﷺ حملة الى بلاد الشام، إذ انه كان يرى في تلك البلاد طريقاً الى العالم الخارجي. وسار الجيش يقطع قفار الحجاز حتى هبط معان. إذ عرفوا ان جيش البزنطيين يتمركز في اللجون. وتحرك الفريقان، كل في اتجاه الآخر، حتى التقيا في مؤتة، حيث جرت معركة انتهت بانكسار الجيش العربي. إلا أن هذه المعركة كان لها ما بعدها. فقد سارت فيما بعد الجيوش التي أعدها أبو بكر، ونجحت في احتلال الأردن وفلسطين وحتى مناطق في أواسط سورية. الا أن المعركة الفاصلة كانت في اليرموك (١٥هـ/٦٣٦م) التي كانت نتيجتها ان فتحت بلاد الشام بأكملها أبوابها أمام العرب، ومنها اتجهوا الى مصر. وقد تم هذا في خلافة عمر ابن الخطاب.

وبازدياد عدد العرب في الأردن انتشرت اللغة العربية وقويت مكانتها، كما حدث في كل بلاد الشام، وذلك بسبب ارتباطها بالقرآن الكريم. وأخذ الاسلام بالانتشار تدريجاً، حتى أصبح، فيما بعد، دين الأكثرية من السكان. أما المسيحيون الأردنيون فهم بقية المسيحيين العرب الذين تحدروا من الغساسنة وغيرهم.

اعتبر الأردن جنداً من أجناد بلاد الشام الستة، وكانت عاصمته طبرية، كما كان يمتد الى البحر فيشمل صور وعكا. والجند الموازي له الى الغرب كان جند فلسطين وعاصمته اللد (الى أن بنى سليمان بن عبد الملك الأموي الرملة ونقل الادارة اليها). وقد ظل هذا التقسيم الاداري معمولاً به بعض الوقت.

امتدت فترة الخلفاء الراشدين من ١١ إلى٤٠هـ (٦٣٢ ـ ٦٦١م). وجاء بعدُ دور الخلافة الأموية (٤١ ـ ١٣٢هـ/٦٦١ ـ ٧٥٠م). وكانت دمشق عاصمتها. وجدير بالذكر ان ادارة الراشدين والأمويين الأوائل ابقت على التنظيمات التي كانت معروفة عند البزنطيين، وظلت القيود الرسمية، وبخاصة المالية منها، تدون باليونانية في بلاد الشام (وبالفارسية في العراق وإيران وبالقبطية في مصر) الى أيام عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ/٦٨٥ ـ ٧٠٥م) اذ بدأ بتغيير ذلك ونقل الدواوين الى العربية، الأمر الذي استمر في عهد ابنيه الوليد وهشام. كما ان عبد الملك سك ديناراً ذهبياً ودرهماً فضياً عربيين اسلاميين.

كان خلفاء الأمويين محبين للبناء. ولا تزال من آثارهم الكبيرة في بلاد الشام قبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس، والجامع الأموي في دمشق. إلا أن الأردن أفاد من الامويين في هذه القصور الصحراوية الرائعة المنتشرة في باديته، وأهمها المشتى

وقصر الحرانة وقصر الطوبة وقصير عمرة والأزرق ومسجد قصر الحلابات وحمام الصرح. وثمة قصر هشام شمالي أريحا في فلسطين. وهي بالاضافة الى ترتيبها وبنائها الجميل مزخرفة بالفسيفساء والحفر والرسوم (قصير عمرة).

وكان قيام الدولة العباسية (١٣٢هـ/٧٥٠م) ايذانا بانتقال مركز الثقل من سورية الى العراق. فقد استمرت عملية التعريب في هذه البلاد، كما استمر انتشار الاسلام بين سكانها. وبسبب من عناية المسلمين باداء فريضة الحج، ازداد الأردن أهمية لوقوعه على طريق الحج الشامي، الأمر الذي كان يزداد مع انتشار الاسلام في ربوع آسية الصغرى فيما بعد. ولنذكر أخيراً ان الأردن، وبلاد الشام بجملتها، اصبحت الآن جزءاً من دولة واسعة تمتد من أواسط آسية الى جبال البرانس، وجزءاً من مجتمع يقطن هذه الرقعة الواسعة.

في القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) تعرضت سلطة الخلافة العباسية المركزية للتفكك، وشغلت الخلافة منذ أواسط ذلك القرن وإلى أواخر القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) في أمور ثلاثة مضنية. الأول وثوب بالسلطة في العاصمة؛ والثاني ثورات ترهق الدولة؛ والثالث قيام الخلافة الفاطمية، بخاصة بعد استقرارها في مصر، بمنازعة العباسيين. وبهذه المناسبة فالامارة (ثم الخلافة) الاموية في الأندلس لم تكن أقل منازعة للعباسيين، إلا انها كانت أبعد!.

فالوثوب بالسلطة في الداخل بدأ على أيدي المرتزقة الأتراك، وتبعه قيام الدولة البويهية (٣٢٠ ـ ٤٥٤هـ/٩٣٢ ـ ١٠٦٢م)، ثم استئثار السلاجقة بالسلطة (٤٢٩ ـ ٥١١هـ/١٠٣٨ ـ ١١١٧م)، هذا الى دول قامت في ظل الدولة العباسية في الأطراف من الطولونيين الى الاخشيديين (مصر) الى الحمدانيين (سورية والجزيرة الفراتية) والسامانيين (ما وراء النهر) والصفارية والطاهرية (إيران وافغانستان). هذه أمثلة فقط. وكل من هذه كانت عبئاً، يثقل أو يخف، على الادارة المركزية. وفي نهاية الأمر كانت النتيجة شل الدولة العباسية.

أما الثورات التي قامت ضد العباسيين فكثيرة، منها الثورات العلوية المتعددة وثورة الزنج والقرامطة وما إلى ذلك. وما من ثورة كائنة ما كانت نتائجها، الا وتترك ندباً أو جرحاً أو كسراً في كيان الدولة.

فقيام الدولة الفاطمية في تونس (٢٩٠هـ/٩٠٩م) ثم انتقالها الى مصر واستقرارها هناك منذ أواسط القرن الرابع للهجرة، جعل منها منازعاً ومناوئاً وخصماً للدولة العباسية. وهذه الخصومة كانت عسكرية وسياسية وعقدية.

وقد أشرنا الى هذه الأمور لأن بلاد الشام كانت، في غالب الحالات، ارض معركة بين المتناحرين والمتنازعين. وأصحاب الطموح كانوا يفيدون من ذلك سعياً وراء جر مغنم معجل أو إقامة حكم أو سلطة أو نفوذ يدوم بعض الوقت.

في هذه الفترة من الحكم العربي الاسلامي، التي تمتد من الفتح العربي الى أواخر القرن الخامس (الحادي عشر) كان الأردن في منأى، إلى درجة ما، عن النزاعات المباشرة، لكنه لم يسلم من كل المحاولات. لكن الذي يمكن ذكره هو أن عدد القادمين من الصحراء تزايد، وبخاصة في مناطق السهوب وشبه الصحراء في الأردن. وكان من أثر ذلك تأخر في نمو المحاصيل الطبيعية النباتية ونقص في الحياة الحيوانية البرية. وكانت الأوقات مناسبة لان تقيم القبائل كيانات لها، فتفيد من وجودها في هذه الرقعة الهامة من بلاد الشام، وهي منطقة هامة لانها طريق تجاري. وكانت التجارة تسير قدماً أو تتأخر بنسبة ما يمكن للقبائل من فرض لسلطتها. على أن الموسم الرئيس الذي كانت البلاد تفيد منه هو موسم الحج الشامي، الذي كان عدد مرافقيه يتزايد كلما اتسعت رقعة الاسلام في آسية الصغرى.

على أن الوضع في بلاد الشام بأجمعها تبدل اعتباراً من أواخر القرن الخامس للهجرة. فقد هاجم الفرنجة (الصليبيون) الساحل الشامي آتين بطريق آسية الصغرى، واحتلوا مدينة القدس (٤٩٣/١٠٩٩م)، وأنشأوا مملكة القدس اللاتينية (بالاضافة الى امارات ثلاث في الرها ـ أدسا ـ وانطاكية وطرابلس). وفي أوائل القرن التالي توسع الصليبيون عبر نهر الأردن، وأقاموا لهم سلطة في الجزء الجنوبي من البلاد، رغبة منهم في السيطرة على الطريق التجاري الداخلي، بعد أن ضمنوا الطريق البحري والموانىء اللازمة له. ولأن مواقعهم هناك كانت معرضة لهجمات من جنوب فلسطين، فقد اهتموا ببناء قلاع لهم يتحصنون فيها، ويتخذها امراؤهم مراكز للادارة ايضاً. فبنيت قلعة الشوبك (١١١٥م) وقلعة ايله على جزيرة في خليج العقبة (١١١٦م) وقلعتان في وادي موسى قرب البتراء ثم قلعة الكرك (١١٣٨م).

كان مجيء الصليبيين الى بلاد الشام وانتصارهم قد اثار امراء المسلمين، فقام الزنكيون (٥٢١ ـ ٦١٩/١١٢٧ ـ ١٢٢٢) بالقضاء على امارة الرها، كما حافظوا على حلب وحماه وحمص ودمشق وغيرها من المدن الداخلية فلم ينل منها الصليبيون.

وجاء صلاح الدين الأيوبي (حكم ٥٦٤ ـ ٥٨٩/١١٦٩ ـ ١١٩٣)، فكان وريثاً للزنكيين في مواقفهم من الفرنجة، ومؤسساً لدولة حاربتهم. كما انه وضع أسس الخطة التي قضت عليهم نهائياً بعد نحو مئة سنة. أدرك صلاح الدين أهمية الأردن بالنسبة الى مخططه. فهو صاحب مصر ودمشق. ولكن الاتصال بين مصر وسورية الداخلية لا يتم الا عن طريق الأردن. والقلاع الصليبية التي ذكرنا تقف في الطريق. والأردن هو خط الدفاع الأول، فضلاً عن انه مورد للقوى البشرية. فكان ان وجه همه الى بناء قلعة في مركز عسكري هام. فبنى اميره اسامة قلعة الربض على مقربة من عجلون في شمال البلاد سنة ٥٨٠/١١٨٤. (أما قلعة السلط فتعود الى أوائل القرن التالي).

ولما أخذ صلاح الدين باعداد مخططه لمقارعة الصليبيين احتل قلعة ايلة

(البحرية) سنة ١١٧٠/٥٦٦، وأخذ يناجز القلاع الأردنية القتال. ومع انه لم يحتل الكرك الا في سنة ١١٨٨/٥٨٤، ومع ان الشوبك لم تسقط الا بعد ذلك، وهذا حدث بعد معركة حطين (١١٨٧/٥٨٣)، فان صلاح الدين لم يقدم على المواجهة مع الصليبيين الا بعد أن اطمأن، ولو بعض الشيء، إلى أن خط الدفاع الأول ـ الأردن ـ كان مضموناً. ولما استولى صلاح الدين، في السنة ذاتها، على القدس فقدت القلاع الصليبية في الأردن اهميتها فكان الاستيلاء عليها في السنة التالية (الكرك) ثم الشوبك (بعد مدة قصيرة).

كان المماليك خلفاء الأيوبيين، اذ ان أولئك حكموا مصر وبلاد الشام بين ٦٤٨ ـ ١٢٥٠/٩٢٢ ـ ١٥١٧. وكان من أعمالهم ان اتموا ما بدأه صلاح الدين، فأخرجوا الصليبيين نهائياً من بلاد الشام ١٢٩١/٦٩٠، وقاتلوا المغول في معركة عين جالوت، على مقربة من بيسان في شمال فلسطين، (١٢٥٩/٦٥٩). وقد اهتم حكام بلاد الشام الجدد اكثر من أي دولة عربية اسلامية، منذ الامويين، بالاردن. فرمموا الكثير من القلاع. والكرك بخاصة اضيفت اليها ابنية كثيرة بحيث ان هذه القلعة تبدو اسلامية الطراز والتخطيط أكثر منها فرنجية.

وفي التنظيم الاداري الجديد الذي وضعه المماليك لبلاد الشام قسموها الى ست وحدات ادارية، سموا الواحدة منها مملكة. وكانت مملكة الكرك واحدة منها. ومملكة الكرك كانت تشمل الأردن تقريباً؛ والعاصمة الكرك، حيث يقيم نائب السلطنة، وهو الحاكم الاداري والعسكري لمملكة الكرك. كما كان سلاطين المماليك يقيمون في الكرك مدداً متفاوتة، اما في طريقهم لاداء فريضة الحج، أو للصيد والنزهة. وكان للملك الظاهر بيبرس (حكم ٦٥٨ ـ ١٢٦٠/٦٧٦ ـ ٧٢) والملك الناصر قلاوون (حكم ثلاث مرات بين سنتي ٦٩٣ و١٢٩٤/٧٤١ و١٣٤٠) يد كبرى في ذلك. وقد أنشأ المماليك طريقاً يصل الكرك بالعقبة.

وقد كانت للمماليك عناية بالحج، المصري والشامي على السواء. لذلك فإن مواسم الحج الشامي في أيامهم كانت غاية في الأهمية والمنفعة على الاردن. فمن خانات يجب ان تعد وبرك يجب أن يوفر لها الماء، ومن زاد يجب أن يتوفر، ومن جمال للحاج، ومن جند يحرسون الطريق ومن هدايا تقدم لزعماء القبائل اشتراء لتعاونها، كل هذه الأمور، ومثلها كثير، كانت تفيد منه الأماكن التي يهبطها الحجاج في الاردن في طريقهم الى ارض الحجاز. والطريق، كما ذكرنا، هو الطريق الصحراوي، المحاذي، الى درجة كبيرة، لسكة حديد الحجاز.

كنا نود أن نصف بعض هذه القلاع، لولا خوفنا ان الأمر يطول. لذلك فاننا ندعو الذين يقدرون على ذلك الى زيارة هذه القلاع ـ وآثارها بعد قائمة تزار ـ ولعل اهمها قلاع الربض والسلط والكرك والشوبك.

احتل العثمانيون بلاد الشام في العام السابق لقضائهم على دولة المماليك (١٥١٧/٩٢٢). فأصبح الأردن جزءاً من الامبراطورية العثمانية.

والدولة العثمانية نحت في ادارتها لاجزاء واسعة من الامبراطورية في اتجاهين: الأول انها تركت لأصحاب النفوذ المحليين، ما داموا مبدئياً بعيدين عن العاصمة والسواحل، مكانتهم؛ والثاني انها اهتمت بما يصلها (أو يجب أن يصلها) من الضرائب. ولا يتسع المجال هنا للتحدث عن الادارة العثمانية بعامة، ولكننا نود، قبل ان نقف على عملها بالنسبة الى الاردن، ان نشير الى أمر هام، وهو انه لما كانت الدولة لا تزال تتمتع بالهيبة، الى أواخر القرن السابع عشر الميلادي، كانت الأمور سيئة فقط. لكن لما أخذت الدولة بالضعف، منذ أواخر القرن المذكور، ولما استفحل التدخل الأجنبي في شؤونها فيما بعد، أصبحت مشكلة السكان مع أصحاب النفوذ من الولاة والأمراء وشيوخ العربان وأصحاب الزعامات المحلية مشكلة مزمنة. وكانت المصائب تقع على رؤوس الشعب تترى.

فإذا أخذنا الأردن وجدنا ان البلاد كانت تتعرض الى هذا الذي ذكرنا، والذي يضاف إليه الغزو البدوي. فقد قامت في بلاد الشام الداخلية زعامات بدوية هامة منها، على سبيل المثال، عنزة وصخر، الأولى في سورية والثانية في الأردن. وهذه الزعامات كانت عرضة لمن ينازعها إياها. وقد تعثر الأردن كما تعثرت بلاد الشام بأكثرها. فانعدم النظام الا ما ندر، وتعطلت الموارد الاقتصادية في غالب الحالات. ومع ان الدولة العثمانية كانت تفيق احياناً وتحاول وضع حد لاعتداءات البدو، فان المحاولات لم تكن مجدية تماماً، كما انها لم تكن مستمرة لتؤتي أكلها. فمحاولة نامق باشا (١٨٤٤ ـ ١٨٤٨) في ارسال حملات لاخضاع عنزة وبني صخر، بعد الدمار الذي اوقعوه بالبلاد، لم تأت النتيجة المتوخاة، لأنها كانت عملاً فردياً ينقصه التنسيق مع الولايات الأخرى.

في القرن التاسع عشر كانت ولاية الشام، أو ايالة دمشق، يخضع لها الأردن. ولكن هذا الخضوع أو التبعية كانت اسماً اكثر مما كانت واقعاً عملياً. على اننا يجب ان نذكر ان الدولة العثمانية، بالاضافة الى اهتمامها بالحصول على الأموال عن طريق الملتزمين والولاة، كانت تولي طريق الحج الشامي اهتمامها. فدرب الحج، الذي كان يتبدل بعض الشيء من قبل، استقر في القرن السادس عشر بحيث كان الحجاج الشاميون يمرون، بعد ان يتركوا المزيريب (جنوب سورية) بقلعة المفرق وقلعة الزرقاء وقلعة الضبعة والقطرانة وقلعة الحسا وعنيزة ومعان وعقبة الشام (وهي غير العقبة البحرية) والمدورة. وهذه كلها في الأردن. والذي نعرفه، مما نقله لنا الرحالة الأوروبيون هو ان الحج كان يريح اياماً في المزيريب (ذكر هذا دي فارتما سنة ١٥٠٣، وورد في مذكرات الرحالة الذين زاروا البلاد في القرن التاسع عشر) وفي معان. ونعرف من دوطي انه في سنة ١٨٧٦ كان عدد الحجيج نحو ستة آلاف وكانت تحملهم

ومتاعهم ومتاجرهم عشرة آلاف من الدواب. ونحن اذا نظرنا الى مواقع هذه القلاع، وبعضها من بناء العثمانيين، نجد ان المسافات فيما بينها تتراوح بين ٣٥ و٤٠ كيلو متراً، وهي المسافة التي يستطيع الجمل قطعها في اليوم (بين ١٠ و١٢ ساعة).

كان من المألوف أن يقيم في القلعة اسرة بدوية أو أكثر، ويقيم معها ثلاثة أو أربعة من الجنود. وكان لكل قلعة خزانان واحد للناس والآخر للدواب. فإذا دنا موعد الحج وسير الحجاج، عهدت الدولة الى من يملأ الخزانين (أو أحدهما على الأقل عند شح الماء) بالماء اللازم للحجيج.

وكان على الدولة ان توفر للحجاج سلامة الطريق. فكانت فرقة من الجنود تواكب الحجاج. إلا ان هذه الحراسة لم تكن دوماً كافية، لذلك كان لا بد من إرضاء زعماء القبائل الضاربة أطنابها في تلك الأرجاء. ومن هنا كانت الدولة تبعث الى هؤلاء الزعماء بالهدايا، وأفضل الهدايا كانت «الصرة» التي تحوي مبلغاً من المال.

ولعل أكبر عمل قامت به الدولة العثمانية هو بناء سكة حديد الحجاز، وقد تم ذلك في زمن عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩). كان عبد الحميد يريد أن يقوي مركزه في العالم الاسلامي، وكان يحب أن يؤمن ارسال الجنود الى الحجاز واليمن اذا حدَّثت الأهلين أو حكامهم هناك نفوسهم بالثورة على الدولة. لذلك تبنى فكرة إنشاء سكة حديدية (لمنفعة الحجاج) لما قدم المشروع له سنة ١٩٠٠. فدعا المسلمين في أقطار الأرض الأربعة الى الاسهام في المشروع. فلبى النداء كثيرون. فأسهمت حكومة المغرب وتبرع اثرياء الهنود المسلمون وتبرع موظفو الدولة العثمانية بمرتب شهر من معاشهم. وتم بناء سكة الحديد (بهندسة ومهندسين المان يشترك معهم مهندسون عرب من فلسطين وغيرها؛ وهؤلاء هم الذين تولوا العمل لما وصل الى البلاد المقدسة) من دمشق الى المدينة المنورة، واحتفل بوصول اول قطار إليها في خريف سنة ١٩٠٨. وعزل عبد الحميد، فتوقف العمل.

طول السكة الحديدية الحجازية من دمشق الى المدينة نحو ١٣٠٠ كيلو متر، منها ٤٧٠ كيلو متراً تمر في الأردن. وبهذه المناسبة فقد كانت لسكة حديد الحجاز امتدادات في فلسطين، منها خط درعا ـ حيفا وخط حيفا ـ نابلس وخط نابلس (عند مفرق سبسطية) طولكرم واللد (وادي الصرار).

وبسبب الحرب التركية ـ الروسية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) انتزعت من الدولة العثمانية منطقة القفقاس الغربية وضمت إلى روسيا. ورغب جماعات من سكانها وهم الشركس في ان يخرجوا الى بلاد الاسلام، فأنزلهم عبد الحميد في وادي السير وجرش وناعور وصويلح وعمان. وكانت جماعة من داغستان قد خرجت من بلادها الى تركية لما احتل الروس بلادها (١٨٦٤)، فأنزل عبد الحميد هؤلاء ايضاً، وهم الشيشان، في الزرقاء والرصيفة والسخنة وصويلح.

الأردن الحديث

كانت، منذ العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، قد انتشرت في آسية العربية، وبخاصة في العراق وبلاد الشام بأجمعها، حركة قومية عربية؛ كما ذاعت في المناطق التركية حركة قومية طورانية. وكانت جمعيات عربية كثيرة، بعضها يعمل سراً كجمعية الأخاء والعربية الفتاة، والبعض الآخر يعمل علانية، مثل المنتدى الأدبي في استانبول. هذه الجمعيات العربية كانت تغذي فكرة القومية العربية. ويمكن القول اجمالاً بأن الدعوة العربية هذه تريد للعرب أن تكون لهم شخصيتهم المميزة في اطار الدولة العثمانية، كما تكون للأتراك شخصيتهم المميزة. ولكن الذي حدث بعد خلع عبد الحميد هو ان تولت شؤون الدولة جماعة الاتحاد والترقي، التي كان موقفها من العرب موقفاً عدائياً. وهكذا فالقوميتان العربية والتركية، اللتان كانتا تعملان في خطين متوازيين، أصبحتا الآن في موقف عدائي (او اعتدائي) من جانب الأتراك وموقف دفاعي من جهة العرب. وانتهى الأمر بالكثيرين من زعماء العرب بالتفكير بالاستقلال عن الدولة.

جاءت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) ودخلت تركية الحرب الى جانب المانية (دول الوسط). وهذا حدا العرب على النظر حولهم محاولين الحصول على العون والمساعدة من جهات أخرى. وكان قامت مفاوضات بين بريطانية (نيابة عن الحلفاء) وبين الشريف حسين بن علي أمير مكة، انتهت بأن وعد البريطانيون شريف مكة بتحرير البلاد العربية من النير التركي، وتيسير وحدة العرب واستقلالهم.

فنحن عندما نذكر ان الثورة العربية الكبرى انطلقت من الحجاز لما أطلق الشريف حسين الرصاصة الأولى في التاسع من شعبان ١٣٣٤ للهجرة (في العاشر من حزيران ١٩١٦ للميلاد)، يجب أن نذكر دوماً ان التفاعل والتحاك والاتصال بين العرب انفسهم كان قوياً، وكان يرمي الى الثورة. ويجب ان نذكر ايضا أن بغداد ودمشق وبيروت وحلب والقدس لم تكن صالحة لأن تنطلق من أي منها الرصاصة الأولى، لأنها جميعها كانت في قبضة الدولة وتحت اشراف جيوشها. وكانت الثورة كذلك بحاجة الى رمز وقائد. وهكذا فقد كان الحجاز المكان الصالح لبعده عن متناول السلطة، وكان الحسين القائد والرمز.

وكانت مسيرة الثورة من الحجاز الى الأردن ـ من العقبة ومعان والطفيلة والكرك ومادبا وعمان ودرعا. وفي ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٨ دخل الأمير فيصل دمشق على رأس جيش عربي كان ضباطه وافراده من الحجاز والأردن وفلسطين ولبنان وسورية والعراق، هذا الى متطوعة جاءوا من أقطار عربية أخرى.

ونحن عندما نقول ان الثورة كانت مسيرتها عبر الأردن، فلسنا نقصد انها اجتازته فقط. ان المعارك التي دارت رحاها من الطفيلة الى درعا، والأفراد الذين استشهدوا

والزعماء الذين القوا بأنفسهم الى جانب الثورة والثوار ـ كل هذا يشير إلى اسهام فعلي كبير. وكان ذلك ايماناً من القوم، كما كان إيمان اخوانهم العرب، أنهم كانوا يقاتلون في سبيل امر جلل ـ في سبيل الحرية والاستقلال والوحدة.

وضعت الحرب (العالمية الأولى) أوزارها باتفاقية الهدنة في ١٩١٨/١١/١١ (وكانت تركية قد خرجت من الحرب على أساس اتفاقية مدرس، نهاية تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٨). واتضح للعرب ان الحلفاء قد غرروا بهم. فمع بدء الثورة العربية كانت اتفاقية سيكس ـ بيكو قد وقعت (١٩١٦) بين بريطانية وفرنسا والروسيا لاقتسام املاك الدولة العثمانية الأسيوية. وبموجبه أعطي لبنان وسورية وولاية الموصل لفرنسا، وأكثر العراق لبريطانية (مع جزء من فلسطين)، على أن تكون فلسطين دولية. وقد عدلت هذه الاتفاقية بعد مؤتمر الصلح (١٩١٩) ومؤتمر سان ريمو للحلفاء (١٩٢٠) بحيث أصبحت فلسطين بكاملها والأردن والعراق لبريطانية، وسورية ولبنان لفرنسا.

وعرف العرب ايضاً ان بريطانيا أعطت، بموافقة حلفائها، وعداً لليهود (وعد بلفور، تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩١٧) بأن يكون لهم وطن قومي في فلسطين.

وفي مؤتمر الصلح (باريس ١٩١٩) لم يصغ أحد من الحلفاء للعرب الا من قبيل التأدب أحياناً. وذهب صوتهم أدراج الرياح. ومع ان دولة عربية اقيمت في دمشق بقيادة فيصل بن الحسين، فإن المناداة بفيصل ملكاً دستورياً على سورية المستقلة، اتخذت ذريعة لهجوم فرنسي (معتمد على مؤتمر سان ريمو) على دمشق والقضاء على هذه الدولة (تموز / يوليو ١٩٢٠). وثبتت عصبة الأمم انتداب فرنسا على سورية ولبنان وانتداب بريطانية على فلسطين والأردن والعراق (١٩٢٢). وبذلك بدأت صفحات جديدة في تاريخ بلاد الشام. هذا من الناحية القانونية (؟)، أما من الناحية العملية فالصفحات الجديدة كانت قد بدأت قبل ذلك، على ما مر بنا.

كان الأردن، في عهد الحكومة السورية الفيصلية، جزءاً من الدولة التي قامت في سوريا وقد قسمت الى ثلاثة الوية لتسهيل الادارة وهي: لواء الكرك، ومركزه بلدة الكرك، ويشمل الجزء الجنوبي من البلاد؛ ولواء البلقاء ومركزه السلط، ويشتمل على أواسط البلاد؛ وكان الجزء الشمالي من الأردن جزءاً من لواء حوران، ومركزه درعا، وكان يشمل أزرع والمسمية وبصرى الشام (من سورية) بالاضافة الى عجلون وجرش (من الأردن).

لما قضى الفرنسيون على الدولة العربية في سورية، أصبح الأردن عرضة لكثير من الفوضى فاستنجد السوريون بالملك حسين بن علي، وكان لا يزال في الحجاز، لطرد الفرنسيين، فقاد الأمير عبدالله جيشاً مؤلفاً من حوالى الفي رجل، ووصل الى معان في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٠. وكانت البلاد قد قامت فيها حكومات محلية

(أيلول / سبتمبر ١٩٢٠) بلغ عددها سبعاً. وهذه الحكومات المحلية كانت كل منها تأتمر بأمرة ضابط سياسي بريطاني، وكان رؤساؤها اقوى شيوخ العشائر وأكثرهم سطوة. وجدير بالذكر أن أيا منها لم تتلق معونة مالية أو عسكرية من أي جهة كانت. ومن الطبيعي أن لا يكون لأي منها صفة دولية.

في هذا الجو الأردني الذي كانت تعتمل فيه أمور كثيرة: منها ان بريطانية، بعد ان زال ملك فيصل، كانت تود أن تحل هي محله في الأردن، كي تربط بين فلسطين (والبحر المتوسط) والعراق (والخليج العربي ـ طريق الهند). ومنها ان الأمير عبدالله كان في معان، ومنها أن الثورة العراقية قامت في صيف ١٩٢٠، ومنها ان فرنسا وبريطانيا، وقد كسبتا الحرب، عادتا الى التنافس الظاهر والمستتر، ومنها ان زعماء القبائل والعشائر في الأردن كانوا يحبون ان يحتفظوا بهذه الزعامات الصغيرة (وكأنهم كانوا يعيدون تاريخ فترة قديمة في الأردن تعود الى حول ١٢٠٠ ـ ٦٠٠ ق.م.).

وفي آذار /مارس ١٩٢١ عقد في القاهرة مؤتمر ضم رجال السياسة البريطانية وخبراءها لوضع الترتيبات اللازمة (من وجهة النظر البريطانية) لما سمي يومها الشرق الأدنى (الجزء الذي وقع لبريطانيا). وكان تشرشل رئيساً للمؤتمر بوصفه وزيراً للمستعمرات. وبعدانفضاض المؤتمر التقى تشرشل الأمير عبدالله في القدس. وقد تمخض ذلك كله عن اتفاقية موقتة تقول باقامة حكومة وطنية في شرقي الأردن (كما سميت المنطقة رسمياً فيما بعد) برئاسة الأمير عبدالله، يكون لها استقلال اداري تام، وتسترشد برأي مقيم بريطاني، وتساعدها بريطانيا مادياً لتوطيد الأمن.

وشرع الأمير عبدالله في إقامة الحكومة المركزية في نيسان /ابريل ١٩٢١. وبذلك انتهى دور الحكومات المحلية.

ولما أقرّ مجلس عصبة الأمم الانتداب البريطاني على فلسطين وصيغته، طلبت الحكومة البريطانية استثناء الأردن من الأحكام الواردة في صك الانتداب فيما يتعلق بوعد بلفور وإقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين. وإنه من تكرار القول ان العرب كانوا يرون في الانتداب، جملة وتفصيلاً، نقضاً لوعود الحلفاء، ولذلك فقد رفضوه واعتزموا مقاومته في جميع البلاد العربية المشرقية.

صدر في سنة ١٩٢٧ قانون أردني لادارة إمارة شرقي الأردن (الاسم الرسمي)، فقسمت البلاد بموجبه الى أربعة الوية هي عجلون (اربد) والبلقاء (السلط) والكرك (الكرك) ومعان (معان). واشتمل القانون على انشاء مجالس ادارية في الألوية والأقضية وما الى ذلك.

كانت المشكلة المالية من المشكلات الرئيسة لبلد فقير خارج من حرب وثورة وفوضى. ولذلك فقد قدمت الحكومة البريطانية معونة مالية هزيلة بلغت أقصاها سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ اذ كانت ١٨٠,٠٠٠ جنيه استرليني، وأدناها سنة ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ اذ

هبطت الى ٤٠,٠٠٠ جنيه استرليني، وتراوحت بين الرقمين فيما بين ذينك التاريخين. وبسبب هذه المعونة أصبح للمعتمد البريطاني والمستشار المالي البريطاني حق الاشراف الدقيق على جميع الشؤون المالية. وبهذه المناسبة فقد كان النقد المتداول في البلاد الى سنة ١٩٢٢ يشمل النقود العثمانية والسورية والمصرية. وفي تلك السنة أصبحت جميع المعاملات الرسمية بالنقد المصري. وفي سنة ١٩٢٨ حل النقد الفلسطيني محل الأخير.

كان الأمن وشؤونه يشرف عليه عدد من الضباط والجنود يبلغ نحو ٧٥٠ رجلاً (١٩٢١). وهو عدد ضئيل بالنسبة الى البلاد الواسعة. وقد زيد العدد تدريجاً، وأنشىء الجيش العربي بقيادة بريطانية. ولما انشئت «قوة حدود شرقي الأردن» (١٩٢٦) ودخولها الى شرقي الأردن أصبحت هي المسؤولة عن الدفاع، أما الجيش العربي فقد عهد إليه بالمحافظة على الأمن وانقص عدده (من ١٤٧٢ الى ٨٥٥ فرداً).

ومن نافل القول ان الادارة الأردنية كان يشرف على جميع اتجاهاتها وأعمالها، الداخلية والخارجية على السواء، البريطانيون المرتبطون فعلاً بالمندوب السامي في فلسطين (وكان يسمى المندوب السامي لفلسطين وشرقي الأردن). أما الأشخاص الذين عملوا مع الأمير في الادارة (والسياسة المحدودة طبعاً) من العرب فكان بينهم، بالاضافة الى الأردنيين، جماعة من أهل فلسطين وفئة كبيرة من أعضاء حزب الاستقلال (السوري) ومن لبنان. وقد عملت الادارة البريطانية، وبخاصة ارضاء لفرنسا، على اقصاء الزعماء السوريين عن العمل أولاً، ثم عن البلاد أخيراً.

وفي سنة ١٩٢٨ عقدت معاهدة بين شرقي الأردن وبريطانية. وهذه المعاهدة كانت «مطابقة في روحها لصك الانتداب البريطاني على شرقي الأردن». وكانت تكبل الأمير والبلد بحيث لم تترك مجالاً للعمل المستقل. ووضع لشرقي الأردن قانون أساسي، ولكن هذا القانون كان يقيد حرية العمل، بحيث ان تغييره أو حتى تعديل بعض مواده كان يقتضي موافقة السلطة البريطانية. ومع أن سنة ١٩٢٨ كانت «فاتحة عهد اتسم بالاستقرار الداخلي وإقامة علاقات ثابتة مع الأقطار العربية المجاورة وقيام مؤسسات دستورية جديدة» فإن بريطانية كانت خلال الفترة بين ١٩٢٢ و١٩٢٨ قد «تمكنت من وضع يدها على الادارة والجيش والشؤون المالية». وجاءت المعاهدة تؤكد هذا جميعه.

صدر القانون الأساسي لشرقي الأردن سنة ١٩٢٨، فنص على سلطات رئيس الدولة وإنشاء مجلس تنفيذي (مجلس وزراء فيما بعد) ومجلس تشريعي، ونظم شؤون المحاكم ونص على حقوق المواطنين. والتعديلات التي أدخلت على القانون الأساسي في عهد الإمارة (١٩٢١ ـ ١٩٤٦) لا تعدو كونها تعديلات ادارية كانت، في كثير من الحالات، ترمي الى تقوية قبضة السلطة. والمجلس التشريعي كان «طوال عهد الإمارة

على هامش الأحداث الكبرى التي مرت بالبلاد، وذلك لطبيعة تكوينه من جهة والصلاحيات التي أعطاه إياها القانون الأساسي من جهة أخرى... وكان المجلس التشريعي يمثل الزعامات التقليدية وشيوخ العشائر... فخمس عشرة أسرة أو عشيرة في البلاد قدمت خمسين عضواً للمجالس التشريعية الخمسة البالغ عدد أعضائها ثمانين عضواً».

ولم تظهر في البلاد أحزاب سياسية بالمعنى الصحيح. «فحزب الشعب» (١٩٢٧) كان حزباً حكومياً، و«الحزب الحر المعتدل» (١٩٣٠) تشكل من شيوخ العشائر، و«حزب التضامن الأردني» (١٩٣٣) كانت «أهدافه الدفاع عن الأردنيين وتوثيق الصلات بينهم وتهيئتهم لمتطلبات العصر الحديث». ولعل «المؤتمر الوطني» (الذي عقد لأول مرة سنة ١٩٢٨) كان عنصر المعارضة الرئيس الى سنة ١٩٣٣. وكانت تظهر أحياناً، حتى في المجلس التشريعي والنوادي والجمعيات التي أرادت المعارضة، علامات تضيق الخناق عليها.

والمشكلات الرئيسة التي يمكن القول ان الأردن تعرض لها في عهد الامارة هي: قضية فلسطين، وكان موقف الشعب الأردني منها موقف تعاطف وتأييد واندفاع. والحاجة الماسة الى موارد مالية تعين الحكومة إدارياً وإنمائياً. وكانت بريطانية تقدم (منذ ١٩٢٨) عوناً مالياً يساوي ثلث الموازنة في أغلب الحالات، وان كان هذا ينفق بعضه على مستلزمات الدفاع البريطانية. وفي سنوات الحرب العالمية الثانية زادت بريطانية معاونتها المالية (بحيث بلغت نحو أربعة أخماس الموازنة) ولكن حاجتها الدفاعية ازدادت أيضاً. والمشكلة الرئيسة التي واجهت الأردن هي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥). فقد أعلنت الامارة الحرب على دول المحور، ووضعت كافة امكانات البلاد تحت تصرف بريطانية.

وفي عهد الامارة عينت الحدود بين الأردن والمملكة العربية السعودية والعراق. وأسهمت الحكومة الأردنية في التوقيع على ميثاق جامعة الدول العربية (١٩٤٥)، فكانت عضواً مؤسساً.

وفي سنة ١٩٤٦ وقع الأردن معاهدة جديدة مع بريطانيا كان مجال العمل فيها أوسع من ذي قبل، لكنها ظلت تقيد حرية العمل. وأعلنت الملكية في البلاد. ووضع دستور نص فيه على أن تعديل أحكامه يعود إلى مجلس الأمة.

وكان أن أعلنت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين (٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٧) وقامت حرب فلسطين (١٩٤٨) واشترك الجيش العربي (وكانت قيادته لا تزال بريطانية). وفي سنة ١٩٥١ ضمت الضفة الغربية (من فلسطين) الى الأردن. وفي السنة نفسها اغتيل الملك عبدالله. فتولى العرش الملك طلال بن عبدالله. لكن حكمه لم يطل، وخلفه ابنه الملك حسين، الذي عمل باشراف مجلس وصاية الى أن تولى العرش (١٩٥٢).

وفي عام ١٩٥٧ الغيت المعاهدة الأردنية البريطانية وعربت قيادة الجيش العربي (الأردني). وانضم الأردن الى الأمم المتحدة. وقد كان للنكبة التي أصابت العرب في حرب ١٩٦٧ أثرها في الأردن، إذ إن العدو انتزع من المملكة الأردنية الهاشمية الضفة الغربية.

والأردن، بموجب دستوره المعمول به، دولة ملكية دستورية، دينها الاسلام ولغتها العربية. ومجلس الأمة يتكون من مجلس النواب، وأعضاؤه منتخبون، ومجلس أعيان، يعين الملك أعضاءه ضمن أنظمة معينة. وقد كان أعضاء مجلس النواب يمثلون الضفة الغربية كما كانوا يمثلون الضفة الشرقية. لكن بعد نكبة حزيران / يونيو ١٩٦٧، حل مجلس النواب. الا أن الأردن له الآن مجلس استشاري وطني، يضم أهل الرأي والخبرة ويمثل مختلف التيارات السياسية. ومع أنه استشاري إلا أنه يمارس، بشكل عام، عمل مجلس الأمة في أمور كثيرة. فهو عملياً أكثر من مجلس استشاري. وقد عاد اليوم مجلس النواب إلى سابق عهده، مجلساً منتخباً من الشعب.

الأردن اليوم

الزراعة: مشكلة الأردن الرئيسة، بالاضافة الى القضايا السياسية وعلاقته بالدول العربية والدول الأجنبية، هي تأمين العيش لسكان يتزايد عددهم بنحو ثلاثة بالمئة سنوياً، هذا فضلاً عن الذين ينتقلون اليه أو ينقلون قسراً، من الأراضي الفلسطينية المحتلة.

فنحن إذا أخذنا سكان الأردن الحالي (أي باستثناء الضفة الغربية) لوجدنا أن عدد سكانه كان في عام ١٩٥٣ / ٥٨٦,٨٨٥ / نسمة، فأصبح ٢,١٥٢,٢٧٣ نسمة في عام ١٩٧٩. وليس باليسير على بلد فقير في موارده أن يوفر العيش لهذا العدد الكبير من السكان. ومن هنا نجد أن عدداً كبيراً من الأردنيين يسعون في دنيا الله الواسعة طلباً للرزق.

والأرض التي يمكن أن يستفاد منها في الأردن لا تتجاوز خمس مساحة البلاد، وأكثر من نصف هذه قليلاً، أي ما يزيد عن عشر مساحة البلاد، هو الصالح للانتاج الزراعي. ذلك بأن معدل سقوط المطر، حتى في الأرض الصالحة، هو دون ما يلزم للانتاج الزراعي الملائم. ومع ذلك فان الزراعة في الأردن لا تزال الى اليوم تُشغل نحو ٤٠٪ من القوى العاملة في البلاد، وتكّون بين ١٨ و٢٥٪ من المنتوج المحلي. والمحصولات الزراعية المصدرة الى الخارج تساوي نصف ما يصدره الأردن اجمالاً. ويتضح اعتماد الأرض والزراعة في الأردن على الأمطار اذا نحن قابلنا المنتوج الزراعي لبعض الغلات بين سنتي ١٩٧٢ و١٩٧٣. فقد كانت هذه السنة الأخيرة سنة جفاف هائل. فبينما زاد منتوج القمح في ١٩٧٢ عن مئتي ألف طن، كان منتوجه في السنة التالية خمسين ألف طن فقط. ومثل ذلك يقال عن الشعير والعدس من الحبوب

والبندورة (الطماطم) والبطيخ والزيتون. فقد هبط هذا المنتوج الأخير الى الخمس. وأرض الأردن، رغم الاهتمام بانتاج الخضار وغرس الأشجار المثمرة، فلا تزال زراعة الحبوب، وفي مقدمتها القمح، هي موضع الاهتمام الأول عند الفلاح، ويليه الشعير فالسمسم فالذرة.

والأردن ساع منذ مدة طويلة لتوفير الماء لري الأراضي التي يمكن ريها. وأهم المشاريع هو مشروع قناة الغور الشرقية. وقد بدىء البحث بالمشروع سنة ١٩٥٨. والمشروع يقضي بالافادة من مياه نهر اليرموك (بعد أن تستفيد سورية من مائه ما يلزمها)، بحيث توجه هذه المياه في قناة تحاذي نهر الأردن على ارتفاع يمكن المياه من أن توزع على الأراضي التي تحتاجها. على أن مشروع قناة الغور الشرقية يقضي أيضاً ببناء سدود تجتمع خلفها مياه الزرقا وغيره من الأنهار التي تصب في نهر الأردن، بحيث تضاف هذه الى الماء المحمول من اليرموك من الشمال. وقد وضع التشريع اللازم للبدء بالعمل مع ما يلزم ذلك من تنظيم لملكية الأرض في هذا الجزء من الغور. فقد امتلكت الأراضي هناك، وعوض أصحابها عنها، ثم انشئت وحدات زراعية تتراوح مساحاتها بين ٣ و٢٠ هكتاراً. ولا يسمح للأسرة الواحدة ان تملك أكثر من وحدة، ولا يجوز تقسيم هذه الوحدات. وقد أعطيت هذه الوحدات أولاً لأولئك الذين كانوا يملكون الأراضي هناك، ثم للآخرين من المواطنين. ومعنى هذا أن الملكية الكبيرة (التي كانت على كل حال قليلة في الأردن) الغيت، كما زالت الملكيات الصغيرة جداً. ويقدر الخبراء بأن عدد المتملكين في تلك المنطقة من الأردن نحو ٢٠٪ الا أن التحسين الفني والتقني والعناية التي يبذلها الملاكون والعون الذي يلقونه من السلطات، أدى الى زيادة في الانتاج. وتبلغ المساحة التي ترويها قناة الغور الشرقية عند الفراغ منها ١٢٠,٠٠٠ دونم (الدونم هو ألف متر مربع). أما القناة فيبلغ طولها سبعين كيلومتراً. وقد تم الى الآن القسم الأكبر من المشروع.

وهناك عمل رسمي مستمر لتحسين الزراعة وذلك عن طريق منع انجراف التربة، وجمع المياه القليلة. والأولى بدأت تجاربها في منطقة عجلون. ومن الثانية سد الملك طلال الى الشمال من عمان الذي يجمع المياه المحلية لتروي منها الأراضي المجاورة.

وباستثناء منطقة الأغوار، ففي الأردن ما يزيد عن مليوني دونم أرض تستغل في الزراعة الحقلية (ثلاثة أرباع المساحة تقريباً) وانتاج الخضار (نحو ٧٥,٠٠٠ دونم) وزراعة الأشجار المثمرة (نحو ثلث مليون دونم). وتستغل الآبار الارتوازية كثيراً في ري هذه الأرضين.

ولا يزال في الأردن عدد كبير من السكان يعيش على تربية المواشي. فقد كان في البلاد (١٩٧٥) ما يقرب من مليون وثلث المليون من الأغنام والماعز، ونحو خمسين ألف رأس من البقر.

وبالاضافة الى المساعدات والقروض التي تقدمها الحكومة الى المزارعين، فهناك (سنة ١٩٧٩) ١٤١ جمعية زراعية تعاونية، هذا فضلاً عن ١٧٣ جميعة تعاونية غير زراعية.

الصناعة: كانت الصناعة في الأردن، إلى قبل مدة قصيرة، لا تزيد عن تزويد السوق المحلية بحاجاتها الرئيسة لمصنوعات أساسها المنتوجات والغلات الزراعية مثل الزيت والسجاير الخ. والثروة المعدنية الوحيدة التي عرفها الأردن هي الفوسفات، الذي اكتشف في الرصيفة (شمال شرقي عمان) سنة ١٩٣٢، وصدّر لأول مرة سنة ١٩٥١. ومنتوجه (١٩٧٩) كان نحو ثلاثة ملايين طن. وكانت الصناعة الثقيلة الوحيدة هي صناعة الاسمنت. الا ان الاهتمام بالصناعة، على الصعيد الرسمي والخاص، جذب إليه الأردن. وقد تمركزت النشاطات الصناعية الحديثة في عمان والزرقا. ويمكن القول بأن الصناعة والقطاع المعدني ينتجان ١٦٪ من الانتاج الوطني.

أخذت الحكومة الاردنية الصناعة بعين الاهتمام بشكل خاص عندما وضعت خطة التنمية الخمسية (١٩٧٦ ـ ١٩٨٠). وكانت الخطة تقضي بانفاق ٧٦٥ مليون دينار أردني على مشاريع التنمية المختلفة (زاد المبلغ أثناء تنفيذ المشاريع، بسبب التضخم وارتفاع النفقات). أما المشاريع الرئيسة التي اهتمت بها الخطة الخمسية فهي صناعة الأسمدة الكيمياوية (إنشاء مصنع لها في العقبة) وتوسيع ميناء العقبة، وتوسيع مصفاة البترول في الزرقا وبناء المطار الدولي الجديد. والهدف الأول للخطة هو تشجيع القطاع الصناعي والتعديني.

فميناء العقبة الذي بني في ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠ هو منفذ الأردن البحري الوحيد. وأكثر صادرات الأردن (وبخاصة الفوسفات) تمر به، وكذلك الواردات. فكان من ضمن الخطة الخمسية تحسينه وتوسيع نشاطاته.

أما فيما يتعلق بصناعة الأسمدة فإنها تعتبر الأمل الأكبر في تقوية الصناعة الأردنية. والمصنع الجديد الذي فتح لها في العقبة (١٩٧٥)، قارب في الوصول الى غايته في الانتاج (٦٠٠,٠٠٠ طن في العام). والمادة الخام لصناعة الأسمدة هي الفوسفات الذي هو على درجة عالية من الجودة (اكتشف في الرصيفة ١٩٣٢ أولاً) الذي يوجد بكثرة في الأردن في منطقة تمتد الى وادي الحسا جنوباً. وثمة مشروع أساسه الافادة من البوتاس في البحر الميت. وقد تأخر العمل في هذا المشروع بسبب حرب ١٩٦٧، إلا أن العمل استؤنف مؤخراً. وثمة احتياطي من النحاس في وادي عربة يقدر بخمسة وخمسين مليون طن، ولكن العمل في التعدين هنا لم يبدأ. ومصفاة الزرقا التي انتجت ٧٥٠,٠٠٠ طن سنوياً (١٩٧٤ و١٩٧٥) سيزداد انتاجها بحيث يؤمل أن يصل الى ثلاثة ملايين طن. (وصل مليوناً وثلث المليون من الأطنان سنة ١٩٧٩).

وفي مجال التنمية الزراعية فالخطة الخمسية اهتمت بسد المقارن الذي سيؤدي، عند الفراغ منه، إلى إرواء ٣٦,٠٠٠ هكتار من الأرض الجيدة.

والصناعة التي يعنى بها الأردن هي السياحة. وآثار البلاد حرية بالزيارة. وأنشط قطاع في هذه الصناعة هو بناء الفنادق، وبخاصة في عمان.

وفي الأردن صناعات أخرى، وإن كانت دون ما ذكر من حيث ما تنتجه بالنسبة الى تلك. وهي: صناعة الصابون والسجاير والتتبك وصناعة الدباغة وصناعة الحديد.

التجارة: التجارة الداخلية في الأردن لا تعدو تبادل السلع، وهي المنتوجات الزراعية والمصنوعات ـ التي ينتجها الأردن ـ بين منطقة وأخرى. وهذا أمر سهل لأن الأردن يملك شبكة من الطرق المعبدة تربط مراكز السكان واحدها بالأخرى. فثمة طريقان رئيسان: الواحد يتبع الطريق السلطاني القديم مروراً بالهضاب وعلى مقربة من القمم، والثاني هو الطريق الصحراوي الذي يجاري سيف الصحراء ويكاد يحاذي سكة حديد الحجاز. والطريقان يخترقان البلاد من الشمال الى الجنوب. وثمة عدد من الطرق التي تخترق البلاد من الشرق الى الغرب. وكلها طرق جيدة معتنى بها.

وهناك سكة الحديد ـ وهي جزء من سكة حديد الحجاز ـ التي تدخل البلاد من سورية شمالي مدينة المفرق وتتجه جنوباً مارة بعمان والقطرانة ومعان إلى آخر محطة فيها وهي النقب. وثمة مشروع لتمديد هذا الخط الحديدي الى العقبة. أما إعادة بناء السكة الى المدينة المنورة فقد صرف النظر عنه إذ ثمة شك في فائدته الاقتصادية.

أما في حقل التجارة الخارجية فلا يزال الأردن يتصل بجيرانه اتصالاً مباشراً، والطرق التي تربطه بالسعودية والعراق وسورية جيدة. ولعله من المفيد ان نذكر هنا أنه لما أقفل البحر الأبيض المتوسط في طريق التجارة الخارجية مع دول المشرق في الحرب العالمية الثانية، أفاد الأردن كثيراً في الميدان التجاري لأن كثيراً من البضائع والسلع الأجنبية أصبحت تحمل بحراً الى البصرة وتنقل منها براً الى الأردن ففلسطين وجنوب سورية.

ونحن إذا أخذنا السنوات ١٩٧٧ و١٩٧٨ و١٩٧٩ وجدنا أن الأردن إستورد بما قيمته ٤٤٠ و٤٦٠ و٦٠٠ مليون دينار أردني على التوالي، في حين أن صادراته كانت ٨٠ و٨٠ و١٢٥ مليون دينار أردني للسنوات الثلاث نفسها. ويظهر من هذا ان الميزان التجاري بالنسبة الى البلاد ليس في مصلحتها أبداً. لكن يجب أن نذكر أموراً هامة هي التي تساعد على تعديل هذا الفرق الكبير، وهي: أولاً أن بعض الواردات يعاد تصديرها (وقد تراوحت قيمة هذه السلع في السنوات الثلاث المذكورة بين ٤٠ و٥٠ مليون دينار أردني). ثانياً أن السياحة تدر على الأردن مبالغ طائلة، هذا مع هذا العلم أن عدد الزوار والسياح الأجانب نقص في أعقاب حرب ١٩٦٧. ثالثاً أن قطاع الخدمات (النقل البري والجوي) يسد بعض هذا العجز في الميزان التجاري. رابعاً أن

أبناء الأردن المنتشرين في الخارج والذين يعملون هناك يبعثون بمبالغ طائلة الى البلاد. خامساً أن خط أنابيب البترول الذي كان ينقل النفط من المنطقة الشرقية في السعودية الى صيدا (لبنان) كان يحصل منه الأردن انذاك مبلغاً لا يستهان به. سادساً هناك المساعدات المالية والعينية التي يتلقاها الأردن من الدول العربية أصلاً، ومن غيرها.

والبلاد التي يستورد منها الأردن حاجياته الخارجية هي، بحسب ترتيب القيمة المستوردة (معدلة عن عدة سنوات): الولايات المتحدة وبريطانية والمانية الغربية وسورية ولبنان والسعودية واليابان. أما البلاد التي يصدر إليها الأردن فهي، مرتبة كذلك بحسب قيمة الصادرات: سورية والسعودية والكويت ولبنان والهند والعراق واليابان. على أن هذا الترتيب قد يختلف بين مدة وأخرى، كما أن قيمة الواردات أو الصادرات قد تتبدل بالنسبة الى البلاد المختلفة.

التعليم: بدأت العناية بالتعليم الرسمي بداءة متواضعة في أول عهد الإمارة، إذ بلغ عدد المدارس (١٩٢٢ ـ ٣) ٤٤ مدرسة فيها ٨١ معلماً ومعلمة. ووصل عدد المدارس في نهاية عهد الإمارة (١٩٤٦ ـ ٧) ٧٧ مدرسة كان يعمل فيها ٢١٤ معلماً ومعلمة. وكان بين المدارس اثنتان ثانويتان. ولم تتجاوز موازنة التعليم في عهد الامارة في أي من سنواتها ٧,٣٪ من الموازنة العامة، وكثيراً ما كانت تصل الى اثنين في المئة. وكانت إدارة المعارف تبعث الى الجامعة الأميركية في بيروت نخبة من الطلاب الممتازين بدأ بخمسة، وازداد قليلاً في أواخر عهد الإمارة.

على أنه كان في الأردن في ذلك الوقت عدد كبير من المدارس الخاصة التي كانت تتبع إما طائفة دينية (وطنية) أو مؤسسة تبشيرية (أجنبية).

وإذا نحن انتقلنا الى عام ١٩٧٨ ـ ٩ وجدنا ان عدد الطلاب (والطالبات طبعاً) من رياض الأطفال الى نهاية التعليم الثانوي بلغ نحو ٥٨٠,٠٠٠، يضاف الى ذلك أربعة وعشرين معهداً متخصصاً (باستثناء الجامعتين) تضم مئات من الطلاب في التمريض والمهن الهندسية والميادين الاجتماعية والتكنولوجيا.

وفي الأردن اليوم جامعتان: الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك. انشئت الأولى سنة ١٩٦٢ وانشئت الثانية سنة ١٩٧٧. في الجامعة الأولى توجد الكليات التالية: الآداب، الاقتصاد والتجارة، العلوم، الطب، الزراعة، التربية، التمريض، الشريعة والحقوق. وقد بلغ عدد طلاب الجامعة الأردنية (لسنة ١٩٧٨ ـ ٧٩) نحو ٨,٤٠٠ طالب (منهم ٤٣٪ من الطالبات). على أن الجامعة الأردنية فيها الآن (١٩٨٠ ـ ٨١) حول ١٢,٠٠٠ طالب. وكان عدد أعضاء الهيئة التدريسية (سنة ١٩٧٨ ـ ٩) نحو ستمئة. أما جامعة اليرموك فقد كان فيها (١٩٧٨ ـ ٩) نحو ٢,٢٠٠ طالب (منهم نحو ٢٥٪ من الطالبات)..

وبحسب النشرة الاحصائية السنوية (١٩٧٩) الثلاثين، الصادرة عن دائرة الاحصاءات العامة (في الأردن) وهي النشرة التي استقينا منها المعلومات الاحصائية الحديثة، فقد كان للأردن في العام ١٩٧٨ ـ ٧٩ من الطلاب الذين يدرسون في الجامعات المختلفة ٥٤٨٢٧ طالباً (منهم ٧٢٧١ طالبة). وهؤلاء موزعون على دول العالم تقريباً وأكثرهم في الولايات المتحدة ثم مصر ثم لبنان ثم سورية ثم روسيا ثم فرنسا ثم بريطانيا وإيطاليا. وعدد كبير منهم يدرس في دول الكتلة الشرقية.

أما الموضوعات الرئيسة التي يهتمون بها في النواحي النظرية فهي: الانسانيات والقانون والعلوم الاجتماعية. لكن عدداً كبيراً جداً منهم ينصرف الى الطب والهندسة والعلوم الطبيعية.

المجتمع الأردني: يبلغ عدد سكان الأردن (٢,١٥٠,٠٠٠) نسمة تقريباً. ويقيم من هؤلاء نحو ١,٨٠٠,٠٠٠ نسمة في محافظتي عمان وأربد، أي في الجزء الشمالي من البلاد. وأكثر سكان محافظة معان (٧٥,٠٠٠) من البدو. أما محافظتا البلقاء والكرك، وتقعان في اواسط المملكة، ففيهما نحو ١٤٠,٠٠٠ نسمة. والمناطق الشرقية من هاتين المحافظتين فيهما عدد كبير من البدو. ومعنى ذلك انه ما كان يقال قبل نحو خمس وعشرين سنة عن المجتمع الأردني انه مجتمع تغلب عليه البداوة، لم يعد صالحاً للتعبير عن ذلك. ومع أننا لا نملك أرقاماً دقيقة لسكان المدن والبلدان الأردنية، فإن التقدير هو ان عمان (العاصمة) والزرقا وأربد، وهذه أكبر مدن الأردن، تحوي أكثر من نصف السكان. والانتقال من الريف الى المدينة ظاهرة واضحة في الأردن. ومحافظتا عمان وأربد تحويان أكثر الأراضي الزراعية (في الأغوار وفي المناطق التي تفيد من الأمطار أو الآبار الارتوازية). لذلك فإن السكان الزراعيين هم أكثر عدداً في هاتين المحافظتين من بقية البلاد. واليوم يبلغ سكان الأردن الأربعة ملايين ونصف المليون نسمة.

خاتمة

الأردن يجاهد في سبيل الحياة جهاداً كبيراً. فموارده محدودة. وحتى المورد السياحي تقلص بعد حرب ١٩٦٧. ومع ذلك فهناك نشاط كبير في نواح مختلفة. ومن الطبيعي ان يهتم الأردن بأن تكون علاقاته التجارية مع جيرانه ميسرة لنقل ما عنده واستيراد ما يحتاج إليه. ويتلقى الأردن مساعدات مالية من بعض الدول العربية ومن الولايات المتحدة وبريطانية ومن الصندوق الدولي.

١٩ ـ فلسطين

تبلغ مساحة فلسطين ٢٧,٠٢٤ من الكيلومترات المربعة. وهي، من النواحي الجيولوجية والجغرافية والتاريخية، جزء من المنطقة التي تضم لبنان وسورية والأردن، يحدها غرباً البحر المتوسط، وشرقاً خط يبدأ من تل القاضي، على مقربة من بانياس، ويمتد جنوباً عبر حوض بحيرة الحولة فنهر الأردن مخترقاً بحيرة طبريا، ثم يكّون الأردن الحد الشرقي الى البحر الميت، حيث يتجه الخط جنوباً قاسماً البحر الميت الى شطرين. ويستمر الخط عبر وادي العربة الى خليج العقبة. ويحدها جنوباً خط يمتد من جنوبي رفح الى خليج العقبة. وشمالاً يبدأ الحد الذي بين لبنان وفلسطين من رأس الناقورة ويتجه شرقاً فيلتقي بالحد الشرقي عند تل القاضي. وفي هذا الخط بعض التعرج إذ إنه ينحرف قليلاً الى الشمال جنوبي مرجعيون.

تتكون فلسطين من مناطق ثلاث واضحة المعالم هي: السهل الساحلي، مرتفعات الجليل ونابلس والقدس والخليل، وغور الأردن. وثمة سهل داخلي متسع هو مرج ابن عامر. والسهل الساحلي يتكون من جيب سهلي في الشمال يقع بين رأس الناقورة وحيفا، طوله على الشاطىء نحو ثلاثين كيلو متراً ويمتد شرقاً الى البصة وعمقة وكفر ياسين وشفا عمرو، حيث يلتقي بالسفوح الغربية لمرتفعات الجليل، ثم ينتهي بحيفا عند جبل الكرمل. يعرف هذا السهل بسهل عكا. والى الجنوب من جبل الكرمل يأخذ السهل الساحلي بالاتساع تدريجاً ويتراوح عرضه بين خمسة عشر وخمسة وعشرين كيلو متراً، ويبلغ أقصى عرضه عند غزة. والجزء الجنوبي من السهل الساحلي كان يسكنه الفلسطينيون وهم الذين أخذت فلسطين اسمها عنهم.

تكّون سهل عكا والجزء الأوسط من السهل الساحلي من الطمي والغرين اللذين نقلتهما الأودية والأنهار من جبال الجليل وجبال نابلس وجبال القدس. وتربة هذه الأجزاء خصبة بطبيعتها، فإذا تيسر لها الماء أعطت منتوجاً جيداً. وتكثر كثبان الرمل على الشواطى، وقد تسد المجاري الدنيا للأنهار في محاولتها الوصول الى البحر، فتتكون مستنقعات قرب الشاطىء. ويسمح تنوع التربة بانتاج انواع مختلفة من المزروعات كالحمضيات والأشجار المثمرة والخضار في الجهات التي تكون التربة فيها ثقيلة تخينة، والزيتون والحبوب في الأجزاء التي تكون فيها التربة أقل كثافة. والأرض حول غزة أقل انتاجاً بسبب كثرة الكثبان الرملية هناك.

وسلاسل الجبال الفلسطينية هي ثلاث مجموعات: مرتفعات الجليل وجبال نابلس وجبال القدس والخليل. ويفصل جبال الجليل عن جبال نابلس مرج ابن عامر الذي يقع بين حيفا والناصرة وجنين، وله امتداد شرقي جنوبي نحو بيسان يعرف بوادي عين جالوت. ومياه الأمطار التي تسقط على هذا السهل، إذا لم تمتصها أرضه، تتوزع غرباً على نهر المقطع (الذي ينبع قرب جنين ويصب شمالي حيفا) وعلى الأودية التي تنحدر شرقاً لتصب في الأردن.

أما غور الأردن فيمتد من جنوبي بحيرة الحولة (التي تم تجفيفها قبل سنة ١٩٥٧) ويشمل بحيرة طبرية، التي تنخفض نحو مئتي متر عن سطح البحر، حتى يصل الى البحر الميت. وهنا يبلغ الانخفاض عن سطح البحر نحو أربعمئة متر. ووادي عربة، من الناحية الجغرافية، تتمة لغور الأردن.

جبال الجليل، في الجزء الشمالي من فلسطين، تمتد نحو خمسين كيلومتراً من نهاية سهل عكا غرباً الى مشارف بحيرة طبرية شرقاً، وما يقرب من ذلك من الحدود اللبنانية (جبل عامل) شمالاً الى مرج ابن عامر جنوباً. ويبلغ معدل ارتفاعها بين ٣٠٠ و٦٠٠ متر، الا أن فيها قمماً مرتفعة مثل الجرمق (وهو أعلى جبال فلسطين) وعلوه ١١٠٠متر وجبل كنعان ٨٤١ متراً وجبل الطور ٦٥٠ متراً. وجبال الجليل، في كثير من الأحيان لا تعدو أن تكون تلالاً مستديرة واضحة الخطوط مكسوة بالعشب. وهذه المرتفعات تنتهي بشكل مفاجىء في الجنوب عند الناصرة.

وإلى الجنوب من مرج ابن عامر تبدأ جبال نابلس وتمتد الى الجنوب من مدينة نابلس، وإذا أضفنا اليها جبل الكرمل الذي يبدأ عند حيفا ويتصل بجبال نابلس حول جنين، كانت الرقعة التي تشغلها قريبة من رقعة جبال الجليل. وتطل هذه الجبال على غور الأردن شرقاً والذي تزوده ببعض مياهه عبر وادي الفارعة وغيره. وهذه الجبال أقل ارتفاعاً من جبال الجليل على العموم، وفيها جبل واحد هو جبل جريزم (قرب نابلس) يرتفع الى نحو ألف متر. وأعلى ارتفاع في جبل الكرمل هو ٥٥٠ متراً. وقد أثرت عوامل التعرية في جبال نابلس فخددت أودية كثيرة. وفي الواسع من هذه الأودية استقر الغرين وكون سهولاً داخلية ضيقة لكنها خصبة. إلا أن جبال نابلس أفقر في الموارد الطبيعية من جبال الجليل، فترتبها أفقر وينابيعها أقل.

وتشغل جبال القدس والخليل الجزء الجنوبي من المرتفعات الفلسطينية، يتراوح ارتفاع القسم الأكبر منها بين ٥٠٠ و١٠٠٠ متر. وتكّون هذه الجبال مرتفعات متصلة بحيث تكوّن هضبة عالية. وتظهر الصخور الكلسية الطبشورية على السطح. وتغلب عليها أنها مناطق صخرية جرداء واسعة وصخور متفرقة متباعدة وبعض الأخاديد التي تقع على جنبات التلال. وتغلب على هذه المناطق أن تكسو أجزاء صغيرة منها نباتات من نوع الأنجم والنباتات الشوكية. ومن القدس الى الشرق، حتى البحر الميت، تقع

«برية القدس» العارية الجرداء الغبراء. وتمتد هذه الجبال الى الجنوب من مدينة الخليل (خليل الرحمن) بحيث تتصل بالنقب. والنقب هضبة يتراوح ارتفاعها بين ٣٠٠ و٦٠٠ متر. الا ان بعض المرتفعات هناك تتجاوز المعدل العام بنحو ٣٠٠ متر.

الى المغرب من جبال القدس والخليل وجبال نابلس تمتد منطقة تلال انتقالية (نحو السهل الساحلي)، تنحدر انحداراً تدريجياً، وفيها أودية واسعة نسبياً تغطيها طبقة من التربة تصلح للزراعة.

وغور الأردن جزء من الشق الجيولوجي الكبير الذي يبدأ في شمال سورية وينتهي في البحر الأحمر جنوباً (ومن الجيولوجيين من يربطه حتى بالبحيرات الاستوائية الافريقية). وإذا اعتبرنا بانياس نقطة ابتداء الغور وجدنا ان جزءه الممتد من هناك الى نحو خمسة كيلو مترات جنوبي الحولة يتكون قاعه من الطمي. ويلي ذلك واد بركاني يمتد حتى بحيرة طبرية. أما بقية وادي الأردن الى الجنوب من بحيرة طبرية فيتكون قعره من الطمي الكلسي. وإلى الجنوب من سهل بيسان يأخذ النهر بحفر مجرى عميق. وتغطي عدوات النهر الواسعة نباتات مدارية مثل القصب. أما الأجزاء المرتفعة من حوض النهر فهي صخور وأتربة كلسية قاحلة. وترتفع الملوحة في هذه المناطق كلما اتجهنا جنوباً. وطول هذا المنخفض من الشمال الى خليج العقبة نحو أربعمئة كيلو متر. وغور الأردن بأجمعه، مع البحر الميت وإلى نحو ١٣٠ كيلو متراً جنوبي هذا البحر في وادي عربة، كل هذه تقع تحت سطح البحر. والانحدار من جانبي الغور ـ من فلسطين ومن الأردن ـ هو فجائي (من القدس أو من عمان الى البحر الميت الانخفاض نحو ١٣٠٠ متر).

الأردن أكبر أنهار فلسطين. وينابيعه في الشمال هي الحاصباني وبانياس واللدان. وترفده نهيرات من الجهة الغربية. أما من الأردن فيصب فيه اليرموك والزرقاء. وفي فلسطين أنهار ساحلية هامة بالنسبة للري هي، من الشمال الى الجنوب، المقطع والأزرق والعوجا.

مناخ فلسطين يتأثر بأمور ثلاثة أولها أن الجبال تمتد من الشمال الى الجنوب موازية للساحل. وثانيها وجود مناطق صحراوية واسعة الى الجنوب والجنوب الغربي من فلسطين (سيناء، ومصر، وليبيا). والثالث ان اليابس، وفيها الصحاري أيضاً، تقع الى الشرق من البلاد. وتقع فلسطين في منطقة البحر المتوسط، ومن ثم فصيفها جاف طويل، وشتاؤها رطب قصير. ويمكن القول إجمالاً ان شمالها أكثر مطراً من جنوبها، وغربها أغزر مطراً من شرقها. فالأجزاء الساحلية (وحتى الجبلية) الشمالية تستقطب من المطر بين ٥٠ و١٠٠ سم سنوياً. أما منطقة غزة فيسقط فيها بين ٢٥ و٣٧ سم فقط. وتبلغ الحرارة أشد انخفاضها في شهري كانون الثاني وشباط (يناير وفبراير) إذ تصل الى نحو ١٢ درجة مئوية في السواحل. أما في الجبال فتنخفض الى

دون ذلك، إذ تصل إلى ٨ مئوية. وشهر آب (أغسطس) هو أشدّ الشهور حرارة. وقد سجلت فيه لحيفا ٣٢ مئوية وليافا ٣٠ مئوية ولغزة ٣٩ مئوية. وأشد المناطق حرارة هي الغور والنقب. ففي الأولى تكون حرارة أريحا، أكثر شهور الصيف، ٣٨ مئوية (ولكنها قد تبلغ ٤٣ أو حتى ٥٠ مئوية). وفي بئر السبع معدل حرارة الصيف ٣٥ مئوية.

الحياة النباتية في فلسطين غنية ومتنوعة، إذ فيها نحو ثلاثة آلاف نوع. ففي منطقة حوض المتوسط، وهي السهول الساحلية والسفوح الغربية للمرتفعات، ينمو نحو ١٥٠ نوعاً من النباتات لا تنمو في المناطق الأخرى. فالأشجار تشمل السنديان والبلوط والصنوبر الحلبي والأنجم وأكثرها البطم. ومنطقة السهوب ـ السفوح الشرقية للمرتفعات والنقب الأعلى ـ فيها النباتات الشوكية (النتش) وأشجارها تشمل الخروب. أما المنطقة الصحراوية فهي النقب الجنوبي ووادي عربة وجنوب منخفض الأردن. وهي منطقة جافة، إلا في أعقاب سقوط بعض المطر، حيث يمكن رعي الماشية لبعض الوقت.

عد الباحثون نحو ثمانية آلاف نوع من الحيوانات في فلسطين. وعرفت البلاد الفهد والضبع وابن آوى والثعلب والدب والحمار الوحشي والغزال، كما ربيت فيها الماعز والأغنام والأبقار والخيل والابل والحمير. وقد وجدت في فلسطين الهوام المؤذية مثل الجراد والبعوض والأفاعي والحشرات الأخرى.

إن موقع فلسطين جعلها جسراً يربط بين مصر ولبنان وسورية والحجاز والعراق. فالمتنقل كان يجتاز صحراء سيناء ويدخل فلسطين عند رفح (أو غزة) ويتم سيره شمالاً عبر الساحل الى حيفا فعكا فصور وصيدا. ويمكنه أن يتجه شرقاً بعد مروره بطولكرم الى مرج ابن عامر. وهذا السهل كان نقطة تفرع لطرق تتجه نحو دمشق أو نحو صور (بطريق عكا أو رأساً) أو نحو بيسان فالأردن. وكان ثمة طريق يقطع البلاد من الجنوب الى الشمال من بئر السبع الى الخليل فالقدس فنابلس فجنين فمرج ابن عامر. والطرق الغربية الشرقية كثيرة وتصل بين الموانىء والداخل فالأردن وسواها.

فلسطين في العصور القديمة

استوطن الإنسان فلسطين منذ أقدم الأزمنة. وقد عثر المنقبون على آثار بشرية متحجرة في شمال فلسطين (قرب طبرية والناصرة والكرمل) ترجع الى عشرات الآلاف من السنين. ويبدو أن الحياة البشرية العادية عرفت في فلسطين منذ عشرة آلاف سنة أو أكثر. وقد دلّت أعمال الحفر الأثري التي تمت في أريحا أن هذا المكان دجن فيه القمح (والشعير؟) والماعز في الألف السابع (أو الثامن) ق.م. غير ان حفريات جديدة اظهرت ان تدجين الحبوب تم أول ما تم في تل مريبط في شمال شرق سورية. وفي الألف الخامس ق.م. كان يقطن في فلسطين وسورية ولبنان قوم صفاتهم

الجسدية متشابهة، مما يدل على تمازج كبير في السكان. وكان هذا الشعب (أو الشعوب المتشابهة) تصنع الخزف المدهون (أريحا وبيسان وغزة) ولعلّ هذا التأثّر الفني الزخرفي جاء من أرض الرافدين.

وحول سنة ٣٠٠٠ ق.م. نجد أن عدد السكان في فلسطين يتزايد، بسبب الاقبال على الزراعة والتجارة (بين مصر وأرض الرافدين) وتقوم في البلاد مدن كثيرة مسورة، كل منها لها حكومتها المستقلة. ومن أقدم هذه المدن القدس وحازور (في الجليل) ومجدو وتعنك (قرب جنين) ونابلس القديمة. والمكان الذي حافظ على مكانته وأصبح مدينة في ذلك الوقت هو أريحا. وهي، بهذه المناسبة، أقدم مكان معروف في العالم ظل مأهولاً طيلة عشرة آلاف سنة أو أكثر!.

ومنذ أوائل الألف الثالث ق.م. أخذت شعوب سامية تنتقل من البادية الى فلسطين (وسوريا ولبنان) وأكبرهم ذكراً هم الكنعانيون (الذين استقروا في فلسطين وفي لبنان باسم الفينيقيين) والعموريون (سورية). ومع أن المصريين ارسلوا حملات الى فلسطين لاحتلالها، فإن العلاقات التجارية كانت أقوى. وخطت فلسطين خطوات حضارية هامة في هذه الفترة... فبدأ الناس يستعملون البرونز في صنع أدواتهم، وارتفعت الأسوار حول المدن وحصنت بالأبراج، وعندنا مثلان للمدينة الفلسطينية في هذه الفترة: جازر في السهل الساحلي التي كان سكانها يستوردون الخواتم والأقراط والأساور والعاج من مصر، وأريحا التي كانت مساحتها نحو عشرين دونماً.

بين سنتي ٢٠٠٠ و١٥٠٠ ق.م. طرأت على الشرق الأدنى موجات من الشعوب جاءت من الجهة الشمالية الشرقية. فأدى ذلك الى زحزحة الشعوب الأصلية المستقرة. ومن هذه الجماعات المتنقلة الهكسوس الذين وصلوا مصر عن طريق فلسطين. وكان الهكسوس يعرفون الحصان والمركبة، لذلك تغلبوا على مصر بسهولة، وأنشأوا لهم مملكة هناك. ولما أخرج الهكسوس من مصر، أنشأ المصريون الامبراطورية التي كانت وحيدة في الميدان السياسي والحربي (١٥٨٠ ـ ١٣٤٥ ق.م.) فاحتلت جيوشها بلاد الشام بأكملها تقريباً. لكن بين ١٣٤٥ و١٢٠٠ ق.م. كان الحثيون يزاحمون المصريين في بلاد الشام. وقد انتهى عصر الامبراطوريتين حول ١٢٠٠ ق.م.

في ذلك الوقت، على التقريب، كان الكنعانيون يسيطرون على فلسطين وعندها دخل العبرانيون الى فلسطين وجاء الفلسطينيون. واستقر الأولون في المرتفعات، وهبط الفلسطينيون الساحل.

العبرانيون الذين استقروا في المرتفعات الفلسطنية حول ١٢٠٠ ق.م. أو قبل ذلك بقليل، هم خليط من الأراميين والعمونيين والأدوميين والكنعانيين. وقد جاءوا معهم بعبادة يهوه. وباختلاط العبرانيين بالكنعانيين المقيمين في فلسطين وجوارها تعرفوا الى قوانين حمورابي وتعلموا الزراعة واستعمال الحديد وركوب الخيل. وكانت فتوحهم

في البلاد قبلية، ثم تم لهم انشاء مملكة على يد شاوول (١٠٢٥ ق.م.) وقد كان لداود وسليمان (١٠١٦ ـ ٩٣٦ ق.م.) الدور الكبير في انشاء مملكة العبرانيين التي كانت القدس عاصمتها. وبعد وفاة سليمان انقسمت المملكة الى مملكة شمالية وعاصمتها السامرة ومملكة جنوبية وعاصمتها القدس. وقد قضى الآشوريون على الأولى (٧٢٢ ق.م.) كما قضى الكلدانيون على الثانية (٥٨٦ ق.م.).

وقد كانت تجارة فلسطين، في الفترة التي مرت بين انهيار الامبراطوريتين الحثية والمصرية وقيام الدولة الآشورية (من حول ١١٠٠ ـ ٦٠٠ق.م)، رائجة مع عدن ومصر والبحر الأحمر والعالم الإيجي.

ولم تطل مدة الامبراطورية الكلدانية إذ قامت الامبراطورية الفارسية في أواخر القرن السادس ق.م. وخضعت فلسطين مع لبنان وسورية ومصر لها حتى جاء الاسكندر سنة ٣٣١ ق.م.

مرت بفلسطين، كما مرت بالمنطقة بأجمعها، خلال الألف سنة التي انقضت بين الفتح اليوناني (على يد الاسكندر الكبير) والفتح العربي، فترات وأحداث هامة جداً. ويمكن اجمال الأحداث فيما يلي: (١) انشاء امبراطورية الاسكندر، التي تقسمت بعد موته وكانت فلسطين، لمدة قرن ونصف القرن، ساحة حرب بين السلوقيين في سورية والبطالمة في مصر. وأخيراً انضمت الى السلوقيين. (٢) في النصف الثاني من القرن الأول ق.م. احتل الرومان فلسطين لما تولى بومبي أمر تنظيم المنطقة الشرقية. (٣) ظهرت المسيحية في فلسطين ـ مكان ميلاد السيد المسيح وحياته وتعاليمه ـ انتشرت خلال القرون الثلاثة الأولى في المنطقة كلها. (٤) اعتنق قسطنطين الكبير المسيحية (٣١٢م)، وقام ببناء كنيسة المهد في بيت لحم وكنيسة القيامة في القدس، بالاضافة الى كنائس أخرى في فلسطين. (٥) سنة ٣٩٥ انقسمت الامبراطورية الرومانية الى قسمين: الشرقي وعاصمته القسطنطينية، والغربي وعاصمة روما. وكانت فلسطين تابعة للقسطنطينية، أي للدولة البزنطية. (٦) كانت المنافسة قوية بين البزنطيين وبين الساسانيين والحروب كثيرة. وكان أشد الحروب تلك التي قامت في أوائل القرن السابع. فقد استولى الساسانيون على دمشق (٦١٥) وساروا نحو القدس واحتلوها ونهبوها. واستعاد هرقل فلسطين من الساسانيين (٦٢٩)، واستعاد منهم الصليب المقدس واحتفى باعادته الى كنيسة القيامة.

وفي الفترة التي تسمى العصر البزنطي (من الامبراطورية الرومانية الشرقية) والذي امتد من ايام قسطنطين الى الفتح العربي، كان لفلسطين وأبنائها مشاركة في التطور الفني والأدبي واللاهوتي الذي شهدته الامبراطورية البزنطية. فالكنائس وتصميمها وزخرفتها، والفسيفساء التي انتشر استعمالها في المنطقة، والدراسات الأدبية واللاهوتية التي كانت قيسارية وغزة من مراكزها الكبرى، والشعر الذي نظم

في البلاد ـ كل هذه الأمور كان لأهل فلسطين نصيب فيها. وكانت المساهمة باللغة اليونانية.

الى هذا كان مسيحيو فلسطين، مثل الغساسنة والاقباط المصريين وكثيرين من مسيحيي سورية قد أخذ بالمذهب القائل بالطبيعية الواحدة للمسيح (اليعاقبة). وكان لهم جميعاً مشاركات في النقاش حول هذه الموضوعات. وحري بالذكر ان قبول هذا المذهب المسيحي عند سكان بلاد الشام ومصر كان يعني قبول مذهب لا ترضى به ولا عنه الدولة. لذلك يعتبر المؤرخون تصرف سكان فلسطين والجوار ثورة وطنية على الحكم البزنطي في ذلك الوقت (القرن السادس بشكل خاص).

فلسطين عربية

كانت للعرب صلات قديمة بفلسطين. فالانباط والغساسنة والايطوريون (في لبنان) كانوا يتاجرون مع فلسطين منذ ان قامت البتراء ونشأت الجابية وقامت خلقيس (عنجر). وكان الغساسنة وسكان فلسطين مسيحيين من القائلين بالطبيعة الواحدة (اليعاقبة)، وهذه صلة هامة في حياة الناس يضاف إليها ان العرب كانوا يقيمون اقامة دائمة في النقب وفي الجزء الجنوبي من السهل الساحلي حول غزة وما جاورها، وقد استوطنوا تلك المناطق منذ القرن السابع ق.م. بل هناك ما يدل على ان العرب سكنوا حول قيسارية، في الاجزاء الوسطى من السهل الساحلي. وإذن ففلسطين عرفت العرب قبل الفتح العربي. لكن الفتح نقل عدداً أكبر من العرب الى البلاد.

ومع ان السرايا الاولى دخلت فلسطين في ١٢هـ/٦٣٣، فان المعركة التي فتحت ابواب بلاد الشام، وفلسطين في المقدمة، امام العرب هي معركة اليرموك (١٥/٦٣٦)، والتي تلاها تسلم الخليفة عمر بن الخطاب القدس من صفرونيوس بطريركها.

كانت فترة الراشدين (١١ ـ ٤٠هـ/٦٣٢ ـ ٦٦١) فترة فتح وتجربة في الحكم بالنسبة للعرب، ثم انشغل القوم بحرب اهلية. ولكن العهد الأموي (٤١ ـ ١٣٢/٦٦١ ـ ٧٥٠) شهد تنظيماً للأمور، خاصة في ايام معاوية المؤسس وأيام عبد الملك وابنائه الوليد وسليمان وهشام وعمر بن عبد العزيز. فمن ذلك تعريب الدواوين وتعريب النقد الذهبي وانشاء الدواوين الهامة. وكانت الحركة التجارية نشيطة، وفلسطين اسهمت في ذلك. وفي أيام الأمويين حصلت فلسطين، بالاضافة الى الحصة العامة، على الأمور التالية: (١) انشاء مدينة الرملة (سليمان بن عبد الملك). (٢) بناء قصر هشام بن عبد الملك (خربة المفجر) شمالي أريحا، وقصر خربة المنية قرب بحيرة طبرية. وفسيفساء قصر هشام من أجمل ما عثر عليه في المنطقة. (٣) مسجد قبة الصخرة (عبد الملك بن مروان). والقبة تقوم فوق الصخرة التي شهدت اسراء النبي وعروجه الى السماء. وقبة الصخرة جوهرة في فن العمارة العربية الاسلامية. (٤) المسجد الاقصى في القدس. (٥) انشاء دور للصناعة وموانىء في عكا وقيسارية.

ومع ان قيام الخلافة العباسية (١٣٢/٧٥٠) كان معناه انتقال العاصمة من بلاد الشام الى العراق، وان بلاد الشام اصبحت ولاية عادية، فإن المؤرخ المنصف يجد ان فلسطين افادت من وجود الطولونيين في مصر (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ/٨٦٨ ـ ٩٠٥) تجارياً، فأعيد الى عكا اهميتها كميناء لما بني فيها حوضها وأديرت به الأسوار.

ولعلنا اذا وقفنا عند نهاية القرن الثالث / القرن التاسع، واستشرفنا ماذا حدث في فلسطين خلال القرون الثلاثة التي مرت منذ بدء الفتح العربي، لوجدنا أموراً كثيرة ذات أهمية، منها:

(١) استقرت في فلسطين جماعات كثيرة من العرب الذين جاءوا من الجزيرة اما مع الجيوش الفاتحة او فيما بعد. وانضم هؤلاء الى من كان قبلهم من العرب وتزاوجوا مع اهل البلد.

(٢) مع ان الكثيرين من اهل البلد المسيحيين حافظوا على دينهم، ولا يزالون كذلك الى يومنا هذا، فإن الاسلام اخذ ينتشر بين السكان بعد الفتح. وإذن فالمسلمون الذين سكنوا فلسطين منذ ذلك الوقت والى الآن، هم مزيج من السكان الاصليين والعرب القادمين من الجزيرة. والمسيحيون الذين حافظوا على دينهم كانوا خليطاً من سكان البلد الأصلين ومن العرب المسيحيين الذين كانوا يعمرون ديار الغساسنة. ومعنى هذا ان سكان فلسطين من المسلمين والمسيحين هم، منذ ازمنة قديمة ورثة السكان القدماء من الكنعانيين والآراميين والعمونيين والفلسطينيين الذين لم يمتزجوا في اي من الأوقات او الأزمنة بالعبرانيين او اليهود، ولم يختلط هؤلاء بهم أيضاً.

(٣) كانت ثمة لغات منتشرة في فلسطين ولبنان وسورية، لما دخل العرب البلاد فاتحين. فاللغة الآرامية (في صيغتها السريانية خاصة) كانت شائعة في الريف. وكانت السريانية والكلدانية تستعملان في الطقوس الدينية في بعض الكنائس. وكانت الكنائس الرسمية تستعمل اليونانية لغة طقسية، كما كانت هذه لغة الفكر والأدب. وكان سكان المدن يتكلمون اللغة اليونانية في غالبيتهم. ولكن اللغة العربية هي التي انتهت اليها القيادة في فلسطين (وغيرها). فأصبحت لغة الدين ولغة الحكام أولاً، ثم لغة الأدب ثانياً. واخيراً لغة السكان قاطبة. وقد عرفت فلسطين من أهل القلم الكثيرين، ويكفي ان يكون بين علمائها الجغرافيين المقدسي صاحب أحسن التقاسيم، وهو من أهل القرن الرابع / العاشر.

في صيف ١٠٩٩ احتل الصليبيون بيت المقدس، وفي السنوات الأخيرة التي تلت ذلك تم لهم الاستيلاء على أرسوف وقيسارية وعكا (ثم بيروت وصيدا). وقامت للصليبيين مملكة القدس وإمارات الرها وانطاكية وطرابلس. وكانت فلسطين ضمن المملكة وعاصمتها القدس. والمملكة توسعت عبر الأردن، وبنى ملوكها هناك قلعتي الشوبك والكرك.

كان انتصار الصليبيين سهلاً بسبب تقسم البلاد وفوضاها والتفرقة بين حكامها والتنافس بين الجيران. لكن صلاح الدين انتصر على الصليبيين في معركة حطين (١١٨٧/٥٨٣) واسترد القدس. ومع ان خلفاء صلاح الدين والمماليك الأوائل لم يقوموا الا بالقليل فان الملك الظاهر والناصر قلاوون والملك الاشرف استولوا على الحصون والقلاع والمدن. وأخيراً اخرج الصليبيون من البلاد (٦٩٠/ ١٢٩١) لما سقطت عكا في أيدي الملك الأشرف.

والمماليك الذين أنشأوا امبراطورية دامت من ٦٤٨ ـ ١٢٥٠/٩٢٣ ـ ١٥١٧ حكموا فلسطين كجزء من الامبراطورية التي شملت مصر وبلاد الشام والحجاز وجزءاً من ليبيا. وهم، بالاضافة الى أنهم خلصوا البلاد من حكم الصليبيين فانهم دفعوا عن فسلطين الغزو المغولي، الذي تم في حملات ثلاث كبيرة: الأولى بقيادة كتبغا (١٢٥٩/٦٥٧) والثانية بقيادة غازان (١٢٩٨/٦٩٧) والثالثة بقيادة تيمورلنك (١٤٠١/٨٠٢). وفي الحملة الأولى وصل المغول الى شمال فلسطين، والتقوا المماليك (بقيادة قطز) في عين جالوت (١٢٥٩/٦٥٧) فانتصر هذا عليهم وردهم على أعقابهم.

وقد عني المماليك بالادارة عناية خاصة وبالبريد عناية فائقة. وفي أيامهم كان القسم الأكبر من فلسطين يتبع نيابة دمشق (وكانت تسمى مملكة دمشق أيضاً). أما الجزء الشمالي، أي الجليل، فكان يتبع نيابة صفد. وكانت القدس نيابة مستقلة لما كان لها من حرمة عند المماليك. وكان طريق البريد الذي يصل القاهرة بدمشق له، في فلسطين، مراكز في غزة وطولكرم ومرج ابن عامر وخان منية وجسر بنات يعقوب (بين طبرية والحولة).

فرض المماليك الضرائب الباهظة على السكان بسبب الحروب التي شنوها وحياة البذخ التي عاشوها. ولكن التجارة كانت في ايامهم نشيطة. وقد كثر التجار الأجانب في الموانىء الشامية مثل يافا وعكا، وبخاصة في أواخر العصر المملوكي.

وللمماليك صفحة مشرقة هي هذه الابنية التي خلفوها. وهي عادة مساجد ومدارس وقباب. انها آيات في الفن تخطيطاً وبناء وزخرفة خارجية وداخلية. ومع ان أفضل ما خلّفه المماليك هو في القاهرة أولاً ثم في دمشق وحلب، فان مدناً اخرى نالها شيء كثير من عنايتهم، والقدس شاهد على ذلك. فقد أصلح الملك بيبرس قبة الصخرة؛ والمدارس والزوايا المحيطة بالحرم الشريف مملوكية في أكثرها. وقد أصلحوا الحرم الإبراهيمي في الخليل. ومن أعمال بيبرس العمرانية جسر اللد.

اهتم العرب مسلموهم ومسيحيوهم، في العصور الوسطى، بمدن فلسطين وخصوصاً القدس. ونتج عن هذا الاهتمام كثير من المؤلفات التي تبحث في فضائل فلسطين ومدنها. ونظراً لمكانة القدس في نظر العرب فقد تركز الاهتمام عليها. ومن هذه المؤلفات، «الرسالة المقدسية» التي وضعها الامام الغزالي اثناء اعتكافه بالقدس.

(وقد ضمنها كتابه احياء علوم الدين). ورسالة الشيخ أحمد بن تيمية «قاعدة في زيارة بيت المقدس». والاشارات التي نجدها في مؤلفات النويري (نهاية الارب) والعمري (مسالك الابصار). وهناك كتاب السيوطي «اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى»، وكتاب شهاب الدين المقدسي «مثير الغرام الى زيارة القدس والشام» وكتاب العليمي «الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل».

فلسطين في العهد العثماني

في سنة ١٥١٦/٩٢٢ انتصر السلطان سليم العثماني على المُماليك في معركة مرج دابق قرب حلب، فانفتحت امامه الطريق لاحتلال بلاد الشام بأكملها. (وفي السنة التالية احتل سليم القاهرة وقضى على دولة المماليك نهائياً). وظلت فلسطين تابعة للدولة العثمانية أربعة قرون من ١٥١٦ إلى ١٩١٨.

في العصر العثماني الأول كانت القدس ونابلس وغزة سناجق تتبع ولاية دمشق، وعكا تتبع ولاية صيدا (منذ ١٦٦٠). وبسبب بعد الموظفين، وخاصة الولاة، عن استانبول العاصمة، كانوا يتصرفون بحرية. كما بقي للأمراء والمشايخ والحكام المحليين التصرف الحر، ما داموا يقدمون للدولة الضرائب المستحقة. وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ظهر الشيخ ضاهر العمر على مسرح فلسطين في عكا، وحكم شمال البلاد ١٧٤٩ ـ ١٧٧٥. فحصن عكا واتفق مع علي بك الكبير المصري وعقد معاهدة مع الروسيا، وقتل سنة١٧٧٥ وخلفه أحمد باشا الجزار (١٧٧٥ ـ ١٨٠٤). وقد نظم هذا جيشاً من المرتزقة. وفي أيامه هاجم نابليون عكا (ربيع ١٧٩٩) لكنه رد عنها.

في سنة ١٨٠٥ تولى محمد علي باشا حكم مصر. وفي سنة ١٨٣١ سار جيشه من مصر الى فلسطين فاحتل السهل الساحلي حتى وصل الى عكا وحاصرها خمسة شهور، ثم استولى عليها في أوائل ١٨٣٢. وظل ابراهيم باشا، ابن محمد علي باشا، في فلسطين (وبلاد الشام) الى سنة ١٨٣٩. وخلال هذه الفترة أدخل النظام والأمن الى فلسطين. لكنه اضطر الى زيادة الضرائب وتشدد في جمعها فقامت عليه ثورات في القدس والخليل (كما قامت في لبنان وحوران). ولكن الدول الأوروبية لم يرقها انتصار محمد علي باشا على السلطان (إذ وصلت جيوشه آسيا الصغرى)، فأرغمته (بريطانية وبروسيا والنمسا والروسيا) على الانسحاب. وتم ذلك سنة ١٨٤٠، فعادت فلسطين الى الحكم العثماني.

أُدخلت، خلال القرن التاسع عشر، سلسلة من الاصلاحات في الدولة العثمانية لكنها كانت محدودة الاثر لأنه لم يتح لها الوقت الكافي لتثبت فوائدها. أما في الناحية الادارية فقد كان التقسيم الذي أدخل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يتلخص في ان متصرفيتي عكا ونابلس (وتسمى البلقاء أحيانا!) كانتا تتبعان ولاية

بيروت. وكانت متصرفية عكا تشمل أقضية صفد وطبرية والناصرة وحيفا وعكا. أما متصرفية نابلس فكان يتبعها أقضية جنين وطولكرم (أو بني صعب) وطوباس وبيسان ونابلس. أما ما تبقى من فلسطين فقد أصبح متصرفية القدس وتشمل أقضية بئر السبع وغزة والخليل ويافا والقدس. وحدودها في الجنوب تصل الى سيناء. وهذه المتصرفية كانت مرتبطة بوزارة الداخلية باستانبول، أما متصرفيتا عكا ونابلس فكان اتصالهما مع والي بيروت.

كانت فلسطين جزءاً من القيادة العامة لسورية. ففي أواخر العهد الحميدي كان الجيش الثامن هو المسؤول عن سورية. وكان قائدة برتبة مشير مركزه دمشق. لكن بعد سنة ١٩٠٨ (اعادة الدستور) أصبحت مهمة الاشراف على سورية للفيلق الرابع وكان قائده ضابطاً برتبة فريق. كما كان قائد الجند في متصرفية القدس أيضاً برتبة فريق.

وضعت فلسطين مثل جاراتها، على خريطة المطامع الأوروبية في القرن التاسع عشر. فالتجارة، مع اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، ظلت لها آثار في بلاد الشام ومصر، بل وعادت سيرتها الأولى فيما بعد وبخاصة بعد فتح قناة السويس (١٨٦٩). وكان التنافس بين بريطانية وفرنسا كبيراً وبخاصة منذ ان عقد فرنسوا الأول مع السلطان سليمان القانوني معاهدة ١٥٣٥ منح بموجبها الرعايا الفرنسيون امتيازات خاصة. (وهذه المعاهدة هي التي أصبحت فيما بعد أساس الامتيازات الاجنبية في الدولة العثمانية). وفي أيام الحكم العثماني المصري لفلسطين وفد الأوروبيون حجاجاً وسياحاً ورحالين. فقد شجعهم النظام السائد في البلاد على ذلك. وقد كان بين الوافدين مؤسسو المنظمات التبشيرية والتربوية في البلاد. وفي سنة ١٨٤١ انشئت المطرانية الانجيلية في القدس. (انشئت قنصلية بريطانية في القدس سنة ١٨٣٨. ثم جاءت القنصلية الأميركية). وبسبب كثرة الحجاج انشئت لهم منازل للاقامة في الناصرة والقدس وبيت جالا والخليل. ولما توحدت المانية وايطالية جاءت منظماتهما التربوية الى البلاد، كما جاءت مؤسسات روسيا أيضاً.

في سنة ١٨٧٦ أعلن الدستور العثماني وجرت انتخابات نيابية. وكانت حصة فلسطين (القدس وما اليها) نائباً واحداً. وانتخب يوسف ضيا الخالدي (١٨٧٨). ولكن الدستور عُلق وظل كذلك الى ١٩٠٨. فلما أعيد العمل به جعلت حصة القدس نائبين وانتخب سعيد الحسيني وروحي الخالدي نائبين.

شهدت فلسطين في العقود المتأخرة من العهد العثماني عناية رسمية بالتعليم. فأُنشئت المدارس الابتدائية والمتوسطة (المدارس الثانوية ـ السلطانية ـ اقتصرت على مراكز الولايات). لكن كان في أمهات المدن الفلسطينية مدارس متعددة أهلية أو مدارس أنشأتها الجمعيات الأجنبية مثل مدرسة المطران غوبات (١٨٤٣) في القدس ومدرسة القديس جورج وشميت ودار الأيتام السورية (الألمانيتان) في القدس، ودار

المعلمين الروسية (الناصرة) ودار المعلمات الروسية (بيت جالا)، فضلاً عن مدارس متنوعة الجنسيات والطوائف في كل مدينة بفلسطين تقريباً. وكان الكثيرون من أبناء فلسطين يذهبون الى استانبول وفرنسا (وحتى الى بريطانيا) لاتمام دراستهم العالية. ولذلك لما جاءت بريطانيا الى البلاد وانشأت حكومة الانتداب وجدت في هؤلاء بعض رجال الادارة والقانون الذين كانت بحاجة إليهم.

وفي أواخر القرن التاسع عشر بنيت أول سكة حديدية في فلسطين بين يافا والقدس (١٨٩٢). وظلت الوحيدة الى مطلع القرن الحالي اذ بنيت سكة حديد الحجاز وانشىء لها فرع من درعا الى حيفا ماراً بوادي اليرموك ومجتازاً وادي الأردن جنوبي بحيرة طبرية (محطة سمخ) ومنها الى بيسان ثم العفولة (وسط مرج ابن عامر) فحيفا (١٩٠٧).

وقبيل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها أنشأت الدولة العثمانية تمديدات أساسية للسكة الحديدية هذه فوصلت العفّولة بنابلس وطولكرم، وهذه بوادي الصرار (قرب اللد) ومن هنا مدت سكة الى بئر السبع فغزة. كما وصلت حيفا بعكا.

وبهذه المناسبة فان الجيش البريطاني اثناء زحفه على فلسطين من مصر قام ببناء سكة حديد من القنطرة (على قناة السويس) عبر سيناء الى الساحل الفلسطيني وتم ايصالها الى حيفا (بطريق غزة واللد وطولكرم والخضيرة وعتليت) بعيد الاحتلال البريطاني بمدة قصيرة (وفي اثناء الحرب العالمية الثانية مدت سكة حديد ربطت حيفا ببيروت عن طريق الزيب ورأس الناقورة وصور وصيدا).

كان سكان فلسطين في مطلع القرن الحالي يتكونون من عرب ـ من المسلمين والمسيحيين ـ هم ٩٥٪ وكان اليهود يكّونون ٤٪ من السكان، والأجانب كانوا ١٪. وحري بالذكر ان زعماء من فلسطين وفئة كبيرة من شبابها المتعلم عمل في الجمعيات السرية والعلنية التي كانت تطالب بالاستقلال الذاتي للولايات العربية أو حتى بالاستقلال التام. فجمعيتا العهد والمنتدى الأدبي كان فيهما فلسطينيون. وكان حتى لجمعية تركية الفتاة اتباع في نابلس ويافا (سنة ١٩٠٦). وقد اشترك فلسطينيون في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس (١٩١٣) ومنهم عوني عبد الهادي. ولما حاكم جمال باشا الزعماء العرب كان بينهم من الفلسطينيين من نفذ فيهم حكم الاعدام (سليم عبد الهادي من جنين وعلي النشاشيبي من القدس ومحمد الشنطي من يافا).

ومن المحاولات الوطنية في فلسطين في أواخر العهد العثماني محاولة ابناء الطائفة الأرثوذكسية تعريب الأكليروس المقدسي لتعريب البطريركية الأورشليمية على نحو ما تم في الكرسي الانطاكي. وقد عمد فريق من الأرثوذكس العرب الى مقاطعة البطريركية اليونانية احتجاجاً على احتكارها لعضوية الأخوية والمناصب الكنسية

لليونان. واستمرت المقاطعة بضع سنوات. لكن اندلاع الحرب العالمية ١٩١٤ اخّر الحركة التي عادت الى نشاطها سنة ١٩٢٢.

لما دخلت تركية الحرب الى جانب المانيا ودول الوسط، وضعت فلسطين مع سورية ولبنان، تحت قيادة جمال باشا الذي كان حاكماً عاماً وقائداً للجيش الرابع. وكان ثمة قيادة عسكرية المانية في الناصرة. وقد قررت تركية ان تهاجم مصر. واختارت للحملة ـ التي عرفت بحملة الترعة ـ الطريق الأوسط من جنوب فلسطين الى مصر اي بطريق بئر السبع وعوجا الحفير. ووصلت الحملة قناة السويس في مطلع شهر شباط (فبراير) ١٩١٥. وفي ليل الثاني من الشهر هاجم الأتراك القناة واجتازها بعض الجنود على جسور من القوارب. لكن السفن الحربية البريطانية ردت الحملة.

وفي مطلع سنة ١٩١٧ وصلت القوات البريطانية مشارف رفح، ثم تقدمت قليلاً ووقفت في غزة، وتقابلت القوات البريطانية والتركية الى خريف ١٩١٧ حيث احتلت القوات البريطانية الجزء الجنوبي من البلاد، ودخل الجنرال اللنبي القدس (٩ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩١٧) وتسلمها من رئيس البلدية، بعد انسحاب الأتراك منها. وتوقف الجيش البريطاني الى أيلول (سبتمبر) ١٩١٨ على خط يمتد من يافا إلى أريحا. ثم تم الهجوم الأخير ولم يصمد الأتراك وتقدمت القوات البريطانية بسرعة واحتلت شمال فلسطين فسقطت حيفا وعكا والناصرة وطبريا وبيسان وصفد. وبذلك انتهى الحكم العثماني لفلسطين سنة ١٩١٨.

في ظل الانتداب البريطاني

قبل أن تصل الجيوش البريطانية الى القدس بمدة أصدرت الحكومة البريطانية وعد بلفور (٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩١٧) الذي قطعت فيه عهداً على نفسها أن تقيم لليهود وطناً قومياً في فلسطين. ووعد بلفور يمثل، بالنسبة الى الحركة الصهيونية واليهودية العالمية، محطة هامة سياسياً وتنظيمياً وتنفيذياً. فالحركة الصهيونية التي تعود الى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، انتهى التفكير بها الى وجوب عودة اليهود الى أرض الميعاد لاحياء دولتهم. وفي هذه الدعوة من التناقض والمخالفة للتاريخ في أمور كثيرة. لكن هذا ليس موضع تبيان ذلك. والمهم أن السعي الحثيث والتنظيم والاتصال المستمر بمراكز القوى العالمية، السياسية والمالية، أوصل اليهود الى الحصول على وعد بلفور. وهذا الوعد بالذات يتناقض مع عهود ووعود ومراسلات جرت بين العرب وبريطانية (نيابة عن حلفائها وبالاصالة عن نفسها). لكن كل هذا ضرب عرض الحائط، وآثرت الدول العالمية المنتصرة في الحرب العالمية جانب اليهود. فوعد بلفور، الذي صدر عن الحكومة البريطانية، كان قد وافق عليه الرئيس ولسون «قبل نشره». وسارعت الحكومتان الفرنسية والايطالية في شهري شباط وأيار (فبراير ومايو) من سنة ١٩١٨ الى اعلان موافقتهما عليه بصورة علنية ورسمية.

قامت الصهيونية، مدعومة بهذا الوعد، بتحقيق أهداف أخرى وإقامة مؤسسات كان القصد منها وضع الأمور موضع التنفيذ. فانشىء الصندوق التأسيسي لفلسطين لتوطين اليهود في فلسطين وبدىء بتنظيم الوكالة اليهودية التي ستصبح فيما بعد قسيم حكومة فلسطين في إدارة البلاد. ولكن السعي المستمر كان في سبيل تحقيق أمرين: الأول منح الانتداب على فلسطين لبريطانيا، والثاني إدخال وعد بلفور في صميم صك الانتداب. وقد أقر مجلس عصبة الأمم صك الانتداب على فلسطين في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٢ وأدخل وعد بلفور في صميمه.

إلا أن المنظمات اليهودية والصهيونية كانت قد قامت باتمام منجزات قبل سنة ١٩٢٠ في فلسطين بالذات. فثمة مستعمرات تبلغ نحو التسعين كانت قد انشئت في الجليل ومنطقة طبريا ومرج ابن عامر والأجزاء الوسطى من السهل الساحلي (من المطلة شمالاً الى الخضيرة جنوباً عبر الحولة وبتاح تكفا). وكانت قد فتحت مدارس خاصة باليهود كان فيها (إلى قبل سنة ١٩٢٠) نحو ١٢,٠٠٠ طالب يعلمهم نحو ٦٠٠ معلم. ويبدو من الرجوع إلى مصادر (مبكرة) صهيونية ومصادر (متأخرة) رسمية أن عدد اليهود الذين هاجروا الى فلسطين بين سنتي ١٨٨٠ و١٩١٠ هو نحو ٥٤,٠٠٠ والذين دخلوا مهاجرين اليها بين ١٩١٩ و١٩٢٣ هم خمسة وثلاثون ألفاً.

كانت فلسطين، بعد دخول الجيوش البريطانية إليها واحتلالها، تدار ادارة عسكرية. وفي سنة ١٩٢٠ (أي قبل إقرار صك الانتداب من قبل مجلس عصبة الأمم) انشئت الادارة المدنية. وكان أول مندوب سام في فلسطين هو هربرت صموئيل أحد أقطاب الصهيونية في بريطانية والوزير السابق. والفترة من ١٩٢٠ الى ١٩٤٨ هي فترة الانتداب، وهي الفترة التي عمل فيها اليهود وبريطانية على تأسيس الوطن القومي اليهودي.

ولنذكر، قبل كل شيء، أن حكومة الانتداب، التي كان عليها أن تضع البلاد في أحوال سياسية واقتصادية تشجع هجرة اليهود الى فلسطين لم تقصر في ذلك. فمن الناحية الإدارية كان المشرفون المباشرون على شؤون الحكومة من البريطانيين وكان فيهم يهود. فبالإضافة الى المندوب السامي الأول (١٩٢٠ ـ ١٩٢٥) كان المسؤول عن الشريع يهودياً (بنتويتش) ومدير المهاجرة يهودياً (هايمسون) ومدير الأراضي والمساحة يهودياً (ابرامسون). ورؤساء الدوائر المختلفة كان مديروها بريطانيين. وكانت البلاد مقسمة الى الوية (محافظات).

وهذا التقسيم الاداري تبدل كثيراً لكن الاطار العام له بقي صالحاً للنظر العام.

والالوية هي: لواء القدس (ومركزه القدس) ويضم أقضية القدس والخليل ورام الله (وفيما بعد أصبحت أريحا قضاء وحدها)؛ ولواء غزة (ومركزه غزة) ويضم قضاءين هما غزة وبئر السبع؛ ولواء اللد (ومركزه يافا) ويضم أقضية يافا وتل أبيب

والرملة. ولواء نابلس (وكانت نابلس مركزه، وقد أطلق عليه أحياناً لواء السامرة) وتتبعه اقضية نابلس وطولكرم وجنين؛ ولواء حيفا وهو قضاء واحد (حيفا). ولواء الجليل (ومركزه الناصرة) وفيه أقضية الناصرة وبيسان وعكا وطبرية وصفد. وكل حاكم للواء، وكل مساعد رئيس له، كان بريطانيا. وهذا معناه أن التنفيذ بكامله كان يشرف عليه البريطانيون.

أما في الناحية التشريعية فهناك على الأقل امران كانا أساس تأسيس الوطن القومي اليهودي: قوانين الهجرة والتشريعات الخاصة بالأرض وبيعها. وكان هدف قوانين الهجرة تسهيل الهجرة لليهود (مثلاً أن اليهودي كان يصبح، شرعاً، مواطناً فلسطينياً عندما يحصل على شهادة هجرة. يضاف إلى هذا ان المندوب السامي كان له سلطة ادخال من يريد الى فلسطين). أما في التشريع المتعلق بالأراضي فان حكومة فلسطين سمحت لنفسها (قانوناً) بأن تستولي على الأرض التي تهمل زراعتها ثلاث سنوات متتالية. وعندما تصبح هذه الأرض من أملاك الدولة، يصبح التصرف بها حقاً للحكومة.

ولأن الحكومة يسرت أمر الهجرة فقد دخل الى فلسطين ٤٨٧,٠٠٠ يهودي بين سنتي ١٩١٩ و١٩٤٨. وفي الإحصاء الرسمي الأول تحت الانتداب، الذي تم سنة ١٩٢٢ (وقد امتنع اكثر البدو وهم عرب، من تسجيل أنفسهم خشية أن يكون القصد من الاحصاء الخدمة العسكرية) كان عدد سكان فلسطين ٧٥٢,٠٠٠ منهم ٦٦٨ ألفاً من العرب و٨٤,٠٠٠ من اليهود. أي أن اليهود كانوا نحو ١١٪ بالنسبة الى المجموع. وفي الاحصاء الرسمي الثاني (١٩٣١) كان العرب ٨٦٠ ألفاً واليهود ١٧٥ ألفاً. وكانت نسبة اليهود الى المجموع ١٧٪، وتقدير السكان (١٩٤٤) دل على أن العرب كانوا ١,١٣٦ ألفا واليهود ٤٨٥ ألفاً والمجموع ١,٦٢٠ ألفاً. فنسبة السكان اليهود الى المجموع بلغت ٣٠٪. والتقدير الذي يعود الى ١٩٤٧ يدل على أن سكان فلسطين بلغ ٢,٠٦٥ ألفاً منهم عرب ١,٤١٥ ألفاً ويهود ٧٥٠ ألفاً. وهذا يرفع نسبة اليهود الى المجموع الى ٣١٪. وهذه الزيادة كانت ـ في أغلبيتها ـ نتيجة الهجرة اليهودية.

وبسبب التسهيل الذي حصل عليه اليهود لامتلاك الأرض، فقد استولوا بين سنتي ١٩٢١ و١٩٤٦ على ١,٧٧٨,٠٠٠ دونم من الأرض، هذا عدا عن مساحات أخرى سهل لهم سبل الاستيلاء عليها عن طريق البيع، وأكثرها مما اعتبرته الحكومة «أملاك الدولة» وتصرفت بها لمصلحة القادمين من الخارج.

الوضع الاقتصادي

لسنا ننوي التحدث عن جميع الغلات الزراعية منفردة، لذلك فاننا نكتفي هنا بالاشارة الى الاثمار الحمضية أولاً ثم الى الزيتون فإلى الخضار والثمار وما الى ذلك مجتمعة. صدَّرت فلسطين في ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ نحو خمسة ملايين صندوق من الاثمار

الحمضية، أربعة أخماسها تقريباً من البرتقال والباقي من الغريبفروت والليمون الحامض وما الى ذلك. وكانت مساحة الأرض التي تغطيها البيارات نحو ٢٥٠,٠٠٠ دونم منها نحو ١٣٠,٠٠٠ دونم كان يزرعها العرب.

وقد كان معدل ما تنتجه فلسطين من زيت الزيتون خلال سنوات ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥ هو سبعة آلاف طن. وهذا أكثره كان ينتجه العرب.

وكانت مساحة الأرض التي تستغل لزرع الحبوب والخضار والفواكه والزيتون والبطيخ والاشجار المثمرة وعلف الحيوان في سنتي ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ هي ٥,٩٠٠,٠٠٠ دونم. كان منها أقل من ٥٠٠,٠٠٠ يقوم اليهود بزرعها، والباقي نحو (٥و٤٠٠,٠٠٠) يزرعها العرب.

وقد قدمت حكومة فلسطين قروضاً زراعية لصغار الملاكين بالدرجة الأولى لتحسين أوضاعهم. فكان مجموع ما اقرضته بين سنتي ١٩٤٠ و١٩٤٥ هو ٨٥٧,٠٠٠ جنيه فلسطيني. وكانت حصة المزارعين العرب من هذه القروض ٢٧٨,٠٠٠ جنيه وحصة المزارعين اليهود ٥٧٨,٠٠٠ جنيه!.

في الفترة التي مرت بين ١٩٢٠ و١٩٤٨، نشأت صناعات جديدة في فلسطين، كما تطورت الصناعات التقليدية التي كانت هناك. فمن هذه الصناعة الفخار وأشغال التطريز والابرة (الدنتلا) والنسيج. ومن الصناعات التي أدخلت الى البلاد صناعة المعادن والكيمياويات والاسمنت والزجاج والكبريت والالماس. وقد كان في فلسطين سنة ١٩٤٦ من الأنوال ٦٢٠٠، كان ربعها على الأقل للعرب. وقد تنوعت الاقمشة التي كانت تصنع في المجدل مثلاً بحيث كان من الممكن أن يحصل المرء على حاجاته من حيث النوع (هذه الصناعة بدأت في الثلاثينات وأخذت تتقدم بسرعة).

وكانت لفلسطين تجارة متسعة النطاق كبيرة الحجم والثمن. فقد كانت قيمة الواردات ٧٠ مليوناً من الجنيهات الفلسطينية والصادرات نحو ٢٤ مليوناً سنة ١٩٤٦. ومن الواردات أعيد تصدير ما قيمته ثلاثة ملايين. وكانت قيمة تجارة الترانزيت نحو خمسة ملايين ونصف المليون. ويتبقى للاستهلاك المحلي، من الواردات، ما ثمنه نحو خمسة وستين مليوناً من الجنيهات.

وفي سنة ١٩٤٤ كانت البلاد التي استوردت منها فلسطين حاجياتها الرئيسة هي: المملكة المتحدة (٢,٨٪) الممتلكات البريطانية (خارج منطقة الشرق الأدنى ـ ٢٤٪). الولايات المتحدة (٦,٨٪) بلاد الشرق الأدنى والأوسط (٨,٥٦٪) بلدان أخرى (٤,٢٪) ومقابل هذا كان تصدير فلسطين في عام ١٩٤٦ على النحو التالي: المملكة المتحدة (٩,١٧٪) الممتلكات البريطانية (٤,٨٪) الولايات المتحدة (٨,٢٠٪) بلاد الشرق الأوسط (٤,٣١٪) بلدان أخرى (٥,٢١٪). وبالنسبة الى أقطار الشرق الأوسط فقد

صدرت فلسطين (١٩٤٥) الى الأقطار التالية (بحسب الترتيب التنازلي): مصر وسورية ولبنان والعراق و(شرق) الأردن وإيران وتركية وقبرص والمملكة العربية السعودية والسودان.

ازدياد عدد السكان اليهود، على نحو ما رأينا، وانتقال الأرض الى أيديهم، على نحو ما مر بنا، كانا نتيجة للسياسة التي انتهجتها بريطانية، لما تولت الانتداب على البلاد، والتي كانت قد عملت على التخطيط لها قبل ذلك بالتعاون مع الحلفاء، حتى قبل الحرب العالمية الأولى بمدة. وانتهى المطاف بأن أعلنت دولة اسرائيل في أيار (مايو) ١٩٤٨، وشرد، يومها، نحو من مليون عربي عن ديارهم، وكان للحكومة البريطانية يد في تسهيل العمليتين: الاعلان والتشريد.

هيكل الكارثة

على أننا، قبل أن نقف في هذا الحديث عن فلسطين نود أن نسجل الموقف العربي الوطني بين ١٩٢٠ و١٩٤٨. وهو موقف يمكن أن يوصف بأنه بطولي إذا تذكرنا القوى التي كانت تعمل ضد العرب في فلسطين ـ تشريعاً وإدارة وتنفيذاً ومحاباة ـ هذا من الناحية الرسمية المحلية، وما كان يحاك للعرب على أيدي أعوان أوروبة وغير ذلك. ولا يتسع المجال هنا للتحدث عن الموقف العربي حتى باقتضاب (اذ ان هذا أمر له مكانه الخاص) لذلك فاننا نكتفي بايراد ثبت بالأحداث والتنظيمات التي شهدتها البلاد في فترة الانتداب.

١ ـ بدأت المقاومة لما بدأت الهجرة اليهودية لفلسطين، هذه الهجرة التي اتخذت طابع الاستيطان والاقامة الدائمة. وهذه المقاومة كانت في مجلس المبعوثان (البرلمان) العثماني لمنع الهجرة وبيع الأراضي. والصحافة العربية اليقظة كانت تنبه الناس الى هذه الأخطار. فالمقتطف (١٨٩٨) والمنار (في السنة نفسها وفي ١٩٠٢) والأهرام (١٩٠٨) والكرمل (في حيفا منذ أواخر ١٩٠٨) والمفيد (بيروت) والمقتبس (دمشق) ـ وغيرها كانت تنشر المقالات توعية للرسمين والشعب.

والجمعيات العربية المختلفة كانت تهتم بالخطر القادم، وقد تأسس في مدينة يافا حزب عربي اسمه الحزب الوطني للوقوف في وجه الاطماع الصهيونية. والمؤتمر العربي الأول (باريس ١٩١٣) دق ناقوس الخطر.

٢ ـ بعد دخول بريطانية فلسطين واتضاح النيات عملياً ووضع سياسة وعد بلفور موضع التنفيذ (حتى قبل الانتداب) قامت فلسطين بمظاهراتها واحتجاجاتها واضراباتها وارسال وفودها الى لندن للاحتجاج. فأسست الجمعيات في مدن فلسطين، وقد شهدت يافا اضطرابات دامية (١٩٢١).

٣ ـ سنة ١٩٢٩: الاضطرابات بسبب قضية حائط البراق، وأحداث مطلع الثلاثينات.

٤ ـ الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩).

٥ ـ حركات مقاومة التقسيم ١٩٣٧ ـ ١٩٤٧ (وبشكل خاص من ١٩٤٣ ـ ١٩٤٧).

كانت من الدعاوى العريضة التي تشدقت بها أبواق الدعاية الاسرائيلية ولا تزال تتشدق بها هي: ان إسرائيل أخذت أرضاً قاحلة جرداء وحولتها الى جنة! ولذلك فإننا نود أن نضع بين يدي القارىء الأمور التالية توضيحاً للأمور:

(١) ان التقسيم الذي أقرته الأمم المتحدة لفلسطين في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ أعطى للدولة اليهودية الجزء الساحلي من البلاد والجليل الشرقي، وانتزع اليهود بقوة السلاح (خروجاً على قرار الأمم المتحدة ـ الذي لم يكن الأول ولن يكون الأخير) الجليل الغربي. وهذه المنطقة من فلسطين كانت تقوم فيها سكة الحديد الرئيسة، والطرق الجيدة التي بنيت في السنوات السابقة لقيام إسرائيل. وفيها ميناء حيفا الهام وميناء يافا الذي يليه أهمية. وفي هذه المنطقة بساتين (بيارات) الأثمار الحمضية التي كان يملك العرب أكثرها (على ما مر بنا). وفي هذه المنطقة (في الشمال) تقوم منابع الأردن التي سيطر اليهود بواسطتها على مصدر الماء الرئيس الذي نقلوه الى النقب بعد أن ضخوا الماء من منطقة بحيرة طبرية الى سهل البطوف. فالمنطقة الزراعية الخصبة التي كانت مستغلة هي التي أخذها اليهود. لم يأخذوا أرضاً قاحلة!.

(٢) في سنة ١٩٢٦ أعطي روتنبرغ امتيازاً سمح له بموجبه بتوليد الطاقة الكهربائية لإنارة فلسطين وتصنيعها على أن يكون الامتياز احتكارياً في طبيعته (ولم يستثن منه الا القدس لأن امتيازاً أقدم كان قد منح لها). وفي سنة ١٩٣٠ منح امتياز استخراج المعادن والأملاح وفي مقدمتها البوتاس، من البحر الميت، لمدة خمس وسبعين سنة. وهذان الامتيازان كانا أكبر مصدرين اقتصاديين (خارج اطار الزراعة) في البلاد. وليس لليهود فضل في السير بهما، إذ ان حكومة الانتداب وضعت الامتياز في أيديهم، ويسرت لهم العمل تنظيماً وتنفيذاً وتشريعاً وارغاماً للسكان على وجوب شراء الكهرباء من المشروع وأصحابه.

٢٠ـ العراق

يقع العراق بين تركيا الى الشمال وايران الى الشرق والخليج العربي والكويت جنوباً. وتقع المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية الى الجنوب الغربي من العراق، بينما تكون سوريا حده الشمالي الغربي. والحدان الشمالي والغربي حدان جبليان، والانحدار من جبال زغروس (الحدود الايرانية) الى العراق انحدار شديد نسبياً ومفاجىء، ومن هنا كان المهاجرة والمهاجمون من هذه المنطقة ينحدرون بقوة وزخم يجعلان مقاومتهم صعبة. ومثل ذلك يقال عن الحدود الشمالية الجبلية. وهذان الحدّان، أو هاتان المنطقتان الجبليتان حالا دون انتشار العنصر السامي شرقاً وشمالاً. كما حالا فيما بعد دون هجرة عربية قوية، ولذلك فإن اللغة العربية (مثل سابقاتها اللغات السامية) لم تنتشر شرقي جبال زغروس وشمال جبال طوروس وامتدادها لأن الناطقين بها لم يتمكنوا من اجتياز المناطق الجبلية هذه باعداد كبيرة تكفي للتغلب العنصري، ومن ثم اللغوي، على سكان تلك المناطق. أما الجهات الجنوبية والغربية فلم يكن ثمة ما يمنع الهجرة بين العراق وجواره. وكان الجوار هو الذي يبعث بالناس وما معهم. ويكفي ان نذكر ان ثمة قولاً مشهوراً هو (نجد أُمّ والعراق داية) لنفهم مدى الترابط بين المنطقتين.

ومع أن جبال زغروس ترتفع فجأة بالنسبة الى العراق، فإن الأجزاء الشمالية منها، أي شمالي خط عرض بغداد، هي أكثر تدريجاً في الارتفاع. وترتفع بعض القمم في هذه المناطق الى ما يزيد عن ثلاثة آلاف متر. والجزء الشمالي الشرقي من العراق يسمى كردستان بسبب سكانه. أما الأجزاء الغربية، كما ذكرنا، فتبدأ بارتفاع تدريجي ينتهي الى هضبة نجد (وأعلى ارتفاع للهضبة في العراق لا يتجاوز ١٠٠٠ متر).

نهرا دجلة والفرات ينبعان في تركيا. ويبلغ طول دجلة ١٨٥٠ كلم، وتصب فيه روافد متعددة في تركيا وفي العراق. أما الفرات فطوله ٢٣٥٠ كم، ويجتاز جزءاً من سوريا قبل أن يدخل العراق. ويلتقي دجلة والفرات عند القرنة ليكونا مجرى مشتركاً هو شط العرب (١٨٥ كم) قبل أن يفرغا ماءهما في الخليج العربي. ونهر الفرات لا تصب فيه روافد في العراق، بل إن روافده جميعها تأتيه في تركيا وسوريا.

يجري النهران، في المنطقة الواقعة شمالي بغداد، في مجريين محددين واضحين. أما الى الجنوب من بغداد فالأمر يختلف، إذا يتجمع النهران فوق أرض

سهلية مفتوحة، والانحدار فيها خفيف (في بعض المناطق يكون بين متر ونصف المتر ومترين في كل مئة كيلومتر)، بحيث إن الماء قد يجري من النهر الواحد الى الآخر (عبر قني مهجورة أو أخاديد تحفرها مياهه) دون صعوبة. وبسبب ذلك، وبسبب الفيضانات القوية التي تحدث، فإن النهرين يغيران المجرى بنوع من الاستمرار.

يعود الفيضان الكثير الحدوث في مجرى النهرين إلى ان النهرين ينبعان في تركيا. وفي فصل الربيع، عندما يذوب الثلج في جبال آسية الصغرى ترتفع المياه الى أقصى حد في كل من النهرين في شهر نيسان (ابريل) في دجلة، وفي شهر أيار (مايو) في الفرات. والمياه هذه هي التي تفيض على السهول الجنوبية في العراق، وتترك وراءها الأهوار والمستنقعات، وترتفع المياه بضعة امتار. لكن ارتفاع المياه قد يتجاوز المألوف (وهو ٤,٥ ـ ٦ أمتار) فيصل الى عشرة أمتار. وفي سنة ١٩٥٤ بلغ ارتفاع المياه في جنوب العراق تسعة أمتار.

صيف العراق حار. فالحرارة تتراوح بين ٣٨ و٤٩ درجة مئوية بين شهري أيار (مايو) وأيلول (سبتمبر). وقد تبلغ الحرارة صيفاً ٤٣ درجة مئوية في الظل. ولذلك فإن الكثيرين من سكان العراق يلجأون الى السراديب (وهي عادة قديمة جداً في العراق وجواره). وجو العراق جاف على العموم، يستثنى من ذلك البصرة مثلاً وبعض القرى القريبة من الأهوار. أما في الشتاء فقد تنخفض درجة الحرارة كثيراً في المناطق الجبلية والغربية، لكن الشتاء معتدل على العموم. والمطر قليل جداً، والمناطق الشمالية هي وحدها التي يسقط فيها من المطر بين ٤٠٠ و٦٠٠ ملم. وهو ما يكفي لزرع الأرض دون الحاجة الى الري. أما فيما عدا ذلك فإن استغلال الأرض في العراق يعتمد على الري. ومياه الري لا يسهل التحكم فيها في العراق بأكمله، لذلك فإن المستغل من الأرض قليل نسبياً (لعله لا يزيد عن سدس مساحة الأرض الصالحة للزراعة).

مجاري النهرين العليا لا تصلح للملاحة (إلا مع النهر) والمجاري الدنيا، قرب البحر، ضحلة. لذلك فإن الفائدة من النهرين للمواصلات والملاحة النهرية محدودة.

من التاريخ

في الألف الرابع قبل الميلاد كانت قد قامت في أرض الرافدين مدنية أساسها المدينة والصناعة والادارة والديانة والكتابة. فالمدن السومرية كان في عدادها أريدو وأورك وأُور وكيش ولاغاش. وكانت لكل مدينة دولة لها ولما يحيط بها من الأرضين. والسومريون، في أغلب الظن، هبطوا البلاد من الشمال الشرقي. وهم لم يكونوا الوحيدين الذين جاؤوا البلاد، في عصورها المختلفة، من الشمال الشرقي أو الشمال أو الشرق، مهاجرة، ومهاجمين وفاتحين. فالحوريون والقاشيون والحثيون والفرس هبطوا البلاد من تلك الجهات. ومثل ذلك يقال عن الشعوب التي جاءت البلاد من

الغرب والجنوب. هذه هي الشعوب السامية، وأقدمها البابليون وأحدثها العرب، وفيما بينها جاء البلاد الأكديون والعموريون والآشوريون والكلدانيون وغيرهم.

بعض تاريخ العراق هو قصة هذا التزاحم والتنافس والتقاتل على الأرض الخصبة (بالنسبة الى الجبال والصحاري). وعلى كل فقد انتهى الأمر بأن غلب العنصر السامي على الجزء الأكبر من العراق، باستثناء المناطق الشمالية الشرقية.

ولسنا نريد أن نستعرض تاريخ العراق في هذه العجالة، بل ان الذي سنعمد إليه هو الاشارة، وباقتضاب، الى العصور والفترات البارزة التي كانت للعراق فيها منزلة خاصة أو خلّف أثراً خاصاً. ويمكن القول اجمالاً بأن العراق، إلى أواسط القرن السادس قبل الميلاد، كان قد شهد عدداً من الدويلات والدول والامبراطوريات التي قامت فيه ومنه واستولت على أجزاء واسعة من منطقة الشرق مثلاً. فدولة حمورابي (في القرن الثامن عشر قبل الميلاد) كان لها دور مدني كبير. ويكفي ان يكون تشريع حمورابي أساساً لعدد كبير من الأنظمة والقوانين والشرعيات التي قامت معاصرة له أو بعده ببضعة قرون. والدولة الآشورية (من أواسط القرن التاسع الى القرن السابع) وصل حكمها الى وادي النيل. وقد تركت آثاراً مدونة على آجرات في مكتبات القصور الملكية. وهذه الآجرات هي التي عرفتنا الى مآتي الحضارة ومنجزات المعرفة الفلكية والرياضية وغيرهما.

في سنة ٥٣٩ ق.م. احتل الفرس عاصمة الدولة الكلدانية (أو البابلية الجديدة). ومن ذلك الوقت، حتى قيام الدولة العباسية (٧٥٠ م) كانت العراق ولاية من امبراطورية واسعة النطاق، ولو أن عاصمة الساسانيين (المدائن) كانت على مقربة من بغداد الحالية. بل أكثر من ذلك، فقد كان العراق أحياناً كثيرة ميدان القتال بين دولتين شرقية وغربية. فلما قامت الدولة الرومانية في المشرق كان الفرثيون خصومها، ولما ورثت الدولة البزنطية الرومان، جاء الساسانيون خلفاء للفرثيين، وكانت الخصومة والحروب بين أولئك وهؤلاء تدور رحاها في العراق (وسورية). ويمكن أن يعثر الواحد منا على ما يشبه هذا الوضع حتى أيام الخلافة العباسية المتأخرة بين البويهين وسابقيهم أتراك المعتصم، ولاحقيهم السلاجقة. ولكن الحرب عادت الى العراق جذعة لما قامت الدولة الصفوية في مطلع القرن السادس عشر وجاءت الدولة العثمانية (وقد احتلت بلاد الشام ومصر) تحاول احتلال العراق. وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر بشكل خاص كان العراق أرض المعركة بين القوتين: الفارسية والعثمانية.

نجتزىء الحديث عن الأزمنة وعن الخصومة الساسانية البزنطية، لنصل الى القرن السابع للميلاد. كانت معركة القادسية (٦٣٥) بالنسبة الى العراق مثل معركة اليرموك (٦٣٦م) بالنسبة الى بلاد الشام. فقد فتحت كل الباب على مصراعيه الى

البلد الذي كسر في المعركة. والفرق ان القادسية تبعتها نهاوند (٦٤١م) وبها تقريباً انتهى المُلك الساساني. أما اليرموك فانتهت بسقوط بلاد الشام في أيدي العرب، ولكن الدولة البزنطية ظلت قائمة. وكان من أول ما تم على يد العرب بعد فتحهم العراق هو تمصيرهم الكوفة والبصرة. فقد أصبحتا المنطلقين الرئيسين للفتوح العربية في فارس وحوض السند وأواسط آسية.

أيام الخلافة الأموية كانت العراق ولاية من ولايات الدولة، لكنها كانت تثير القلاقل والشغب للحكام الأمويين. ومن ثم شغل الخلفاء الجيوش هناك بالفتوح، وأرسلوا الى العراق جماعة من حكامهم الأقوياء. لكن العراق أصبح قلب الامبراطورية لما قامت الدولة العباسية (٧٥٠م) وظل على ذلك نظرياً الى سنة ١٢٥٨م لما دمر المغول بغداد. لكن، من الناحية السياسية، فإن بغداد، عاصمة دولة الخلافة، لم تحافظ على دورها إلا لقرن وبعض القرن فقط. على أن بغداد التي ظل لها أثرها طويلاً، هي بغداد المدينة العالمة المتعلمة موئل الفلسفة ومهبط الشعراء ومحط العلماء ومسرح أهل الغناء، مدينة المجتمع الثري النامي النشيط، بغداد المدينة العربية الاسلامية ظلت على ذلك مدة، واستمر اثرها مدة أطول. ولعلّ دور بغداد الحضاري أقل ما يجب أن نتحدث عنه فأمره معروف مشهور.

وفي ظل الدولة العباسية قامت في المشرق والمغرب دويلات عديدة. فبعض الحكام خلع عصا الطاعة عن الدولة، والبعض خطب للخليفة على المنابر والبعض الآخر أرسل الضرائب هدية، وهناك من دفع الضرائب على أنها ضرائب، وبذلك احتفظ بأكثر من مجرد الاسم للسلطان العباسي. ففي المشرق قام الطاهريون (٨٢٠م) والصفاريون (٨٦٧م) والسامانيون (حول ٨٩٢م). وفي المغرب استقلت الأندلس (٧٥٦ م)، وكذلك فعل الادارسة في المغرب (بعد ٨٦٦ م) والاغالبة في تونس (بعد ٨٠٠) وبنو طولون في مصر (٨٦٨م). على أن ثمة عدداً من الثورات قامت على مقربة من سدة الملك، مثل الزنج (٨٦٩ ـ ٨٨٣ م) والقرامطة (القرن العاشر). ثم هناك الدولة التي استولت على السلطة في العاصمة مع المحافظة على شكل الخلافة (البويهيون ٩٣٢ ـ ١٠٦٢ والسلاجقة ١٠٣٨ ـ ١١٩٤م). ومثل ذلك يقال عن الدولة التي استولت على السلطة وحافظت على شكل الخلافة ولكن بعيدة عن عاصمة العباسيين (الأيوبيون من القرن الحادي عشر إلى أواسط الثالث عشر). وتاريخ السلاجقة والأيوبيين متصل بتاريخ الحملات الصليبية.

في سنة ١٢٥٨ احتل هولاكو المغولي بغداد ونهبها وسلبها وهدمها فضاع ما كان لها من مجد وثراء وعلم وأدب. سيما وان هولاكو قضى على الخلافة العباسية! وقامت دولة الايلخانيين (١٢٥٦ ـ ١٣٥٣) في العراق وفارس ثم دولة الجلايريديين (١٣٣٦ ـ ١٤٣٢م) واستولت هاتان الدولتان على مقاليد الأمور. وفي أيام الأسرة الأخيرة كان

للمغول هجمة جديدة على العراق اذ نهب تيمور بغداد (١٤٠١م) وقتل العديد من سكانها، ولولا وفاته (١٤٠٥م) لكانت البلاد العراقية، والشامية أيضاً، لقيت الأمرين على يديه للمرة الثانية.

وفي سنة ١٥٠١ م، أقام الشاه إسماعيل (١٥٠١ ـ ١٥٢٤ م) الدولة الصفوية في إيران. وقد صادفت هذه السنوات وجود السلطان سليم الأول (١٢٠ ـ ١٦٢٠ م) على عرش تركيا، وهو السلطان الذي فتح بلاد الشام ومصر وقضى على المماليك. ومن الطبيعي ان تنشب الحرب بين القوتين (الصفوية والعثمانية)، وكان العراق ميدان القتال. وفي سنتي ١٥٣٤ ـ ١٥٣٥ قام السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) بحملة ضد العراق، احتل خلالها البلاد وضمها الى الامبراطورية العثمانية. لكن القتال استمر فيها حتى سنة ١٦٣٩م فعقد بين الدولتين صلح.

وجد العثمانيون العراق منطقة صعبة وباهظة الثمن إدارياً. وقد كان ذلك أيام السلاطين العظام، أما لما أخذ الضعف برقاب الدولة العثمانية، ازدادت المشاكل الادارية في العراق، وبان عجز السلطة المركزية لما قام حكام شبه مستقلين في البصرة (١٦٢٥ ـ ١٦٦٨م) مثلاً. وبتعيين حسن باشا حاكماً لبغداد (١٧٠٤م) بدأ عهد الولاية الموروثة. وفي تلك الأثناء (١٧٢٣م) تجدد القتال بين العثمانيين والصفويين، وأخذت أجزاء مختلفة من العراق تعنى بإدارة نفسها تحت حكم زعيم أو أمير أو ما الى ذلك، على نحو ما كان عليه الأمر في أجزاء أخرى من الامبراطورية. وقد قام في العراق حكم المماليك وهو الذي استمر حتى سنة ١٨٣١.

والاصلاحات التي قام بها سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧ م) ومحمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ م) في الدولة العثمانية وصلت آثارها الى العراق. وكان من آثارها المباشرة القضاء على حكم المماليك لما عزل داود باشا (١٨٣١ م)، وقضي على فرقة من جند المماليك.

ويمكن القول اجمالاً بأنه في الفترة بين ١٨٣١ و١٩١٤، أفاد العراق بعض الشيء من الاتصال بالعالم الخارجي، لكن ضعف الدولة العثمانية جعل ذلك كله يعود شراً عليه. فقد كان ثمة مقيم بريطاني في البصرة (١٨٠٠) وقنصل في بغداد (١٨٠٢). وكان لفرنسا مقيمون في هاتين المدينتين. لكن التسلل الأوروبي أخذ في الازدياد والقوة بعد ١٨٣١. فقد ادخلت القوارب البخارية في الرافدين (١٨٣٦) وأنشىء التلغراف (١٨٦١) وبدىء التفكير بمشاريع سكك حديدية. وقد حاولت الدولة العثمانية فرض سلطتها في كردستان (١٨٣١ ـ ١٨٥٠). ولكن ادخال الاصلاحات الحقيقية لم يبدأ إلا لما تولى مدحت باشا إدارة الولاية (١٨٦٩ ـ ١٨٧٢). فمن الأمور التي يعود الفضل فيها إليه: انشاء أول صحيفة وإقامة مصانع عسكرية ومستشفى وبناء المدارس وانشاء خط الترام وادخال نظام التجنيد الاجباري وانشاء مجالس بلدية. كما

انه أمن الطرق الرئيسة. وقد استمرت الاصلاحات، على الأسلوب الأوروبي، تدخل العراق، ولكن ببطء. فالخدمات البريدية حسنت وبني خط حديدي من بغداد الى سامراء (تم بناؤه ١٩١٤)، وهو جزء من مخطط سكة حديد برلين التي كان المفروض فيها أن تربط برلين ببغداد، والتي بنيت متفرقة، وتم آخر جزء منها أثناء الحرب العالمية الثانية. وهذا المشروع يدل على تعاظم النفوذ الألماني في العراق. وأُعيد كذلك بناء سد الهندية (١٩١٠ ـ ١٩١٣). ومع ان الاصلاحات التي أُدخلت جاءت متأخرة ومقصرة، فالمهم هو أن عملية تغير جذرية قد بدأت، بحيث إنه لم يعد في استطاعة أي حكم أن يوقف العجلة.

ولعلّ مما يجب أن يذكر عن العراق هو أن حركة القومية العربية كان لها في تلك الديار جذور قوية، شبيهة بما عرف عن سوريا. والأدب العراقي فيه ما يدل على هذه النزعة حتى قبل الانقلاب العثماني (١٩٠٨). لكن يبدو ان هذا الانقلاب بالذات أحدث في العراق (كما أحدث في بلاد الشام) الصدمة التي أثارت الكامن في النفوس. وتقوى الاتصال بين الدوائر المحلية في العراق (وخاصة في بغداد والبصرة) بالجمعيات والتنظيمات العلنية والسرية في دمشق وبيروت وباريس (العربية الفتاة قبل أن تنتقل الى بيروت). وهكذا فقد كان الجو مهيأ لقبول فكرة الدولة العربية المستقلة التي تحدثت عنها رسائل الحسين ـ مكماهون.

لما بدأت الحرب العالمية الأولى ودخلت تركيا (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٤) الحرب الى جانب دول الوسط، هاجم الجيش البريطاني (القادم من الهند) جنوب العراق واحتل منطقة شط العرب واتخذ من البصرة ميناء لقضاء مصالحه. لذلك جعل منه ميناء جيداً منتظماً. وتقدم الجيش البريطاني نحو بغداد (١٩١٥) لكنه تراجع عند الكوت واستسلم للعثمانين (نيسان / ابريل ١٩١٦). وفي آذار (مارس) ١٩١٧ احتل الجيش بغداد وكركوك (١٩١٨)، ولكن تركيا طلبت الهدنة قبل أن يحتل الجيش البريطاني الموصل. وقد ظل القائد العام البريطاني يشرف على إدارة البلاد (١٩١٧ ـ ١٩٢٠)، يساعده في ذلك مندوب للشؤون المدنية. ووضعت أسس الادارة في هذه الفترة.

على أن شيئاً آخر تطور في هذه الأثناء. فالحركة القومية العربية، التي كانت تأمل في قيام الدولة العربية، خابت آمالها، إذ طلعت عليها الدول الغربية باتفاقية سَيكس ـ بيكو. ثم جاء نيسان (إبريل) ١٩٢٠ فاتفق مجلس الدول الرئيسة على منح بريطانيا انتداباً على العراق (في سان ريمو). أثار هذا العمل الأخير حفيظة العراقيين ضد الانكليز (وكان هناك عوامل أخرى)، فقامت الثورة العراقية في الشهر نفسه، بدءاً من الجنوب، واشتعلت في جهات البلاد المختلفة. ولم يضع حداً لها إلا انهاء الحكم العسكري للعراق (تشرين الأول / اكتوبر ١٩٢٠) والسير في استفتاء انتهى باختيار

فيـصل بن الحـسين (وكـان قـد أخـرج في صـيف ١٩٢٠ من سـوريا) ليكون ملكاً على العراق. وقد تم التنصيب في بغداد يوم ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٢١.

كان المفروض ان تكون بريطانيا الدولة المنتدبة على العراق. ولكن الثورة عطلت فكرة الانتداب، وأدت إلى أن يستعاض عنها بمعاهدة تعقد بين العراق وبريطانيا (١٩٢٢). ومواد المعاهدة لا تعدو كونها تثبيتاً لفكرة الانتداب، مع فرق واحد وهو أنه كان للمعاهدة مدة زمنية محدودة ـ ٢٥ سنة. وقد أعد قانون انتخابي للبلاد، واختيرت على أساسه هيئة تأسيسية، وافقت على المعاهدة (١٩٢٤). وهذه الهيئة سنت قانوناً أساسياً اعتبر العراق دولة مستقلة ذات سيادة. وفي سنة ١٩٢٥ أوصت عصبة الأمم بادخال العراق في عضويتها. وقد تم هذا في سنة ١٩٣٢ (عدلت المعاهدة العراقية ـ البريطانية ١٩٣٠). وكان دخول العراق عصبة الأمم مناسبة لاعلانها دولة مستقلة ذات سيادة! فمن وجهة نظر عصبة الأمم كان للبلاد (قبل دخولها العصبة) دستور وبرلمان منتخب دستورياً ووزارات منتظمة، ودوائر حكومية معروفة الواجبات والمسؤوليات ولها جيش (نحو ٧,٥٠٠ جندي) قادر على حفظ الأمن وقوة من الشرطة كاملة العدة. وقد نظمت علاقاتها مع بريطانيا على أساس المعاهدة المعدلة (١٩٣٠). كما أن حدودها مع المملكة العربية السعودية كانت قد حددت (١٩٢٢ معاهدة المحمرة)، مع إيجاد منطقة حياد تمكن للبدو الانتقال بين البلدين دون أن يتعرضوا لتهمة تجاوز الحدود بطريقة غير مشروعة.

في سنة ١٩٣٣ توفي فيصل الأول ملك العراق. وكانت وفاة الملك ضربة اليمة للعراق. ذلك بأن الخلافات الخفية برزت الى السطح، وكانت عنصر ازعاج للادارة والحكومات المتعاقبة. فالآشوريون قاموا بحركة أخمدت (١٩٣٣) والقبائل (في الفرات الأوسط بشكل خاص) ثارت وأخمدت حركتها (١٩٣٥ ـ ١٩٣٦). وكان للأكراد حركات تتصف بمعارضة الحكومة. يضاف الى هذا ان الجماعات والزعامات السياسية ذات المطامع والمطامح، أخذت تتشكل في شكل أحزاب سياسية، لتدافع عن الشعب وحقوقه أمام ما اعتبره البعض حكماً فردياً أو جماعياً. وكان غازي قد خلف أباه (١٩٣٣) لكنه قتل في ١٩٣٩. وجاء بعده فيصل، مع وصاية للأمير عبد الاله.

في سنة ١٩٣٦ قامت أول حركة انقلابية في العالم العربي على يد بكر صدقي الذي تولى الأمر الى صيف ١٩٣٧ حين اغتيل.

في هذه الفترة أفاد العراق من وجود النفط في ارضه لأول مرة. فقد منحت الامتيازات في ١٩٢٥ و١٩٣٢ و١٩٣٨. إلا أن النفط اكتشف في كركوك (١٩٢٧) وفي سنة ١٩٣٤ كان ثمة خطان من الأنابيب ينقلان النفط الخام الى كل من حيفا (فلسطين) وطرابلس (لبنان).

في سنة ١٩٣٧ انضم العراق الى ميثاق سعد أباد الذي كان أعضاؤه الآخرون: تركيا، ايران وإفغانستان.

ساءت العلاقات بين العراق السياسي وبريطانيا في أواخر الثلاثينات بسبب السياسة البريطانية في فلسطين، وازداد النفوذ الألماني في البلاد. وفي سنة ١٩٤١ (وكانت الحرب العالمية الثانية قد مر عليها سنتان تقريباً، وكانت المانيا تسير نحو النصر، بعد انهيار فرنسا ١٩٤٠) قامت في العراق حركة رشيد عالي الكيلاني التي كانت ترمي الى التخلص من بريطانيا. لكنها لم يكتب لها النجاح، وأعيد العراق الى النفوذ البريطاني.

كان العراق عضواً مؤسساً في جامعة الدول العربية (آذار/ مارس ١٩٤٥) والأمم المتحدة (نيسان/ إبريل ١٩٤٥). وأسهم في حرب فلسطين (١٩٤٨) وكان للجنود العراقيين دور هام.

في سنة ١٩٥٥ عقدت معاهدة بين العراق وتركيا، ثم انضم الى هذا الحلف كل من بريطانيا وباكستان وإيران. وهذا هو الذي عرف باسم حلف بغداد. وكانت لدول عربية مختلفة مواقف عدائية له.

وجاء الاعتداء على السويس (١٩٥٦) مناسبة لمشاركة عراقية اذ أرسلت الجنود (مع جنود من سوريا) الى الأردن للدفاع عنه في حالة اعتداء اسرائيل عليه.

كانت سنة ١٩٥٨ نشطة في المشرق العربي. ففيها تمت الوحدة السورية المصرية (شباط ـ فبراير ١٩٥٨) وجاء مقابل هذه، الاتحاد العربي بين العراق والأردن (الشهر ذاته والسنة نفسها). والاتحاد انحل لما قام عبد الكريم قاسم بانقلابه (تموز/ يوليو ١٩٥٨) والذي قُتل فيه فيصل الثاني وعبد الاله ونوري السعيد وغيرهم. (أما الوحدة السورية المصرية فقد صمدت حتى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦١).

الوضع الحالي

في الفترة التي كان فيها عبد الكريم قاسم على رأس الحكم في العراق (١٩٥٨ ـ ١٩٦٣) قامت انتفاضة ضده، كان القضاء عليها دموياً مثل ثورة (١٩٥٨). وبدأت ثورة الأكراد (١٩٦١). وقد قضي على قاسم (١٩٦٣) والثورة الكردية لا تزال على حالتها. وفي الواقع فقد استمرت سنوات طويلة، وكانت تغذيها (إلى درجة ما) عناصر خارجية. ومع أن هدنة توصل الفريقان اليها تمت ١٩٦٦ فإن الثورة عادت الى الاندلاع سنة ١٩٦٨، وهي السنة التي تولى فيها أحمد حسن البكر شؤون العراق بعد الانقلاب الذي قام به (تموز / يوليو ١٩٦٨).

وفي سنة ١٩٦٧ قامت حرب حزيران (يونيو) بين العرب واسرائيل، واشترك العراق فيها. وكان أن قطع العراق علاقاته الدبلوماسية مع بريطانية والولايات المتحدة، على غرار ما قامت به الدول العربية المشرقية.

ومع انقلاب البكر وصل حزب البعث الى الحكم. ولا يزال الحزب يحكم العراق برئاسة صدام حسين الذي خلف البكر في منصبه (١٩٧٩).

وآخر الأحداث الهامة في تاريخ العراق الحديث أمران: الحرب العراقية الايرانية التي قامت بين البلدين، وضرب إسرائيل للمفاعل النووي العراقي قرب بغداد (صيف ١٩٨١).

الوضع الاقتصادي

العراق، تقليدياً، وتاريخياً، قطر زراعي. الا أن تطوره في العقود الأخيرة يعود الفضل فيه إلى ما يحصل عليه من واردات النفط. وقد كانت واردات النفط في العراق في الستينات المبكرة بين ١٢٠ و١٣٥ مليون دينار عراقي. إلا أن هذه ارتفعت الى ٣٥٤ مليون (١٩٧٢)، ثم ازدادت بسبب ارتفاع أسعار البترول العالمية، بدءاً من أواسط السبعينات الى الأرقام التالية: ٣٥٤ مليون (١٩٧٢)، الى ٢,٤١٥ مليون (١٩٧٥)، الى ٢,٦٩١ مليون (١٩٧٦) الى ٢,٨٠٧ (١٩٧٧) الى ٢,٦٩٠ (١٩٧٨). وزادت هذه المداخيل في الثمانينات اضعاف اضعاف.

والعراق بلد قليل السكان. فإذا أخذنا رواية التاريخ من جهة، والتقديرات الحالية من جهة أخرى، وجدنا أن العراق يستطيع أن يعيل ضعف عدد سكانه الحاليين، المقدر باثني عشر مليون نسمة، ولكن الأحوال الطبيعية قد تحد من الافادة من أرضه، وأولها ارتفاع درجة الملوحة في التربة، وصعوبة السيطرة على نهري دجلة والفرات، بسبب الارتفاع القليل للأرض في جنوب البلاد عن مستوى سطح البحر، وتغيير مجرى النهرين في أوقات مختلفة. وهذان الأمران، والأول على الخصوص، يجعلان الري وتصريف المياه مشكلتين صعبتين، كما أنهما يوضحان السبب الذي من أجله نجد أن جزءاً كبيراً من جنوب العراق هو اما مستنقعات (أهوار) أو أرض جدباء. يضاف الى هذا نقص الأيدي العاملة، والماهرة منها بشكل خاص.

قدر عدد سكان العراق (١٩٧٧) بـ ١٢,٢ مليون، يعيش أكثرهم في السهول الغرينية التي أقامها دجلة والفرات، وفي سفوح التلال الشمالية الشرقية. وقد قدرت القوى العاملة في العراق (١٩٧٥) بنحو أربعة ملايين، ومن ثم فليس هناك بطالة في الزراعة أو في قطاع الخدمات. والسكان اصبحوا أكثر من عشرين مليون في أواخر الثمانينات.

وثمة هجرة كبيرة من الريف الى المدن. فبعد ان كانت نسبة سكان الريف (الى مجموع السكان) ٤٩٪ (١٩٦٥) أصبحت ٣٥٪ (١٩٧٥)؛ والهجرة لا تزال مستمرة ويشير احصاء سنة ١٩٧٧ الى أن ٢٧٪ فقط من السكان يقيمون خارج المدن.

ومنذ ان تولى البعث شؤون العراق (١٩٦٨) زادت سيطرة الدولة على المرافق الاقتصادية. فنحو ٧٨٪ من الدخل القومي تشرف على وسائل انتاجه منظمات حكومية. فالصناعات الثقيلة بأجمعها تعمل تحت الدولة. وهناك قطاع مشترك (عام وخاص) له الاشراف على الصناعات الالكترونية وما اليها. كما ان القطاع يقتصر انتاجه على تصنيع المواد الغذائية وبعض الأقمشة.

الزراعة: تكاد تنحصر المناطق الزراعية ذات الأثر على الأجزاء التالية من البلاد:

أ ـ شط العرب (من نقطة انضمام دجلة والفرات عند القرنة الى مصبه عند الفاو). والماء فيها عذب كثير، والري يحدث بتأثير المد والجزر في الخليج العربي، وتعتبر المنطقة من أجود المناطق لانتاج التمور في العالم.

ب ـ العمارة على ضفتي دجلة بين القرنة والعمارة. منطقة الأرز والذرة البيضاء من مزروعات المستنقعات، كما يزرع فيها القمح والشعير على الأرض المرتفعة (نسبياً) قرب النهر.

ج ـ شط الغراف، والغراف قناة قديمة لتصريف المياه بين الكوت (على دجلة) والناصرية (على الفرات). وقد كانت المنطقة من أخصب اجزاء العراق أرضاً، وكانت، في العصور القديمة، تنتج القمح والشعير. وقد أقيم هناك سد الكوت للتحكم في مياه دجلة، واستحضرت بذور شعير أقدر على تحمل ملوحة المياه (من المغرب وكاليفورنيا)، فعادت الى المنطقة شهرتها في انتاج الشعير، الذي أصبح العراق يصدر منه إلى الخارج.

د ـ منطقة الفرات الأوسط ـ تمتد هذه من المسيب الى السماوة، يحدها شط الهندية من الغرب. تكثر فيها القني والنهيرات على جانبي الفرات. وهي أخصب منطقة في العراق وأكثر اجزائه ازدحاماً بالسكان. يزرع الأرز في جنوبيها. والقمح والشعير بين الديوانية والحلّة، وتربى المواشي في أنحائها المختلفة.

هـ ـ منطقة دجلة الوسطى، بين الكوت وسمارة. عاد إليها نشاطها الزراعي بعد إقامة السدود للتحكم في المياه على دجلة، فأصبحت تنتج القمح والشعير شتاء، والقطن والسمسم والذرة الصفراء صيفاً.

و ـ منطقة بغداد، حيث يقترب دجلة والفرات أكثر ما يكون، وهي سهل غريني، وغلاتها الرئيسة هي القمح والشعير والقطن.

ز ـ منطقة الرمادي ـ أفادت من سدود التحكم في المياه والمضخات التي ترفع مياه الفرات والقني هناك، ومن ثم أصبحت غنية في الانتاج الزراعي.

ح ـ المنطقة الجبلية في العراق وهذه هي منطقة الأمطار، لذلك فهي منتجة دون ري، لكن مشاريع السدود زادت انتاجها. تزرع فيها الخضار والفواكه والأرز. وتتميز فيها مناطق هي: حوض نهر ديالى (رافد لدجلة). وقد زادت أهميتها بسبب بناء سد دربندخان (١٩٤٠)، إذ إن نحو ٤٠٠,٠٠٠ هكتار تروى هناك بواسطته. وهي أكبر منطقة لأشجار الفاكهة في العراق. فالأثمار الحمضية والكرم والرمان كثيرة جداً. ويزرع القمح والشعير شتاء، والقطن والأرز والتبغ صيفاً. ثم هناك منطقة الزاب التي

تعتمد على مياه الأمطار. إلا ان هناك مشاريع ري في تلك الجهة ستؤدي الى تحسين الانتاج الزراعي هناك.

ط ـ المنخفضات والسدود والحواجز: ثمة منخفضات في العراق تخزن فيها المياه في أوقات الفيضان ليستفاد منها في أوقات التحاريق أو الجفاف. من هذه الحبانية. فقد أقيم سد لتحويل جزء من مياه الفرات زمن الفيضان الى منخفض الحبانية؛ فإذا حان وقت الافادة من الماء المخزون (أيام الجفاف) سرّبت المياه عبر قناة الذبان الى نهر الفرات ثانية عند الفلّوجة حيث يقوم سد للتحكم في توزيع المياه.

السدود: (١) سد دوخان على الزاب الأصغر، بحيث انه يتحكم في فيضان هذا النهر، فيخزن الماء خلفه لري الأرض الواقعة بين الزاب الأكبر والزاب الأصغر ايام الجفاف في الصيف. وتقدر مساحة الأرض التي تفيد منه ٣٠٠,٠٠٠ هكتار. (ويستفاد منه في توليد الطاقة الكهربائية).

(٢) سد دربندخان على نهر ديالى ويقوم على نحو ٦٠ كيلومتراً جنوب شرقي مدينة السليمانية. بني سنة ١٩٦٠ ويروي ١٢٥,٠٠٠ هكتار.

(٣) سد نجمة على الزاب الأكبر

(٤) سد شمالي الموصل على دجلة.

(٥) سد سمارة.

هذه السدود بعضها يتحكم في الماء في أوقات الفيضان عن طريق قناطر ولا تحتجز خلفه المياه لمدة معينة.

وعلى كل فإن الري تفيد منه أراضٍ مساحتها ٤,٧ ملايين دونم (٣ ملايين من ري الفرات و١,٧ مليون من ري دجلة). والدونم هو ألف متر مربع. وعندما تتم مشروعات الري المرتقبة في العراق، فإن مساحة الأراضي المروية ستتضاعف مرتين.

والغلات الزراعية الشتوية في العراق هي (الانتاج من احصاءات تعود الى سنة ١٩٧٧): القمح (نحو ٧٠٠,٠٠٠ طن) والشعير (نحو ٤٦٠,٠٠٠ طن) والفاصولية والفول (نحو ٩٤,٠٠٠ طن) والعدس وغيره من القطاني. أما الغلات الصيفية فمنها (الأرز) (نحو ٢٠٠,٠٠٠ طن) والذرة الصفراء (نحو ٨٢,٠٠٠ طن) والسمسم والذرة. والتمور تتصدر، بعد النفط، لائحة المواد المصدرة من العراق. فمنتوجها يقدر بين ٣٥٠,٠٠٠ و٤٠٠,٠٠٠ طن سنوياً. وقد عقد العراق اتفاقاً (١٩٧٤) مع استراليا والصين لتزويدهما بحاجتهما من التمور.

ولا بد في ختام حديثنا عن الزراعة، من أن نقول (ثانية) ان كمية الامطار التي تختلف سنة عن سنة والفيضانات تؤثر كثيراً على الانتاج الزراعي في العراق.

وثمة مشكلة واجهتها الحكومات العراقية المختلفة منذ سنة ١٩٥٨. ففي تلك السنة أدخل الاصلاح الزراعي في البلاد، وحددت ملكية الأرض بحيث تكون أكبرها

ألف دونم في الأراضي المروية وألفين في الأراضي التي تعتمد على المطر. وقد قدر لتحقيق المشروع بكامله، أي مصادرة الأراضي الزائدة عن حدود القانون، وإعادة توزيعها، على الفلاحين، خمس سنوات. لكن مصادرة الأملاك كانت أسرع بكثير من توزيعها. فمع أنه قد تم توزيع ٤,٧٣ مليون دونم حتى سنة ١٩٧٢، فهناك مساحات واسعة من الأرض لا تزال تنتظر التوزيع.

النفط والمعادن: لسنا ننوي ان نروي قصة النفط الطويلة هنا. فقد مر بنا ان أول امتياز نفطي في العراق (وفي المشرق العربي أصلاً) كان سنة ١٩٢٥. وفي سنة ١٩٣٤ انتج العراق النفط التجاري. ونقل الخام منه الى حيفا وطرابلس. وكانت شركة نفط العراق هي الشركة الوحيدة في العراق. لكن الشركات تعددت فيما بعد، ثم قامت الشركة الوطنية للبترول وأخذت على عاتقها التنقيب عن النفط. وفي سنة ١٩٧٢ امم العراق شركة نفط العراق نهائياً. وقد تطور انتاج النفط في العراق من سنة ١٩٦٥ (١,٣١٥ مليون برميل في اليوم) الى سنة ١٩٧٧ (٢,٢١٠ مليون برميل يومياً). أما الواردات للدولة العراقية فقد ذكرت قبلاً.

في العراق ثروة معدنية أخرى لم تستغل بعد. وأهم المعادن هي الكبريت والحديد الخام والنحاس والقصدير والزنك والملح والجبس والفوسفات.

الصناعة: عدد سكان العراق قليل نسبياً، لذلك لم يضغط على الحكومة العراقية للاهتمام السريع بالتصنيع. وبسبب النقص في اليد العاملة الماهرة، فإن الحكومات العراقية فضلت التطور التدريجي في حقل الصناعة حتى لا تحرم القطاعات القائمة حاجتها الى الأيدي العاملة. والحكومة في العراق تعنى في الدرجة الأولى بالصناعات التي تسد الحاجات المحلية أكلاً وثياباً وبناءً. وتختار اختياراً منتظماً البدء بصناعة جديدة أو تشجيع صناعة قديمة. ومن ثم فإنه حتى سنة ١٩٧٠ لم يكن في العراق صناعات كبيرة (باستثناء البترول). ففي منطقة بغداد الكبرى كان ثمة اهتمام بتوليد الكهرباء وصنع المواد النباتية والعناية بالموارد المائية. وكان هناك صناعات خفيفة للمأكولات والمرطبات.

أخذ العراق مؤخراً بالعناية بالصناعة. والسياسة تتجه نحو تنويع الانتاج الصناعي، وتقنينه واخضاعه للقطاع العام. والمصانع الحكومية الرئيسة هي: مصنع تصنيع القار (جنوبي الموصل) ومصنع للأقمشة في الموصل لاستغلال القطن الخام المحلي ومصانع محلية للاسمنت والآجر وثلاثة مصانع لتكرير السكر في كربلاء والسليمانية والموصل ومصنع السماد في البصرة وهكذا دواليك.

والتمويل لهذه الصناعات وغيرها جاء عن طريق المصارف التجارية (التي أُممت سنة ١٩٦٤) والمؤسسات الصناعية والزراعية والتعاونية الرسمية أي المصارف الحكومية. يضاف الى ذلك مساعدات تكنولوجية ومالية جاءت من الخارج. فالاتحاد

السوفياتي ساعد في انشاء أحد عشر مصنعاً (بينها مصنع للفولاذ)، ومصنع للأدوية في سامراء. وأسهم غيره من دول الكتلة الشرقية في مشاريع التصنيع.

وفي العراق مورد ثروة آخر هو الغاز الطبيعي الذي بلغ انتاجه نحو خمسمائة ألف مليون قدم مكعبة.

المواصلات: يوجد في العراق من السكك الحديدية ١٩٥٥ كم (منها ١,١٣٠ كم على أساس العرض العادي و٨٢٥ كم بعرض متر واحد). فالسكك ذات العرض المتر الواحد تقع من بغداد الى خانقين فكركوك فأربل؛ ومن بغداد الى المسيب فكربلاء. والسكك ذات العرض العادي تشمل الخطوط الباقية من الرابية (على الحدود السورية) الى الموصل فبغداد ومنها الى البصرة فأم قصر على الخليج العربي. وهناك مخطط لبناء خط حديدي طوله ٥٥٠ كم يربط بغداد بالحسيبة على الحدود السورية العراقية.

أما الطرق في العراق فهي: بغداد ـ الموصل ـ تل كوجوك (الحدود السورية) ٥٢١ كم؛ بغداد ـ كركوك ـ أربيل ـ زاخو (حدود تركيا) ٥٤٤ كم؛ كركوك ـ السليمانية ١٠٩ كم؛ بغداد ـ العمارة ـ البصرة ـ صفوان (الحدود الكويتية) ٥٩٥ كم؛ بغداد ـ الرطبة (الحدود السورية) الى دمشق ٥٥٥ كم؛ بغداد ـ بابل ـ الديوانية ١٨١ كم.

تعتبر البصرة وأم قصر النمفذين البحريين للعراق. وتتصلان بجميع الموانىء العالمية. والشركة البحرية العراقية على اتصال مستمر ولها خدمة بحرية منتظمة بين البصرة والخليج والموانىء الأوروبية. وثمة خطوط بحرية أخرى تصل البصرة وأم قصر لنقل البضائع والركاب الى جميع انحاء العالم. وثمة اتصال بريدي سريع بين البصرة وبمباي، كما ان الاتصال البريدي البحري متيسر مع بريطانيا واستراليا وجنوب افريقيا والشرق الأقصى.

يستطيع ميناء البصرة التعامل مع نحو عشرين سفينة في وقت واحد، عدا عن حوضين للمنتوجات البترولية وحوض واحد للحبوب وآخر للأسمدة في مفتيا وأبو فلس وأم قصر.

والخطوط الجوية العراقية (قطاع عام) تصل بغداد بأكثر المدن الأوروبية والعالم العربي والهند.

التجارة الخارجية: استورد العراق في سنة ١٩٧٧ ما قيمته ١,١٥٢ مليون دينار عراقي وصدر الى الخارج ما قيمته ٤٢ مليون دينار عراقي. وهذه الأرقام، من حيث ارتباطها، هي طبيعية. فالعراق يجد نفسه في عجز تجاري؛ لكن الصادرات المذكورة لا يدخل فيها ما تكسبه الحكومة من النفط الذي كانت قيمته في سنة ١٩٧٧ نحو ٢,٨٠٧ مليون دينار. وأهم ما يستورده العراق، من حيث قيمته النقدية، هو الآلات،

والسيارات (وقطع الغيار) والسكر (نحو ٣٦ مليون دينار عراقي) والمواد الطبية والأخشاب. اما الصادرات فأهمها: التمور (نحو ١٢ مليون دينار عراقي) والجلود وعلف الحيوان الخام. ويستورد العراق حاجاته من دول العالم المختلفة. ولكن أكثر وارداته هي من: اليابان والمانيا الاتحادية وبريطانيا وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة وهولندا والاتحاد السوفياتي (مرتبة بحسب قيمة المستورد لسنة ١٩٧٧). أما البلاد التي يصدر العراق اليها فهي، مرتبة حسب قيمة المصدر لسنة ١٩٧٧: الهند والصين الشعبية وفيتنام والباكستان والكويت ومصر.

التعليم

من الملحوظ انه منذ قيام الجمهورية العراقية (١٩٥٨) كان هناك توسع بارز في شؤون التعليم على المستويات جميعها. وقد ارتفعت موازنة التعليم بشكل واضح منذ سنة ١٩٥٨ بحيث أصبحت ١٧٠ مليون دينار سنة ١٩٧٦، وهذا يعادل ١١,٥٪ من مجموع الموازنة. وقد أصبح التعليم، من أدنى السلم الى الجامعة، مجانياً (قرار ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥). وفي الوقت ذاته الغيت جميع المدارس الخاصة التي كانت قائمة في العراق وأصبحت مدارس حكومية. والتعليم الابتدائي، ومدته ست سنوات، هو الآن الزامي. وهناك اتجاه الى جعل مدة التعليم الالزامي تسع سنوات. والتعليم الثانوي، ومدته ست سنوات أيضاً، يوسع عليه انفاقاً وتنظيماً.

وقد كان في العراق في العام الدراسي ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ نحو مليونين من التلاميذ في المدارس الابتدائية (وعددها نحو ٨,٢٠٠ مدرسة)، كما كان هناك أكثر من نصف مليون تلميذ في التعليم الثانوي العام (الأكاديمي) وكان عدد المدارس ١٣٢٠ مدرسة. وكان في البلاد اثنتان وثمانون مدرسة مهنية فيها نحو ٢٩,٠٠٠ طالب، كما كان في العراق ٤٣ معهداً لتدريب المعلمين تأوي نحو ٢٢,٠٠٠ طالب. اما الجامعات فكانت ستاً فيها نحو ٧٢,٠٠٠ طالب. واهتمام العراق بالنواحي العلمية يتضح من معرفتنا انه كان هناك، في السنة الدراسية المذكورة، خمس عشرة كلية ومعهداً فنياً فيها قرابة ١٠,٠٠٠ طالب.

أما الجامعات فهي: جامعة بغداد وفيها قرابة عشرين ألف طالب يعنى بأمرهم ما يزيد عن ١٥٠٠ أستاذ ومدرس. وجامعة البصرة (التي كانت فرعاً لجامعة بغداد حتى سنة ١٩٧٦ لما استقلت) وفيها ما يقرب من عشرة آلاف طالب ونحو خمسمئة استاذ ومدرس. وكانت جامعة الموصل أيضاً فرعاً من جامعة بغداد الى سنة ١٩٧٦ لما استقلت. وفيها نحو عشرة آلاف طالب، وما يقرب من ستمائة استاذ ومدرس. وجامعة السليمانية فيها نحو ٣٠٠ أستاذ ومدرس يهتمون بنحو ٤,٢٠٠ تليمذ. بالإضافة الى ذلك، في بغداد جامعتان اخريان هما المستنصرية ويزيد عدد طلابها عن أحد عشر

ألفاً وفيها نحو خمسمائة أستاذ ومدرس. والجامعة التكنولويجة التي يؤمها ما يزيد عن ستة آلاف طالب ويدرّس فيها ثلاثمائة أستاذ ومدرس. وكل هذه الأرقام قد تخطتها اعداد السنوات الثمانينات والتسعينات.

وفي بغداد المجمع العلمي العراقي، كما انشىء مؤخراً المجمع العلمي الكردي والهيئة العلمية السريانية. أما الصحف والدوريات فيبلغ عدد اليومي منها ستاً، والأسبوعية، تسعاً؛ أما الدوريات الشهرية والربعية (الفصلية) فهي عشرون.

٢١ ـ سورية

الحد الوحيد الطبيعي الواضح بالنسبة الى الجمهورية العربية السورية هو الحد الغربي، البحر المتوسط. أما في الجنوب فهناك حد يفصل سورية عن لبنان، وعندها يتم الحد الغربي لسورية نفسه بحيث يمر بقمم جبال لبنان الشرقية أو أنتلبان. ثم هناك مسافة صغيرة حول منابع الأردن (بانياس وتل القاضي) حيث تتجاور سورية مع فلسطين. ويلي ذلك الحد المشترك (الجنوبي) مع الأردن ـ وهذا الحد، مثل الحد الشرقي حد سياسي يجتاز الصحراء السورية من الحدود الأردنية في اتجاه شمالي شرقي إلى فش خابور على دجلة. ويسير الحد السوري على شاطىء دجلة الأيمن الى عين دوار. والحد الشمالي لسورية، في أكثره، يسير مع خط حديد بغداد (من نصيبين الى غرب جرابلس). ويتجه الحد اليوم إلى جنوب انطاكية (بعد ان اغتصبت منطقة انطاكية ـ الاسكندرون وضمت الى تركية سنة ١٩٣٩) حتى يصل الى البحر الأبيض المتوسط.

مساحة سورية ١٨٠, ١٨٥ كم٢. وتنقسم إلى منطقتين رئيستين: منطقة غربية ضيقة نسبياً أساسها مرتفعات تتخللها أودية عميقة، ومنطقة شرقية أوسع بكثير هي في الواقع هضبة واسعة تنحدر انحداراً تدريجياً نحو الفرات. والمنطقة الغربية يمكن النظر فيها كما يلي: ثمة سلسلة جبال ضخمة هي جبال العلويين (أو الانصارية). وقد ترتفع أعلى قممها إلى نحو ١٥٢٥ متراً وثم تنحدر سفوحها الغربية انحداراً تدريجياً نحو البحر، بحيث تسمح لعدد من السهول الساحلية الصغيرة ان تحتل مكانها بين الجبل والشاطىء. اما الجهة الشرقية فان هذه الجبال تنحدر انحداراً فجائياً الى الوادي المتسع الذي يجتازه نهر العاصي في اتجاهه من الجنوب إلى الشمال (ويسمى سهل الغاب). وثمة سلسلة جبال لبنان الشرقية، الموازية لسلسلة لبنان الغربية، وهي أكثر ارتفاعاً من جبال العلويين إذ تبلغ قمة جبل الشيخ نحو ٢٧٥٠ متراً، وهو أعلى جبل في سورية. ومن المهم أن نتذكر انه إلى الشرق من جبال العلويين وجبال لبنان الشرقية تقع قيعان تجري في بعضها نهيرات أو سواق أهمها قاع حلب وفيه نهر قويق القديم (قوين) وغوطة دمشق وهي الأغنى ماء. وهناك ـ في المنطقة الغربية ـ جبل العرب الذي هو أصلاً حمم بركانية ـ وغربه خصب ينتج الحبوب الجيدة. أما شرقه فيغلب عليه الجفاف وقلة الانتاج الزراعي.

هذا فيما يتعلق بالمنطقة الغربية من سورية. أما المنطقة الشرقية، فهي سهوب

أو بواد أو صحار، باستثناء عدوات الأنهار ـ الفرات ودجلة وروافدهما، وهي المعروفة بالجزيرة، حيث قامت مشاريع ري صغيرة أولاً، وكبيرة تالياً (وسنعود إليها). ونحن إذا جمعنا الأجزاء الصالحة للاستغلال الزراعي، على درجاته المختلفة، في المنطقتين وجدنا أن مساحتها لا تتجاوز ٤٠٪ من مساحة البلاد.

ولما كانت الجبال تمتد موازية للبحر ومتعامدة على مجاري الرياح الغربية فإن الرطوبة التي تحمل من البحر ـ مطراً أو غيوماً ـ تفيد منها السفوح الغربية، أما الداخل فلا يفيد منها الا قليلاً. وقد تصل حرارة الساحل صيفاً ٣٧ درجة مئوية (وأحياناً تصل ٤٣ درجة مئوية). أما الداخل فتختلف الحرارة فيه بالنسبة الى المكان. فمعدل حرارة الصيف في دمشق ٢٥، أما في حلب فقد تتجاوز ذلك. وحرارة المناطق السورية الساحلية معتدلة في الشتاء، لكنها تهبط إلى درجة الصفر في أماكن كثيرة (على الجبال المرتفعة يسقط الثلج شتاء، ويظل على جبل الشيخ حتى شهر نيسان /ابريل أو أيار/ مايو). وقد تبلغ حرارة دمشق شتاء ١٠ درجات مئوية.

توزيع الأمطار في سورية هو على النحو التالي: مناطق يسقط فيها فوق ١,٠٠٠ ملم ـ في جبال العلويين وسفوح جبل الشيخ. وكثيراً ما يكون هذا ثلجاً؛ مناطق ما بين ٦٠٠ و١,٠٠٠ ملم ـ على سفوح جبال العلويين والجزء الشرقي من محافظة الحسكة ورقعة صغيرة نسبياً الى جنوب جبل الشيخ، تنتج الحبوب الشتوية وبخاصة القمح والشعير، أو الخضار؛ ومناطق ما بين ٤٠٠ و٦٠٠ ملم وهي السهول الداخلية ـ سهول حمص وحماة وحلب، ويتراوح عرضها بين ٣٠ و٥٠ كيلومتراً، إلا أن كمية المطر الساقطة هنا تتبدل وتختلف بين سنة وأخرى؛ وما بين ٢٠٠ و٤٠٠ ملم، وهي أراض سهوبية، وقد تصلح للزراعة البعلية (في بعض السنوات) كما انها قد تغطيها، أو أجزاء منها، الأعشاب الصالحة للرعي فترة من الزمن؛ وما بين ١٠٠ و٢٠٠ ملم، وهذه تبلغ مساحتها نحو ٨٠,٠٠٠ كم٢ (أو نحو ٤٠٪ من مساحة البلاد). هذه هي منطقة الصحاري والبوادي. وهذه مثل سابقتها، يمكن استغلال بعضها إذا أمكن ري الأرض.

في سورية منطقة تسمى الهلال الخصيب، تمتد في شكل قوس محاذ لجبال الأردن عبر سورية الغربية والشمالية حتى العراق. ومعدل سقوط المطر فيها بين ٢٠٠ ملم و٤٠٠ ملم. هذه المنطقة إذا تيسر ريها أصبحت منتجة (لأنها خصبة) زراعياً، على ما كانت عليه في العصر الذهبي للعرب. ومن حسن الحظ أن العناية بريها عادت إليها منذ الأربعينات، لكن على مهل أولاً وبوسائل بشرية محدودة، إلى أن أدركتها مؤخراً المشاريع الميكانيكية والكهربائية الكبرى، للري وغيره.

إرث التاريخ

تقع سورية بين آسية الصغرى شمالاً وأرض الرافدين شرقاً والجزيرة العربية

(عبر الأردن) شرقاً في جنوب، ومصر (عبر فلسطين) جنوباً في غرب والبحر غرباً. وبالنسبة إلى آسية الصغرى فإن الشعوب الآتية منها إلى سورية تهبط من الجزء البارد الفقير (نسبياً) إلى الدفء والغنى. ومن جهة الجنوب الشرقي تأتي قبائل الجزيرة لتستوطن أرضاً غنية. ففي الحالتين تكون النقلة إلى سورية نقلة حاجة. أما من العراق فالنقلة سببها الرغبة في الوصول إلى البحر وإلى أخشاب جبال أمانوس ولبنان. ولكن مصر لها نحو سورية نظرة أخرى. ذلك أن سورية (بما في ذلك فلسطين) كانت دوماً خط الدفاع المصري عندما تقوم في مصر دولة تعنى بمثل هذا الأمر. أما البحر فقد كان يبعث إلى البلاد شعوباً جديدة بين الفينة والأخرى، لكن الأهم من ذلك هو أنه كان يبعث بالتجار دوماً.

على أن موقع سورية يجب أن ينظر إليه من الناحية التجارية أيضاً. إن الطرق التجارية من العراق إلى المتوسط ومن الخليج العربي إلى المتوسط ومن البحر الأحمر إلى المتوسط ومن الحجاز إلى المتوسط ـ جميع هذه الطرق تجتاز سورية.

هذان هما الأمران الرئيسان اللذان أثرا في تاريخ سورية من حيث موقعها، عسكرياً وتجارياً. إن المدنية التي قامت في أرض الرافدين وفي وادي النيل منذ حول سنة ٣٠٠٠ ق.م. (إن لم يكن قبل ذلك) كان من نتيجتها قيام تبادل اقتصادي بين المنطقتين، بسب الفائض الاقتصادي عن كل منهما. وكانت سورية الطريق الذي سارت عليه هذه المقايضة. ومن ثم فقد أفادت سورية أموراً كثيرة من ذلك. فقد أفادت ثراء بسبب التجارة عبر أرضها، وتعلمت بعض شؤون المدنية من هذا التواصل، وقامت فيها ـ ساحلاً وداخلاً ـ مدن ـ دول كانت أساس الحياة المدنية في سورية بقصورها وهياكلها وأسوارها وأسواقها وأبنيتها العامة.

استمر هذا الدور في سورية إلى أن تحركت الأطماع العسكرية، في العراق وفي مصر، لإنشاء امبراطوريات. ولعلّ السومريين حاولوا الاستيلاء على أجزاء من سورية، لكن المهم أن فترة الامبراطوريات هي التي تمتد من حول القرن الثامن عشر إلى القرن الثاني عشر ق.م: دولة حمورابي والامبراطورية المصرية (القرن الخامس عشر) وامبراطورية الحثيين (القرن الرابع عشر). في هذه الفترة تعرضت سورية لمعارك كبيرة، واحتلال لأراضيها. لكن فترة الامبراطوريات هذه انتهت حول سنة ١٢٠٠ ق.م.

وبين ١٢٠٠ وحول ٨٠٠ ق.م. قامت في سورية دويلات متعددة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب (في فلسطين). ثم جاء دور الامبراطوريات الثاني ووقعت سورية تحت حكم الآشوريين فالكلدانيين فالفرس فاليونان (الاسكندر الكبير في القرن الرابع ق.م.) فالرومان فالبزنطيون. على أن الرومان كان لهم خصم شرقي هم الفرثيون الذين حاربوهم في سورية (الشمال الشرقي) كما كان للبزنطيين خصم شرقي آخر هم

الساسانيون (منذ ٢٢٦م). وفي هذه الفترة كانت سورية أرض المعركة، كما كانت قبلاً.

على أن سورية، مع أن معارك كثيرة وقعت فيها، أفادت من هذه الامبراطوريات التي احتلتها. إذ حملت إليها كل منها حضارتها. فأفادت البلاد مما كان عند هذه الشعوب وتمثلته فكان لها حضارتها الخاصة بها.

وفي العقود الأولى من القرن السابع الميلادي جاء العرب المسلمون فاتحين، وبانتصارهم في معركة اليرموك (٦٣٦) فتحت سورية أبوابها لهم. وبدأ بذلك فصل جديد هام في تاريخ البلاد. ففي غضون فترة قصيرة أصبحت دمشق عاصمة الخلافة الأموية (٦٦١ ـ ٧٥٠) ومنها انطلقت الجيوش العربية تفتح بعض العالم القديم المعروف انذاك: إلى حوض السند وأواسط آسية شرقاً والأندلس غرباً (بعد أن كان العرب قد وصلوا طرابلس في أيام الخلفاء الراشدين). وانتشرت اللغة العربية في بلاد الشام، واعتنق كثير من السكان الاسلام، ولو أن فئات متعددة ظلت على المسيحية، ولا تزال إلى الآن.

كانت سورية، أيام الأمويين، قلب الامبراطورية العربية الاسلامية الجديدة. لكن لما قامت الدولة العباسية (٧٥٠) انتقل مركز الثقل الى بغداد، وعادت سورية ولاية من ولايات الامبراطورية. إلا أن الضعف الذي أخذ يدب في الدولة العباسية منذ أواخر القرن السابع ظهرت آثاره في سورية. إذ إن هذه كانت موضع تجاذب بين بغداد ومصر أيام بني طولون (٨٦٨ ـ ٩٠٥) ثم إلى درجة أقل أيام الاخشيديين (٩٣٥ ـ ٩٦٩). كما قامت في سورية دويلات كان لها استقلالها مثل الحمدانيين (٩٠٥ ـ ١٠٠٤) ودولة بني مرداس (١٠٢٣ ـ ١٠٧٩). إلا أن سورية وقع بعض أجزائها تحت حكم الفاطميين الذين قامت دولتهم في مصر (٩٦٩ ـ ١١٧١). وقد نافس هؤلاء السلاجقة الذين احتلوا دمشق (١٠٧٥) لكنهم لم يقيموا في البلاد دولة قوية. بل قامت لهم إمارات صغيرة كانت تقتتل فيما بينها، الأمر الذي سهل للصليبيين احتلال البلاد (١٠٩٩ سقطت القدس) وإقامة ثلاث إمارات (الرها وانطاكية وطرابلس) ومملكة القدس اللاتينية. إلا أن عماد الدين زنكي قضى على إمارة الرها (١١٤٤) وصلاح الدين انتصر على الصليبيين في معركة حطين في شمال فلسطين (١١٨٧) واسترجع القدس منهم. لكن الدولة الايوبية التي أقامها صلاح الدين في سورية ومصر توزعت بعد وفاته بين الأبناء والأعمام، إلى أن قامت دولة المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧) في القاهرة، وهي الدولة التي تم لها إخراج الصليبيين نهائياً من البلاد (١٢٩١). كما أن المماليك ردوا المغول على أعقابهم في معركة عين جالوت في شمال فلسطين (١٢٦٠). وفي عصر المماليك أغار المغول مرتين على سورية، الأولى بقيادة غازان (١٣٠٠) والثانية بقيادة تيمور (١٤٠٢). وهذا خرّب حلب ودمشق، وحمل مهرة الصناع من هاتين المدينتين إلى عاصمة ملكه سمرقند.

في سنة ١٥١٦ انتصر سليم الأول على السلطان الغوري في معركة مرج دابق (قرب حلب) واحتل سورية (وفي السنة التالية احتل سليم القاهرة وقضى على دولة المماليك). وهكذا أصبحت سورية جزءاً من الامبراطورية العثمانية. وظلت كذلك حتى ١٩١٨، لما احتلتها جيوش الحلفاء بالتعاون الوثيق مع الأمير فيصل بن الحسين.

وخلال القرون الثلاثة التي مرت على سورية بعد الفتح العثماني حمل معه شيئاً قليلاً من التحسن إلى وضع كان قد ساء كثيراً قبل ١٥١٦. ومع أن سورية قسمت إلى ثلاثة أقسام إدارية (دمشق وطرابلس وحلب) فإن السلطة في الواقع كانت في أيدي الزعماء المحليين عرباً كانوا أم تركماناً. أما الولاة العثمانيون فقلما تحكموا في أكثر من مركز الولاية والمناطق المحيطة به. وقد كان الولاة يحصلون على مراكزهم عن طريق انفاق كميات كبيرة من المال. لذلك عندما كانوا يصلون إلى مراكزهم كانوا يحاولون جمع المال الذي أنفقوه وتوفير شيء لما تبقى لهم من العمر. وكان الحيف يقع على السكان. (عين على دمشق ١٣٣ والياً في ١٨٠ عاماً). ولما ضعفت السلطة المركزية في استانبول أصبح للحاكم المحلي، إذا استطاع ذلك، ان يوسع منطقة نفوذه وسلطانه كما يشاء. والمثل على ذلك هو أحمد باشا الجزار حاكم عكا، الذي كان يحكم الجزء الأكبر من سورية حكما يكاد يكون مستقلاً (١٧٨٥ ـ ١٨٠٤). وفي أيامه هاجم نابليون عكا (١٧٩٩) وفشل في الاستيلاء عليها.

كان قيام محمد علي باشا في مصر (١٨٠٥ ـ ١٨٤٩) ايذاناً ببدء فترة جديدة في تاريخ سورية. ذلك بأن محمد علي باشا أرسل جيوشه فاحتلت سورية (١٨٣١ ـ ١٨٣٣) وظلت البلاد تحت سلطة ابنه ابراهيم باشا حتى سنة ١٨٤٠ إذ انسحبت الجيوش المصرية نتيجة للثورات التي قامت ضد الحكم المصري، والموقف العدائي الذي وقفته بريطانية وروسيا بشكل خاص ضد محمد علي باشا.

وفي القرن التاسع عشر أفادت سورية، ولو جزئياً، من الاصلاحات التي بدأها السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) وسار على خطاه فيها بعض خلفائه. كما ان الاتصال التجاري المتجدد مع أوروبة والبعثات التبشيرية العلمية والمدارس التي فتحتها الدولة العثمانية (على قلتها) والمدارس الخاصة التي قامت في بعض المدن السورية والصحف التي ظهرت، كان لها أثر كبير في أن تسهم سورية في النهضة العربية التي عرفها المشرق العربي في القرن التاسع عشر. وهذا الاحياء للأدب العربي كان له أثر بارز في خلق شعور بالقومية العربية في البلاد، الأمر الذي كان له تأثير كبير في تاريخ سورية في القرن العشرين.

كانت حركة القومية العربية قد وجدت القيادة والاتباع في جماعات وأفراد من بلاد الشام والعراق، ومن مهاجري الشاميين في مصر وفي الخارج. وذلك في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، وفي مطلع القرن العشرين. وكانت الجمعيات، السرية

منها والعلنية، قد أخذت تعمل في سبيل توحيد كلمة العرب للحصول على نوع من الاستقلال الذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية، بحيث يتاح لهم أن تتكون شخصيتهم، وينمو كيانهم. إلا أن القومية الطورانية كانت ترى غير ذلك، بحيث انها لم تنكر على العرب رغباتهم فحسب، بل أخذت تسعى إلى تتريكهم. ولما قامت الحرب العالمية الأولى تمت اتصالات بين القيادات القومية وقام الحسين شريف مكة بثورته على الأتراك معتمداً على المراسلات التي تمت بينه وبين مكماهون (تموز/ يوليو ـ ١٩١٥/كانون الثاني/ يناير ١٩١٦) وعلى وعود في هذه المراسلات بأن العرب ستكون لهم دولة مستقلة بعد الحرب. إلا أن الأمر تكشف عن اتفاقية سيكس ـ بيكو (بين بريطانية وفرنسا وروسيا ١٩١٦) وبموجبها تكون سورية في منطقة النفوذ الفرنسي. ولما انتهت الحرب أقيمت إدارة بريطانية في فلسطين، ونظمت المناطق الساحلية السورية تحت إدارة فرنسية. أما سورية الداخلية فتولاها الأمير فيصل. وفي (آذار/مارس ١٩٢٠) أعلن المؤتمر السوري سورية (بما في ذلك لبنان وفلسطين) دولة مستقلة ذات سيادة وبوضع فيصل ملكاً عليها، فردت دول مؤتمر سان ريمو (نيسان ـ ابريل ١٩٢٠) على ذلك بأن عهدت إلى فرنسا بالانتداب على سورية بكاملها (وعلى لبنان). وفي تموز (يوليو) من العام نفسه احتلت الجنود الفرنسية دمشق.

بدأ منذ ذلك الوقت صراع ـ كان يعنف أحياناً إلى حد الثورة كما حدث ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ و١٩٤١ ـ بين السوريين، قيادات وتنظيمات وشعباً، وفرنسا التي كانت تريد تثبيت وجودها عن طريق صك الانتداب (من عصبة الأمم ١٩٢٣) وانشاء إدارة تسيطر فيها فرنسا على الأمور الأساسية، وسورية كانت تريد أن تخرج عن الطوق الاستعماري. فالدستور الذي نشر سنة ١٩٢٨ يمثل هذا النزاع. فقد سنت الدستور جمعية تأسيسية منتخبة، لكنها أدخلت فيه كل العناصر الأساسية للاستقلال (١٩٢٨). فلم تقبل به السلطات الفرنسية. فلما نشره المفوض السامي (١٩٣٠) أضاف إليه مادة تقول بأن كل ما يخالف نص صك الانتداب من هذا الدستور هو ملغى باطل! والمحاولات التي قامت لتنظيم العلاقات السورية الفرنسية على أساس معاهدة (أواسط الثلاثينات) انتهت إلى لا شيء لأن سورية كانت تصر على موقف سياسي ذي كرامة ودولة تشمل سورية جميعها، وفرنسا كانت تراوغ وتماطل. وفي سنة ١٩٣٩ اقتطعت منطقة الاسكندرون ـ انطاكية من سورية وضمته إلى تركية. وكان قد مر الوقت فأصبحت المعاهدة وما إليها غير ذات موضوع. وفي فترة الحرب العالمية الثانية حكمت سورية كأي مستعمرة فرنسية. فالدستور معطل، والمفوض السامي الحاكم بأمره (أكثر من الأحوال العادية) سواء في ذلك المفوض قبل ١٩٤٠ (سنة انهيار فرنسا) أو الذي كان يمثل حكومة فيشي. لكن لما استولى الانكليز وحلفاؤهم من قوى فرنسا الحرة (ديغول) في حزيران/ يونيو ١٩٤١ كان ثمة وعد باستقلال سوريا.

ومع أن نقل السلطات الرئيسة من فرنسا إلى سورية بدأ سنة ١٩٤٣، فإن فرنسا عادت فطالبت بمعاهدة شرطاً للانسحاب. وتوتر الوضع وضربت دمشق (١٩٤٥) الأمر الذي أدى إلى تدخل بريطاني عسكري، وانتهت القضية بانسحاب القوى الأجنبية جمعاء من سورية (نيسان/ ابريل ١٩٤٦).

لسنا نرمي إلى التحدث بالتفصيل عن الأمور التي جرت في البلاد خلال ثلث القرن الماضي، فذلك أمر يطول فعلاً بالنسبة إلى المكان المخصص لهذا الفصل. لكن لا بد من وضع الأحداث الرئيسة في شكل جدول زمني، مع التعليق المقتضب عليها.

حري بالذكر أن سورية كانت عضواً مؤسساً في كل من جامعة الدول العربية (آذار/ مارس ١٩٤٥) والأمم المتحدة (نيسان/ ابريل ١٩٤٥). ولا شك أن العضوية في هاتين المنظمتين كسبت منبرين سياسيين يمكن الاستفادة منهما.

في سنة ١٩٤٨ قامت حرب فلسطين للحيلولة دون قيام دولة إسرائيل. ولكن الدول العربية لم تنجح لأسباب سياسية عالمية قوية.

١٩٤٨ ـ ١٩٥١: شغلت سورية بمشاريع الوحدة مع العراق، والمحاور داخل الجامعة العربية والخلاف الجمركي مع لبنان؛ ١٩٤٩ انقلابان عسكريان (الزعيم والحناوي)؛ ١٩٥١ انقلاب عسكري (الشيشكلي ١٩٥١ ـ ١٩٥٤)؛ ١٩٥٢ الثورة المصرية ـ جمال عبد الناصر؛ ١٩٥٦ حملة السويس ـ بدأتها اسرائيل (أواخر تشرين الأول / اكتوبر) وانضمت إليها، بناء على مؤامرة سابقة، بريطانية وفرنسا. فشل الحملة والانسحاب الاسرائيلي من سيناء (آذار / مارس ١٩٥٧)؛ ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ الوحدة مع مصر (شباط/ فبراير). البعثيون الذين كانوا يؤمنون بوحدة العالم العربي والذين قبلوا بالاشتراكية العربية، كانوا يرون في الوحدة أمراً طبيعياً. وقد انحلت الوحدة في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٦١.

يمكن القول إجمالاً بأنه اعتباراً من تموز /يوليو ١٩٦٣ والبعث هو الهيئة الحاكمة في سورية. وشهدت الفترة ١٩٦٣ وما بعدها حركة تأميم واسعة النطاق (كانت في كثير منها نتيجة أمرين: الأول أن فترة الوحدة مع مصر أدخلت إلى سورية الاصلاح الزراعي وفكرة التأميم، والثاني أن البعث أخذ بالمبادىء الاشتراكية العلمية، ولذلك سار في التأمم قدماً). وفي ١٩٧٠ قامت الحركة التصحيحية في سورية بقيادة الرئيس حافظ الأسد. وفي ١٩٧٣ قامت بين سورية ومصر من جهة وإسرائيل من جهة ثانية حرب رمضان (أو حرب أكتوبر) التي كانت نتيجتها انتصاراً للعرب واستعادة لبعض الأرض التي احتلت سنة ١٩٦٧ (القنيطرة وما حولها).

في الفترة التي مرت بسورية منذ أن تولى أمورها الرئيس حافظ الاسد، مرت بها أمور غاية في الأهمية. وهذه يمكن ايجازها بما يلي: (١) في ١٩٧١ انتخب حافظ

الأسد رئيساً لسورية لسبع سنوات. وقد جددت له سبع سنوات أخرى في سنة ١٩٧٨. (٢) في شباط/ فبراير ١٩٧١ انشىء مجلس الشعب وهو أول هيئة تشريعية في البلاد منذ سنة ١٩٦٦. وقد جرت الانتخابات فكان للبعثيين ٨٧ عضواً من أصل ١٧٣. (٣) ١٩٧٢ وسعت الحكومة بحيث ضم إليها وزراء شيوعيون. وفي تلك السنة انشئت الجبهة الوطنية التقدمية. (٤) قدم مشروع دستور جديد إلى مجلس الشعب فوافق عليه (كانون الثاني/ يناير ١٩٧٣). وقد جرى عليه استفتاء في آذار / مارس من السنة نفسها، فقبله الشعب. لكن ارضاء لبعض الفئات أضيف إليه ملحق نص على أن رئيس الدولة يجب أن يكون مسلماً. وينص الدستور على أن الشريعة هي الأساس في التشريع العام. (٥) جرت انتخابا ت في سنة ١٩٧٣ (على أساس الدستور الجديد) كانت نتيجتها أن ال ١٨٦ عضواً تم انتخابهم على التوزيع التالي: ١٤٠ من الجبهة الوطنية التقدمية، ٢٤ عضواً مستقلاً، و٤ معارضين. (٦) في سنة ١٩٧٨ وقعت مصر مع إسرائيل اتفاقيتي كمب ديفيد، وبذلك خرجت مصر عن الصف العربي. وسورية الآن عضو في جبهة الصمود والتصدي. (٧) في سنة ١٩٨٠ عقدت سورية معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفياتي.

الحياة الاقتصادية

ملحوظات عامة

١ ـ تنفق الحكومة السورية نحو ربع موازنتها على شؤون الدفاع.

٢ ـ في حرب ١٩٧٣ خسرت سورية نحو ١,٨٠٠ مليون دولار، إذ إن الطيران الاسرائيلي الحربي ضرب ميناء اللاذقية ومصاب النفط في بانياس وطرطوس ومصفاة حمص (كانت تكرر نحو ٤٠٪ من حاجة البلاد).

٣ ـ ومع ذلك فان خطة التنمية الثالثة (١٩٧١ ـ ١٩٧٥) نجحت نجاحاً كبيراً. وخطة التنمية الرابعة (١٩٧٦ ـ ١٩٨٠) تعثرت قليلاً.

٤ ـ من مساحة سورية أقل من النصف يصلح للاستغلال الزراعي بشكل أو بآخر (٧٠٪ من ٨,٧ ملايين هكتار مستغلة).

٥ ـ جرت ثلاثة احصاءات للسكان في سورية. سنة ١٩٦٠ كان عدد السكان نحو ٤,٥ مليون نسمة، وفي سنة ١٩٧٠ بلغ عدد السكان ٦,٣ مليون نسمة، أما إحصاء ١٩٧٨ فقد أظهر أن عدد سكان سورية (بما في ذلك الفلسطينيون المقيمون في البلاد) هو نحو ثمانية ملايين نسمة. وارتفع العدد إلى ستة عشر مليوناً في مطلع التسعينات.

٦ ـ هناك انتقال متزايد من الريف إلى المدن والبلدان. ففي سنة ١٩٥٩ كان

السكان المستقرون في المدن والبلدان ٣٥٪ فأصبح بعد عشر سنوات ٤٠٪.

٧ ـ عدد سكان دمشق وقضائها زاد على النحو التالي: نصف مليون سنة ١٩٥٩؛ مليون ونصف المليون ١٩٧٣؛ وفي سنة ١٩٧٩ كان عدد سكان دمشق وما حولها ٢,٢٥ مليون نسمة. وفي التسعينات بلغ العدد الاربعة ملايين.

٨ ـ مدينة حلب كان سكانها ٤٦٦,٠٠٠ (١٩٥٩) فبلغ ٦٤٦,٠٠٠ (١٩٧٣). ويبلغ عدد سكان حلب وقضائها الآن (١٩٧٩) ١,٥٢٤,٠٠٠. وارتفع العدد إلى ثلاثة ملايين في التسعينات.

٩ ـ ارتفعت الايدي العاملة من ١,٥٢٤,٠٠٠ (١٩٧٠) الى ١,٩٩٥,٠٠٠ (١٩٧٧) وكان عدد العاملين في الزراعة والغابات والصيد والقنص في سنة ١٩٧٠ هو ٤٩٪ من القوى العاملة، فأصبح ٣٧,٨٪ الآن. فيما ارتفع عدد العاملين في الصناعة والتعدين من ١٢,٥٪ (١٩٧٠) الى ١٣,٧٪ الآن. كذلك فإن العاملين في التجارة والفندقيات ارتفع من ٩,١٪ (١٩٧٠) الى ١٠,٢ الآن. أما العاملون في المواصلات على اختلاف أنواعها فقد ارتفع من ٤٪ (١٩٧٠) إلى ٦٪ الآن.

١٠ ـ بالإضافة الى المدينتين الرئيستين في سورية، فقد كان هناك، بحسب إحصاء ١٩٧٠ من السكان: حمص (٢١٥,٠٠٠) حماة (١٣٨,٠٠٠) اللاذقية (١٢٦,٠٠٠) دير الزور (٦٦,٠٠٠) الحسكة (٣٣,٠٠٠). وكل هذه الاحصائيات قد تبدلت مع نهاية القرن

الزراعة: لا تزال الزراعة أساس الحياة الاقتصادية في سورية، فهي تعطي البلاد ٢٠٪ من الدخل العام، وتستخدم على بعض التفاوت، نحو نصف الأيدي العاملة. وقد ذكرنا من قبل، المناطق الزراعية وتفاوتها في الانتاج. ولنذكر أنفسنا بأن الحياة الزراعية في سورية تأثرت، في أزمنة مختلفة، بنقص في مشاريع الري الكبرى (وهذا يتحسن الآن)، وبتفاوت سقوط الامطار في المناطق التي تعتمد في زراعتها على ذلك. ومع ان الزراعة الآن تعطي البلاد نحو ٢٠٪ من الدخل العام، فقد كانت حصتها من قبل أكبر: ٣٢,٢٪ (١٩٦٢) و٢٥,٦٪ (١٩٧٢). إلاَّ أن مشاريع الري التي تقوم الحكومة السورية بها، ستؤدي إلى زيادة حصة الزراعة من الدخل العام.

وثمة مشاريع للري هامة. وأكبرها مشروع سد الفرات، الذي خصصت له الحصة الكبرى من خطة التنمية الثالثة (١٩٧١ ـ ١٩٧٥). والخطة الرابعة (١٩٧٦ ـ ٨٠) خصصت لتوزيع المياه المتجمعة من بناء السد. وسيروي المشروع ٦٤,٠٠٠ هكتار عند إتمام الأعمال المتعلقة به. (هذا فضلاً عن توليد الكهرباء وتوصيل مياه الشفة إلى المناطق المحيطة بالمنطقة). وهناك مشروع الغاب، إذ تم تجفيف المستنقعات هناك، وثمة مخطط لتوسيع ذلك. في هذه المنطقة ستزداد مساحة الأرض الصالحة للحبوب وشمندر السكر والأرز والقطن (٢٢,٠٠٠ هكتار). وثمة مشروع اليرموك

(٢,٠٠٠ هكتار) ومشروع الخابور، وهو رافد من روافد الفرات (٥,٠٠٠ هكتار) ومشروع نهر سن قرب بانياس على الساحل (٤,٠٠٠ هكتار) ومشروع نهر قوين جنوبي حلب (١٦,٠٠٠ هكتار).

والغلات الزراعية الرئيسة (بحسب احصاء ١٩٧٨) مقدرة بآلاف الأطنان هي: القمح (١,٦٥٠) والشعير (٧٣٠) والبندورة (٥٠٢) والعنب (٣٤٥) والزيتون (٣٠٤) وشمندر السكر (٢٧٢) والبطاطا (٢٠٠) والبصل (١٦٠). وهناك الذرة (الصفراء والبيضاء) والعدس والسمسم والتين. على أن أكبر الغلات الزراعية السورية قيمة من حيث ما يدره على سورية من مال ناشىء عن تصديره هو القطن. فقد أفادت سورية منه (١٩٧٧) نحو ٨٥٠ مليون ليرة سورية. ويستهلك من القطن ٤٤,٠٠٠ طن سنوياً للصناعات الداخلية (الحلج وما إليه). إلا أن التخطيط هو أن تستهلك الصناعة المحلية منه في المستقبل ٧٥٪ ومعنى هذا أن سورية تخطط لتصدير القطن المصنوع (أقمشة وخيوطاً) بدل أن يصدر خاماً.

وفي سورية عدد كبير من المواشي. فقد قدرت أعدادها (١٩٧٧) على النحو التالي: خراف (٧,٠٠٠,٠٠٠) وماعز (١,٠٠٠,٠٠٠) وأبقار (٦٤٠,٠٠٠) وخيول (٥٥,٠٠٠) وحمير (٢٣٥,٠٠٠). كما قدر عدد الطيور (الدجاج أصلاً) بنحو (٨,٧٠٠,٠٠٠).

وتنتج سورية كميات كبيرة من منتجات الألبان وفي مقدمتها الحليب (٦٥٠,٠٠٠ طن) والجبن (٣٠,٠٠٠ طن) والزبدة (٨٤٠ طن) والسمن (٧,٦٠٠ طن).

التعدين: كان من المتعارف عليه، قبل نحو ثلث قرن، ان سورية ليس فيها بترول. لكن التنقيب أظهر أن هناك حقولاً له في كراتشوك (في الزاوية الشمالية الشرقية من البلاد) وفي السويدية ورملان. (بدأ الانتاج في السويدية ١٩٦٨). وفي الفترة الممتدة من ١٩٦٤ إلى ١٩٧٤ توقفت سورية عن منح امتيازات للتنقيب عن البترول وقامت بذلك الحكومة السورية عبر «الهيئة العامة للبترول». إلا أن الحكومة عادت فمنحت امتيازات التنقيب لعدد من الشركات الأجنبية (١٩٧٥) فعثر على بترول في حقول دير الزور والرقة.

كان القطن أكبر مصدر للحصول على العملة الصعبة من الخارج حتى سنة ١٩٧٤. وفي تلك السنة تقدم البترول على القطن. فحصلت سورية من الأول على ما يبلغ ٢,٥٤٤ مليون ليرة سورية، وفي سنة ١٩٧٨ انتجت سورية نحو ١٠,٠٠٠ مليون طن من البترول.

وفي سورية فوسفات كان انتاجه (١٩٧٨) نحو ٧٤٧,٠٠٠ طن، وملح يقدر انتاجه بنحو ٦٢,٠٠٠ طن (الرقمان لسنة ١٩٧٨).

الصناعة: سورية مشهورة منذ القدم بصنع الأقمشة. وقد ازدهرت هذه الصناعة

بعد الاستقلال (بعد أن كانت قد تأخرت في العقود السابقة لذلك). وقد صنع في سورية في سنة ١٩٧٧ من خيوط القطن والأقمشة القطنية والحريرية والأقمشة الصوفية ما يقدر بنحو ٧٢,٠٠٠ طن.

ويستخرج الفوسفات من مناجم في منطقة تدمر. وثمة مصانع للاسمنت في طرطوس وحلب وحماة تنتج نحو ١,٤٠٠,٠٠٠ طن سنوياً. وبين الصناعات الهامة والمشهورة في سورية: الزجاج والصابون والسكر والزيوت والتبغ والمشروبات الروحية.

التجارة الخارجية: تستورد سورية الكثير من السلع من الخارج وفي مقدمتها المعادن الأساسية والآلات ومعادن الوقود والبترول والأدوات الكهربائية وما إليها والسيارات والأقمشة المختلفة والمواد الغذائية والمحفوظة والتبغ والمواد الكيميائية والخضار والفواكه والحبوب. وقد قدرت قيمة الواردات بما يقارب ٩,٧٠٠ مليون ليرة سورية. وتقدر قيمة الصادرات بنحو ٤,١٥٩ مليون ليرة سورية. ويدخل فيما تصدره البلاد القطن (خاماً وخيطاً وقماشاً) والحبوب والفواكه والخضار والفوسفات والبترول الخام.

وتستورد سورية سلعها من مناطق ودول متباعدة منوعة، وفي مقدمتها: المانيا الاتحادية وايطالية وفرنسا واليابان ورومانيا ولبنان وبريطانيا وبلجيكا والصين والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. وتصدر الى المانيا الاتحادية وهولندا والاتحاد السوفياتي وإيطاليا واليونان وغيرها.

مشاريع التنمية: كانت الخطة الخماسية الثالثة (١٩٧١ ـ ٧٥) والخطة الرابعة (١٩٧٦ ـ ٨٠) هما محط آمال التنمية الاقتصادية في سورية. فالثالثة خصصت لمشروعي الفرات (للسد واستصلاح الأراضي أو إحيائها) ١,٥٩٣ مليون ليرة سورية. منها لبناء السد ٩٥٠ مليون ليرة سورية. ومشروع السد يعني بناء سد طوله ٤,٦ كم في ارتفاع ستين متراً. وعرض القاعدة أسفلها ٥٠٠ متر. ويخزن السد خلفه ـ في بحيرة أسد ـ كمية كبيرة من المياه. وعندما يتم المشروع مع ما يتبعه من احياء للأرض في حوض الفرات، فإن الأرض التي سيرويها هي ٦٤,٠٠٠ هكتار، ولكن هذا سيتم تدريجاً. والخطة الرابعة (١٩٧٦ ـ ٨٠) تعثرت قليلاً فصيغت ثانية سنة ١٩٧٧. وهذه تستهدف تحسين التعدين والصناعة عن طريق تخصيص ٢٢٪ من الموازنة الخاصة لهما، و١٧,٨٪ خصصت للطاقة والوقود و١٦,٦٪ لاتمام مشاريع الفرات.

المواصلات: في سورية ما يقرب من ١٤,٠٠٠ كم من الطرقات، بين ترابي ومزفت. وثمة سكك حديدية موجودة من قبل من الحدود التركية إلى حلب، فحماة فحمص فدمشق (عن طريق البقاع في لبنان). وثمة خط يصل حمص بطرابلس (لبنان). وهناك سكة حديد الحجاز (٣٠١ كم منها في سورية). هذه كلها بنيت قبل

الحـرب العـالمـيـة الأولى أو أثناءها. وقـد تم بناء سكة حـديدية تصل اللاذقـيـة بحلب والقـامـشلي (١٩٧٥). وهناك مشـروعـات لبناء سكتي حديد، الواحدة من طرطوس إلى حمص والثانية بين دمشق وحمص (داخلياً) مع فرع يوصلها إلى تدمر.

وعندما يتم انجاز المشاريع جميعها، تصبح مناطق زراعة القطن والحبوب وأماكن الفوسفات ومراكز انتاج النفط في متناول الموانىء الرئيسة.

ولسورية أسطول جوي ومطارها الدولي في دمشق يغص بالطائرات والركاب. كما أن عدداً من الخطوط الجوية الأجنبية تعمل في سورية.

النواحي الاجتماعية

يمكن القـول بأن القوة السيـاسـيـة التي كان يتـمتع بها أصحـاب الأراضي وكبـار المـلاكين قد ضـعفت كثيـراً. والطبقـة المتوسطة في المدن اليوم تتكون من المهنيين وموظفي الدولة. وقد لاحظنا من قبل هجـرة الريف إلى المدن على أنها ظاهرة عـامـة في المنطقة، ولكن في سورية تبدو على انها أكبر.

والدولـة في سـورية مـعنيـة بشـؤون التـربيـة والتـعليم. وقـد كـان في المـدارس الابتدائية ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ ما يـزيد عن مليون وثلث المليون من التلاميـذ (في المدارس العامـة والخاصة) يشرف على تعليمهم ما يزيد عن أربعين ألف معلم ومعلمة. وقد كان في المدارس الثانوية (بقسميها الاعدادي والثانوي) العام منها والخاص ٥٠٧,٠٠٠ تلميذ وتلميذة يقوم على تعليمهم ما يزيد عن ٢٥,٠٠٠ معلم ومعلمة. وكانت المدارس المهنية فيـها نحـو ٢٤٠٠٠ طالب، كمـا أن طلاب دور المعلمين كان عـددهم ١,٠١٨ يشرف على أمورهم ٩٢٧ أستاذاً.

والتعليم اجباري الى سن الرابعة عشرة. والواقع هو أن المدارس في المستويين، الابتـدائي والثـانوي، يزداد عـددها باسـتـمـرار. والتـعليم باللغـة العـربيـة، وتعلم اللغـة الانكليزية أو الفرنسية لغة ثانية.

في البـلاد ثلاث جامعـات هي (بحسب قـدمهـا): جامعة دمشق وفيها نحو أربعين ألف طالب يعنى بهم نحو ٨٠٠ أستاذ ومدرس. وجامعة حلب وفيها نحو ٢٠,٠٠٠ طالب ونحو ٤٥٠ أستاذاً ومدرساً. وجامعة تشرين (اللاذقية) وفيها خمسون أستاذاً ومدرساً يشـرفون على الشـؤون التعليمية لنحو ٤,٧٠٠ تليمذ. وفي حمص معهد البترول، وهو على مستوى جامعي. وجامعة دمشق يعود قيامها إلى أوائل العشرينات. كما يقوم في دمشق (المجمع العلمي العربي) الذي أنشأه فيصل بن الحسين لما كان أميراً لسورية.

وهكذا فإن سـورية التي كان لها دور كبيـر في النهضـة العربيـة في القـرن التاسـع عشر، لا تزال تقوم بالدور ذاته في هذه الأيام.

٢٢ ـ لبنان

يقع لبنان بين البحر المتوسط غرباً وسورية شرقاً وشمالاً وسورية وفلسطين جنوباً. ونحن إذا بدأنا من الغرب وجدنا ان البلاد تتكون من جيوب ساحلية سهلية، على نحو بقية الشاطىء الشامي الممتد من إسكندرونة الى فلسطين. إذ ان السهل لا يكاد ينحسر عن البحر محاولاً الرحرحة والتمدد، حتى تحيط به سلسلة جبال من الشرق ونتوء صخري أو رأس حجري من شمال أو جنوب فيحده ويقلصه. هذا ما نجده عندما نتجه من الشمال الى الجنوب عندما نجتاز الحدود السورية اللبنانية والنهر الكبير. فقبل ان نصل الى طرابلس نكون قد اجتزنا اول جيب سهلي ساحلي (ساحل عكار). وسهل طرابلس يكاد ينتهي عند البحصاص ليتبعه سهل البترون وشكا وحالات وجبيل وجونية وبيروت والناعمة وصيدا وصور. وهذه، كما قلنا جيوب سهلية ساحلية، تتوسط أكثرها موانىء، اما من عصور التاريخ الغابر، مثل جبيل (بيلوس) وصور؛ واما من العصور الحديثة مع ذكر قوي للماضي مثل صيدا، التي كانت حتى القرن التاسع عشر ميناء حوران ودمشق. وأما الميناء التي تعادل صيدا ذكراً وزمناً ولكنها لم تكن في مثل نشاطها في العصور الحديثة، فهي طرابلس ميناء الداخل اللبناني السوري الى حمص وسهل حماة. وهناك بيروت التي ران عليها النسيان بعد عز، لكنها عادت فأصبحت لا ميناء لبنان الرئيسي، بل ميناء الترانزيت الى سورية والعراق والأردن والخليج وإيران، عندما تكون الأحوال مناسبة.

فإذا أتممنا اجتيازنا ساحلياً من الشمال الى الجنوب، واعتزمنا الاتجاه شرقاً، من أي مدينة أو مركز على الساحل، وجدنا ان الارتفاع سريع وفجائي. فطرابلس تبعد عن بشري نحو ٣٥ كيلومتراً لكن المرء يرتفع في هذه المسافة نحو ١٨٠٠ متر. ومن بيروت الى ظهر البيدر (على طريق دمشق الدولي) نحو ثلاثين كيلومتراً. لكن الارتفاع هو نحو ١٥٠٠ متر. ومثل ذلك يقال إذا انت صعدت من أي من الموانىء الى الجبال، مع ملاحظة امر هام، وهو أن سلسلة جبال لبنان هذه تتناقص ارتفاعاً من الشمال الى الجنوب. وتبلغ أقصى ارتفاع لها في قرنة السوداء في الشمال ويلي ذلك صنين.

وكما يصعد المرء فجأة من الساحل الى الجبل، ينحدر في الغالب، فجأة الى البقاع. إلا ان البقاع أعلى من سطح البحر إذ إن ارتفاعه، في نصفه الشمالي، يتراوح بين ٩٠٠ و١٠٠٠ متر. وهذا الجزء من لبنان هو جزء من المنخفض الكبير الممتد من

جهات حلب الى وادي عربة والبحر الأحمر عبر سهل الغاب والبقاع وغور الأردن. إلا أن البقاع يقع في الموقع المرتفع منه. وفي لبنان تسمى المنطقة سهل البقاع، وذلك لاستواء سطحه الذي يبلغ عرضه نحو ١٥ كيلومتراً من الشرق الى الغرب، أما طوله فيتراوح بين ١١٠ و١٣٠ من الكيلومترات. ويقع خط تقسيم المياه في البقاع على مقربة من بعلبك. ففي تلك المنطقة الصغيرة ينبع نهران: احدهما العاصي الذي يتجه شمالاً إلى سورية ماراً على مقربة من حمص مخترقاً حماة مجتازاً سهل الغاب ثم يدور حتى يداعب انطاكية ويصب عند السويدية (سلوقية القديمة) في البحر المتوسط. أما النهر الثاني فيتجه جنوباً، مجتازاً البقاع ثم يتجه غرباً اتجاهاً مفاجئاً (عند قلعة الشقيف) وعندها يعرف باسم القاسمية، يصب في البحر المتوسط بين صيدا وصور.

ومما يجعل البقاع يبدو كأنه «قاع» هو ارتفاع الجبال التي تحتضنه شرقاً الى علو يقارب ٢٧٠٠ متر، وهي جبال لبنان الداخلية أو جبال انتيلبان. والحد بين سورية ولبنان في الجهة الشرقية يسير على قمم هذه الجبال!.

ومساحة لبنان هي ١٠,٤٥٢ كم٢ (أو ما يقرب من ٤٠٠٠ ميل مربع).

والحد الجنوبي للبنان هو الحد الدولي بينه وبين فلسطين الذي يبدأ عند رأس الناقورة ويمتد الى منابع الأردن الفلسطينية في شمال وادي الأردن.

وتركيب لبنان الجيولوجي يختلف عن فلسطين (مع انهما جزءان من رقعة جيولوجية واحدة) كما انه يختلف عن الأجزاء المصاقبة له من سورية شرقاً (وإن كان يتفق مع الأجزاء المصاقبة له شمالاً من سورية) ـ ذلك بأن الطبقات الصخرية العليا فيها طبقة غير مساميَّة (صلصالية في طبيعتها). ومن ثم فإن المياه التي تصل إلى هذه الطبقة، من المطر والثلج، لا تتسرب الى القاع ولكنها تظهر على السطح. ومن هنا كانت هذه الينابيع الكثيرة في لبنان على ارتفاعات تتراوح بين ١٢٢٥ و١٥٢٥ من الأمتار. وهناك ينابيع تقع على أكثر من ذلك. فنبع قاديشا عند أرز لبنان في الشمال، يرتفع ما يزيد عن ١٨٥٠ متراً عن سطح البحر. وهذا أمر لا يتيسر على المرتفعات الشرقية والجنوبية القريبة من لبنان.

والسهل الساحلي (أو على الاصح الجيوب السهلية الساحلية) في لبنان وسفوح السلسلة الغربية المواجهة للبحر، تصلها أمطار غزيرة نسبياً. فبيروت يسقط فيها بين ٧٥٠ ملمتراً والمتر الواحد (وقد يصل المطر في بعض السنوات ١٢٥٠ ملمتراً) وتتلقى السفوح الغربية أمطاراً غزيرة (وتسقط على قممها الثلوج). أما البقاع، وهو على بعد لا يتجاوز الثلاثين كيلومتراً عن المدينة، فالمطر فيه يبلغ نحو ٣٨٠ ملمتراً. ولكن الثلج يسقط فيه سنوياً. والصفة البارزة الأخرى للسهل الساحلي اللبناني هو ارتفاع درجة الرطوبة فيه، الأمر الذي يحمل سكانه وبالأخص سكان بيروت، على الانتقال الى الجبال تجنباً لذلك.

ولبنان، بجباله وبقاعه وجيوبه الساحلية، والثروة المائية الجيدة (نسبياً)، وتنوع المناخ بين أجزائه جعلت منه مكاناً لانتاج انواع متعددة من الغلات النباتية. فالموز والأناناس والأثمار الحمضية تنتجها الجيوب الساحلية الحارة الرطبة، وتنمو أشجار الزيتون والكرم والتين على أقدام الجبال، ويثمر الدراق والمشمش والحبوب في المرتفعات المتوسطة، ويتمتع التفاح والبطاطا بالمناخ البارد في السفوح المرتفعة من الجبال. وتحيط بالينابيع أشجار الجوز (مثل وادي الجوز وبعلبك) وتكسو الكثير من هضابه وسفوحه غابات معتدلة من الصنوبر والأرز. وهذا كله، مع اعتدال المناخ صيفاً في جباله، جعل منه المصطاف والمنتجع لأهل المنطقة الواسعة الممتدة من الخليج العربي والعراق الى الأردن وسورية. وهناك مجال للتزلج في الشتاء لمن يرغب، وذلك في مراكز الأرز ويسكنتا وفاريا.

ولبنان، مثله مثل بقية بلاد الشام، كان طريقاً للراحل والتاجر والجندي. كان هذا من أقدم الأزمنة، ولا يزال يحدث في يوم الناس هذا. فالعنصر الأرمينودي وصل الى المرتفعات اللبنانية، كما وصل الى جبال فلسطين وبعض مناطق سورية الجبلية الشمالية، قبل نحو خمسة عشر ألف سنة أو نحو ذلك. والعناصر السامية، بدءاً بالكنعانيين وانتهاء بالعرب، زحفت الى هذه المنطقة بأكملها خلال خمسة الاف سنة أو ما الى ذلك. وتخلل ذلك، فئات تركية مغولية تركمانية من الشرق، وجماعات أوروبية من الغرب، جاءت بلاد الشام. وقد تكون حصة جزء منها أكبر من حصة جزء آخر. وكل جماعة حملت معها لغتها من الساميات المختلفة الفروع المتحدة الاصول الى اللغات الاوروبية من اليونانية الى اللاتينية الى غيرهما. ولكن اللغة التي انتهى إليها الفوز في معترك الحياة هي اللغة العربية. انتشرت هذه في السهول والسواحل والأودية الواسعة أولاً، ثم تسلقت المرتفعات والجبال، حتى استعملها سكان جبال لبنان وسورية وفلسطين مع الزمن. وظلت، في لبنان، اللغة السريانية التي تحتل مركزاً خاصاً في الطقوس الدينية في الكنيسة المارونية.

وإذا نحن أضفنا الى هذه النظرة التاريخية العجلى، أمرين آخرين هما: (١) ان المرتفعات اللبنانية تفصل المناطق والاودية واحدتها عن الأخرى أكثر مما تفعله المرتفعات السورية أو الفلسطينية. (٢) ان هذه المرتفعات اللبنانية لجأ اليها الكثيرون في أوقات مختلفة هاربين من الظلم الذي كانوا يتعرضون له في السهول القريبة - إذا تذكرنا هذين الأمرين أدركنا السبب في وجود هذه الفئات الدينية والمذهبية المختلفة المتنوعة في لبنان وفي مرتفعاته بشكل خاص!.

وهكذا فإن لبنان، بالنسبة الى بلاد الشام على الأقل، جمع الكثير من الحسنات والمتناقضات: الأرض الرحبة على صغر المسافة والشموخ الجبلي والبلد المعطاء خصباً وانتاجاً والمناخ الجيد المنوع والنشاط الجم والموقع التجاري

الممتاز والمهارة الصناعية والنقدية والتجارية واختلاف المذاهب والأديان على توافق فيما بينها.

أما عدد السكان في لبنان فهو أمر يخضع للتقدير دوماً. ذلك أن آخر احصاء تم في هذه البلاد يعود الى سنة ١٩٣٢. وفي سنة ١٩٥٧ نشرت كتاباً باللغة الانكليزية عن سورية ولبنان، وبعد جهد خرجت بالرقم ١,٤٠٠,٠٠٠ على أنه الرقم التقريبي (المقبول) لعدد سكان لبنان. وفي تقدير لعدد السكان يعود الى سنة ١٩٧٠ انهم كانوا نحو ٢,١٢٥,٠٠٠ (هذا باستثناء الفلسطينيين المقيمين في لبنان في تلك السنة). أما التقدير الذي يذكر وتتناوله الدوائر الرسمية وشبه الرسمية فهو أن لبنان يقطنه الآن نحو ثلاثة ملايين من البشر، أو أقل قليلاً. ولكن ليس من سبيل الى القطع برأي حول الموضوع.

وإذا كان العدد العام التقريبي ليس واضحاً لدينا، فإنه أصعب الحصول على أرقام تتعلق بالفئات والجماعات الدينية أو المذهبية، مع أن هذه الناحية كان لها ـ ولا يزال ـ تأثير مباشر على النظام الحكومي المعمول به في البلاد. على أننا نذكر هنا الطوائف (دون تحديد العدد) لمجرد التسجيل: الطوائف المسيحية هي المارونية والروم الارثوذكس والروم الكاثوليك والأرمن الارثوذكس والأرمن الكاثوليك والسريان الارثوذوكس والسريان الكاثوليك واللاتين والنساطرة والبروتستانت والاقباط. أما الطوائف المحمدية في لبنان فهي الطائفة السنية والطائفة الشيعية والدروز.

صفحات من التاريخ

جذور تاريخ لبنان تتفق زمناً ونوعاً مع جذور التاريخ الذي عرفته أرض الرافدين وبلاد الشام ووادي النيل. لكن تاريخ لبنان تنوعت وجهته منذ أقدم عصوره. ذلك بأن البحر كان الحافز الأكبر لسكان هذه الرقعة الصغيرة للمغامرة والسير. ولسنا نريد أن نعود الى الاصول البشرية الأولى التي استقرت في لبنان، ولا العصور الحجرية التي اجتازها كما اجتازها الجيران، ولكن يمكن القول اجمالاً بأن لبنان اشترك في المحاولات الحضارية الأولى في المنطقة.

ولسنا بحاجة الى الأيغال في التاريخ لما قبل التاريخ، لذلك فإننا نشير الى أنه في الألف الرابع ق.م. كانت أرض الرافدين ومصر قد بلغتا درجة من المدنية أصبح لديهما فائض اقتصادي يمكن أن يصدر، وبذلك تدفعان ثمن بعض الحاجيات الأساسية من مواد غذائية أو مواد خام. وكان من الطبيعي أن يتجه البلدان نحو بلاد الشام أولاً لأنها جسر طبيعي بينهما، وثانياً لأن الأخشاب والزيوت (زيت الزيتون) متوفرة فيها، وثالثاً لأنها بحد ذاتها كانت سوقاً تصل إليها مواد متنوعة من جزر البحر المتوسط وآسية الصغرى وغيرهما بحيث يمكن للتاجر المصري أو السومري (والاكدي) أن يجد في البلاد حاجته. وكان لبنان بأخشابه وزيوته (تشاركه فلسطين في

الزيوت) موضع اهتمام القطرين المذكورين. فجبيل (بيبلوس) كانت الميناء الرئيسي لنقل الأخشاب اللبنانية بحراً الى مصر في الألف الثالث ق.م. (ان لم يكن ذلك من قبل) كما كانت ارض الرافدين تستورد الأخشاب براً من شمال لبنان (ومن جبال امانوس في سورية أيضاً).

وحري بالذكر انه بدءاً من حول سنة ٣٠٠٠ ق.م. توافد الكنعانيون على بلاد الشام، وأقام الفينقيون (وهم قبيل منهم) على الساحل الشامي (السوري اللبناني الفلسطيني) من الاسكندرونة الى يافا. واستقرار هذا القبيل رافق بناء المدن بما فيها من تحصينات ومعابد وأسواق للمتاجر وقصور للأمراء والحكام. إذ إن الصفة التي غلبت على المدن التي قامت هي المدينة ـ الدولة، أي ان كل مدينة كانت دولة مستقلة. وليس من اليسير، في هذه العجالة ان نتحدث عن المدن التي قامت، لكننا سنتحدث عن بعضها في وقت لاحق (من هذا الفصل).

على أن الألف الثاني ق.م. شهد تطوراً سياسياً عسكرياً كبيراً في المنطقة. فالقطران اللذان كانا من قبل يكتفيان بالتسوق في مدن الشام وقراه، انتقلا الآن الى قطرين يريد كل منهما (دون اتفاق مسبق طبعاً) ان يستولي على الجزء الأكبر من بلاد الشام. فقد قامت في العراق دولة حمورابي البابلية (القرن الثامن عشر) فتطلعت نحو الغرب ـ نحو الشام والبحر. وقد حاول حمورابي ذلك، لكنه لم يقم حكماً مستمراً (وقد وقف العموريون السوريون في طريقه وطريق خلفائه). أما المحاولة الجادة فقد جاءت من مصر. ومصر كانت قد توحدت وقبلت حكماً ملكياً قوياً مركزياً من قبل. ومع أنها احُتلت في القرن الثامن عشر أو السابع عشر من قبل جماعات متنوعة سورية عراقية فلسطينية وغير ذلك (وهي التي يسميها المؤرخون الهكسوس)، فقد أخرجتهم مصر من بلادها وتعقبتهم الى بلاد الشام. وكان رمز العمل الحربي والسياسة الامبراطورية الجديدة هو تحتميس (تحوتموس) الثالث (١٤٧٩ ـ ١٤٤٧)، من الأسرة الثامنة عشرة، الذي قاد جيشه الى الساحل الفلسطيني، وانتصر في معركة مجدو (١٤٧٩ ق.م.) في مرج ابن عامر على الأمراء الشاميين الذين تجمعوا للدفاع عن بلادهم. وبعد ذلك قاد تحتميس الثالث عشرين حملة الى هذه البلاد. لكنه بعد ان استولى على لبنان، أخذ يبعث بجيوشه بحراً الى موانئه ثم ينقلها براً. وقد وصلت فتوح هذا الامبراطور الى نهر الفرات. وهكذا فهو واحد من بُناة الامبراطوريات في العصور القديمة.

تضعضعت شؤون الامبراطورية المصرية في القرنين التاليين. لكن لما عادت مرة ثانية الى بلاد الشام لفرض وجودها، كانت امبراطورية الحثيين قد قامت في آسية الصغرى، وتوسعت جنوباً. وبعد قتال مصري ـ حثي طويل انتهى الفريقان الى صلح اقتسما بموجبه بلاد الشام. فكان ما هو جنوبي حمص في الداخل والساحل اللبناني (والفلسطيني) يقع في الاطار المصري (حول سنة ١٢٠٠ ق.م.). على أن هذا الصلح

يكاد يحدد أيضاً انتهاء الامبراطوريتين، إذ إنه منذ القرن الثاني عشر والى القرن الثامن ق.م. كانت ديار الشام بعيدة عن نفوذ أي من الامبراطوريات الثلاث (المصرية أو الحثية المهترئتين أو الآشورية الناشئة).

وهذه الفترة هي التي تبرز فيها المدن الفينيقية في عالم المدنية بشكل قوي. ففضلاً عما قامت هي به من تقدم صناعي وتجاري وفني، وعما اهتدت اليه من الحرف (الكتابة) والبناء والأدب، فقد أعانها على هذا الزخم في الظهور أن العالم الايجي (وخاصة كريت) قضي عليه حول ذلك الوقت. وعندئذ أتيح للمدن الفينيقية ان تقبض على زمام التجارة البحرية في شرق البحر المتوسط، التي لم تلبث ان امتدت الى الحوض الغربي للبحر نفسه. والتجارة هي التي يسرت للمدن الفينيقية الحصول على ثروة ضخمة كما يبدو في مدن سميرا وبيروت وجبيل وصور وصيدا. وكانت كل مدينة مستقلة بشؤونها. لكن يبدو ان صور كانت لها زعامة في القرنين العاشر والتاسع (ق.م.) فانتشرت غرباً أكثر من غيرها. وكانت قرطاجة من آثار هذا الانتشار.

بلغت المدنية الفينيقية أوجها في القرنين المذكورين، فكانت ثمة صناعات فنية من الزجاج والذهب والفضة والبرونز والخزف المدهون والاثاث وامشاط العاج. وأكبر من ذلك الاقمشة المصبوغة بالارجوان. وفي هذه الفترة كانت للفينيقيين تجارة واسعة في البحر الأحمر.

ومع أن الآشوريين استولوا على بلاد الشام (ومصر) في القرن الثامن وتلاهم الكلدانيون في القرن السادس ثم جاء الفرس في أواخر القرن نفسه (واستمر حكم هؤلاء الى سنة ٣٣١ ق.م.)، ومع أن الوجود العسكري كان، على وجه العموم، ضاراً بالبلاد، فإن المدن الفينيقية، هي التي حافظت على نشاطها الاقتصادي منذ القرن العاشر الى القرن الرابع ق.م. والعلاقات اليونانية الفينيقية (والفلسطينية كذلك) كانت من الأمور الهامة في القرون السادس والخامس والرابع. فبقايا الخزف الاتيكي والمصنوعات المعدنية اليونانية كالمرايا والأسلحة عثر عليها في مناطق كثيرة للحفر والتنقيب. وعندنا صورة لتجارة صور، لعلها تعود الى القرن الخامس ق.م. إذ ان هذه المدينة كانت تستورد كتانها من مصر وأقبيتها من اليمن واليونان ونحاسها ورقيقها من قبرص والمدن الايونية وخيولها وبغالها من آشور وأغنامها وماعزها من البلاد المجاورة، وحتى بلاد العرب.

سنة ٣٣١ ق.م. احتل الاسكندر المدن الفينيقية (وقد لقي الامرين على أيدي الصوريين!). ومنذ ذلك الوقت حتى القرن السابع للميلاد كانت القوى المسيطرة على بلاد الشام غربية النشأة، ولو أن البعض من ملوكها تبلد وأصبح شامياً (أو مصريا لأن مصر أصابها الأمر نفسه). ففي هذه الفترة توالت على لبنان دولة الاسكندر ثم خلفاؤها من بعد ـ وهم السلوقيون في بلاد الشام (وكان لبنان تحت نفوذهم أكثر

الفترة) والبطالمة في مصر، وهم الذين حاولوا الاستيلاء ولو على جزء من لبنان، وقد نجحوا بعض الوقت. ثم جاء الرومان (القرن الأول ق.م.) وأقاموا لهم حكماً وامبراطورية، هي التي تقسمت في أواخر القرن الرابع للميلاد شرقية وغربية، وكان لبنان في الاطار الشرقي، الذي سمي فيما بعد الدولة البزنطية.

في الفترة الهلينستية (٣٣٠ ق.م. إلى أيام السيد المسيح) أصبحت التجارة عالمية بالمعنى التام، وهذا يسر للمدن اللبنانية الفينيقية، مثل صور وصيدا، ان تحافظ على صناعتها، وبخاصة الأقمشة المصبوغة بالأرجوان، وان تتسع تجارتها البحرية، كما اتقن الصّناع والفنانون أعمالهم كما نعرف من ناووس الاسكندر الذي عثر عليه في صيدا. وأسهم أهل الفكر في ميدان الفلسفة، ولعلَّ زينون (٣٤٢ ـ ٢٧٠ ق.م.) مؤسس المدرسة الرواقية، فينيقي الأصل. وكانت طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور من أهم المدن في هذا العصر. وكانت صور وطرابلس من المدن التي نالت حصانة خاصة، بحيث ان الدولة السلوقية لم تتدخل في شؤونها البتة منذ أوائل القرن الثاني ق.م.

أما في العصر الروماني والبزنطي فقد انتشرت المسيحية في لبنان، وأسهمت المدن اللبنانية في نشرها وتفسيرها. كما أسهمت المدن الساحلية في الصناعة والتجارة. فكانت صيدا في مقدمة المدن التي تستخرج العطور، وكانت صناعة الاقمشة ناشطة في صور وصيدا وبيروت وجبيل، وظلت تصبغ أقمشتها، الحريرية منها بشكل خاص، بالارجوان. كما كان الزجاج من مفاخر صناعة صيدا.

أما في مجال الفكر فعندنا، من أهل القرن الثالث للميلاد فرفوريوس الصوري الذي عمل على توضيح فلسفة أفلاطون.

ومع أن الامبراطورية الرومانية مرت بأزمة اقتصادية في القرن الثالث الميلادي، فقد ظل للمدن اللبنانية دور اقتصادي هام. فكان لبيروت دور كبير في شؤون المنطقة في العصر الروماني ـ البزنطي. فهي، فضلاً عما كان فيها من أبنية فخمة أنيقة ومسارح، كانت واحدة من المراكز الأولى في دراسة القانون. فقد قيل فيها، "ان بيروت جامعة لتعليم كل الشرائع الرومانية". وقد نبغ فيها (في القرنين الثاني والثالث) بابنيانوس وأُلبيان وبولس الحمصي. ولما أراد جستنيان (مطلع القرن السادس) أن ينظم القوانين والشرائع الرومانية استدعى ثلاثة من علماء القانون من مدرسة بيروت للقيام بالعمل (أودكسيوس وأنا طوليوس ودوروتاوس). وكان الطلاب في مدرستها يتلقون العلوم الأدبية والفلسفة، وقد نكبت بيروت في اواسط القرن السادس بزلزال كبير هدم أكثر المدينة، وأنهى أمر مدرستها الكبرى.

في سنة ٦٣٦ انتصر العرب على البزنطيين في معركة اليرموك، وبعدها تم لهم الاستيلاء على بلاد الشام. وفي أيام الدولة الأموية (٦٦٠ ـ ٧٥٠) كانت المدن اللبنانية

الساحلية موضع عناية بسبب أنها كانت بين موانىء الاسطول الأموي. وكانت صور داراً للصناعة.

والذي يجب أن نذكره هو أن قيام الامبراطورية العربية، التي امتدت من اواسط آسية وحوض السند شرقاً الى الاندلس غرباً، فتح أمام بلاد الشام (ولبنان خاصة بسبب وقوعه على الساحل) ومصر مجالاً للتجارة واسعاً، لم يقم قبله مثله. فلم يكن ثمة ما يمنع التاجر، أي تاجر، يقيم في حمى هذه الدولة (وحتى بعد تقسمها سياسياً فيما بعد) من أن يتعامل مع أي تاجر آخر.

وتاريخ لبنان منذ القرن السابع الى القرن السادس عشر، أي منذ الفتح العربي الى الاحتلال العثماني تاريخ مشاركة في كل ما أصاب بلاد الشام من خير وشر. ففي العصرين العباسيين الأول والثاني تنازع البلاد، أو أجزاء منها، العرب والبزنطيون. وفي العصر العباسي الثالث تنازع لبنان العباسيون (أو الأمراء الذين نشأوا في حماهم واستأثروا بالسلطة دونهم كالسلاجقة) والفاطميون في مصر. والواقع ان كل حاكم لمصر كان يطمع في لبنان ـ الحد الطبيعي الجغرافي لمصر (مع فلسطين) والغني بالموانىء. فهذا ابن طولون (٨٦٨ ـ ٨٨٤م) يطمع فيه وابنه خمارويه (٨٨٤ ـ ٨٩٦ م) يضمنه في وثيقة من الخليفة المعتمد. والفاطميون قاتلوا في سبيل لبنان. ولما تشتت شمل الملك في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، جرب الفاطميون أن يتحالفوا مع أصحاب الأمر، كبني عمار في طرابلس، إذ لم يتمكنوا من الاستيلاء على البلاد.

ولما وصل الصليبيون الى بلاد الشام، واحتلوا بيت المقدس سنة ١٠٩٩، عادوا الى الموانىء على الساحل الشامي فاحتلوها بسبب العون الذي جاءهم من المدن الايطالية وغيرها. ولما تملك الصليبيون السهول الساحلية والسفوح المشرفة عليها قامت لهم في طرابلس دوقية (هي واحدة من الامارات الثلاث اللاتينية في هذه الديار) وكانت حدودها تصل الى نهر ابراهيم أو نهر الكلب. اما المنطقة اللبنانية التي تمتد من شمال بيروت جنوباً الى فلسطين، مع جزء من الجنوب اللبناني، فقد كانت جزءاً من مملكة القدس (وهي الوحيدة التي سميت مملكة). ولا شك في ان المدن اللبنانية الساحلية كان لها دور هام في التجارة في ذلك الوقت، وبالأخص صور وجبيل. إلا ان الصليبيين ما إن «أصبحوا أسياد البلاد ـ على ما يقول الدكتور محمد مخزوم ـ حتى أخذوا بمعاملة المسيحيين والمسلمين [من أبناء البلاد] على السواء، وكأنهم اتباع (نصف عبيد) مما أدى إلى قيامهم بعدة انتفاضات (باعتراف مؤرخ الصليبيين وليم الصوري) بمساعدة المسلمين، مسجلين بذلك صفحة ناصعة في تاريخ العلاقات الاجتماعية بين اللبنانيين جميعهم». وكم كنا نحب لو أن المجال يتسع لنقل صفحات كاملة من رحلة ابن جبير ومذكرات ابن منقذ واخبار غيرهما عن الحالة التي كانت

عليها البلاد في ذلك الوقت. وأخيراً تخلصت البلاد من هؤلاء المغيرين. فما الذي حدث بعد ذلك؟.

قيام الأيوبيين (١١٦٩ ـ ١٢٥٠) في مصر وبلاد الشام، بما في ذلك من توحيد الصفوف ورصها ثم تبعثر الجهود وانقسام الملك، الى أن قامت دولة المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧) في مصر والشام، وكان لبنان جزءاً منها.

ومع ان الموانىء كانت قد أهملت وسدت سبلها في فترة النزاع الصليبي المملوكي، فإن العناية بها استحوذت على الحكام، لأنها كانت مراكز تجارية هامة، فأعيد الى صيدا وبيروت وطرابلس الكثير من أهميتها، وسكنت فيها حتى جاليات تجارية أجنبية على ما كان عليه الحال في بيروت في القرن الخامس عشر.

التاريخ الحديث

يبدأ التاريخ الحديث للمشرق العربي في أوائل القرن السادس عشر لما احتل الاتراك العثمانيون بلاد الشام ومصر (١٥١٦ ـ ١٥١٧). وقد لا يتفق المؤرخون على ذلك إذ يتساءلون: ما الذي تبدل في البلاد عند هذا الاحتلال؟ وأنا لست اريد ان أثير مثل هذه التساؤلات (أو الزوابع في فناجين!) بل أريد أن اعتبر تبدل الحاكم من محلي (مملوكي) الى امبراطوري (عثماني) وخاصة بعد أن احتل العثمانيون الشمال الافريقي الى الحدود الغربية، والعراق، وبذلك أصبحت المنطقة، ولبنان منها، جزءاً من واقع واسع متسع ورقعة تمتد عبر جزء كبير من الارض. وهذا بحد ذاته فتح مجالاً للنشاط اللبناني ان يتحرك في محيط واسع.

ولما كانت الدولة العثمانية تأخذ بمبدأ الانابة في الادارة، فقد تركت في لبنان، كما تركت في غيره، الكثير من النفوذ للأمراء المحليين الذين كان عليهم أن يؤدوا الاتاوة الى الدولة ويحافظوا على الأمن والنظام بطريقتهم التقليدية الخاصة. ولن نتناول تاريخ هؤلاء الأمراء الكبار والصغار الذين عرفهم لبنان بين الفتح العثماني والقرن التاسع عشر، فليس هنا موضع لمثل هذه التفاصيل. ولكن لا بد من الاشارة الى أمور عامة تخص رعايا الدولة. وأول هذه الأمور ان الطوائف الدينية المختلفة التي كانت تعيش في حمى الدولة العثمانية كانت تعتبر مللاً (مفردها ملّة)، كل ملة لها كيانها الخاص والمسؤول عنها رئيسها الديني. وقد ساعد هذا على تفتيت الدولة في بعض أجزائها على الاقل. والأمر الثاني هو ان الامتيازات الاجنبية، التي ترجع أصلاً الى اتفاقات عقدت بين سليمان القانوني وفرنسوا الأول (١٥٣٥)، ثم وسع نطاق العمل بها بحيث شملت جميع الرعايا الأوروبيين، أعطت لهؤلاء الاجانب حقوقاً وامتيازات لم يتمتع بها الرعايا العثمانيون. ومن هنا نجد ان التجارة الخارجية ـ الفرنسية أولاً ثم الانكليزية ـ تفيد من هذه الامتيازات، ويحصل التجار الاجانب على ارباح وافرة من ذلك. وقد عرف لبنان في الفترة المذكورة الامراء المعنيين (من أواسط القرن السادس

عشر الى أواخر القرن السابع عشر) وأكبرهم فخر الدين الثاني (١٥٩٠ ـ ١٦٣٥) وآل عساف وآل سيفا (في الشمال). وفي القرن التاسع عشر برز الشهابيون (١٦٩٧ ـ ١٨٤٣)، وكان كبيرهم الأمير بشير الثاني (١٧٨٩ ـ ١٨٤٠). وفي أيام هذا قام محمد علي باشا بإرسال جيشه المصري بقيادة ابنه فاحتل بلاد الشام عام ١٨٣١. واستولى على لبنان، وتحالف مع بشير. ولكن الجيش المصري اضطر الى الانسحاب من بلاد الشام بضغط من الدول الأوروبية (١٨٤٠) وانتهى بذلك حكم بشير الشهابي (الثاني).

في سنة ١٨٦١ وضع للبنان الجبل نظام أعطي بموجبه حكماً ذاتيا مع استقلال داخلي. ودام هذا النظام الى الحرب العالمية الاولى لما الغاه جمال باشا الحاكم العام لبلاد الشام.

وسنكتفي الآن بالاشارة الى الأمور الحضارية العامة التي أحرزها لبنان في هذه الفترة، وخاصة في ميادين الفكر والأدب. فقد كان لجهود الارساليات التربوية في القرن التاسع عشر الكاثوليكية أولاً، وجل العاملين فيها كانوا من الفرنسيين، والبروتستانتية ثانياً، وأكثر المشتغلين فيها كانوا من الأميركان، أثر في إيقاظ الحركة الفكرية في لبنان. وقد جاء إنشاء الجامعة الأميركية (باسم الكلية السورية الانجيلية) سنة ١٨٦٦ وتأسيس جامعة القديس يوسف سنة ١٨٧٥ (وكلتاهما في بيروت) تتويجاً للعمل التعليمي العالي. وفي سنة ١٨٣٤ نقلت المطبعة الاميركية من مالطة الى بيروت، وانشئت المطبعة الكاثوليكية بعد ذلك بسنوات. (مع العلم بأن لبنان عرف المطبعة منذ ١٦١٠ وكانت على الخشب، ثم في سنة ١٧٣٣). وهذه المطابع جميعها يسرت طبع الكتب المختلفة ودور بيع الكتب ونشرها. وبرز في لبنان عدد من أهل الفكر منهم بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) وناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) ويوسف الأسير (١٨١٥ ـ ١٨٨٩) وهو الذي أصدر (١٨٧٥) جريدة «ثمرات الفنون». ومن الأعمال الهامة التي تمت في لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ترجمة الكتاب المقدس بكامله الى اللغة العربية (ترجمة قام بها البروتستانت الاميركان، وأخرى على أيدي جماعة المطبعة الكاثوليكية). وفي سنة ١٨٧٧ انشئت في بيروت جريدة «لسان الحال» واستمرت في الصدور الى سنة ١٩٧٥، فعطلتها الاحداث التي مرت بالبلاد. وظهرت مجلة «المقتطف» في بيروت (١٨٧٦) ومنها انتقلت الى القاهرة. وفي القرن التاسع عشر أخذ اللبنانيون بالهجرة الى أقطار المعمورة. وكانت مصر اول بلد استهوتهم، ثم توزعوا في الاميركيتين واستراليا وافريقية. ومما يجب ان يذكر هو ان اللبنانيين كانوا في طليعة الدعاة الى القومية العربية.

ذكرنا ان «الجبل» أصبح (١٨٦١) متصرفية ذات استقلال داخلي. اما ما تبقى من لبنان فكان تابعاً لولاية بيروت التي كانت تشمل متصرفيات اللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وعكا ونابلس.

لبنان المعاصر

عـانى لبنان الامـرين اثناء الحـرب العـالميـة الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨). ولكنه تأذى أكثر، ولمدة أطول، اثناء الانتداب الفرنسي (١٩٢٠ ـ ١٩٤٣). وفي أثناء الحكم الفرنسي اقيم لبنان الكبير (١٩٢٠) الذي يشمل أراضي الجمهورية اللبنانية الآن.

كانت فترة الحرب العالمية الثانية فترة أحكام عرفية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٣). وجرى انتخاب مجلس نواب سنة ١٩٤٣، وفي تشرين الثاني / نوفمبر من تلك السنة ألغى المجلس جميع المواد المتعلقة بالسيادة الفرنسية من دستور لبنان الذي وضع سنة ١٩٢٦. وبعد أن نفى الفرنسيون رئيس البلاد ورئيس وزرائه وبعض الوزراء الى قلعة راشيا، أعيدوا جميعاً الى بيروت، وأعلن الاستقلال التام (عيد الاستقلال هو في ٢٢ تشرين الثاني / نوفمبر)، وفي آخر يوم من سنة ١٩٤٦ تم جلاء جميع الجيوش الاجنبية عن لبنان.

ولبنان له دستوره الذي يعين الحقوق والواجبات. وله رئيس جمهورية ينتخبه البرلمان لمدة ست سنوات، وبرلمان مدته أربع سنوات، ينتخب على أساس من التوزيع الطائفي والجغرافي. والوزارة مسؤولة عن أعمالها أمام البرلمان.

وقد تقدمت الحياة الاقتصادية والثقافية والعلمية في لبنان في الفترة الممتدة من حول سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٧٥. فاتسعت تجارته وقامت فيه صناعات خفيفة وأصبح، على نحو ما أشرنا اليه في مطلع هذا المقال، مركزاً لتجارة الترانزيت بالنسبة الى الأردن وسورية والعراق والخليج وإيران وحتى تركية. وأنشىء فيه مطار دولي هام.

وقد تأثر لبنان بطبيعة الجوار والمشاركة الفعلية والقومية بقيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨. ولا تزال قضية فلسطين شغله الشاغل. ولقي شعبه وبخاصة جنوبه، الأمرين من الهجمات الاسرائيلية الهمجية، بما في ذلك احتلال جنوبه عام ١٩٧٨.

وقد مر على لبنان الى الآن سنوات ثمان وهو يعاني أزمة سياسية بالغة الحدة بدأت سنة ١٩٧٥. وكان آخر حلقاتها الاجتياح الاسرائيلي للبلاد صيف ١٩٨٢، وقصف العاصمة من الجو والبحر والبر. ولا تزال إسرائيل تحتل لبنان الجنوبي.

الحياة الاقتصادية

ليس من اليسير ان يتحدث المرء عن حياة اقتصادية تسير سيراً عادياً في ظل ما يقوم في لبنان منذ سنة ١٩٧٥. فالاقتصاد اللبناني الذي كان يتمثل في أن البلد كان المركز التجاري والمالي للشرق الأوسط، وكان لبنان يقدم الخدمات (مالية وتجارية وغيرها) بحيث ان أكثر من نصف دخله كان يأتيه من هذه الناحية ـ هذه كلها تعطلت، جزئياً على الاقل، بسبب ما تقاسيه البلاد وما يقع فيه العباد. صحيح انه مرت على

البلد، في هذه السنوات العجاف، فترات هدوء نسبي (سنة ١٩٧٧ ومطلع ١٩٧٨) أخذ اللبنانيون فيها يلتقطون انفاسهم اقتصادياً، لكن الاحتلال الاسرائيلي (ربيع ١٩٧٨) للجنوب، والتوتر الأمني في صيف العام ذاته، أعاد عقرب الساعة الى الخلف، ولا يزال في مسيرة العودة. وقد فقد لبنان، في ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦، نحو ٣٠,٠٠٠ بين قتيل ومعطل عن العمل (بحسب تقدير غرفة التجارة والصناعة، ولكن ثمة من يقدر الخسارة بضعف ذلك). ولكن القتل والتعطيل الجسدي عن العمل لم يتوقفا بعد ١٩٧٦. وقد هاجرت الأيدي العاملة الى الخارج للبحث عن العمل، بحيث ان أعمال الإنشاء والتعمير الآن، على قلتها، لا تجد العدد الكافي للقيام بها.

الزراعة: تشغل الجبال والأراضي التي لا يمكن استغلالها ٥٢٪ من مساحة لبنان. وهناك غابات تحتل ٧٪ من المساحة. والأرض المستغلة الآن هي ٢٣٪ من مجموع مساحة لبنان، وهناك ١٧٪ يمكن استغلالها. وقد ذكرنا من قبل ان الساحل اللبناني معتدل المناخ (حوض البحر المتوسط) خصب التربة، لذلك فإن الزيتون والاثمار الحمضية والموز يجود ثمرها فيه. والسفوح المنظمة تغطيها أشجار الزيتون والفواكه. ومنطقة البقاع الوسطى تجود فيها أشجار الكرمة، ويغرس القطن في مناطق طرابلس الداخلية. والبقاع مزرعة القمح والحبوب الأخرى. وقد بدأت زراعة القطن في الحوض الأدنى لنهر الليطاني (القاسمية). وقد كانت حصة الزراعة في الدخل القومي العام ٦٨٥ مليون ليرة لبنانية، في عام ١٩٧٤، وهذا كان ١١٪ من الدخل القومي. (قدرت حصة الانتاج الزراعي، بما في ذلك تربية الدجاج والمواشي الخ بنحو ٤٠٠ مليون ليرة لبنانية في سنة١٩٧٩، وكان هذا يعادل ٩٪ من الدخل القومي العام). ومع أن لبنان يصدر الخضار والفواكه، على العموم، فإنه يستورد كميات كبيرة من القمح والحبوب الأخرى.

الصناعة: في السبعينات المبكرة كانت ثمة محاولات للبحث والتنقيب عن النفط في لبنان. وقد ساهمت في ذلك شركات عالمية. ولكن هذه المحاولات، سواء في ذلك البري والبحري من آبار النفط المنتظرة، توقفت بطبيعة الحال بعد ١٩٧٨ بسبب الأوضاع التي تعانيها البلاد.

على أن لبنان كان فيه مصبان للبترول القادم من الشرق. فقد كان بترول العراق يصل الى طرابلس في الشمال والبترول السعودي تحمله أنابيب التابلاين الى الزهراني في الجنوب. وكان في كل من هذين المركزين مصفاة للبترول. على أن خلافات نشأت حول بترول العراق بعد تأميم شركة بترول العراق في عام ١٩٧٣ وبعد ارتفاع اسعار النفط العالمية. ففي سنة ١٩٧٥ كانت مصفاة طرابلس تكرر ٣٦,٠٠٠ برميل في اليوم، أما في سنة ١٩٧٧ فقد كررت ما معدله ٥,٠٠٠ برميل في اليوم. وانقطع سيل البترول العراقي لبعض الوقت، ولكنه استؤنف مؤخراً.

والنفط السعودي كان ينقل بالأنابيب، لكن في سنة ١٩٧٥ رؤي أن نقله بناقلات النفط كان أرخص. الا ان ضخ النفط على الطريقة الأولى أعيد سنة ١٩٧٩.

والصناعة اللبنانية كانت آخذة في النمو والتحسين. وقد زادت الصادرات الصناعية ٩٠٪ بين سنتي ١٩٧٣ و١٩٧٤، فكانت واردات الصناعة سنة ١٩٧٤ تفوق ١,٠٠٠ مليون ليرة لبنانية، أي ما يعادل ١٦٪ من الدخل القومي، وكانت الصناعة تستخدم ١٢٠,٠٠٠ عامل. ومن ثم فقد كانت آثار الاضطرابات التي أخذت برقاب البلاد منذ ١٩٧٥ في الاضرار بالصناعة كبيرة. وقُدر ان مئتي مؤسسة صناعية قد تهدمت، وإن ١٥٪ من رأس المال المستثمر في الصناعة خسر، وان التدمير الذي أصاب المؤسسات يعادل خسارة بين ٣٥ و٤٠٪ من رأس المال. وكانت الصناعة اللبنانية سنة ١٩٧٧ تنتج ثلث ما كانت تنتجه من قبل. وقد قدر الانتاج الصناعي لسنة ١٩٧٨ بما يزيد عن ١,٠٠٠ مليون ليرة لبنانية. لكن هذا المبلغ يجب أن ينظر اليه من وجهة نظر التضخم المالي. وعندها يصبح هذا الرقم أقل قيمة بكثير من مظهره.

كانت صناعة المواد الغذائية والأقمشة تزود بما يعادل ٤٤٪ المنتوج الصناعي، وصناعة الاثاث والاخشاب تقدر بنحو ٢٩٪. والواقع ان صناعة المواد الغذائية كانت الأكبر والأهم والأوسع (قبل ١٩٧٥). ومع كل ما أصابها من نكسات ونكبات فإنها لا تزال في مقدمة الصناعات اللبنانية.

وقد تغلب لبنان على مشكلة النقص في الطاقة (للصناعة) التي كان يعاني منها في الستينات. الا انه في السبعينات أخذ ينتج من الطاقة الكهربائية قدراً مكن له من بيع بعض هذه الطاقة لجنوب سورية في عام ١٩٧٢ والى طرطوس في عام ١٩٧٦. ومع ان الشبكة تضررت من أحداث الحرب وأعمال القتال (خاصة بعد ١٩٧٧)، فإن مشروعاً لاصلاح الشبكة وتجديدها قيد الدرس الآن. ومن المؤمل أن يمول البنك الدولي والصندوق العربي للتطوير الصناعي والاجتماعي المشروع.

التجارة الخارجية: كان العجز في ميزان المدفوعات في لبنان كبيراً لسنوات خلت. ففي سنة ١٩٧٤، على سبيل المثال، لم تغط الصادرات سوى ٦٢٪ من قيمة الواردات. الا أن هذا العجز كانت تغطيه، قبل الحرب القائمة الآن، الواردات غير المنظورة التي تأتي من الخدمات والسياحة وتجارة الترانزيت وما يبعث به اللبنانيون في ديار الاغتراب (خاصة الولايات المتحدة وأميركا الجنوبية وغرب افريقية ودول الخليج العربي). وقد أدت الحرب الى نقص في واردات السياحة وتجارة الترانزيت، الا أن النقص عوض عنه ما يحصله العدد المتزايد من اللبنانين العاملين في الخارج، إذ قدر هذا بنحو ١٠٠ مليون ليرة لبنانية شهرياً عامي ١٩٧٧ و١٩٧٨. فالعجز في الميزان التجاري لسنة ١٩٧٨ كان نحو ٢٣٢٠ مليون ليرة لبنانية. وقد سد هذا العجز من المبالغ التي ترسل عادة من ديار الاغتراب وما يحصل عليه اللبنانيون في الخارج. الا

أن الوضع لم يتحسن في السنوات الثلاث الأخيرة. ولا يزال ميزان المدفوعات يشكو من العجز. لكن ثمة موارد أخرى غير منظورة يفيد لبنان منها مالياً.

يستورد لبنان أكثر بضائعه، التي تشمل المعادن الثمينة والحجارة الكريمة والمجوهرات والآلات والأدوات الكهربائية والسيارات والمواد الخام للصناعة من خمس دول تصدر له بنحو نصف حاجاته. وهذه الدول الخمس استورد منها لبنان ١٩٧٨ ما قيمته: ٧١٤ م. ل.ل. من ايطالية و٥٧٤ م. ل.ل. من فرنسا و٣٨٠ م.ل.ل. من المملكة المتحدة و٣٧٥ م.ل.ل. من المانيا الاتحادية و٣٥٠ م.ل.ل. من الولايات المتحدة.

ولكن لبنان لا يصدر الى هذه الدول الا جزءاً صغيراً من منتوجاته. ففي سنة ١٩٧٨ استوردت بريطانية من لبنان ما قيمته ٤٨ م.ل.ل والولايات المتحدة ٤٤م.ل.ل والمانية الاتحادية ٣٠م.ل.ل وايطالية ٢٥ م.ل.ل وفرنسا ١٨ م.ل.ل وقد وقع لبنان اتفاقية مساعدة وتجارة مع السوق الأوروبية المشتركة عام ١٩٧٧، الأمر الذي سيكون عوناً له على تحسين الميزان التجاري مع الغرب.

على أن البلاد العربية هي التي يصدر إليها لبنان منتوجاته. فالمملكة العربية السعودية استوردت من لبنان ٤٠٪ من صادراته (في كل من سنتي ١٩٧٧ و١٩٧٨) واستوردت البلاد العربية بين ٤٥٪ و٤٧٪ في الفترة نفسها.

المصارف والودائع: أهمية بيروت كمركز تجاري ومالي للشرق الأوسط أمر معروف. والودائع في المصارف اللبنانية كانت تزداد في الخمسينات والستينات. ومع أن بنك أنترا أصيب مالياً، فإن المصارف اللبنانية استعادت منزلتها. وقد كان في بيروت ٧٢ مصرفاً (أو وكالات لمصارف) وطنياً وأجنبياً في سنة ١٩٧٥. ومع ان بعض هذه أقفل بسبب الحرب، فإن لبنان فيه الآن ١٠٥ مصارف، بين أجنبي ووطني. وقد كانت الودائع في المدة الأخيرة كالآتي: (١٩٧٥) ١١,٥٠٠ م.ل.ل (١٩٧٨) ١٢,٤٠٠ م.ل.ل. أما في سنة ١٩٨١ فقد تجاوزت قيمة الودائع ٣٠,٠٠٠ مليون وفي سنة ١٩٨٢ كانت الودائع نحو ٦٠,٠٠٠ مليون ليرة لبنانية.

ومشاريع الدولة في السنوات ١٩٧٧ و١٩٧٨ و١٩٧٩ كانت، على التوالي ١,٦٦٢ م.ل.ل و٢,٠٨٣ م.ل.ل و٢,٨٠٦م ل.ل وموازنة السنة الحالية قررت وقيمتها ٧,٥٥٥ م.ل.ل.

ومشاريع التنمية والاعمار، وهي من اختصاص مجلس الاعمار، كثيرة ومهيأة وتنتظر العون المالي الموعود (من حيث المبالغ الضخمة نحو ٢٢٥,٠٠٠ م.ل.ل.)، وان كانت المشاريع الأصغر تزود من مصادر عربية وأجنبية ومن البنك الدولي.

لبنان اليوم يقاسي الأمرين مما يقع فيه يومياً. ومشكلاته، التي كانت كبيرة وعميقة أصلاً، ازدادت عدداً وعمقاً بسبب ما هو واقع فيه. وقد اختلطت الاوراق

ديموغرافياً بسبب تهجير السكان من الجنوب (بسبب غارات اسرائيل) ومن أماكن اخرى بسبب الحرب الاهلية وذيولها. ومن ثم فإن الاقبال على السياحة والزيارة في البلاد اقل مما كان بكثير. ففي سنة ١٩٧٤، مثلاً هبطت في المطار الدولي واقلعت منه ما يزيد عن ٤٤,٠٠٠ طائرة حملت اليه ومنه ٢,٨٠٠,٠٠٠ راكب ومسافر. ونقلت ١٤٦,٠٠٠ طن من البضائع (منه وإليه). وهذا كله تناقص بسبب الحرب. لكن لا تزال شركات الطيران العالمية الكبرى تهبط في المطار ومنها الخطوط الجوية الهولاندية والفرنسية والبريطانية والسوفياتية والأردنية. وشركة طيران الشرق الأوسط، الطيران اللبناني تصل لبنان بالبلاد العربية وغرب افريقية وأوروبة الغربية.

على أن أمرين لا يزال لبنان، وبيروت بشكل خاص، يتميز بهما وهما: دور النشر والطباعة ومعاهد الدراسات العالية فيه. ففي لبنان ما يزيد عن ٢٢٠ داراً للنشر (أكثرها في بيروت). وفيه الجامعة الأميركية (١٨٦٦) وجامعة القديس يوسف (١٨٧٥) والجامعة اللبنانية وقد انشئت سنة ١٩٥١ ولها الآن خمسة فروع، وجامعة بيروت العربية (١٩٥٩) وجامعة الروح القدس (في جونية). وهناك ثلاثة معاهد للدراسات العليا: كلية بيروت الجامعية (١٩٢٦) واكاديمية الفنون الجميلة وكلية المقاصد الطبية (١٩٨١). ويقدر عدد الطلاب الجامعيين في هذه المؤسسات بنحو ٥٠,٠٠٠ (جامعة بيروت العربية تتبع اسلوب الانتساب بالنسبة للكليات النظرية). وفي بيروت المعهد الوطني للموسيقى، وهو مؤسسة أخرى للدراسات العليا.

وما دمنا نتحدث عن معاهد التعليم العالي فلنلم ببقية درجات التعليم في لبنان. التعليم الرسمي في لبنان يشمل التعليم الابتدائي (خمس سنوات) والتكميلي او الاعدادي (أربع سنوات) والثانوي (ثلاث سنوات). ويتبع التعليم الخاص، وهذا فيه نحو ثلاثة أخماس الطلاب، النظام نفسه. ويتقدم الطلاب في نهاية التعليم الثانوي الى امتحان البكالوريا (الأولى والثانية).

وفي البلاد دور معلمين ومعلمات في كل مركز من مراكز المحافظات وهذه لاعداد المعلمين للتعليم الابتدائي. اما اعداد المعلمين للثانويات فيتم في كليات التربية او اقسامها في بعض الجامعات (مثل الجامعة اللبنانية والجامعة الاميركية وكلية بيروت الجامعية).

وهناك مؤسسات لتحضير العاملين في الحقل الاجتماعي، وبعض المدارس المهنية.

ومن مظاهر النشاط الثقافي في لبنان الصحف والمجلات التي تصدر فيه. وهي تعد بالعشرات بين يومية واسبوعية وشهرية وفصلية.

الأهلية للنشر والتوزيع